



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي



قسم العلوم الانسانية

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

صراعات الهيمنة وبسط النفوذ بين دول العالم القديم في حوض البحر المتوسط (480-146 ق م)

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ

تخصّص: تاريخ قديم

إشراف:

أ/د. محمد رشدي جراية

إعداد الطالب:

عمر بوصبيع

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب العائلي	الرتبة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصفة
السعيد شلالقه	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الوادي	رئيسا
محمد رشدي جراية	أستاذ	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
عبد الحميد عمران	أستاذ	جامعة المسيلة	ممتحنا
التجاني مياطه	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الوادي	ممتحنا
عمر كيحل	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الجلفة	ممتحنا
محمد تيكياالين	أستاذ محاضر "أ"	جامعة غرداية	ممتحنا

السنة الجامعية

1441-1442 هـ / 2020-2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

سورة طه: الآية: 114

شكر وعرفان

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

أحمد الله على منه وتوفيقه وإحسانه، أحمده إلى أن وفقني في إنهاء

هذا البحث العلمي الذي أرجو أن أكون قد ساهمت

من خلاله في إثراء مجموعة الأعمال الأكاديمية الوطنية

وأن يكون مادة يفيد منها طلبتنا وباحثينا.

كما أتقدم في هذا الصدد بخالص شكري وامتناني للأستاذ

الذي كانت ملقاؤه عليه مسؤولية الإشراف ومتابعة هذا العمل

من الناحية العلمية والمنهجية، الأستاذ الدكتور محمد رشدي جراية

الذي كان لي المرشد والناقد والموجه خلال سنوات إنجاز هذا البحث.

ولا يفوتني أن أعبر عن جزيل شكري لجميع أعضاء لجنة المناقشة

الذين قبلوا بكل رحابة صدر مناقشة هذا العمل

وتصويبه متمنيا لهم جميعا مزيدا من التألق

والنجاح في مساهمهم العلمي والمهني.

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى روح والدي الذي أطلب من الله أن يتغمده برحمته الواسعة،
والذي كان يجل ويحترم العلم والمتعلمين.

إلى والدتي أبقاها الله تاجا فوق رؤوسنا.

إلى زوجتي وأبنائي الذين قاسموني تعب ونصب العمل والبحث.

إلى جميع أفراد عائلتي، إخوتي وأخواتي.

إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث ولو بالنصيحة والتشجيع من زملائي
وطلبتي الأعزاء.

مقدمة

مقدمة:

توصلت الشعوب القديمة إلى العيش في اطار كيانات سياسية منذ نهاية الألف الرابع ق.م، وإذا كانت الشعوب الشرقية هي السبابة في هذا الأمر مقارنة بغيرها من شعوب الغرب، فإنها كانت كذلك الأسبق في بناء وتأسيس إمبراطوريات سعت إلى بسط نفوذها على مناطق واسعة ودول وقبائل وشعوب أخرى مجاورة لها، فالأكاديون (Les Acadiens) على سبيل المثال تمكنوا نهاية الألف الثالثة ق.م من وضع أيديهم إضافة إلى بلاد الرافدين التي قامت عليها دولتهم، على منطقة عيلام بإيران ومناطق معتبرة من سوريا التاريخية.

أما الحيثيون الذين قامت إمبراطوريتهم في أرض آسيا الصغرى فمدوا مناطق نفوذهم جنوبا إلى العمق السوري لتبسط دولتهم سيادتها على العديد من المدن الفينيقية الساحلية، ولتصدم خلال تقدمها جنوبا بالنفوذ المصري الذي وصل خلال القرن الثالث عشر ق.م إلى تلك المناطق التي خاض فيها الطرفان صراعا داميا انتهى بمعركة شهيرة في التاريخ القديم هي معركة قادش (Qadesh) 1274 ق.م. أما البابليون والآشوريون والكلدانيون الذين ورثوا تباعا إمبراطورية أكد فقد مضوا في هذا الأمر أبعد من غيرهم، إذ وصلت مناطق بسط سيطرتهم إلى غاية بلاد مصر غربا وبلاد فارس شرقا، ومناطق من بلاد الأناضول شمالا إلى الصحراء السورية ومياه الخليج جنوبا.

وإذا كانت أرض الشرق الأدنى القديم قد شكلت مسرحا لولادة وازدهار ثم ضعف وسقوط كل تلك الإمبراطوريات من حوالي منتصف الألف الثالثة ق.م إلى حوالي منتصف الألف الأولى ق.م، فإنها دخلت بعد ذلك تحت حكم إمبراطورية شرقية جديدة هي الإمبراطورية الفارسية التي أسسها الملك قورش (Cyrus) سنة 550 ق.م، على أنقاض دولة الميديين التي ظهرت حوالي 710 ق.م. وقد تميزت دولة الفرس عن غيرها من الإمبراطوريات الشرقية التي سبقتها بأن استطاعت خلال بضعة عقود، وفي ظل حكم ملكين فقط هما قورش وابنه قمبيز (Cambyse) من الهيمنة على كل المناطق والدول التي كانت تحت نفوذ سابقاتها من الإمبراطوريات الشرقية مجتمعة، لتصل حدودها من نهر السند شرقا إلى بلاد مصر

والساحل السوري وكذا شاطئ آسيا الصغرى غربا، ومن سواحل بحر قزوين (Mer Caspienne) والبحر الأسود (Pont-Euxin) شمالا إلى المحيط الهندي ومياه الخليج العربي جنوبا.

ومن ثم استطاع ملوك الفرس التحكم في شعوب كل هذه البلدان سواء من خلال حكم فارسي مباشر أو عن طريق حكام محليين في إطار ما عرف تاريخيا بالحكم الذاتي. وإذا كانت مناطق سيطرة الفرس قد امتدت لتشمل أراض شاسعة من قارتي آسيا وإفريقيا إلى غاية سنة 513 ق.م، وهي السنة التي يرجح فيها عبور الملك داريوس مضيق الهلسبونت (Hellespont) ليعبر بقواته إلى الأرض الأوربية، لإخضاع السكيثيين (Les Scythes) الأوربيين، ورغم فشل حملة هذا الملك الذي عاد فارا من أرض السكيثيين بعد اجتياز نهر الدانوب (Danube)، إلا أنه ظل محتفظا بمناطق أوربية تم إخضاعها في طريقه وهي منطقة تراقيا (Trace) شمال اليونان، وكذلك مقدونيا (Macédoine) التي دخلت في حكمه بعد موافقة ملكها أمينتاس الأول (Amyntas 1^{er}) على طلب الفرس الخضوع لهم بعد عودة داريوس من حملته على السكيثيين.

وإذا كانت دول الشرق قد عرفت تمردا وتوسعا على البر فإن الجهة المقابلة من العالم القديم وهي المنطقة الغربية، عرفت بدورها توسعات وبناء مدن ومستوطنات بفضل حملاتها البحرية، فكان الإغريق هم سادة الحوض الشرقي للمتوسط وبعض مناطق الحوض الغربي خاصة جنوب غرب إيطاليا من خلال ازدهار وتعدد الحضارة الموكينية بعد منتصف الألف الثانية ق.م، تلك الحضارة التي سرعان ما خفّت نورها وانهارت إثر هجمات الشعوب الدورية على بلاد اليونان نهاية القرن الثاني عشر ق.م، فاتحة المجال للمدن الفينيقية في تلك الفترة لسبر أغوار الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط، وبهذا عرفت الجهة الغربية للعالم القديم على وجه الخصوص حضورا فينيقيا لافتا في كل من شمال إفريقيا وجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا بل وصلوا حتى سواحل المحيط الأطلسي وجنوب شبه جزيرة إيبيريا.

على أن الأمر تغير خلال الألف الأولى ق.م ليشهد العالم الغربي للمتوسط ولادة دول وكيانات سياسية جديدة كان أبرزها دولة القرطاجيين (814 ق.م) في شمال بلاد المغرب القديم، وكذلك المدينة الدولة روما (753 ق.م) التي ما لبثت أن تحولت إلى مملكة ثم جمهورية فإمبراطورية مدت نفوذها على

كامل السواحل المتوسطية بعد حوالي ثمانية قرون من تأسيسها، هذا ودون إهمال الحضور الأتروسكري المتجذر في شمال غرب إيطاليا في تلك الفترة، وكذا الوجود الإغريقي في جنوب إيطاليا وشرق جزيرة صقلية، والذي عرف دفعة قوية بعد استعادة بلاد اليونان عافيتها منذ القرن الثامن ق.م، لتظهر حركة هجرة منظمة لأعداد كبيرة من سكان شبه الجزيرة اليونانية كانت مؤطرة من طرف أرستقراطيي المدن الإغريقية عبر سواحل البحر المتوسط وحتى البحر الأسود، بحثا عن أراض زراعية جديدة وكذا موارد تجارية، ولتنتشر بذلك المدن والمستوطنات الإغريقية في الحوض الغربي للمتوسط وتفرض نفسها على المشهد السياسي والاقتصادي والديني والعسكري والثقافي في أغلب مناطق وجزر الحوض الغربي، بعد أن فرضته وبكل قوة في الحوض الشرقي الذي تنتمي إليه بلاد اليونان والذي كان مسرحا لإشعاع الحضارة الإغريقية منذ منتصف الألف الثانية ق.م.

ومع نمو وازدهار هذه الدول الغربية والشرقية، وفي ظل توفر الرغبة لدى كل منها في الهيمنة وبسط نفوذها على أكبر مساحة من الأراضي الخصبة والمناطق ذات المواقع الاستراتيجية سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية أو الأمنية، انفجرت مع بداية القرن الخامس ق.م صراعات عسكرية عنيفة بين دول العالم القديم هدفها السيطرة على هذه البحيرة المتوسطية المعروفة بمناخها المعتدل وأراضيها وافرة المنتوجات الزراعية والثروات الطبيعية المعدنية، وكذا بلدانها التي كانت تمثل سوقا تجارية مربحة مشجعة على الاستثمارات التي لا مجال للخسارة فيها.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أنه منذ أن عرفت دول العالم القديم أهمية المبادلات التجارية ودورها الفعال في تثبيت ودعم السلطة السياسية والعسكرية على مناطق نفوذها، سعت إلى تسهيل طرق تلك المبادلات وتأمينها بجميع الوسائل المتاحة. وبما أن هذه المبادلات بين أقطار العالم القديم لم تكن لتتم دون الطرق البحرية التي تعتبر أسهل وأسلك الطرق مقارنة بتلك البرية، فإن الاهتمام ببناء الأساطيل والموانئ البحرية بهدف تأمين تلك المسالك أصبح أمرا ملحا بالنسبة لهذه الدول، ومن ثم اشتد التنافس بينها في هذا المجال، وما لبث ذلك التنافس أن تحول إلى صراعات وحروب غايتها بسط نفوذ كل دولة

على أكبر قدر من الجزر والموانئ التي تؤمن لها سبل تجارتها الخارجية، و ظهر ذلك الصراع جليا في حوض المتوسط خاصة مع بداية القرن الخامس ق.م.

ومن هنا جاء اختياري لموضوع "صراعات الهيمنة وبسط النفوذ بين دول العالم القديم في حوض البحر المتوسط" محددا لذلك الفترة الممتدة بين سنتي 480 ق.م و 146 ق.م، محاولا تسليط الضوء على الحوض الشرقي الذي عرف محاولات حثيثة من طرف ملوك الفرس للسيطرة على بلاد اليونان واحتلالها، بعد أن تم لهم بسط نفوذهم على جميع أرجاء آسيا الصغرى بما في ذلك ساحلها الغربي الذي كان يضم العشرات من المدن الإغريقية المعروفة تاريخيا باسم المدن الأيونية، على هذا النحو كانت رغبة الفرس واضحة في الولوج إلى بحر إيجه في شمال شرق البحر المتوسط، ومع تعنت المدن اليونانية ورفضها للخضوع للإمبراطورية الفارسية كانت المنطقة مسرحا لصراع دام بين أمة شرقية متطلعة للهيمنة على البلاد الأوربية التي كانت بلاد اليونان وبحر إيجه مفتاحها وبوابتها، وبين أمة أوربية لها تاريخ عريق ومراس شديد في شؤون الحرب البرية بوجه عام والحروب البحرية على وجه الخصوص، وهو الأمر الذي لم يكن الفرس يحسبون حسابه رغم الجيوش العظيمة التي عبروا بها إلى بلاد اليونان.

أما في الجهة الغربية من الحوض المتوسطي وخلال نفس الفترة اندلعت حرب شرسة بين القرطاجيين الذين ورثوا الممتلكات الفينيقية من مستوطنات ومدن وموانئ حربية وتجارية في غربي المتوسط بوجه عام وفي جزيرة صقلية بصفة خاصة، وبين المدن اليونانية في جزيرة صقلية بزعامة سيراكوز (Syracuse) أكبر تلك المدن وأكثرها نفوذا على الإغريق الصقليين. ويعود السبب الظاهر لهذا الصدام إلى تغير واضح في سياسات المدن الإغريقية الاقتصادية، لتتحول من التركيز على زراعة الأرض إلى النشاط التجاري وهو المجال الحيوي للقرطاجيين ليشدد التنافس والاحتكاك بين الطرفين، كما أن الحكام الطغاة الذين أمسكوا بزمام الأمور في الجزيرة حاولوا التسويق لشرعية حكمهم من خلال رفع شعار تطهير جزيرة صقلية من الوجود البربري القرطاجي، وهو الأمر الذي دعوا شعوبهم للالتفاف حوله ودعمه، ومن ثم كان ذلك المبرر القوي لبقائهم على رأس السلطة في تلك المدن رغم تغير المشهد في أمهات مدنها في بلاد اليونان أين ساد النظام الشعبي الديمقراطي في غالبيتها.

مر الصراع القرطاجي الإغريقي في صقلية بعدة جولات تداول الطرفان فيها على النصر والخسارة طيلة ما يزيد عن قرنين من الزمان، وحين أوشك القرطاجيون على وضع أيديهم على أغلب ربوع جزيرة صقلية، استنجد الممارتيون، وهم مرتزقة كمبانيون استقروا منذ زمن في مدينة ميسينا (Messina)، بالرومان في شبه جزيرة إيطاليا لحمايتهم من القرطاجيين والإغريق، وهو الطلب الذي لم تتردد روما في الاستجابة له نظرا لرابطة الدم التي تجمعهم بالكمبانيين الإيطاليين كاشفين بذلك عن طموح واضح في التوسع خارج إيطاليا خاصة بعد أن تم لهم هزيمة وإخضاع جميع خصومهم في إيطاليا سواء من الشعوب الإيطالية أو غيرهم من الأتروسك والإغريق والغاليين.

ومن هنا بدأت في سنة 264 ق.م مرحلة جديدة من الصراع في غرب المتوسط، ذلك الصراع الذي بدأ ثلاثي الأطراف بين روما من جهة وقرطاجة وإغريق صقلية من جهة أخرى، إلا أن الإغريق سرعان ما تم تحييدهم من الصراع ليستمر محتدا بين إمبراطورية غرب المتوسط قرطاج وبين روما، القوة المتوسطة الصاعدة، ولتعيش شعوب غرب المتوسط جميعا بما فيها شعوب شبه جزيرة إيطاليا، جزر صقلية، سردينيا، كورسيكا، جنوب بلاد غالة، جنوب شرق شبه جزيرة إيبيريا و شمال بلاد المغرب القديم حروبا دامية طوال حوالي قرن وربع القرن من الزمان، انتهت بتدمير حضارة متوسطة انعكس إشعاعها على جميع مناطق غرب المتوسط، وهي التي تحولت بمرور الزمن من حضارة سامية شرقية إلى حضارة مغربية إفريقية بفعل التأثير والتأثر الحضاري.

وانطلاقا مما سبق، وبما أن موضوع الدراسة يتعلق بصراعات دولية مسلحة اتسمت بالعنف وبلاستمرارية من خلال سجلات حربية عدة و التي استغرقت عقودا من الزمن، وبعضها الآخر عدة قرون. وبما أن هذه الصراعات كان مسرحها البحيرة المتوسطية بحوضيها الشرقي والغربي بين سنتي 480 و 146 ق.م وهي الفترة التي عرفت تحولا واضحا في موازين القوى الدولية وتداولها متميزا على السيادة وبسط النفوذ في حوض البحر المتوسط، فإنه أصبح بإمكاننا طرح الإشكال الرئيسي التالي:

ما ماهية تلك الحروب والصراعات الدولية المسلحة التي اندلعت في حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي في الفترة الممتدة بين سنتي 480 و 146 ق.م؟

كما يمكننا للإحاطة بجميع أسباب وملازمات وتفاصيل مجريات هذه الصراعات طرح التساؤلات الفرعية التالية:

- ما هي تلك الدول و الإمبراطوريات المتورطة بالصراع الدولي في شرقي وغربي البحر المتوسط ؟
- كيف كانت الطبيعة الجغرافية لبلدان تلك الدول؟ وكيف كان التطور التاريخي للمكونات البشرية لهذه الكيانات السياسية ؟
- ما هي الأسباب والدوافع التي أدت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لاندلاع هذه الحروب البرية والبحرية في سواحل البحر المتوسط الشرقية والغربية؟
- ما هي مجريات الحروب التي دخلت ضمن إطار هذه الصراعات؟ وكيف كانت التحضيرات والاستعدادات المادية والبشرية لها في كل جولة من جولات الحرب؟
- ما هي أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه الحروب والصراعات الدولية خاصة فيما تعلق بنجاح دول في بسط نفوذها على دول أخرى، وكذا نجاح المدن أو الدول في رد العدوان والهيمنة عنها من إمبراطوريات اتصفت بالقوة والعظمة والجبروت؟
- كيف أصبح المشهد الدولي في حوضي البحر المتوسط بعد انتهاء تلك الحروب، من خلال الانعكاسات التي فرضتها هذه الأعمال الحربية طوال أكثر من ثلاثة قرون من الزمان؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات قمت بإعداد الخطة التالية:

حيث قسمت البحث إلى بابين، عنوانت الباب الأول ب: الصراع الدولي في شرق المتوسط

وقد قسمته إلى خمسة فصول معنونة كآتي:

الفصل الأول: الدراسة الطبيعية والبشرية للمناطق المعنية بالصراع

الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع، الفرس والإغريق

الفصل الثالث: بدايات الصراع بين الفرس و الأغريق

الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الفصل الخامس: المعارك الحاسمة بين الفرس والإغريق ونهاية المواجهات

أما الباب الثاني فاخترت له عنواناً: صراع القوى الدولية في الحوض الغربي للمتوسط وقد قسمته بحكم تعدد أطراف الصراع وطول مدته مقارنة بشرق المتوسط إلى ستة فصول معنونة كالآتي:

الفصل الأول: القرطاجيون والإغريق في غرب المتوسط

الفصل الثاني: حروب القرطاجيين ضد الإغريق في جزيرة صقلية (فترة جيلون ودونيس)

الفصل الثالث: حروب القرطاجيين ضد تيموليون وأغاتو كليس

الفصل الرابع: الدولة الرومانية: الجغرافيا، السكان والتطور السياسي

الفصل الخامس: الصراع الروماني القرطاجي، ملابسات الاشتباك وبداية الحروب

الفصل السادس: الحربان البونيتان الثانية والثالثة ونهاية الصراع في غربي المتوسط

وبحكم أن موضوع البحث يتعلق بصراعات وحروب بين دول وإمبراطوريات ومدن في أرجاء الحوض المتوسطي، من أجل فرض سلطة أو بسط نفوذ أو كذلك بسبب رد اعتداء لدول اعتقدت أنه صار بإمكانها وضع يدها على كل منطقة يمكن أن تجلب لها موارد أو تسيطر من خلالها على مسالك تجارية أو مناطق ذات أهمية استراتيجية، وبما أن الأمر عادة في مثل هذه الأبحاث يتم تناوله من البداية، والتي تعني في مثل بحثنا هذا التعرف على تلك المدن المشكلة لأطراف الصراع من حيث الدراسة الطبيعية لأراضيها وحركة تطور مكوناتها البشرية، وبداية ظهور وتأسيس كياناتها السياسية ثم تطورها وتغير أنظمة الحكم بها، لأن كل ذلك سيكون له بالتأكيد علاقة مباشرة أو غير مباشرة باندلاع تلك الأحداث الدامية، ليتسنى لنا بعد ذلك دراسة هذه الحروب والصراعات من خلال خلفيات واضحة وهو ما يساهم في الإلمام بالدراسة العلمية لموضوع البحث. لذلك كان علينا الاعتماد في إنجاز هذه الدراسة على المنهج التاريخي الذي يمكننا من الوصف والسرود والتحليل والمقارنة ومن ثم الإحاطة الجيدة بموضوع البحث.

ومن المؤكد أن موضوع الصراع الفارسي الإغريقي قد تم تناول بعض جوانبه من طرف بعض الدراسات العربية التي تحدثت عنه باقتضاب شديد في إطار دراسة التاريخ الإغريقي أو تاريخ دولة الفرس مثال ذلك مؤلفات الأساتذة سيد أحمد علي الناصري (الإغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت إلى

قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر)، فوزي مكاوي (تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م)، لطفي عبد الوهاب يحيى (اليونان، مقدمة في التاريخ الحضاري)، عبد اللطيف أحمد علي (التاريخ اليوناني العصر الهيلادي)، طه باقر (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة).

أما بالنسبة للصراع في غربي المتوسط فلا شك أن العديد من الدراسات العربية قد تناولت وبشكل مختصر صراع القرطاجيين ضد بعض طغاة المدن اليونانية في جزيرة صقلية مثل دونيس، تيموليون، وأغاتوغليس وذلك في إطار الحديث عن تاريخ القرطاجيين في بلاد المغرب القديم أو في إطار الحديث عن حضارة الإغريق، أما بالنسبة لمرحلة الصراع الأولى ضد جيلون فقد غابت على الأرجح في جميع الدراسات العربية أو المترجمة للغة العربية ونذكر من أهم هذه المؤلفات : ستيفان قزال (تاريخ شمال إفريقيا القديم الجزء الثالث، التاريخ العسكري لقرطاجة ترجمة محمد التازي سعود)، فرانسوا دوكريه (قرطاجة الحضارة والتاريخ ترجمة يوسف شلب الشام) وقد تناول الأستاذ مفتاح محمد سعد البركي موضوع الصراع القرطاجي الإغريقي ليسلط الضوء على أثره على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في قرطاجة.

وفيما يخص الصراع الروماني القرطاجي فقد تم تناوله كذلك في إطار دراسة تاريخ الرومان أو تاريخ القرطاجيين، ومثال ذلك مؤلفات كل من إبراهيم نصحي تاريخ الرومان الجزء الأول)، فرانسوا دوكريه (قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو)، هذا مع وجود بعض الدراسات الجامعية المحلية التي تناولت بشكل جزئي سواء الحروب الميدية في الشرق أو الحروب البونية في الغرب، أما ما تعلق بالحروب الصقلية فتبقى الدراسات المتعلقة بها قليلة ونادرة جدا.

وفي هذا الإطار يمكننا أن نسجل أنه لا توجد دراسة باللغة العربية ولا حتى بالأجنبية سلطت الضوء على الصراعات الدولية في حوضي المتوسط الشرقي والغربي معا وهو الأمر الذي شجعني على خوض غمار هذه الدراسة التي بدأت كل مرحلة فيها من بدايتها، أي بمعنى توضيح الصورة وكشف جميع الملابسات التي يمكن أن تكون لها علاقة بالأحداث موضوع الدراسة، وذلك من خلال التعريف التام بكل أمة كانت طرفا في هذه الصراعات المتوسطة من النشأة والظهور والتأسيس إلى غاية مجريات

الأحداث ثم انتهائها، موضحا في كل مرحلة ما يجب توضيحه من أسباب ودوافع واستعدادات ومجريات ثم نتائج وانعكاسات.

ولذلك كان تركيزي على المصادر القديمة بالدرجة الأولى في أخذ المعلومات المتعلقة بالموضوع فكان هيرودوت (Hérodote) أحد أهم المصادر التي اعتمدت عليها، وهو الذي تفرد بشكل حصري من بين المصادر القديمة في التطرق وبإسهاب للعديد من الموضوعات المهمة في التاريخ القديم والتي تتقاطع مع موضوع البحث مثل تاريخ دولة الفرس من التأسيس في عهد الميديين سنة 710 ق.م على يد ديجوساس (Déjocès) إلى غاية عهد كل من قورش وداريوس وكزاركسيس، وهو كذلك المصدر الأساسي الذي نقلت عنه المصادر القديمة التي ظهرت بعده وكذا الدراسات الحديثة - وخاصة الأوربية - تاريخ الحروب الميديّة التي تضمنت جميع مراحل الصراع الفارسي الإغريقي.

كما مثل هيرودوت أحد المصادر الأساسية التي تطرقت وبشكل مستفيض للحديث عن تاريخ الإغريق في العصر الهيليني وكذلك عن تاريخ الفينيقيين والقرطاجيين خاصة في بداية صراعهم مع الإغريق في صقلية وتنسيقهم مع الملك الفارسي كزاركسيس في الهجوم على بلاد اليونان والمدن الإغريقية في هذه الجزيرة، وهو ما يفسر تزامن حدوث معركتي سلامين (Salamine) في بلاد اليونان، وكذلك هيميرا (Himère) في صقلية.

أما ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) فكان له دور واضح في إفادتنا بكم معتبر من المعلومات الدقيقة التي تخص أحداث الحروب الميديّة، أما بخصوص الصراع القرطاجي الإغريقي في جزيرة صقلية كان هو المصدر الوحيد الذي انفرد بالحديث عنه بنوع من التفصيل والتحليل والإحاطة التامة به. على أن هناك مصادر أخرى لا ننكر فضلها في تنويرنا بمعلومات قيمة في هذه المرحلة من الصراع مثل المؤرخ الإغريقي ثوكيديديس (Thucydide) في كتابه (Histoire de la guerre du Péloponnèse)، وبوليبيوس (Polybe) في كتابه (Histoire générale) وكذلك بلوتارخوس (Plutarque) في كتابه (Les vies des hommes illustres) وذلك من خلال حديثه عن سير بعض القادة والحكام الإغريق

مثل تيميستوكل (Thémistocle) بطل معركة سلامين، أريستيد (Aristide) بطل معركة بلاتيا، وتيموليون (Timoléon) أحد حكام سيراكوز.

أما فيما تعلق بالصراع القرطاجي الروماني فكان المصدران الأساسيان لنا في هذا الجزء هما بوليبيوس الذي ذكرناه سابقا وكذلك المؤرخ اللاتيني تيتوس ليفيوس (Tite-Live) في كتابه (Histoire Romaine) والذي أفادنا كذلك في الإحاطة بتاريخ دولة الرومان من التأسيس إلى غاية العصر الجمهوري، وهو العصر الذي خاضت فيه روما حروبا طاحنة من أجل إخضاع شعوب شبه جزيرة إيطاليا لسلطتها (509-265 ق.م) لتتفرغ بعد ذلك لحرب القرطاجيين.

أما بالنسبة لأهم المراجع التي اعتمدت عليها فكان أغلبها أجنبيا نظرا لوفرة المعلومات والمادة العلمية بها مقارنة بالمراجع العربية، فكانت أعمال كل من: جون ملكولم (John Malcolm) في كتابه (Histoire de la Perse depuis les temps les plus anciens à l'époque actuelle)، و ت. د. رافني (T.D.Raffenet: Résumé de l'histoire de la Perse depuis l'origine de l'empire) (des Perses jusqu'à ce jour) و ر. قرزيمان (R.Ghirshman)، في كتابه (L'Iran et la migration des Indo-Aryens et des Iraniens) قد مثلت أهم المراجع التي أخذت منها المعلومات الخاصة بالطبيعة الجغرافية والدراسة البشرية لبلاد فارس .

أما بالنسبة لآسيا الصغرى فكان مرجعي الأساسي الذي اعتبره من المراجع النادرة في العالم التي تناولت تاريخ آسيا الصغرى القديم من حيث الدراسة الطبيعية والبشرية وكذلك التاريخ السياسي لها وهو فيليب لوبا (Philippe le Bas) من خلال مؤلفه (Asie Mineure Depuis les Temps les Plus Anciens jusqu'à la bataille d'Ancyre en 1402)، هذا مع الاستعانة بما جاء في كتاب لوي فيفيان دو سانت مارتان (Louis Vivien de Saint Martin) المعنون ب: (Description historique et géographique de l'Asie Mineure)، أما فيما يتعلق بطبيعة وشعوب شبه جزيرة اليونان فقد أسهبت المراجع العربية في دراستها والاحاطة بها، لذلك أخذت عنها كما من المعلومات

المهمة وأذكر من أهم تلك المراجع سيد أحمد علي الناصري وعبد اللطيف أحمد علي من خلال كتابيهما المذكورين سابقا.

وفي ما يخص التطور السياسي لدولة الفرس وكذلك الحروب الفارسية الإغريقية فقد اعتمدت خلال تغطيتي العلمية لهذه المواضيع وبالموازاة مع أهم المصادر المذكورة سابقا على مراجع متخصصة مثل :

فرانسوا لينورمون (François Lenormant) صاحب كتاب (Manuel d'histoire ancienne de l'Orient jusqu'aux guerres Médiques)، وبيار بريون (Pierre Briant) صاحب مؤلف (Histoire de l'empire perse de Cyrus à Alexandre)، وكذلك كل من بيتر قرين (Peter Green) صاحب كتاب (Les Guerres médiques)، وهنري بيغايم (Henri Pigaillem) من خلال كتابه (Salamine et les Guerres Médiques 480 Avant Jesus-Christ).

أما بخصوص الصراع في غربي المتوسط وتحديدًا في جزيرة صقلية بين القرطاجيين والاعريق فقد استفدت بكم معتبر من المعلومات المهمة من خلال كل من كتابات كل من خالد ميليتي (Khaled Melliti) ومؤلفه (Histoire d'une métropole méditerranéenne) وكذلك ماري كلير أمورييتي (M.C.Amouretti) ومؤلفها (Le Monde Grec Antique). أما الجزء الأخير من موضوع البحث والخاص بالصراع القرطاجي الروماني فقد اعتمدت في تحريره وبناء أفكاره على مراجع كان لها الفضل الكبير في توضيح وتحليل كثير من خبايا أحداثه وملابساته و التي أذكر من أهمها : فرانسوا إينار (François Hinard) مؤلفه (Histoire Romaine) ، ويان لوبواك (Yann le

(Bohec) مؤلفه (Histoire militaire des guerres puniques)، وسيرج لونصل (Serge Lancel) من خلال كتابه (Hannibal).

وفي الأخير أنهيت بحثي بخاتمة أوردت فيها ما تمكنت من استخلاصه من استنتاجات عن كل مرحلة من مراحل البحث، وما توصلت إليه من نتائج عامة تخص الموضوع ، متمنيا أن أسجل من خلال هذا العمل إضافة لمجهودات الباحثين الجزائريين في إثراء الرصيد الوطني والعربي من البحوث العلمية المؤلفة باللغة العربية والتي لا يجد الطلبة والباحثين إلى يومنا هذا ما يصبون إليه فيها من المادة العلمية الكافية التي تلبي حاجاتهم العلمية .

الباب الأول

الصراع الدولي في شرقي المتوسط

الفصل الأول

الدراسة الطبيعية والبشرية للمناطق

المعنية بالصراع

I- دراسة جغرافية وبشرية لبلاد فارس

II- آسيا الصغرى : الدراسة الطبيعية والبشرية

III- شبه جزيرة اليونان : الدراسة الطبيعية والبشرية

I- دراسة جغرافية وبشرية لبلاد فارس

1- الدراسة الطبيعية

يصف سترابون (Strabon) بلاد فارس فيقول أنها تلك البلاد التي تلي كرمانيا (la Carmanie)¹ وأنها تمتد من الخليج الفارسي في الجنوب إلى الأرض التي تقطنها الشعوب الميدية في الشمال². أما بلين الكبير (Plin l'Ancien) فيشير إلى أن بلاد فارس أو مملكة فارس بالأحرى كان يملكها في زمنة البارثيون (les Parthes) وأنها تقع بين بحر هير كانيا (Hyrcanie)، ويقصد به بحر قزوين (Mer Caspienne) وبين بحر الفرس، ويقصد به الخليج الفارسي ويصف أرضها بأنها هضبه مرتفعة تتجاوزها سلسلة جبال القوقاز (Caucase)³.

وفي حقيقة الأمر فإن بلاد فارس أو إيران⁴ كما يسميها بعض الباحثين تأخذ أرضها شكل مرتفع أو هضبه ثلاثية الأضلاع تصل بين آسيا الوسطى وآسيا الغربية، البوابة التي تؤدي إلى آسيا الصغرى ومن ثم إلى أوروبا⁵.

تم استخدام مفردتي فارس وإيران للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، ولكن في حقيقة الأمر لم يكن المصطلحان متطابقان تماما لأن تسمية إيران هي الأقدم وتعود إلى كلمة إيرانا فيجا أي موطن الآريين ثم تطورت التسمية لتصبح بلاد إيران⁶.

¹ - كرمانيا: مقاطعة آسيوية كبيرة تحدها من الشمال بارثيا (Parthie)، من الغرب فارس (la Perside) والباريتاسان (la Parétacène)، من الشرق أريا (Arie)، جيدروديا (la Gédrosie) ودرديانا (la Dardaigne) أما من الجنوب فيحدها الخليج الفارسي، وهي تنقسم إلى قسمين كرمانيا الجرداء في الشمال وكرمانيا الحقيقية أو الفعلية (Propre) في الوسط. أنظر: M.N. Bouillet, Dictionnaire Classique de l'Antiquité Sacrée et Profane, Tome1, Librairie classique-élémentaire de Belin Mandar, 4^{ème} éd, 1841, p 238.

² Strabon, Géographie de Strabon, Texte traduit par Amédé Tardieu, Tome premier, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1867, Livre XV, 3, 1.

³ Plin L'Ancien, Histoire Naturelle, Texte traduit par M.E.Littre, J.J.Dubochet, le Cavalier et comp. Editeurs, Paris, 1850, Livre VI, 16,1.

⁴ - أول من إستعمل مصطلح "أريانا" (Ariane) الجغرافي الشهير أراتو شينيز (Ertaosthene) (القرن الثالث ق م) الذي كان مديرا لمكتبة الإسكندرية الشهيرة، والذي كانت بحوزته الكتابات والمعلومات التي جمعها موظفو الإسكندر، ويرجح أن هذا المصطلح يعود إلى العهد الأخميني حيث أنه ورد في التراتيل والصلوات الدينية. أنظر طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج2، بيت الورق للطبع والنشر والتوزيع، بغداد، 2011، ص417.

⁵ - نفسه.

⁶ - أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم: تاريخ العراق-إيران- آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000، ص299.

وقد استخدم الجغرافي "آراتو شينز" الذي كان مديرا لمكتبة الإسكندرية في القرن الثالث ق.م مصطلح "بلاد إيران" أو "آريانا". والأري بمعناها الذي يعني "النبيل" أو "السيد" ويبدو أنها تسمية عامة لأولئك الذين يتحدثون اللغة الهندوأوروبية الشرقية، والذين قدموا إلى المنطقة الواقعة بين نهري الكانج والفرات عند نهاية الألف الثاني ق.م وبداية الألف الأول ق.م¹.

أما كلمة فارس فأول من أطلقها هم الإغريق، وقد ارتبط هذا الاسم بإقليم بارسا (Parsa) في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة، ثم حرف الاسم عند الإغريق ليصبح برسيس Persis، ليطلق عليها العرب كلمة (فارس)². وبالرغم من أن بارسا لم تكن سوى جزء أو اقليم واحد في إمبراطورية عظيمة، إلا أنها استمدت شهرتها من كونها مسقط رأس الملوك الأخمينيين الذين كونوا البيت الحاكم الفارسي، وأطلقت هذه التسمية بواسطه الإغريق على الإمبراطورية كلها بشكل عام³.

والجدير بالذكر أن حدود المملكة الفارسية لم يكن ثابتا بل كان متغيرا حسب توسعات هذه المملكة، فقد بلغت في زمن بداية ازدهارها من جهة الشرق والشمال الشرقي إلى نهري الهندوس (Indus) والأكسوس (Oxus) الذي يسمى بالعربية نهر جيهان ومن الشمال إلى بحر قزوين وهضبة القوقاز ومن الجنوب والوسط إلى المحيط الهندي (L'Océan indien) والخليج الفارسي (le Golfe Persique)، أما من الغرب فيحدها نهر الفرات⁴. (انظر ملحق 1 خرائط)

أما بعد العهد الأخميني فقد أصبحت إمبراطورية فارس تبسط نفوذها وتنتشر رقعتها على ثلاث قارات: آسيا، إفريقيا، وأوروبا لتصل حدودها إلى البحر القزويني والبحر الأسود (-le Pont Euxin) من الشمال والبحر المتوسط، الجزيرة العربية وصحراء ليبيا من الغرب مع المحافظة على حدودها الشرقية والجنوبية⁵. (أنظر الملحق 2 خرائط)

¹ - أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 299.

² - نفسه.

³ - نفسه، ص 300.

⁴ - John Malcolm, Histoire de la Perse depuis les temps les plus anciens à l'époque actuelle, Tome premier, Pillet Ainé imprimeur-Libraire, Paris, 1821, pp 02-03.

⁵ - T.D.Raffenet, Résumé de l'histoire de la Perse depuis l'origine de l'empire des Perses jusqu'à ce jour, Le Cointe et Durey Libraire, Paris, 1825, p 03.

قسم سترابون بلاد فارس من الجنوب إلى الشمال إلى ثلاث مناطق باعتبار المناخ وطبيعة الأرض، فذكر في الجنوب منطقة بحرية حارة، رملية فقيرة من حيث الإنتاج ما عدا ثمار النخيل والتي يمثل نهر الأوراتيس (Oraotis) حدا لها. و منطقة ثانية تقع فوق تلك المذكورة سابقا وهي غنية من حيث الإنتاج المتنوع، بها سهول وأراضي خضراء تصلح للرعي كما أن بها أنهارا وبحيرات. أما المنطقة الثالثة الشمالية فهي باردة وجبلية يقطن في اقصى حدودها رعاة يستعملون الجمال¹ (Conducteurs de chameaux).

وإذا كانت ارض إيران تتخذ شكل هضبة، فإن السلاسل الجبلية كانت تحيط بها من جهتي الغرب والشمال، فمن الغرب كانت سلسلة جبال زجروس (Monts Zagros) وهي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي لتفصل بين بلاد فارس والصحراء، ويبلغ طول هذه السلسلة حوالي 620 ميلا وعرضها حوالي 120 ميلا ويبلغ طول أعلى قمة بها 3280 قدما².

وفي القسم الأوسط من هذه السلسلة عرف تاريخ المنطقة نشأة دولة ميديا (Médie) حوالي منتصف القرن الثامن (8) ق.م. تلتقي سلسلة جبال زجروس المتجهة نحو الشمال مع سلسلة جبال طوروس القادمة من شرق جنوب آسيا الصغرى ليتشكل من التقاء السلسلتين جبال آارات (Ararat) على تخوم القوقاز أو مازيس (Masis) كما يسمونها الأرمنيون³. والجدير بالذكر أن سلسلة جبال زجروس كانت تتكون من مجموعة سلاسل متوازية تخترقها أودية يتراوح طولها بين 30 و 60 ميلا وعرضها بين 6 و 12 ميلا⁴. (أنظر ملحق 3 خرائط)

أما من الجهة الشرقية لبلاد فارس فتمتد سلسلة جبال "البرز" "Elbourz" المعروفة بأعلى قمة لها وهي قمة جبل "دمفوند" (Damovand) شمالي طهران الحالية، والذي سمي في المصادر المسمارية القديمة بجبل "بكني" أي جبل الأزورد والذي يصل ارتفاعه إلى 19000 قدم. تمتد هذه

¹ - Strabon, op.cit, XV, 3,1.

² - طه باقر، المرجع السابق، ص 418.

³ - احمد محمود الخليل، مملكة ميديا، مطبعة روزبه لات، أربيل، 2011، ص 23.

⁴ - طه باقر، المرجع السابق، ص ص 417-418.

السلسلة بمحاذاة الساحل الجنوبي لبحر قزوين وهي تتوغل في الغرب لتنتهي في آذربيجان الإيرانية المعروفة ببحيرة "أومية" المالحة¹.

ويبدو من خلال التأمل في طبيعة إيران الداخلية أنها خليط بين عدد من السلاسل الجبلية والوديان والصحاري المترامية الأطراف والغابات الجميلة. أما سهول فارس فإذا كانت المنطقة الشمالية المحاذية لبحر قزوين جبلية كما سبق ذكر ذلك، فإن المنطقة الجنوبية المطلة على المحيط الهندي والخليج الفارسي تتسم بالتشابه في جميع جهاتها في سهول متتالية رملية ولا يغير من مشهدها سوى تلك المساحات المغروسة بأشجار النخيل أو تلك الحقول المزروعة والتي تتجمع حول آبار السقي².

ولا تقتصر المناطق الصحراوية على جنوب إيران فقط، بل تمتد إلى وسطها، ففي هذه المنطقة توصف الصحراء بانخفاضها وشساعتها وهي من أكثر المناطق قحطا وجفافا وهي تنقسم جغرافيا إلى جزئين كبيرين هما صحراء دشتي كوبر (Dasht-e Kavr) في الشمال وصحراء دشتي لوط (Desht-e lout) في الجنوب³.

أما بالنسبة لغابات إيران فهي تنتشر في شمال شرق كردستان وفي مناطق فارس أي وسط المملكة، وكذلك خراسان (Khorassan)، تلك الغابات التي بها بعض الأشجار العالية، وإذا كانت عموم الجبال في إيران عارية أو مكسوة هنا وهناك ببعض المجموعات من الأشجار فإن جبال المازوندان (Mazondan) وجورجيا (Géorgie) كانت في الحقيقة مغطاة بالغابات⁴.

ورغم أن إيران كانت محاطة بالجبال كما سبق ذكر ذلك، إلا أنها كانت منفتحة على الجهات الأربع، وقد ساهم في ذلك تلك المسالك الموجودة بين الجبال، فعلاقتها كانت ضاربة في القدم مع بلاد ما بين النهرين وروسيا والهند، وبالرغم من تموقع بلاد فارس ما بين حضارتين

¹ - طه باقر، المرجع السابق، ص418.

² - John Malcolm, op.cit, pp 02-03.

³ - طه باقر، المرجع السابق، ص419.

⁴ - John Malcolm, op.cit, p 06.

قائمتين على أنهار عظيمة مثل حضارة ما بين النهرين وحضارة وادي السند،¹ إلا أن هذه الأخيرة لم يكن لها أي مجرى مائي أي يصلح للملاحة، فكانت أنهار الكارون (le Karoon) كوزيستان (Khuzistan)، الأراس (Arras) والأراكسان (Araxes)، في أذربيجان (Aderbijan) والهيرموند (Heirmund) الذي يجري في مقاطعة سيستان (Seistan) في الحقيقة أكبر أنهار هذه البلاد الشاسعة².

أما عن مناخ هذه البلاد فكان مختلفا باختلاف تضاريسها وكان لعامل علو الأرض وانخفاضها الدور الكبير في ذلك الاختلاف، وبما أن الجزء الكبير من البلاد كان يتكون من سهول واقعة على سفوح السلاسل الجبلية، ومناطق أخرى مرتفعة واقعة بالقرب من قمم هذه الجبال، لذلك نلاحظ تغيرا في درجة الحرارة من الصيف إلى الشتاء، ومع ذلك يبقى مناخ المملكة صحي، وهو ما انعكس على صحة سكان البلاد الذين كانوا يتغنون بامتلاكهم رجالا أقوىاء مفعمين بالحيوية والنشاط³.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الميزة التي حددت إمكانيات إيران، خاصة فيما يتعلق بنشوء حضارات بها، هي ظروف الجفاف النسبي ومحدودية الأراضي الصالحة للزراعة والقبالة للري بالأنهار، مما اضطر الفلاحين إلى اتباع طريقة المهجرات الموسمية من الوديان إلى الجبال و بالعكس للمحافظة على قطعانهم⁴. وبما أن العنصر المتحكم في جفاف الأرض ونسبة خصوبتها هو التساقط فإن الأمطار بمنطقة إيران وباستثناء ناحية الميزوندران (Mazenderan)، فهي ليست بالكثيرة التساقط أو النزول بالمنطقة أو النادرة النزول وهذا الخلل أو العيب في وفرة الماء كان يعتبر كعنصر أو عامل مؤدي إلى عدم خصوبة الأرض في هذه البلاد⁵.

أما بالنسبة لإنتاج بلاد فارس من عائدات المزروعات، فلا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن في إيران مثل ما هو في العراق من مناطق زراعية كثيرة تتميز بالاستمرارية من خلال اعتمادها على

¹ - طه باقر، المرجع السابق، ص 419.

² - John Malcolm, op.cit, p 07.

³ - Ibid, p 08.

⁴ - طه باقر، المرجع السابق، ص 421.

⁵ - John Malcolm, op.cit, p 07.

الراي من الأنهار.¹ ولكن هذا لم يمنع سكان إيران من العمل من أجل إيجاد حلول لهذا الإشكال من خلال بذل مجهودات مضيئة للتغلب على خلل قلة المياه²، ومع وجود الكثير من المناطق الخصبة كما أشار إلى ذلك سترابون، فعلى مستوى جبال خراسان مثلاً التي تتفرع عن جبال البرز من جهة الشرق، وهي في الحقيقة جبال قليلة الارتفاع وسهلة العبور وتحوي وديان خصبة يكثر فيها انتاج الحبوب والأرز والقطن والكروم والخشخاش وبذلك فهي تعتبر مطمورة إيران للغلال.³ وفي وديان بلاد فارس الوسطى تكثر المنتوجات الفلاحية خاصة النادرة منها والتمينة، فبساتينها تنتج كل في ثمار المنطقة المعتدلة، أما في المناطق البرية فتكثر فيها الأزهار التي لا يمكن الحصول عليها في أوروبا إلا بعناية كبيره⁴. لذلك من المهم أن نعرف عن إيران أنها كانت لها موارد طبيعية لافتة، فهي موطن أشجار مثمرة وأرض منتجة للحبوب وتربي فيها حيوانات صالحة للتدجين.⁵ أما القطعان فلا يمكن أن نجد أرضاً أفضل من هذه البلاد لممارسة الرعي بها، كما أن جيادها وكلاهما كانت لها قامات عالية وقوة وجمال رائع.⁶ أما من حيث المعادن والأحجار النفيسة فإيران تعتبر موطن الحجارة الجيدة مثل المرمر والرخام وبعض الأحجار الثمينة مثل اللازورد (Lapis lazuli) والفروز (Turquoise) والعقيق⁷.

وقد استخرجت هذه الحجارة من أرض إيران منذ أقدم العصور حيث شكلت المصدر المهم للأمراء السومريين الأوائل⁸. كما كان بإيران معادن مثل النحاس والحديد والقصدير والرصاص، وعرفت سفوح جبال زجروس ومنحدراتها بحجارة الكلس، وبالنفط الذي كان معروفاً منذ أقدم الأزمان⁹، إلا أنه على ما يبدو لم تكن كميات هذه المعادن تكفي حاجة بلاد فارس، لذلك

¹ - طه باقر، المرجع السابق، ص 421.

² - John Malcolm, loc.cit.

³ - طه باقر، المرجع السابق، ص 419.

⁴ - John Malcolm, op.cit, p 07.

⁵ - طه باقر، المرجع السابق، ص 421.

⁶ - John Malcolm, op.cit, pp 06, 09.

⁷ - احمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 313.

⁸ - طه باقر، المرجع السابق، ص 421.

⁹ - نفسه.

كانت تتلقى من البلدان الأخرى معادن مثل الرصاص (Plomb) والحديد وكذلك الذهب (l'or) والفضة (l'argent)¹.

2- الدراسة البشرية

أما عن المكونات السكانية لمنطقة إيران ومنذ أقدم العصور، فيحدثنا المؤرخ والأثري الفرنسي رومن جيرشمان (Roman Ghirshman) أن الإيرانيين (les Iraniens) والهندآريين هما شعبان ينحدران من فرع يسمى الآريين (les Arayens)، وهذا الأخير يعتبر فرع شرقي من الهند وأوروبيين، ويشير جيرشمان إلى أن لغات هذين الشعبين تختلف الواحدة عن الأخرى، كما اختلفت فترات وصولهم إلى بلاد إيران. وإذا كان الهندآريين قد ظهروا في شمال شرق الهند نهاية الألف الرابع ق.م، فإن الإيرانيين لم يلتحقوا بهم إلا بعد ألفيتين من ذلك الزمن، وإن كانت المعلومات شحيحة عن الهند آريين في إيران، فانة بالنسبة للإيرانيين يكون الأمر مختلفا، فنحن نعلم من خلال الدراسات أنهم يضمون شعوب الميد (Les Mèdes) والفرس (Les Perses) وأنهم جاؤوا إلى الهضبة التي أعطوها اسمهم وأشياء أخرى تتعلق بثقافتهم وعلاقاتهم بالدول والقوى الأخرى الكبرى المجاورة لهم².

ويبدو أنه بحلول بداية الألف الأول ق.م كانت القبائل الإيرانية قد أصبحت من المكونات السكانية لهذه المنطقة من خلال تواجدها ببلاد إيران، وهذا ما أشارت إليه كتابات الملك الأشوري شلمنصر الثالث (Salmanazar III) في عام حكمة السادس عشر (16) أي سنة 843 ق.م، وكذا عام حكمة الرابع والعشرين (24) أي سنة 835 ق.م، حيث اتصلت الجيوش الأشورية في حملاتها على جبال زجروس بقبائل إيرانية كثيرة، ذكر منها الملك اسم قبيلتين هما أماداي (Amadai) ومادا (Mada) أي الميديون وباروس أو (Parsa) أي فارس ويبدو أن تلك القبائل كانت لا تزال في حالة تنقل وحركة بين بحيرة أوروميه (Lac Ourmia) ونجد وهدان³.

¹- John Malcolm, op.cit, p 09.

²- R.Ghirshman, L'Iran et la migration des Indo-Aryens et des Iraniens, Leiden E.J. Brill Edition, Netherlands, 1977, P 45.

³ - طه باقر، المرجع السابق، ص ص 433-434.

وبخصوص تسمية الإيرانيين بلادهم إيران يرى الباحث الفرنسي لويس نيكولاس مينار (Louis Nicolas Ménard) أن تسمية الإيرانيين تعني جميع شعوب عائلة الآريين أو الأرياس (Aryas) الذين قطنوا المنطقة الشاسعة المحصورة من الشمال إلى الجنوب بين البحر القزويني ، نهر الأكسوس (l'Oxus) والبحر الأريتيري (La Mer Erytérienne)، ومن الشرق إلى الغرب من حوض دجله (Tigre) ونهر السند (l'Indos)، ويشير الباحث إلى أن تسمية إيران ما هي إلا تحريف لاسم أريان (Aryans) المكان الذي سكنته شعوب الأرياس (Aryas)¹.

أما عن مناطق قدوم الإيرانيين وخط سيرهم إلى إيران أو بلاد فارس، فالراجح أن هذه الشعوب الإيرانية كانت هجراتها جزء من هجرات الشعوب الهند أوروبية التي كانت تتكلم اللغات الهندو أوروبية والتي كانت تعيش في خلال الألفية الثالثة ق.م في الأقسام الجنوبية من روسيا في السهوب الواسعة (سهوب أوراسيا)، والتي كانت تعيش في شكل قبائل يحكمها رؤساء أو ملوك ينتخبون في الأسر النبيلة، يساعدهم في الحكم مجالس للشورى من وجهاء تلك القبائل وكذلك رجال من المحاربين².

وقد شلكت القبائل الهند أوروبية خلال هجراتها التي بدأت قبل نهاية الألف الثالث ق.م، عدة اتجاهات نحو إيطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى، لتسلك أقوام من أولئك الهند أوروبيين إتجاه الشرق ويمكن أن يكون قد سمي هذا الفرع بالفرع الهندو إيراني³.

ويبدو أن قدوم الإيرانيين إلى إيران كان على دفعتين متتاليتين التقتا من جهة الشمال وأحاطتا بالبحر القزويني واحدة منها للإيرانيين الغربيين (les Iraniens occidentaux) الميّد والفرس والذين دخلوا إيران الغربية من جهة القوقاز (Caucase) في حوالي نهاية الألف الثاني ق.م، أي في بداية عصر الحديد أو العصر الحديدي الأول، والأخرى للإيرانيين الشرقيين (les Iraniens orientaux) وهم من سيصبحون فيما بعد الهيركانيين (les Hyrcaniens)، البارثيين (les Parthes)، الأريين (les Ariens)، الكوراسميين (Chorasmiens) والصوغديين (Sogdiens) الذين وصلوا إيران الشرقية بعد ذلك، أي خلال الألف الأولى ق.م في عصر الحديد

¹ - Louis Ménard, Histoire des anciens peuples de l'Orient, Librairie CH.Delagrave, Paris, 1883, p 551.

² - طه باقر، المرجع السابق، ص432.

³ - نفسه، ص433.

المتأخر أو العصر الحديدي الثاني وكانوا في قبائل كثيرة العدد حيث انتشروا في المناطق التي أخذت أسماءهم فيما بعد¹.

والملاحظ أيضا أن قبائل أخرى من الفرع الهندو إيراني الشرقي قد سلكت نفس طريق القبائل الإيرانية غير أنها استوطنت بالقرب من مضارب الحوريين، وأقاموا بينهم دولة ميتاني، ويمكن أن تكون القبائل الكردية من هذه الهجرة أي من الميتانيين²، وقد سميت المناطق التي استقر فيها أسلاف الكرد بميديا الكبرى، وكانوا يضمون اليهم أقوام لولوكاتي سوبراتي (Subartu)، وحوري (ميتاني) (Hourrites Mittanni) وماناي، خلدي (أورارتو نايري). وكاشو (Kassites)³ وهم الكاشيون الذين أسسوا سلالة حاكمية في العراق⁴. ومن هذا الفرع الشرقي أيضا قبائل مهمة اتجهت شرقا وعبرت ما وراء النهر ومنطقة سيحون واجتازت هضبة الهندوكوش وغزت بلاد الهند، أما القبائل الإيرانية فقد استقرت بإيران وحدث من جراء ذلك تغيرات جوهرية في الخارطة السكانية لهذه البلاد وتاريخها بمجيئ تلك القبائل⁵.

ومن الواضح أن أهم وأقوى القبائل الإيرانية خلال النصف الأول من الألف الأول ق.م كانت قبيلتا (شعبا) الميد والفرس، أما الميد فهم على صلة وثيقة بالفرس وقد تم ذكرهم في المدونات الآشورية في القرن التاسع ق.م، كما ادعى كل من الملكين الآشوريين تجلات بلاسر الثالث (Tagilathpileser III) (747-728 ق.م) وسرجون الثاني (Sargon II) أنهما ألزما الميد بدفع الجزية، وجاء وصفهم في الكتابات الآشورية على أنهم شعب قبلي لم يتحد تحت لواء ملك واحد⁶. أما الفرس فيقول بلين أن عاصمتهم كانت تسمى سوس (Suse) وهي التي أسسها داريوس (Darius) أبن هيستاسب (Hystaspe)⁷.

¹ - R.Ghirhman, op.cit, p46.

² - طه باقر، المرجع السابق، ص433.

³ - أحمد محمود الخليل، مملكة ميديا، مؤسسة موكراني للبحوث والنشر، أبريل، 2011، ص ص25-26.

⁴ - طه باقر، المرجع السابق، ص433.

⁵ - نفسه، ص 433.

⁶ - أحمد محمود خليل، المرجع السابق ص26.

⁷ - Plinie l'Ancien, op.cit, VI, XXXI, 7.

II- آسيا الصغرى الدراسة الطبيعية:

1- الدراسة الطبيعية

تُعرفُ آسيا الصغرى (Asie Mineure) منذ أقدم العصور على أنها شبه جزيرة شاسعة المساحة تقع في أقصى غرب قارة آسيا، فهي الجزء من تلك القارة الأقرب إلى أوروبا ولا يفصلها عن بلاد اليونان غير بحر إيجه وجزره، وبحكم هذا الموقع فهي تقع تقريباً على نفس خطوط العرض مع إسبانيا وإيطاليا وشبه جزيرة اليونان، يحدها من الشمال البحر الأسود ومن الغرب بحر مرمرة وأرخييل الجزر الواقعة على بحر إيجه، أما من الوسط الغربي والجنوب فيحدها البحر المتوسط،¹ وبذلك فهي تلامس البحار من ثلاث جهات.²

أما من الجهة الشرقية فهي تتوغل في قارة آسيا وتمثل منابع نهر الفرات حدوداً لها من الجهة من هذه الناحية تفصلها عن أرمينيا وبلاد الرافدين، وجنوباً على مستوى اليابسة فتمثل سلسلة جبال الأمانوس (Amanus) حداً بينها وبين سوريا، تلك البلاد الجنوبية التي يمكن الولوج إليها على مستوى منطقة كيليكيا (Cilicie).³

يبلغ طول هذه الجزيرة من الشرق إلى الغرب حوالي 900 كيلومتر ويقدر أكبر عرض لها بحوالي 640 كيلومتر وهي تقريباً مساوية لطول وعرض فرنسا. وفي حقيقة الأمر ليس هناك اختلاف كبير بين تضاريس آسيا الصغرى بصفة خاصة عن الخصائص الطبيعية التي تميز قارة أوروبا بصفة عامة،⁴ فيمكن القول أن منطقة آسيا الصغرى تأخذ شكل الهضبة التي تبدأ بالارتفاع تدريجياً من شاطئ البحر الإيحي غرباً إلى جبال أرمينيا شرقاً⁵ ولا يسجل هذا الإطار انخفاض

¹ - Philippe le Bas, Asie Mineure Depuis les Temps les Plus Anciens jusqu'à la bataille d'Ancyre en 1402, Librairie de Firmin Didot et Cie, Paris, SDI, pp 01-02.

² - نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، د.ب.ن، د.س.ن، ص 03.

³ - Philippe le Bas, Op.cit, p 02.

⁴ - Ibid.

⁵ - عبد الحميد زايد، الشرق الخالد- مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام 323 ق م، دار النهضة العربية، القاهرة، ص 437.

الهضبة من الشرق نحو الغرب فقط، بل حتى من الوسط نحو الشمال والجنوب فهي بذلك تميل نحو الانخفاض باتجاه البحار المحيطة بها¹. (أنظر ملحق 4 خرائط)

أ- الجبال:

وفي مشهد لا يختلف كثيراً عن جغرافيا بلاد اليونان فإن الجبال حاضرة في آسيا الصغرى بشكل سلاسل تتبع محاورها إتجهاً يتطابق مع ميلان هضبة الأناضول، أي من الشرق نحو الغرب بشكل يعامد تقريباً الشاطئ المقابل، أي شاطئ بحر إيجه². وعموماً فإن تلك السلاسل تتخذ موقعاً تفصل من خلاله هضبة الأناضول التي تتوسط شبه جزيرة آسيا الصغرى عن شواطئ البحر الأسود وأرخييل الجزر وكذا البحر المتوسط³.

أما عن أشهر السلاسل الجبلية التي عرفت بها آسيا الصغرى، فتحدثنا المصادر التاريخية منذ أقدم العصور عن تلك السلسلة التي تمثل المرتفعات الجنوبية لشبه الجزيرة والتي عرفت باسم سلسلة جبال طوروس (Taurus) المغطاة بالغابات، والتي اشتهرت بكثرة المعادن مثل الفضة والنحاس والرصاص والحديد ولهذا السبب أطلقت عليها تسمية الجبال الفضية⁴. ويتراوح ارتفاع القمم العالية في هذه السلسلة بين 2500 و3000 متر والمعروف عنها أن الثلج يظل يغطي رؤوسها بشكل دائم خلال أيام السنة⁵.

ويتحدث بومبونوس ميلا (Pomponius Mela) عن جبال طوروس واصفاً إياها فيقول: "تبدأ هذه السلسلة من الساحل الشرقي لآسيا، أين يكون علوها معتبراً، ثم ينفصل عنها نوعان، واحد على اليمين يتجه نحو الشمال، والآخر على اليسار يتجه نحو الوسط في حين تمتد السلسلة الأصلية بخط مباشر وبدون تقطع نحو الغرب مجتازة العديد من الأمم بحيث تفصل مرتفعاتها أمماً عن أمم أخرى⁶. (أنظر ملحق 4 خرائط)

¹ - أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 453-455.

² - George Tate, La Grèce Antique, Hachette Livre éditeur, Paris, 2000, p17.

³ - Philippe le Bas, op.cit, p 02.

⁴ - نعيم فريح، المرجع السابق، ص 03.

⁵ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁶ - Pomponius Méla, Géographie, Traduite par M. Louis Boudet, C-L-F.Ponckoché Editeur, Paris, 1843, p 53.

وفي هذا الإطار يمكن مطابقة وصف بومبونيوس ميلا بالوصف الذي تحدث عنه الجغرافي الفرنسي لوي فيفيان أو فيفيتم دي مان مارتان (Louis Vivien) أو (Viven de Saint Martin) عن هذان السلسلتان اللتان تتفرغان من سلسلة جبال طوروس، حيث يسمى الأولى المتجهة نحو الشمال بسلسلة جبال أونتي طوروس (Anti-Taurus) وهي التي تحيط بمنطقة كومانا (Comana) والتي تتبع إقليم كبادوكيا (Cappadoce)، والتي تنتهي في الشمال بميلان نحو الشرق بعد أن تلتف حول كتاونيا (Cataonie)¹. ومن أشهر جبال هذه السلسلة جبل كابوتاس (Capotès) على حدود أرمينيا، وكذلك قمة بارياداس (Paruyadès) التي تتبع بلاد القوقاز وهذه السلسلة في مجملها ذات جبال عارية تظل مغطاة بالثلج حتى أثناء فصل الصيف².

أما الفرع الثاني من سلسلة جبال طوروس والمتجهة نحو الوسط فهي سلسلة جبال الأمانوس (Amanus)، التي تتوغل نحو الشرق إلى غاية نهر الفرات في منطقة ميليتان (Mélitane)³. وتبدأ في الحقيقة هذه السلسلة الفرعية في الظهور على مستوى إقليم كيليكيا (Cilicie) حيث تترك منفذين ضيقين للمرور إلى الأرض السورية من بعد مليح إيسوس Issus ويطلق على هذين المنفذين تسمية البوابات السورية (Portes syriennes) وبوابات الأمانيد (Portes Amanides)، وتلتقي هذه السلسلة الفرعية في الفرع الآخر أونتي طوروس شمال منطقة أرساموتا (Arsamota)⁴. ويطوق هذان الفرعان منطقة كتاونيا (Cataonie) التي تعتبر سهلاً منخفضاً وشاسعاً يحوي عدداً كبيراً من أنواع الأشجار ماعدا تلك التي تظل خضراء على طول السنة فالأمانوس يطوقها من الوسط والأونتي طوروس من الجهة المقابلة⁵.

كما نذكر من بين الجبال الأقل علواً من قمم سلسلة جبال طوروس والتي تعتبر مغزولة في آسيا الصغرى، قمة جبال إيدا (Ida) في طروادة،⁶ ذلك الجبل الشاهق الذي يعتبر من أهم وأبرز

¹ - Louis Vivien de Saint Martin, Description historique et géographique de l'Asie Mineure, Tome I, Arthus Bertrand Librairie de la société de Géographie, Paris, 1852, p 381.

² - Philippe le Bas, op.cit, p 02.

³ - Louis Vivien, loc.cit.

⁴ - Philippe le Bas, loc.cit

⁵ - Louis Viven, loc.cit.

⁶ - Philippe le Bas, loc.cit.

الميزات الجغرافية لمنطقة طروادة¹، والتي تتركز بجانبها المدن الأيولية وغير بعيدة عن جزيرة لسبوس (Lespos)،² وهي القمة المعروفة من الناحية الأسطورية بخلاف الإلهات الثلاث وتحكيم الأمير باريس (Pâris) بينهن³.

كما نذكر أيضاً قمتي جبلي الأولمب واحدة في يثينيا (Bithynie) فوق مدينة بروسا (Prusa)،⁴ وهي المدينة التي اشتهرت فيما بعد والتي تحمل اليوم اسم بروسا (Brousse)،⁵ أما القمة الأخرى فتقع في بلاد غالاتيا (Galatie)، غير بعيدة في أنقرة الحالية (Ancyre) كما نذكر جبال من ميزووجي (Mésogis)، تمولوس (Tmolus)، سييل (Sipyle) وجبل الميماس (Mimas) في ليديا (Lydie).⁶

كما نذكر جبل لاتموس (Latmus)،⁷ الذي سميت على اسمه المدينة القريبة منه مدينة لاتموس وكذا الفونيكس (Phoenix) وهي القمة الأعلى في إقليم كايا (Carie)،⁸ وفي إقليم ليسيا Lycie نجد كل من قمة كراكوس (Gragus)،⁹ الماسيسيتوس Massicitus¹⁰، الدايدالا (Daedala)، والكليماكس (Climax)¹¹. وفي إقليم فريجيا نجد قمم الدانديموس (Dindymus)¹² والكادموس (Cadmos)،¹³ أما بإقليم غالاتيا (Galatie) فنجد جبال أولقاسيس (Olgassys)، الأدوركوس (Adorcus) وقمة الماغابا Magaba وفي يثينيا (Bithynie) نجد جبل الأرغونتونيوس (Argantoniuss)، والسييتوروس (Cytorus) وفي بفلاغونيا (Paphlagonie)، أما في البونت (le Pont) فنجد جبل التيشاس (Tichès) وفي كبادوكيا (Cappadoce) توجد قمة أرجي (Argée)¹⁴. (أنظر ملحق 5 خرائط)

¹ - Strabon, op.cit, XIII, 5.

² - Louis Vivien, op.cit, p 237.

³ - Pomponius Méla, op.cit, p 61.

⁴ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁵ - Louis Vivien, op.cit, p 396.

⁶ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁷ - Plinie l'Ancien, op.cit, V, XXX, 3.

⁸ - Strabon, op.cit, XIV, 4.

⁹ - Pomponius Méla, LIV, I, P55.

¹⁰ - Plinie l'Ancien, op.cit, V, XXVIII, 1.

¹¹ - Philippe le Bas, op.cit, p 02.

¹² - Plinie l'Ancien, op.cit, XL, 2.

¹³ - Philippe le Bas, op.cit, p 02.

¹⁴ - Ibid.

ونخلص للقول أن بلاد آسيا الصغرى تظهر بمظهر تضاريسي متنوع بشكل جبال متتابعة ومتصلة، وكذا متجمعة حول هضبة الأناضول، ومنها أي هذه المرتفعات الطبيعية تنزل عدد كبير من المجاري المائية إلى البحر¹.

ب- الأنهار والوديان.

لم يكن بشبه جزيرة آسيا الصغرى أنهار ذات أحواض واسعة فأكبرها على الإطلاق هو نهر هاليس (Halys) الذي يسمى حالياً قزِيل إيرماق (Kizil Ermmak)² والذي ينبع من أعالي جبال كيمي (Ghemi) بين سيفاس (Sivas) وأرزروم (Erzeroum) ليغير مباشرة مجراه نحو غرب الجنوب الغربي، وبعد أن يتعمق مسافة في هذا الاتجاه، يتغير مجراه نحو الشمال الغربي غير بعيد عن قيصرية (Césarée) ثم يتجه نحو الشمال الشرقي ليصب في البحر الأسود بمصبين قريبين من بعضهما البعض³.

يبلغ طول هاليس حوالي 500 ميل⁴، ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته بنهر النيل أو الفرات⁵ وقد قامت على ضفافه العديد من الدول منها الدولة الحيثية في إقليم كبادوكيا (Cappadoce)، وبما أنه لم يكن يسمح بزراعة أرض مرويه مثل نهري النيل والفرات، لم تكن شعوب تلك الدول تعتمد على الزراعة كنشاط أساسي، بل كانوا يعتمدون على تربية المواشي والطيور فالحيثيون مثلاً كانوا يملكون قطعان كثيرة الاعدادج من الجياد والخرفان⁶.

ويبدو أن أنهار آسيا الصغرى كانت تنبع من المرتفعات الوسطى لهضبة الأناضول الوسطى (المركزية) لتتبع إنحدار الهضبة في جميع الإتجاهات نحو البحار الأربعة، وكذا نحو نهر الفرات في الجهة الشرقية، لذلك يمكننا أن نميز ذلك الإنحدار الأول نحو الشمال الذي ينهمر معه إضافةً إلى نهر

¹- Philippe le Bas, op.cit, p 03.

² - نعيم فرح، المرجع السابق، ص03.

³- Philippe le Bas, loc.cit.

⁴ - عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص437.

⁵ - نعيم فرح، المرجع السابق، ص03.

⁶ - ف. دياكوف وس. كوفاليك، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، ج1، دار علاء الدين، دمشق، 2000، ص155.

الهاليس سالف الذكر، نهر الترموندون (Thermonson)،¹ بعد أن تروى الأراضي القديمة لشعب الأمازون (les Amazones) وكذلك نهر أيريس (Iris)² أو كما يسمى حالياً ليكيل إيرماق (Lekil-Ermak)،³ ونهر البارتيينوس (Parthenus) الذي يشكل مع نهر إيريس حدوداً بين بفلاقونا (Paphlagonie) وبثينيا (Bithynie). أما نهر سانغاريوس (Sangarius) الذي ينبع من أعالي هضبة فريجيا (Plateau Phrygien) ليشكل قوساً كبيراً حول المنطقة التي تسمى بيسينونت (Pessinonte)، وبعد أن تغذيه الروافد يتجه نحو الغرب أين يقطع الغابات الواقعة بجبل الأولمب ثم ينحني نحو الشمال الشرقي ثم إلى الشمال، إلى أن يصب مع الأنهار المذكورة سابقاً في البحر الأسود.⁴

أما المنحدر الثاني باتجاه الشمال فهو ذلك الذي يسوق إلى بحر مرمرة (Marmare) أو البروبونتيديد كما كان يسمى سابقاً (Propontide) مياه أنهار الرانداك (Rhindaque)، الأوزاب (Oesepe) والغرائيك (Gramique)،⁵ وكذلك نهر المالمستوس (Malcetus) الذي يروي مع الرانداك وديان إقليم ميزيا (la Mysie) بيشينيا ليجتمعاً معاً وتنتهي مياههما في بحر مرمرة.⁶

أما المنحدر الثالث المتجه نحو الغرب فيجلب لبحر إيجه مياه أنهار كل من الكاييك (Caïque) والهرموس (Hermos) والكايستر (Cayster) ونهر الميوندرا (le Méandre) كثير الالتواء.⁷ هذا بالإضافة إلى أنهار السماموندر (Samondre) والسيموئيس (Simois) اللذان ذكرهما الشعراء في قصائدهم. وعموماً نلاحظ أن هذه الأنهار كانت الأقل سرعة مقارنةً بأنهار آسيا الصغرى الأخرى، كما أنها شكلت في مصباتها هبوطاً وترسبات أرضية لم تتوقف عن التطور والزيادة.⁸ (أنظر ملحق 4 خرائط)

¹ - Louis Vivien, op.cit, p155.

² - Philippe le Bas, loc.cit.

³ - Louis Vivien, loc.cit.

⁴ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁵ - Louis Vivien, loc.cit.

⁶ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁷ - Louis Vivien, loc.cit.

⁸ - Philippe le Bas, loc.cit.

وفي الانحدار الذي يتجه نحو الجنوب تصب أنهاره في البحر المتوسط، وهي كل من نهر الكزانتوس (Xantus) الذي تنهمر مياهه كالسيل الجارف فيجتاح إقليم لسيا (Lycie)، ونهر كاتاركتاس (Kalaractès)، سيستروس (Cestrus)، الأريميميدون (Eurymédon)، وهي أنهار تمثل الشرايين الرئيسية التي تغذى إقليم بمفيليا بالمياه¹، ثم إلى الشرق من هذه المنطقة نسجل نزول مياه أنهار كالكادونس (Calicadnus)، كادنوس (Kadnus)، تارسوس (Tarsus)، ساروس (Saros)، والبيراموس (Pyramos) وهذان الأخيران اللذان يسميان حالياً بالتركية سيهوم (Sihoum) وجيهوم (Djihoum)².

وفي الأخير وباتجاه الشرق نلاحظ وجود المنحدر الخامس من هضبة الأناضول ونهر الفرات الذي تصب فيه أنهار ليس لها صيت كبير في آسيا الصغرى مثل نهر ديفريكي (Dévriki) ونهر ميلاس القديم (Melas) والمعروف حالياً باسمه المحلي توكماه سو (Tokmah Sou)³ وهو الذي يصب في الفرات على مسافة قريبة من مالاتيا (Malatiah)، وأخيراً نهر كامرسو (Kamer-sou) الذي يصب بدوره في الفرات بالقرب من بلدة كماك (Kemakh)⁴.

ت- المناخ:

قد يبدو من خلال قرب هضبة الأناضول من بحر إيجه والبحر المتوسط أن مناخها لا يختلف عن المناطق المتوسطية الحار والجاف صيفاً والممطر شتاءً⁵، غير أن طبيعة المنطقة وتنوع تضاريسها وكثرة المرتفعات بها والمجاري المائية فيها، كان له الدور البارز في تنوع المناخ في شبه الجزيرة واختلافه من منطقة إلى أخرى الأمر الذي أدى بدوره إلى تنوع واختلاف الإنتاج الزراعي والنشاط البشري لتلك المناطق⁶، لذلك سجل الباحثون في المناطق المرتفعة والقريبة من البحر الأسود طول فصل الشتاء لمدة تصل إلى الثمانية أشهر، وهو ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى

¹ - Philippe le Bas, op.cit, p 04.

² - Louis Vivien, loc.cit.

³ - Ibid.

⁴ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁵ - رمضان عبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر، ج2، الأناضول- بلاد الشام،

دار نخضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ص04.

⁶ - Louis Vivien, loc.cit.

تقطع أوصال تلك المناطق وعزلة بعضها بسبب الثلوج وذلك لمدة طويلة من الزمن،¹ أما صيف هذه المناطق الشرقية الشمالية فهو كثير الأمطار، خائق دون أن يكون كثير الحرارة ولا تتقطع فيه عملية النشاط على طول السنة مما ساهم في جعل هذه المناطق غابية بامتياز.²

وقد ساهمت طبيعة تلك المناطق التي تحوي الكثير من الصفوف المتوازية من الجبال المغطاة بالغابات ذات الأشجار المعمرة في ظهور ذلك المناخ القاسي الذي تميزه سماء مكفهرة وبرد قارس،³ ورغم قساوة الجو في هذه المناطق إلا أنه ثبت ومنذ أزمنة قديمة زراعة أشجار الفاكهة بها مثل الكروم التي كان قدماء السكان هناك يجنون منها العنب بعد الاعتناء به وحمايته من البرد من خلال تغطية عناقيده المثمرة بأوراق الأشجار قبل نضجه.⁴ كما ثبت أيضاً زراعة أشجار الزيتون بهذه المناطق وهي الأشجار التي لطالما رافقت زراعة الكروم خاصة في ضواحي تريبيزونند (Trébizonde) على ساحل البحر الأسود أين تسود درجة حرارة تسمح بذلك.⁵

أما المناطق الساحلية الشرقية المطلة على بحر إيجه بدايةً من الشمال أين تنفصل مياه بحر مرمرة على بحر إيجه وإلى الجنوب من ذلك الخط، فيسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ذو الشتاء الرطب والمطر والصيف الجاف.⁶ وإذا اتجهنا جنوباً نحو جو أيونيا (Ionie) الساحر، تلك الجنة على الأرض التي لا يعرف مناخها قساوة في الشتاء ولا سخونة في الصيف والذي تعمل نسائم البحر على تلطيف جوه،⁷ ذلك الجو الذي كانت له تأثيراته الواضحة والعذبة على الهيلينيين (les Helléniens) الذين استوطنوا آسيا الصغرى مما انعكس على إنتاجهم الفكري من أشعار وآداب وفلسفة وفنون.⁸

وتجدر الإشارة إلى أنه حين تهب الرياح الآتية من وسط شبه الجزيرة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة، تجلب معها الأمطار الغزيرة التي تحيي وتنعش المساحات الخضراء وتحافظ إلى

¹ - Philippe le Bas, loc.cit.

² - N.Arabu, L'Asie Mineure occidentale, Annales de Géographie, T32, n:176, 1923, p 135.

³ - Louis Vivien, op.cit, p 156.

⁴ - Pomponius Méla, op.cit, II, p 89.

⁵ - Philippe le Bas, op.cit, p 04.

⁶ - N.Arabu, loc-cit.

⁷ - Philippe le Bas, loc-cit.

⁸ - Louis Vivien, loc.cit.

عاية شهر ديسمبر تقريباً على حيوية وطراوة نباتات الربيع،¹ ففي إزمير (Izmir) مثلاً وخلال فترات البرد القارس لا تنزل درجة الحرارة عن 10° درجات حتى في شهر جانفي، وترتفع إلى 26° درجة مئوية أحياناً خلال تلك الفترة نفسها، وفي أوائل شهر فيفري ترى أشجار اللوز قد أزهرت بل أن الورود تبهجك بروائحها العطرة، ولكن الأمر يتغير كلما اتجهنا نحو الشرق وتحديدًا إلى المناطق العليا أين تجري أنهار الهيرموس (Hermos) والميوند (Meandre) والتي تقطع السهول الأولى لإقليم فريجيا فتحدث تغيرات محسوسة في المناخ، وكلما توغلنا أكثر نحو الشرق تصبح فترة فصل الصيف أقل طولاً وتصبح درجة حرارة أكثر إنخفاضاً.²

ث- الثروات المعدنية والزراعية في اسيا الصغرى

اشتهرت هضبة الأناضول منذ العصور القديمة بوفرة معدن النحاس بها هذا المعدن الذي جلبه الأشوريون من كبادوكيا، هذا بالإضافة إلى الفضة والحديد، وقد اشتهر سكان آسيا الصغرى بصناعة الحديد وصهره.³ وعلى العموم فإن أرض آسيا الصغرى وبصفة رئيسية منطقة الشمال كانت غنية بالمنتجات المعدنية، فكان بها قديماً مناجم للفضة أشار إليها هوميروس (Homère)، وقد تم التعرف عليها في شواطئ البحر الأسود شرق نهر مدينة تيربولى (Tirboli)، ولا تزال إلى اليوم في دولة تركيا مناجم باسم كميّش كانييه (Cumish-Khaneh) جنوب تريبيزوند (Trébizonde) وهي تنتج كميات معتبرة من الفضة والذهب والرصاص،⁴ وفي الجنوب كانت جبال طوروس المغطاة بالغابات تشتهر بدورها بكثرة المعادن فيها مثل الفضة والنحاس والرصاص والحديد لدرجة أنه كان يطلق عليها تسمية الجبال الفضية.⁵

تلك المناطق التي كانت تخفي الكثير من الثروات المعدنية، لم تصل إليها أيدي السكان في الأزمنة القديمة ولم يتمكنوا من استخراجها والكشف عن ما فيها، فسلسلة جبال طوروس في الحقيقة كانت عبارة عن كتلة كبيرة من الرخام، وقد استغلها الرومان في زمن حكمهم للبلاد

¹ - Philippe le Bas, loc.cit.

² - Ibid, pp 04-05.

³ - رمضان علي عبده، المرجع السابق، ص 04.

⁴ - Philippe le Bas, op.cit, p 05.

⁵ - نعيم فرح، المرجع السابق، ص 03.

وتحديداً في مناجم سينادا (Synnada)، كما وجد معادن الزنجفر (Cinabre) في بفلاقونيا والبلور الصخري أو ما يعرف بالكوارتز (Quartz) أو (Gristal de roche) في جبال البونت (Pont)، وكان لتلك المعادن دور بارز في تحقيق أرباح وفيرة للتجارة في آسيا الصغرى قديماً¹. كما كانت هضبة الأناضول تتوفر على أنواع من الحجارة، إضافة إلى البلور الطبيعي نجد العقيق والشب والنفريت والأسيدان وطين الحقان الذين عثر عليهم في منطقة دوراك²، ويشار أيضاً إلى أن مادة الملح وجدت بوفرة كبيرة على سطح أرض آسيا الصغرى فكانت بذلك محل استثمار نشيط بها³.

أما عن الثروة الزراعية والحيوانية فهي الأكبر والأثري وذلك من خلال توفر الأراضي الخصبة في شبه الجزيرة، تلك الأراضي التي لا تحتاج حسب سترابون لنتج الخبيرات، ففي مقاطعة كبادوكيا على سبيل المثال نجد سهل كاتاوني (Cataonie) العريض والمنخفض والذي تزدهر به كل أنواع المزروعات⁴، أما منطقة ميليتان (Melitaine) فتكثر فيها الأشجار المثمرة وهي المنطقة الوحيدة في أراضي كبادوكيا التي تتمتع بهذه الميزة، فهي تنتج زيت الزيتون والنبيد الذي كان ينافس نبيد اليونان⁵.

وفي حقيقة الأمر فإنه فيما عدا السهول العالية لهضبة الأناضول المركزية (الوسطى)، والتي لم تكن تمثل سوى أرض مقفرة أو مراعي شاسعة، فإن باقي مناطق شبه الجزيرة تزخر بالأراضي المزروعة والصالحة للزراعة وكذلك الغابات التي تغطي المناطق الشاهقة من الجبال وهي جوانب من الهضبة المركزية نفسها⁶، فمنطقة كبادوكيا التي سبق ذكرها مثلاً تعتبر بلد جاف وقاحل يشبه المناطق الشرقية لهضبة الأناضول، غير أنها تنتج الكثير من أنواع الحبوب التي يأتي القمح في مقدمتها⁷، كما تكثر فيها القطعان من جميع أصناف الحيوانات مثل حمار الوحش والحال نفسه

¹ - Philippe le Bas, loc.cit.

² - رمضان علي عبده، المرجع السابق، ص 05.

³ - Philippe le Bas, loc.cit.

⁴ - Strabon, op.cit, XII, 2.2.

⁵ - Ibid, XII, 2.1.

⁶ - Philippe le Bas, Loc.cit.

⁷ - Ibid, p 06.

بالنسبة لمنطقة ليكاوني (Lykaonie) التي نجد فيها وعلى مستوى قرية سواترا (Souatra) الكبيرة والمحاذية لمدينة (Garsaoura) قارزاوورا إنتشار تربية الماشية التي اشتهرت بأصوافها الخشنة، والتي استطاع الموالون هنالك جمع ثروة منها رغم هذه الميزة المشينة.¹

وفي السواحل الشرقية لآسيا الصغرى تكثر أشجار القطن في أرياف إزمير كما نراها أيضاً في سهول طروادة،² ويحدثنا بوزانياس (Pausanias) عن غراسة أشجار النخيل في أيونيا، تلك الأشجار التي وجد بعضها في الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى³، أما الزعفران فهو يعطر إلى يومنا هذا سفوح جبل تمولوس (Tmolus) في مقاطعة ليديا (Lydie)، كما تجدر الإشارة أيضاً إلى زراعة الأفيون، وهو الأفيون المفضل لسكان الشرق والذي كانت تتم زراعته في وديان وجزر الأرخبيل، ودون غمط قيمة ومكانة أفيون فارس فإن أفيون آسيا الصغرى أيضاً كانت له قيمة تجارية لا يستهان بها.⁴

أما بالنسبة لوديان آسيا الصغرى التي تنتشر في جميع الاتجاهات بين الجبال الغاية والبحار المجاورة لها، فكانت عبارة عن بساتين حافظ عليها القدماء، وحسب فليب لوبا (Philippe le Bas) فإنه لا يوجد أرض في العالم أكثر خصوبة من أرياف مقاطعتي بيثينية (Bythynie) وأيونيا، وكذلك السهول الجنوبية الواقعة على مرتفعات طوروس وبحر قبرص والمناطق الجبلية المحاذية لمياه البحر الأسود.⁵

ومن بين سهول البلاد الواقعة وسط شاطئ البحر الأسود، نجد سهل تيمسكير (Themscyre) الواقع بين البحر وبين سلسلة جبلية مغطاة بالغابات والذي يجتازه نهر الترموند وإيريس، هذا السهل الذي يتميز مناخه بالرطوبة الدائمة وتتصف أرضه بالإخضرار وهو الأمر الذي يجعله مكاناً مثالياً لعيش مجموعات كبيرة من البقر والخيل، وكذا زراعة أنواع من الحبوب مثل الذرة البيضاء (Le mil) والتمام (Le panis)، ويمكن القول أن هتان النبتتان لا تغيب طوال

1- Louis Viven, op.cit, pp 383-384.

2 - Philippe le Bas, Loc.cit.

3 - Pausanias ou voyage historique de la Grèce, Debarle imprimeur-Libraire, Paris, 1797, IX, 19.

4- Philippe le Bas, loc.cit.

5- Ibid, p 05.

السنة عن طعام أهل هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك عدد كبير من الأشجار المنتجة للفاكهة لذلك كان سكان تلك المنطقة حين يذهبون لجمع الحطب لادخاره لفصل البرد، يجدون على أغصان تلك الأشجار وبوفرة عنباً، إجاصاً، تفافاً وجوزاً، هذه الثمار التي كانوا يجدونها أيضاً بين الأوراق حين تسقط. أما الصيد في هذا السهل فهو وفير وذلك نتيجةً لوفرة الغذاء الذي تجده الفرائس في هذه الناحية من سهل البوت.¹

وفي سواحل البوت عموماً كما في أيونيا تنتشر زراعة الكروم التي تتسلق الأشجار كالأفاعي، مثلما هو الحال في إيطاليا وبعض مناطق فرنسا، كما تشتهر بيثينا (Bithynie) بتوتها الرائع أما بورصة (Brousse) فهي مركز تصنيع لأجود أنواع الحديد. كما تزهر أيضاً زراعة الزيتون على شواطئ بحر مرمرة وحتى على شواطئ البحر الأسود من مدينة سينوب (Sinope) إلى غاية تريبيزوند (Trébizonde) وهو يتواجد أيضاً على حالته البرية في وديان كيليكيا (Cilicie).²

وفي ضواحي مدينة كالبي (Kalpé) أو (Calpe) الواقعة على البحر الأسود يوجد بالإضافة إلى غابة كبيرة كثيفة الأشجار بلاد فسيحة ذات جمال خلاب تكثر بها القرى المكتظة بالسكان ويزرع فيها الشعير والقمح بجميع أنواعه، وكذا كل أصناف الخضروات والحبوب مثل الثمام (panis) والجلجلان وكميات معتبرة من التين والكثير من العنب الذي ينتج عنه نبيذ ممتاز.³

ويذكر لنا بلين مدينة في مقاطعة فريجيا تسمى سارداس (Sardes) تقع على مشارف جبل تمولوس، فيخبرنا أنها كانت مزروعة بعدد كبير من أشجار الكروم⁴ ويحدثنا سترابون عن مدينة كوماننا (Comana) فيقول عن مروجها أنها كانت كلها مزروعة بالكروم.⁵

وفي هذا الصدد تعتبر آسيا الصغرى بلد الثمار بامتياز، فالجزر والمناطق الأيونية كانت تنتج وبوفرة الفواكه الذهبية (dorés) وذات الروائح البهيجة والتي تنتج في المناخ الحار، أما بالنسبة

¹ - Strabon, op.cit, XII, 3, 15.

² - Philippe le Bas, op.cit, p 06.

³ - Louis Vivien, op.cit, p 332.

⁴ - Plin l'Ancien, op.cit, V, XXX, 1.

⁵ - Strabon, op.cit, XII, 3, 36.

لفواكه المناخ المعتدل فيكون انتاجها أقل وفرة في المناطق الداخلية وفي مناطق الشمال، ولا ينتج أي بلد آخر في حقيقة الأمر الكروم كما تنتجه آسيا الصغرى، وبخصوص هذه الفاكهة فإن جميع سواحل شبه الجزيرة تتنافس مع ساحل إزمير في كثرة ووفرة إنتاجها¹.

وعن باقي المنتوجات الأخرى فيصف لنا سترابون جبال السنوبتيد (Sinopitide) التي تحد الشاطئ إلى غاية بيشينا، وهي التي يكثر فيها إنتاج الخشب من خلال أشجار القيقب (Erable) والجوز (Noyer) الذي تصنع منه الطاولات الجميلة، أما في ذلك الجزء القريب من البحر فهو مزروع بأشجار الزيتون².

2- الدراسة البشرية

مثلت شبه جزيرة آسيا الصغرى وجهة لعدد كبير من الشعوب والقبائل التي استقرت في أجزاء كبيرة منها، بعد رحلة بحث طويلة عن مناطق خصبة تؤمن العيش السهل لهم ولقطعاتهم. وكان ذلك من بداية الألفية الثانية ق.م إلى حوالي منتصف الألف الأول ق.م وهو تاريخ بداية الغزو الفارسي للمنطقة. وقد قسم العلماء تلك الشعوب إلى ثلاث فئات رئيسية:

أ- السكيثيون (Les Scythes):

أورد هيرودوت الكثير من المعلومات حول هذا الشعب الذي كان يقطن شمال آسيا الصغرى على شواطئ البحر الأسود (Le Pont-Euxin) فقال عنهم أنه حين تمكن داريوس من الاستيلاء على بابل توجه اليهم بغرض الانتقام من غزوهم لمملكة ميديا، ذلك الغزو الذي قضى فيه رجال سكيثيا (La Scythie) مدة ثمان وعشرين سنة خارج بلادهم³. ويذهب سترابون إلى أن السكيثيين أمتان، شرقيون وهم القبائل البدوية التي تقطن شرقي بحر قزوين، وغربيون يتواجدون غربي بحر قزوين وتحديدا بين هذا البحر ونهر تنايس (Tenaïs) أي أنهم يأتون مباشرة بعد آخر الشعوب الأوروبية التي كانت تشغل المناطق الشمالية لآسيا الصغرى على شواطئ البحر الأسود⁴.

¹ - Philippe le Bas, op.cit, p 05.

² - Strabon ,op.cit, XII, 3.12.

³ - Hérodote, Histoire d'Hérodote, Texte traduit par Larcher, Tome II, Charpentier Libraire-Editeur, Paris, 1850, IV, 1.

⁴ - Strabon, op.cit, XI, 6, 2.

أما بلين الكبير (Pline l'Ancien) فخلال وصفه للمنطقة الشمالية لآسيا الصغرى من مضيق الهيلسبونت (Hellespont) إلى شواطئ البحر الأسود. ومن خلال حديثه عن السيميريين (Cimmeriens) والسكيثيين يتحدث عن نهر إيستر (Ister) الذي ينبع من جرمانيا (Germanie) ويصب في البحر الأسود بواسطة ستة أذرع كبيرة، وبعد تسمية كل ذراع باسمه من الغرب إلى الشرق يشير بعد ذلك إلى بداية مواضع سكن السكيثيين.¹

وبخصوص أصل السكيثيين يورد هيرودوت عدة روايات في شكل أساطير سواء أكانت من تأليف السكيثيين أنفسهم أو من ادعاء الإغريق الذين كانوا يقطنون بجوارهم. أما السكيثيون فيقولون بأن بلادهم كانت جرداء قاحلة وأن أصلهم يعود إلى رجل يسمى تارجيتايوس (Targitaus) ذلك الذي يدعي بأنه ابن الاله جوبيتر (Jupiter) وأنه أنجبه من فتاة من بورستان (Borysthène) وهو ما وجده هيرودوت غير قابل للتصديق، ولكن من هذا الرجل الذي أصبح ملكا ومن أبنائه الثلاثة : البكر ليوكسايس (Lipoxaïs)، والأوسط أربوكسايس (Arpoxaïs)، والأصغر كولاكسايس (Colaxaïs) يرى السكيثيون أنهم انحدروا واستقروا بتلك المنطقة من آسيا الصغرى.²

ويضيف هيرودوت أن المنحدرين من السكيثيين والذين يطلق عليهم اسم الأوكات (Aucates) ينتسبون إلى ليوكسايس، وأن الذين يسمون بالكاتيارس (Catiars) والتراسبيس (Traspies) هم أبناء أربوكسايس، أما الابن الأصغر الذي صار ملكا بعد والده فينحدر منه شعب البالارالاتس (Paralates) وقد أطلقت على جميع هذه القبائل تسمية سكولوت (Scolotes) وهو لقب كان ملوكهم، غير أن الإغريق كانوا يحبون أن يطلقوا عليهم تسمية السكيث (Scythes). هذا ما قاله السكيثيون عن أصل أمتهم، ويضيفون أن الفترة الزمنية التي تفصل زمن تارجيتايوس أول ملوكهم عن الزمن الذي غزى فيه داريوس بلادهم لا تزيد بأي حال من الأحوال عن ألف (1000) سنة.³

¹ - Pline l'Ancien, op.cit, IV, 24,7-8, XXV, 1, pp 197-198.

² - Hérodote, Op.cit, IV,5 .

³ - Ibid, IV,5, 6,7.

أما الإغريق الذين كانوا يقطنون بجوار السكيثيين على شواطئ البحر الأسود فيدعون أن هؤلاء السكيثيين إنما ينحدرون من جد لهم يدعى سكيثاس (Scythès) وهو الأصغر من أبناء هيرقليس (Hercule) أنجبه من امرأة من تلك المنطقة التي كان يطلق عليها في ذلك الزمن سكيثيا.¹

ويتحدث هيرودوت عن رواية أو قصة أخرى تتعلق بالسكيثيين وهي الرواية التي يعتقد بها هو شخصيا كما يقول وهو أن السكيثيين كانوا يقطنون آسيا حين تغلب عليهم شعب الماساجاتس (Les Massagètes) والذين كانوا في حالة حرب معهم لذلك اجتاز السكيثيون نهر الأراكس (Araxe) ووصلوا إلى سيميريا (Cimmérie) لأن البلاد التي كان يملكها السكيثيون في عصر هيرودوت كانت قبل ذلك للسيميريين (Cimmériens) . أما السيميريون فبعد أن تداولوا الأمر فيما بينهم انسحبوا من مضاربهم تاركين أرضهم للسكيثيين.²

أما عن الشعوب التي تنتمي إلى فرع السكيثيين والذين يقطنون شمال آسيا الصغرى فهي شعب الكالبيد (Les Callipides) وهم شعب مختلط بين الإغريق والسكيثيين، شعب الألزون (Les Alazones) والذين يتشابهون مع الكالبيد في الكثير من الأشياء وخاصة التقاليد، وكانوا يزرعون القمح ويأكلون البصل والثوم والعدس والذرة، وفي المناطق الواقعة شمال مضارب شعب الألزون يعيش السكيثيون المزارعون الذين يزرعون القمح لا ليأكلوه ولكن لبيعه، كما نجد في تلك المناطق أيضا شعب النورس (Les Neures).³

وتجدر الإشارة إلى أن كل من أبوقراط (Hippocrate)، وبلاطون (Platon)، شعب الأمازون إلى الأمة السكيثية وذلك من خلال العادات والتقاليد المتشابهة بينهم وبين جزء من السكيثيين البدو وكذلك مع شعب السورومات (Les Sauromates).⁴

¹ - Hérodote, Op.cit, IV, 8,10.

² - Ibid, IV, 11-12.

³ - Ibid, IV, 17

⁴ - Louis Vivien, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde, Arthus Bertrand Libraire-Éditeur, Paris, 1845, p 205.

وقد ذكر هوميروس شعب الأمازون في الإلياذة خلال حديثه عن غزو بيليرفون (Bellérphon) لبلادهم والذين كانوا في تلك الحرب تحت إمرة ملك لسيا (Lycie) إيوباتس (Iobates) حيث وصفهم بالمحاربين والشجعان.¹ كما أشار الشاعر الأثيني إيسخولوس (Eschyle) إلى أن منطقة آسيا الصغرى لطالما تعرضت لغزوات القبائل البدوية السكيثية وكان ذلك من خلال عبورهم من جهة مضيق القوقاز.²

ويتحدث سترابون عن بعض القبائل القاطنة في الشمال والتي تعود إلى أصول سكيثية، وهي قبائل بدوية وجوارها قبائل السورومات التي تعود كذلك إلى أصول سكيثية وتتبعها قبائل الآورس (Aorsés) والسيراك (Sirakes) الذين تقع مضاربهم على مقربة من سلسلة جبال القوقاز (La chaine du Caucase).³ أما بلين فيذكر بعض البطون السكيثية التي كانت تقطن شواطئ البحر الأسود مثل الجاتس (Getes) والذين أطلق الرومان عليهم تسمية الداسز (Daces)، والسمارمات (Sarmates) والذين سماهم الاغريق سورومات (Sauromates) وشعوب الكزاماكروبيان (Xamaxobiens) أو الآورس (Aorsés) وهو فرع من السورومات، ويذكر كذلك السكيثيين الأقل مكانة في قبائلهم أو المنحدرين من العبيد وقبائل التروقلوديت (Troglodites) وكذلك قبائل الألس (Alains) قبائل الروقزالونس (Roxalans).⁴

ب- الشعوب السامية (Les peuples sémites):

• الكبادوكيون (Les Cappadociens):

بعد أن حدد سترابون موقع مقاطعة كبادوكيا في آسيا الصغرى و التي تحدها حسب جبال طوروس الكيليكية (Taurus cilicien) من الوسط، وأرمينيا (Arménie) وكلوشيد (Clochide) من الشرق، ومن الشمال البحر الأسود (Pont-Euxin) إلى غاية منابع نهر الهاليس (L'Halys) ومن الغرب بفلاقونيا (Paphlagonie) وجزء من فريجيا (Phrygie) إلى غاية ليكاونيا

¹ - Homère, Iliade, texte traduit par A.Bignan, Tome 1, Belin-Mandar, Libraire, Paris, 1830, Chant VI, Vers 186, p 209.

² - Louis Vivien, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde, Loc.cit.

³ - Strabon, Op.cit, XI, ch2, 1.

⁴ - Plinie l'Ancien, Op.cit, IV, 25, 1, p 198.

(Lycaonie) وكيلىكيا (Cilicie)، يتحدث بعد ذلك عن الكبادوكيين فيقول أن المؤرخين القدامى كانوا يميزون بوضوح الكتاونيين والكبادوكيين وكأن الكتاونيين كانوا يشكلون أمة مستقلة مختلفة عن الكبادوكيين، ولكنهم حين يعددون شعوب آسيا الصغرى يلحقون الكبادوكيين بالكتاونيين ويلحقون الكتاونيين بالشعوب القادمة من وراء نهر الفرات (Ephrate).¹

وفي حقيقة الأمر يبدو أن الأصل السامي لشعوب كبادوكيا كان ثابتاً من خلال تسميتهم القديمة "السوريون الشماليون (Leuco-Syriens) أي (Syriens Blancs) أو السوريون البيض، تلك التسمية التي أطلقت عليهم لتمييزهم عن أولئك الذين يقطنون بعد نهر الأمانوس والذين كانت لهم بشرة مسمرة.² وقد وصف سترابون أيضاً الكبادوكيين باللوكوسوريين حيث ذكر أن نهر هاليس كان يصب في البحر الأسود بين البفلاقونيين والسوريين قاصداً بذلك الكبادوكيين.³

• الكتاونيون (Les Cataoniens)

يقول سترابون أن الكتاونيين كانوا يشكلون حسب من سبقه من المؤرخين أمة لوحدهم أي أمة مختلفة عن من يجاورهم من الكبادوكيين ولكنهم حين يعددون شعوب آسيا الصغرى نجدهم يذكرون الكتاونيين مباشرة بعد الكبادوكيين غير أن سترابون يستدرك فيقول أنه في الزمن الذي عاش فيه لا يرى أي فرق محسوس لا في اللغة ولا في عادات العيش يفرق الكتاونيين عن قبائل وشعوب كبادوكيا الآخرين.⁴ لذلك يكمن تقبل أنهم هم أيضاً ينتمون إلى الجنس السامي.⁵

• الكيليكين (Les Ciliciens):

الكيليكين شعب محارب مثل كل الشعوب الجبلية التي قطنت وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى، عرفوا قديماً الهيباكين (Hypakhéens)، كانوا مهتمين بالنشاطات البحرية خاصة الحربية منها، كان لهم زيهم المميز في الحروب، كانت لهم طريقة تسليح خاصة تميزهم. يظهر على اسمهم الشكل اليوناني لكن المصادر لا تطلعنا بإسهاب عن أصل هذا الشعب أما عن تسمية

¹ -Strabon, op.cit, XII, ch 1, 1-2.

² -Philippe le Bas, op.citI, p 23.

³ - M.Bruzen de La Martinière, Le Grand Dictionnaire géographique et critique, Tome cinquième, A.Boudet, imprimeur du Roi, Paris, SDI, p741.

⁴ - Strabon, op.cit, XII, ch 1, 2.

⁵ - Philippe le Bas, Loc.cit.

الكيليكين التي أطلقت عليهم فيما بعد فهي ترجع حسب بعض الروايات المتداولة عنهم إلى الفينيقي كيليكس (Cilix) ابن أجينور (Agénor) وهو ما إلى الاعتقاد أن أصل هذا الشعب يعود إلى العائلة الفينيقية أو السورية، ويدعم هذا الرأي أصل الكلمة من خلال علم اشتقاق أصل الكلمات (Étymologie) فأصل تسمية البلاد التي كانوا يقطنونها مشتق من الكلمة العبرية Khalik التي تعني حصى وجمعا khalkim وهي تشير إلى طبيعة الأرض في الجزء الجبلي¹. كما أن الكيليكين كانوا يتكلمون قديما نفس اللغة التي كان يتكلم بها الكبادوكيون والسوريون الجنوبيون بل انهم كانوا ينتمون إلى أصل واحد، هذا بالإضافة إلى أن الكيليكين والكبادوكيين كانوا يتقاسمون نفس المقاطعة زمن إدارة الميديين والآشوريين لهم².

• البمفيليون (Les Pamphiliens) :

يذكر سترابون أثناء حديثه عن هذا الشعب أن هيرودوت يعتقد بأن البمفيليين ينحدرون من أولئك الفارين من حرب طروادة والذين كان يقودهم كل من أمفيلوك (Amphiloque) وشالكاس (Chalcas) والذين استقر عدد كبير منهم في منطقة بمفيليا (Pamphilie) تحت إمرة موسبوس (Mospus) بعد أن اجتازوا جبال طوروس، أما الباقيون منهم فقد انتشروا بين كيليكيا وسوريا وفيهم من واصل سيره نحو فينيقيا³. ومما يبدو أنه ثابت في أصل هذا الشعب أنه في الزمن الذي كتب فيه سترابون، كان البمفيليون مرتبطين كثيرا بالشعب الكيليكى ومن ثم فإن الأصل السامي لهذا الشعب لم يعد محل نقاش، لذلك يعتقد أنهم ينتمون إلى نفس الجنس وأن الرواية التي أوردها هيرودوت يمكن تفسيرها بعودة المهاجرين الكيليكين من المواطن التي هاجروا منها⁴.

• الصوليم (Les Solymes) والليسيون (Les Lyciens) :

يعتقد هيرودوت أن الليسييس والصوليم جاؤوا إلى آسيا الصغرى من جزيرة كريت مع سارييدون (Sarpédon) شقيق الملك مينوس بعد خلاف على الحكم ويشير أيضا إلى أن جزيرة

¹ - Philippe le Bas, pp 23-24.

² - Louis Vivien, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde, op.cit , pp 185-186.

³ - Strabon, op.cit, XII, ch 4, 3.

⁴ - Philippe le Bas, Op.cit, p 24.

كريت كانت في أزمنة قديمة تسكنها شعوب من البرابرة¹. أما سترابون فيذكر قبل الحديث عنهم أن هوميروس لا يرى أن الصوليم والليسيين يعودون إلى أصل واحد بحجة أن بيليرفون (Bellérphon) أحد زعماء الليسيين خرج من ليسييا لمحاربة من سماهم بالصوليم، أما هو أي سترابون فيعتقد أن الليسيين كانوا يسمون في بادئ الأمر بالصوليم ثم أطلق عليهم تسمية الترميل (Termiles) تشريفا للمحاربين الذين كانوا يرافقون ساريديون ليطلق عليهم بعد ذلك تسمية الليسيين (Lyciens) تشريفا لابن بونديون (Pondion) ليكوس (Lycus)².

• **شعب الأريم أو الأريميون (Les Arimes):**

ذكر هوميروس مواطن هذا الشعب في الإلياذة³ ولكن من دون شك فهم شعب سامي فاسم هذا الشعب له علاقة واضحة بكلمة أرام (Aram) الأمر الذي لا يدع مجالا للشك في أصل هؤلاء السكان وهذا التقارب لم يفت سترابون فهو من المؤرخين الذين يرون أن الأريم هم السوريون الذين يسمون في زمنه الأراميين (Les Aramiens)⁴. ويرى الباحث لويس فيفيان (Louis Vivien) أن الأريم هم شعب أرام الذين تجمعهم اللغة السامية وكانت قبائلهم تقطن في زمن متقدم الجبال اللوكانية في منطقة كيليكيا بالقرب من مواطن شعب سامي آخر هو شعب الصوليم شمال ليسييا⁵.

• **البيزيديون (Les Pisidiens):**

كانوا يعيشون على قمم جبال طوروس، وجزء منهم كان يعيش على بعض الهضاب المجاورة المزروعة بشجر الزيتون. كانوا مثل الكيليكين منقسمين إلى دول صغيرة يحكمها حكام محليون،

¹ - Hérodote, op.cit, I,73.

² - Strabon, op.cit, XIV, ch 3, 10.

³ - Homère, Ilide, Texte traduit par Eugène Barette, La vigne Libraire-Editeur, Paris, 1843, chant II, vers 783.

⁴ - Philippe le Bas, Op.cit, p 25.

⁵ - Louis Vivien, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde op.cit, pp 208, 253

كما أنهم لم يكونوا يعيشون على السطو رغم ميولاتهم الحربية.¹ وفي العصر الكلاسيكي كان بنظر إلى البيزيديين على أنهم ينحدرون من شعوب الصوليم لذلك كانوا يوصفون بنزعتهم القتالية.²

ت - الشعوب الهندوأوربية - الطراقية - (Peuples Thraciques):

● البيثينيون (Les Bithyniens):

أخذ البيثينيون اسمهم من منطقة بيثينيا بآسيا الصغرى وهو شعب يتميز عن الشعوب الأخرى السابقة الذكر بأنه قدم إلى هذه المنطقة من تراقيا (Thrace) ببلاد اليونان حيث عبرت جموعه البوسفور لتستقر بآسيا الصغرى مثل شعب البيبريس (Bebryces)، والماريونديني (Mariandini)، والكوكون (Caucones)، الداليون (Daliones) والسيميراي (Cimmerii)³، ورغم أن الكثيرين كانوا يرون أن البيثينيين تعود أصولهم إلى ميزيا (La Mysie) إلا أن الأرجح أنهم وفدوا إلى آسيا الصغرى من طراقيا⁴، والملاحظ أنه في زمن سترابون كان من الصعب تحديد ورسم حدود ثابتة بين المناطق التي كانت تعيش فيها شعوب البيثينيين، الميزيين، الفريجيين، الداليون، الميقدونيون (Mygdoniens)، الطرواديون (Troyens)، الدردونيون (Dardoniens).⁵

● الميزيون (Les Mysiens):

يقول هيرودوت (أنظر الملحق 2 صور) أنهم كانوا يشتركون مع الليديين في المنطقة التي عرفت باسم ليديا (Lydie) بآسيا الصغرى، وأنها كانت تسمى في ما سبق ميونيا (Méonie)، وقد استمر ذلك إلى أن افترق الليديون عن الميزيين.⁶ أما سترابون فيرى أن الميزيين كانت تجتمع أصولهم مع الليديين والكاريين وما يثبت ذلك هو الجمع الديني الذي أسسته الشعوب الثلاثة⁷. وحسب ما كان يرويه الميقدونيون فإن البيثينيين و الفريجييين والميزيين كانوا من أصول طراقية.⁸

¹ - Strabon, op.cit, XII, ch 7, 1,3.

² - Louis Vivien, Description historique de l'Asie Mineure, op.cit, p 207.

³ - M.Mentelle, Encyclopédie méthodique- géographie ancienne, Tome I, Panckoucke Libraire, Paris, SDI, p 324.

⁴ - Philippe le Bas, Loc.cit.

⁵ - M.Mentelle, op.cit, p 677.

⁶ - Hérodote, op.cit, I, 7.

⁷ - Louis Vivien, Description historique de l'Asie Mineure, Op.cit, p 167.

⁸ - Ibid, p 170.

• الليديون (Les Lydiens):

من الثابت كما سبق ذكر ذلك بأن ليديا كانت في البدء تحمل اسم ميونيا (Méonie) ويبدو أنهم كانوا يشتركون مع الميزيين في نفس البلد وهو ما أدى بنا إلى الاستنتاج أن الليديين والميزيين وشعوب أخرى ينحدرون من أصل طراقي¹. وتجدد الإشارة إلى أن باحثين قد ارتكزوا على حجج مهمة من أجل إعطاء الليديين أصلا ساميا ما يبدو منافيا للرأي الأول الذي يقول بأنهم طراقيون ولكن إذا ما دققنا في الأمر حسب الباحث لويس فيفيان يمكن لهذين الرأيين أن يتوافقا ويتكاملا².

ويمكن بذلك تقبل أن الشعب الليدي الذي كان ينتشر عبر السواحل الغربية لآسيا الصغرى من بحر مرمرية إلى بدايات ظهور سلسلة جبال طوروس، والذي كان يعود إلى أصول طراقية، وهو الأقدم، والذي كان يعرف بالميونيين نسبة إلى ميونيا، وأن جنسا آخر تعايش معه وانصهر فيه، وهذا الأخير يعود إلى أصول سامية، وهو مرتبط بالأراميين وهو الذي جلب معه اسم "لود" "Loud"، ليختفي بذلك الاسم الأول ميونيا ويظهر اسم ليديا³.

• الفريجيون (Les Phrygiens) :

رغم أن الكاريين حسب رواية هيرودوت كانوا يدعون أنهم سكان أصليون في آسيا وأنهم لم يأتوا من أي مكان آخر⁴، إلا أن الرواية الأكثر شيوعا تقول أنهم ودون شك فرع منفصل عن جنس الليليج (Les Lélèges) الذين كانوا يقطنون منطقة كاريا بآسيا الصغرى وهو ما يفسر ذلك الرأي الذي يعتبر الكاريين والليليج شعب واحد⁵. ويذهب سترابون إلى أن الكاريين بعد أن عاشوا مدة طويلة بالجزر الإيحية قاموا بمساعدة الكريتيين باحتلال الشاطئ الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى وجزء من الداخل، وقاموا بطرد أو إخضاع الملوك القدامى لتلك الأراضي والذين كانوا

¹ - Strabon, op.cit, XII, ch 8, 3.

² - Philippe le Bas, Op.cit, p 26.

³ - Louis Vivien, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde, op.cit, p168.

⁴ - Hérodote, op.cit, I, 173.

⁵ - Strabon, op.cit, XII, ch 8, 5.

بالنسبة لأغلبية المؤرخين من الليليج أو البيلاسيجين (Les Pélasges).¹ كان الكاريون شعبا محاربا ويرجع إليهم اختراع المقابض الجلدية التي زدودوا بها الدروع وتلك الصور التي تزينها وكذلك استعملوا الريش الذي يعلوا خوذاهم، وقد تعلم اليونانيون منهم كل تلك الإضافات.²

• **البيلاسيجون (Les Pélasges) :**

يرى سترابون، من خلال تحليل مقطع للشاعر هوميروس، أن البلاسيجين كانوا أمة ذات عدد كبير ومعتبر. ويصورهم هوميروس كفرسان محترفين قادمين من سهل لاريسا (Larissa) الخصب لنجدة بريام (Priam) ملك طروادة تحت إمرة إيبوفوتوس (Hippophotos) وبيلاوس ابني بيلاسج ليتوس (Pélasges-Léthos) بن توتاموس (Teutamus).³ ويرجح أن البيلاسيجين كانوا شعبا مولعا بالهجرة والارتحال ومنذ زمن بعيد بين القرنين 19 و18 ق.م. وحسب كرونولوجيا لارشر (Larcher) فإنهم احتلوا شواطئ أيونيا من رأس ميكال (Mycale) وكذلك من الجزر القريبة، وأن قوتهم عرفت تعاظما ولم تضعف أو تختفي إلا مع قدوم الأيونيين والأبوليين إلى آسيا الصغرى.⁴

• **الليليج (Les Lélèges) :**

يروى اليونانيون استنادا إلى رأي بوزانياس (Pausanias) أن شعب الليليج هم سكان مملكة لاكونيا (Laconie) القديمة التي تقع جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز (Péloponnèse) وقد أخذوا اسمهم من ملك كان يحكمهم يدعى ليلكس (Lélex)⁵ ويذكر الميغاريون وهم سكان ميغارا (Migare) باليونان أنه حكمهم اثنا عشر ملكا ينحدرون من نسل ملك يسمى ليلكس (Lélex) جاء من مصر ولذلك أخذ سكان المنطقة اسم الليليج (Lélèges).⁶ ونظرا للاعتقاد السائد بأنهم بحارة مهاجرون فقد احتلوا في زمن قديم جزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى من كاريا إلى خليج أدرميت (Adramytte)، ويعتقد كذلك أن جزء من شعب الليليج قد امتزج

¹ - Strabon, op.cit, XII, ch 2, 27.

² - Hérodote, op.cit, I, 173.

³ - Strabon, op.cit, XIII, ch 3, 2.

⁴ - Philippe le Bas, Op.cit, p 28.

⁵ - Pausanias, op.cit, III, 1, p 01.

⁶ - Ibid, ch 39, pp 261-262.

بالبيزيديين في آسيا الصغرى.¹ وقد ذكر الشاعر هوميروس الليليج خلال استعراضه للشعوب التي كانت تحارب الاغريق في حرب طروادة قائلا: " من جهة البحر كان يعسكر الكاريون، الباون (Paone) المسلحين بالاقواس، الليليج، والكوكون (Kaukaunes).²

• الأيوليون (Les Eoliens):

لابد من التطرق في نهاية هذا الموضوع إلى ذلك التواجد الإغريقي على شواطئ آسيا الصغرى الغربية، ذلك التواجد الذي كانت أسبابه كثيرة ومتعددة حسب المؤرخ الفرنسي فيكتور دوراي (Victor Duruy) كان أهمها غزو الدوريين لبلاد اليونان،³ ومن هذه الهجرات نذكر خروج الأيوليين من تساليا (Tessalie) وعبورهم لبحر إيجه ليستقروا في الساحل الشمالي الغربي لآسيا الصغرى وتأسيسهم بها عددا من المدن لتأخذ المنطقة اسمها من اسمهم أيوليا (Eolie).⁴

وحين بدأ سترابون حديثه عن الأيوليين تطرق أولا للكيليكين والليليج والبيلاسيجين لأن الأيوليين احتلوا المناطق التي كانت تقطنها هاته الشعوب التي شاركت في حرب طروادة مستشهدا في الوقت ذاته بأبيات من الياذة هوميروس، فذكر أن مدينة كومي (Cymé) أو (Cume) أسست بالقرب من مدينة قديمة للبيلاسيجين تسمى لاريسا (Larisse).⁵

وكان أولئك الأيوليون قد قدموا من إقليم لوكريس (Locride) في بلاد اليونان.⁶ ويضيف سترابون أنه من بين المدن الأيولية التي كانت قائمة في عصره هي إيجاي (Aegea)، تمنوس (Temnos) التي ولد بها مدرس البلاغة والبيان هيرماغاروس (Hermagaros)، وكانت هتان المدينتان تقعان على سفوح سلسلة جبال الهيرموس (Hermus) ولا تبعدان كثيرا عن المدن الأيولية الأخرى : كومي، فوكي (Phocée)، سميرن (Smyrne)، مغنيزي (Magnésie)، كما يذكر أيضا مدن ميرين (Myrine)، وقرينيوم (Grynium)، إيلي (Elée) وأداي (Adae)، ويشيد سترابون

¹ - Strabon, op.cit, XII, ch 7, 3.

² - Homère, l'Iliade, texte traduit par Charles-René Marie Lecente de l'Isle, Edition Ebouks libre et gratuits, (Edition électronique), octobre 2004, chant X, vers, 428-429, p 173.

³ - Victor Duruy, Histoire de la Grèce ancienne, Librairie De L.Hachette et Cie, Paris, 1862, p 256.

⁴ - Louis François de Saint-Clavien, Encyclopédie Théologique de Philologie comparée, Tome 38, J.P.Migne Editeur, Paris, 1858, p564.

⁵ - Strabon, op.cit, XIII, ch 3, 1-2.

⁶ - Ibid, XIII, ch 3, 3.

بمدينة كومي من حيث مكانتها وأهميتها بين المدن الأيولية، ويرى أنها هي ومدينة ليسبوس (Lesbos) كانتا المدينتان الرئيسيتان بالنسبة لمنطقة أيوليا كما يذكر أن كومي أنتجت شخصيات مهمة في تاريخ اليونان مثل خطيب ومؤرخ العصر الكلاسيكي إيفور¹ (Ephore) و تلميذ الفيلسوف سقراط (Isocrate)، وكذلك الشاعر هيزود¹ (Hésiode).

• الأيونيون (Les Ioniens) :

يبدو أن الهجرة الأيونية قد حدثت بعد هجرة الأيوليين بحوالي قرن من الزمان، فبعد طردهم من مدينة إيجيالي من طرف الآخيين في إقليم أرجوليس (Argolide) ظل هؤلاء الأيونيون حوالي 50 سنة في إقليم أتيكا (Attique) وحين اشتدت المجاعة في تلك المنطقة الضيقة المكتظة بالسكان في تلك الفترة، أصبحت الهجرة ضرورية فكان قائد الحملة الأولى نيلوس (Nélée) بن كودروس² (Codrus).

ويذهب هيروdot إلى أن الأيونيين قد بنوا مدنهم في البلاد الأكثر روعة من بين البلدان التي عرفها سواء من حيث جمال سمائها أو من حيث جوها الرائع في جميع الفصول.³ ويحدد سترابون موقع المدن الأيونية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى بين رأس بوسيديوم ((Cap Posidium) جنوباً، والذي يقع على حدود كاريا (Carie) و يتبع مدينة ميلي (Milet) الأيونية، إلى مدينة فوسيه (Phocée) شمالاً والتي تقع على مصب نهر الهرموس (Hermus).⁴

ومن خلال هذا الموقع يرى هيروdot أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة منطقة أيونيا بالبلاد التي تجاورها سواء تلك الواقعة شمالاً، جنوباً أو شرقاً، فبعضها معرض للمطر والبرد الشديد والأخرى للحر والجفاف.⁵ ويضيف سترابون نقلاً عن الفيلسوف اليوناني فيريسيد (Phérécyde) أن أبرز مدن أيونيا كانت ميلي (Milet)، ميونت (Myonte)، ميكال (Mycal)، إيفاز (Ephèse) وقد كانت تلك المدن سابقاً عامرة بسكان من الكاريين. أما

¹ -Strabon, op.cit, XIII, ch 3, 5-6.

² - Victor Duruy, op.cit, p257.

³ -Hérodote, op.cit I, ch CXLII,

⁴ -Strabon, op.cit XIV, ch 1, 2.

⁵ - Hérodote, Loc.cit.

مدينتي كيوس (Chios)، ساموس (Samos) فكان سكانها من الليليج (Les Lélèges)، غير أن الكاريين والليليج تم طردهم دفعة واحدة من طرف الأيونيين إلى عمق إقليم كاريا.¹

يرى هيرودوت أن الأيونيين لم يكونوا يتكلمون نفس اللهجة فكلماتهم كانت لها أربعة أنواع من النهايات ويصف مواقع مدنها فيقول أن مدينة ميلي (Milet) كانت الأولى من بين مدنها من حيث الوسط²، ويذهب بلين الكبير (Plin l'Ancien) إلى أن ميلي تعتبر عاصمة المدن الأيونية ويعود لها الفضل في تأسيس أكثر من ثمانين مدينة بحرية في بحر العالم القديم³، ثم تأتي بعدها مدينتا ميونت (Myonte) وبريان (Priène) اللتان تتوغلان في إقليم كاريا، والملاحظ أن هذه المدن الثلاث كانت لها نفس الطريقة في الكلام. أما مدن إيفاز (Ephèse)، كولوفون (Colophon)، لبيدوس (Lébédos)، تيوس (Téos)، كلازومان (Clazomène) وفوسي (Phocée) فكانت مواقعهم في إقليم ليديا (Lydie). وكان سكان تلك المدن يتكلمون فيما بينهم لغة واحدة مختلفة تماما عن اللغة التي يتكلم بها سكان المدن التي سبق ذكرها. ويضيف هيرودوت إلى ما ذكره من مدن ثلاث مدن أيونية أخرى، إثنان منهما في جزيرتي ساموس (Samos) وكيوس (Chios) أما الثالثة فتسمى إيريتري (Erythres) التي كانت على أرض مغلقة. كانت لغة سكان كيوس (Chios) وإيريتري نفسها لكن سكان ساموس (Samos) كانت لغتهم مختلفة عنهم.⁴

ويتحدث بوزانياس (Pausanias) عن معبد للأيونيين يسمى البانيونيوم (Panionium)⁵، وقد حدد هيرودوت مكانه في جبل مدينة ميكال (Mycale) وهو الذي خصصوا ذبائحه وقرباته للإله نبتون هيلوكونيان (Neptun Héliconien)⁶، وكان الأيونيون يختصون هذا الإله بتقدير وتشريف كبيرين منذ أن كانوا في أثينا (Athènes) قبل انتقالهم إلى شواطئ آسيا الصغرى، وقد بنوا لهذا الإله مذبحا للقرايين أمام مدينة ميلي على الطريق المؤدية إلى عين ماء تسمى عين بيبليس (La fontaine de Biblis)⁷.

¹ - Strabon, op.cit, XIV, ch 1, 3

² - Hérodote, Loc.cit.

³ - Plin l'Ancien, op.cit, V, 31,1, p 228.

⁴ - Hérodote, Loc.cit.

⁵ - Pausanias, Description de la Grèce, op.cit, VII, ch 4,5, pp 28,35,36.

⁶ - Hérodote, Loc.cit.

⁷ - Pausanias , Description de la Grèce, op.cit, Livre VII, ch 24, p199.

• الدوريون (Les Doriens):

يرجح أن هجرة الدوريين إلى آسيا الصغرى كانت في حوالي 1049 ق.م حيث ضمت دفعاتها الأولى مينيين (Myniens) كانوا يقطنون بإقليم أركاديا (Arcadie) باليلوبونيز جنوب اليونانون، وكان على رأس الحملة قائدان دوريان هما بوليس (Polis) ودلفوس (Delphos). وفي زمن لاحق تبع أولئك المهاجرين دوريون من أرجوس (Argos)، تريزان (Trézène) وإبيدورس (Epidaure).¹ عرفت المناطق التي عمرها الدوريون في آسيا الصغرى باسم دوريد (Doride) التي كانت قريبة من إقليم كاريا من ناحية بحر إيجه إذ يقول بلين أن كاريا كانت تعانق دوريد من جميع الجهات.²

ويتحدث هيرودوت عن ست مدن دورية في آسيا الصغرى كانوا يشكلون كونفدرالية قائمة على أساس ديني، غير أنهم فيما بعد أقصوا مدينة هاليكارناس (Halicarnasse) لعدم التزامها بقوانين الكونفدرالية الصارمة، أما المدن الخمس الأخرى فكانت لندوس (Linde)، إباليسوس (Ialyssos)، كاميروس (Camiros)، كوس (Cos)، وكنيدوس (Cnide)³ (أنظر الملحق 4 خرائط). وفي إطار تحديد المناطق التي هاجر إليها الدوريون جنوب غرب آسيا الصغرى وما جاورها من جزر بحر إيجه يقول سترابون أن سكان جزيرة رودس (Rodes) هم من أصل دوري مثل سكان هاليكارناس وكوس، كما أن مجموعة من الدوريين قد استقروا في جزيرة كريت (Crète). ويشير سترابون إلى أن مدينتا كنيديوس وهاليكارناس لم تكونا موجودتان في الزمن الذي وقعت فيه حرب طروادة لذلك لا نجد لهما أثرا في أعمال هوميروس. أما فيما يخص جزيرتي رودس وكوس فبدون شك كانتا موجودتان لكنهما كانتا تحت سلطة قائدين من أحفاد هيراقليس (Chefs Heraclides) وقد استند سترابون في ذلك إلى أبيات من إلياذة هوميروس موضحا أن مجيئ الدوريين إلى هاتين الجزيرتين كان قبل عودة أحفاد هيراقليس (Le Retour des Heraclides) إلى وسط وجنوب اليونان، أي قبل الغزو الدوري لبلاد اليونان⁴. ونستطيع أن نستنتج كذلك مما كتبه ثوكيديديوس (Thucydide) عن حرب اليلوبونيز أن جزيرة سيتار (Cythère) كان سكانها من اللاكيدومينيون (Lacédémoniens) أي من الدوريين الذين يتبعون أسبرطة (Sparte).⁵ (أنظر الملحق 9-10 خرائط)

¹ -Victor Duruy, Op.cit, p 259.

² - Pline l'Ancien, Op.cit, V, 29, p 226.

³ - Hérodote, Op.cit, I, 144.

⁴ - Strabon, Op.cit, XIV, ch 2, 27.

⁵ - Thucydide, Histoire de la Guerre du Péloponnèse, texte traduit par CH. Zevort, Tome I, Charpentier Libraire Edition, Paris, 1852, IV, 53, p 391.

III- شبه جزيرة اليونان: الدراسة الطبيعية والبشرية

1- الدراسة الطبيعية

كان الاعتقاد السائد قديما أن قارة أوربا ليست تلك القارة التي تقع بين القطب الشمالي والمحيط الأطلسي شرقا والبحر المتوسط جنوبا ، لأن الجغرافيين القدامى كانوا يعتقدون أن أوربا كانت تتألف فقط من السواحل الشمالية للبحر المتوسط والبحر الأسود وهو ما يعني أن أشباه الجزر الثلاثة: اليونان، إيطاليا وإسبانيا هي التي كانت تشكل الجسم الطبيعي لهذه القارة ولم يكن معروفا تقريبا ما كان وراءها من بلدان. أما قارة آسيا فلم يكن يعرف منها قديما سوى الجزء الغربي من شبه الجزيرة المعروفة باسم آسيا الصغرى والسواحل السورية والمدن الفينيقية وما يمتد من الأرض نحو الشرق لمسافة ليست بالبعيدة عن بلاد الرافدين، تلك البلاد التي كان اتصالها بالبحر المتوسط ليس بالأمر الصعب¹. وبما أن بلاد اليونان هي البلاد الأوربية الأولى التي تلي مواقع الأمم الشرقية فسنبدأ دراستنا الجغرافية بها كونها تمثل البوابة الشرقية لأوربا والحصن المتقدم لهذه القارة أمام محاولات الغزو القادمة من الشرق².

أ- الموقع الجغرافي لبلاد اليونان

تقع بلاد اليونان في الجزء الجنوبي لشبه جزيرة البلقان،³ وهي بحد ذاتها تشكل شبه جزيرة واقعة بين بحر إيجه (La mer Egée) والبحر الأسود (La mer Noire) اللذان يفصلانها عن آسيا الصغرى من ناحية الشرق، والبحران الأدرياتيكي (Adriatique) والأيويني (Ionienne) اللذان يفصلانها من الغرب عن إيطاليا (Italie) وصقلية (Sicile)، وهي تتربع على مساحة تقارب 31000 كم مربع⁴ أي حوالي 50000 ميل مربع⁵. (أنظر المرفق 9 خرائط)

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني: العصر الهللاذي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص 10.

² - نفسه ، ص ص 9-10 .

³ - علي عكاشة آخرون، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر أريد الأردن، (د.س.ن)، ص 37.

⁴ - حسين الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة: اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص ص 5-6.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام امبراطورية الاسكندر الأكبر، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ص 8.

ومن خلال الملاحظة والتدقيق في خارطة هذه البلاد يمكننا تقسيمها من حيث اليابسة إلى جزئين كبيرين يفصل بينهما خليج كورينث (Corinthe) على عكس البرزخ الكورنثي الواقع في أقصى غرب الخليج والذي يصل شبه جزيرة البيلوبونيز (Péloponnèse) بوسط بلاد اليونان من خلال إقليم إيتوليا¹، وهو الأمر الذي أعطى لهذه المدينة أهمية كبيرة في تاريخ اليونانيين وذلك لتحكمها في المواصلات البرية بين شمال اليونان وجنوبه².

ويصف الأستاذ فوزي مكاوي بلاد اليونان في كتابه تاريخ العالم الإغريقي وحضارته على أنها شبه جزيرة كبيرة تتدلى من أوربا متوغلة في البحر المتوسط كجوهرة في قلادة، ويضيف بأن شبه الجزيرة هذه لم تكن وحدها موطن حضارة الإغريق بل شاركتها مجموعة من الجزر المتناثرة في بحر إيجه فضلا عن سواحل آسيا الصغرى³.

كان للطبيعة التضاريسية لبلاد اليونان الأثر الكبير في رسم الخارطة الجغرافية ومن ثم التموضع السكاني في شبه الجزيرة، حيث أن انتشار الجبال بها طولا وعرضا ساهم في تقطيع أوصال البلاد إلى سهول منعزلة يصعب الاتصال فيما بينها⁴ وهو الأمر الذي انعكس على تشكل المدن والأقاليم اليونانية التي كانت تنتشر من شمال إلى أقصى جنوب البيلوبونيز، ولذلك قسم بعض الباحثين في جغرافيا اليونان القديمة شبه الجزيرة الإغريقية إلى ثلاثة أقسام كبرى يحوي كل جزء مجموعة من الأقاليم⁵.

● المنطقة الشمالية: وتحوي أقاليم كل من مقدونيا (Macidoine) وتساليا (Thessalie)

من الناحية الشرقية وإيليريا (Illyrie) وإيبيروس (Ibirie) من جهة الغرب⁶.

● المنطقة الوسطى: وبها مجموعة من الأقاليم، فألى الغرب يقع إقليم أخارنانيا (Acarnanie)

بين خليج أكتيوم (Actium) وخليج كورينث. وإلى الجنوب الشرقي من أخارنانيا نجد

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 22.

² - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 6.

³ - فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980، ص 12.

⁴ - لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991، ص 36.

⁵ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 06.

⁶ - نفسه.

إقليم إيتوليا (Etolie) الذي يحده شرقا إقليم لوكريس (Locride) وإلى الجنوب قليلا من إقليم إيتوليا ولوكريس يقع إقليم فوكيس (Phocide) الذي عرف بمدينة دلفي (Delphes) المقدسة، وفي جنوب هذه المنطقة يوجد إقليم بيوتيا (Biotie) ومن أشهر مدنه طيبة (Tèbes)، يليه شرقا جنوبا إقليم أتيكا (Atique) الذي تقع به أقوى وأشهر مدن اليونان وهي مدينة أثينا (Athènes) ¹.

● المنطقة الجنوبية: وتتكون من شبه جزيرة البيلوبونيز ، وهي تتصل بالمنطقتين الوسطى والشمالية عن طريق برزخ كورينثة . وتتكون هذه المنطقة من مجموعة أقاليم منها: إقليم أخيا (Achie) وإقليم إليس (Elis) الذي اشتهر بمدينة أولمبيا (Olympie) مهد الألعاب الأولمبية وموطن معبد الاله زيوس (Zeus) ، كذلك نذكر إقليم أركاديا (Arcadie) المنعزل والوحيد في شبه جزيرة اليونان الذي لا يطل على البحر، وإلى الشرق منه يقع إقليم أرجوليس (Argolis) ، أما في أقصى جنوب البيلوبونيز فيقع إقليم لاكونيا (Laconie) الذي تأسست به مدينة أسبرطة (Sparte) من طرف الدورين حوالي 1150 ق.م ².

يتبع شبه جزيرة اليونان عدد كبير من الجزر، يوجد عدد قليل منها في البحر الأيوني وقد أطلق على هذه الجزر تسمية الجزر الأيونية وعددها تحديدا يصل سبع جزر هي كوركيرا (Corcyre) ، باكسوس (Paxos) ، لوكاس (Leucade) ، سيفالونيا (Cepholenie) ، إيتاكا (Ithaque)، زاكينتوس أو زانت (Zacynthe) وسيريقو ³ (Cérigo). أما جزر بحر إيجه فهي كثيرة ومتناثرة ⁴ تنتشر بين شبه جزيرة اليونان وآسيا الصغرى وكأنها تمثل جسرا بين اليابستين ⁵، ويزيد عدد هذه الجزر في حقيقة الأمر عن خمسمائة (500) جزيرة ⁶ ذلك الكم الهائل من الجزر الذي كان يسمح للمبحر في هذا البحر من أن لا يفارق بصره منظر اليابسة خلال إبحاره وذلك لقربه من

¹ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 6-7 .

² - نفسه، ص 8 .

³ - Othon Riemann, Les Iles Ioniennes, I Carfou, Ernest Thorin Editeur, Paris, 1879, pp 01,02,09.

⁴ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 39-39.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 8-9.

⁶ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 39.

جزيرة أو جزيرتين أو أكثر في أي موضع كان فيه¹. ويمكن تقسيم جزر بحر إيجه من الشمال إلى الجنوب إلى خمس مجموعات مهمة (أنظر الملاحق 8-9 خرائط):

- المجموعة الأولى: وتضم جزر تاوسوس (Thaesos)، ساموتراس، (Samothrace) ليمنوس (Lemnos)، أمبروس وهذه الجزر تمتد بين طروادة شرقا وشبه جزيرة كاليكيديكيا (Chalcidique).
- المجموعة الثانية: وتتألف من خمس جزر هي أندروس (Andros)، تينوس (Ténos)، ميكونوس (Mykonos)، إيكاريا (Icaria) وساموس (Samos).
- المجموعة الثالثة: وتضم أربعة جزر هي سكيروس (Skyros)، بسيرا (Psyra)، لسبوس (Lesbos) وخبوس (Chios).
- المجموعة الرابعة: وتشمل تسع جزر هي كيوس (khéos)، كينتوس (kynthos)، سيريفوس (Sériphos)، سيفينوس (Siphonos)، باروس (Paros)، ناكسوس (Naxos)، أمورغوس (Amorgos)، أستيبالي (Astypalée) و كوس (kos).
- المجموعة الخامسة: وفيها جزر سيتيرا (Cythère)، كريت (Crète)، كارباتوس (Carpatos) و رودوس² (Rodes).

ويشار أيضا إلى أن هناك مجموعة من الجزر الواقعة شرق إقليم أتيكا والمحيطية بحكم موقعها بجزيرة ديلوس (Délös)، ويطلق على هذه المجموعة تسمية الجزر الكيكلادية أو السيكلادية³ (les Cyclades)، وهي في الحقيقة مجموعة من الجزر أغلبها صخرية وغير مسكونة، ويصل عدد الجزر العامرة بالسكان في هذا الأرخبيل إلى ما يصل أو يزيد بقليل عن الثلاثين جزيرة وأهمها حسب الموقع الجغرافي من الشمال إلى الجنوب نذكر: أندروس (Andros)، تينوس (Ténos) ميكونوس (Mykonos)، كيتنوسوس (kythnos)، ديلوس، ريني (Rhénée)، باروس،

¹ - لطفي عبد الوهاب محي، المرجع السابق، ص 43.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 39.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ص 25-26.

ناكسوس، ديسبوتيكو (Despotiko)، ميلوس (Mélос)، وتيرا (Théra)¹. (أنظر الملحق 11 خرائط)

ساهمت جزر بحر إيجه في إعطاء لمسة جمالية على بلاد اليونان منذ أقدم العصور، فمناظرها الآسرة جعلت اليونانيين أناسا شغوفين ببلدهم وبطبيعته الرائعة، تلك الطبيعة التي دفعت الفيلسوف اليوناني سقراط إلى اعتبار النفي بعيدا عن هذه الجزر هو أمر أصعب على الإغريقي من الموت.² (أنظر الملحق 15 صور)

كانت جزر بحر إيجه تشكل مصدرا للثروة الطبيعية والغذائية بالنسبة للإغريق، فبالإضافة إلى الكميات المعتبرة من الأسماك التي كانت تزخر بها سواحلها، كانت العديد من الجزر تحتوي على أنواع من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة مثل جزيرة سيفنوس الغنية بالذهب، وجزيري تاكسوس وباروس اللتان كانتا تحويان أجود أنواع المرمر، أما جزيرة ميلوس فكانت تشتهر بوجود العقيق بها. كما أن جميع هذه الجزر كانت مصدرا للفخار الممتاز الذي كان يشكل المادة الأولية للصناعات الخزفية التي كانت تمارسها شعوب أغلب الحضارات القديمة.³

ب- التضاريس

• الجبال

تتميز تضاريس بلاد اليونان بوجود الجبال الوعرة التي تحول دون قيام أي اتصال سهل بين أجزاء البلاد حيث قسمت هذه الجبال شبه جزيرة اليونان إلى مجموعة من الوديان والسهول المنعزلة.⁴

وفي حقيقة الأمر تصنف بلاد الإغريق من البلاد الجبلية حيث تصل نسبة الجبال بها إلى ثمانين بالمائة 80 % من مساحتها، أي أنها تفوق نسبة الجبال في سويسرا. ومن خلال التدقيق

¹ - Anne Coulée, Histoire Archéologique des Cyclades à travers la céramique archaïque : A propos d'un ouvrage récent, Revue Archéologique, Presse universitaire de France, n° 40, 2005, pp 01, 02, 06, 11, 12, 20, 22, 32.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 40.

³ - نفسه.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 09.

في الخريطة التضاريسية لشبه جزيرة اليونان، يمكننا تمييز أربع سلاسل جبلية رغم تداخل وتقاطع الجبال وكثرتها في بلاد اليونان¹: (أنظر ملحق 8 خرائط)

- سلسلة جبال بلورية تمتد على شكل قوس من تراقيا (Thrace) ومقدونيا لتمر بشبه جزيرة كاليليديكيا وشرقي تساليا وفيها أعلى جبال اليونان وهو جبل الأولمب (Olympe) الذي يبلغ ارتفاعه 2985 م.²

- سلسلة جبال البندوي (Pinde) وهي تمتد في شكل قوس ضخمة من الشمال أو تحديدا من البلقان الغربية³ لتمر بين كل من تساليا وإبيروس متجهة نحو الجنوب الشرقي لبلاد اليونان، وهي مؤلفة من طبقات كلسية⁴، وتتفرع عن هذه السلسلة شعاب جبلية تتجه شرقا لتضم كل المناطق الشرقية من شبه الجزيرة اليونانية⁵ وجزر بحر إيجه وغرب آسيا.⁶

- كتلة صخور حوارية بين تساليا ومناطق اليونان الوسطى وتمر أيضا أوبيي (Ebée) وأهم جبال هذه الكتلة أو السلسلة جبال أوتريس (Othrys) 1738 م، أوتا (Æta) 2152 م، بارناس (Parnasse) 2459 م.⁷

- سلسلة جبال كبيرة في الجنوب تبدأ من شمالي البيلوبونيز كهضاب ثم تنتشر منها ثلاثة شرايين وأعلى جبال هذه السلسلة تايجيتيوس (Taygète) وتختفي جبال هذه الكتلة من الجبال تحت مياه البحر لتعود للظهور في جزيرة كريت.⁸

¹ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 41.

² - نفسه، ص 42.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 22.

⁴ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 42.

⁵ - عاصم أحمد حسين، المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، مطبعة العمرانية، الجيزة، 1991، ص 51.

⁶ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 22.

⁷ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 42.

⁸ - نفسه.

• السهول

كان المظهر التضاريسي في بلاد اليونان يبدو ممزقا بفعل وجود الجبال وتداخلها مع الوديان والسهول، وبفعل هذا الواقع الجغرافي بقي الجزء المستوي من شبه الجزيرة اليونانية لا يحوز إلا على مساحة لا تتجاوز 20 % من المساحة الكلية¹.

أما سهول بلاد اليونان فكانت تتميز بالضيق وصغر المساحة، وعلى العموم ففيما عدا سهل تساليا فإنه ليس في شبه الجزيرة اليونانية سهل يزيد طوله عن 20 كم وعرضه عن 12 كم² وكانت تلك السهول التي تنتشر في أرجاء شبه الجزيرة اليونانية تتميز بالضيق والانحصار سواء بين مجموعة من الجبال مثل سهل مانتينا (Mantinée) في إقليم أركاديا أو بين الجبال من جهة والبحر من جهة أخرى مثل سهل إليسيوس (Eleusis) الذي يبعد حوالي 14 ميلا عن شمال غرب أثينا وكذلك سهل أرجوس في إقليم أرجوليس³.

ورغم عدم اتساع تلك السهول اليونانية إلا أن تربتها لم تكن على جانب كبير من الخصوبة، فقد كانت من النوع الفقير والذي لا يشجع على إنتاج كميات تكفي حاجات أهل المدن من الحبوب والمزروعات الضرورية الأمر الذي دفع الإغريق إلى الاعتماد على التجارة الخارجية وهو كذلك ما شجع المدن اليونانية على العمل على إنشاء مستعمرات خارجية لاستغلال مواردها⁴. ومن خلال تزاخم الجبال وتقاطع سلاسلها لم تعرف بلاد اليونان مجاري مائية كبيرة صالحة للملاحة إلا في بعض الأوقات من السنة، فكانت الممرات القصيرة التي تمر بمحاذاة الجبال السمة الغالبة على المشهد المائي في شبه الجزيرة اليونانية ومن أمثلة تلك الأنهار القصيرة الجرى والقليلة المياه بينيوس (Pénée) في تساليا، وألفينوس في (Alphée) في البيلوبونيز وكذلك نهر أخيلوس (Achéloos) بين إقليمي أخارنانيا وإيتوليا وهي مجاري لا تصلح للملاحة كما سبق ذكره إلا في وقت قصير من السنة. أما باقي أنهار اليونان فهي لاتعدوا أن تكون سيولا، ولا تمتلأ بالمياه إلا بعد

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص23.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 43.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص24.

⁴ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص11.

هطول أمطار غزيرة إثر العواصف الشديدة أو خلال فصل الشتاء، لتجف مجاريها خلال باقي فصول السنة¹.

أما بخصوص تزود السكان بالماء فلم تكن هذه المجاري والأنهار تضمن لهم الكميات الكافية من المياه لاستعمالها للشرب ولحاجاتهم اليومية، لذلك نجد الإغريق قديما قد اضطروا إلى السكن بجوار الآبار، الأمر الذي جعل سكان القرى اليونانية يتفاخرون بجودة مياه آبارهم وعذوبتها حسب ما رشح من معلومات من المصادر اليونانية القديمة التي أشارت أيضا إلى مجالس خاصة من الموظفين مهمتها الإشراف على تزويد القرية أو المدينة بالمياه².

• المناخ

كان مناخ بلاد اليونان في العصور القديمة متوسطي حار جاف صيفا، دافئ ممطر شتاء. أما الرياح فكانت معتدلة في فصل الربيع والصيف مما يشجع الملاحين على الإبحار بسفنهم الصغيرة لكن الأمر يختلف في الخريف والشتاء حيث تتحول تلك الرياح إلى عواصف وبذلك تصبح الملاحة في هذين الفصلين نوع من المجازفة الغير محسوبة العواقب. وما يؤكد هذه المعلومات ما جاء في بعض المصادر القديمة مثل كلام ثوكيديديوس (Thucydides) على لسان نيكياس (Nicias) من استحالة وصول أي إمدادات أثناء الشتاء إلى المحاربين الأثينيين في سيراكوزا (Syracuse) سنة 416 ق.م. وكذلك ما نصح به شاعر اليونان هزيبود الاغريق بألا يجازفوا بالملاحة في فصلي الخريف والشتاء وأن ينصرفوا لإصلاح سفنهم حتى تكون على استعداد للإبحار في البيع القادم³.

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص23.

² - نفسه، ص24.

³ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص17

2- الدراسة البشرية:

ثبت من خلال الحفائر الأثرية التي قام بها علماء الآثار في شبه جزيرة اليونان على وجود عناصر بشرية عاشت ببلاد اليونان منذ العصر الحجري القديم (Paléolithique)، ويعتقد أن هؤلاء هم أول من استقر بتلك البلاد، والأكد أن هؤلاء السكان كانوا من عنصر البحر المتوسط الذي تحدث علماء ما قبل التاريخ في انتشاره بالمنطقة كلها حيث اعتمد على ممارسة الصيد وجني الثمار في حياته اليومية¹.

وخلال فترة العصر الحجري الحديث (Néolithique) والذي يحصره علماء ما قبل التاريخ من 3500 إلى 1900 ق.م، نرح إلى بلاد اليونان مهاجرون تحدثت العديد من المصادر التاريخية عن عدم معرفة أصولهم ولا الأماكن التي وفدوا منها،² غير أن الإغريق أنفسهم كانوا يتحدثون عن سكان أصليين في بلادهم ليسوا هيلينيين، وكانوا يسمونهم البلاسيجيون (les Pélasges)، ويبدو أن بقاياهم ظلت قائمة ونقية حتى خلال العصور الكلاسيكية كما أنهم كانوا يتكلمون لغتهم الخاصة³، ويرجح أنهم قدموا إلى بلاد اليونان من غرب آسيا الصغرى ودخلوا من سواحلها الشرقية والجنوبية⁴.

و بعد عبور مضيق البوسفور والدرنيل شقوا طريقهم جنوبا بعد ذلك الى بلاد اليونان، وقد استنتج المختصون في تاريخ وحضارة بلاد الإغريق أن أولئك البلاسيجين كانوا يتشابهون مع سكان كريت، وحرز بحر إيجه وساحل طروادة.⁵ كما لاحظوا أن حضارة البيلاسيجين كانت حضارة زراعية حيث تركزت أغلب مراكزها في إقليم تساليا (150 مركزا) وكذلك في منطقة كورينثية،

¹ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص23.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص56.

³ - ه.د. كيتو، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، دار الفكر العربي للطبع والنشر، د.ب.ن، 1962، ص12.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص86.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص24.

وامتدت غربا حتى جزيرة كوركيرا (كورفو) كما وصلت أيضا إلى جنوب شرق إيطاليا وتحديدًا إقليم أبوليا (Apulie)¹

وعن أماكن انتشار البيلاسيجين في أوروبا وآسيا الصغرى يتحدث المؤرخ الفرنسي فيكتور دوراي (Victor Duruy) على أنه مع بداية ظهور البريق الأول من العصور التاريخية كان يعيش في بلاد اليونان وآسيا الصغرى وجزء من إيطاليا شعب يدعى البيلاسيجيون وأنهم غزوا وعمرّوا تلك المناطق، وكانوا ينقسمون إلى العديد من القبائل الذين من المحتمل أنهم شكلوا جنوب الدانوب (Danube) بين الأدرياتكي والبحر الأسود (la Mer Noire) ثلاثة مجموعات أساسية: التراقيون (les Thraces)، الأيليريون (les Illgriens) والبيلاسيحيون الهيلينيون (les Pélasges) (Helléniques)².

ويذهب الأنثروبولوجي الفرنسي أونديري لوفافر (André Lefèvre) إلى أن الهيلينيين لطالما اعتبروا أن أسلافهم الأوائل كانوا من البيلاسيجين الذين كونوا النواة الأولى لسكان اليونان، ويضيف إلى أنه في زمن المؤرخ هيرودوت كان هنالك بيلاسيجيون في تراقيا، في كريستون (Crestone)، وعلى شواطئ بحر إيجه كانت هناك مستعمرة للبيلاسيجين، وأن الأسماء مثل بليون (Pélion)، بيلياس بيلي (Pélée) والتي تعني Pel-la (عاصمة مقدونيا) تشهد على استقرار ووجود البيلاسيجين في بلاد اليونان الوسطى والشرقية، وكذلك كل الجزر من تاسوس (Thasos)، ساموتاس (Samothrace) وإلى غاية كريت كانت عامرة بالبيلاسيجين، هذا بالإضافة إلى البيلوبونيز التي يبدو من وضوح اسمها والتي كانت تسمى سابقا (Pélasgie)، وكذلك المدينة المشهورة (Argos) استمدت من نظيرتها في تساليا أرجويلاسجيك (Argos) (Pélasgique) أو أرجسا (Argessa) حسب هو ميروس.³

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 86.

² - Victor Duruy, op.cit, pp 20-21.

³ - André Lefèvre, la Grèce Antique, Librairie C.Reinwald Schleicher Frères Editeurs, Paris, 1900, pp 4-5.

كما يذكر هيرودوت أن هؤلاء البيلاسجيون هم السكان الأصليون لبلاد الإغريق، حيث امتزجوا مع من كانوا بأرض اليونان من شعوب البحر المتوسط¹ ليكونوا سكان البلاد قبل مجيء الهجرات الآرية والهندوأوربية، وظلوا بعد ذلك يسيطرون على بلاد اليونان خلال فترة العصر الحجري الحديث وحتى مطلع عصر النحاس أي إلى حوالي 1900 ق.م.²

ويبدو أنه مع بداية عصر البرونز والنحاس أي بعد عام 1900 ق.م.³ أو بعد فترة من ذلك التاريخ، لا يزال هناك اختلاف في تحديد مداها⁴، انهمرت على شبه جزيرة اليونان موجات متتابة من الغزاة الذين اتصفوا بقامات طويلة وبشرة شقراء، وهو العنصر البشري الذي اصطلح على تسميته بالعنصر الهندوأوربي وتحديدًا، الفصيلة النوردية الألبانية، ويرى العلماء أنهم قريبو الشبه في عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم بالمقدونيين القدماء أو الألبانيين المعاصرين.⁵

أما عن المكان الذي قدم منه هؤلاء الغزاة فلا يعرف على وجه التحديد، ولكن الأكيد أنهم كانوا يتكلمون لغة هندوأوربية،⁶ ويعتقد أنهم جاؤوا من حوض الدانوب (سهل المجر)، أو من شمال أوروبا الشرقية أو شرق بحر قزوين وأواسط آسيا الصغرى، ثم دخلوا البلقان من شماله أو سواحله الشرقية،⁷ ليواصلوا طريقهم جنوبا في اليونان عبر تراقيا ومقدونيا وتساليا وإبيروس إلى بلاد اليونان الوسطى والجنوبية.⁸

ولا يعرف في الحقيقة الاسم الذي كانت هذه الشعوب تطلقه على نفسها حين ولوجها لشبه جزيرة اليونان لكن من الواضح أنهم كانوا ينتسبون إلى أسرة الشعوب الهندوأوربية-الأوربية،

¹ - من خلال روايات قدماء اليونان فإن البيلاسجيين جاؤوا بعد أن أبعدوا من أرض اليونان الإيبيريين (les Ibères)، وكان الأثينيون يعتقدون أن المعركة الحاسمة وقعت على أرضهم، ويعتقد كذلك أن إمبراطورية الإيبيريين كانت ممتدة عبر كل شواطئ المتوسط غير أن الليغوريين (les ligures) والكلتيون (les Celtes) طردوهم من غالة (la Gaule) والسيكول (les Sicules) والأمبوريون (les Ombiens) طردوهم من إيطاليا وتحديدًا من صقلية. (انظر: Andrés Lefèvre, op.cit, p 06.)

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص24.

³ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص57.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص86.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص25.

⁶ - نفسه، ص26.

⁷ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص87.

⁸ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص58.

وأهم كانوا قوما يمارسون القنص والفروسية والقتال ويملكون أسلحة برونزية¹. والجدير بالذكر أن حضارة هؤلاء الوافدين لم تكن بأرقى من حضارة السكان الأصليين من البيلاسيغيين الذين كانوا في أغلبهم يمتنون الزراعة².

استطاع أولئك المهاجرون الجدد من الهندو أوريين السيطرة على من كان بأرض اليونان من البيلاسيغيين وفرضوا أنفسهم عليهم، حيث صاروا حكاما على البلاد وأصبحت لغتهم الهندو أورية هي اللغة السائدة في شبه الجزيرة اليونانية، وتم لهم ذلك بفضل أسلحتهم البرونزية وشخصيتهم العدوانية، غير أنه وبمرور الزمن امتزج العنصران عرقيا وحضاريا ومع حلول القرن 16 ق.م ، أخذ العنصر السكاني في بلاد اليونان يتخذ شكلا جديدا أطلق عليه هوميروس اسم الآخيون (les Achéens) أو (Achaioi) وقد يكون ذلك اسم قبيلة ثم عممه هوميروس على الشعب كله³.

ويذهب الأستاذ عبد اللطيف أحمد علي إلى أنه بعد أن توصل المهندس البريطاني في ميشال فونتريس (Michael Ventris) وزملاؤه إلى فك رموز كتابات الآخيين المدونة على ألواح من الطين، أصبح من الثابت لدينا أنهم كانوا يتكلمون نسخة قديمة من اللغة اليونانية، لذلك لا نجد مانعا من تقبل تسمية هوميروس لهم بالآخيين لعدم ثبوت أي اسم آخر تسمى به سكان اليونان منذ مجيء الهندو أوريين (في القرن التاسع عشر ق.م) إلى زمن تأليف الإلياذة (في القرن التاسع على وجه الاحتمال)⁴، وتجدر الإشارة في هذا السياق في هذا السياق إلى أن العلماء المعاصرين قد أطلقوا على الشعوب التي استقرت باليونان في الفترة التي تلي القرن 16 ق.م وشهدوا على هذه الحضارة بالموكينيين (Les Mycéniens) نسبة إلى أشهر مدينة في شبه جزيرة البيلوبونيز وهي موكناي (Mycènes) ويمكن أن يكونوا قد عمموا اسم المدينة واسم تلك الحضارة على العصر كله⁵.

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 87.

² - نفسه.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 26.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 88.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 27.

هذا على أن الأمر قد تغير خلال النصف الأول من الألف الأولى ق.م، إذ أننا نجد أن اليونانيين صاروا يطلقون على أنفسهم ابتداء من القرن السابع وقبله بقليل اسم الهيلينيين (les Hellènes)¹ نسبة إلى جد أسطوري هو هيللين (Hellen)، وفي الحقيقة كانت هناك قبيلة تعرف بهذا الاسم وتوطن في شمال بلاد اليونان، وسرعان ما عمدم اسمها على العنصر كله، ثم ازداد التعميم فأصبح يطلق على المتحدثين باللغة الهيلينية أي اليونانية سواء في بلاد اليونان أو ساحل آسيا الصغرى أو في جزر بحر إيجه أو حول البحر الأسود أو في جنوب إيطاليا².

وهؤلاء الهلينيون هم الذين أطلق عليهم الرومان تسمية الإغريق (Graeci) وعرفوا عند أهل الشرق القديم بتسمية اليفانيين (Yavani) نسبة إلى أيونا والأيونيين ليطلق عليهم العرب فيما بعد تسمية اليونان واليونانيين³.

وخلال القرن الثاني عشر (12) ق.م سجل المؤرخون ظهور عنصر بشري جديد على الساحة اليونانية لم يكن بالغريب عن الهيلينيين أو اليونانيين فهم هندو أوريين ويتكلمون لغة يونانية بلهجة مميزة⁴ وقد عرف نزولهم من الشمال إلى شبه جزيرة اليونان بالغزو الدوري لبلاد اليونان، فهم الدوريون (les Doriens) الذين كانوا يطلقون على مجيئهم إلى شبه جزيرة البيلوبونيز بعودة أحفاد هيراقليس. استطاع الدوريون عزو بلاد اليونان والتغلب على الآخين بفضل استعمالهم لمعدن الحديد، لذلك يعتبر زمن قدومهم علامة على نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد⁵.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حرب طروادة الشهيرة التي شغلت الآخين وملوكهم لمدة عشر سنوات كان من آخر نتائجها انقلاب الموازين في بلاد اليونان، وخلال هذه المغامرة التي خاضها ملوك وزعماء الآخين والتي نجم فيها تفرق وهلاك جيوشهم الكبيرة، سمحت لقبائل

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 88 .

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 27.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 88.

⁴ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 59.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 28.

الدوريين¹ وأغرقتهم بالتحرك من المناطق التي كانوا يستقرون بها في الشمال، في مقدونيا وإيليريا وهاجموا شبه جزيرة اليونان عموماً وشبه جزيرة البيلوبونيز بشكل خاص².

ويسجل المؤرخون أنه نتيجة لغزو الدوريين فر سكان اليونان إلى أتيكا (Attique) حيث تبلور العنصر الأيوني (les Ioniens) في الشرق في مواجهة العنصر الدوري الجديد، وهرب بعض المهاجرين الآخرين إلى الشمال في بيوتنا (Béotie) أين امتزج سكانها وظهر العنصر الأيولي (les Ioliens)³، والملاحظ أنه خلال ذلك عرف اليونانيون حركة هجرات نشطة إلى داخل وخارج اليونان بسبب ضغط الغزاة الجدد، وقد استقر المقام باليونانيين الذين هاجروا من تساليا وبيوتيا والذين يسمون بالأيليون نسبة إلى لهجتهم، في جزيرة لسبوس الكبيرة والمناطق الواقعة شمال ساحل آسيا الصغرى المقابلة لها، وقد عرفت هذه المنطقة باسم أيولس (Aéolis). أما المهاجرون من أتيكا في وسط بلاد اليونان فقد استقروا في جزر الكيكلاديس أو السيكلاد ببحر إيجه، ثم في وسط ساحل آسيا الصغرى الغربي والذي أطلق عليه تسمية أيونيا (Ionie) ليؤسس أولئك المهاجرون الجدد هنالك مدناً صغيرة في أماكن القرى التي ودوها⁴.

وبذلك يتضح لنا أنه بعد حادثة الغزوات الدورية المتتالية التي أثمرت على شبه جزيرة اليونان، والتي بدأت خلال أواخر القرن 12 ق.م، ظهر على الساحة اليونانية تسميات جديدة مثل "الأيونيون" و"الأيليون" بعد أن كانت أسماء أخرى مثل الآخيين والموكيين والدوريين هي المتداولة قبل ذلك، وتعود هذه التسميات حسب بعض المؤرخين إلى قبائل إغريقية تتكلم لغة واحدة رغم اختلاف في اللهجات والكثير من العادات والثقافات، لكن الأرجح أن هذه القبائل تعود جميعها إلى أصل واحد، وتجمعها تسمية واحدة هي الهيلينيين⁵.

¹ André Lefèvre, op.cit, p 67.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص56.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص28.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص97.

⁵ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص51.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الإطار هو أن الإغريق أنفسهم كانوا يفسرون قديما انتسابهم إلى جدهم هيللين وانقسامهم إلى قبائل مختلفة تفسير أسطوريا¹، فالأسطورة اليونانية تعتبر الإغريق أو الهلليين ينحدرون من نسل دوكاليون (Deucalion) ذلك الذي نجى من غضب الاله زيوس (Zeus)² -جوبيتير (Jupiter) عند الرومان- الذي أرسل طوفانا ليعاقب دوكاليون وزوجته بيرها (Pyrrha) ويعد هلاك جميع السكان ي الآخرين ظهر في بلاد اليونان جيل جديد من البشر ينتسبون إلى هيللين ابن دوكاليون، وتضيف الأسطورة إلى أن هيللين انجب أبناء هم دوروس (Doros) جد الدوريين، والذي حكم اليونان الوسطى، وأيولس (Eolos) جد الأيوليين والذي حكم تساليا، وكذلك كزوتوس والد كل من أيون (Ion) جدا الأيونيين وآخيوس (Acheos) جد الآخيين والذي حكم البيلوبونيز.³

وإذا كانت الأسطورة تتناسب وتتوافق مع هوى اليونانيين وروحهم الوطنية فإنها في الحقيقة لا تتطابق مع الأحداث التاريخية، فبالرغم من أنها تقسم العنصر الهيليني إلى أربعة فروع، و تظهره ينحدر من أصل واحد وينتمي إلى جيل واحد، فإننا لا نجد طرحها واقعيًا لأن المجتمع اليوناني خلال العصر التاريخي لم يكن يضم سوى مجموعتين حقيقتين واضحتين من السكان الهلليين وهما الأيونيون (les Ioniens) والدوريون (les Doriens) وهما مجموعتان متباينتان ويتضح ذلك التباين من خلال المؤسسات السياسية والاجتماعية ومن خلال اللهجة والفن، وكذلك من خلال المعمار والموسيقى والشعر والمذاهب الفلسفية.⁴

ومن هنا يتضح لنا أنه كان هناك تداول في الأدوار من حيث المكانة والأهمية بين الشعوب الهيلينية، لذلك نجد أن هاتان المجموعتان كانتا قد تركتا المكان والساحة اليونانية في زمن سابق لقبائل أخرى وهي القبائل الإيلوآخية التي كانت قد تصدرت المشهد زمن الحرب الطروادية وهو كذلك زمن ازدهار الحضارة الموكينية قبل غزوات الدوريين التي اجتاحت شبه الجزيرة اليونانية.⁵

¹ - André Lefèvre, op.cit, p37.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص52.

³ - André Lefèvre, op.cit, pp 37-38.

⁴ - Ibid, p 38.

⁵ - Ibid, pp 38-39.

وما يمكن استباحته من خلال تتبع حركة الهجرات والمكونات البشرية التي استقرت ببلاد اليونان وجزر البحر الإيحي وكذا سواحل آسيا الصغرى، أنه بسبب الغموض الذي أتصفت بعض الفترات من تاريخ اليونان وكذا قلة المصادر التاريخية والشواهد الأثرية، كان من الصعب على الباحث ضبط تسميات وهويات تلك المكونات السكانية التي عمرت بلاد اليونان منذ نهاية العصر الحجري الحديث إلى العصر الكلاسيكي، ومما زاد في صعوب مهمة الباحث هو جنوح الإغريق أنفسهم إلى تأليف الأساطير وإعطاء تفسير أسطوري لكل حادثة تاريخية أو تأسيس مدينة، وربطها بهالة عقديّة يكون للآلهة المقدسة والخالدة عندهم شأن مهم فيها، الأمر الذي أحدث تداخلا وضبابية لمن يتتبع ويتقصى صحة المعلومات التاريخية في غياب الشواهد الأثرية الحاسمة التي تقطع بصحة تلك المعلومات أو نفيها.

الفصل الثاني

التطور السياسي للدول أطراف

الصراع

I- ملحة تاريخية عن التطور السياسي لبلاد إيران قبل

اندلاع الحرب الميمنية

II- أوضاع بلاد الإغريق قبل اندلاع الصراع الفارسي

الإغريقي

I- لمحة تاريخية عن التطور السياسي لبلاد إيران قبل اندلاع الحرب الميديّة:

1- دولة الميديين 710 - 550 ق.م

يعتبر الميديون (les Mèdes) من بين المكونات السكانية التي استقرت ببلاد إيران قديماً، فهم كانوا الأسبق لتصور فكرة الدولة أو المجتمع السياسي لإقامتهم نظام الدويلات أو الإمارات والمشیخات الصغيرة، وكان ذلك منذ الألف الأول ق.م، ويبدو أن دولة آشور قد سيطرت على تلك الدويلات واستوعبتها خلال فترة توسعها وبسط نفوذها على المنطقة بين عامي 705 و626 ق.م¹.

وفي هذا الإطار يخبرنا هيرودوت أن الأشوريين كانوا أسيادا على المناطق التي يعيش فيها الميدي حتى قبل القرن الثامن ق.م فيقول: "كان الأشوريون أسياد آسيا منذ خمسمائة وعشرين (520) سنة،² واذ ما احتسبنا هذا العدد من السنوات وأضفناه للزمن الذي كتب فيه هيرودوت أي خلال حوالي منتصف القرن الخامس ق.م لعدنا إلى القرن العاشر ق.م. ويشير هيرودوت إلى أن الميدي خلال تلك الفترة بدأوا يتمردون عن الأشوريين، وكانوا يحاربون من أجل التحرر، وقد استطاعوا في زمن قصير الحصول على استقلالهم لتشريع الأمم الأخرى المجاورة لهم في الاقتداء بهم³. و دائما من خلال كتابات المؤرخ هيرودوت ، قدر العلماء الباحثون المحدثون أن أول من أعلن نفسه حاكما على ميديا كان ديجوساس (Déjocès)، وكان ذلك حوالي سنة 710 ق.م في زمن التوسعات الآشورية الكبيرة التي قام بها ملكهم سرجون الثاني (Sargon II) أو شاروكين (Sharrukin).

¹ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص231.

² - Hérodote, op.cit, I, XCV.

³ - Ibid.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

استطاع ديجوساس توحيد الميديين في جسم واحد بعد أن كانوا قبائل متفرقة، وبعد حكم دام حوالي ثلاث وخمسين (53) سنة، حيث مات في حوالي سنة 657 ق.م وهي الفترة التي كان فيها الملك أشور بانيبال أن يحكم مملكته أشور من عاصمته نينوى (Ninawa)¹.

خلف ديجوساس ملك الميدي، ابنه فراورت (Phraortes) الذي لم يكتف بحكم الميديين بل سار في حملة ضد الفرس، وقد استطاع في زمن وجيز إخضاع تلك القبائل الفارسية وجعل منهم رعايا تابعين للميدي، واستغل فراورت قوة الميدي والفرس معا ليعمل على توسيع رقعة مملكته من خلال إخضاع شعوب آسيا شعبا تلو الآخر، ثم تجرأ بعد ذلك على مهاجمة الأشوريين وقصد عاصمتهم نينوى².

ويبدو أن فراورت من خلال بسط نفوذه على مملكة شاسعة امتدت من ما وراء هضبة الهندوكوش (Hindou-Kousch)، وصحراء كرمانيا شرقا (Carmanie) إلى آخر حدود أرمينيا من جهة الغرب، وكذلك بعد خضوع جميع شعوب هذه المناطق لسيادته بما فيها ملك أرمينيا باروير (Barouir)، وظن أنه قادر على غزو الأشوريين وهم من كانوا يشكلون في ذلك الزمن أعظم إمبراطورية في الشرق، لكن التاريخ يحدثنا في هذه الحادثة على أن فراورت قد اغتر بقدراته بعد انتصاراته الأخيرة، والواقع أن الأشوريين كانوا لا يزالون في تلك الفترة شعبا محاربا واستطاعوا التغلب على فراورت وجيشه في معركة كبيرة ليسقط ملك الميدي فيها قتيلا هو وخيرة مقاتليه ويرجح أن يكون تاريخ المعركة حوالي 635 ق.م³.

وبذلك انتهى حكم فراورت لميديا والذي دام زهاء الإثنيتين والعشرين (22) سنة⁴. ويرى هيروdot أن بعد وفاة فراورت أصبحت إمبراطورية ميديا بيد ساقزار (Cyaxare) ابنة وحفيد ديجوساس، ويبدو أنه كان محاربا وأكثر جسارة من أسلافه حكام ميديا وقد أحدث تغييرات

¹ - François Lenormant, Manuel d'histoire ancienne de l'Orient jusqu'aux guerres Médiques, T2, Assyriens Babyloniens, Mèdes et Perses, A.Levy Fils Libraire-Editeur, Paris, 1869, p346.

² - A.Delattre S.J, Le Peuple et l'Empire des Mèdes jusqu'à la fin du Règne de Cyaxare, F.Hayez imprimeur de l'Academie Royale de Belgique, Bruxelles, 1883, p167.

³ - François Lenormant, op.cit, p348.

⁴ - Hérodote, op.cit, I, CII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

جوهريّة واصلاّحات تنظيميّة على مستوى جيّشة حيث جعل منة جيّشاً موحداً ومنظماً فصل فيّة ففائة حسب السلاح المستعمل، فخصّص جزء لحاملي الرماح (les piques)، وجزء آخر لرماة السهام (les archers) وكذلك ففة أخرى للفرسان (les cavaliers) وقد كانوا من قبل جميعاً يحاربون مجموعةً واحدةً دون تنظيم¹.

وأول حملة قام بها سياقزار بعد تنظيم جيّشة كانت ضد البارثيين (les Parthes) الذين تمردوا عليه بعد وفاة والده فراورت². وبعد أن أعاد وإخضاع آسيا ما وراء نهر هاليس (Halys)، وحد كل قوات إمبراطوريّة ليعيد مشروع والده وهو غزو عاصمة الأشوريين نينوى³، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بحث عن حليف له جنوب حوض دجلة والفرات، فكان الاتفاق مع الكلدانيين (les Chaldéens)، وتحديداً مع ملكهم نابوبولاسار (Nabopolassar)، وذلك بغرض غزو وتقسيم آشور فيما بينهم، وكان الضمان لهذا الاتفاق هو زواج ابنة سياقزار بولد نابوبولاسار الذي كان يسمى نابوشودوروسور (Nabuchodorossor)⁴.

سار سياقزار على رأس قوات مملكته نحو نينوى بهدف تدميرها من أجل الثأر لأبيه⁵، فكان الميد من جهة الشمال وكان الكلدانيون من جهة الجنوب⁶. تمكن سياقزار من هزيمة الأشوريين في معركة ضارية، ليحكم حصاره بعدها على العاصمة نينوى غير أنه فوجئ بجيش ينهمر على مملكته في الشمال بقيادة مادياس (Madyes) بن بروتوتياز (Protothyès) ملك السكيثيين (les Scythes)، وكان هذا الأخير في حقيقة الأمر يلاحق جموع السيميريين (les Cimmériens) الذين فروا إلى آسيا فارينين من أوروبا، ليجتاز ملك سكيثيا أرض آسيا مطاردا لهم إلى أن وصل

¹ - A.Delattre S.J,op.cit, p175.

² - François lenormant, op.cit, p349.

³ - Hérodote, op.cit, I, CIII.

⁴ - François lenormant, loc.cit.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - François lenormant, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

إلى بلاد ميديا¹. حاول سياقزار الوقوف في وجه السكثيين القادمين كالسيل إلى بلادة لكنه، خسر المعركة معهم وفي يوم واحد تحول من سيد لمناطق شاسعة في آسيا إلى تابع للسكثيين². ويبدو أن السكثيين حين أحكموا قبضتهم على شمال آسيا أرادوا الزحف جنوباً نحو مصر. لكنهم حين وصلوا أرض سوريا وتحديداً منطقة فلسطين إستطاع ملك مصر بساماتييك (Psammétique) تحت تأثير الهدايا والتوسلات إقناعهم بعدم الزحف نحو بلادة³. سيطر السكثيون على آسيا مدة ثمان وعشرين (28) سنة حسب ما كتب هيرودوت⁴، غير أن الدراسات الحديثة ومن خلال رصد تلك الأحداث ومقارنتها بتاريخ آشورية أثبتت أن تلك المدة كانت على الأكثر ثمانية عشر (18) سنة⁵، مارس خلالها هؤلاء الغزاة عمليات نهب لممتلكات الميد، وفرضوا ضرائب عليهم إلى أن استطاع سياقزار الإيقاع بقيادتهم عن طريق الخديعة، من خلال دعوتهم لمائدة ثم جعلهم يفرطون في الشرب ومن ثم قتلهم وتخلص منهم⁶. نهض كل الميديين ضد السكثيين وهاجموهم أينما حلوا، ونظراً لأن هؤلاء فقدوا قادتهم لذلك فر جزء منهم عائداً إلى موطنه وجزء آخر أستعبده الميديون وبذلك تحررت ميديا من احتلال السكثيين لها⁷. سرعان ما أعاد سياقزار تحديد اتفاهه مع نابوبولوسار ملك الكلدانيين ليعيد مهاجمة نينوى عاصمة سنحريب سابقاً ليحطمها في حوالي سنة (606) ق.م، وبذلك قسم المنتصران بلاد آشور ليصبح شمالها ميديا وجنوبها بابلياً كلدانيا⁸. وتوفي سياقزار بعد أن حكم أربعين (40) سنة بما في ذلك الزمن الذي سيطر فيه السكثيون على منطقته⁹. وتجدد الإشارة إلى أنه قبل وفاة سياقزار بعامين امتدت إمبراطوريته إلى غاية نهر هالس شرقاً، بعد ما كانت حدودها لا تتجاوز حدود أرمينيا¹⁰.

¹ - A.Delattre S.J, op.cit, p175.

² - François Lenormant, op.cit, p350.

³ - Hérodote, op.cit, I, CV.

⁴ - Ibid, I, CVI.

⁵ - François Lenormant, loc.cit.

⁶ - A.Delattre S.J, op.cit, p176.

⁷ - François Lenormant, op.cit, p351.

⁸ - Ibid, 352.

⁹ - Hérodote, op.cit, I, CVI.

¹⁰ -François Lenormant, op.cit, p353.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

ويعود هذا التوسع إلى خلاف وقع بينة وبين ملك ليديا آليات (Alyatte) بن ساديات (Sadyatte)، ويعود الخلاف إلى عدم استجابة آليات لطلب سياقزار تسليم مجموعة من السكيثيين كانوا يعيشون في مملكته وفروا منها بعد قتلهم لأحد أبنائه. تحول الخلاف إلى حرب بين الميديين والليديين وعلى حسب رواية هيرودوت فإن النصر والخسارة كانت سجالا بين الطرفين، إلا أنه في السنة السادسة من بداية الحرب وخلال معركة التحم فيها الجيشان تحول فجأة النهار إلى الليل.¹ كانت هذه الحادثة محفزة للميد وكذلك الليديين لعقد الصلح بينهم. تدخل ملوك بابل وكبادوكيا من أجل عقد إتفاقيه صلح بين سياقزار وآليات، ومن أجل توثيق تلك المعاهدة دفعوا ملك ليديا إلى تزويج ابنته ارينيس (Aryénis) من استياج بن سياقزار.² واسفرت الإتفاقيه بين الطرفين على أن يكون نهر هاليس (Halyse) الذي يفصل كبادوكيا إلى نصفين، حدا فاصلا بين إمبراطورية الميد والليديين.³

حكم بعد سياقزار ابنه أستياج ، ويبدو أن هيرودوت الذي انفرد بكتابة تاريخ دولة الميديين، لم يذكر أستياج الا ليمهد للكتابة عن ملك الفرس قورش (Cyrus) وذلك لرابطة القرابة بين أستياج وقورش. حكم أستياج مدة ثلاثين عاما لم يسجل له فيها أي حدث مهم لأنه لم يكن ملكا محاربا، ولم ينسب له التاريخ أي حملة خارجية كما كان الحال بالنسبة لأسلافه من ملوك الميد،⁴ أما عن علاقته بقورش فهو جده لأمه حيث أن أستياج كانت له بنت تدعى موندان (Mandane)، الا أنه رأى في منامه حلما فسر له العرافون على أن ابنته هذه ستنجب ولدا سيحكم ذات يوم مكانه. أراد أستياج إبعاد ابنته عن الزواج من أمراء الميد ليتجنب هذا الأمر

¹ - فسر العلماء حادثه أخذ الليل فجأة مكان النهار ذلك اليوم بظاهرة الخسوف الكلي للشمس والتي تعود من خلال حساباتهم إلى سنة 597 ق م، ويرجح أن سياقزار قد توفي عامين بعد تلك الحادثة أي في سنة 595 ق م أنظر. François Lenormant, op.cit, p353.

² - Ibid.

³ - Ibid.

⁴ - Ibid , p354.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

وزوجها من أحد المنحدرين من الأسر النبيلة في بلاد فارس، لأن الفرس في ذلك الزمن كانوا أقل مكانة من الميدي¹.

بعد زواج موندان من قمبيز (Cambyse) حملت بعد فترة وجيزة وخلال مدة حملها رأى إستياج حلما آخر فسره له العرافون على أن ابنته ستلد ولدا سيكون حاكما لبلاد الميدي بدلا منه. أمر الملك بإحضار ابنته من بلاد فارس ووضعها تحت المراقبة إلى أن وضعت وليدها، وحينها أمر أحد أعوانه ويدعى هرباقوس (Harpagus) بقتل الطفل والتخلص منه. لم يجرؤ هرباقوس على تنفيذ هذه الجريمة بنفسه وأوكل أمرها إلى أحد الرعاة العاملين عند الملك طالبا، منه أخذ الولد إلى مكان مهجور في أحد الجبال المجاورة وتركه هناك إلى أن يهلك. كان لهذا الراعي ولد قد توفي له بعد ولادته في تلك الأيام، وأمام توسل زوجته له بعدم قتل ذلك الطفل احتفظ بحفيد أستياج² ومنحه اسم ابنه الذي كان أغرادات (Agradate) والذي أخذ فيما بعد اسم قورش³.

حين كبر الفتى في القرية التي كان يقطن بها الراعي وصار سنه عشر سنوات قام بمغامرة حسب ما أورده هيرودوت أدت إلى التعرف عن شخصيته وهويته الحقيقية، فحين كان يلعب مع أقرانه من أطفال القرية اختاره هؤلاء ليكون ملكا عليهم. تقمص أغرادات دور الملك ووزع على بعض رفقائه مناصب إدارية وعلى البعض الآخر مناصب حرس شخصيين، وكان من بين الأطفال المشاركين في هذا المشهد ابن أرتومباراس (Arthembarès)، وهو رجل ذو مكانة وحضور عند الملك أستياج⁴.

رفض هذا الولد طاعة أوامر الملك الطفل، ومقابل ذلك أمر هذا الأخير بإحضاره ومعاقبته جلدا بالعصى. ذهب الولد واشتكى ما وقع له لأبيه الذي رفع بدوره شكاية ولده إلى الملك أستياج. طلب الملك إحضار الراعي ميثرادات (Mithridate) وولده، وحين سأل أستياج الطفل عن سبب فعلته تلك، أجابه أنه فعل ذلك من قبيل ترسيخ العدالة، وشرح له أن الأطفال في الحي

¹ - Hérodote, op.cit, I, CVII.

² - Ibid, CVII-CXIII.

³ - François Lenormant, op.cit, p355.

⁴ - Hérodote, op.cit, I, CXIV.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

قد إختاروه ليكون ملكا عليهم لأنهم رأوا فيه الشخص الأكثر احتراماً وهيبة، وأضاف أن الجميع نفذ أوامره إلا ابن أرتومباراس لم يعره أي اهتمام، ورفض طاعته ولذلك قام بمعاقبته لينهي حديثه للملك قائلاً: "وإذا كان هذا العمل يستحق أن أعاقب عليه فأنا مستعد لذلك"¹.

لم يخف على الملك أستياج من خلال طريقة كلام الطفل وكذلك من خلال ملامحه الشبه الكبير بينه وبين هذا الولد، لذلك أمر بخروج جميع الحضور وطلب من حرسه اقتياد الطفل إلى داخل القصر، لينفرد بمثيرات الراعي ويسأله عن أغرادات، من يكون؟ وابن من هو؟ أجاب الراعي في البداية بأنه ولده ولكن حين رأى أدوات التعذيب اعترف بكل شيء².

أرسل أستياج ليستقدم مساعده هرباً غوس، وليخبره بأنه عرف بأمر حفيذه الذي لم يقتله كما أمره، وأوضح له أنه مسرور لكونه لا يزال على قيد الحياة لأن حادثة مقتله المزعومة آلمت كثيراً ابنته التي لم يتحمل لومها وعتابها له طول تلك السنوات. ويظهر هذا المشهد مدى قساوة قلب إستياج وحقده على من لا ينفذ أوامره وغدره بهم، حيث أنه طلب من هرباغوس إرسال ولده إلى القصر ليرافق حفيذه الأمير، وأضاف أنه يدعوه إلى مائدته لتناول الطعام معه بمناسبة نجاة حفيذه و العثور عليه. حين وصول ابن هرباغوس إلى القصر أمر أستياج بقتله وطهيه في الطعام، ليقدم بعد ذلك إلى والده هرباغوس على أنه لحم بعض الفرائس. وبعد أن تناول هرباغوس طعامه سأله أستياج إن كان طعمه لذيذاً، ثم أبلغه بأنه من لحم ابنه³. تماسك هرباغوس لقاء هذه الحادثة ولم يبد أي انفعال لكنه في الحقيقة بدأ يكن حقداً كبيراً للملك ستظهر آثاره بعد سنوات⁴.

وبعدما اعترف أستياج بحفيذه الجديد استطلع مرة أخرى رأي العرافين في أمره، فأعلموه بأن الحلم الذي رآه قد تحقق وبأن الطفل قد سبق له وأن أصبح ملكاً من خلال الدور الذي لعبه مع أقرانه من الأطفال⁵. أرسل أستياج حفيذه إلى بلاد فارس بعد أن زال الخطر من جهته، ليعيش

¹ - Hérodote, op.cit, I, CXIV-CXVI.

² - François Lenormant, op.cit, p357.

³ - Hérodote I, op.cit, CXVII-CXIX.

⁴ - François Lenormant, op.cit, p358.

⁵ - Ibid.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

بالقرب من والده قمميرز، وهناك عرف رسل هرباغوس السريين كيف يصلوا إليه ويحركوا طموحه في الحكم ووعدته من خلالهم بمساعدته ونصرته، وأن الأمر ليس بالعمل الصعب لكثرة الأعداء الذين صنعهم أستياج بشدته وقسوته حتى في وسط قصره¹.

خضع الفرس للميد في عهد فراورت ابن ديجاسوس كما تمت الإشارة إلى ذلك مسبقا، ويبدو أنهم قبل هذا الخضوع الذي تم حوالي 650 سنة ق.م لم يكونوا موحدين، غير أنهم قبل خضوعهم لميديا تم إخضاعهم في بعض المناطق من طرف الأشوريين ، وقد عرف عنهم أنهم حكموا من طرف خمسة ملوك لا تعرف أسمائهم وذلك قبل أخيميناس (achaeménès) والذي كان آخر الملوك المستقلين والذي هزمه فراورت وجعله ملكا تابعا له، ويعتبر أخيميناس أحد أجداد قورش ومن اسمه أخذت أسرة الحكم عند الفرس تسمية الأسرة الأخمينية².

ومن الواضح أنه حين وصل رسل هارباغوس إلى قورش في بلاد فارس، كان حاكما على تلك البلاد أو على جزء منها على الأقل، فهذا هيرودوت يخبرنا بأن قورش بدأ يفكر في التمرد على سلطة أستياج بعد وصول رسالة هرباغوس، تلك الرسالة التي كان محتواها يتوافق مع رؤيته، ومن أجل ذلك جمع زعماء القبائل الفرس في مجلس، وقرأ عليهم رسالة أخرى زعم أنها من أستياج يعينه فيها حاكما على كل بلاد فارس، ثم طلب منهم أن يحضر كل منهم منجلا ثم أخذهم إلى ناحية من بلاد فارس مليئة بنبات العليق والأشواك، وطلب منهم العمل على نزع تلك النباتات واقتلاع الأشواك وبعد نهاية العمل طلب منهم الاغتسال والقدوم إليه يوم الغد³.

حين عادوا في الغد أخذهم إلى مكان معشوشب وطلب منهم الجلوس، ثم أحضر عددا من الماشية من قطعان والده وأعد لهم طعاما وسقاهم بأجود أنواع النبيذ، ثم سألهم أي حال وجدوه أفضل عندهم، حال الأعمال التي كلفهم بها بالأمس أم حال اليوم والاستمتاع بما لذ وطاب من الطعام والشراب⁴، وحينها قال لهم: "إذا أطعتموني واتبعتكم أوامري فستعيشون في هذه الخيرات

¹ - Hérodote, op.cit, I, CXX-CXXIV,

² - François Lenormant, op.cit, p347.

³ - Hérodote, op.cit, I, CXXV.

⁴ - Ibid, I, CXXV, CXXVI.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

دون أن تتعرضوا لتلك الأعمال والمشاق التي تعرضتم لها بالأمس، ولتصبحوا بذلك أحرارا، فأنتم لا تقولون مكانة عن الميد الذين يحكمونكم، وإني أجد أن مولدي الذي كان قد حدث بشكل خاص قد حظى بعناية الآلهة، وماهو إلا إشارة للعمل على تحريركم من الخضوع لإستياج والاستمتاع والتنعم بخيرات هذه البلاد¹.

ويبدو أن الفرس كان يعيشون في ذلك الجزء من إمبراطورية ميديا الذي تمثله المقاطعة الجبلية التي تسمى حديثا فرسيستان (Farsistan) من بلاد فارس (la Perse)، وكانت أمتهم كما ذكرنا سابقا تمثل فرعا نقيا من الهجرة الإيرانية إلى المنطقة، أما عن طريقة عيشهم فقد ظلوا ولمدة طويلة بدوا ونصف برابرة واستمروا في ذلك النمط من العيش في طقس غالبا ما يكون قاسيا وهو ما أكسبهم قوة وجأشا شديدين وظلوا كذلك إلى أن حكمهم قورش².

ويقول هيرودوت أنه حين علم أستياج بتحركات قورش وجمعه لقبائل فارس، أرسل في طلبه من أجل الحضور إليه، فرد عليه قورش بأنه سيلتقيه في وقت أقرب مما كان يتصوره، ومن خلال هذا الرد فهم أستياج الرسالة وبدأ يجمع الميد وجعلهم يحملون السلاح ويستعدون للحرب، وبما أن القدر كان يقود أستياج إلى الهزيمة قام بتعيين هارباغوس على رأس جيشه ناسيا ما فعله به في وقت سابق. التحم الجيشان بعد اندلاع المعركة بينهما وكان الميد الذين لم يعملوا بنوايا هارباغوس يقاتلون بشجاعة، أما الآخر فجاء منهم انحاز إلى جانب الفرس، أما الجزء الآخر وهو الأكثر عددا فتعاملوا بجبن مع الحدث لمسايرة المصير المخطط له من طرف هارباغوس،³ ويبدو أن تيغران (Tigrane) ملك أرمينيا حين سمع بتحريك قورش ضد الميد، أعلن التمرد والعصيان هو الآخر وقدم للملك الفارسي الشاب دعما ثميناً.⁴

بعد هزيمة جيش أستياج، جمع الملك من تبقى من الميد كبارا وصغارا، وسار بنفسه لمواجهة الفرس غير أنه خسر المعركة ضد قورش، ووقع هو نفسه بين أيدي أعدائه⁵، كان هارباغوس

¹ - Hérodote, op.cit, I, CXXVI.

² - François Lenormant, op.cit, pp 358-559.

³ - Hérodote, op.cit, I, CXXVII.

⁴ - François Lenormant, op.cit, p362.

⁵ - Hérodote, op.cit, I, CXXVIII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

مسرورا بأن رأى أستياج في الحديد، ويبدو أنه تشفى في ملكه وأهانه بعد أسره مذكرا إياه بتلك الوجبة التي قدم له فيها ابنه على الطعام. فهم أستياج أن هارباغوس كان متواطئا مع قورش لذلك وصفه بعدم الفطنة والعقل رغم الخيانة التي تعرض لها الملك، فعدم الفطنة يكمن في أن الذي هيا لتمرر بهذا الحجم كان من الأولى أن يكون هو صاحبة، أي الملك بدلا عنه ولا يسلمه لشخص آخر، خاصة إذا كان ذلك الشخص فارسيا وليس من الميدي، أما عدم التعقل فلكون هارباغوس بهذا العمل لم يقض على إستياج فقط بل قضى على كل حكم الميدي في آسيا، بعد أن كان الميدي سادة آسيا أصبحوا تابعين الآن للفرس الذين كانوا يرونهم أقل شأنًا منهم بل كانوا سادة عليهم وعلى كل شعوب آسيا¹.

حدد هيرودوت مدة حكم أستياج بخمسة وثلاثين (35) عاما كما حدد حكم الميديين للمنطقة بمائة وثمان وعشرين سنة (128) استطاعوا فيها إدارة إمبراطورية آسيا العليا إلى غاية نهر هاليس، وذلك دون احتساب زمن حكم السكيثيين لهم ويصف المؤرخ بأنه بعد كل تلك السنوات من الحكم أصبحوا تحت رحمة الفرس بسبب عدم إنسانية هذا الملك ويقصد أستياج آخر ملوكهم².

وإذا كان الباحث فراسنوا لينورمون (François Lenormant) قد حدد فترة حكم أول ملوك ميديا استنادا إلى هيرودوت بـ ثلاث وخمسين (53) سنة، وحددها بين 710 ق.م و 657 ق.م ليخلفه ابنه فراورت³، فإن الباحث قسطنطين فوليني (C.F.Voleney) قد حدد تاريخ وفاة فراورت بسنة 635 ق.م، وسنة وفاة سياقزارة بسنة 595 ق.م، أما سنة وفاة أستياج فهي 561 ق.م لتكون سنة 560 ق.م بداية حكم قورش لبلاد فارس وبلاد ميديا⁴.

وخلال فترة تاريخ هذه الدولة يمكن تمييز ثلاث مراحل مختلفة: مرحلة التنظيم القومي بقيادة ديوجيساس ، ومرحلة الغزوات الخارجية بقيادة كل من فراورت وسياقزار، ومرحلة القوة والاستقرار

¹ - Hérodote, op.cit, I, CXXIX.

² - Ibid.

³ - François Lenormant, op.cit, p346.

⁴ - C.F. Volney, Recherches nouvelles sur l'histoire ancienne, 2ème partie comprenant les Lydiens, les Assyriens, les Mèdes..., Madame veuve courcier, imprimeur-Libraire, Paris, 1814, p 04.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

تحت حكم استياج.¹ وقد بسطت ميديا نفوذها في هذه الفترة على مساحة كبيرة من المنطقة الشرقية للعالم القديم فوصلت حدودها شمالاً إلى البحر الأسود، القوقاز والبحر القزويني، أما غرباً فوصلت إلى مجرى نهر هاليس الأعلى، كليليكيا في الوسط مجرى الفرات في الجنوب الغربي، أما جنوباً فكانت حدودها تلامس حدود دوله بابل ومنطقه العيلاميين والخليج الفارسي، وقد توسعت في جهة الشرق، وإذا اعتبرنا أن كل الشعوب الآرية كانت تتبعها فيمكن تعيين حدها الشرقي بنهر السند.²

2- دولة الفرس بزعماء الأسرة الأخيمينية

سقطت إذا بانتصار قورش على أستياج دولة الميديين لتبدأ دولة الفرس تحت حكم الأسرة الأخيمينية (Achéménide) التي يعتبر قورش أقوى مؤسسها.³ ولقد أحدث ظهور هذه الدولة تغييراً كبيراً على صعيد الخارطة السياسية وموازين القوة في العالم القديم.⁴ فبعد استيلاء هؤلاء الفرس على عاصمة ميديا إكباتانا (Ecbatane) سنة 550 ق.م، تمكنوا بقيادة ملكهم قورش وفي زمن وجيز من بسط نفوذهم على الأقاليم التابعة لها مثل كبادوكيا، وأرمينية في ناحية الغرب، وبارثيا (Parthie) وهيركانيا (Hyrkanie) في الشرق،⁵ ليدخلوا بعد ذلك في حرب ضد الليديين بقيادة ملكهم كروسوس (Cresus) و سرعان ما ألحقوا به الهزيمة واستولوا على عاصمته سارديس (Sardès) رغم مساعدة ملوك الأسرة الصاوية المصرية له، وكذلك المدن الإغريقية، و الملوك الكلدانيين لهذا الأخير⁶، وكان ذلك بين سنتي 547-546 ق.م.⁷

¹ - A. D. Delattre S.J, op.cit, p196.

² - Ibid, p194.

³ - سيد احمد علي الناصري, المرجع السابق, ص232.

⁴ - صبحي عطية يونس، جيش قمبيز المفقود، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الحادي والأربعون، الجزء الثاني، أغسطس 2007، ص450.

⁵ نفسه.

⁶ سيد احمد علي الناصري، المرجع السابق، ص232.

⁷ طه باقر، ص450.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

مد قورش حدود دولته إلى نهر باخارتش أو سيرداريا (syr-Deria) الحالي، ليضم أقاليم درانجيانا (Drangiane) وأراخوسا (Arachosie) وسوجديانا (Sogidiane). ومارجيانا (Margiane) وباكتريا (Bactriane) بلخ، وماركاندا (Marakanda) سمرقند (Samarcande).¹ ليتجه بعد ذلك جنوباً ويستولي على بابل عام 538 ق.م،² وتسقط بلاد الشام بالتبعية لها ويصل الفرس للمرة الأولى إلى مياه البحر المتوسط.³ (أنظر الملاحق 1-2 خرائط) ومن خلال استيلاء قورش ومن ورائه دولة الفرس مع كل هذه المناطق، يمكن القول أن العالم القديم قد فوجئ بظهور قوة شرقية جديدة سرعان ما وصلت إلى مياه البحر المتوسط وأظهرت عن طموح غير مسبوق في الهيمنة وبسط نفوذها على أكبر مساحة من هذا العالم.⁴

ويبدو أن شخصية القائد لهذه التوسعات قد ساهمت بشكلٍ أو بآخر في نجاح عملياته العسكرية وتمدده عبر البلدان المجاورة، فقورش كان ذو سياسة حكيمة ومقدرة فذة على الإدارة والتنظيم، كما عرف عنه عفوه وتسامحه مع أعدائه بعد الانتصار عليهم، وتشهد له بذلك طريقة تعامله مع كروسوس ملك ليديا وكذلك شعب بلاد بابل.⁵ ويبدو أن قورش كان ينوي الوصول بعد بلاد الشام أو الأراضي السورية إلى مصر، وذلك من خلال تجهيزه لحملة كبيرة لغزوها غير أنه لقي حتفه اثناء التصدي لتمرّد قبيلة المساجاتس (Massagetes) السكيثية على حدود إمبراطوريته الشرقية وكان ذلك سنة 529 ق.م.⁶

توفي قورش بعد أن ترك إمبراطورية الفرس تمتد من بحرايجه في الغرب إلى جبال الهندوكوش في الشرق ومن بحر قزوين في الشمال حتى صحراء العرب في الجنوب.⁷ ويبدو أن قورش قد رتب قبل

¹ صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص 449-450.

² سيد احمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 232.

³ صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص 450.

⁴ أندريه إمار و جيانين أوبويه، تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ربحان، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ص 214.

⁵ طه باقر، المرجع السابق، ص 450.

⁶ صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص 450.

⁷ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 232.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

ذهابه على رأس حملته ضد الماساجات أمر خلافته في الحكم، حيث أرسل ابنه الأكبر قمبيز - والذي كان يراه جديراً بخلافته- إلى بلاد فارس،¹ وهذا الأمر الذي تحدث عنه هيرودوت،² وأكدته ستيزياس (Ctésias)³. ومن خلال المعلومات المستقاة من المصادر القديمة ذهب الباحثون إلى أن قورش قد قسم المهام بين ابنائه قبل وفاته حيث عين قمبيز كوريث له في الحكم، في حين حظي ابنه الآخر بارديا (Bardiya) بحكم منطقة شاسعة في آسيا الوسطى، هذا الأخير ذكر بعدة أسماء منها تانو قزاركيس عند ستيزياس وسمرديس عند هيرودوت، أما اسم بارديا فهو اسم أطلقه عليه البابليون.⁴

خلف إذا قمبيز والده قورش في حكم إمبراطوريته (530-522 ق.م).⁵ لم يكن قمبيز يشبه أباه في طريقة الحكم ومعاملة الشعوب الخاضعة لحكمه، لأن قورش إضافةً إلى كونه كان يملك موهبة عسكرية، كان يحسن إدارة مملكته كما يحسن التعامل مع من يدخلون في طاعته من الشعوب الأجنبية إلى درجة أن الكثير من هذه الشعوب دخلت في حكمه طوعية. ولذلك صار صيته ذائعاً عند الفرس وصار مثالا يحتذى به⁶، أما ابنه قمبيز ورغم أن هناك من أشار إلى أنه سار على نهج أبيه لأنه كان شريكاً له في الحكم لمدة ثمان سنوات، وكان يحكم باسمه بلاد بابل⁷، إلا أن الراجح عند المؤرخين أنه كان يختلف في أسلوب حكمه عن أبيه، إذ كان أكثر قساوةً منه وأكثر تعالياً على شعبه ورعاياه⁸.

وبحكم أن قمبيز قد صار سيد إمبراطورية الفرس فقد كان لزاماً عليه من جهة الحفاظ على سيطرة الحكم الفارسي على المناطق التي تم ضمها سابقاً إلى المملكة، وكذلك العمل على توسيع

¹ - Pierre Briant, Histoire de l'empire perse de Cyrus à Alexandre, Librairie Artheme Fayard, Paris, 1996, p83.

² - Hérodote, I, CCVIII.

³ - Ctésias, Extrait de l'histoire de perse-Histoire d'Hérodote, Texte traduit du Grec, Imprimerie de C.Grapelet, Paris, 1802, p220.

⁴ - Pierre Briant, loc.cit.

⁵ - طه باقر، المرجع السابق، ص451.

⁶ - T.D Raffenet, op.cit, p25.

⁷ - صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص450-451.

⁸ - T.D Raffenet, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

رقعة نفوذ الفرس نحو المناطق التي كان ينوي ضمها وهي مصر،¹ لأن قورش كان قد بدأ التحضير لتجهيز حملة لغزو مصر لولا ذلك التمرد الذي ظهر في سكيثيا والذي قام به شعب المساجات.² ويمكن القول أن أول ما خطط له قمبيز بعد مباشرته حكم مملكة الفرس هو غزو مصر انتقاماً من ملكها أحمس الثاني (Amassis II).³

ويبدو أن قمبيز وبغرض تحضيره لغزو مصر تمكن من ضم كل من فينيقيا (Phénicie) وجزيرة قبرص (Chypre) إلى إمبراطوريته، ورغم أننا لا نعلم شيئاً عن كيفية غزو الفرس لها تين المنطقتين،⁴ إلا أن هيرودوت تحدث على أن الفينيقيين والقبارصة قد دخلوا طواعيةً في حكم قمبيز،⁵ وقد كان للفينيقيين والقبارصة دور مهم في غزو مصر خاصة من ناحية تدعيم أسطول الفرس الحربي مقابل الأسطول المصري الذي كان من أقوى الأساطيل في البحر المتوسط.⁶

كانت مصر منذ سنة 664 ق.م قد دخلت في حكم ملوك الأسرة الصاوية (Saïte) الذين حاولوا أن ينهضوا بمملكتهم ليصلوا بها إلى ما كانت عليه في عهد الدولة الحديثة من خلال استعادة هيبة الملكية وإعادة وحدة الحكم المركزي وتقوية الجبهة الداخلية ضد الغزاة الخارجيين.⁷ ومنذ سنة 570 ق.م، حكمت مصر من طرف الملك أحمس الثاني (Amassis II).⁸

ويقول هيرودوت أن مصر في تلك الحقبة كانت مزدهرة سواءً من حيث خصوبة الأرض التي كان النيل يمنحها إياها أو من حيث وفرة المنتوجات التي تطرحها أرضهم على سكانها، وكانت هذه الدولة التي تعد ثمانين ألفاً (80000) من السكان بلادا عامرة بسكانها.⁹ كان لدى أماسيس جيش قوي وأسطول ورثه عن من سبقوه في الحكم منذ عهد نيخاو (Néchao II) الثاني (610-595 ق.م)، وكان جيشه مدعماً بمجموعات من المرتزقة القادمين من كل بلاد الشرق

¹ - Pierre Briant, op.cit, p85.

² - صيحي عطية يونس، المرجع السابق، ص450.

³ - T.D. Raffenet, loc.cit.

⁴ - Pierre Briant, loc.cit.

⁵ - Hérodote, op.cit, III, XIX.

⁶ - Pierre Briant, op.cit, pp85-86.

⁷ - عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ج1، مكتبة نجلى المصرية، القاهرة، 2012، ص432.

⁸ - Pierre Briant, op.cit, p86.

⁹ - Hérodote, op.cit, II, CLXXVIII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

وحتى من كاريا (Carie) وأيونيا (Jonie)،¹ كما عقد أماسيس تحسبا لغزو الفرس عدة تحالفات مع كل من بابل وليديا ورودس وأسبرطة وقورينة، وأهمها مع بوليكرات (Polycrate)² حاكم جزيرة ساموس (Samos) الذي قال عنه هيرودوت أنه كان في حوزته أربعين سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trirème)،³ الأمر الذي كان يعتبر تحديثا تحدياً كبيراً من الناحية التقنية الحربية في العالم الايجي من 555 إلى 525 ق.م.⁴

تغيرت الظروف الداخلية لمصدر لتصب في مصلحة قمبيز اذ توفي ملكها أحمس الثاني سنة 526 ق.م ليخلفه ابنه بسماتيك الثالث (Psammétique III) والذي لم يكن بخنكه وقرس أبيه في أمور الحكم والسياسة الخارجية وكذا الخبرة العسكرية⁵. كان لوفاة أماسيس أو أحمس الثاني بالغ الأثر على وضعية مصر العسكرية، خاصةً بعد انقراط العقد الذي كان بينه وبين بوليكرات حاكم ساموس الذي استطاع قمبيز إستمالته إلى جانبه.⁶

ومما زاد في تعقيد الوضعية بالنسبة للمصريين هو تمرد أحد قادة الإغريق المرتزقة ويدعى فارناس الهالكاليكارناسي (Pharnès d'Halicarnasse)، الذي كان ذو خبرة عالية في الحرب وعلى دراية كبيرة بتفاصيل الحياة وكذا نقاط قوة وضعف الجيش المصري، ومن خلال انضمامه إلى جانب الملك الفارسي قمبيز، قرر الملك السير نحو مصر، لكن الصعوبة الوحيدة التي كانت تواجهه هو توفير ما يلزم جيشه من الماء لعبور الصحراء، لذلك نصحه فارناس أن يطلب من ملك العرب السماح له بالعبور عبر أراضية وتوفير ما يلزمه لعبور الصحراء إلى مصر.⁷

أما بالنسبة لأسطول قمبيز البحري فكان بحوزته سنة 525 ق.م قوات بحرية فينيقية، قبرصية وكذلك إغريقية أيونية وأيولية بها مجموعة من مدينة ميليتان (Mylitène)، وفي هذا الصدد

¹ - Pierre Briant, op.cit, p87.

² - صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص451.

³ - Hérodote, op.cit, III, XLIV.

⁴ - Pierre Briant, op.cit, p87.

⁵ - صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص451.

⁶ - Pierre Briant, op.cit, p88.

⁷ - Hérodote, op.cit, III, IV .

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

يمكن اعتبار الملك قمبيز المؤسس الحقيقي للبحرية الحربية الفارسية والتي جمعها بفضل اسهامات الفينيقيين وإغريق آسيا الصغرى من خلال خبرتهم وكذلك تزويده بالمواد التي تبنى بها المراكب.¹ وعلى مستوى التحرك البري أشارت بعض المصادر إلى أن جيش الفرس قد وصل عدد عدده إلى مليون رجل.²

وفي الحقيقة لم يتحدث هيرودوت كثيراً عن تفاصيل المعركة التي وقعت بين جيش قمبيز وجيش بسمتيك الثالث والذي كان يعسكر بالقرب من التفريعة الشرقية لنهر النيل³، غير أنه أشار إلى أن المعركة لم تكن نتيجتها لصالح المصريين الذين فروا وتحصنوا بقلعة منفس (Memphis) أين حوصروا من طرف الفرس إلى أن استسلموا وأسر ملكهم.⁴

أصبح قمبيز سيداً لمصر ويبدو أنه أراد في وقت وجيز تحقيق طموحات فراعنة مصر في التوسع غرباً باتجاه ليبيا (Libye) وسيريناياك (Cyrénaïque) أو قورينة، وكذلك باتجاه الجنوب نحو بلاد النوبة وأثيوبيا (Ethiopie)،⁵ و يتحدث هيرودوت على أن الليبيين (les Libyens) ومخافة غزو الفرس لبلادهم، سارعوا بإرسال هدايا لقمبيز كعلامة لخضوعهم له وكذلك فعل القوريثيون،⁶ كما عزم الملك الفارسي عقب انتصاره في مصر على إطلاق ثلاث حملات: واحدة ضد القرطاجيين (les Carthaginois) وأخرى ضد الأمونيين (Ammoniens) وهم سكان واحة سيوة وكذلك ضد الأثيوبيين (les Ethiopiens)،⁷ إلا أنه تراجع عن الحملة ضد القرطاجيين بسبب رفض حلفائه الفينيقيين الإشتراك فيها لأنها تستهدف مستوطنة فينيقية.⁸

وحسب هيرودوت دائماً فإن الحملتان اللتان توجهتا نحو واحد سيوة (Ammon) وضد أثيوبيا فشلتا بسبب كوارث حقيقية، وقد أرجع هيرودوت السبب إلى جنون وهوس قمبيز الذي

¹ - Pierre Briant, op.cit, p 89.

² - T.D Raffenet, op.cit, p 26.

³ - التفريعة الشرقية لنهر النيل أو المكان المعروف بالفرا أو بلوزيوم Pelus (صبحي عطية يونس، المرجع السابق، ص 453)

⁴ - Hérodote, op.cit, III, XIII, XIV.

⁵ - Pierre Briant, op.cit, p 90.

⁶ - Hérodote, III, op.cit, XIII.

⁷ - Ibid, III, XVII.

⁸ - Ibid, III, XIX.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

ذهب إلى الحرب في هذه المناطق دون أن يحضر نفسه وجيشه من خلال تأمين المؤن والماء،¹ وبذلك كان مصير الفرق المتوجهة إلى واحة سيوة الغرق في الرمال، أما الجيش المتوجه إلى أثيوبيا فقد تمكن منه العطش والجوع، ليستاء قمبيز كثيراً من هذا الأمر ويزيد من بطشه وفضاعاته ضد المصريين بعد عودته إلى منفس، وكل من نجى من بريرية وهمجية جنوده في مصر أثناء غزوها لم ينج حين عاد إليها من الجنوب ولم يعرف غضبه بعد ذلك حداً.²

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن علماء الآثار أثبتوا عكس ما ذهب إليه هيرودوت من أن حملة قمبيز فشلت في الجنوب وأن الملك أجبر على التراجع، وذلك بعد تلك الحفريات التي أجريت على أحد المواقع الأثرية في قلعة دورجينارتي (Dorginarti) والتي شيدت منذ عهد الصاويين (les Saïtes) على علو شلال النيل الثاني، فالسيراميك المستعمل في هذه القلعة والوثائق الأرامية التي عثر عليها هناك، أثبتت أن تلك القلعة كانت ضمن مواقع تتبع الأسرة الأخيمنية خلال فترة حكمها.³

ويذهب هيرودوت إلى أنه حين عاد قمبيز من الجنوب وجد المصريين يحتلفون في منفس بالإله أبيس (Apis) والذي كان الأغريق يسمونه إيبافوس (Epaphus)، وكان هذا الإله مجسداً عندهم في ثورة مقدس له اسم أبيس عليه لباس وزينة من أغلى الأنواع. اعتقد قمبيز أن المصريين ما أقاموا هذا الاحتفال إلا فرحاً بانكساره في الجنوب، لذلك قام بقتل الكهنة المشرفين على هذا الاحتفال،⁴ ثم قتل الثور المقدس أبيس وبقرة بسيف قائلاً: "إذا كان إله فليثبت ذلك".⁵

لم يسلم أحدٌ من نوبة الغضب التي أصابت قمبيز فقد قتل أخاه سمرديس أوبارديا (Smerdis)،⁶ لأنه تخوف من صعود هذا الأمير الشاب الذي بدأ يكسب ثقة الجند والفرق العسكرية بشجاعته وحسن معاملته لهم، ولم يوفر حتى حياة أخته وزوجته الأميرة ميري Méroë

¹ - Pierre Briant, op.cit, p 91.

² - T.D.Raffenet, op.cit, pp 28-29.

³ - Pierre Briant, loc.cit.

⁴ - Hérodote, op.cit, III, XXVII, XXVIII.

⁵ - T.D Raffenet, op.cit, p 29.

⁶ - Pierre Briant, op.cit p 92.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

التي كان جرمها الوحيد أنها عاتبتة على قتل أخيه سمرديس. كان قمبيز يتصرف بعنصرية وشدة كبيرتين إلى درجة أن ضباطه صاروا لا يقتربون منه إلا وهم يرتجفون¹.

أحدث مقتل سمرديس ضجيجاً كبيراً في بلاد فارس، وبما أن هذا الأمر لم يتأكد بالفرس قبل عودة قمبيز إلى عاصمته فقد استغله أحد المدعين من خلال تقمص شخصية سمرديس وطلب الحكم لنفسه². كان هذا المدعي يسمى أوروباست (Oropaste) وكان ابناً لأحد الأشخاص البارزين في الكهنوت لذلك عرف باسم سمرديس الدجال (Smerdis Le Mage)، ولقد حظي بقبول الكهنة وتعاونهم معه لذلك هيأوا له الأمر من خلال دعوة الناس للاعتراف بحكمه وإعلانه ملكاً³.

خرج قمبيز من مصر لاستدراك أمر ملكة لكنه جرح في فخذه حين هم بركوب حصانه، ومات بعد أيام قبل أن يصل إلى بلاد فارس⁴. حكم قمبيز ثمان سنوات، كان حكمه المشدد فيها قد ضيع على الفرس كل المكاسب التي حققوها في عهد قورش، حيث صار اسم وصيت الفرس فيها سيئاً وأعطى لمن جاء بعده المثل في الاستبداد والقتل وعدم الثقة في الغير⁵.

حكم سمرديس المزيف بأريحية بعد وفاة قمبيز، وذلك لمدة سبعة أشهر حيث غمر رعاياه بالعطايا وأعلن في الولايات أنه أعفى الناس من الضرائب لمدة ثلاث سنوات⁶. وبعد الشهر السابع يبدو أن الشكوك قد بدأت تساور أشرف الفرس والقرييين من البلاط في أمر سمرديس المزيف، أو أوروباست المدعي، وكان أحد الأشراف ويسمى أوتاناس Otanès، هو من بدأ يبحث عن حقيقة الملك الذي يحكم فارس إن كان سمرديس أو أنه ذلك الدجال الذي تدور حوله الشكوك، والذي يعرفون أنه في زمن قورش قد تم قطع أذنيه لذنوب ارتكبه، ومن أجل التحقق من الأمر طلب أوتاناس من ابنته التي كانت زوجة لقمبيز والتي أصبحت من زوجات الدعي أن تتأكد إن كان هذا

¹ - T.D Raffenet, op.cit, p29.

² - Hérodote, op.cit, III, LXI.

³ - T.D Raffenet, op.cit, p 31.

⁴ - Hérodote, op.cit, III, LXIV.

⁵ - T D Raffenet, loc.cit.

⁶ - Hérodote, op.cit, III, LXVII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

الملك له أذنان أم أن أذناه مقطوعتان، ولما تأكدت فيديم (Phedyme) ابنه أوتاناس من أنه الدعي وليس سمرديس ابن قورش، قرر والدها اشراك ستة من كبار نبلاء الفرس وإطلاعهم على الأمر من أجل التخلص من هذا الدعي¹.

ويبدو أن جيش قمبيز قد عاد إلى بلاد فارس وظل وفيا للأسرة الأخمينية حيث انحاز إلى النبلاء السبعة الذي قرروا خلع الدعي، والراجح أن هؤلاء السبعة قد نصبوا زعيما عليهم يسمى داريوس بن هيستاسب (Darius fils de Hystaspe)² الذي استطاع إقناعهم بجرأته وشجاعته وحسن تعامله مع هذا الموقف من أن يتسيدهم، رغم أن هيرودوت قد سرد قصة طريفة عن كيفية تنصيبه سيدا³ عليهم وملكا على بلاد فارس فيما بعد، وذلك من خلال تتويج من تصهل فرصة أو حصانه أولا عند طلوع النهار، فكان حصان داريوس الأسبق لذلك⁴.

3- دولة الفرس في عهد الملك داريوس الأول 486-522 ق.م

قتل الدعي أوروباست بعد أن داهم النبلاء ومن تعاون معهم قصره وقتلوه هو ومجموعة كبيرة من الدجالين، ليتقفوا بعد ذلك على تنصيب داريوس ملكا عليهم، ورغم تأكيد المؤرخين لحادثة اختيار الملك عن طريق صهيل الحصان التي لا تعطي لداريوس أصولا ملكية، إلا أنه سرعان ما أظهر حزمًا وحسن تدبير في حكم مملكته، فقد ظنت الشعوب التي كان يحكمها الفرس أن داريوس سيكون قورش جديد لأنه سن القوانين ونظم الإمبراطورية وقسمها إلى ساترايبات (Satrapies)⁵، وبما أن الكثير من المقاطعات كانت قد عاشت الإستبداد و الظلم في عهد قمبيز، فقد خلعت عن نفسها التبعية والخضوع لبلاد فارس واثارت عليها مثل: بابل وأشور وأرمينيا وميديا وبلاد السوس وليديا وسوريا ومصر⁶.

¹ - Hérodote, op.cit, III, LXVIII-LXX.

² - طه باقر، المرجع السابق، ص452.

³ - Hérodote, op.cit, III, LXXI.

⁴ - طه باقر، المرجع السابق ص452 ؛ Hérodote, op.cit, III, LXXXIV-LXXXVI

⁵ - T.D.Raffenet, op.cit, p34.

⁶ - طه باقر، المرجع السابق، ص453.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

يقول هيرودوت أنه حين أعلن داريوس ملكا كان جميع شعوب آسيا والذين تم إخضاعهم من طرف قورش ثم من طرف قمبيز، كانوا خاضعين له ما عدا العرب (les Arabes)، فهؤلاء لم يكونوا قط عبيدا أورعايا للفرس ولكن حلفاء لهم. وقد تعاونوا مع قمبيز للوصول إلى مصر ولو أنهم رفضوا عبور جيش الفرس عبر أرضهم لما استطاع هؤلاء الوصول إلى مصر ودخولها.¹

وكما تمت الإشارة لذلك سابقا فإن داريوس في بداية حكمه لإمبراطورية الفرس واجه سلسلة من الثورات والتمردات التي كان بعضها قد اندلع في عهد سمرديس المزيف والبعض الآخر في بداية حكم داريوس وقد استغرق إخماد تلك الثورات حوالي ست (6) سنوات، وفي الحقيقة لم تكن تلك الثورات مجرد مشاعر شعبية غذتها نزعات انفصالية عابرة، بل كانت تدفعها روح وطنية متطلعة إلى حكم بلادهم من خلال سادتهم السابقين الذين يذكروهم باستقلالهم وحریتهم، ومن ثم فإن كل الأجزاء التابعة للإمبراطورية انتفضت حتى الأقرب إلى بلادهم فارس مثل بلاد السوس والبابليين.²

وقد كانت ثورة البابليين قوية ومستعصية وكلف إعادتها لحكم الفرس ثمنا باهضا لداريوس وجيشه الذي حاصر المدينة حوالي أحد عشر شهرا، وفي خضم ذلك الحصار انتفضت بلاد السوس ليرسل لها داريوس جزء من جيشه لإخمادها،³ ومع حلول سنة 514 ق.م، وبعد إخماد كل الثورات التي واجهت الملك أصبح داريوس ومن خلال ما خلفه لنا من معلومات في منحتوات بهنستون (Behistoun)،⁴ وهي منحتوات جبلية مشهورة على الطريق بين كرمنشا وهدان.⁵

أصبح داريوس ملكا على كل من فارس، ميديا، والسوس (Susiane)، بابل، آشور وغرب الفرات، مصر، جزر الأرخييل المجاورة لآسيا الصغرى، ليبيا، أيونيا، أرمينيا، كبادوكيا، ساجاريت (Sagarite)، بارثيا (Parthie)، دراجيانا (Dragiane)، آريا (Arie)، وكورازميا (Chorasmie)، البلخ (Bactriane)، سوغاديانا (Sogadiane)، باروبا ميسيوس، ساسيا

¹ - Hérodote, op.cit, III, LXXXVIII.

² - François Lenormant, op.cit, p 429.

³ طه باقر، المرجع السابق، ص 453.

⁴ - François Lemormant, op.cit, p 442.

⁵ طه باقر، المرجع السابق، ص 453.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

(Sacie)، ساتاجيديا (Sattagydie)، أراكوزيا (Arachosie)، ماسيا (Macie) وكانوا يشكلون ثلاث وعشرين مقاطعة،¹ أو ستراية (Strapies) كما يسميها الفرس وكل سترايه يسيروها حاكم² أوساتراب يختار من بلاد الفرس أو من أسرة العائلة الحاكمة، ويبدو أن هؤلاء الحكام كانوا مسؤولين مباشرة أمام الملك.³ (أنظر الملاحق 1-2-13 خرائط)

عمل داريوس على تنظيم الإدارة في مختلف المقاطعات، وفرض على كل مقاطعة قيمة محدودة من الضرائب تدفعها سنوياً، ولم تعف منها سوى بلاد فارس، كان في كل ستراية حامية من جيش الفرس تضمن الهيمنة والولاء للملك، وبالقرب منها مقرات للإدارات المحلية، بما موظفين ساميين لجمع الضرائب ورفعها للملك، ويبدو أنه خلال عصر قورش وقمبيز لم تكن هناك قيمة ثابتة لتلك الضرائب، بل كانت الحكومة المحلية تأخذها بشكلٍ اعتباطي كما يحلو لها.⁴

كان هذا الضبط في التسيير وضبط قيمة الضرائب يعني للفرس أن داريوس كان تاجراً وأن قمبيز كان سيداً أما قورش فكان أباً، الأول لأنه كان يأخذ النقود من الجميع، الثاني لأنه كان قاسياً، والثالث لأنه كان لينا يوفر لرعاياه كل ما استطاع توفيره لهم.⁵ استطاع داريوس ضمان مداخيل سنوية لدولته من خلال تلك الضرائب التي وصلت قيمتها حسب هيرودوت إلى 14560 تالنت (Telente) أثيني، وهو ما يعادل في ذلك الزمن 82 اثنان وثمانون (82) مليون وثمانمائة ألف فرنك (Francs) حسب المؤرخ فرانسوا لينورمون وهي ميزانية كافية لكل متطلبات الدولة والإدارة.⁶

ويبدو أن هناك من المؤرخين من لاحظ أن هيرودوت قد تكلم بمبالغة عن إنجازات داريوس التنظيمية المتعلقة بالإدارة والضرائب على مستوى الإمبراطورية، وقد استند هؤلاء إلى أن داريوس

¹ - François Lenormant, op.cit, p 442.

² - Hérodote, op.cit, III, LXXXIX.

³ طه باقر، المرجع السابق، ص454.

⁴ - François Lenormant, op.cit, pp 442-243.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - François Lenormant, op.cit, pp 445-446.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

ومستشاريه قد اعتمدوا على بنية كانت موجودة سابقاً، والتي انتجت من خلال عملها عادات وممارسات محلية منذ عهد قمبيز وقورش.¹

على أن التوثيق وغزارة المعلومات التاريخية لم تكن كافية في عهدي قورش وقمبيز كما كانت في عهد داريوس.² ورغم ذلك فقد أشار المؤرخ اليوناني كزينوفون (Xenophon) في كتابه (Cyropédie) إلى أن جزء مهماً وأساسياً في تنظيم الدولة الإمبراطورية يعود في الأصل إلى الملك قورش، فهو مؤسس الجيش وفصيلة الفرسان، وهو الذي وضع التصور الشامل للتنظيم الإداري في الإمبراطورية بعد غزو بابل فقام بتعيين كبار الضباط في البلاط الملكي، ونظم الجانب المالي،³ وألزم النبلاء بالتواجد بشكل منتظم ودوري بالبلاط الملكي⁴.... الخ، كما تعود إليه حسب كزينوفون تأسيس الساترايات (les Satrapies)، وكذلك خدمة المفتشين بهذه الساترايات و البريد السريع بالإمبراطورية.⁵

ومن هنا يمكن أن نقول أنه من غير المؤكد القول بأن الساترايات بدأ العمل بها في عهد الملك داريوس كما ذهب إلى ذلك هيرودوت لأن هذا المصطلح في حقيقة الأمر كان معروفاً لدى الفرس ومعمولاً به منذ عهد قورش وقمبيز،⁶ ولا يبدو في هذا الإطار بأي حال من الأحوال أن الملكين قورش وقمبيز قد أهملوا الإدارة المالية، فكل منهما كان بحاجة إلى أموال معتبرة من أجل تمويل جيشه وضمان النجاح لحملاته العسكرية، فبالنسبة لقورش مثلاً كان يرسل بعد كل نصر على أعدائه خزائن الملوك المهزومين ويضمها إلى خزائن الإمبراطورية، فخزينة أموال أستياج ملك الميد أرسلت بأكملها إلى العاصمة بازارغاد (Pasargade) ومن المحتمل أن قمبيز قد فعل الشيء نفسه مع المصريين والبابليين.⁷

وعلى أي حال فإن داريوس بعد إخماد الاضطرابات والتمردات في رقعته إمبراطوريته، وبعد ضبط أمور تسييرها الإداري والمالي، دفعه كبرياؤه نحو التوسع والغزو الخارجي، فإذا كان قورش قد وصل بجيشه إلى إفريقيا فإن داريوس قرر العبور إلى أوروبا وبسط سيادته ونفوذه على ما يمكن

¹ - Pierre Briant, op.cit, p101.

² - Ibid, pp101-102.

³ - Xenophon, Cyropédie, Oeuvres complètes de Xénophon, traduction Eugène Talbot, Hachette Librairie, Paris, 1859, VIII,1, 9-14.

⁴ - Ibid, VIII, 1, 5-6, 17.

⁵ - Ibid, VIII, 6, 16-18.

⁶ - Pierre Briant, op.cit, p104.

⁷ - Ibid, p 109.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

السيطرة عليه من أرضها¹، ووضع هدفاً وبداية لغزوة أرض السكيثيين، ويمكن أن يكون غرضه من ذلك مزدوجاً، فمن جهة يمنع أي غزو محتمل أو خطر يهدد مملكته من الجهة الشمالية،² ومن جهة أخرى ينتقم من هؤلاء السكيثيين الذين مارسوا السيادة على بلاد الميد التي كانت بلاد فارس تتبعها،³ لمدة ثمانية عشر سنة من حكم سياقرار⁴.

وإذا كنا من خلال تحليل ما جاء في كتاب هيرودوت ومقارنة الأحداث ببعضها البعض، لا نعلم بالتحديد السنة التي بدأت فيها حملة داريوس ضد السكيثيين فإن هناك حججاً قوية تشير إلى أنها كانت في حوالي سنة 513 ق.م، وهي السنة التي قام فيها الفرس كذلك بحمله ضد بلاد ليبيا⁵. قرر إذن داريوس حمل السلاح ضد السكيثيين الأوروبيين واخضاعهم لنفوذه،⁶ وإذا كان في الحقيقة تاريخ الحملة لم يكن موضوع جدل المؤرخين فإن أسسها وأهدافها ونتائجها كانت محل جدل كبير بينهم.⁷

وحسب هيرودوت فإن داريوس قد قام بالتحضير الجيد لهذه الحملة حيث أرسل في جميع الاتجاهات من الإمبراطورية لطلب تمويل الفرق البرية وكذلك إحضار القوارب الحربية اللازمة، وأمر بإقامة جسر من هذه القوارب عبر البوسفور.⁸

وعلى العموم فقد استطاع داريوس جمع عدد 600 قارب دون أن يذكر قوام عدد المحاربين التابعين لهذه القوات البحرية، إلا أنه ذكر أن جيش داريوس الذي جمعه من جميع الشعوب التي تم إخضاعها قد وصل تعدادة -ونقصد هنا المشاة والفرسان- إلى 700 ألف رجل،⁹ وقد ذكر هيرودوت بصفة خاصة مدن مضيق الهلسوبونت، وبحر مرمرية مثل أبيدوس (Abydos)، لومباسك (Lampasque)، باريون (Parion)، بروكوناز (Procommène)، سينريك (Cyzique)، بيزانس (Byzance)، وكذلك مدن أيونيا (Ionie) مثل كيوس Chios، ساموس Samos، فوسي

¹ - François Lenormant, op.cit, p462.

² - Ibid.

³ - Hérodote, op.cit, IV, I.

⁴ - François Lenormant, op.cit, p462.

⁵ - Pierre Briant, op.cit, p221.

⁶ - François Lenormant, op.cit, p476.

⁷ - Pierre Briant, loc.cit.

⁸ - Hérodote, op.cit, IV, LXXXIII.

⁹ - Ibid, IV, LXXXVII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

Phocée وميلي Milet بالإضافة إلى أيوليد (Eolide) أين تم التحالف مع الأثيني ميليتياد (Miltiade) الذي كان قائد وطاغية كيرسونوسوس (Chersonesos) أو (Chersonèse)¹.

تحرك داريوس من شوشان أو سوسة (Suse)، ووصل بجيشه إلى ضواحي خلكيدونيا (Chalcidoine) الواقعة شمال غرب آسيا الصغرى، بين بحر مرمرة والبحر الأسود،² ثم عبر إلى أوروبا بعد أن أمر قواته بالإبحار إلى غاية نهر الأيستر (Ister) أو الدانوب (Danube) وانتظاره هناك، مع إقامة جسر من القوارب على هذا النهر،³ ومن ثم يتضح لنا أن أسطول داريوس كان قوامه وقيادته تعتمد على الأيونيين والأليين، وكذا رجال مدن الهلسونت⁴.

وكان داريوس قد عبر إلى تراقيا (Thrace) عبر جسر من القوارب وضع على البوسفور (Bosphore) التراقي فوق البيزناس (Byzance)، وذلك تحت إشراف موندوركلاس السموسي (Mondrocles de Samos). لم يحاول تراقيو سالميدوسوس (les Thraces de Salmydessus) وكذلك سكان ضواحي ابولونيا (Appollonie) وميزوميريا (Mesembrie)، مقاومة جيش داريوس، وإستسلموا له دون مواجهة على خلاف شعب الجاتس (les Gêtes)، الذين واجهوه بمقاومة شرسة ليخسروا بعد ذلك ويحولوا إلى عبيد⁵. عبر الملك نهر الأستر وتوغل في أرض السكيثيين تاركا الجسر تحت حراسة الأيونيين⁶، ويدوا أن وصول الفرس إلى تلك المناطق قد أزعج السكان السكيثيين وأحدث بينهم اضطرابا كبيرا⁷.

اجتمعت شعوب التورس (Toures)، الأغاثيرس (Agathyrses)، النورس (Neures)، البودانس (Butins)، جيلون (Gélons)، الأندروفاج (Androphages)، الميلوشان (Melanchaenes)، السارمات (Sarmates) مع ملك السكيثيين وقادتهم العسكريين وذلك بغرض توحيد وتجميع قواتهم ومواجهة الفرس والتداول في هذا الأمر⁸. قرر السكيثيون وحلفاؤهم في النهاية أنه بدل مواجهة داريوس وجيشه في معركة حاسمة، أن يتركوا المجال للفرس ليتوغلوا في

¹ - Hérodote, op.cit, IV, CXXXVII, CXXXVIII.

² - Pierre Briant, op.cit, p222.

³ - Hérodote, op.cit, IV, LXXXIX.

⁴ - Ibid.

⁵ - François Lenormet, op.cit, p477.

⁶ - Hérodote, op.cit, IV, 98 XCVIII.

⁷ - François Lenormet, op.cit, p477.

⁸ - Hérodote, op.cit, IV, CII.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

أرضهم مع هدم جميع آبار الماء واتلاف جميع المحاصيل الزراعية بهدف إرهاقهم ومن ثم القضاء عليهم¹.

ويبدو أنهم قد نجحوا في هذا المخطط الذي طبقوه بأحكام مع حلفائهم وذلك لأنه بعد نزول جيش داريوس أرضهم وبعد ملاحقة وبحث عن مواجهةٍ معهم ثم استدراج الفرس إلى أماكن ومناطق صعبة دون الالتقاء مع السكيثيين وهو الأمر الذي تفتن إليه داريوس، وبدل أن يكون هو من يلاحقهم صاروا هم من يلاحقونه، لذلك باغتهم ذات ليلة تاركاً خيامه وأمتعة جيشه في أماكنها، كما ترك مرضاه الذين كانوا بأعداد كبيرة وفر باتجاه نهر الأستر (الدانوب)²،

ورغم تمكن السكيثيون من اللحاق بمؤخرة جيشه ومن ابادة جزء كبير من مشاته الخلفين إلا أنه نجح هو ومجموعة من فرسانه في عبور الجسر الموضوع على نهر الأستر، ورفعته بعد ذلك لكي لا يلحقوا به³. كانت خيبة داريوس كبيرة بتلك الخسارة، لذلك اجتاز البحر إلى تراقيا ثم إلى سيستوس (Sestos) للعودة إلى آسيا الصغرى بعد أن ترك ميغابيز (Mégabyze) ابن زوبير (Zopyre) على رأس قواته في تراقيا،⁴ وهو أحد النبلاء الذين قضوا مع داريوس على سمرديس الدجال، وكان تحت تصرف ميغابيز في تلك المنطقة حوالي ثمانين ألف (80000) من عناصر جيش الفرس على الأرض الأوروبية⁵.

ومهما يكن الأمر فإن حصيلة حملة داريوس في أوروبا هذه يمكن إعتبارها بعيدةً عن كونها سلبية لدرجة كبيرة، لأنه في نهاية الأمر قد تمكن من غزو تراقيا، كما أنه قام بإخضاع عدد من الشعوب التراقية خلال زحفه نحو نهر ، وما ترك ميغابيز هنالك على رأس قواته إلا ليثبت احتلال تراقيا والتوسع في تلك المناطق الواقعة شمال بلاد اليونان⁶. وما لبث ميغابيز بعد ثبت أقدام الفرس في تراقيا، أن هاجم مقدونيا (Macédoine) طالباً من ملكها امينتاس الأول (Amyntas1) الأرض والماء علامةً لخضوعه،⁷ ذلك الطلب الذي لباه الملك دون مقاومة⁸.

¹ - Hérodote, op.cit, IV, CXX.

² - Ibid, IV, CXX-CXLI.

³ - François Lenorment, op.cit, p 481.

⁴ - Pierre Briant, op.cit, p 222.

⁵ - François Lenorment, loc.cit.

⁶ - Pierre Briant, op.cit, 224.

⁷ - Hérodote, op.cit, V, XVII.

⁸ - François Lenorment, op.cit, p 482.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

وكان مغانيير قد احتل قبل ذلك كل من بيرنت (Pérnithé) وبينرانس (Byzance) وهو بوابة البوسفور التراقي (Bosphore de Thrace)، كما بسط نفوذه على جزر الأيمبروس (Imbros) واللمنوس (Lemnos) في بحر إيجه. وكان مغايير قبل توجهه إلى مقدونيا قد احتل بيرانت،¹ وأخضع شعب الباوني (les Poeniens)،² أما القائد أوتاناس (Otanès) الذي عينه داريوس على رأس القوات البحرية في آسيا الصغرى، فقد تمكن بعد سنة 510 ق.م، من السيطرة على البيزانس (Byzance)، خلقدونيا (Chalcédoine) بوابة البوسفور، أونطودروس (Antandros) في طواراة (Troie) ثم جزر ليمونوس (Lemnes) وأمبروس (Imbros)³ ببحر إيجه.

وفي الوقت الذي كان يجري فيه إخضاع تراقيا ومقدونيا وبعض جزر بحر إيجه الشمالية، انطلقت حملتان أخريان نحو طرقي الإمبراطورية الشرقي والغربي⁴، أحدهما نحو بلاد الهند التي أخضعها داريوس لسلطانه،⁵ والثانية نحو قورينة التي ثار مجموعة من الإغريق من أصل دوري على ملكها أرسيزيلاس (Arcésilas) وقتلوه، ليتدخل الفرس بعد ذلك بطلب من أمه الملكة فيريتم (Pheretime)،⁶ ليعيد قائدهم (Aryandès) ترتيب الأوضاع لصالحها هناك، ذلك التدخل الفارسي الذي افزع المدن والممالك المجاورة، والتي سارعت بإعلان خضوعها للفرس من خلال إرسالها هدايا وعطايا كعلامة لطاعتها لملك الفرس مثل قرطاجة⁷.

تمكن إذن داريوس (أنظر الملحق 4 صور) من بسط سلطانه على الإمبراطورية المترامية الأطراف عبر قاراتها الثلاث آسيا وأوروبا وإفريقيا،⁸ والتي كانت تضم شعوبا وأجناسا وقوميات متعددة لا يجمعها لا وحدة الأصل ولا اللغة ولا الدين⁹. غير أن الهدوء لم يدم طويلا في مملكة داريوس حيث أنه ومع بداية القرن السادس ق.م، عرفت منطقة غرب آسيا الصغرى أحداثا مهمة عرفت بتمرد المدن الأيونية¹⁰، تلك الأحداث التي كانت الشرارة التي أشعلت الصراع بين الفرس من جهة، وبين الإغريق من جهة أخرى وهو ما عرف تاريخيا بالصراع الفارسي الإغريقي أو الحروب الميديّة¹¹.

¹ - Hérodote, op.cit, V, II.

² - Ibid, V, XV-XVI.

³ - Ibid, V, XXV-XXVII.

⁴ - François Lenorment, op.cit, p 482.

⁵ - T.D. Roffent, op.cit, p36.

⁶ - Hérodote, op.cit, IV, CLXIV-CLXVI.

⁷ - François Lenorment, op.cit, pp 482-483.

⁸ - T.D.Reffemet, op.cit, p 03.

⁹ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص233.

¹⁰ - Pierre Briant, op.cit, 228.

¹¹ - François Lenorment, op.cit, p 485.

II- أوضاع بلاد الإغريق قبل اندلاع الصراع الفارسي الإغريقي

1- المدن الدول اليونانية خلال العصر الهيليني

من الواضح أنه مع نهاية العصر الموكيني في حوالي 1060 ق.م دخلت بلاد اليونان فيما اصطلح على تسميته بعصر الظلام، تلك الفترة التي دامت حوالي قرنين ونصف من الزمان،¹ وكان ذلك بفعل غزوات الشعوب الدورية التي اجتاحت شبه جزيرة اليونان وقضت على الحضارة الموكينية وكان الدمار كبيرا خاصة على مستوى عاصمتها موكيناي في شبه جزيرة البيلوبونيز.²

وقد سميت تلك الحقبة بالمظلمة لأن المصادر التي تكلمت عنها كانت نادرة وغير واضحة بشكل جلي، ولكن أيضا لأنه خلال هذه المرحلة تم تسجيل تراجع مهم في الحضارة المادية والثقافية، تراجع كبير في عدد السكان وكذلك اهمال ونسيان ما عرف بالكتابة المقطعية (Linéaire B).³ أما على المستوى السياسي فقد شهدت المرحلة انهيار الممالك التي تحدث عنها الشاعر هوميروس لتظهر الدول المدن أو ما عرف بالبوليس (Polis) في جميع أرجاء اليونان.⁴

بدأت الحضارة اليونانية تبني نفسها من جديد خاصة في المناطق التي كان لها تاريخ حضاري مثل كريت وموكيناي، لتتعرف مدن قديمة انبعثا حضاريا جديدا مثل أورخيمينوس في اقليم بيوتيا (Béotie)، وكذلك مدينة كورينثة الواقعة على المضيق المعروف باسمها.⁵ وقد سجل المؤرخون ما عرف مصطلح بالمدينة بوليس أو (Cité)، الذي كان في الحقيقة يعبر عن تغير بنيوي أساسي ودائم مثل الشكل الأساسي والوحيد للتجمعات السكانية في بلاد اليونان،⁶ إذ تشكلت المدينة في بداية الأمر من خلال اندماج مجموعة من القرى إلى كيان المدينة التي وجدت حاجة لها في هذا الانضمام تخص أمنها وسلامة سكانها.⁷

¹ - Geoges Tate, La Grèce antique, Hachette Livre, Paris, 2000, P 17.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 56 .

³ - Geoges Tate, Loc-cit.

⁴ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 59.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 96-97.

⁶ - Geoges Tate, op.cit, P 22.

⁷ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 60.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

تحولت تلك القرى إلى ريف زراعي للمدينة الجديدة التي اعتبرت العاصمة الإقليمية لمحيطها، فمدينة أثينا مثلاً تمكنت من تشكيل إطار زراعي من حولها في إقليم أنتيكا وصلت مساحته إلى ألف متر مربع،¹ وتجدد الإشارة إلى أنه خلال القرون الثلاث من أوائل القرن الثامن ق.م، إلى أوائل القرن الخامس ق.م تميزت بلاد اليونان بانتشار دويلات المدن على أرضها،² بل وحتى في مناطق أخرى يتواجد بها اليونانيون مثل ساحل آسيا الصغرى الغربي،³ إلا أن الملاحظ أن هنالك ممالك مدنية كبرى كانت تمثل أبرز المدن اليونانية بحيث تقاسمت السيادة على بلاد اليونان وهي إسبرطة (Sparte)، أثينا (Athènes) أرجوس (Argolis) وكورنثيه (Corinthe).⁴

وفي إطار ما عرف بنظام الدول المدن عرف المجتمع اليوناني تطوراً واضحاً إذ تحول من تجمعات سكانية قبلية بسيطة إلى دويلات عرفت بعضها عدة أنظمة سياسية عبر عدة مراحل، والبعض الآخر توقف عند نظام سياسي واحد، والبعض الآخر اندمجت فيه عناصر مختلفة من هذه الأنظمة.⁵

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى أن هذه المدن تزامنت فيها التغيرات الحضارية في جميع مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فقد سجل الباحثون زيادة مهمة في عدد سكان العالم الإغريقي بين القرنين الثامن والسابع ق.م، وكذا زيادة واضحة في الأماكن العامرة وفي نفس الوقت تطور النشاط الفلاحي على حساب الأنشطة البدائية الأخرى ليسود في المدن اليونانية وبشكل تدريجي اقتصاد فلاحي إتصف باجتماع إنتاج الحبوب والزيتون والكروم.⁶

كما عرف الإغريق في هذه الفترة أي بعد القرن الثامن ق.م حركة استيطان وتأسيس لمستوطنات جعلت منهم تجاراً ومهاجرين إلى شواطئ البحر المتوسط،⁷ وكذا البحر الأسود (Pont-

¹ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 97.

² - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص 149.

³ - Geoges Tate, op.cit, P 17.

⁴ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 59.

⁵ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص 149.

⁶ - Geoges Tate, op.cit, P 33.

⁷ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص 149.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

(Euxin)، لتزدهر بذلك الحركة التجارية والفنون اليدوية (Artisanat) التي تنوعت وتطورت ليعرف العالم اليوناني قفزة نوعية كما وكيفاً.¹

وقد كان وراء توجه الإغريق نحو الهجرة وبناء المستوطنات خاصة في شواطئ البحر المتوسط عدة أسباب نذكر منها: الظروف السياسية السائدة خلال القرن الثامن ق.م في الحوض المتوسط، والتي انهارت فيها بعض المراكز السياسية التقليدية، وضعفت سطوة البعض الآخر مثل مصر وفينيقيا ودول آسيا الصغرى، الأمر الذي فتح المجال واسعا أمام الإغريق لبدء حركة استيطان خارج بلادهم.²

كما كان للوضع السياسي الداخلي في المدن الإغريقية دور واضح في دفع الأفراد والجماعات نحو الهجرة الخارجية، ذلك أنه في ظل حكم النظام الأرستقراطي عاش الإغريق فترة تفرقة عنصرية واضحة خلقت هوة بين الطبقات الحاكمة والمسيطرة على مقدرات البلاد وبين عامة الشعب مما خلق نفورا بين الحاكم والمحكوم، ويبدو أن الحركة الإستيطانية قد مدت في عمر تلك الأنظمة الأرستقراطية والأوليغاركية، ذلك لأن أعدادا كبيرة من الطبقة العامة لو ظلوا في مدنها لكانوا وقودا لثورات شعبية ساخطة على الوضع هناك.³

وتجدر الإشارة في هذا الإطار أيضا إلى أنه في ظل النزاعات السياسية بين الأحزاب في المدن الإغريقية كانت الظروف تدفع الحزب المنهزم إلى البحث عن أرض جديدة والارتحال خارج البلاد،⁴ أما من الناحية الإقتصادية فقد أدى تزايد عدد السكان بشكل لا يتوافق مع المساحات الزراعية المتوفرة في دويلات المدن ذات المساحات الضيقة، إلى البحث عن مناطق جديدة لتأمين حل لمشكلة الغذاء،⁵ وفي هذا الشأن نشير إلى أن هذه الحركة لم تكن فقط أفراد الطبقة العامة المعدومين واللذين أرهقت كاهلهم الديون والضرائب التعسفية، بل أيضا عددا من النبلاء الذين

¹ - Geoges Tate, op.cit, P 33.

² - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 107.

³ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 126.

⁴ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 107.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 135-136.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

حرمهم قانون الإرث الإغريقي - الذي يورث الأراضي الزراعية إلى الإبن الأكبر للحفاظ عليها من التقسيم- ومن هنا دُفع الأبناء الآخرون إلى البحث عن ضياع وأراض جديدة في تلك المستوطنات.¹

إلا أنه لا يمكن حصر الدوافع الإقتصادية في البحث عن الأراضي الزراعية فقط، بل إن النشاط التجاري كان حاضرا وبقوة وراء هجرة الإغريق والبحث عن مستوطنات، لكون الكثير من المدن الإغريقية كانت في حاجة إلى أسواق للترويج إلى صناعاتها التي تطورت خلال تلك الفترة، وفي المقابل كانت تلك المدن بحاجة إلى المواد الخام والمعادن كالفضة والنحاس والقصدير،² هذا دون اغفال دوافع أخرى أقل أهمية كعشق الإغريق للمغامرات والبحث عن الثروة وقد ساعدهم في ذلك تلك القفزة التي عرفوها في صناعة السفن خاصة تلك المراكب ذات الطبقات المتعددة من الجدران،³ وما شجعهم على البحار أيضا هو تلك الكشوفات الجغرافية التي استقى منها الإغريق معلومات عن المناطق الصالحة للاستيطان في حوض المتوسط.⁴

عمل الإغريق خلال هذه الحركة الاستيطانية على اختبار مناطق تواجد مستعمراتهم بحيث تكون مناطق غنية اقتصاديا، وذات مواقع هامة خاصة تلك التي تشكل نقاط التقاء المواصلات أو نقاط دخول إلى البلدان المختلفة،⁵ لذلك اختاروا صقلية، والشواطئ الجنوبية والغربية لاييطاليا، الشاطئ الغالي، والكثير من النقاط على الشاطئ الاسباني، كل محيط البحر الأسود ومدن في ليبيا ومرافق تجارية في سوريا ومصر،⁶ وفي آسيا الصغرى أسس اليونانيون مستوطنة بوسيدونيا (Poseidonia) على نهر العاصي في شمال سوريا وكان ذلك عن طريق مستوطنين من منطقة أوبيي (Eubée) وآخرين قبارصة.⁷

¹ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 127.

² - نفسه، ص 128.

³ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 108.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 137.

⁵ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 108.

⁶ - Georges Tate, op.cit, P 35.

⁷ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 131.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

أما سكان خالكيس (Chalkis) في أوبيه اليونانية فقد أسسوا مستوطنة كومي (Cumes)، التي لا تبعد كثير عن روما وسهل أتروريا من ناحية الجنوب، وقد أدى إزدهار هذه المستوطنة وتوسعها إلى إنشاء مستوطنة أخرى في إيطاليا (Néapolis) نيوباليس والتي تعرف اليوم بإسم نابولي (Naples).¹

وفي صقلية أسس إغريقيو خالكيس أيضا مستعمرة كاتانا (Catana) التي تعتبر أكبر المستوطنات في جنوب هذه الجزيرة،² كما كانت صقلية قبله لإنشاء العديد من المستوطنات الإغريقية مثل مستعمرة ناكسوس (Naxos)³ وميغارا هوملايا (Mégare Homlaya) التي أسسها إغريق من ميغارا (Migara) في بلاد اليونان. أما مستوطنة هيميرا (Himère) فقد أسسها الإغريق على الساحل الشمالي الشرقي لصقلية، وكذلك زنكل (Zancle)، كما أسس مهاجرون من جزيرة كريت مستوطنة جيلا (Géla) على الساحل الشرقي الجنوبي لصقلية،⁴ أما الكورينثيون فقد أسسوا على الساحل الجنوبي الشرقي من صقلية مستوطنة سيراكوزا (Syracuse) وهي التي كانت من أكبر المستوطنات في جنوب صقلية، والتي صارت في القرن الرابع ق.م عاصمة للمدن الإغريقية في صقلية.⁵

وقد أسس سكان شمال البيلوبونيز عدة مستوطنات في جنوب إيطاليا مثل سيباريس (Sybaris) وكروتون (Croton) كما قام الأسبرطيون بإنشاء مستوطنة تاراس أو تارنتوم (Tarentume)⁶، والملاحظ أنه بسبب انتعاش حركة تشييد المستوطنات الإغريقية في صقلية وجنوب إيطاليا، أُطلق على المنطقة تسمية "اليونان الكبرى" (La Grande Grce).⁷ وفي النصف الثاني من القرن السابع ق.م كانت هناك دفعة جديدة لحركة الاستيطان بلغت أوجها في

¹ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 141.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 131.

³ - Geoges Tate, op.cit, P 38.

⁴ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 131.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 141.

⁶ - Geoges Tate, loc.cit.

⁷ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 132.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

حوالي 600 ق.م، إنها الفترة التي وضعت فيها ميلي أو ميليتوس (Milet) قواعد المستوطنات الإغريقية في البحر الأسود، في الوقت الذي كان فيه البحران الايوني والأدرياتيكي يمثلان وجهة لمستعمرات جديدة، دخل الفوسييون (Phocéens) على خط إنشاء المستوطنات في الغرب وأسسوا مرسيليا (Marseille) على الشاطئ العالي وقورينة (Cyrène) في ليبيا،¹ التي أسسها مستوطنون من جزيرة تيرا (Théra)، أما مستوطنة نقراتيس في مصر فقد أنشأها الميليتون (أهل ميليتوس)،² وكان ذلك بقرار من الملك المصري بسماتيك الأول (Psammatique I) وكان غرضه من ذلك، الاستفادة من خبرة المقاتلين الإغريق في الجيش المصري.³

وبهذه المستعمرات الجديدة دخل الإغريق في علاقات مع الكثير من الشعوب القارة والبدوية المرتحلة، كما أقاموا مع هذه الشعوب تبادلات اقتصادية وثقافية مهدت لذلك العمل الشاق والطويل الموحد لعالم المتوسط والذي استغلته روما بعد ذلك لصالحها.⁴ والملاحظ أن تلك الحركة الاستيطانية عرفت تباطؤاً في القرن السادس ق.م في البحر المتوسط رغم تواصلها في البحر الأسود.⁵ تحولت بعض هذه المستعمرات بعد زمن إلى مراكز حضارية إغريقية هامة ازدهر فيها الفن والفكر الإغريقي، وتمت ممارسة الألعاب الأولمبية بها بصفة دورية،⁶ والملاحظ أن علاقة المستوطنين الإغريق مع أهالي المناطق التي هاجروا إليها تميزت بالعداء واستعمال القوة في البداية لكن مع مرور الزمن استطاعوا أن يحققوا معهم تعايشاً سلمياً.⁷

¹ - Geoges Tate, loc.cit.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 133.

³ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 109-110.

⁴ - Geoges Tate, op.cit, P 35.

⁵ - Ibid, P 38.

⁶ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 112.

⁷ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 140.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

2- تطور نظام الحكم في بلاد الإغريق قبل اندلاع الصراع الفارسي الإغريقي.

كان الإغريق يحكمون من طرف ملوك (Basileus) بحسب الصورة المستقاة عن حياتهم من خلال ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسه،¹ ويبدو أن النظام الملكي كان أول الأنظمة السياسية² التي كانت تحكم المدن اليونانية بعد تبلور النظام المجتمعي الذي عرف بنظام الدولة المدنية³. كان النظام الملكي يتمحور أساسا حول شخص الملك الذي كان يعتبر صاحب جميع السلطات في المجالات العسكرية والقضائية والدينية وهو صاحب الأمر والنهي في المدينة.⁴ وقد استمد الملوك تلك المكانة لإعتقاد الإغريق أنهم ينحدرون من الإله زوس (Zeus)،⁵ أما السلطة التشريعية فعلى الأرجح أنها كانت مقسمة بين الملك وبين رؤساء القبائل والعشائر، فإذا كانت شخصية الملك قوية فهو بذلك يستطيع فرض آرائه التشريعية عليهم، أما إن كان العكس فرض زعماء العشائر تشريعاتهم عليه.⁶ ومع التطور السريع لنظام دويلات المدن، ظهر نوع من الوعي السياسي في المجتمع اليوناني ليفرض نوعا من الرقابة الشعبية على قرارات الملك، وذلك من خلال اشراف الجماعة على مصالح المدينة، وبذلك أصبحت أوامر الملك لا تخلو من النقد والمحاسبة.⁷

كان النبلاء الذين يشاركون الملك في قراراته يشكلون أرستقراطية عسكرية تحمل على عاتقها مهمة الدفاع عن المدينة حين يحدق الخطر بها، وتتمتع بالألعاب والرخاء وقت السلم. وتتفرق في بلاد اليونان نشأة تلك الطبقة الارستقراطية من مدينة إلى أخرى ففي مدينة أسبرطة كان أفراد هذه الطبقة ينحدرون من الغزاة الدوريين، وكانوا ينفردون لوحدهم بحكم المدينة والمشاركة فيه والترشح

¹ - Geoges Tate, op.cit, P 49.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 118.

³ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 27.

⁴ - نفسه.

⁵ - Geoges Tate, Loc-cit.

⁶ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 27.

⁷ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 123.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

له. أما في أثينا التي لا وجود فيها للدورين فكانوا ينحدرون من الأسر الأصلية التي كان لها دور في تأسيس المدينة¹.

وقد شهد القرن الثامن ق.م ضعفا واضحا في أداء الملوك لمهمة الحكم، وتدهورا في نظام تلك الملكيات المستبدية.² أصبح الأمر مهياً لحكم جديد لم تعد الأسرات الحاكمة قادرة على القيام بأعبائه.³ وفي حقيقة الأمر كانت الطبقة الأرستقراطية في المدن الإغريقية وراء ذلك الضعف الذي عرفه الملوك، وذلك من خلال سلب الملك لسلطاته تدريجياً فعملوا على الحد من نفوذه على الصعيد العسكري والإداري والقضائي ليتزكوا له السلطة الدينية.⁴

شبه بعض الباحثين هذا الأمر بالثورة الصامتة التي انتشرت في جميع أنحاء اليونان،⁵ تلك الثورة التي أسفرت عن الانتقال من النظام الملكي إلى النظام الأرستقراطي، ليتحول بذلك الأمر من وضع تتمركز فيه السلطة في يد شخص واحد، إلى نظام تحكم فيه جماعة من النبلاء هم كبار ملاك الأراضي بالمدن اليونانية، غير أن هذا النظام الجديد كان له دستور وقانون ينظمه.⁶

والواضح أن حكم الأرستقراطيين كان أكثر كفاءة في تسيير شؤون الدولة المدنية من نظام الملوك والدليل على ذلك ازدهار العمران والفنون والتجارة والأنشطة الصناعية في عهدهم . كما كان لهؤلاء الأرستقراطيين دور مهم في انشاء المستعمرات الإغريقية في الكثير من النقاط على البحر المتوسط وكذا البحر الأسود،⁷ وليس من المستبعد في هذا الإطار حدوث مصادمات وصراعات بين دويلات المدن اليونانية بسبب التسابق والتنافس على الأسواق الخارجية ومحاولة السيطرة على الخطوط التجارية الرابطة بين تلك الأسواق.⁸

¹ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 60.
² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 123.
³ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 28.
⁴ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 61.
⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 123.
⁶ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص ص 28-29.
⁷ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 61.
⁸ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص 149.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

وفي الواقع قام الارستقراطيون خلال حكمهم بوضع أسس للتشريع والقانون الصريح مستلهما من العرف الذي كان سائدا والتقاليد المتبعة عندهم، ليتخلص بذلك المواطنون في المدينة والانسان عموما في المدن اليونانية من الخضوع لمزاج الحاكم أو القاضي، بل أصبح الحاكم والقاضي مقيدا بقوانين وتشريعات يحكم من خلالها.¹ لكن الجدير بالذكر أنه في بلاد اليونان الفقيرة من حيث الموارد الاقتصادية، كان وضعها السياسي يتأثر تلقائيا بتقلبات الجانب الاقتصادي، ومن خلال ازدهار التبادلات التجارية في بلاد الاغريق التي اصبحت المورد الرئيسي الذي يعتمد عليه اليونانيون بعد الزراعة موردتهم التقليدي، ظهرت طبقة جديدة هي طبقة التجار وبدأت تشعر بوزنها ومكانتها في المجتمع اليوناني، الأمر الذي دفع بها إلى البحث عن المشاركة في الحكم ولعب دور رئيسي فيه.²

وفي هذه الفترة التي يمكن تحديد بدايتها بنهاية القرن الثامن ق.م واجهت الأنظمة الارستقراطية مصاعب وعقبات أجبرت حكامها على القيام بعمليات اصلاح دورية.³ وفي إطار رعاية مصالحهم استطاع التجار شيئا فشيئا افكتكاك بعض المكاسب من الاقطاعيين الارستقراطيين الحاكمين باتجاه المشاركة في الحكم معهم، ليتحقق نوع من الاتفاق بين الطرفين بحكم تساوي الثروة وتعادل القوة، لتشعر طبقة ثالثة وهي طبقة العامة بثقلها وأهميتها في احداث التوازنات في المجتمع الإغريقي وقد عرف هذا النوع من الحكم بالحكم الاوليجيكي.⁴

وفي حقيقة الأمر لم يكن ذلك الاتفاق بين طبقات المجتمع اليوناني ليتحقق دون صراعات بين تلك الطبقات، ولكن أيضا دون مجهودات رجال محسوبون على الطبقة الارستقراطية تمت دعوتهم للتحكيم في هذه الخلافات التي أوشكت أن تؤدي إلى فقدان النظام في بعض المدن اليونانية، وقد عُرف أولئك الرجال باسم المشرعين (Législateurs) الذين عرفهم التاريخ اليوناني

¹ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 124.

² - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 32.

³ - Geoges Tate, op.cit, P 51.

⁴ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 32.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

القديم والذين تم اختيارهم بفضل شهرتهم من حيث الحكمة والثقة التي كانوا يحظون بها بين جميع أفراد المجتمع الإغريقي، وقد كلف هؤلاء بإدارة سلطة البلاد لمدة زمنية محددة يتمكنون فيها من تشريع قوانين دائمة يُتعارف عليها بطريقة تصبح من خلالها قوانين عامة معتمدة ومقبولة من جميع الأطراف.¹

ويشترط في القوانين أن تسفر عن اصلاحات تحقق السلم الاجتماعي بدون تفضيل حزب أو طرف عن طرف آخر، ومن أمثال أولئك المشرعين عرف ليكورجوس (Lycurge) في أسبرطة ودراكون (Dracon) في أثينا، وبسبب شح المعلومات عن حياة هذين المشرعين يذهب بعض المؤرخين إلى إمكانية اعتبار الحديث عنهما مجرد أسطورة، أما المشرع الأكثر شهرة في تاريخ اليونان عامة وتاريخ أثينا بصفة خاصة فهو المشرع سولون (Solon) (640-558 ق.م).²

هذا المشرع الذي استطاع بناء شعبية كبيرة في أثينا إلى درجة أنهم اختاروه آرخونا (حاكما) عليهم سنة 594 ق.م، والذي سن العديد من القوانين والتشريعات في جميع المجالات السياسية، الاجتماعية والاقتصادية، والتي تتمحور أساسا على تقسيم المجتمع الاثيني إلى أربع فئات حسب ثروة الفرد، غير أن هذه الاصلاحات في النهاية أدت إلى منافسة ومشاحنة بين ثلاثة فئات مهمة في المجتمع الاثيني أو بالأحرى أحزابا، حزب الجبل، وحزب السهل وحزب الشاطئ، وأصبح المتطرفون من كل فئة يستعدون لمنازلة الفئات الأخرى للإستيلاء على السلطة.³ وعلى ما يبدو فإن أولئك المشرعين الذين ظهروا بعد عجز الارستقراطيين الاوليجاركيين على مجاراة الصعوبات التي أصبحت تعيشها المدن اليونانية، لم يستطيعوا هم بدورهم على رأب الصدع بين فئات المجتمع اليوناني.⁴

والظاهر أن الشعور بالندية بين هذه الفئات واحساس كل طبقة بمدى اهميتها ودورها في الحياة المدنية، كان وراء تفجر صراعات جديدة بين الطبقات الاجتماعية وذلك دون اغفال عامل

¹ - Geoges Tate, op.cit, P 53.

² - Ibid, pp 53-54.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 196-202.

⁴ - Geoges Tate, op.cit, P 53.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

ترسب الأحقاد التاريخية بين هذه الفئات، فالارستقراطيون بعد إزاحة الملك نهاية القرن الثامن ق.م، ومن خلال ادعائهم بأنهم ينحدرون من أصول إلهية عاملوا الفئات الأخرى كرعايا وعبيد لهم، أما أولئك الرعايا بدورهم فحين تحسنت أوضاعهم المادية بعد الانفتاح التجاري للمدن اليونانية اعتقدوا أنهم قادرين فعلا على تسيير أمورهم بأنفسهم، لذلك واصلوا ثورتهم ضد الاوليجاركيين الارستقراطيين الذين قاموا بالانقلاب على ملوكهم من خلال ثورتهم الصامتة.¹

ويبدو في الحقيقة أن الطبقة العامة والذين وصفنا أفرادها بالرعايا في نظر الارستقراطيين، قد شعرت بثقلها وأهميتها كما سبق ذكر ذلك، إلا أن عناصرها لم يكونوا متمرسين على القيادة رغم قوتهم في تلك الفترة، ومن ثم استطاع بعض الزعماء من غير هذه الطبقة أن يتمكنوا من قيادتهم وأن يحققوا طموحاتهم في الوصول إلى الحكم على كواهل هؤلاء العوام.²

وتذكر الروايات التاريخية أنه في آخر عهد العمل بتشريعات سولون وبعد عودة هذا الأخير من رحلة إلى بعض البلدان المجاورة دامت عشر سنوات، وجد أحد اقربائه ويدعى بيزاستراتوس (Pisistrate) (600 ق.م - 527 ق.م) كان يتزعم حزب الجبل، وهو حزب العامة، وكان يعمل على تكوين عصابة لاحتلال الاكروبول (Acropole) ولينصب نفسه من ثم حاكما مطلقا أو طاغية على البلاد، وهو حكم جديد عرفته المدن الإغريقية عُرفَ حكم الطغاة.³

والواضح انه وعبر المدن اليونانية او في الكثير منها، قد اتخذت طبقة العامة لنفسها زعامات تمكنوا سواء من خلال القوة او عنصر المفاجأة من تنصيب انفسهم طغاة على المدن الإغريقية، وذلك من خلال موافقة الشعب في بداية الامر منحهم السلطة من اجل منحه في المقابل النظام والسلام والعدالة.⁴ ويرجع اختيار هؤلاء الطغاة الذين كانوا في أغلب الأحيان من نفس طبقة ووسط المشرعين الإغريق إلى شهرتهم المتعلقة بنجاحاتهم في الحرب، أو بشعبية عائدة إلى سلوك ديماغوجي.⁵

¹ - Victor Duruy, Histoire de la Grèce Ancienne, Tome premier, Librairie de L.Hachette et Cie, Paris 1862, Préface, P VII.

² - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 33.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 202.

⁴ - Victor Duruy, loc.cit.

⁵ - Geoges Tate, op.cit, P 54.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

غير أنه حين تم الأمر ونجحت ثورات العامة عمل هؤلاء الطغاة على احاطة أنفسهم ببطانة قوية ساعدتهم على تثبيت أقدامهم في الحكم، والملاحظ أنهم من أجل التغطية على شرعية حكمهم، حاولوا كسب ود العامة وصرف أنظارهم عنهم من خلال أعمال ظاهرة تحمل نوعاً من العدالة والانتقام في نفس الوقت، كمصادرة جزء من أراضي الارستقراطيين وتوزيعها على العامة، وبذلك استطاعوا كسر شوكة الارستقراطيين وارضاء العامة في الوقت ذاته.¹

عرفت بلاد الإغريق هذا النوع من الحكم خلال القرنين السابع والسادس ق.م، وقد عرفت أغلب المدن فيما عدا اسبرطة (Sparte) وإيجين (Egine)،² وعرف هذا العصر بعصر الطغاة وهو العصر الذي الذي انتزعت فيه الطبقة الوسطى (العامة) الحكم عن طريق السلاح من الارستقراطيين الذين عجزوا عن إدارة شؤون الحكم في تلك الفترة،³ وفي عصر هؤلاء تم تشجيع الحركة الاستعمارية وعمليات الاستيطان خارج بلاد اليونان لتتعدد فرص الرزق أمام الإغريق من جميع الطبقات. كما شجع الطغاة الفنون وأمروا باقامة مشاريع أدبية ومعمارية، وتحسب لبيزاستراتوس في هذا الاطار كتابته ونشر الياذة والأودسية بأمر منه، والمرجح أن كل ذلك كان من أجل إلهاء المجتمع عن مناقشة شرعية حكمه التي يفترض أن تعود إلى الشعب بعد ثورته الاوليجراكين.⁴

كان الطغاة يمارسون سلطة مطلقة ودون إحداث اضطراب على مستوى المؤسسات في المدينة، كما قاموا بأفعال لها رمزية تاريخية كاختيار مقر اقامتهم، وكانوا يحاولون ربط علاقة بينهم وبين الملوك القدامى فهم يرون مجيئهم كأنه عودة للعصور القديمة، وذلك من خلال استغلال الأساطير لصالحهم.⁵

تميز حكم الجيل الأول من عصر الطغاة بالتحكم في الأوضاع وعدم ظهور ثورات شعبية، ويعود ذلك إلى معرفة هؤلاء الطغاة بقوة الطبقة العامة وحسن التعامل معها، أما الجيل الثاني فيبدو أنه تمادى في الاستبداد،⁶ ولم يقفوا عند الحد الذي يمكن للشعب صاحب السلطة الحقيقية أن

¹ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 33.

² - Geoges Tate, loc.cit.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 204.

⁴ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 33-34.

⁵ - Geoges Tate, loc.cit.

⁶ - حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 34.

الباب الأول- الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع

يتحمله منهم، لذلك اشتعلت الثورات من جديد والتي كانت هذه المرة أكثر عنفا وفضاعة.¹ وإذا ما أخذنا مدينة أثينا كمثال عن المدن اليونانية بحكم أنها أكبره وهي التي عاشت تلك التحولات في أنظمة الحكم، فإن ما وقع فيها هو أن طاغيته بيزاستراتوس والذي مات وهو في سدة الحكم سنة 528 ق.م، حكم بعده ولداه هيبياس (Hippias) وهيبارخوس (Hipparchos) حكما ثنائيا.²

وبسبب مقتل هيبارخوس على يد أحد النبلاء الذي تأمر عليه، تحول شقيقه هيبياس بعد تلك الحادثة إلى سياسة الانتقام والطغيان إثر مقتل أخيه، ليُعيدَ بذلك مرحلة صعبة على الاثينيين من كبت الحريات والارهاب والقسوة وأخذ الناس بالشبهة والتنكيل بالأفراد، الأمر الذي عجل بالثورة عليه وطرده من أثينا³

دخلت أثينا بعد طرد هيبياس مرحلة جديدة عرفت بنهاية حكم الطغاة، وبداية النظام الديمقراطي الذي كان على رأسه أحد النبلاء يدعى كليستينيس (Clisthène) الذي أحدث تغييرات جوهرية في نظام الحكم من خلال إعادة تقسيم القبائل على أساس مكاني، وإعادة تنظيم مؤسسات الحكم وكيفية تعيين اعضائها.⁴ أما هيبياس الذي فر من أثينا بعد طرده سنة 510 ق.م فقد توجه إلى مستعمرة سيجيوم (Sigeum)، ليواصل طريقه إلى قصر ملك الفرس داريوس آملا في مساعدته لاسترجاع حكم أثينا مرة أخرى،⁵ وهو الأمر الذي سيفتح الباب أمام صراع دامي وعنيف بين الإغريق والفرس.

¹ - Victor Duruy, loc.cit.

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 219.

³ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 168.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 220-224.

⁵ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 198.

الفصل الثالث

بدايات الصراع بين الفرس والإغريق

I- الحرب الميدية الأولى 490 ق.م

II- الحرب الميدية الثانية 480-479 ق.م

I- الحرب الميديّة الأولى 490 ق.م

1- ثورة المدن الأيونية بزعماء ميليتوس (Milet)

عرف القرن الخامس ق.م ومنذ بدايته مواجهة بين إمبراطورية الفرس ومدن شبه الجزيرة اليونانية التي كانت على رأسها ومنذ الجولة الأولى مدينة أثينا، وقد عرف هذا الصراع تاريخياً بالصراع الفارسي الإغريقي أما مراحلها التي كانت متتالية فعرفت باسم الحروب الميديّة¹. اندلع ذلك الصراع عقب ما عرف بثورة المدن الأيونية 490 ق.م على سادتهم الفرس الذين كان حكامهم خاضعين لهم،² ويدفعون لهم مبلغاً سنوياً من دخل تلك المدن، وقوات بحرية تساعد الأسطول الفارسي في حروبه الخرجية خاصةً ضد البابليين والمصريين.³

كانت المدن الأيونية وإلى غاية منتصف القرن السادس ق.م تتبع سياسياً مملكة ليديا، هذه المملكة التي كانت تبسط نفوذها على أجزاء كبيرة من غرب آسيا الصغرى، ومع ذلك ظلت المدن الإغريقية التي كانت تنتشر على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى تحظى بنوع من الحكم الذاتي تدير من خلاله شؤونها الداخلية وتدير كذلك علاقات خارجية مع مدن بلاد اليونان⁴. وفي سنة 546 ق.م استولى الفرس على مملكة ليديا بعد هزيمة ملكها كروسوس (Cresus) ومن ثم خضعت المدن الساحلية الإغريقية إلى نفوذهم بين سنتي 546 و539 ق.م.⁵ (أنظر الملحق 6 خرائط)

أصبحت المدن الأيونيين في وضع قابل للتأثر وعرضه لانعكاس محيطها الخارجي، فهي من جهة كانت مضطرة لمسايرة طموحات إمبراطور الفرس داريوس في مد نطاق إمبراطورية غرباً نحو بحر مرمرة (Propontide) والبحر الأسود (Pont-Euxin)، ومن ثم وضع يده على طرق التموين

¹ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 136-137.

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 238.

³ - لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص 156.

⁴ - نفسه، ص 155.

⁵ - Peter Green, Les guerres médiques, Ed. Tallandier, Paris, 2012, pp 38-39.

بالقمح، الذهب، و الخشب الذي يصلح لصناعة السفن،¹ ومن جهة وبحكم انتمائهم وعلاقتهم الأصلية بالمدن اليونانية، كانت تلك المدن تتأثر بشكل واضح بتنوع الأنظمة السياسية التي كان الإغريق يطورونها خلال تلك الفترة، وبعد طرد الطاغية هيبياس بن بيزاستراتوس من أثينا، أُعلن قيام النظام الديمقراطي في أكبر مدن اليونان، لتسعى بعد ذلك أثينا إلى تصدير هذا النظام وتترع حركة ثورية ضد الطغاة في مدن اليونان وحتى في مدن أيونيا.²

ويبدو أن التغيير السياسي الذي حدث في شبه جزيرة اليونان قد وصل صداه إلى المدن الإغريقية الآسيوية وفي هذا الإطار كان واضحاً وقوف الفرس إلى جانب نوع الحكم الذي وجدوه قائماً بتلك المدن، وهو نظام الحكم الفردي أو حكم الطغاة، الأمر الذي خلق نوعاً من السخط والتذمر لدى سكان هذه المدن من جهة بسبب أولئك الطغاة الذين اوصلوهم على حالة من التشردم وعدم الاتحاد والفرقة، ومن جهة بسبب تدخل الفرس في شؤونهم وفرض وصايتهم عليها.³ وقد ذهب طغاة الأيونيين أكثر من ذلك إذ أمنوا لداريوس من خلال مساعدتهم له بفرقة من المحاربين الإغريق، السيطرة على طراقيا، وكذلك السيطرة على مقدونيا الذي اعترف ملكها أمينتاس الأول (Amintas I) بسيادة الفرس، وكذلك السيطرة على موانئ خلقدونيا (Chalcédoine)، وبذلك أصبح الفرس يراقبون التجارة البحرية بين المتوسط والبحر الأسود.⁴ ويمكن القول كذلك ان الجيش الفارسي ما كان لينجو من الهلاك بأرض السكيثيين لولا ولاء الفرقة الإغريقية التي كانت تحرس الجسر على نهر الدانوب بقيادة طاغية ميليتوس هيستياتوس (Histiée).⁵

استطاع الفرس السيطرة على جزيرة ساموتراس (Somothrace) الإغريقية الواقعة شمال شرق بحر إيجه وذلك سنة 508 ق.م، غير أنه في تلك الظروف وبعد فشل حملتهم ضد السكيثيين،

¹ - Ibid, p 47.

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص237.

³ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص156.

⁴ - Peter Green, op.cit, p 46.

⁵ - Hérodote, op.cit, IV, CXXI-CXXII.

اتضح لداريوس ان الاعتماد على ولاء الإغريق أمر مهم، أما الأيونيون فقد أدركوا انه بإمكانهم التمرد والخروج على سلطة الفرس، لأن هذه الحملة اثبتت لهم ان إمبراطورية الفرس ليست تلك الإمبراطورية التي لا تهزم.¹ في تلك الأثناء كانت أثينا تروج لنموذجها بالحكم الديمقراطي مستغلة تلك الكراهية الفطرية التي كان يشعر بها الإغريق إزاء الأنظمة، لكونها لا تتوافق البتة مع الأحساس الإغريقي لمعنى الحرية واحترام القوانين والالتزام بها حكاما ومحكومين.² وكان حكام المدن الأيونية قد لاحظوا ان سكان مدنهاهم لهم ميل كبير لبني جلدتهم من إغريق المدن اليونانية، وأن تلك المدن ظهر عليها تطور واضح في المجالات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية تدفعهم إلى ذلك حلمهم في وحدة قومية خاصة في تلك الظروف الخطيرة.³

بدأ الأثينيون يستغلون الظروف التي كانت تعيشها المدن الأيونية للتخلص من النفوذ الفارسي في تلك المدن، وكذا المدن الإغريقية في البحر الأسود، ومحاولة واستبدال حكامها بحكام ينتمون للأحزاب الديمقراطية المشابهة للحزب الديمقراطي الأثيني الذي تحول إلى الحزب الأم، ومن ثم ظهرت فكرة بناء قوة بحرية مؤلفة من جميع المدن الإغريقية لبسط نفوذها وممارسة السيادة البحرية بالبحر المتوسط.⁴

وتتحدث رواية هيرودوت على ان هيستاتوس (Histiée) طاغية ميليتوس قد طلب من داريوس ملك الفرس منحه اقليم ميركيانوس (Myrcine)،⁵ المعروف بأرضه الخصبة الواقعة على مجرى نهر ستريمون (Strymon) الأدنى، من أجل إقامة مستعمرة بأرض تراقيا تتبع ميليتوس، وذلك مقابل ما قام من خدمات للملك خلال حملته ضد السكيثيين والتراقيين،⁶ وبما ان المنطقة كانت غنية بالأخشاب التي كانت تصلح لبناء السفن، وكذا بمعدن الفضة الذي تزخر به مناجمها، فقد

¹ - Marie-Françoise Baslez, Histoire politique du Monde Grec, 3ème édition, Armand Colin Editeur, Paris, 2015, p 87.

² سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 237.

³ عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 176.

⁴ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 237.

⁵ Hérodote, op.cit, V, XI.

⁶ عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 175.

أثار ذلك حفيظة ميغابيز (Mégabyse) الذي نبه الملك داريوس حين عاد من تراقيا إلى سارديس متسائلا كيف تمكن لداريوس أن يُمكن اغريقيا يقظ وذو خبرة مثل هيستياتوس من مطقة محاطة بالاغريق والبرابرة الذين قد يتخذون منه قائدا لهم، ويتخذ هو منهم جيشا قادرا على المضي به إلى أي مكان يقصده، ونصح ميغابيز الملك أن يستدعي هذا الرجل فإذا صار عنده منعه من العودة إلى بلاده¹.

استدعى داريوس هيستياتوس وأبقاه عنده في العاصمة سوسه (Suses) متذرعا بأنه لا يمكنه الاستغناء عنه، وفي الحقيقة كان هيستيتوس أسيرا لدى داريوس،² أما ميليتوس فظلت تدار وتحكم من طرف طاغية آخر هو زوج اخت هيستياتوس المسمى أريستوغراس (Aristogras) ابن مولباجوراس (Molpagoras)،³ وقد حدث في تلك الفترة أن ثار الديمقراطيون في جزيرة ناكسوس (Naxos) على الأثرياء والارستقراطيين وطردوهم من المدينة، لذلك طلب هؤلاء بعد أن لجأوا إلى ميليتوس النجدة من طاغيته أريستوغراس من أجل إرجاعهم إلى المدينة وحكمها من جديد،⁴ ليطلب هذا الأخير العون والمساعدة من أرتافان (Artapherne)⁵ شقيق الملك داريوس وحاكم مقاطعة ليديا،⁶ وذلك لأنه كان لا يثق في نجاحه وقدرته على انهاء هذه المهمة بمفرده، لذلك عمل أريستوغراس على ترغيب الملك داريوس في الأمر من خلال رسم مشروع حمله ضخيم يتم خلاله الاستيلاء على جزر السكيلاد وغيرها من الجزر الإيجية الأخرى، لكن البداية يجب أن تكون من ناكسوس⁷. (أنظر الملحق 12 خرائط)

¹ - Hérodote, op.cit V, XXIII.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص175.

³ - Hérodote, op.cit, V, XXX.

⁴ - Ibid.

⁵ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص175.

⁶ - Hérodote, loc.cit.

⁷ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص175.

لم يتردد أرتافارن في الموافقة على عرض أريستوغراس، ودون أن ينتظر الموافقة من العاصمة سوسة، أرسل مع الايونيين جيشا معتبرا مع مائتي مركب ثلاثي صفوف المجاديف (Trirèmes)، وكلف ميغابات (Mégabate) أحد الضباط الفرس بقيادة هذه الحملة إلى جانب أريستوغراس¹.

غير أنه وبسبب معاقبة ميغابات لأحد قادة السفن المانديين (Myndiens) التابعين لأريستوغراس، تدخل هذا الأخير لصالح قبطان السفينة، وذكر ميغابات بأن أرتافارن أرسله ليكون تحت امرته وتوجيهه هو وجنوده في الاتجاه الذي يريده. أرسل ميغابات تحذيرا لأهل ناكسوس بقرب الهجوم عليهم انتقاما من أريستوغراس²، ولذلك استطاعت الجزيرة الصمود أثناء حصارها من طرف الأيونيين والفرس وكذلك المطرودين منها من الارستقراطيين، وذلك لأخذها لجميع الاحتياطات الضرورية قبل وصول المهاجمين إليها، وضرب الحصار عليها لمدة أربعة أشهر لئتم بعد ذلك رفعه لاستنفاد المهاجمين المؤونة، ليفشل بذلك أريستوغراس في المهمة التي علق عليها أرتافارن آمالا كبيرة³.

حمل الفرس أريستوغراس مسؤولية فشل هذه الحملة وتلك الخسارة وطالبوه بدفع تكاليفها، لذلك توجس هذا الأخير من نواياهم نحوه وأيقن أنه لا محالة سيخلع من حكم ميلتيوس، وقد يقتل إذا ما تم ذلك، لذلك لم يكن لديه خيار غير التمرد والعصيان والثورة عليهم⁴. أعلن أريستوغراس تمرد على الفرس وولكنه قبل ذلك أعلن تخليه عن منصب الطاغية في ميلتيوس، وحقق المساواة بين مواطني مدينته، كما طلب من الميليزيين (les Milésiens) حلفاءه أن يجذوا حذوه، كما فعل الشيء نفسه في باقي مدن أيونيا، ولكي يتصالح مع سكانها سلمهم طغاة وحكام تلك المدن الذين كانوا معه في حملته على ناكسوس⁵.

ويبدو أن دعوة أريستوغراس للثورة على الفرس لقيت صدى كبيرا لدى سكان المدن الايونية وذلك بسبب السخط والنقمة من الحكم الفارسي، كما أن مدينة ميلتيوس كانت لها مكانة كبيرة

¹ - Hérodote, op.cit, V, XXXII.

² - Hérodote, op.cit, V, XXXIII.

³ - Ibid, V, XXXIV.

⁴ - François Lefèvre, Histoire du Monde Grec Antique, Le Livre de Poche Editeur, Paris, 2007, p179.

⁵ - Hérodote, op.cit, V, XXXVII.

بين المدن الأيونية لذلك نجحت في قيادة حلف من هذه المدن تحت إمرتها، وتجدد الإشارة إلى أن هذه المدينة كانت تشغل ومنذ زمن مركزا تجاريا مهما بين المدن الإغريقية¹.

كان اعلان الايونيين الثورة على الفرس في حوالي 499 ق.م، ورغم اجتماع قوات من المدن الأيونية تحت تصرف أريستوغراس، إلا أنه كان يدرك أنه مازال في اقلية عسكرية مقارنة بقوات أרטافاران حاكم ليديا الفارسي، لذلك أبحر أريستوغراس باتجاه أسبرطه يطلب عون ملكها كليوميناس (Cléomès)²، وقد وصف له شعوب آسيا الخاضعين للفرس والذين يملكون ثروات طائلة وغير مبالين بالحرب، وبذلك يمكن أن يكونوا غنيمة سهلة للأسبرطيين، ورغم الاغراءات والتوسلات التي قدمها أريستوغراس لملك أسبرطه لإرسال الجيش معه إلا أن الملك رفض الاستجابة لمطلبه بعد أن علم أن الرحلة بين اسبرطه وميلتيوس تستغرق مدة ثلاثة أشهر³.

بعد فشل أريستوغراس في الحصول على دعم من اسبرطه توجه إلى أثينا التي خلعت عن نفسها حكم الطغاة، واستعادت حريتها منذ سنوات⁴، وبما أن المدينة كانت متخوفة من دسائس هيبياس آخر الطغاة المطرودين من أثينا والذي يقيم في سارديس في كنف حاكمها الفارسي، والذي يعول على دعمه في سبيل عودته لحكم أثينا⁵. لذلك وافقت أثينا على دعم الثورة الأيونية لتصل قواهم المشكلة من عشرين مركبا أثينيا وخمسة مراكب ثلاثية صفوف المجاديف من إيرتري (Eréttrie)، وربما كان من أسباب موافقة أثينا على هذا العرض هو اعترافها بجميل سابق ودين لها عند الميليزيين حلفاء الميلتيين الذين قدموا لها دعما في وقت سابق⁶.

حين اكتمل لأريستوغراس عددا من القوات الكافية من الأيونيين وحلفائهم، توجه جيشه نحو سارديس عاصمة ليديا، وحسب رواية هيرودوت فقد ظل هو في ميلتيوس وعين على رأس الحملة

¹ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص156.

² - كيتو، المرجع السابق، ص144.

³ - Hérodote, op.cit, V, XLIX- L.

⁴ - Ibid, V, LV.

⁵ - Marie Françoise Baslez, op.cit, p87.

⁶ - Hérodote, V, XCIX (99)

شقيقه شاروبينوس (Charopinus) وعلى قيادة جيش الحلفاء عين القائد هيرموفونت (Hermophante)¹.

كانت الحملة في حوالي 499 ق.م، وقد استطاع الأيونيون وحلفاؤهم الاستيلاء على المدينة وأطرافها، غير أنهم لم يكملوا تلك السيطرة عليها بسبب استماتة أرطافارن في الدفاع عن الأكروبول² مع فيلق من جنوده الفرس، وبما أن الأيونيين وحلفائهم لم يجدوا مقاومة جدية في باقي أرجاء المدينة فقد أحرقوا البيوت التي كانت سقوفها مغطاة بالقصب والأغصان، الأمر الذي سرع في انتشار ألسنة اللهب في كل مكان في المدينة، غير أنه وبسبب محاصرة الحريق لسكانها من الفرس والليدين الفارين، لم يجد هؤلاء بدا من العودة إلى ساحة المدينة والاستماتة في الدفاع عنها بانفسهم مما جعل الأيونيين يتراجعون إلى هضبة تمولوس ثم إلى قواربهم، أما سكان المدينة فقد ركبوا نهر الباكطول (Pactole)، الذي يجتاز سارديس، ومنه إلى نهر الهيرموس (Hermus) ثم إلى البحر³.

التهمت النيران الحارقة معبد سيبال (Cybèle) إلهة البلاد، وهذا الأمر كان له بعد ذلك انعكاساته على معابد اليونانيين التي احرقها الفرس، والجدير بالذكر أن الفرس القاطنين فيما وراء نهر الهاليس هرعوا لنجدة سارديس والليدين غير أنهم لم يجدوا الأيونيين الذين انسحبوا، ومع ذلك لاحقهم الفرس وتبعوا أثرهم إلى ان ادركوهم في مدينة إيفاز (Ephèse)، وهناك حدثت معركة كبيرة من الطرفين هُزِمَ فيها الأيونيون وكلفتهم عددا كبيرا من القتلى أبرزهم أوالكيس (Eualcis) قائد الأريتيريين وبطلهم في كثير من الحروب. انتهت المعركة بانتصار الفرس، أما من نجى من الأيونيين وحلفائهم فقد تفرقوا في المدن المجاورة⁴.

بعد هذه الواقعة انسحب الأثينيون وتخلوا عن دعم الأيونيين رغم توسلات اريستوغراس، لكن ذلك لم يمنع الأيونيين من مواصلة ثورتهم بل وتوسيع رقعتها، فقد ركبوا البحر واجتازوا مضيق

¹ - Ibid.

² -Pierre Briant, op.cit, p160.

³ -Hérodote, op.cit, V, CI.

⁴ -Peter Green, op.cit, p 57.

الدردنيل (Hellespont) واستولوا على بيزانس (Byzance) والمدن المجاورة لها، ثم توجهوا نحو كاريا (Carie) أين تضامن معهم ودعمهم جزء كبير من سكانها،¹ أما قبرص فقد ثارت مدنها ماعدا مدينة أماثونت (Amathonte)،² وكان ذلك بين سنتي 498 ق.م و 497 ق.م، وإذا كان الأيونيون كانوا يحققون انتصارات بحرية، فإن الفرس كانوا يزحفون براً ويحققون انتصارات سريعة، وماهي إلا بضعة أشهر حتى استعادوا آخر المدن التي كانت تقاومهم.³ وقد جند الفرس بغرض اخماد تمرد المدن الأيونية ومن لحق بها مثل المدن الهلسوبونتية وقبرص، ثلاثة جيوش وأعدوا أسطولا جديدا، فسُحِقَ التمرد في قبرص ثم مدن مضيق الهلسوبونت بشكل تدريجي، وحين شاهد أريستوغراس منحى الأحداث حاول نقل المعركة إلى تراقيا وتحديدا إلى ميرسين (Myrcine)، تاركا حكم ميلتيوس إلى بيتاغور (Pythagore) وبعد ابجاره إلى تراقيا وتحقيقه بعض النجاحات هناك، قُتِلَ على يد تراقين كان يحاول حصار مدينتهم.⁴

أما الكاريون فقد هزمهم الفرس بالقرب من نهر مارسسياس (Marssyas) ثم في موقعه أخرى، في لابروندا (Labronda)، ويمكن أن يكون ذلك بين سنتي 497 ق.م و 496 ق.م ليستعيد بعد ذلك الكاريون زمام المبادرة ويلحقوا هزيمة فادحة بجيش الفرس بعد كمين نصبوه لهم على طريق بيداسوس (Pédasus)،⁵ أما الخضوع فكان بعد استعادة الفرس لمدينة ميلتيوس زعيمة التمرد في غرب آسيا الصغرى، وقد خضعت بعض مدن كاريا طواعية، أما المدن الأخرى فقد أخضعها الفرس بالقوة.⁶

2- إخماد الثورة وسقوط ميلتيوس

تجمعت قوات الايونيين البحرية في جزيرة لادي (Ladé)، وفتُحَ نقاش حول الخطوة التي ينبغي القيام بها بعد ما وقع من أحداث، وتم الاتفاق على مجابهة أسطول الفرس، وأوكلت مهمة

¹ - Hérodote, op.cit, V, CIII, 103.

² - Hérodote, op.cit, V, CIV (104).

³ - Pierre Briant, op.cit, p.231 ; Hérodote, op.cit, V, 104-116.

⁴ - Hérodote, op.cit, V, CXXII, CXXVI.

⁵ - Ibid, V, (CXVII, CXXI); Pierre Briant, op.cit, p 231.

⁶ - Ibid, VI, XXV

قيادة الأسطول الأيوني الى قائد من فوكيا (Phocée) يدعى دونيس (Denys)، غير أنه فرض على الأيونيين تدريبات يومية قاسية لم يستطيعوا مواصلتها بعد اليوم السابع، فقرروا عدم الانصياع لأوامره، وقد أدى عدم انضباط الأيونيين في التدريبات الى انسحاب مقاتلي جزيرة ساموس (Samos) من حلف أيونيا ضد الفرس¹.

اشتبك الأسطول الايوني مع الاسطول الفينيقي وحسب رواية هيرودوت فإنه لا يعرف سبب هزيمة الأيونيين، غير أنهم كانوا يتبادلون التهم فيما بينهم بسبب هذه النتيجة، ومع انسحاب عدد كبير من مراكب ساموس الحربية حذا مقاتلو لسبوس (Lesbos) حذوهم، ليبدأ بعد ذلك فرار الأيونيين أنفسهم من المعركة. ويتحدث هيرودت في هذا الشأن عن استماتة مواطني جزيرة كيوس (Chios)، الذين ورغم مشاهدتهم حلفاء الأيونيين يفرون الواحد تلو الآخر، إلا أنهم صمدوا وقاتلوا بشجاعة إلى أن قتل عدد كبير منهم لينسحبوا بعد ذلك محاولين الوصول إلى جزيرتهم².

بعد هزيمة الأسطول الايوني، حاصر الفرس ميلتيوس من البر والبحر، وبعد ست سنوات من الثورة حول أريستوغراس كما قال هيرودوت سكان ميلتيوس إلى أسرى تابعين للفرس،³ حيث أُرسلوا إلى العاصمة الفارسية سوس (Suses) ليأمر داريوس بأخذهم للعيش على ضفاف الخليج الفارسي في منطقة (أمبي) (Ampé) أين يصب نهر دجلة في البحر، ولم يقد داريوس في حقيقة الأمر بالحق أي اذى آخر بهم، كما احتفظ الفرس بضواحي ميلتيوس وبسهلها أما جبالها فقد منحوها لكاريي بيداسوس⁴ (Pédases).

وإذا كان الفرس بإخادهم لثورة المدن الأيونية قد أغلقوا صفحة من صفحات صراعهم مع اغريق اسيا الصغرى، إلا أن هذه الحادثة قد شجعت الفرس على فتح باب الصراع على مصراعيه مع المدن الاغريقية في شبه جزيرة اليونان، التي قدمت الدعم لأيونيا خاصة أثينا وأريتريا وذلك

¹ Hérodote, op.cit, VI, XI, XII, XIII ; Pierre Briant, loc.cit,

² Ibid, VI, XIV, XV .

³ Ibid, VI, XVIII.

⁴ Ibid, VI, XX.

لإدراك داريوس أن حدوده الغربية لا يمكن أن تنعم بالسلم إذا عاود الاغريق مثل تلك المحاولات¹، وأصبح الملك الفارسي مقتنعا أنه لا يمكن له أن يحتفظ بأيونيا وقتا طويلا إذا لم تتم له إحكام سيطرته على بحر ايجة²، أما بالنسبة للإغريق فإن فشل الثورة الأيونية أكد لهم أيضا ضرورة بسط نفوذهم على بحر ايجة مع استدراك أمر توحيد القيادة والتخلي عن النزعات الفردية³.

ومن أجل تجسيد ما أصبح داريوس يؤمن به أرسل حملة ضد أثينا وإيرتري سنة 492 ق.م عين على رأسها قائده ماردونيوس (Mardonius)، وكان هدفها المعلن هو معاقبة تلك المدن التي ساعدت وشجعت الأيونيين على الثورة⁴. استطاع ماردونيوس تجميع قوات عسكرية كبيرة بآسيا الصغرى، ثم عبر بها مضيق الهلسوبوت بعد أن أمن لهذه القوات عددا معتبرا من المراكب، وأخذ طريقه نحو أوربا وتحديدًا إيريتيري (Erétie) وأثينا (Athènes).⁵ أبحر الأسطول الفارسي إلى تاسوس (Thasos) التي أخضعها في طريقه، ثم سار بمحاذاة الساحل اليوناني إلى غاية طواني أكانتوس (Acanthe).⁶

وفي الوقت الذي حاول فيه الأسطول الفارسي اجتياز رأس مرتفع (Athos) هبت ريح قوية قادمة من الشمال، وصفها هيروdotus بالعنيفة، مما جعل عددا كبيرا من المراكب تصطدم بمرتفع أتوس. أدى ذلك الحادث إلى تحطيم عدد من المراكب وصل إلى 300 مركب، وخسارة أكثر من عشرين ألف محارب قضى بعضهم بسبب اصطدامهم بالصخور والبعض الآخر من شدة البرد و آخرين بسبب عدم معرفتهم السباحة⁷. ويقول الباحث بيتر قرين (Peter Green) أنه بسبب تعرض الأسطول لعاصفة عنيفة أثناء اجتيازه رأس مرتفع (Athos)، فقد نصف عدد مراكبه،

¹ لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص157.

² - كيتو، المرجع السابق، ص146.

³ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص178.

⁴ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص138.

⁵ - Hérodote, op.cit, VI, XLIII.

⁶ - Lefèvre, op.cit, p178.

⁷ - Hérodote, op.cit, VI, XLIV.

واضطر بذلك ماردونيوس إلى اعطاء الأمر بالتراجع وهو ما كلفه فقدان منصبه كقائد للأسطول بشكل مؤقت¹.

فشلت الحملة ضد أثينا وأيريتري وعاد الجيش الفارسي أدراجه من حيث أتى²، ولا يبدووا بحسب هيرودوت أن فشل هذه الحملة كان بسبب العاصفة فقط ولكنه يتحدث أيضا عن هجوم للتراقين البريجيين (Les Thraces-Bryges) على معسكر ماردونيوس في مقدونيا بعد تراجعه إليها. وكان ذلك الهجوم ليلا ومباغتة قتل على إثره الكثير من رجاله وجرح هو نفسه، لذلك عاد هو وبقايا جيشه خائبا وعبر مضيق الهلسوبوت الى آسيا³.

3- معركة المراثون (Marathon) (490 ق.م):

قضى الفرس سنة 491 ق.م في الاستعداد والتحضير لحملة عسكرية جديدة على بلاد اليونان، ولا يبدو أن الفرس قد اغفلوا قبل ذلك، العمل الدبلوماسي فقد استقبلت الكثير من المدن اليونانية سفراء داريوس يطلبون "الأرض والماء" أي الخضوع⁴، وبالمقابل كانت كُتُريات مدن اليونان أثينا وأسبرطة مصممتان هذه المرة على تناسي خلافتهما، وردا على مشروع داريوس، فقد ألقى الاثينيون برسوله من فوق صخرة الاريوباجوس، أما الاسبرطيون فقد ألقوا مبعوثه في بئر عميقة، فكان الرد الأول يعني الأرض، والثاني يعني الماء⁵.

بعد رفض الإغريق تسليم داريوس الأرض والماء أصبح الملك يتوق إلى اخضاع جميع شعوب اليونان، لذلك وتجنباً لخسارة المعركة وفشل الحملة أعفى ماردونيوس من قيادتها وعين بدلا عنه قائدان آخران هما داتيس (Datis) الذي ينحدر من أصل ميدي، وابن اخيه ارتافارن (Artapherne) وأمرهما بالسير نحو أثينا وإيريتري بغرض اخضاعهما وتحويل جميع السكان فيهما إلى عبيد وجلبهم إلى بلاد فارس⁶.

¹ - Peter Green , op.cit, p12.

² - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص239.

³ - Hérodote, op.cit, VI, XLV.

⁴ - Peter Green, op.cit, p 67.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق ، ص239.

⁶ - Hérodote, op.cit, VI, XCIV.

ابجر أسطول الفرس الذي كان يتكون من ستين (60) مركبا تحمل عشرين ألف محارب، استولى الاسطول على جزر السكلاديس، أو الكيكلادس (Cyclades)،¹ وكان ذلك بمساعدة البحرية الفينيقية كما يخبرنا ثوكيديديوس (Thucydides)،² كما أحرق الفرس جزيرتي ناكسوس (Naxos) وديلوس (Délös).³

وفي الحقيقة وتعليقا على عدد وعدة ذلك الجيش الذي أرسله داريوس في هذه الحملة، فإن هيرودوت لم يحدد أعدادا ثابتة له ولكنه، وصفه بالجيش كثير العدد حين تجمع في بادئ الأمر في منطقة كيليكيا بآسيا الصغرى.⁴ غير أن مؤرخين قدامى آخرين أشاروا إلى أعداد كبيرة يمكن وصفها بالخيالية عن عدد الجنود الفرس في هذه الحملة تراوحت بين مائة (100) وخمسمائة (500) ألف محارب،⁵ في حين أن مؤرخين معاصرين اعتبروا أن عدد خمس وعشرين ألف (25000) فقط محارب، يمكن أن يكونوا قد شاركوا في تلك الحملة، أي أن العدد الذي يمكن تقبله منطقيا هو هذا العدد.⁶ أما عن عدد المراكب فيمكن القول أن أسطول داتيس كان يجمع على الأقل مائتي (200) مركب ثلاثي صفوف المجاديف.⁷

وصل الاسطول الفارسي بعد ديلوس الى اقليم أوبيي (Eubée)، وحاصروا مدينة كاريستوس (Caryste) التي رفضت الانصياع إليهم، أي فتح أبوابها و تسيير جنودها معهم نحو إيريتيري وأثينا، ولذلك قام الفرس بتدميرها.⁸ وفي الحقيقة كانت مدينة كاريستوس ذات أهمية استراتيجية بالغة بالنسبة للفرس المهاجمين لبلاد اليونان، لكونها تملك خليجا بحريا طبيعيا يصلح لاستقبال المراكب الفارسية، ونقطة اتصال بين ضفتي بحر إيجه الآسيوية والأوربية، كما أنها كانت تمثل قاعدة

¹ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص138.

² - Thucydide, Histoire de Thucydide, Texte Traduit par Charles Zevort, Tome premier, Charpentier Libraire-Editeur, Paris, 1854, I, 16, p 18.

³ فوزي مكاي، المرجع السابق، ص138؛ Hérodote, op.cit, VI, XCVI, XCVII

⁴ - Hérodote, op.cit, VI, XCV.

⁵ - Patrice Brun, La Bataille de Marathon, Larousse, Paris, 2009, p 42.

⁶ - Ibid, p 43.

⁷ - Peter Green, op.cit, p69.

⁸ - Hérodote, op.cit, VI, XCIX ; 180 عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص180

خلفية برية لشن الهجمات على إيريتري في اقليم أوبيي، وكذلك على أثينا في اقليم أتيكا¹. توجهت القوات الفارسية إلى إيريتري، تلك المدينة التي أرسلت لها اثنا أربعة آلاف (4000) جندي، ، غير أنهم سرعان ما فروا خاصة حين أدركوا أن الإيريتريين انفسهم منقسمين وغير متحدين حول رأي واحد²، وبعد ستة أيام من الحصار الفارسي فتح اثنان من أعيان إيريتري وهما أوفورب بن ألكيماخوس (Euphorbe fils d'Alcimachus) وفيلاغروس (Philagrus) بن سينيلاس (Cynéas) بفتح الأبواب وتسليم المدينة للفرس. نهب المدينة ثم أُحْرِقَتْ معابدها انتقاما لما حدث في سارديس (Sardès) عاصمة ليديا خلال ثورة الأيونيين، ليصبح جميع سكان المدينة عبيدا للفرس حسب أوامر الملك داريوس³. (أنظر الملحق 16 خرائط)

توجه الفرس بعد إيريتري إلى اقرب مكان يُمكنهم من انزال قواتهم وخاصة فرنسانهم على الشواطئ التابعة لاقليم أتيكا (Attique)، ليكون بداية الزحف نحو أثينا، فوقع اختيارهم على سهل المراثون⁴ (Marathon)، ويبدو أن هيبياس (Hippias) ابن بيزاستراتوس (Pisistrate)، آخر طغاة أثينا هو صاحب رأي النزول بذلك الشاطئ الذي يبعد عن أثينا مسافة ستة وعشرين ميلا⁵. كان النزول في الثاني عشر (12) من شهر سبتمبر 490 ق. م - وهو التاريخ الذي أجمع عليه الكثير من المؤرخين - على ذلك الشاطئ الذي يبلغ طوله حوالي أربعة (4) كيلومترات ويحيط بسهل المراثون⁶.

توجه الاثينيون الى سهل المراثون لملاقاة الفرس بعد أن علموا بنزولهم به⁷ وكانوا قد جهزوا جيشا لقتال الفرس قوامه ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف محارب، يقوده في الحقيقة كاليماخوس

¹ عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص180.

² - Hérodote, op.cit, VI, C ; Patrice Brun, op.cit, p29.

³ - Hérodote, op.cit, VI, CI ; 139-138 ص ص فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ص

⁴ - Hérodote, op.cit, VI, CII ; 139 ص فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص

⁵ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص239؛ فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص139؛ Hérodote, loc.cit

⁶ - Claude Mossé et Anne Schnapp-Gourbeillon, Précis d'histoire grecque, Armand Collin, Paris, 1990, p173.

⁷ -Hérodote, op.cit, VI, CIII.

(Callimaque)،¹ ويساعده في القيادة ظابط يدعى ميلتيادس (Miltiade) الذي كان على رأس فرقة مكونة من ألف متطوع قدمت من بيويا (Béotie)، وقد أرسل الأثينيون فور سماعهم نبأ نزول الفرس بالمراثون أحد العدائين يدعى فيديبيداس (Phidippides) الى أسبرطة، وقد قطع المسافة بين المدينتين والتي تقدر بـ 134 ميلا في يومين، وبمجرد وصوله إلى أسبرطة،² قال للحاكمين بها: "أيها اللاكيديميون، إن الأثينيين يتضرعون إليكم أن تأتوا لنجدتهم، وأن لا تسمحوا للبرابرة أن يستعبدوا أقدم مدينة في بلاد اليونان، لقد أخضعوا إيرتري ولذلك فبلاد اليونان قد لحق بها ضعف كبير بسبب خسارة تلك المدينة"³. تخاذل الاسبرطيون عن الاستجابة لنجدة الأثينيين واعتذروا عن التحرك والزحف قبل أن يكتمل القمر ويصبح بدرا⁴، إذ كان وصول فيديبيداس إليهم في اليوم التاسع من الشهر⁵.

كان الجيش الأثيني مكونا من المشاة الثقال (Les Hoplites)، ولم يكن للأثينيين في الحقيقة قوات منظمة من الخيالة،⁶ ويتحدث هيرودوت أنه في الوقت الذي اصطف فيه الجيش الأثيني استعدادا للمعركة في ساحة هرقل⁷ Hercule، إذ بالبلايين (les Platéens) يصلون لنجدتهم بكل القوة التي يملكونها والتي قدرت بألف مقاتل⁸. كما كان الجيش الأثيني مصحوبا بعدد غير محدد من العبيد المحررين حديثا، يقومون بدور المشاة الخفاف المجهزين بمقاليع الحجارة (fronde) وكذلك بالرماح.⁹ وتجدر الإشارة إلى أنه قبل بداية المعركة كان القادة الأثينيون منقسمون، منهم من يفضل عدم الالتحام مع الفرس وقتالهم نظرا لقلة أعدادهم مقارنة بأعدادهم، ومنهم من يدفع باتجاه المواجهة في اقرب فرصة وهو رأي ميلتيادس، و يبدو أن عملية اقتراع تمت بين القادة ولم

¹ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 239-240.

² - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 181.

³ - Hérodote, op.cit, VI, CVI.

⁴ - فوري مكاوي، المرجع السابق، ص 139.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 181.

⁷ - Hérodote, op.cit, VI, CVIII.

⁸ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص 181.

⁹ - Patrice Brun, op.cit, p 46.

تكن النتيجة لصالح المواجهة، غير أن ميلتيادس خاطب القائد كاليماخوس والذي كان صوته يمكن أن يغير نتيجة التصويت، وكان خطابه حماسيا تحدث فيه عن الحرية لأثينا والمجد الأبدي أو العبودية والخضوع للغير ولسلطة هيبياس. إستطاع ميلتيادس اقناع البوليمارخوس¹ (Polémarche) كاليماخوس الذي ضم صوته إليه وأُتخذ قرار المواجهة مع الفرس على الفور².

كان جيش الفرس مشكلا من جنود من مختلف الأجناس، لا يتكلمون نفس اللغة وغير معتادين على القتال مع بعضهم البعض، كما أن تسليح الجيش الفارسي بالدروع المصنوعة من خشب الصفصاف، وكذا الرماح القصيرة لم يكن يسمح بالمواجهة رجل لرجل، وعلى العكس من ذلك كان تسليح الاغريق خاصة المشاة الثقيل مختلفا، فمقاتلوهم كانوا محميين بخوذات ودروع وقطع من الجلد تحمي ركبهم، وتروس وقطع أخرى تحمي أذرعهم مصنوعة من البرونز، يضاف إلى ذلك سيف ورمح طويل أو حربة ودرع مصنوع من الجلد وصفحة من المعدن، أما عن طريقه قتالهم فكانوا يحاربون في صفوف مرصوصة الأمر الذي يعطي لدروعهم الأمامية شكل الجدار الحقيقي الذي يصعب اجتيازه³.

عمل الأثينيون في خطتهم على تركيز قوات كبيرة على الاجنحة، الجناح الأيمن الذي كان على رأسه كاليماخوس، الجناح الأيسر الذي كان مشكلا من البلاتيين، وبمجرد أن التحم الجيشان بعد هجوم قلب الأثينيين على الفرس رغم قلة عددهم، أدرك الفرس ضعف قلب الأثينيين، فتوغلوا في وسط الجيش الأثيني، أما الجناحان الأيمن والأيسر للأثينيين فتقدما إلى الأمام وسرعان أطبقا على جيش الفرس، مشكلين دائرة حول من توغل من جنود الفرس في قلب جيش الأثينيين، وفاسحين الطريق لمن فر من جنود الفرس الذين كانوا يواجهونهم، وبعد تأكيد النصر للأثينيين عمل هؤلاء على ملاحقة جنود الفرس الذين عادوا إلى مراكبهم بالشاطئ، أين لاحقهم المحاربون

¹ البوليمارخوس: هو قنصل عسكري يكلف بالقيادة لمدة معينة (عادة ما تكون سنة) يتم تعيينه عن طريق الانتخاب أو القرعة لعدة اعتبارات مثل

العمر والخبرة. أنظر: . 17:49 (25/05/2019) <https://www.universalis.fr/encyclopedie/polemarque>

² - Hérodote, op.cit, VI, CIX- CX.

³ - Pierre Ducrey, Guerre et guerriers dans la Grèce antique, Hachette littératures, Paris, 1999, p 65.

الأثينيون وأحرقوا عددا من تلك السفن¹. قاتل الأثينيون في هذه المعركة بشجاعة وشراسة متميزتين حيث ألحقوا بالفرس الذين كانوا يفوقونهم عددا خسائر معتبرة بلغت 6400 قتيل وسبعة (7) مراكب مقابل 192 قتيل فقط من الأثينيين بينهم القائد كاليماخوس².

وإذا ما حاولنا البحث عن أسباب انتصار الأثينيين في هذه المعركة وهزيمة أعدائهم الفرس، لوجدنا أن ذلك يعود أولا إلى تلك الروح المعنوية العالية والحماسة الكبيرة التي كان يحارب بها الأثينيون، لكونهم يخوضون حربا يدافعون فيها عن مدينتهم التي تعني موطنهم، نسائهم وأولادهم وكذا نظامهم الديمقراطي، الذي منحهم الحرية وخلصهم من الطغاة القادمين مع جيش الفرس³.

أما الأسباب الأخرى في الحقيقة فهي تعود إلى الشخصية القيادية لميلتيادس، ذلك الذي كانت له دراية بأساليب الحرب الفارسية⁴، فهو الذي حارب مع الفرس خلال حملتهم ضد السكيثيين (Les Scythes)⁵، كما أن خطته التي قضت بتقهقر قلب الجيش الأثيني أمام الفرس مما أغراهم بالتقدم ليطبق عليهم بالجناحين، كان لها الأثر البالغ في حسم المعركة لصالح الأثينيين⁶. كما تجدر الإشارة إلى أن تنظيم فرق المشاة الثقال أو الأوبليت وكيفية تسليحهم وطريقة قتالهم التي مكنت الأثينيين من مواجهة ومقاومة سلاح الرماة لدى الفرس، ساهم بشكل واضح في رسم نهاية المعركة⁷. (أنظر الملحق 14 خرائط)

كان الأثينيون يدركون أن انتصارهم في معركة المراثون لم يكن نهائيا، إذ أن أسطول الفرس كان بإمكانه الانتقال بسرعة إلى اقرب شاطئ من أثينا وأخذ المدينة التي تركت دون حماية، وفي هذا المقام لا بد من الإشارة إلى قدرة القائد ميلتيادس على توقع ضربة الفرس تلك، واقناع جنوده

¹ - Hérodote, op.cit, VI, CXI, CXII, CXIII.

² - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص140.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص240.

⁴ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص158.

⁵ - Hérodote, op.cit, VI, XL, 40.

⁶ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص140.

⁷ - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص158.

بالعدو باتجاه أثينا لمسافة تزيد عن العشرين ميلا،¹ رغم الجهد الذي بذلوه طول النهار في القتال. كان يتوجب على الفرس قضاء وقت طويل من أجل اجتياز رأس سونيوم (Sunium) والوصول إلى ميناء فالير (Phalère) القريب من أثينا، غير أن المحاربين قطعوا المسافة برا في وقت قياسي، وتمكنوا من الوصول إلى مدينتهم قبل وصول الاسطول الفارسي، وحين وصل الفرس فالير أدركوا فشل مناورتهم تلك وبعدها شرعوا في رمي مرساة مراكبهم تراجعوا والبحروا نحو أسيا الصغرى.²

ضاعت أحلام هيبياس في العودة إلى السلطة في أثينا مرة أخرى، وابتهج الأثينيون بنصرهم على الفرس وهتفوا بحياة بطلهم ميلتيادس، غير أن هذا الأخير تسرع وقاد حملة ضد جزيرة باروس (Paros)،³ وكذلك جزر السكيلاد،⁴ باءت بالفشل⁵، لذلك نجده بعد رجوعه يقدم للمحاكمة إثر دعوى امام الإكليزيا (Ecclésia) رفعها ضدها والد بيركليز (Pirecle) طالب من خلالها الحكم بالإعدام على ميلتيادس، ولولا أن المجلس حكم عليه بغرامة قدرها خمسون (50) تالنتا (Talentes) لكانت نهايته كنهاية الخونة والمتآمرين على أوطانهم، ومع ذلك لم يلبث ميلتيادس أن توفي بعد تلك المحاكمة بزمان قصير في ظروف يشوبها الغموض⁶، لتفقد أثينا أحد أبطالها العظام.⁷

كانت نتيجة معركة المراثون مؤلمة بالنسبة للملك الفارسي داريوس إلى درجة أنه لم يستطع إخبار شعبه بتلك الهزيمة، واعتبرها خسارة عارضة، وفي حقيقة الأمر تركت تلك الحرب غصة في قلب الملك لدرجة أنه ظل يفكر في الانتقام من الأثينيين.⁸ أما بالنسبة لبلاد اليونان فكان ذلك الانتصار الأثيني على الفرس بمثابة تنويع لمدينة أثينا بسيادة مدن اليونان، وذلك للضجة التي

¹ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص. 140.

² - Hérodote, VI, CXV-CXVI.

³ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص 240-241.

⁴ - عاصم أحمد حسن، المرجع السابق، ص 182.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 241.

⁶ - عاصم أحمد حسن، المرجع السابق، ص ص 182-183.

⁷ - سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 241.

⁸ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 140.

أحدثها نصر المراثون في جميع أرجاء بلاد الاغريق، ليكتشف هذا الشعب من بين مدنه قوة عسكرية مهمة استطاعت هزيمة عدو كان يهابه الجميع في تلك البلاد.¹ ويمكن القول أن هذا الانتصار أصبحت له دلالة رمزية بالنسبة لجميع الاغريق، حيث أضفى على مدينة أثينا حظوة وهيبة كبيرتين، الأمر الذي زادها دعماً في قيادة الحرب الميمنية الثانية، خاصة بعد اقتناع المدن اليونانية بإمكانية محاربة الفرس على أرضهم والانتصار عليهم.²

اذ أن الواقع اثبت أن معركة المراثون لم تكن الموقعة الحاسمة في حلقات الصراع بين الفرس والاغريق لأنها لم تضع نهاية لتلك الحرب، ولا لذلك الصراع ولكنها شكلت نقطة انطلاق جديدة نحو مواجهة أخرى، وهو ما مهد لظهور زعيم أثيني جديد عرف باسم تيموستوكليس (Thémistocle).³ دفع انتصار معركة المراثون الاثينيين الى التفكير في إعادة النظر في مكانتهم بين مدن الاغريق، فبعد تقديمهم للقرايين واقامتهم النصب التذكارية للشهداء في هذه الحرب، جعلوا نصب أعينهم سيادة بلاد اليونان خاصة مع علم قادتهم بأن خطر غزو الفرس لبلادهم لا يزال قائماً.⁴ وأصبحت الأجيال اللاحقة لشعب أثينا ينظرون إلى سهل المراثون على أنه أرض مقدسة رسخ فيها اسلافهم دعائم الحرية.⁵

¹ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 140.

² - Patrice Brun, op.cit, p 200.

³ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص 183.

⁴ - فوزي مكاي، المرجع السابق ، ص 140-141.

⁵ - عاصم أحمد حسين، المرجع السابق ، ص 182.

II- الحرب الميدية الثانية (480-479 ق.م)

1- وفاة داريوس واعتلاء كزاركسيس (Xerxès) عرش مملكة الفرس

كانت ثورة المدن الأيونية قد أثارت غضب داريوس من الاثينيين، إلا أن معركة المراثون وانتصار الاغريق على جيشه فيها زاد من حنقه وسخطه على اليونانيين بدرجة أكبر. واستعدادا للانتقام منهم أرسل أوامره الى كل المدن في امبراطوريته من أجل تجنيد أكبر عدد من الفرق العسكرية وتجهيز عدد كبير من الخيول والمؤن والمراكب الحربية وكذلك مراكب النقل، صدرت أوامره في جميع الاتجاهات وعاشت منطقة آسيا خالية من الاضطراب بسبب التحضير لهذه الحملة لمدة دامت قاربت الثلاث سنوات¹.

كان الملك داريوس يتحرق من أجل الانتقام من الاغريق ولا بد أن الدافع وراء ذلك هو إعادة هبة الامبراطورية الفارسية في أوربا بعد أن سيطرت على أجزاء كبيرة عن آسيا وحتى افريقيا،² ولكن الأمر لم يكن كما يشتهي داريوس، ففي خضم التحضير للحملة وفي السنة الرابعة من بداية الاستعدادات³، حدث تمرد في مصر ضد حكم الفرس⁴، تلك البلاد التي أخضعها قمبيز، ولم يتوان داريوس في الحقيقة في السير ضد هذه البلاد⁵.

غير أنه بمجرد ما أنهى التحضير للسير إلى مصر حتى اندلعت أزمة داخل البلاط الملكي بين الأمراء أبناء الملك حول من يخلفه في حكم العاصمة بعد مغادرته لقيادة الحملة ضد بلاد مصر، لأن القوانين عند الفرس تقضي بأن يستخلف الملك أحد الأمراء في حالة خروجه على رأس حملة ضد الأعداء، واشتد الخلاف بين ابن داريوس من زوجته الأولى قبل اعتلائه عرش المملكة وهو أرتوبرازان (Artobrazones) وبين الابن الأكبر من زوجته الأخرى ابنة قورش، والتي اقترن بها بعد أن صار ملك بلاد فارس، وكان ذلك الابن يدعى كزاركسيس Xerxès⁶.

¹ - Hérodote, op.cit, VII, I.

² - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 140.

³ - Hérodote, loc.cit.

⁴ - كيتو، المرجع السابق، ص 146.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - Ibid, VII, II, III, IV.

وحسما لذلك الخلاف استجاب داريوس لنصيحة أحد مستشاريه ويدعى ديمارات (Démarate)، والتي مفادها أن الابن الذي ولد بعد تولي والده الحكم يعتبر الأحق بخلافة أبيه، لأن الابن الآخر قد ولد في الوقت الذي كان فيه والده شخص مغمور، وأضاف بأن هذا القانون معمول به في أسبرطه، وبذلك أعلن داريوس ابنه كزاركسيس خليفة له على حكم بلاد فارس. وبعد أن تم التحضير لكل شيء من أجل السير إلى مصر والقضاء على الفتنة فيها، توفي الملك داريوس بعد أن حكم مدة ست وثلاثين (36) عاما دون تحقيق رغبته في معاقبة المصريين ولا في الانتقام من الاثنيين¹. ويعتقد أن الملك داريوس قد توفي في عام 485² ق.م أو 486 ق.م وقد تمكن قبل موته من اعداد وتجهيز حملة حربية تفوق التي سبقت أي حملة معركة ماراثون³.

لم يترك الموت لداريوس الفرصة لانتهاء ووضع آخر اللمسات على التحضيرات لحملة جديدة على بلاد اليونان، وورث كزاركسيس (أنظر الملحق 5 صور) ابنه الاصغر الحكم من أبيه داريوس على حساب أخيه الاكبر أرتوبازان (Artobazanes)⁴. ويبدو أن كزاركسيس لم يكن في بداية حكمه متحمسا لإعلان الحرب على بلاد اليونان، وكان هدفه الأول هو القضاء على تمرد المصريين، لذلك كانت تحضيراته العسكرية موجهة لهذا الغرض⁵، حسب رواية المؤرخ اليوناني هيرودوت، غير أنه هناك من يرى أن كزاركسيس تلقى بفرح ورغبة جامحة مشاريع والده التي كانت تهدف إلى غزو بلاد اليونان وذلك للكره الشديد الذي يكنه هذا الملك الشاب للآثينيين⁶.

وبحسب حديث هيرودوت فإن ماردونيوس (Mardonius) بن غوبرياس (Gobryas) وهو بن أخت داريوس استطاع التأثير في قرارات كزاركسيس المتعلقة بغزو بلاد اليونان، وينقل لنا هيرودوت حديث ماردونيوس لكزاركسيس وهو يحرضه على الانتقام من الاثنيين ويرغبه في السيطرة على أوروبا التي لا يمكنه دخولها إلا عن طريق بلاد اليونان أولا، فيقول: "سيدي، إنه ليس

¹ - Hérodote, loc.cit.

² - لطفي عبد الوهاب محيى، المرجع السابق، ص 158.

³ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص 242.

⁴ - T. D. Raffenet, op.cit, p38.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, V

⁶ - T.D. Raffenet, loc.cit.

من الطبيعي ترك الاهانات التي ألحقها بنا الأثينيون دون عقاب، لا تهتم الآن إلا بالقضايا التي بين يديك ولكن بعد أن تعاقب المصريين على سفاهتهم، سر بكل قواتك نحو اثينا، بهذا فقط ستحصل على الشهرة والصيت، ولا يمكن لأي شخص أن يتجرأ ويدخل الى بلد من بلادك التي تملكها بجيش أو بسلاح تحمله بيده."، وبعد هذا التحريض على الأثينيين أضاف ماردونيوس: "إن أوروبا بلاد جميلة جدا، لها مداخل ممتازة، وبها كل أنواع الاشجار ذات الثمار المتنوعة والملك وحده يستحق أن يملكها".¹

لطالما ظل ماردونيوس- الذي كان صهر كزاركسيس وابن عمته في الوقت نفسه-² يحاول ان يحافظ على مكانته المرموقة التي حظي بها حين أصبح كزاركسيس ملكا، وذلك لكونه فقد مكانته وامتيازاته بعد فشله في العملية التي قادها ضد تراقيا (Thrace)، والتي ترتب عنها حرمانه من المشاركة في حملة داريوس على بلاد اليونان 490 ق.م.³ ويذهب هيرودوت ابعد من ذلك في وصف طموحات ماردونيوس، إذ يقول أنه اعتمد تلك اللغة التحريضية لأنه كان متلهفا للتجديد في المملكة وكان طامعا في حكم بلاد اليونان بعد استيلاء الفرس عليها وضمها.⁴

كان يمكن في حقيقة الأمر لكزاراكسيس بعد أن يقضي على ترمذ المصريين، أن يعيش في هدوء وينعم به وينشره في جميع أرجاء امبراطوريته الشاسعة لو لم يستمع إلى نصائح أحد رجال حاشيته الخبثاء والمداهنين، والذين من أجل مصلحتهم الخاصة يزينون له النصر والمجد.⁵

ومن الواضح أن ماردونيوس قد أفلح مع مرور الوقت في اقناع الملك كزاركسيس بخوض غمار تلك الحملة الضخمة على بلاد اليونان، وقد ساعدته في ذلك وقائع أخرى حدثت لاحقا، حيث قدم على الملك سفراء من جانب الألوياد (Aleuades) وهم ملوك تساليا (Tessalie) يدعون كزاركسيس من خلال رسائل ملوكهم إلى غزو بلاد اليونان، كما أقبل عليه أيضا أبناء آخر طغاة

¹ - Hérodote, op.cit, VII, V.

² - Pierre Briant, op.cit, p 212.

³ - Ibid.

⁴ - Hérodote , op.cit,VII, VI.

⁵ - F.M.M. De Beaumont, Beautés de l'histoire de la Perse, depuis Cyrus jusqu'à nos jours, Tome I, Librairie d'éducation d'Alexis Eymery, 1820, p 75.

اليونان بيزاستراتوس (Les Pisistrates)، والذين جاءوا إلى الملك بنفس الطلب الذي تقدم به ملوك تساليا غير أنهم دعموا موقفهم هذا بإحضارهم معهم عرافا من أثينا (Athènes) يدعى أونوماكرت الأثيني (Onomacrite d'Athènes) المشهور في بلاد الاغريق، ورغم علاقته المتوترة سابقا مع آل بيزاستراتوس، إلا أنه يبدو أنه في تلك الفترة كان في حالة صلح معهم، وقد دعوا جميعا الملك الى غزوا بلاد اليونان وفرض سيطرته عليها، وشجعوه من خلال نبوءات أونوماكرت الذي ابلى الملك بإحداها والتي مفادها أنه قد ثبت عنده في ما يخص مصير بلاد اليونان أن فارسيا سيجتاز بجيشه مضيق الهلسوبونت (Hellespont) وأنه سيربط ضفتي هذا المضيق بجسر¹.

كان ماردونيوس يسوق للملك وللمقربين له من كبار أعيان الفرس أن لسكان اليونان لا يتحلون بالشجاعة ولا يحسنون فنون الحرب والقتال وأنهم سريعون على ركبهم أمام الملك بمجرد مشاهدتهم ومعاينتهم لعظمته وقوته وأنهم سيسحقون جميعا إذا ما جرأوا على مواجهة قواته الحربية². كان لتحريض ماردونيوس وآل ينراستراتوس وكذلك أونوماكرت من خلال نبوءاته إضافة إلى توسلات ملوك تساليا، الاثر الواضح في اقناع الملك كزاركسس بخوض الحرب ضد الاثينيين بشكل خاص والاغريق بشكل عام، واتخذ الملك قراره النهائي في هذا الأمر. بدأ أولا بالمصريين حيث هاجمهم في العام الموالي لموت أبيه داريوس وحين أخضعهم، زاد من التضييق عليهم بشكل أكبر من الذي اعتمده والده معهم، وعين عليهم حاكما أخيميناس (Achéménès) أخوه وابن داريوس، هذا الأخير الذي قُتِلَ بعد ذلك من طرف إيناروس (Inaros) ابن بسماتيك (Psammaticus) ملك ليبيا³.

وكعادة ملوك الفرس عقد كزاركسس مجلسا من مقريه وكبار أعيان الفرس ليلبغهم بقرار عزمه الزحف ضد الإغريق وأخذ رأيهم في هذا الأمر، ويبدو أنه بعد تدخلات ماردونيوس المتحرق للثأر من اليونانيين، صار الجميع مُشجَّعا للملك وموافقا له في الزحف نحو أوربا، وفي هذا الموقف يذكر

¹- Hérodote, loc.cit.

²- F. M.M. De Beaumont, loc.cit.

³- Hérodote, op.cit, VI, VII.

هيرودوت شجاعة عم الملك أرتبان (Artatane)، الذي كان معارضا لهذه الحملة وجهر برأيه هذا في وجه الملك قائلا له: "حين عزم والدك داريوس الذي هو أخي على اعلان الحرب ضد السكيثين (Les Scythes) بذلت جهدا كبيرا في ثنيه عن ذلك، وأنت تعلم كيف كانت النهاية في تلك الحملة مؤلمة. إن الشعوب التي سنهاجمها في عقر دارها هي شعوب يجب أن تخاف منها، فلا يوجد هنالك شعب أشجع من اليونانيين سواء على الأرض أو على البحر، وإذا كان الأثينيون لوحدهم كانوا قادرين على القضاء على الجيوش الكثيرة العدد التي قادها داتيس (Datis) وأرثافارن (Arthapherne) فماذا ننتظر من كل اليونانيين مجتمعين من أجل الدفاع عن بلدهم؟ ثم إنك تفكر في وضع جسر على البحر بين أوروبا وآسيا، فكيف يمكن أن يصبح الوضع عليه لو أن الاثينيين انتصروا في المعركة وقطعوا ذلك الجسر؟ إنني ارتعد حين أفكر فيما ما وقع لداريوس، وما كان يمكن أن تقع للامبراطورية لو أن هيسي (Hystié) استجاب لتهديد السكيثين أو لطموحات الاغريق المتعطشة لهزيمة الفرس، لو أنه قطع الجسر الذي وضع على الدانوب؟ لماذا سيدي تعرض نفسك بدون مبرر إلى خطر كهذا؟ خذ الوقت الكافي وفكر مليا في الأمر..."¹

أكمل أرتبان خطابه ونصائحه للملك داعيا إياه الى تحكيم العقل وخوض نقاش جدي حول هذه الحملة، ثم التفت إلى ماردونيوس ودعاه إلى الكف عن الحديث حول الاغريق بتلك الطريقة المهينة، وأضاف أنه إذا كان ولا بد من حملة ضد الاغريقين فليبقى الملك في فارس وليكن على رأسها ماردونيوس، ثم رآه أنه اذا انتصر على الاغريق فليقوموا بقتله هو وأولاده، أما اذا كان العكس وهو المرجح عنده فإن هذا المصير سيكون من نصيب ماردونيوس².

لم يكن كزاركسيس متعودا على سماع آراء مخالفة لرأيه بتلك الجرأة والشجاعة ولذلك كان رد فعله غاضبا تجاه عمه قائلا له: "أشكر الاله يا أرتبان أنك أخ لوالدي ولولا ذلك لنلت في هذه اللحظة جزاءك لقاء هذه الجرأة، ولكن ستنال عقابك بطريقة أخرى، سأتركك هنا بين النساء اللاتي يشبهنك في الخوف والحياء في الوقت الذي سيأسير فيه على رأس جيوشي أين يناديني

¹ - F.M.M.De Beaumont, op.cit, pp 75-76

² - Hérodote, op.cit, VII, X.

الواجب والمجد المنتظر". وحين زال الغضب عن كزاركسيس اعترف أنه أخطأ بتلك المعاملة القاسية لشيخ مسن معروف بتحفظه وحذره، والذي لم يخرجه عن صمته إلا نصائحه الصادقة ومع ذلك لم يتراجع كزاركسيس عن قرار الحرب ضد الاغريق¹

2- كزاركسيس يباشر التحضيرات لحرب الإغريق

بعد انتهاء ذلك الحوار المثير بين كزاركسيس وعمه أرتبان (Artabane) واقتناع هذا الأخير بأن هذه الحملة مؤيدة من الإله الذي طلب من كزاركسيس المضي فيها وإخضاع بلاد اليونان لسلطانه.²

بدأ الزحف الفارسي بعد أن أعطى كزاركسيس الأمر لفرقه بالتحرك. انطلقت الحملة إذن وهي التي دام التحضير لها أربع سنوات كاملة، منذ أن أعاد كزاركسيس إعادة إخضاع المصريين، وقد عمل الملك خلال هذه المدة على استنفار أكبر عدد من المقاتلين في جميع أنحاء قارة آسيا، وكذا تجميع أكبر كمية من المؤن، وبعدها سار الملك على رأس تلك القوات الهائلة. ويذهب هيروdot في وصف عظمة وضخامة تلك الحملة، فيقول عنها أنها كانت أضخم من جميع الحملات التي سمع عنها، فلا يمكن مقارنتها لا بتلك التي جهزها داريوس ضد السكيثيين، ولا تلك التي أعدها السكيثيون الذين لاحقوا السيميريين (Cimmeriens) حين دخلوا ميديا وهم يتعقبوهم، واخضعوا لسلطانهم أجزاء كبيرة من آسيا العليا، كما أنها فاقت حملة الاغريق ضد طروادة³.

وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن المقارنة في الامكانيات البشرية والعتاد بين الطرفين الفارسي والاغريقي في هذا الصراع القادم غير مجدية بسبب الفارق الكبير بين امكانيات امبراطورية شاسعة تدار بحكم مركزي قوي، وبين دويلات مدن صغيرة لم تعرف وحدة عبر تاريخها، فالإمبراطورية الفارسية التي كانت تتربع آنذاك على مساحة تقدر بسبعة ملايين ونصف المليون من

¹ - F.M.M De Beaumont, op.cit, p77.

² - Hérodote, op.cit, VII, XII- XIX.

³ - Ibid, VII, XX (20).

الكيلومترات المربعة (7.500.000 كم²)، يعيش تحت وصايتها شعوبا يصل تعدادها الى عشرين (20) مليون ساكن، فهي بذلك أقوى بكثير من الدويلات الاغريقية التي كانت على الأكثر تحصي مليوناً من السكان، على مساحة تصل إلى مائة وثلاثة آلاف كيلومتر مربع 103.000 كم²¹، هذا بالإضافة إلى أن تلك المدن لم يكن لها موقف موحد من هذا الغزو الفارسي المرتقب، فبعضها ظل محايداً بشكل حذر، وبعضها تحالف مع العدو مثل طيبة (Thèbes)، وذلك بفعل الترغيب والترهيب الذي أرسل به الملك كزاركسيس إلى المدن اليونانية جميعاً من خلال رسله باستثناء أثينا وأسبرطه².

ومما يزيد في ضخامة جيش كزاركسيس وعظم حملته هو مشاركة جميع الأمم في قارة آسيا فيها بأمر من الملك، ويستطرد هيرودوت في وصفها قائلاً: "كل تلك الحملات لا يمكن مقارنتها بحملة كزاركسيس، لأن هذا الملك لم يترك أمة لم يجندها ضد بلاد اليونان، ولم يترك نهراً إلا وأشك على افراغ مياهه بسبب كثرة الشاربين والمستعملين لمياهه من المقاتلين والدواب، من بين تلك الأمم من تكفل بإحضار المراكب البحرية، ومنهم من تكفل بتجنيد وتجهيز المشاة، ومنهم من أمن أعداداً كبيرة من الفرسان، وهناك من أمن المراكب البحرية لنقل الجياد والفرق العسكرية، ومنهم من أمن المراكب الطويلة لاستعمالها في وضع الجسور على المضائق، وهناك من الشعوب من أمن المؤن والاعذية وكذا المراكب لنقلها³.

قدر الكتاب الاغريق القدامى جيش كزاركسيس بأن أعداده تصل إلى خمسة ملايين محارب، غير أن هذا العدد يبدو أنه كان مبالغاً فيه، فمهما تكن الحملات العسكرية التي كانت تجهز في ذلك الزمن، ومهما كانت الهجرات التي تُحْدِثُهَا فإنه من الصعب في الحقيقة أن نصدق أن قدرة ملك الفرس تصل إلى امكانية نقل كل تلك الكتلة البشرية التي كانت بهذا العدد المذكور⁴.

1 - Victor Honson, Les guerres grecques, 1400-146 av, Autrement Editions, Paris, 2000, p84.

2 - Peter Green, op.cit, pp 114-119.

3 - Hérodote, op.cit, VII, XXII.

4 - T.D. Raffenet, op.cit, p 38.

وحسب المؤرخ بيار بريون (Pierre Briant) المتخصص في تاريخ الفرس القديم، فإن كل تلك التقديرات تفتقد إلى التأسيس والحجة، ومهما تكون الأرقام المقدمة من طرف المؤرخين الفرس فهي تخلوا من المصدقية فبين سبعمائة ألف (700000) التي تحدث منها سقراط (Isocrate) وثلاثة ملايين التي أشار إليها سيمونيد (Simonide) فإن ذلك يندرج في إطار تضخيم النصر على الفرس الذي سيحدث لاحقا من طرف الاغريق¹.

ويرى المؤرخ الأمريكي المتخصص في التاريخ العسكري فيكتور دافيس هانسن (Victor Davis Hanson) أن المصادر القديمة قد بالغت في تقديراتها بخصوص جيش كزاركسيس الذي عبر به إلى أوروبا، وأن الحديث عن جيش يتجاوز تعداده المليون أمر بعيد عن الواقعية، كما أنه غير واقعي وصول عدد فرسان كزاركسيس الى ثمانين ألف (80000) فارس، فنصف هذا العدد يضيف المؤرخ يمثل خمسة أضعاف عدد الفرسان الذين غزى بهم الإسكندر الأكبر آسيا، بعد قرن ونصف من الزمان.²

أما المؤرخ فيليب دي سوزا (Philippe de Souza) فيرى أن الأرقام المقدمة من طرف هيرودوت تطرح اشكالا كبيرا، ويصفها بالمبالغ فيها بدرجة كبيرة، هذه الأرقام التي تشير حسبها الى جيش جمعه كزاركسيس من آسيا وأوروبا ومن أمصار أخرى وصل تعداده إلى أربعة ملايين وسبعمائة ألف محارب ومتعاون³. وقد خلص المؤرخ بيتر قرين (Peter Green) إلى أن الجيش الفارسي الذي سلك الطريق نحو اليونان بقيادة كزاركسيس لم يكن لتتجاوز مائتين وعشرة آلاف (210000) رجل بينهم على الأرجح مائة وخمسين ألف (150000) مقاتل، مع عدد من الجياد قدر بخمس وسبعين ألف (75000) حصان.⁴

يضاف إلى ذلك بين 20000 و60000 فارس منقسمين إلى ستة (6) فيالق، أما بالنسبة للأسطول البحري فكان عدد مراكبه يقدر بـ(600) ستمائة⁵، قام بتأمينها الفينيقيون، المصريون

¹ - Pierre Briant, op.cit, pp 544-545.

² - Victor Davis Hanson, Les Guerres Grecques 1400-146 av J.C, Editions Autrement, Paris, 1999, pp 94-95.

³ - Philippe de Souza, The Greek and Persian Wars, Osprey Publishing Ltd., Oxford, 2003, p 41.

⁴ - Peter Green, op.cit, p 105.

⁵ - Pierre Briant, op.cit, p 544.

وكذلك الأيونيون وبعض شعوب آسيا الصغرى.¹ وبغض النظر عن دقة هذه الأرقام فإن أعداد تجمعات كزاركسيس التي نقلها إلى بلاد اليونان برا وبحرا كانت ضخمة إلى درجة أن الروائي المسرحي اليوناني إسخيلون (Eschyle) (525-416 ق.م) ذكر في تراجيديا (الفرس) (Les Perses) بأن كزاركسيس أفرغ آسيا من شعبها²

وعلى أي حال فإنه في بداية 481 ق.م تم تأمين القوات اللازمة لهذه الحملة ولم يبق إلا التحرك نحو بلاد اليونان، وإذا ما عدنا إلى وصف هيرودوت فإن كزاركسيس قام بتجميع خمسمائة وعشرين ألفا (520000) من المقاتلين البحارة، وليس أقل من مليون وسبع مائة ألف (1700000) من المشاة، ثمانين ألفا (80000) من الفرسان، عشرين ألف من الحرس (2000) وثلاثمائة وأربع وعشرين ألفا (32400) من المقاتلين الاغريق، كل هؤلاء تم تجميعهم من ست وأربعين (46) أمة، أي من مائة وسبع وعشرين (127) مقاطعة، من ليبيا (la Libye) غربا إلى بلاد السند (L'Indus) شرقا، ومن سكيثيا (Scythie) شمالا إلى أعالي النيل جنوبا³.

شملت التحضيرات لحملة كزاركسيس والتي بدأت منذ أزيد من ثلاث سنوات فصل جبل أتوس (Athos)⁴، عن بلاد اليونان، لأن الأسطول الفارسي في الحملة السابقة تكبد خسائر كبيرة حين حاول تجاوز ذلك المرتفع وهو في طريقه إلى بلاد اليونان، ويصف هيرودوت هذا الجبل فيقول: "هو جبل شاسع وعامر بالسكان يتقدم في بحر إيجه وينتهي مشكلا شبه جزيرة تخرج من بلاد اليونان"⁵. ويبدو أن اعمال الحفر وشق القناة في شبه جزيرة أتوس (Athos) قد انتهت في ربيع سنة 480 ق.م، كما انتهت أعمال تركيب الجسر المضاعف المشكل من القوارب على مضيق الدردنيل (Les Dardenelles).

¹ - Hérodote, VII, LXXXIX – XCIV.

² - Eschyle, Théâtre d'Eschyle, Texte traduit par Alexis Pierron, 8^{ème} Edition, Charpentier et Cie libraires Editeurs, Paris, 1870, 71.

³ Henri Pigaillem, Salomine et les Guerres Mediques 480 Avant Jesus-Christ, Edition Economica, Paris, 2004, p 29.

⁴ - أتوس (Athos) في بلاد اليونان الشمالية تشكل شبه جزيرة طولها 60 كم وعرضها 10 كم تمتد نحو بحر إيجه، تنتهي بجبل يسمى أتوس

Athos علوه 2034 م أنظر: <https://www.universalis.fr/encyclopedie/mont-athos/> 12/07/2019 à 08h: 17.

⁵ Hérodote, op.cit, VII, XXII– XXIII.

ويذهب هيرودوت إلى أن كزاركسيس حفر القناة التي تفصل شبه جزيرة أتوس عن بلاد اليونان الشمالية بدافع الكبرياء، ليخلد عظمته ويترك لنفسه معلما تذكاريًا¹، أما ديودور الصقلي فيرى أنه فعل ذلك ليضمن عبورا آمنا لقواته وكذلك ليرعب الأغريق بعمل كهذا². أما من الناحية التكتيكية العسكرية فهو بذلك سهل على قواته، وبدون أي عناء، التنقل بالمراكب من بحر إلى آخر عبر ذلك المضيق، كما كلف القوات المشاركة في حفر القناة ببناء جسر على نهر (Strymon) ستريمون (أنظر الملاحق 8 - 16 خرائط)³.

ومن أجل ربط تلك الجسور، قام الملك بتحضير كميات من اللحاء (l'écorce) والكتان (le lin) تم جلبها من مدينة بيبلوس أو جبيل (Byblos)، كما طلب من الفينيقيين والمصريين جلب المؤن للجيش بغرض اكتفاء الفرق العسكرية والدواب التي سيتم نقلها إلى بلاد اليونان من الغذاء، ولكي لا تعاني وهي في تلك البلاد من الجوع لمعرفته بأحوالها، كما أمر أن يجلب الدقيق من كل المناطق في آسيا وتحميله من ثم على المراكب التي ستجتاز البحر ووضعه في أماكن محددة ومناسبة وقد نقلت كميات كبيرة من ذلك الدقيق إلى ساحل تراقيا (Thrace) المسمى لوسي أكتي (Leuce Acte)، كما نقلت كميات أخرى إلى تيروديز (Tyrodyse) على أرض بيرنتيا (Perinthiens) وكذلك إلى دوريسك (Dorisque) وأيون (Eion) على نهر الستريمون (Strymon) وأخيرا إلى مقدونيا⁴.

وبخصوص عمليتي شق قناة جبل أتوس وكذا ربط الجسر على مضيق الهلسوبونت، فقد تم نقد هذه الخطوة من طرف الكتاب القدامى محاولين إرجاع ذلك إلى رغبة الملك في تخليد عظمته كما قال هيرودوت غير أن هذه الخطوة لاقت ترحيبا من طرف المؤرخين المتخصصين في الشؤون العسكرية والذين أدركوا إلى أي حد من التخطيط العسكري وصلت إليه القيادة الفارسية⁵.

¹ - Hérodote, op.cit. VII, XXIV.

² - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, traduit par Fred Hoefer, T.3, Hachette, Paris, 1865, VI, II.

³ - Hérodote, loc.cit.

⁴ - Ibid, VII, XXV (25)

⁵ - Peter Green, op.cit, p123.

3- تحرك جيش الفرس نحو بلاد اليونان

في ربيع سنة 480 ق.م، كانت جميع التحضيرات قد انتهت وصار كزاركسيس مستعدا للتقدم نحو اليونان، كانت خطته تقضي باشغال اليونان الكبرى في ايطاليا بهجوم قرطاجي ومن ثم سحق بلاد اليونان تحت ثقل جيوشه الضخمة وجموعه الغفيرة من المقاتلين وذلك من خلال تنسيق وتعاون مستمر بين الاسطول والجيش البري¹.

غادر الملك العاصمة سوس (Suse) لكي يجتمع في كريطال (Gritalles) بكبادوكيا (Cappadoce) بفرق جيشه من المشاة والفرسان، وكذلك بفرق عسكرية أخرى قادمة من الساترايات (Satrapies) الشرقية². وقد أصدر أوامره بأن تلحق به جميع الفرق إلى سارديس (Sardès) عاصمة ليديا.³ اجتاز جيش الفرس نهر الهاليس (Halys) ودخلوا أرض فريجيا⁴، أين التقى الملك بالثري بيتوس (Pythios) الذي استضافه وأهداه ثروته المقدرة بألف تالنت (Talents) من الفضة وحوالي أربعة ملايين قطعة ذهبية،⁵ واصل الجيش بعد ذلك طريقه نحو مدينة سيتيناس (Céténes) أين توجد منابع نهر الميوند (Méandre)، وكذلك منابع نهر آخر لا يقل تدفقا عن نهر الميوند وهو الذي يسمى كاتاركتاس (Catarractes) والذي تقع منابعه في الساحة العامة لمدينة سيتيناس ويصب في نهر الميوند⁶.

اجتاز الجيش الفارسي حدود فريجيا ليدخل أرض ليديا وفي تلك المنطقة الحدودية كان الطريق منقسما إلى اتجاهين، فعلى اليسار توجد الطريق المؤدية الى مقاطعة كايا (Carie) وعلى اليمين تقودك الطريق إلى سارديس، وإذا ما أخذ الفرس هذه الطريق الأخيرة كان لزاما عليهم اجتياز نهر الميوند والمرور على طول مدينة كالاتيوس (Callatebos)⁷.

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, p 43.

² - Ibid.

³ - Hérodote, op.cit, VII, XXVI.

⁴ - Ibid.

⁵ - Henri Pigaillem, op.cit, p 43.

⁶ - Hérodote, loc.cit.

⁷ - Ibid, VII, XXXI.

ويتحدث ديودور الصقلي عن ارسال كزاركسيس موفدين عنه إلى القرطاجيين ليستشيرهم على الإغريق وتم الاتفاق معهم على أنه خلال غزو الفرس لبلاد الإغريق، يبدأ القرطاجيون حملة كبيرة ضد اغريق صقلية وإيطاليا.¹ (أنظر الملحق رقم 15 خرائط)

بمجرد وصوله إلى ساردس (Serdes) أرسل كزاركسيس رسله إلى بلاد اليونان فيما عدا أثينا ولاكيديمونيا (Lacédémonie) أسبرطة ليطلب الأرض والماء ولكي يأمر من جميع المدن اليونانية بأن يحضروا الطعام والوجبات، وقد أرسلهم كزاركسيس ليأمر تلك المدن بأن يمنحوه الأرض والماء للمرة الثانية، لأنه يعتقد أن الذين رفضوا في المرة الماضية مَنَحَهَا لداريوس والذين دُغِرُوا من مسيره إليهم لن يمانعوا في منحها إياه هذه المرة.² كان كزاركسيس يعتقد أن الاغريق سيأتون راكعين ليقبلوا قدميه بمجرد سماعهم خبر بدرا اقترابه منهم، لكن هذا لم يكن صحيحا فتلك الأمة كانت تنتظره بأقدام ثابتة.³

انطلق الاسطول الفارسي الذي ستشكل مراكبه الجسور على مضيق الهلسوبونت من مدينتي كومي (Cumes) وفوسي (Phocée) أين كانوا قد قضوا الشتاء، ثم تجمعت المراكب في خليج نهر الهرموس (Hermos) لتشكيل الاسطول البحري لجيش كزاركسيس، ذلك الأسطول الذي قارب عدد سفنه الستمائة وأربعة وسبعين 674 سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trières) (أنظر الملحق 1 صور)، وبونتيكونتار (Pentecontères) (أنظر الملحق 23 صور) وهي سفن صغيرة وكان بها آنذاك خمسة وثلاثين مجدافا، هذا بالإضافة لعدد من القوارب الملحقة بهذه السفن مخصصة لحمل الجياد، وأي كان نوع تلك المراكب كارية (Cariens)، أيونية (Ioniens) أو مصرية (Egyptiens) أو كليكية (Cliciens) أو فينيقية (Phenciens) فإن الطاقم الذي كان على متنها لا يتجاوز المائتان والثلاثين (230) رجلا. سار ذلك الاسطول على ساحل آسيا الصغرى

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, II, I.

² - Hérodote, VII, XXXII ; Diodore de Sicile, Loc, cit.

³ - T.D. Raffenet, op.cit, p39.

باتجاه الشمال إلى أن وصل أبيدوس أين بدأ بتشكيل الجسران المؤديان إلى الضفة الأخرى من تراقيا أين يقع رأس بين مدينتي سيسوس (Sestos) ومادتيوس (Maditos)¹.

حين علم كزاركسيس أن اعمال بناء الجسور على مضيق الدردنيل، وكذا شق قناة جبل أتوس قد شارفت على الانتهاء، تحرك بجيشه من سارديس باتجاه مدينة أبيدوس (Abydos)²، ويحتمل أن يكون تحركه هذا قد تم في شهر مارس، أو بعد أيام قليلة من الاعتدال الربيعي³. تم بناء الجسور بين مدينتي أبيدوس من جهة آسيا الصغرى ومدينة سيسستوس (Sestos) في الجهة المقابلة من تراقيا (Thrace)⁴، وقد قام الفينيقيون بربط المراكب المشكلة للجسر بحبال الكتان، وربط المصريون مراكبهم بحبال من اللحاء المجلوبة من بيلوس (جبيل)⁵.

اتجه الفرس من سارديس نحو الشمال، وحين غادرها كزاركسيس وبرغبه فيه فإنه استقل عربة أخرى أقل شأنًا من عربته الملكية (Harmanaxe)، كان متبوعا بألف رجل من حاملي الحراب التي كانت رؤوسها نحو الأعلى، وذلك حسب التقاليد المتبعة. كان هؤلاء من بين الفرس الأكثر نبلا والأكثر شجاعة. بعد هؤلاء يسير ألف فارس من النخبة متبوعين بعشرة آلاف رجل من المشاة منتخبين من بقية الفرس، من بين هؤلاء العشرة آلاف كان هناك ألفا ممن يحملون الرمانة الذهبية (Grenades d'or) على رؤوس حراهم، يحيط هؤلاء بتسعة آلاف رجل آخرين يحملون في آخر حراهم رمان من الفضة، أما الذين يتبعون مباشرة كزاركسيس فيحملون تفاحا من الذهب. هؤلاء المشاة كانوا متبوعين بعشرة آلاف من الفرسان. كانت بين هذا الجسم من الفرسان الفرس وبين الفرق الأخرى التي كانت تسير بشكل مختلط وبدون أي نظام مسافة تقدر بحوالي مرحلتين.⁶

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, pp 43-44.

² - أبيدوس: مدينة في آسيا الصغرى، تقع على الجزء الأكثر ضيقا في مضيق الهلسوبونت (Hellespont) شاطئها مواجه لشاطئ سيسستوس (Sestos)، ومنها عبر كزاركسيس المضيق على جسر من المراكب، كان سكان أبيدوس يوصفون بالرخاوة (Mous) والتخنث (Effeminés). أنظر : Peter Green, op.cit, p 124.

³ - Ibid, pp 125-126.

⁴ - Ibid, p126.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, XXXIV.

⁶ - Ibid, VII, XLI.

اجتاز الفرس مقاطعة اتارني (Atarnée)، ثم مروا بجانب مدينتي أطراميسيون (Atramyttion)، أنطوندروس (Antondros) قبل الولوج الى طروادة (Troie) بعد الدوران حول جبل إيدا (Ida). في خضم الليلة التي قضوها على سفح هذا الجبل تعرض الجيش لعاصفة عنيفة، وقد سقط الكثير من الرجال قتلى على إثر الصواعق التي ضربت مكان تواجدهم، كان نهر السموندر¹ (Le Scomontre d'homère) بالقرب من طروادة أول نهر تحف مياهه قبل أن ينتهي الرجال في الجيش والدواب من الارتواء بمياهه.²

كان في مقدمة جيش كزاركسيس كوكبة بها الدواب التي تحمل الامتعة، متبوعة بفرق عسكرية من مختلف الأمم التي جندها الملك، مختلطة دون تمييز بينها، وكان هذا الجزء من الجيش يشكل أكثر من نصف حجمه. لم يكن هذا الجزء الأول ملتحما بالجزء الذي يتواجد فيه الملك، بل كان بينهما فراغ كبير من المسافة. كان على رأس الجزء الثاني الذي يضم الملك ألفا من الفرسان المنتخبين من الفرس، متبوعين بألف في المشاة المسلحين بالحرايب التي كانت رؤوسها نحو الاسفل وهي فرقة من النخبة مثل سابقتها، ثم تأتي بعد ذلك عشرة جياد مقدسة نيزيانية (Niséens)، وقد سميت كذلك نسبة إلى السهل النيزياني بميديا وهو المكان الذي جلبت منه³.

خلف تلك الجياد يمشي سائقهم على قدميه ويشد بيده أرسان أو ألجمة تلك الجياد، وبعدها يمكن مشاهدة كزاركسيس على عربة تجرها الجياد النيزيانية التي يقودها شخص يمشي بجانبها، كان من الفرس ويسمى باتيرمافاس بن أوتاناس (Patrimaphas fils d'Otanès)⁴.

1 - كان نهر السموندر أول نهر يمر به الجيش منذ خروجه من سارديس غير أنه كان في حالة جفاف لذلك لم تكن مياهه تكفي حاجة المحاربين

ومن معهم من المرافقين لهم Hérodote, op.cit VII, XLII (42).

² - Peter Green, loc.cit.

³ - أنظر التهميش 24 من الكتاب السابع لهيرودوت (Hérodote lire VII).

⁴ - Hérodote, VII, XL (40).

حين كان الجيش على ضفاف نهر الساموندر عرج كزاركسيس على مدينة طروادة¹ (Troie)، صعد إلى أعلى قلعتها² وهي التي كان له رغبة شديدة في معاينتها والاطلاع على حالتها، وبعد معاينتها،³ قدم ألف ثور للآلهة أثينا (Athéna d'Ilion) الطروادية، أما كهنة الفرس فقد وزعوا الخمر تشريفاً لأبطال تلك البلاد⁴. ثم انطلق كزاركسيس منذ بزوغ فجر اليوم الموالي تاركاً على شماله مدن رايتيوم (Rhaetium)، أوفيرنيوم (Ophyrnium)، ودردانوس (Dardanus)، وفي مدينة مجاورة لمدينة أبيدوس (Abydos)، وعلى يمينه ترك مدينة جورجيت تاركيناس (-Gergites Teucriens)⁵

حين وصل كزاركسيس إلى أبيدوس أراد معاينة كل فرقته، ولهذا الغرض أقيم للملك كرسي من الرخام الأبيض، حسب الأوامر التي تلقاها الأبيدونيون (Les Abydeniens) مسبقاً. ومن هذا المكان لاح الملك بنظره نحو الساحل وتأمل جيشه البري والبحري، وبعدما سُرَّ بهذا المشهد أراد الاستمتاع برؤية معركة بحرية، وقد شاهد ما كان يتمناه حيث انتصر فينيقيو صيدا (Les Phéniciens de Sidon) على منافسيهم، وقد عبر الملك عن بهجته وسروره بهذه المشاهد الخاصة بجيشه الكثير العدد بهذه المعركة⁶.

ورغم أن هيرودوت أورد خبر استعراض فرق الجيش من طرف الملك كزاركسيس إلا أن هنالك من يشكك في أن طبيعة المنطقة التي كانوا فيها وهي مدينة أبيدوس لها القدرة على تزويد تلك الكتلة الضخمة هي الرجال والدواب بالمياه لمدة يوم واحد فما بالك بعدة أيام كما أورد هيرودوت.⁷

¹ - يسجل المؤرخ هيرودوت أن الفرس كانوا يعتبرون حرب طروادة هي حرب مفتوحة ومحتملة الاندلاع في أي وقت وذلك بدون شك بعد حملة داريوس (490 ق م)، وفي هذا الإطار كانت زيارة كزاركسيس لطروادة في الغالب تسويق لهذا الغزو الفارسي على أنه حرب تأسر شرعية. Peter (Green, op.cit, p126).

² - Peter Green, loc.cit, p126

³ - Hérodote, op.cit, VII, XLIII

⁴ - Peter Green, Loc.cit.

⁵ - Herodote, loc.cit.

⁶ - Hérodote, op.cit, VII, XLIV.

⁷ - Peter Green, op.cit, p127

ويتحدث هيرودوت في هذا الصدد عن غبطة كزاركسيس وشعوره بالسعادة عند رؤية مضيق الهلسوبونت وهو مغطى بالمراكب، غير أنه ما لبث وأن تغيرت ملامح وجهه ونزلت الدموع من عينيه،¹ ليثير ذلك دهشة عمه أرتبان الذي كان بجانبه، وهو الذي حاول قبل مغادرة بلاد فارس ثنيه عن هذه الحملة، وحين سألته عن سبب تلك الدموع النازلة من عينيه، أجابه كزاركسيس: "حين أفكر في قصر حياة الانسان، وأن هذه الآلاف من الرجال لن يبق منهم أحد بعد مائة عام، يتملكني شعور شديد بالشفقة". "نحن نصادف في مسار حياتنا -أجاب أرتبان- أشياء أكثر حزنا من الموت نفسه..." وبعد حديثه عن الموت والسعادة وغيرها²... قال كزاركسيس: "حياة الانسان هي فعلا كما وصفتها ولكن لننهي هذا النقاش الحزين بما أننا أمام هذه المشاهد الرائعة". غير أن كزاركسيس استدرك قائلا لعمه: "قل لي أرجوك، هل كانت نظرتك السابقة غير واضحة، هل أنت مصر على شعورك القديم؟ أمازلت تريد ثني عن خوض الحرب ضد اليونان أم ان رأيك تغير؟ تكلم ولا تخف عني شيئا".

أجاب أرتبان: "سيدي يمكن للنظرة التي تسرنا الآن أن تكون لها نهاية سعيدة كما تشتهيها، ولكنني الآن أعيش حالة من الذعر، ولا أشعر حتى أنني سيد نفسي وذلك حين أفكر في بعض الأشياء ومنهما اثنتان من النتائج التي تعاكس نظرتكم.³ تساءل كزاركسيس عن هاتين النتيجةين اللتين تعاكسان ما يريد القيام به، خاصة إذا ما تعلق بعدد المحاربين أو بقوة الأسطول الحربي، أو إن كان الأمر يتعلق بالاثنتين معا. أجاب أرتبان: "سيدي، لا يمكن لأي شخص أن يعيب على جيشك البري والبحري، أي شيء خاص من حيث العدد [...]".⁴

ولكن في الحقيقة -يواصل أرتبان- إذا ما هبت عاصفة بحرية فليس هنالك، حسب ما أتوقع، موانئ في هذه المنطقة تكفي كي يكون اسطولك في منعه وحماية، ولا يكف أن يكون هنالك ميناء واحد ولكن لابد أن يكون هنالك موانئ مشاهة في كل البلدان التي سنذهب إليها،

¹ - Hérodote, op.cit VII, XLV.

² - Ibid, XLVI.

³ - Ibid, VII, XLVII.

⁴ - Ibid, VII, XLIX.

وبما أنك تعلم بعدم وجود تلك الموانئ في هذه البلاد، فنحن اذن تحت رحمة الظروف الطارئة والتي لا يمكننا التحكم بها، هذه احدى الاشياء التي تشكل عاملا معاكسا لحملتنا. لنمر إلى الثانية: الأرض ليست أفضل حالا من البحر، ففي حالة ما إذا لم يتلق الجيش أي مواجهة أو مقاومة في بلاد اليونان، فإنك ستتقدم أكثر فأكثر، وسيكون ذلك عاملا سلبيا للحملة لأن المقاتلين لن يكونوا قد شفوا غليلهم من الانتصارات. كما أنه في حالة عدم وجود عوائق تواجه حملتك فإن توسعاتك والزمن الذي تستغرقه سيؤدي بك إلى المجاعة. إن العاقل يتخوف من هذه الظروف ويفكر في كل الأحداث المؤذية التي يمكن أن تطرأ، ولكن في التنفيذ يكون جريئاً ومقداماً¹.

كانت اجابة كزاركسيس واضحة حيث قال وبشكل قاطع: "ارتبان، ما قلته صحيحا ولكن لا يجب التخوف ولا التدقيق بهذا الشكل في الأمور، وإذا ما قمنا في كل القضايا التي تتوالى الواحدة تلو الأخرى بالتداول والنقاش بهذه الدقة، لن نتمكن من تنفيذ أي شيء، لا بد من معالجة الأشياء بشجاعة [...] الرجال الشجعان ينجحون بشكل تلقائي، في حين الذين يتصرفون ببطء وتحفظ من النادر أن يتشرفوا بالنجاح. انظر إلى أية درجة من القوة وصل إليها الفرس؟ لو أن الملوك الذي كانوا قبلي فكروا بالشكل الذي تفكر فيه أنت، أو لو كان لهم مستشارون يفكرون كما تفكر؟ هل كنا نرى هذا الشعب يصل إلى هذه الدرجة من المجد؟ إنه بذلك الاقدام والارتقاء في الأخطار، تمكنوا من توسيع امبراطوريتهم. لأنه لا يمكن أن تنجح في المهمات الكبرى والحملات العظمى إلا بمواجهة الأخطار الحقيقية، لقد دخلنا في حملتنا هذه في أجمل فصول السنة، وبعد أن نخضع أوربا كاملة سنعود إلى بلاد فارس دون أن نتضرر من الجوع ولا من أي شيء آخر. لدينا في الواقع الكثير من المؤونة، كما أن كل الأمم التي سنحاربها هي أمم مزارعة وليسوا بدوا، سنجد في بلادهم القمح الذي سنحتاجه.²

ظل الحوار متواصلا بين الملك وعمه وكنصيحة أخيرة أراد العم اسداءها للملك قال: " بما أنك سيدي، لا تسمح لنا بطرح أي تخوف، تقبل مني هذه النصيحة التي سأسديها إليك، إن

¹ - Hérodote, loc.cit.

² - Ibid, VII, LX.

قورش بن قمبيز أخضع كل أيونيا ما عدا أثينا (Athènes) وجعلها تابعة للفرس، أنصحك إذن بأن لا تجبر الأيونيين على حمل السلاح ضد آبائهم، نحن لا نحتاج إليهم لكي نتفوق على أعدائنا. فإذا رافقونا فيجب أن يكونوا إما غير منصفين من خلال مساعدتهم لنا على إخضاع بلادهم، وإما أن يكونوا عادلين فيساعدوا مواطنيهم على الدفاع عن حريتهم. فعدم عدالتهم لا يضيف لنا الشيء الكثير، لكن انصافهم (Leur justice) يمكن أن يسبب لنا خسارة كبيرة. فكر في الأمر سيدي وخاصة في صحة هذه المقولة القديمة: "حين تبدأ حملة، فإنك لا ترى دائما ما ستكون عليه النهاية".¹ "En commençant une entreprise, on ne voit pas toujours quelle en sera l'issue."

أنهى كزاركسيس الحوار قائلا لعمه: "أنت تخطئ دائما في آراءك خاصة إذا فكرت في تغير الأيونيين علينا، إننا نملك الأدلة على ولائهم، أنت نفسك كنت شاهدا وكل الذين عايشوا حملة داريوس ضد السكيثيين كانوا يعرفون أن الأمر كان يعود إليهم في نجاة الجيش الفارسي أو هلاكه، ومع ذلك تصرفوا معنا بكل انصاف، ونحن حفظنا لهم ذلك الجميل دون التثبت في أي ضرر يصيبهم. ومن جهة أخرى لا يمكنني أن أتخوف من أي عمل يأتي من جهة شعب ترك لي نساءه وأبنائه وممتلكاته في بلدي. تحلى اذن بالهدوء، تشجع واعمل على المحافظة على بيتي وامبراطوريتي، إنه أنت وانت وحدك فقط من يستطيع أن ائتمنه على ملكي وتاجي".²

بهذه الكلمات، أنهى الملك حوار مع عمه أرتبان ليرسله بعد ذلك إلى سوس لينوب عنه في إدارة الامبراطورية أثناء غيابه،³ كما عين القائد أريوندس (Aryondis) على رأس قيادة القاعدة البحرية في مدينة سيستوس في الجانب الآخر من مضيق الهلسوبونت.⁴ وبعد ذلك ألقى الملك خطابا حماسيا على من معه من الفرس المحاربين حاثا إياهم على التحلي بالشجاعة وعدم

¹ - Hérodote, op.cit, VII, LI.

² - Ibid, VII, LII.

³ - Peter Green, op.cit, p127.

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p 43

الاستهانة بالأعداء الذين وصفهم بالمحاربين العتاه، وأعملهم أنه إن تمكنوا منهم فإنهم لن يجدوا أي مقاومة بعد ذلك في أوروبا¹.

بدأ اجتياز مضيق الدردنيل على الأرجح في العاشر (10) من شهر ماي، وقد بدأ اجتياز الجسر بفئة العشرة آلاف من الحرس الملكي الملقبين بالخالدين، كانوا كلهم يرتدون التيجان على رؤوسهم. الفرق المقاتلة اجتازت المضيق عبر الجسر الشمالي، أما الجنوبي فكان مخصصا لنقل الامتعة وبعض الفرق الثانوية التابعة للجيش². سار كزاركسيس على رأس مقدمة جيشه البري بعد ان اجتاز مضيق الهلسوبونت، أما اسطوله البحري كان يبحر بالقرب من الساحل آخذا طريقا معاكسة لطريق الجيش البري حيث اتجه نحو الغرب من أجل الوصول إلى رأس سارييدوس (Sarpédos) أين صدرت له الأوامر بالانتظار هناك³. اجتاز بعد ذلك الاسطول رأس كيرسوناز (Chersonèse) واتجه نحو خليج إينوس (Enos)، ثم تحرك نحو مصب نهر الإيبرو (Ebro) أين سيتم معاينة السفن والاطمئنان على حالتها من طرف الملك كزاركسيس⁴.

وفي الثاني عشر من شهر ماي كانت كل فرق النخبة من جيش الفرس الملكي قد اجتازت المضيق، واتجهت نحو أول نقطة تجمع للقوات في تراقيا وهي مدينة دوريسك (Doriskes) بالقرب من مصب الإيبرو حيث كانت المنطقة في وفرة من المياه، غنية بالمراعي وبالتالي كانت المخزن الأول للمؤن بالنسبة لكزاركسيس⁵. كانت منطقة دوريسكوس عبارة عن سهل كبير من أرض تراقيا (Thrace) يرتوي من مياه نهر الإيبرو، وكان بالمنطقة قلعة ملكية تحمل اسم المدينة، وبها فيلق فارسي منذ زمن الملك داريوس حين سار ضد السكيثيين، وقد وجد كزاركسيس هذا المكان مناسباً من أجل عد واحصاء جيشه، وقد أصدر أوامره بذلك، وعلى شاطئ دورسيك كانت المراكب الحربية قد وصلت جميعها إلى حيث جمعها قادتها بأمر من الملك⁶.

¹ - Herodote, op.cit, VII, LIII.

² - Peter Green, op.cit, p128.

³ - Hérodote, loc.cit.

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p45.

⁵ - Peter Green, op.cit, p 128.

⁶ - Hérodote, op.cit VII, LIX.

ويتحدث هيرودوت عن عملية عبور الجيش مضيق الدرنديل أنها دامت سبعة أيام وسبع ليال متتالية ودون انقطاع، وفي تلك المدة كانت وحدات المقاتلين لا تزال تتوافد إلى أبيدوس من المناطق القبلية، وكذلك قوافل الجمال البطيئة، وتلك الحملة بالأمثلة والعتاد، كانت تدفع من طرف الحرس العسكري الملكي للفرس نحو الضفة الأوروبية، وكانت التقاليد تقضي أن يمر هؤلاء تحت ضربات السياط¹.

بعد أن مرت جميع فرق الجيش إلى الناحية الأوروبية من مضيق الهلسوبونت عزم كزاركسيس على عد وتفقد فرقه البرية، ذلك الجيش الذي قدر هيرودوت عدده بمليون وسبع مائة ألف مقاتل،² هذا الجيش الذي وصلت آخر وحداته إلى الأرض الأوروبية في 16 ماي، بعد عبور المضيق، وفي هذا الوقت كانت مقدمة الجيش بالقرب من دوريسك، بعد ما قطعت مسافة 215 كلم، وخلال مسيرها بأرض تراقيا كانت صفوف الجيش الفارسي تتدعم بالمتطوعين المحليين من التراقيين والأغريق وقد تجمعت جميع تلك القوات في دوريسك يوم 22 ماي³.

بعدما شرح هيرودوت طريقة عد الجيش الفارسي⁴، عمد إلى ذكر الامم التي كانت تشكل هذه الكتلة البشرية من المحاربين مع ذكر قائد كل أمة مشاركة وطريقة تسليحهم،⁵ فبدأهم بالميد والفرس والهيركانيين الذي كانوا يضعون على رؤوسهم قبعات من لباد الشعر كانوا يسمونها تيجان والسيسين (Les Cissiens) والهيركانيين (Les Hyrcaniens) الذين كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوات، وكانوا جميعا يحملون رماحا وأقواسا وأسهم وسيوفا، ويرتدون دروعا طويلة وكان بينهم فرق الخالدين.⁶

¹ - Peter Green, loc.cit.

² - Hérodote, op.cit, VII, LIX, LX.

³ - Peter Green, loc.cit.

⁴ - بالنسبة لطريقة العد، كان يتم تجميع جسم من المحاربين بعدد عشرة آلاف رجل في فضاء واحد، بحيث يحشرون ويتم شدهم إلى بعضهم البعض بشكل جيد، ثم ترسم دائرة على حدود هذه المجموعة، يتم اخراج تلك الفرق المعدودة ويشيد على حدود الدائرة جدار، بعد الانتهاء من هذا العمل يعتمد إلى ادخال فرق عسكرية داخل تلك الدائرة المحاطة بالجدار واحدة تلو الأخرى إلى ان تنتهي عملية العد. انظر Hérodote, op.cit, VII, LX.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, LXI.

⁶ - Henri Pigaillem, op.cit, p 46.

ليذكر بعد ذلك الأمم الأخرى المكونة للجيش البري مثل الآشوريين (les Assyrenes) والكلدانين (les Chaldéens)، البكتيريين (Bacrtiens)، الساسيين (les Saces)، الهنود (Les Indiens)، البارثيون (Les Parthes)، القزوينيون (Les Caspiens)، السارونجيين (Les Sarongéens)، البكتيس (Les Pactyces)، الأوتيون (Les Outiens)، الميسيون (Les Myciens)، الباريكانيون (Les Paricaniens)، العرب (Les Arabes)، الأثيوبيون (Les Ethiopiens)، الأثيوبويون الشرقيون (Les Ethiopiens Orientaux)، الليبيون (Les Libyens) البفلاقونيون (Les Paphlagoniens) وغيرهم.^{2 1}

تلك كانت الأمم والشعوب التي عبرت إلى بلاد اليونان مشكلة الجيش البري، أما قادتهم الذين ذكرهم هيرودوت فكانوا هم من ينظمون صفوفهم ويتولون عملية عدهم، كان هؤلاء القادة، قادة أقل منهم رتبة كل منهم يقود عشرة آلاف رجل، يتحكمون بدورهم في قادة الألف رجل ويستمر التسلسل في الرتب إلى قادة المائة رجل، وإذا كان القادة الكبار من الفرس فإن القادة الأقل منهم رتبة كانوا من تلك الأمم.³

وتجدر الإشارة إلى أن جيش المشاة بشكل عام سواء من الفرس أو الأمم الأخرى كانت قيادته العليا مقسمة على ستة من القادة الكبار وهم:

- ماردونيوس بن غوبرياس (Mardonius fils de Gobryas).
- تريتونكماس بن أرتان (Tritanchmes fils d'Artabane).
- سميردوميناس ابن اوتاناس (Smerdoménès fils d'Otanès).
- وهذان الاخيران ابني أخوي داريوس وابنا عم الملك كزاركسيس.
- ماسيست بن داريوس وأتوس (Massiste fils de Darius et Atosse).
- جيرجريس بن أريز (Gergis fils d'Arize)

¹ -Hérodote, op.cit, VII, LXIII -LXXX .

² للمزيد عن باقي الامم المشاركة في الجيش وطريقة تسليحهم وكذا قائد كل أمة انظر الملحق 1 جداول.

³ - Hérodote, op.cit, VII, LXXXI, (81).

• ميغابيز بن زوبير (Mégabyse fils de Zopyre)¹

كان جميع المشاة في الجيش يعرفون هؤلاء على انهم قادتهم الكبار جنرالات (Leurs Généraux) ما عدا العشرة آلاف محارب المختارين من بين النخبة من المحاربين الفرس، والذين كانوا تحت قيادة هيدراناس (Hydranès)، وكانت هذه الفرقة تسمى بالخالدين (Les Immortels) لأنه في حالة افتقاء أي واحد منهم بسبب الموت أو مرض يتم تعويضه بمحارب آخر لذلك يبقى عددهم دائما عشرة آلاف فرد. وتتميز هذه الفرقة وتتفوق عن الفرق الأخرى بهيئتها ووقارها وعظمتها، وكذلك بشجاعتها وطريقة تسليحها ولباسها، كما كانوا يستفردون بزيئة من الذهب وهو ما يزيدهم بروزا وتفردا على الآخرين. وازضافة إلى ذلك كانوا يستعملون عربات يحملون عليها جواريتهم وخدمهم الذين ويرتدون لباسا رائعا، كما كانوا يستعملون جمالاً وحيوانات أخرى يحملون عليها مؤنهم².

وتجدر الاشارة إلى أن جميع الأمم المشاركة في الجيش البري كان لها فرسان محاربون في بلادهم غير أنهم لم يجلبوهم فيما عدا الفرس، الساغرتيون، الميد، السييسون (Cissiens)، البكتريون، القزوينيون، اللييون، الباريكانيون والعرب^{3 4}.

أما بالنسبة للعدد الاجمالي لأولئك الفرسان المشاركين في الحملة فيحدثنا هيرودوت عن وجود ثمانين ألف حصان (80000)، دون احتساب الجمال والعربات، ويضيف هيرودوت أن كل تلك الأمم كانت منظمة في فرق كل منها في سريته، غير أن العرب كانوا متواجدين في الأخير لكي لا تخيف جماهم الخيول⁵. كان يقود الخيالة كل من هيرمامثيراس (Hermamithrès) وتيتي (Tithée) إبن داتيس أما زميلهم الثالث فارنوشاس (Pharnuches) فقد ألم به مرض شديد في سارديس اثر حادث وقع له، مما أفقده منصبه كضابط أساسي في الجيش وقائد كبير في الخيالة⁶.

¹ - Hérodote, op.cit, VII, LXXXII.

² - Ibid, VII, LXXXIII.

³ - Ibid, VII, LXXXIV, LXXXVI.

⁴ لمعرفة المزيد عن أصل الساغرتين وعن طريقة تسليح الأمم التي لها كتائب من الخيالة في جيش كزاركسيس انظر الملحق 1 جداول.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, LXXXVII.

⁶ - Ibid, VII, LXXXVIII.

أما بالنسبة للأسطول البحري فإن ديودور الصقلي يفيدنا بأن عدد السفن التي تجمعت في شاطئ دورسيك قد وصل إلى 1200 ألف ومائتا مركب طويلة،¹ وإذا كان هيرودوت قد انفرد بالحديث والوصف الدقيق للجيش الفارسي البري فإن ديودور الصقلي قد أورد في كتابه الحادي عشر بعض المعلومات عن الاسطول الحربي لكزاركسيس، وعن الأمم التي شاركت في ذلك الأسطول،² إلا أن وصف هيرودوت يظل أكثر وضوحاً ودقة والمأما، وقد أورد هيرودوت أن عدد السفن الحربية كان ألفاً ومائتان وسبعة (1207) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trirèmes).³

أما عن الأمم التي شاركت بسفنها الحربية في هذا الاسطول فهم الاغريق، الفينيقيون، المصريون،⁴ سوريو فلسطين (Les Syriens de Palestine)،⁵ القبارصة، الكليكيون، البمفيليون، الليسيون، الدورويون الآسيويون، الكاريون، الأيونيون،⁶ وسكان كيوس Chios وساموس Somos⁷، سكان الجزر الخاضعة للفرس والايونيين، الهلسوبونتيون، وسكان البونت.⁸ ويضيف ديودور الصقلي إلى هؤلاء اللسبيون (Les Lesbiens) والتينديون (Les Tenediens) الذين اشتركوا في عدد من السفن مع الأيونيين،⁹ وفي هذا الاطار يتحدث ديودور الصقلي عن وجود ثمان مائة وخمسين (850) مركباً كان مخصصاً لحمل الجياد، وثلاثة آلاف قارب من ذوي الثلاثين مجدافاً (Barque à trente rames).¹⁰

ويضيف هيرودوت أن المحاربين الفرس والساس (Saces) كانوا يحاربون على كل تلك المراكب التي كان خيرة بحارتها من الفينقيين، وخاصة الصيادايين منهم. أما عن قادة الاسطول

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, III.

² - Ibid.

³ - Hérodote, op.cit, VII, LXXXIX.

⁴ - Diodore de Sicile, loc.cit.

⁵ - Hérodote, Loc. Cit.

⁶ - Hérodote VII, LXXXIX-LCIV; Diodore de Sicile, Loc.cit.

⁷ - Diodore de Sicile, Loc. Cit.

⁸ - Hérodote, op.cit, VII, XCV ; Diodore de Sicile Loc. Cit.

⁹ - Diodore de Sicile, Loc. Cit.

¹⁰ -Ibid.

البحري من الفرس فهم أريابيناس (Ariabignès) بن داريوس، بريكساب (Precsapes) بن أسباتيناس (Aspathinès) وأخيميناس (Achémènes) بن داريوس¹.

أما عن قادة المجليين من تلك الأمم المشاركة في الاسطول فذكر هيروdot تيترامناس (Tetramnèste) بن أنسيوس الصيادوي، مابن (Mapen) بن سيرموس (Surmos) السوري، ميربال (Merbal) بن أغبال (Agbal) الأروادي، سيسنيس (Synnesis) بن أوروميدون (Oromédon) الكيليكى، سيرتيسك (Cybertisqus) بن سيكاس (Sicas) اللوسي (Lycie)، غورغوس (Gorgus) بن كرسيس (Chersis)، تيموناكس (Timonax) بن تيم غوراس (Timgoras) وهما الاثنان من جزيرة قبرص، هستي (Histiée)، بن تيمناس (Tymnes)، بيقراس (Pigres) بن سلدوم (Seldome) داماسيثم (Damasithyme) بن كندول (Candaules) من كاريا.²

وقد اهتم هيروdot بصفة خاصة بذكر ملكة هاليكارناس التي تسمى أرتميس (Artemise) والتي كانت وصية على ابنها حديث السن حيث توفي والده، وقد شاركت في هذه الحملة قائدة للهاليكاناسيين وسكان جزيرة كوس (Cos) وتينزيروس (Thynziros)، وكاليدناس (Calydnes). وقد ذهبت إلى لقاء كزاركسيس ومعها خمسة من (5) من السفن المجهزة بشكل أفضل بكثير من بقية المراكب الأخرى، لتأتي المراكب الصيدوية في المرتبة الثانية بعدها، أما الشعوب الخاضعين لها والذين كانوا تحت امرتها فهم الدوريون حسب اعتقاد هيروdot والهاليكارناسيون أصليو تريزان (Trézen) وآخرون من إبيدور (Epidaure).³

ويذهب الباحث بيتر غرين (Peter Green) الى أن عملية العد التي قام بها الفرس للجيش كانت من بين اهدافها تجنب أي مشكل قد يطرأ فيما يخص الاشراف وإدارة شؤون هذه الجموع البشرية من جميع النواحي⁴، وإذا كان هيروdot قد أشار إلى أنه بعد عملية العد تم تنظيم الجيش

¹ - Hérodote, op.cit, VII, XCVI.

² -Ibid, VII, XCVIII.

³ -Ibid, VII, XCIX.

⁴ - Peter Green, op.cit, loc.cit.

في وضعية المواجهة والاستعداد للمعركة، أي بمعنى تقسيمه إلى فرق ووحدات متقاربة العدد، وهنا يؤكد هيرودوت على أن كزاركسيس قد قام بتفقد جيشه البري سواء فرق المشاة أو الخيالة وهو على عربته، أمة بعد الأخرى، من الصف الأول إلى آخر صف في الجيش، كما طرح أسئلة على كل فئات الجيش التي تفقدها وكان مساعده يسجل الأجوبة إلى أن أنهى الملك هذا العمل¹.

ومن الواضح أن جيش كزاركسيس قد تم تقسيمه حين تفقده إلى وحدات استعدادا للمعركة، وفي هذا الصدد يفترض المؤرخ مورس سارتر (Mourice Sartre) إلى أن الجيش قد تم تقسيمه إلى تسع وعشرين وحدة (Brigades) عسكرية، وأن فرقة الخالدين كانت هي الوحدة الثلاثين في الجيش وأن كل وحدة تحوي من 3000 إلى 5000 رجل، أما باتريك بورن (Batrice Brun) فيقترح أن هذه الوحدات قد ألحق بها في ذلك الوقت وحدات صغيرة مساعدة (petites unités supplétives) من البرابرة ملحقه بالفرق الأساسية، كما كان الحال بالنسبة للفرق المساعدة للجيش الروماني "Auxilia aux légions romaines"²

بعد ما أنهى الملك تفقد الجيش البري توجه بعربته نحو قارب صيداوي على شاطئ دورسيك، كان القارب الملكي مزينا بالذهب ومغطى بالقماش الثمين، مر القارب من أمام المراكب المصطفة على الشاطئ في وضعية المعركة، كان الملك يصعد إلى تلك المراكب ليراقب ويفحص طاقم التجديف وقادة تلك الطواقم وكان الملك يسأل عن كل شيء³، ويذهب هيرودوت إلى أنه كان يسأل قباطنة السفن وقادة الاسطول كما كان يسأل قادة الجيش البري، وكان مساعده يسجل الاجابات على دفتره⁴.

بعدها أن أنهى كزاركسيس تفقده للجيش البري ثم الأسطول البحري، أرسل في طلب ديمارات (Démarate) وهو ملك اسبرطي⁵ طرده الاسبرطيون، وكان يعيش في كنف الملك داريوس في زمنه⁶، وظل محافظا على مكانته عند كزاركسيس الذي كان يعتبره كمستشار عسكري متخصص في شؤون الاغريق. سأل كزاركسيس ديمرات ان كان الاغريق يتجرأون على مواجهة جيشه رغم الفارق العددي الكبير بين الطرفين، ورغم أن هذا النوع من الأسئلة يتطلب اجابة بها

¹ - Hérodote, op.cit, VII, C, (100).

² - Peter Green, op.cit, pp128-129

³ - Henri Pigaillem, op.cit, p45

⁴ - Hérodote, loc.cit.

⁵ - Peter Green, op.cit, p129

⁶ - Hérodote, op.cit, VII, CIV.

نوع من المجاملة يكون مفادها النفي، إلا أن ديمارات حافظ على الروح الاسبرطية ولم يقيم بدور المجامل. ومع أن المؤرخين قد شككوا في صحة هذا الحوار الذي أورده هيرودوت، إلا أنه يمكن أن يكون صحيحا وقد يكون هيرودوت قد ذكره من أجل اظهار روح المقاومة عند الاغريق¹.

وقد أجاب ديمارات بأن الاسبرطيين بحسب معرفته لهم لطالما كانوا يفضلون الموت على الاستسلام، و اضاف أن الفقر كان دائما ملازما لمظاهر الحياة في بلاده، إلا أن بلاد اليونان نالت مكانتها الرفيعة من النبل والحكمة وقوة قوانينها، ومن خلال هذه القيم وحدها استطاعت أن تهزم الفقر والعبودية. ثم استرسل قائلا: الاسبرطيون بصفة خاصة، وقد ينطبق هذا الكلام على آخرين في بلاد اليونان، لن يقبلوا منك شروطا لا تعني لهم سوى أن يتحولوا إلى عبيد أو أن تدخل بلاد اليونان في العبودية. ثم أضاف: "إنهم أحرار وان كانوا ليسوا أحرارا بصفة كاملة لأنهم يخضعون لسيد، وهذا السيد هو القانون، هذا القانون الذي يخافون منه أكثر من خوف رعيتك منك².

لم يأخذ كزاركسيس كلام ديمارات على محمل الجد، بل سخر من هذه الأقوال،³ وهو ما يبين بحسب بيتر غرين Peter Green صفة التعالي الأعمى التي كانت تميز شخصية كزاركسيس⁴، بعد انتهاء تلك المحادثة مع ديمارات، قام كزاركسيس قبل مغادرته دورسيك مع جيشه، بعزل الحاكم الذي عينه والده داريوس على هذه المدينة واستبدله بحاكم آخر هو ماسكاماس (Mascames) ابن ميغادوستاس (Mégadostes)،⁵ واجتاز بعد ذلك تراقيا بجيشه ليعبر إلى مقدونيا، ويحتل ان يكون تاريخ انطلاقه من دوسيك في السادس عشر (16) من شهر جوان.⁶

¹ - Peter Green, op-cit, pp129-130.

² - Ibid, p130.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CV .

⁴ - Peter Green, Loc. Cit.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - Peter Green, loc.cit.

الفصل الرابع

الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية

المواجهات مع الفرس

—I التحضيرات للحرب في بلاد اليونان

—II بداية المواجهات الحربية في بلاد اليونان

I- التحضيرات للحرب في بلاد اليونان

1- الاستعدادات في مدينة أثينا بإشراف القائد تيميستوكل (Thémistocle)

كان واضحاً أن تحرك كزاركسيس يهدف أولاً أخذ مدينة أثينا، ولكن هذا لا يعني نجاة المدن الأخرى لأن بلاد اليونان بأكملها أصبحت مهددة بالغزو والاستعباد، ورغم أن الإغريق قد علموا بتحريك كزاركسيس نحوهم إلا أن ردة فعلهم لم تكن ذاتها. فتلك المدن التي قدمت الماء والأرض لكزاركسيس لم تكن متخوفة من هذه الحملة، أما المدن التي لم تخضع فكانت في حالة رعب من قدوم جيش كزاركسيس لأن مواطنيها يعلمون أن الأسطول الإغريقي ليس بذلك الحجم الذي يستطيع به مواجهة هجومات الفرس، خاصة مع تلك الأعداد الهائلة للجيش الآسيوي التي تشير بالتفوق الكبير في العدد والعدة¹.

أما بالنسبة لأوضاع أثينا الداخلية، فيبدو أنه بعد انتصار الاثينين في الماراتون، تعزز حكم النظام الشعبي الديمقراطي، وعاد بقوة إلى المشهد الاثيني، فالسلطة المدنية صارت لمجلس البولي (Boulê) أما السلطة العسكرية فأصبحت من صلاحيات الحكام العسكريين أو الستراتاج (Stratèges)،² والواضح أنه من تداعيات معركة ماراتون، خول الدستور لأحد الحكام العسكريين أو الستراتاج القيادة العامة للجيش خلال مدة الحملة العسكرية، لذلك تغير المشهد السياسي في أثينا من خلال تغير حكامها³.

كانت الساحة السياسية في أثينا تشهد تنافساً حاداً بين ساسة وقادة عسكريين من بينهم أريستيد بن ليزيماك (Lysimaque) الملقب بالعدل وقد عرف بنزاهته، وكان هذا الضابط الذي يقود قوة أثينية في جزيرة سلامين يطمع في أن يصل إلى الحكم في أثينا على الطريقة التي بدأها

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXXXVIII.

² - Stratège : حاكم منتخب في مدن يونانية وخاصة في أثينا، مكلف بقيادة الجيش البري والأسطول البحري وذلك من خلال التنسيق ومراقبة الميزانية العسكرية والشؤون الخارجية، كما أن له سلطات قضائية تخص الانضباط العسكري ووحدة الدولة، أما في وقت الحرب فهو الذي يدير

العمليات الحربية على الأرض وعلى البحر: <https://www.cnrtl.fr/definition/stratège>

³ - Henri Pigaillem, op.cit, p31.

كليستينيس (Clisthène)، الذي كان معجبا به¹، وقد قال عنه بلوتارخوس: "كان أرستيد بطبيعته سمح الطباع، لم يكن يمارس السياسة من أجل المتعة أو المجد، ولكن من أجل افكار افضل وأوضاع أحسن لمدينته، وكان يمارسها بثقة وانصاف".² ورغم ذلك فقد عليه الأثينيون ونفوه ويحكى أن مواطنا أثينا أميا لا يعرف أرستيد، طلب منه أثناء عملية التصويت على نفيه أن يكتب له اسم ارستيد على قطعة الشقانة الخاصة به فسأله ارستيد مندهشا: "هل ألحق بك ارستيد أذى في شيء؟"، فأجاب: "لا ولكن سئمت من تلقيه بالعادل" فتعجب أرستيد وكتب على الشقانة اسمه طائعا وكان بإمكانه ان يكتب اسم غريمه وهكذا نفي أرستيد عام 483 ق.م.³

كما كان في الصفوف الأولى في المشهد السياسي في أثينا رجل يدعى تيمستوكل (Thémistocles) ابن نيوكلاس (Néoclès)⁴، ويبدو أنه قد وصل إلى منصب الآرخون (Archanat) حوالي 483 ق.م.⁵ يرى بلوتارخوس أنه لم يمكن أثينا خالصا، فوالده كان من منطقة فريار (Phréar) من قبيلة ليونتيد (Léontide)، ولم يكن ذا مكانة مرموقة في أثينا، أما أمه فيرجح أنها كانت أجنبية، إما من تراقيا (Thrace) أو من كاريا (Carie) بآسيا الصغرى⁶.

كان تيمستوكل زعيما مغرورا متباهيا، وقد رُوي عنه أنه قال للناس: "عفوا إنني لا أعرف كيف أعزف أي آلة موسيقية، ولكني أعرف كيف أجعل من مدينة صغيرة مدينة عظيمة"⁷، وفي هذا الاطار قال عنه بلوتارخوس أن شخصيته لم تكن نتاج ثقافة عالية أو ذكاء خارق⁸. وقد أُعْجِبَ به ثوكيديديوس اعجابا خاصا حيث قال فيه: "أثبت تيمسوكل بطريقة مذهشة ما يمكن للطبيعة أن تفعله، وفي هذا الصدد لا أحد يستحق الاعجاب اكثر منه. فبفضل القوة الوحيدة التي يملكها وهي عبقريته التي اكتسبها دون دراسة أو تعلم سابقين أو لاحقين، كان يعالج القضايا

¹ سيد أحمدعلي الناصري، المرجع السابق، ص 241.

² - Plutarque, Vies des Hommes illustres, Vie de Thémistocle, texte traduit par Alexis Pierron, CharpentierEditeur-Libraire, Paris, 1845, III, 3.

³ سيد أحمدعلي الناصري، المرجع السابق، ص 241.

⁴ - Héodote, op.cit, VII, CXLIII.

⁵ - Henri Pigaillem, op.cit, p31

⁶ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, I, 1.

⁷ سيد أحمدعلي الناصري، المرجع السابق، ص 241.

⁸ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, II, 3

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الراهنه بحدس وبعد نظر وبصيرة منقطعة النظر، كان يتوقع الأحداث القادمة بحصافة نادرة، الشئون التي تبدوا له مألوفة يستطيع معالجتها في وقتها، يستطيع أن يستبين من النظرة الاولى الحظوظ الجيدة والسيئة لأي قضية تبدو غامضة، وباختصار كان يستطيع بحدسه الطبيعي، بدون أي مجهود فكري أن يجد حلولاً ممتازة على الفور لأي مشاكل نصادفها.¹ (أنظر الملحق 12 صور) كان هناك تناغم كبير بين قدرات تيمستوكل العقلية وبنيته الجسمية، كان يملك الجرأة والحزم الشديدين والخطاب البسيط الذي وصل إلى الناس بسهولة، كان له مظهر رائعاً وبطولي، وهذا ما شهد به تمثال له كان ينتصب في معبد ديانا اريستوبول (Diane Aristotbule) على زمن بلوتارخوس، كان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً عشية معركة سلامين (Salamine)، وكان في ذلك الزمن في أوج مجده السياسي الذي كان يحلم به منذ صغره. لم يكن يواسي نفسه على ذلك الدور الثانوي الذي أداه في معركة المراثون، وقد اعترف المقربون منه آنذاك أن أكاليل الغار والتشريفات التي حصل عليها ميليتادس كانت تمنعه من النوم، ذلك المجد الذي كان يبحث وسيظل يبحث عليه، وهو ما حصل عليه بعد معركة سلامين.²

كانت سياسة تيمستوكل تهدف إلى أن يصبح لأثينا أسطولا بحريا قويا، وميناء حصينا، لذلك اقنع الأثينيين بخوض حرب سريعة ضد جزيرة إيجينا (Egine) وهي التي كانت منافسا بحريا وتجاريا خطيرا لأثينا، وحين أنهى الاثينيون هذه الحرب دعاهم تيموستوكل الى بناء قوة بحرية لأن أثينا حسب رأيه خُلِقَتْ لتكون أمة بحرية³. لم يكن تيمستوكل يتوقف عن ترديد عبارة: " لنصنع السفن ثلاثية صفوف المجاديف "Trières"، ولقد أدرك أن معركة الماراثون لم تكن إلا الحلقة الأولى في سلسلة من المعارك التي يجب فيها الاستعداد لمواجهة الفرس الذين يهددون اليونان على البر، وكذلك على البحر. عمل على تجهيز المرسى الصغير في فالير (Phalère) بميناء عميق ومحمي

¹ - Thucydides, Histoire de la guerre du Péloponnèse, Trad. par E.A. Bétant, 2ème éd., Librairie De L.

Hachette et Cie, Paris, 1869, Livre, I, CXXXVIII (138), P 63.

² - Henri Pigaillem, op.cit, p 32.

³ سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق ، ص.242؛ Hérodote, op.cit, VII, CXLIV

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

في بيرى (Pirée)،¹ وكانت هذه المشاريع سواء الميناء المحصن أو بناء السفن بحاجة إلى تمويل مالي معتبر. ومن حسن حظ تيمستوكل أنه في سنة 485 ق.م،² تم اكتشاف ثروة من معدن الفضة حَوَّلَهَا الاثينيون الى مناجم بمنطقة لوريوم (Laurium) الجبلية.³ كانت المداخل العامة لتلك المناجم سنويا تصل إلى 100 تالنت (Talents)، وهو الأمر الذي مكن تيمستوكل من تأمين تكاليف الاسطول البحري⁴، وذلك بعد اقناع الاثينيين بهذا المشروع بدل توزيع تلك الثروة على المواطنين في أثينا، وقد يكون السبب الرئيسي وراء نفي منافس تيمستوكل أريستيد هو معارضة هذا الأخير لهذه السياسة البحرية،⁵ غير أنه حين اقترب موعد معركة سلامين سُحِّحَ له بالعودة إلى أثينا من أجل الدفاع عنها ومحاربة الغزاة الفرس.⁶

وبمداخل المناجم استطاع تيميسوكل تجهيز مائة (100) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف، والتي خصصها الاثينيون فقط لحرب كزاركسيس.⁷ وقد تحصل تيميسوكل على هذه المخصصات من مجلس الاكليزيا، وبما أن الاثينيين كانوا يعيشون حالة من الخوف من هجوم الفرس عليهم، فقد سمحوا بإنفاق مائة 100 تالنت أخرى من أجل بناء عدد مساوي من السفن ثلاثية صفوف المجاديف. وعملاً بمبدأ الاحتياط والتحسب للأحداث القادمة استطاع تيميسوكل الزام مواطنيه الاثرياء من الاثينيين بالتنازل عن الاستفادة الشخصية من منتوج المناجم لصالح الخزنة العامة.⁸

وفي الحقيقة لم تكن هذه السياسة جديدة على اليونانيين فهذا هيكتاتوس الميليتي (Hecatée de Milet) يتحدث عن سياسة مماثلة غداة الثورة الأيونية، وكان ذلك في جزيرة تاوسوس (Thaosos)، أين عمل سكانها على تخصيص أرباح مناجمهم الخاصة بالذهب، من أجل بناء أسطول قوي، مع بناء تحصينات في المدينة غير قابلة للاختراق منذ 494 ق.م.⁹ ومع حلول 480

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, pp32-33.

² - Ibid, p33.

³ - Hérodote, loc.cit.

⁴ - Henri Pigaillem, loc.cit.

⁵ - سيد أحمدعلي الناصري، المرجع السابق ، ص242.

⁶ - Henri Pigaillem, loc.cit ; ص243؛ المرجع السابق ، ص243.

⁷ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, IV, 3.

⁸ - Henri Pigaillem, loc.cit.

⁹ - Peter Green, op.ci, p131.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

ق.م تم في أثينا صنع أكثر من مائتي (200) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف إضافية، كما تم تجنيد من أجل ذلك مواطنين كمجدين من جميع طبقات المجتمع الاثيني مثل الأجراء، عمال الفلاحة وكذلك المواطنين من الدرجات الدنيا في أثينا.¹

وتجدر الإشارة إلى أنه وعلى الرغم من هذه الظروف، وعلى الرغم من الحماسة والاستعداد للتضحية التي أبدتها تيميستوكل، إلا أن وضعه السياسي لا يزال هشاً فهو لا يزال يواجه معارضة من منافسيه، إلى درجة أنه لم يكن واثقاً من انتخابه في انتخابات 479/480 ق.م، فالانتخابات كانت تجري في شهر فيفري، إلا أن الحاكم لا يمارس مهامه قبل شهر جوان، ويبدو أن تيميستوكل كان يواجه منافساً قوياً هو إبيكيداس (Epikydès) بن إيفيميد (Euphémide)، الذي كانت حظوظه كبيرة في الفوز على تيميستوكل لكونه يتحلى بدعم قوي من قبيلة ليونتيديس (Léontidès)، إلا أن الطموح والروح الوطنية التي كان يملكها تيميستوكل، وخاصة في هذه الظروف التي طغت عليها الأعمال الحماسية العظيمة، دفعت هذا الأخير شراء انسحاب منافسه بشكل مبكر وتم انتخابه حاكماً (Stratège)²

ومباشرة بعد انتخابه، بدأ تيميستوكل بكل قوة مشروع الدفاعي بمخطط معد مسبقاً، فقام بتسليح السفن الحربية، وعزم على إفراغ أتيكا (Attique) من سكانها ومحاربة الغزاة في مواقع متقدمة في بلاد اليونان.³ كان الاسطول الاثيني الجديد على كفاءة وقدرة عالية، يُنْتَظَرُ منه الدفاع عن الاغريق من التحرش والغزو الفارسي، فهو في الحقيقة الأسطول الأقوى في العام الهيليني، وهو أهم مساهمة للأثينيين في الأسطول اليوناني الموجهة لمقاومة كزاركسيس.⁴

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, p33.

² - Peter Green, op.cit, pp130-131.

³ - Ibid.

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p33

2- مؤتمرا كورينثة الأول 480 ق.م والثاني 481 ق.م

حين شعرت المدن الاغريقية بخطر تحرك الفرس نحوهم اجتمعوا في خليج كورينثة العام 481 ق.م¹، وكان ذلك في نهاية خريف 481 ق.م في معبد الإله بوسيدون (Poseidon) بمضيق كورينثيه (L'Ishtme de Corinthe)، وقد جمع المؤتمر واحد وثلاثين (31) مدينة، وافقوا أن يشكلوا رابطة للدفاع عن اليونان ضد البرابرة².

ويبدو أنه خلال هذا المؤتمر بذل اليونانيون المتحمسون لمواجهة الفرس مجهودا واضحا من أجل المصالحة والاتفاق بين المدن الاغريقية بشكل عام³، لأنه في ذلك الوقت كانت الحرب مندلعة بين الكثير من المدن الاغريقية، ولكن الحرب بين أثينا وإيجينا كانت الاشرس. وقد علم المجتمعون بعد ذلك أن كزاركسيس أصبح في سارديس (Sardès)، لذلك اتفقوا على إرسال جواسيس إلى آسيا لجلب معلومات عن مشاريعه ونواياه، كما اتفقوا كذلك على إرسال موفدين إلى كل من أرجوس (Argos) للتشاور ومحاولة التحالف مع الارجوسيين (Argiens) في حربهم ضد الفرس، ثم إلى صقلية وتحديدًا إلى جيلون (Gélon) ابن ديوميناس (Diomenes) حاكم سيراكوز (Syracuse)، وموفدين آخرين إلى كوركيرا (Corcyre) تحت الكوركييريين (Corcyréens) على تقديم المدد لليونان. كما تم إرسال موفدين آخرين إلى جزيرة كريت (Crête)، وكان الغرض من ذلك هو تجميع الجسد الهيليني إن امكن ذلك، ودفع الخطر عن بلاد اليونان بهذا الاتحاد، لأن الجميع صار مهددا بهذا الغزو⁴.

ويبدو أن المشاركين في المؤتمر قد عزموا على إعادة الالتقاء مرة أخرى بعد مشاوراتهم هذه، وذلك في بداية ربيع السنة القادمة 480 ق.م، وذلك من أجل الاطلاع على تقارير الجواسيس الذين أرسلوا إلى آسيا، وكذلك للبت في القضايا الاستراتيجية، والسياسة الخاصة بالحرب القادمة ضد الفرس، والواضح أن الاغريق استطاعوا حسب المؤرخ برانت Brunt لأول وآخر مرة في

¹ - سيد أحمدعلي الناصري، المرجع السابق، ص 243

² - Henri Pigaillem, op.cit, p39.

³ - M.C. Amouretti, F.Ruzé avec la collaboration de Ph.Jockey, Le Monde Grec antique, Hachette Supérieur, 6ème édition, Vanves, Paris, 2018, p 43.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CXLV.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

تاريخهم من خلال الوعي القومي الموحد، واللغة والدين والعادات، التوحد في عمل سياسي مشترك كان الدافع من ورائه الخطر المحدق بالجميع¹.

ويمكن القول أن الاجتماع الأول لممثلي المدن اليونانية كان هدفه تقييم امكانية المواجهة مع الفرس ومحاولة وضع الخطط الأولية لذلك، غير أن غموض الوضعية خاصة فيما يتعلق بإمكانيات الاغريق الحربية، وكذا امكانيات الفرس جعل من قرارات هذا الاجتماع تكون مبدئية، وعموما تم الاتفاق خلال هذا الاجتماع الاول في مضيق كورينثا أن أي قوة دفاعية ضد الفرس ستكون مرتبطة بشكل أساسي بالقوات البرية البيلوبونيسية، أي بالاسبرطيين وحلفائهم وتكون مدعومة بالأسطول الحربي الاثيني الجديد، وليس هنالك امكانية لأية تركيبة أخرى في هذا الاتجاه على الصعيدين السياسي والاستراتيجي².

ولكي تتم عملية التصدي للفرس بشكل مثالي كما أشار تيميستوكل، فإن ملك الفرس وجيشه يجب أن يتم توقيفهم في أقصى نقطة ممكنة في شمال اليونان، ولكن لكي تنجح هذه الاستراتيجية وتكون ذات فعالية عالية لا بد من انضواء الاغريق في جبهة موحدة، أما غياب هذه الجبهة فستكلف بلاد الهيلينيين ثمنا باهضا في المراحل الاولى للحرب، وفي هذا الصدد تساءل المجتمعون إلى أي حد يمكن الوثوق في وجود دولة حليفة في الشمال خاصة في هذا الوضع الدقيق؟ لم تكن الاجابة مؤكدة، فالبعض طرح امكانية التحالف مع الشماليين الذين كان أعيانهم واصحاب النفوذ فيهم الألوادس (Les Aleuades) من لاريسا (De Larissa) يميلون إلى معاداة الفرس³.

هؤلاء الشماليون الذين قال عنهم هيرودوت أنهم انحازوا مضطرين وهم آسفون على ذلك إلى جانب الفرس لكون منطقتهم كانت تقع في بداية طريق جيش كزاركسيس، ولكي تنجوا من سطوة جيشه كان على اليونانيين ارسال قوات ضخمة لإيقاف جيش الفرس، وهو الأمر الذي طلبه ممثلو الشماليين في هذا المؤتمر، وقد حاول الاغريق تنفيذ هذا الأمر غير أن رسل الكسندر

¹ - Peter Green, op.cit, p122.

² - Ibid, p119.

³ - Ibid.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

(Alexandre) بن أمينتاس (Amyntas) نصحوهم بالانسحاب لكي لا تسحقهم قوات كزاركسيس الكثيرة العدد¹. وبذلك كانت النتيجة أن شعر الشماليون أن الاغريق قد تحلوا عنهم لذلك أخذوا جانب جيش الفرس، ولم يكتفوا بذلك بل قدموا له خدمات مهمة.²

أما بالنسبة للمقدونيين فقد قدموا الأرض والماء منذ زمن إلى الملك داريوس وهنا لم يبق من مدن دول وسط اليونان الكبرى سوى طيبة (Thèbes)، وفي وضع هذه المدينة والمدن المجاورة لها من وسط اليونان لا نعلم تحديدا إن كانت قد أرسلت ممثلين عنهم الى مؤتمر كورنيث، ولكن حتى لو فعلوا ذلك فإنه لا توجد استراتيجية تعتمد عليهم وعلى عزمهم ووفائهم تحدثت عنها المصادر القديمة يمكن أن تلقى طريق النجاح. ومن المهم في هذا الصدد الحديث عن حياد مدينة أرجوس (Argos)، وهي المدينة الوحيدة التي لم تؤكد مشاركتها في اجتماع مضيق كورنيث.³

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدينة البيلوبونيزية كانت على عداوة وتنافس شديد مع الاسبرطيين، هؤلاء الذين قتل قائدهم كليومان (Cléomène) بن أناكساندريد (Anaxendrides) في زمن ليس بالبعيد ستة آلاف رجل (6000) من الارجوسيين، ليدخل الطرفان في هدنة بعد ذلك تدوم ثلاثين (30) سنة.⁴

كان التركيز وبشكل غير قابل للاجتنب في هذا الاجتماع على أسبرطة وحلفائها وذلك لكونها تحظى بأغلبية أصوات الاعضاء في المؤتمر، وقد طُرح خلال هذا المؤتمر اقتراح منطقي ومقبول إلى حد كبير تقود بمقتضاه أثينا الأسطول الحربي للمدن المتحالفة، وقد طرح دون شك من طرف ممثل أثينا، غير أن هذا الاقتراح لقي معارضة شديدة، فكل المؤتمرين الآخرين أو بالأحرى ممثلوا المدن البيلوبونيزية قالوا وبجراً أنهم يفضلون مقاطعة الدفاع عن بلاد اليونان على أن يقودهم أثيني، وفي المقابل تنازل الاثينيون عن حقهم في القيادة ومن ثم عن كرامتهم وبعضاً من كبريائهم في سبيل أمتهم، وهذه تضحية تحسب لهم في الحقيقة وتحديداً لقائدهم "تيمستيوكل"⁵.

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CLXXII, (172)- CLXXIII 173.

² - Ibid, VII, CLXXIV (174)

³ - Peter Green, loc.cit.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CXLVIII (148).

⁵ - Peter Green, op.cit, pp 119-120.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

وقد أكد بلوتارخوس في الواقع العمل الكبير الذي قام به تيميستوكل ووصفه بالرجل الرائع، فقد قام بوضع نهاية إلى الخلافات والحروب بين الاغريق، وبمصالحة مختلف المدن ببعضها البعض وأقنعهم بوضع خلافاتهم جانبا على الأقل من أجل الحرب ضد الفرس، ولذلك يقول بلوتارخوس حارب معه الاركادي شايليوس (Cheiléos) بكل قو، الى جانبه¹.

كان هذا العمل من قبل تيميستوكل ذا أهمية بالغة، وقد اعترف له بذلك ممثلوا المدن الاغريقية وكان نتيجة لذلك أول اجراء تم اعتماده بالاجماع، وهو الدعوة إلى تعليق كل أنواع الصراعات بين المدن الاعضاء في المؤتمر، ورغم تفاؤل المدن الاغريقية إلا أنهم كانوا واقعيين في تفكيرهم وتوقعهم، وذلك من خلال ادراكهم أن المشكل الأساسي الذي يواجههم هو موقف تلك المدن التي لم ترسل ممثليها، وذلك لأن حيادها قد يقلب الوضع رأسا على عقب في أي مرحلة من مراحل الحرب، لذلك تم ارسال سفراء إلى أرجوس، كريت، وكوركيلا من أجل دفعها إلى الالتحاق بالحرب الجماعية من أجل الحرية. كما تم في نفس الوقت اقتراح مشروع تم المصادقة عليه، مفاده أنه بعد انتهاء الحرب، فإن كل مدينة دولة انحازت لجانب الفرس تسلط عليها ضريبة من طرف المنتصرين، على أن تخصص الأموال المحصلة من هذه العملية إلى معبد أبولون (Apolon) في دلفي (Delphes)².

ويبدو أن وضعية القائد للقوات المتحالفة كانت بصفة خاصة نقطة غاية في الدقة، كما يبدو أنها لم تحسم بشكل واضح،³ وأمام تعنت الاسبرطيين حول هذا الموضوع، كان من الواضح أن تيميستوكل متسامحا في التنازل عن القيادة لصالحهم، لأنه كان يدرك أي خطر يحق ببلاد اليونان إن اختلفت اعضاء الحلف حول أي موضوع، أما بالنسبة للأثينيين الذين كانوا يعارضون التنازل عن القيادة فقد وعدهم تيميستوكل أنهم ان قاتلوا بشجاعة في الحرب فإن الاغريق جميعا سيطيعونهم بشكل طوعي⁴.

¹ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, V (5).

² - Peter Green, op.cit, p120.

³ - Ibid, p121

⁴ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, VII (7).

وبخصوص خطة الحرب فكان من غير المعقول والممكن ضبطها قبل أن تتوضح الوضعية أكثر، ففي خريف 481 ق.م، وهو الوقت الذي اجتمع فيه المؤتمرون لم يكن أحد لديه فكرة واضحة عن الامكانيات القتالية والمادية للمدن المتحالفة ولا قوات الفرس، ولذلك كان من المستعجل الحصول على المعلومات الكافية حول هذا الأمر من خلال ارسال جواسيس إلى سارديس، وفي نفس الوقت تم ارسال طلب النجدة ليس فقط للمدن المحايدة في بلاد اليونان، ولكن أيضا في تطور مهم، الى الطاغية الثري المشهور جيلون طاغية سيراكوز.¹

هذه المدينة التي نمت بشكل واضح وتحولت إلى مدينة مزدهرة في صقلية في وقت قصير.² وعلى أمل أن تتم هذه المهام الدبلوماسية خلال فصل الشتاء، وهو فصل لا يصلح للحرب في العصور القديمة، افترق المجتمعون وانتهى عمل المؤتمرون بالسنة لهذه الدورة، على أن يعيدوا الاجتماع مرة أخرى في مضيق كورنيث في بداية الربيع المقبل.³ لم تنجح مهمة الجواسيس الذين تم ارسالهم إلى سارديس، أين كانت تتجمع فرق كزاركسيس العسكرية لقضاء فصل الشتاء هناك، وذلك لأن أمرهم كشف من طرف الفرس ورغم ذلك، أمر كزاركسيس بإطلاق سراحهم، ومن المؤكد أن ذلك كان بغرض نقل معلومات صحيحة عن عظم الجيش الفارسي وهو ما سيعمل على اضعاف الروح المعنوية لأعدائه والتثبيط من عزيمتهم.⁴

كانت تلك هي الظروف السائدة في بلاد اليونان حين أعاد ممثلوا المدن اليونانية الاجتماع مرة أخرى في مضيق كورثينة، من اجل الاستماع إلى تقارير من أرسلوهم إلى المدن اليونانية، وكذا الجواسيس الذين اتجهوا نحو آسيا الصغرى، وكذلك من اجل اعتماد سياسة دفاعية مشتركة. ويبدو أنه خلال هذا الشتاء الذي مر والذي قام فيه اليونانيون بنشاط دبلوماسي مكثف، لم ينتج عنه فوائد ملموسة لصالح الاغريق،⁵ فكوركيرا أثرت أن تقوم بدور الجيش الاحتياطي للقوات الاغريقية، وكأنها أرادت أن تراقب الوضع من بعيد لكي تحدد بعد ذلك موقفها النهائي، وفي هذا الصدد قال

¹ - Peter Green, op.cit, pp121-122.

² - Hérodote, op.cit, VII, CLVI (156).

³ - Peter Green, op.cit, p122

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p40.

⁵ - Peter Green, op.cit, p131.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

هيرودوت عند الكوركيين أنهم أجابوا الاغريق بطريقة، وتصرفوا بطريقة أخرى فهم لم يرفضوا مساعدة الاغريق، ولكنهم أرسلوا ستين (60) سفينة دون أن يضعوها تحت تصرف الاثينيين أو الاسبرطيين بل أبقوها على شواطئ لاكونيا تراقب وتتصرف بعد ذلك حسب الاحداث.¹

وفي حقيقة الأمر لم تكن كوركيرا شديدة التحمس لحرب لا ترى من ورائها أي فائدة لها، خاصة وهي تشعر بثرائها وازدهارها، ولا تبحث في النهاية إلا عن الهدوء والاستقرار خاصة وهي تجد نفسها بعيدة ومعزولة عن الطريق الذي سيسلكه الفرس خلال غزوهم المحتمل.² أما الكريتيون فقد رفضوا بشكل قطعي التورط في هذه الحرب وتحججوا برد معبد دلفي،³ بعد استشارته، والذي مفاده أن الكريتيين غير ملزمين بمساعدة الاغريق.⁴ أما الأرجوسيين فادعوا أنهم سيخالفون نبوءة معبد دلفي ورأيه الذي يمنعهم من مساعدة الاغريق، غير أنهم اشترطوا أن يقتسموا القيادة مع الاسبرطيين، اعدائهم التاريخيين في الحرب ضد الفرس وهم يعلمون يقينا أن الاسبرطيين لن يقبلوا بهذا الشرط.⁵

وبذلك يمكن القول أنهم قرروا انتظار ما ستسفر عنه الاحداث، لكي يحددوا موقفهم النهائي من الحرب ولكن الحياد في جميع الأحوال افضل من التعاون مع الفرس، الذين يملكون أصلا جيشا عظيما يفوق بأضعاف ما استطاع الاغريق تجميعه من قوات.⁶ أما الطاغية جيلون حاكم سراكوز (Syracuse) فلم يكن مهتما بالانخراط في الشؤون الأثينية، فالحرب التي كان يخوضها ضد القرطاجيين كانت تشغله بما يكفي، ومع ذلك اشترط على الاغريق كي ينخرط في حربهم، القيادة العليا للجيش الهيليني، لكي يرمي بكل ثقله في حرب الفرس، ومن هنا لم يعد من الصعب فهم ما كان يمكن أن يكون جيلون قد فكر فيه من استغلال قيادته بعد ذلك في توجيه الفرق الاغريقية نحو مواجهة قرطاج، ولذلك رفض الاغريق عرضه لهم.⁷

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CLXVIII (168)

² - Henri Pigaillem, op.cit, p40

³ - Peter Green, op.cit, p132

⁴ - Hérodote, VII, CLXIX (169)

⁵ - Ibid, VII, CXLVIII, (148) CXLIX (149).

⁶ - Peter Green, op.cit, p131.

⁷ - Henri Pigaillem, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

وتجدر الإشارة إلى أن القوات التي يحوز عليها جيلون كانت معتبرة في سراكوز، وإن صدف مع رسل الاغريق إليه خلال شتاء 481-480 ق.م فإنه كان قادرا على تحريك (200) مائتي سفينة ثلاثية صفوف المجاديف، وعشرين ألفا من المشاة الاوبليت (Hoplites) (أنظر الملحق 6 صور)، وألفين من الخيالة (2000) الثقال، ألفين من الرماة (Archers) رماة السهام وألفين (2000) من رماة المقاليع (frondeurs)، هذا بالإضافة إلى (2000) ألفين من الخيالة خفاف التسليح، وإذا كانت هذه الأرقام صحيحة فإن تدخل الاسطول السراكوزي في شمال اليونان سيكون عنصرا حاسما للحرب، غير أن جيلون بهذا الثقل صار يمثل بالنسبة للإغريق حليفا مرغوبا فيه، وفي نفس الوقت عدوا خطيرا يخشى منه¹.

حين بدأت المناقشات بين أعضاء الرابطة من أجل ضبط الخطة وتحديد الطريقة التي سيحاربون بها، أي مكان يصلح لبداية المواجهة، كانت الصعوبة التي تواجههم هو تحديد الخط الدفاعي الذي سيحاولون فيه إيقاف زحف الجيش الفارسي أو حتى إبطاء حركته، وكذا رسم استراتيجيته واضحة بالنسبة لكل مدينة تضمن من خلالها وضعها الأمني، خاصة وأن كل واحدة منهن تريد حماية مناطق نفوذها من الغزاة، كل ذلك كان مرتبطا بمحاولة صمود التحالف بين المدن، لذلك كان يتوجب عليهم الخروج برؤية يتفق حولها الجميع².

وقد وافق المجتمعون بأغلبية الاصوات اعتراض جيش الفرس عند ممر ترموبيل (Thermopyles)، لأنه كان يبدو الممر الأضيق مقارنة بالممرات الأخرى في مقدونيا وتساليا، كما أنه كان الأقرب إلى بلاد اليونان، أما بالنسبة للأسطول البحري فكان الرأي بإرساله إلى أرتيمسيوم (Artimisium) على شواطئ هيستاوتيد (Histiaeotide) فالموقعان ترموبيل وأرتيمسيوم كانا متجاوين مما يسمح بسهولة التواصل بين الجيشين³.

تم الاتفاق على أن يكون الملك الاسبرطي ليونيداس (Léonidas) ابن أناكسنديريد (Anaxandride) قائدا للجيش البري، وقد أظهر تيمستوكل روحا عالية للوئام والاتحاد من خلال

¹ - Peter Green, op.cit, p133.

² - Marie-Françoise Beslez, op.cit, p 97.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CXXV (125).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

موافقته على اسناد القيادة العليا للأسطول الاغريقي إلى أوريبيا (Eurybiade) وهو اسبرطي تم ذلك على الرغم من أن العدد الأكبر من قطع الاسطول الحربي الاغريقي كان أثينا وأن أوريبيا لم يكن على دراية بشؤون الحرب البحرية لكونه كان محاربا من المشاة (Hoplites).¹ وبخصوص موقعي تيرموويل وأرتيمسيوم، يمكن القول أن رأي تيمستوكل قد حظى بالقبول والاقرار من طرف المؤتمر، وهو الذي كان يسعى الى اعتراض الفرس في أبعد نقطة يمكن الاتفاق عليها في شمال اليونان،² مقابل رأي البيلوبونيزيين الذين كانوا في الحقيقة معنيين فقط بحماية والدفاع عن مضيق كورينثه وما كان جنوبه من شبه الجزيرة البيلوبونيزية.³

3- حشد القوات ووضع الخطط النهائية لمواجهة الفرس

استطاع الاغريق في الأشهر الأولى من سنة 480 ق.م، بعد استنفار جميع طبقات الشعوب في اليونان من الشباب إلى الشيوخ وكبار السن، تم تجميع جيش تجاوز الخمس والسبعين ألف (75000) رجل، خمس وثلاثين ألفا منهم كانوا من المشاة المدربين الإغريق الذي يطلق عليهم اسم الأوبليت (Hoplites)، وأما الباقون فكانوا من المساعدين والخدم والعبيد. كان الفرق العددي بين الاغريق والفرس كبيرا جدا، وكان ذلك حتى على مستوى افراد الاسطول البحري.⁴

وإذا كان الأسطول البحري الاغريقي الذي توجه نحو أرتيمسيوم في شهر جويلية من سنة 480 ق.م، كان يحوي 271 مركبا حربية،⁵ فإن العدد الاجمالي للمراكب الذي استطاع الاغريق تجميعه -وهو ما لم يجتمع لديهم من قبل- وصل إلى 380 سفينة حربية ثلاثية طوابق المجاديف (Trières)، وكذا السفن الصغيرة ذات الخمسين مجدافا (Pentécontères)، هذا العدد الذي كان ثلثاه من السفن الأثينية أما الجزء الآخر فقد جمعه الإغريق من البيلوبونيز، ميغارا (Mégare)، أمباركيا (Ambarcie) لوكاد (Leucade)، إيجينا (Egine)، خالكيس (Chalcis)، إيريتيري (Erétrie)، كيوس (Céos)، ناكسوس (Naxos)، ستيروس (Styros)،

¹ - Henri Pigaillem, loc.cit.

² - Peter Green, op.cit, p164

³ - Marie-Francaise Baslez, op.cit, p97.

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p40

⁵ - Peter Green, op.cit, p165.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

سيتنوس (Cythnos)، كروتون (Crotone)، أما سيرفو (Serpho)، سيفانت (Siphante) وميلو (Milo) فلم يرسلوا سوى قوارب صغيرة (Chaloupes) وأخرى للنقل، أما بالنسبة لعدد المجدفين في هذا الأسطول فلم يتجاوز الألفين والخمسمائة (2500) مجدف فقط¹.

وفما يتعلق تجنيد المقاتلين في بلاد اليونان، فالمواطن اليوناني عليه واجب الخدمة العسكرية والدفاع عن مدينته وقت الحرب، ولا يستثنى من هذا الالتزام سوى الأجانب والعبيد، ورغم ذلك يمكن الاستعانة بهؤلاء في وحدات متميزة، غير أن الجدير بالذكر هو أن المواطنين الإغريق لم تكن لهم التزامات عسكرية متساوية، وذلك تبعاً لثروة ومكان كل مواطن². كان المواطنون الذين يشكلون الجيش على وعي منذ سن الشباب بواجباتهم العسكرية، فكانوا يحترمون القانون ومنخرطين في نظام لا مثيل له، أما طاعتهم ورضوخهم لقادتهم فكان أمراً مطلقاً. كان القسم الذي يلتزم به الشباب في الوقت الذي يحمل فيه السلاح يوحى بشكل كبير إلى عظم المؤسسة العسكرية في أثينا³.

في هذه المدينة كان يتم استدعاء المواطنين البالغين من العمر بين (20) عشرين و وتسع وأربعين (49) سنة، أما قبل سن العشرين فيخضع الشباب لفترة التكوين المدني والعسكري⁴، وفي هذا العمر لم يعد المواطن يمتلك قراره بيده، ولكن صار رهناً لمتطلبات الوطن بأكمله فقد صار جندياً مدى الحياة، وفي أوقات السلم يمارس المواطن في مراكز البالستر (Palester) والجيميناس (Gymnases) التمارين الجسدية بالموازاة مع أنشطة فكرية⁵.

أما بالنسبة للمواطنين البالغين من العمر 50 و 59 عاماً، فيمكن الاعتماد عليهم في حراسة التحصينات في وقت الحرب، غير أن المواطنين الأثنيين كما سبق ذكر ذلك يتم تكليفهم بالمهام العسكرية حسب مواردهم المادية، لأن عملية التسليح والتجهيز بالأدوات الحربية تكون على عاتق المواطن، ففي سلاح الخيالة مثلاً يكلف أولئك الذين يستطيعون اقتناء حصان أي الفئة التي

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, pp40-41.

² - Raoul Lonis, la cite dans le monde grec, 2ème éd. Armand Colin, Paris, 2016, p38.

³ - Henri Pigaillem, op.cit p78.

⁴ - Raoul Lonis, op.cit, p32.

⁵ - Henri Pigaillem, op.cit, p38.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

كانت تسمى في أثينا البونتاكوسيوميدمن (Pentocosiomedimnes)¹ أو الهيبايس (Hippeis). أما بالنسبة للمشاة الثقيل فهو أمر منوطٌ بالفئتين ذوات المرتبة الأولى والثانية في المجتمع الأثيني، الذين لم يختاروا تجهيز الخيالة أو الفئة الثالثة الزوجيت (Zeugites) وهم القادرون على تجهيز وتسليح جندي من الأوبليت بكامل عتاده.²

كان الجندي من المشاة الأوبليت رمزاً من رموز الجيش الإغريقي خلال الحروب الميدية، كان محمياً من جهة الرأس والخنجرة بخوذة برونزية غالباً ما تعلوها قطعة من الجلد، و كان يرتدي سترة من الكتان، محمية بدرع من الجلد المدعم بالقواطع أو الأزرار (Renforcée d'écailles) المعدنية، كما كان هذا الجندي مزوداً بزوج واقيات الركب (Cnémides-Jambières) (أنظر الملحق 7-9-10 صور) مصنوعة من البرونز مما يجعل ركبته في أمان من ضربات اسلحة الإعداء³. درعه يطلق عليه أوبلون (Hoplite) وهو ما منح الجندي اسم أوبليت (hoplite)، وقد يصل وزن الأبلون إلى غاية ثمانية (8) كغ، وهو يحوي دعامة من الخشب بها واجهه خارجية مع طبقة داخلية من الجلد، وقد يكون الأوبليت وإمعاناً في الحماية مزوداً بستار سميك من الجلد، يقي من خلاله ركبته⁴.

أما الأوبيت الخفاف أو المشاة الخفاف أو جنود البحرية فهو صنف منوطٌ بالمواطنين من الطبقة الأخيرة وهم فئة الإجراء أو ما تسمى قديماً التات (Thètes)،⁵ كان جنود البحرية أو الذين يقاتلون على السفن يماثلون الذين يحاربون على الأرض الأوبليت، وهذه الفئة سواء كانت في البر أو البحر وصفت بقوتها القتالية الفائقة خاصة في السهول المنبسطة التي تسمح بالحرب رجال رجالاً لرجل، وكذلك في البحر حين تشتبك السفن الحربية مع سفن الأعداء، فلا يوجد في

¹ - البونتاكوسيوميدمن هي الفئة المكلفة في أثينا برعاية جياد الحرب والإنفاق عليها، وكانت النخبة من الفرسان تنتقي من هذه الفئة وكما يدل على ذلك اسمهم فهم أولئك الذين يستطيعون زراعة وإنتاج خمس مائة (500) معيار من الحبوب. انظر:

Le 06/03/2020 à 10:28 <https://www.larousse.fr/archives/grande-encyclopie/page/12803>

² - Raoul Lonis, op.cit, p32.

³ - Henri Pigaillem, op.cit, pp 37-38.

⁴ - Ibid, p38.

⁵ - Raoul Lonis, op.cit , p32

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الحقيقة جيش برى وجيش بحري، غير أن الإغريقي كان قبل كل شيء جزء من شعب بحري فالبحر يشكل بالنسبة له المجال الذي يتحرك فيه بكل سهولة¹.

والجدير بالذكر هنا أنه إذا كان الدفاع عن المدينة هو واجب جميع المواطنين فإن هذا الواجب لم يكن يمارسه جميع المواطنين بصفة متساوية، ولا يتحملون في ذلك نفس الأعباء ولا نفس الأخطار، ويبقى السلاح الأكثر نبلاً من بين مكونات الجيش الإغريقي هو سلاح المشاة أو الأوبليت، وكان ذلك على طول الفترة القديمة، وجزء كبير من الفترة الكلاسيكية². كان سلاح الأوبليت الأساسي هو الحرب التي يتراوح طولها من مترين إلى ثلاثة أمتار، وبها من جهة، رأس ثقيل و من الجهة الأخرى رأس آخر يحدث التوازن في الحرب، يستعمله الأوبليت في حالة انكسار الرأس الأول، السيف والقوس والرمح أسلحة يستعملها الأوبليت في الحرب البرية، أما على ظهر السفينة الحربية فيستعمل الأوبليت أسلحة أخرى تخص الحرب البحرية³.

كان الفشل الذي حدث على مستوى طلب المدد ومهام السفارات الدبلوماسية قد وُلد نوعاً من الجو المشحون داخل مؤتمر الرابطة الهيلينية، بالنسبة لثيمستوكل وكل الذين يشاطرونه آراءه ومواقفه فإن النتيجة الأكثر سوءاً هي أن هذا الفشل سيدعم بقوة رأي العسكريين الراضين بقوة للحرب البحرية، فالآن يمكنهم التقدم مع نوع من الأحقية في الطرح وهو أنه إذا كان هناك جيش إغريقي قد يحالفه الحظ في توقيف تقدم كراكسيس، في مضائق الجبال، فإن اسطول القوات المتحالفة في هذه الحالة القليلة العدد بشكل كبير لا يستطيع تجنب الخسارة في مواجهة مفتوحة مع الأعداء⁴.

كان على ثيمستوكل الذي اقنع الأثينين فيما سبق بضرورة خوض حرب البحرية ضد الفرس منتصباً على رأي معبري نبوءات دلفي، الذين أرادوا من الإثنين تجنب الحرب البحرية بل والاستسلام إلى الأعداء⁵، كان عليه في مؤتمر كورينثا، وهو لا يملك الدعم الكافي لرؤيته المؤيدة

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, p37.

² - Raoul Lonis, op.cit, op.cit, op.cit, p32.

³ - Henri Pigaillem, op.cit, p38.

⁴ - Peter Green, op.cit, p135.

⁵ - Hérodote, op.cit ,VII, CXLIII (143).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

للاستراتيجية البحرية لكونه لا يملك القدرة على معارضة أنصار الحرب البرية في المؤتمر، كان أقصى ما يمكنه فعله هو أن يكون خط الدفاع البري ضد جيش الفرس في أعلى نقطة ممكنة من بلاد اليونان الشمالية، وليس كما يريد الكثير من الأسبرطيين، دون شك، أن يكون خط الدفاع حول المضيق نفسه، مضيق كورينثة¹.

ويبدو أنه كتحرك أول بالنسبة للإغريق وحسب هيروdotot نقلًا عن التساليين، البحر جش إغريقي بري عبر البحر نحو تسالتا وذلك لمراقبته أعلى مضيق في الشمال، وحين وصلوا إلى منطقة ألس (Alos) بأخيا (Achaie) وبها تركوا مراكبهم وساروا برا للوصول إلى تساليا ليصلوا إلى مضيق تومبي (Tempée)، وهو الذي يقود إلى مقدونيا الدنيا بالقرب من بيني (Pénée) بين جبل الأولمب (Olympe) وجبل أوسا (Ossa)².

وفي هذا الصدد يرجح بيتر غرين (Peter Green) أن مجموعة من المقاومين المتحمسين الذين حضروا مؤتمر كورينثا، قد بالغوا نوعا ما في حماسهم ونقلوا صورة عن تهيؤ التسالين واستعدادهم لمقاومة الفرس، ولذلك طلبوا من الإغريق المتحالفين الإسراع في إرسال قوة قادرة على التدخل ضد الفرس من أجل اخذ مضيق تومبي، وإلا فإنهم سينحازون إلى جانب الفرس لأن بلادهم في وضع مكشوف³. كان عدد الجنود الإغريق الذين اخذوا مواقعهم في مضيق تومبي قد قُدِّرَ بألف (1000) رجل مجهزين بسلاح ثقيل، كما التحقت بهم مجموعة من الفرسان التساليين، كان على رأس الجنود الإغريق قائد اسبرطي مغمور يدعى إيفينيتوس (Evénétus) أو (Evainetos)، كما كان تيممستوكل مع هذه المجموعة بقود يقود الاثنين فيها⁴.

بلوتارخوس (Plutarque) البيوتي (Béotien) كان يعلم وبشكل واضح أن بلاده كانت معروفة بميلها وتبعيتها للفرس (Médisme)، كان قد ادعى أن مدينة طيبة (Thèbes)، الواقعة في إقليم بيوتيا قد ارسلت فرقة من خمس مائة (500) رجل في هذه البعثة، فإن كان ذلك صحيحا بحسب بيتر غرين (Peter Green)، فهم قادمون بالتأكيد من صفوف المعارضين السياسيين

¹ - Peter Green, op.cit, p135.

² - Hérodote, op.cit, VII, CLXXIII (173).

³ - Peter Green, op.cit, p136.

⁴ - Hérodote, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

للحكومة هناك، ويبدو أن هؤلاء المشاة الإغريق قد وصلوا إلى مضيق تومي ورابطوا به وكان ذلك قبل بداية شهر ماي من سنة 480 ق.م، وكان ذلك قبل أن يبدأ جيش كزاركسيس العبور إلى البلاد الأوروبية عبر الدردنيل¹.

لم يبق الإغريق في هذا المضيق أكثر من عدد قليل من الأيام، وحين وصلهم مبعوثين عن ألكسندر (Alexandre) ابن أمينتاس (Amyntas) ملك مقدونيا، ينصحونهم بالانسحاب من هذا المكان لكي لا يسحقهم الجيش الفارسي الذي أخبروهم عن قوته وعدده الكبير سواءً في البر أو البحر، حينها نزل الإغريق عند هذه النصيحة لأنهم أدركوا بُعْدَ نظر ملك مقدونيا وحسن تقديره للأمر²، كما أن كلاً من تيميستوكل وإيفايينتوس حين قاما بعمليات سريعة تتعلق بالتعرف على المكان، ومحاولة الحصول على معلومات تجسسية ليعرفوا من خلال المعاناة مدى حظوظهم الحقيقية في التموقع والتخندق بهذا المكان، لم يكن ما توفر لديهم من المعلومات مشجعاً لبقائهم³.

ويضيف هيرودوت إلى كل هذا أن الإغريق علموا أنه من أجل الولوج إلى تساليا توجد مداخل أخرى بالنسبة للفرس في أعالي مقدونيا بالقرب من مدينة غونوس (Gonnos) وهي التي تعرف في ببلاد البيرهابس (Perrhabes). وهي فعلاً المنطقة التي دخل منها الفرس⁴، وبما أن الوضعية الطبيعية لهذا المضيق لم تعد في صالح الإغريق، كما أن السكان المحليين في هذه المنطقة كانوا فيما سبق من المتعاونين مع الفرس وهي منطقة تعج في الحقيقة بالجواسيس الذين زرعوهم في كل مكان من شمال اليونان، كل ذلك كان يدفع نحو التخلي عن البقاء في مضيق تومي (Tempée)⁵.

لذلك عاد الإغريق إلى مراكبهم وأبحروا للعودة إلى المضيق كورينثة⁶، و ليقرروا بغالبية الأصوات التوجه نحو معبر تيرموپيل (Thermopyles) الذي يسمح بالدخول من مقدونيا إلى تساليا، وهو في نفس الوقت الأقرب إلى بلاد اليونان التي يقصدها كزاركسيس⁷.

¹ - Peter Green, op.cit, pp 137-138.

² - Hérodote, loc.cit.

³ - Peter Green, op.cit, p138.

⁴ - Hérodote, loc.cit.

⁵ - Peter Green, loc.cit.

⁶ - Hérodote, loc.cit.

⁷ - Ibid, CLXXV (175).

II- بداية المواجهات الحربية في بلاد اليونان

1- معركة أرتيميسيوم البحرية (Artimisium):

حين غادر كزاركسيس منطقة (Dorisque) نحو بلاد اليونان، أجبر كل الشعوب التي مر بها في طريقه على الانضمام إلى جيشه، لأن جميع هذه المناطق إلى غاية تساليا (Thessalie)، قد أصبحت تابعة لبلاده وتدفع ضريبة الملك منذ غزو ميغابيز (Mégabyse) لها، ثم ماردونيوس من بعده، وقد مر كزاركسيس بالعديد من المناطق والشعوب قبل الساموثيرايس (les Samothraces)، والمدن الإغريقية مثل مارونيا (Maronéa)، ديكيا (Dicée)، وإبديرا (Abdère)،¹ كان انطلاق الجيش وكذلك الأسطول الإغريقي منتصف شهر جوان، وكانت وجهتهم الأولى قناة جبل اتوس (Athos) جنوب أخونتوس (Akanthes) على المنحدر الشرقي لشبه الجزيرة الخاليكيدية (la Peninsule Chalcidique).²

كانت الأرض التي يجتازها كزاركسيس في طريقه إلى تساليا هي أرض تراقيا (Thrace) وقد جَنَدَ فيها الملك فرقا جديدة من سكانها الذين خضعوا له.³ وقد واصل كزاركسيس سيره فيها إلى أن وصل نهر الستيمون ومدينة أيون (Eion) بعد أن مر بالعديد من الشعوب مثل البايثيين (les Paentiens)، الكيكونيين (Les Ciconiens)، البستونيين (le Bistoniens)، السابانييس (Les Sapaiens)، الديرسانيس (les Dersaeens)، الأيدونيين (Les Edoniens)، الساتراس (Les Satres)، وشعوب أخرى.⁴ وفي هذا الشطر الأول من طريق الجيش الفارسي، وبعد مدينة أبديرا (Abdère) استطاع كزاركسيس تقليص من طول جيشه الضخم من خلال تقسيمه إلى ثلاثة صفوف، أي ثلاثة أجزاء متفرقة كل منها تحت سلطة قائدين وكانت هذه الصفوف تتقدم بالموازاة مع الشاطئ، من جهة، وسفوح الهضاب المجاورة من الجهة الأخرى، وذلك لكون الطرق الداخلية لم تكن مؤمنة، وكان الأسطول يتقدم ببطء في عمق المياه الإيجية.⁵

¹ - Hérodote, VII, CVIII-(108-109).

² - Peter Green, op.cit, p139.

³ - Pierre Briant, op.cit, p 545.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CX-CXIII (110-113).

⁵ - Peter Green, op.cit, pp139-140.

حين وصل الجيش ضفاف نهر ستريمون (Strymon) أقام الكهنة الفرس احتفالات دينية قدموا فيها أضحيات من الجياد البيض، التي يستبر بتقديم أحشائها للحصول على انتصارات مفرحة،¹ ويبدو أنه خلال هذا الطريق مر الجيش بعدة أنهار تصب في البحر وهي الأنهار التي جفت مياهها من استهلاك الجنود الفرس بأعداد كبيرة لها.² وحين انتهت الاحتفالات الدينية اجتاز الفرس منطقة تسمى الطرق السبعة (les Neuf voies) باتجاه الجسور التي كانت معدة مسبقا لاجتياز نهر ستريمون.³ بعد اجتياز هذا النهر وصل كزاركيس بجيشه إلى أكانتوس (AKanthos)، وهناك أرسل الأسطول البحري لإنتظاره في منطقة تيرمي (Thermé) التي تقع في الخليج المسمى باسمها خليج تيرمي (Le Golfe thermique)⁴، وفي مدينة أكانتوس أمر كزاركيس بضم سكانها إلى جيشه لكونهم أصدقاء للفرس، وقد كافأهم على صداقتهم بأن ألبسهم على الطريقة الفارسية.⁵

حين انطلق الجيش من أكانتوس افترق الجيش البري عن الأسطول البحري على أساس أن يوعاودا لالتقاء مرة أخرى في منطقة تيرمي القريبة من مدينة سالونيك (Salonique) الحالية باليونان، وقد اجتازت السفن الفارسية قناة أتوس (Athos) بعدد مركبين عن عرض القناة، محاولة بذلك اجتياز الجزيرة الخالكيدية من أقصر طرقها. وصلت طلائع الجيش البري إلى تيرمي حوالي 24 جويلية (Juillet) 480 ق.م، أين أمر الملك بالتوقف لعدة أيام هناك، وكان لذلك التوقف عدة أسباب، أولها انتظار رسله الذين أرسلهم إلى بلاد اليونان، والذين سيحيطونه بمعلومات مفصلة عن المدن الدول اليونانية التي ستتعاون معه، وكذا تلك الراضة لذلك، أما ثاني تلك الاسباب فهو التخطيط لتحركه بحسب المعلومات المحصل عليها.⁶

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXIV (114).

² - Peter Green, op.cit, p140.

³ - Hérodote, loc.cit.

⁴ - Pierre Briant, loc.cit.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - Peter Green, op.cit, pp142, 144.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

ويبدو أن الأسطول الفارسي قد وصل تيرمي قبل الجيش البري، ويتحدث هيرودوت على أنه رسى بالقرب من نهر أكسيوس (Axius)، وهو ما يبين أن الطريق البرية التي سلكها الجيش الفارسي لم تكن سهلة الاجتياز، ويتحدث هيرودوت في هذا الإطار عن مهاجمة الأسود لمؤخرة جيش كزاركيس وخاصةً الجمال التي كانت تحمل المؤن¹. بدأ كزاركيس خلال توقفه من منطقة تيرمي يدرك قوة وصحة كلام عمه أرتبان (Artabane) الذي أبلغه في حوار سابقاً أنه سيواجه عدوين شرسين في بلاد اليونان هما الأرض والبحر، ففي هذه البلاد وشرق سلسلة جبال البندار يوجد جدار وحاجز منيع²، يتكون من جبال تساليا والأولب وأوسا (Ossa) الشاهقة العلو، كما وصفها هيرودوت³.

أما المنافذ التي يمكن للجيش كزاركيس الولوج منها إلى بلاد اليونان فتعد على أصابع اليد الواحدة⁴. ويبدو أن كزاركيس ومن أجل تحديد المنفذ الأنسب لولوج جيشه البري لبلاد اليونان، قام بجولة استطلاعية بنفسه على متن مركب صيداي، ثم استشار من يثق بهم في هذا الشأن، وبعد أن عاين بنفسه مصدر نهر بيني (Penée)⁵ ومضيق تومبي (Tempé) الذي انسحب منه المقاتلون الإغريق، والذي أصبح دون حراسة، إلا أنه كان يتسم بالضيق الشديد، وبعد دراسة عدة اقتراحات أسقط إمكانية العبور عبر مضيق تومبي ولم يبق له سوى إتباع مجرى نهر هالياكمون (Haliakmon)، في مقدونيا ثم يجتاز منحنى فولوستانا (Voloustane) باتجاه الجنوب الشرقي من منطقة ديوم (Dioum) إلى منطقة بيترا (Pétra) فهذان الطريقان يؤديان إلى منطقة واحدة هي أولوسن (Oloossen) أو (Elassona) في جبال بيرهابس (Perrhebes)، ومنه تم اجتياز منحنى أو مضيق ميلونة (Méloune)، من أجل الوصول إلى سهل لاريسا (Larissa) من جهة الشمال الغربي⁶. (أنظر الملحق 17 خرائط)

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXXIV-CXXV (124-125).

² - Peter Green, op.cit, p144.

³ - Hérodote, VII, CXXVIII (128).

⁴ - Peter Green, loc.cit.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

⁶ - Peter Green, op.cit, pp145-146.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الحل الوحيد الآخر هو طريق في طريق سيئة التعبيد جبلية كثيرة التواءات الصخرية تتجه نحو سفوح الأولمب قبل معبر تومبي، وهي توصل إلى مدينة غونوس (Gonnos)، يمكن من خلالها تجنب نهر البيني (Penée)¹. وقد اعتقد هيرودوت أن كزاركسيس قد سلك هذا الطريق²، ومن المحتمل أنه قد أرسل عبره بعض الفرق الخفيفة بغرض حماية جناحه الشمالي، غير أن هذا الطريق تعتبر صعبة بالنسبة لجيش كبير العدد كجيش الفرس به وحدات من الخيالة، وقافلة طويلة من العربات التي تحمل الأمتعة، وإذا ما ألغي خيار تومبي فليس لكزاركسيس غير الطريقين المؤديان إلى وسط اليونان واللدان تم ذكرهما سابقاً.³

كان التوقف الأخير بالنسبة للأسطول الفارسي قبل التوجه نحو أثينا (Athènes) عند مصب نهر بيني (Penée) على المياه الفضية، كما وصفها هيرودوت أين يقع مصبي نهر أنكسيوس (Anxius) وهالكيمون (Halicmon) في مقدونيا، وخلال هذا التوقف كان الفرس ينتظرون الجيش الثالث الذي يقوده كل من مازيستاس (Masistes) وماردونوس (Mardonius)، ومع وصولهم تضاعف عدد الفرق العسكرية، كما زاد عدد المراكب ليصل إلى ألف وستمئة (1600) مركب ثلاثية صفوف المجاديف محاطة بعدد كبير من المراكب المسماة بونتيكوننتار (Penteconntères) أي ذات الخمسين مجدفاً، وكذلك من زوارق البينيش (Peniches)⁴، من جميع الأنواع التي زودهم بها الفينيقيون الأيونيون والمصريون.⁵

بالنسبة لموقف المدن اليونانية من مواجهة جيش كزاركسيس أو الانصياع إليه، يبدو أن هيرودوت قد أشار إلى أن الهدف الحقيقي من وراء حملة كزاركيس وتحركه هو مدينة أثينا، لكن التهديد كان يخص في الواقع كل بلاد اليونان، ومع ذلك كان موقف المدن الدول اليونانية

¹ - Peter Green, loc.cit.

² - Hérodote, loc.cit.

³ - Peter Green, op.cit, p146.

⁴ Péniches: هي زوارق صغيرة حادة الواجهة مجهزة بالأسلحة، بها مجاديف وأشرعة، دورها مساعدة المراكب الحربية الكبيرة، تستعمل كزوارق

حماية لأحد جوانب المركب الحربي الكبير. <https://www.cnrtl.fr/definition/Peniche>

⁵ - Henri Pigaillem, op.cit, p 46.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

متباينا، فالذين منحوا الأرض و الماء للملك لم يبدوا أي رد فعل غاصب من هذه الحملة أما الذين لم يعلنوا انصياعهم فكانوا مدعورين من غزو كزاركسيس لعلمهم بفارق الإمكانيات بين الطرفين.¹

وإذا ما راجعنا مواقف هذه المناطق الإغريقية لوجدنا أن حكام تساليا من الألواد (les Aleuades) كانوا منذ البداية موالين للفرس، أما بقية التساليين كما سبق ذكر ذلك، فقد أخذوا جانب الفرس بعد مغادرة المحاربين الإغريق لمعبر تومبي (Tempé)، ويضيف هيرودوت في كلام صادم عن الإغريق قائلاً أن أغليبتها في الحقيقة مستعدين لأخذ جانب الفرس في هذه الحرب وهو ما يزيد في الفوارق بين الطرفين من حيث القوة العسكرية. أما المناوئين للفرس من شعوب اليونان الوسطى فيظهر أن الفوكين (Phocéens)،² البلاتيين (Platéens) والتسبيين (Les Thespiens) أما الذين خضعوا للملك الفارسي فكانوا شعوب الدولوب (les Dolopes)، الآيين (les Aenienes)، البيرهابس (les Perrhaebes)، اللوكريين (les Locriens)، الماغينات (les Magnètes)، الميليين (les Méliens)، آخيو فتوتيد (les Achéens Phthiotide)، الطيبين (les Thébains) وباقي شعب بيوتيا (les Béotiens) فيما عدا التسبيين والبلاتيين المذكورين سابقاً.³

وخلال فترة انتظار الأسطول الفارسي بالقرب من مصب نهر بيني (Penée) ظهرت مراكب إغريقية يبدو أنها كانت مكلفة بعمليات استكشاف⁴ بعدد ثلاثة حسب هيرودوت، مركب تريزي (Trézen)، وآخر إيجيني (Egine) والثالث أثيني.⁵ وكان ذلك بالقرب من جزيرة سكياتوس (Skiathos)، وقد استطاعت السفن الفارسية اللحاق بتلك المراكب الإغريقية، ولم يتمكنوا من القضاء عليها إلا بعد اشتباكات عنيفة ومقاومة مستميتة من المحاربين الإغريق، وتم ذلك في خليج السبوراد (Sporades).⁶

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXXXVIII 138.

² - Pierre Briant, loc.cit.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CXXII (137).

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p 46.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, CLXXIX (179).

⁶ - Henri Pigaillem, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

إستطاع الفرس قتل محاربي السفينتين التريزية والإيجينية وأسر محارب جريح بدعى بيتاس (Pythès)، أما المركب الأثيني فقد استطاع الفرار غير أن طاقمه لم يستطع اجتياز مصب نهر بيني، ومع ذلك تمكنوا من الفرار سباحةً، تاركين مركبهم للفرس، وهو الأمر الذي مكنهم من تحذير الأسطول الإغريقي الذي كان يربط في أرتيميسيوم (Artémisium) من خلال إشارات نارية غير جزيرة سكياتوس (Skiathos)، وعليه انسحب الأسطول الإغريقي من أرتيميسوم إلى خالكيس (Chalcis) من أجل حراسة معبر أوريب (Euripe)، إلا أنهم تركوا بعض الكشافة في أعالي أوبيي (Eubée) لرصد حركة العدو¹.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى مشكل كثيراً ما يطرح نفسه على مستوى القيادة الخاصة بالأسطول الإغريقي الذي كان يربط في الذين كان يربط في أرتيميسيوم، فالأثينيون الذين كان لديهم العدد الكبير من السفن الحربية والمحاربين في هذا الأسطول، كانوا لا يمثلون إلى الأمر تيمستوكل ولا يؤمنون سوى بقيادته لهذا الأسطول، بل أكثر من ذلك كانت فكرة أن يحاربوا تحت قيادة أميرال أسبرطي أكثر سخفاً بالنسبة لهم من مزحة لا طعم لها، فهم كانوا لا يتقبلون قيادة أوريبيا (Eurybiade) رغم أن تيميستوكل كان مستعداً لتقبلها، واعداداً مواطنيه أنهم إذا أبلوا بلاءً حسناً في هذه الحرب فإن الإغريق كلهم سينقادون إليهم. وعلى ما يبدو فإنه أوصل إليهم فكرة أن قيادة أورويبياد ما هي إلا قيادة شكلية أكثر منها حقيقية²، فقد لخص ديودور الصقلي هذه الوضعية قائلاً كان أوريبيا القائد الظاهري للأسطول، وأن الأوامر الحقيقية كانت تصدر عن تيميستوكل فعبقريته العسكرية منحتة سلطة واسعة ليس فقط عند البحارة المحاربين الإغريق، ولكن حتى عند أوريبيا نفسه، فالكل صار يطبق أوامره بحماس³.

تحرك الأسطول الفارسي حتى وصل إلى شاطئ ماغيزي (Magnésie) الواقع بين مدينة كاستاني (Casthanée)، وساحل سيباس (Sépias)، سجين المراكب الأولى نحو اليابسة، وظلت المراكب الأخرى راسية قرب الشاطئ، ولم يكن الشاطئ كبيراً بحيث يمكنه استيعاب ذلك

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CLXXXII (181-182).

² - Peter Green, op.cit, p167.

³ - Diodore de Sicile, XI, XII, (12).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

العدد الهائل من المراكب الفارسية، اصطفت السفن في المرفأ الواحدة بالقرب من الأخرى بشكل تكون فيه مقدمة كل سفينة باتجاه البحر، مشكلة بذلك ثمانية صفوف¹.

كان ساحل سيبياس به رأس يحمل اسمه، وكذلك قرية بالقرب من ذلك المكان، وتعرف حالياً بآثار حصن بينرنطى قديم. يخرج من هذا الرأس نتوءان يوصلان إلى جزر بيباريتوس (Péparéthos) وإيكوس (Icos)، وكذلك بولياغوس (Polyaegos)، وهي جزر عائمة في بحر إيجة إلى الأسفل من جهة الشمال من جزيرة كيوس (Kéos)، ليظهر الشاطئ الذي يؤدي إلى أثينا ومنه يمتد النظر باتجاه إلى سلامين (Salamine)².

قضى الجند الليل على تلك الوضعية، وفي الصباح ومنذ بزوغ الفجر تحول الجو من هادئ ورائق إلى مضطرب، ليهيج البحر وتعصف فيه رياح قوية سرعان ما تحولت إلى عاصفة عنيفة، وحين عرف المحاربون أن الرياح تزداد قوة حاول البعض منهم سحب سفنهم إلى اليابسة، أما من باغتهم العاصفة فدفع جزء منهم سفنهم ناحية جبل باليون (Pélion)، وجزء آخر سحب سفنه إلى أقرب نقطة من الساحل، أما بقية السفن فسحبت إلى رأس سيبياس، وتجدد الإشارة إلى أن فريقاً من البحارة الفرس أخذوا سفنهم نحو مدينة ميليبي (Melibée) وآخرون إلى مدينة كاستاني حين اشتدت العاصفة³.

يبدو أن الفرس خلال هذه العاصفة خسروا أربع مائة (400) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف، وجزء من تجهيزات وسلاح الجيش والكثير من النقود، فقد ظل البحر ولمدة طويلة يلفظ قطعاً فضية وذهبية وأشياء أخرى ثمينة مملوكة للأثرياء من الجنود والقادة الفرس، والتي قام سكان شاطئ ماغنيزي بجمعها⁴. وبعد ثلاثة أيام من العاصفة لم يعد الأسطول الفارسي يمتلك سوى ألف ومئتي (1200) سفينة، وقد علم الإغريق وخاصة محاربو الجيش البحري منهم بالخسارة التي تعرض لها الفرس لذلك اقتربوا منهم بشكل مستفز⁵.

¹ - Hérodote, op.cit,VII, CLXXXVIII (188).

² - Henri Pigaillem, op.cit, p47.

³ - Hérodote, loc.cit.,

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p47.

⁵ - Ibid.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

ويتحدث هيرودت كذلك عن خسارة الفرس لعدد كبير من المقاتلين، وأشياء ثمينة، وكذلك الكثير المون التي كانت محمولة على السفن المحطمة، وفي هذه الظروف ومخافة تعرض أفراد الأسطول لهجوم مباغت من طرف التساليين أمر قادة الأسطول برفع جدار واقى من الأخشاب من حطام السفن في البحر بعد جمعها وتهيأتها¹.

اكتسب الأسطول الفارسي من خلال هذه العاصفة خبرة في التعامل مع الشواطئ الإغريقية، وأدرك الإمبرالات الفرس أنه رغم ذلك يجب تضييع الوقت، ولا بد من إعادة المراكب إلى البحر واستئناف الابحار وهو ما قاموا به، فقد استطاعوا اجتياز منعطف ماغيزي (Magnésie) ووصلوا إلى خليج باغازي، ليُلْقِي بعد ذلك قادة الوحدات مراسيهم (leurs ancres) على شاطئ أفيتاس (Aphètes)².

ويبدو أنه خلال هذا المسير تخلفت مجموعة من السفن الحربية الفارسية، تلك السفن التي حاصرها الإغريق وإشتبكوا معها، ليتمكنوا في الأخير من اسر ثلاثة من كبار قادة الفرس: حاكم مدينة كيم (Cyme) في أيوليا (Eolie) واسمه سوندوكاس (Sondoces)³، ملك وطاغية ألابوند (Alabandes) في كاري (Carie) وكذلك بونتيل (Penthyle) بن ديمونويس (Démonois) من بافوس في قبرص، وقد أرسل الإغريق هؤلاء الأسرى بعد استنطاقهم إلى مضيق كورينثة⁴.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال تعرض الأسطول الفارسي للعاصفة في ماغيزي وصلت أنباء تلك الأحداث إلى قادة الأسطول الإغريقي عن طريق عيونهم وحراسهم في أعالي أوبية (Eubée)، لذلك عادت السفن الإغريقية مرة أخرى إلى منطقة أرتميسيوم (Artémisium) التي انسحبوا منها سابقاً، وهو ما مكنهم من الاستيلاء على تلك المراكب الفارسية التي تخلفت وأسر قادتها⁵.

ومن منطقة باغازي (Pagasae) أراد كزاكيس أن يكون بداية هجوم الأسطول الفارسي على الإغريق من أجل محاولة إخراجهم من مواقعهم، ومن ثم الدخول بقوة إلى خليجان المالياك

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXC-CXCI (190-191).

² - Henri Pigaillem, op.cit, p47.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CXCIV (194).

⁴ - Henri Pigaillem, op.cit, p48.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, CXCII, CXCIV (192-194).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

(Maliaque) أي خلجان اليونان الوسطى، وكذلك خلجان إقليم أوبيي (Eubée) والتي من خلالها يمكنه الولوج إلى وسط بلاد اليونان¹. ورغم الخسارة التي تعرض لها الاسطول الفارسي إلا أنه لا يزال متفوقاً عددياً وبفارق كبير على الأسطول اليوناني، وبين يومي 16 و17 أوت 480 ق.م، أصبح المعسكران في حالة تعزيز لجهود التعرف كل منهما على الآخر، وكان هذا العمل سهلاً نوعاً ما، لأن منطقتي أرتيميسيوم وأفيتاس كانتا متقابلتين ويمكن لمن يكون في أي منهما مشاهدة الآخر².

كان المقاتلون الذين استولوا على الخمسة عشر مركباً واسبوا القادة الفرس يحثون الخطي من أجل ابلاغ تيميستوكل وأوريبياد في أوريب (Euripe)، غير أن أحد الفارين من أسطول الفرس سبقهم إلى ذلك، ويتعلق الأمر بشخص يدعى سكيلياس (Skylles)، وهو غواص من أصل هيليني، حيث قام بإبلاغ مواطنة من الإغريق بمشروع كزاركيس الرامي إلى الأطباق على الأسطول الإغريقي في أوريب³.

كان هدف الفرس من خلال تحركهم البحري الأخير هو منع الإغريق من مغادرة أوريب تحت جناح الظلام، فلا يمكن لأي مركب و لا لأي مقاتل إغريقي أن ينجو حسب رغبة الملك كزاركيس، كان الإغريق وخاصة أوريبياد (Eurybiade)، والفرق البيلوبونيزية على الخصوص مدعورين من حجم الأرمادة التي جاء بها الفرس، والتي أصبحوا يشاهدونها رأي العين، والتي يمكن أن تقدر بثلاثة إلى خمسة اضعاف حجم القوات البحرية الإغريقية⁴.

جمع أوريبياد مجلس حربه فالقضاء على أسطول العدو في أفيتاس كان يدفع بهم إلى تنظيم هجوم أو على الأقل تنظيم مقاومة ضد تقدمه، ومن أجل ذلك شرع تيميستوكل في إعداد الخطة لليوم الموالي محددا القادة الذين سيحاربون⁵، غير أن قرار الاشتباك مع الأسطول الفارسي لم يكن سهلاً خاصة بالنسبة لإقناع قائد أسبرطي غير متمرس في الحرب البحرية مثل أوريبياد، ومتردد في

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, p47.

² - Peter Green, op.cit, p192.

³ - Henri Pigaillem, op.cit, p48.

⁴ - Peter Green, op.cit, pp192-193.

⁵ - Henri Pigaillem, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

نفس الوقت من أي اشتباك يكون بعيداً عن البيلوبونيز وفي هذا الصدد يبدو أن القائد أوربياد حين عاين جاهزية الفرس، وكثرة عدد سفنهم ومقاتليهم، أراد الانسحاب إلى داخل اليونان والاقتراب من البيلوبونيز، ليكون الأسطول البحري إلى جانب الجيش البري، حيث أنه كان مقتنعاً أنه من غير الممكن محاربة ومواجهة قوات كزاركسيس على البحر، وهو الأمر الذي لم يكن جيداً بالنسبة للأميرال قائد في جيش الإغريق¹.

غير أنه حين بدأ التداول والتشاور بخصوص الانسحاب من أركيسيوم تدخل سكان اقليم أوبيي الذي يعسكر بجانبه كل من الفرس والإغريق، وطلبوا من أوربياد عدم الانسحاب أو على الأقل تأجيله ريثما يؤمنون مكاناً يحتمي فيه أبناؤهم ونسأؤهم وعبيدهم، غير أنهم لم يستطيعوا إقناعه بذلك، لذلك توجهوا إلى تيميستوكل قائد الأثينين، ويتحدث هيرودوت في هذا الشأن على أنهم عرضوا عليه مبلغ ثلاثين تالنت (Telents) من أجل خوض معركة بحرية ضد الفرس، وإقناع الإغريق بخوضها قبل ذلك، على أن يبقى أمر النقود سرّاً بينه وبين الأوربيون.²

قَبِلَ تيميستوكل نقود الأوبيين ووعدهم ببذل مجهوده من أجل تحقيق آمالهم. وقد استطاع تيميستوكل إقناع أوربياد بالأمر بمنحة خمسة (5) تالنتات، كأنه يدفعها له من ماله الخاص، كما عاد أغلب القادة الآخرين إلى أماكنهم، أما بالنسبة للأميرال الكورينثي أديمونت (Adimante) الذي كان مصراً على الانسحاب بسفنه حتى إذا ظل الآخرون لحرب الفرس، فقد استطاع تيميستوكل استمالته وإقناعه بمنحة ثلاثة تالنتات (Talents)³.

وقد تحدث بلوتارخوس عن شخص آخر يدعى أركيتيلاس (Architélès) كان قائداً للسفينة المقدسة، والذي كان يهم بالإبحار ومغادرة الأسطول بحجة أنه لم يعد يملك ما يدفعه إلى تجارته وجنوده من مال، هؤلاء البحارة الذين استطاع تيميستوكل إسترضاءهم بدعوتهم إلى العشاء، أما قائدهم أركيتيلاس الذي غضب من هذا التصرف فقد جلب له تيميستوكل قفة بها خبز ولحم وفي أسفل الطعام وضع له تالنتاً واحداً (Talent)، ثم دعاه للعشاء وأن لا يعود إلى قيادة رجاله

¹ - Peter Green, op.cit, p193.

² - Hérodote, op.cit, VII, VIII ,IV (04).

³ - Peter Green, op.cit, p194.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

إلا في اليوم الموالي وإلا فإنه سيلومه أمام الجميع لأنه قبل نقودا من الأعداء، وقد ختم بلونارخوس هذه القصة بقوله هذا ما سرده لنا فانياس (Phanias) من جزيرة لسبوس (Lesbos)¹.

ويبدو من خلال هذه الحوادث أن بلاد اليونان كانت في تلك الفترة تعاني من نقص في التمويل المالي، ويعود ذلك إلى حالة اقتصادية متردية كانت هي السائدة في بلاد اليونان خلال القرن الخامس (V) ق.م، وهذا ما يفسر نجاح تيميستوكل في ثني أركيتيلاس ومن قبله أديمونت وأورياد عن قرار الإنسحاب ومغادرة أرتيميسيوم، وكانت مساومته لهم بالمال ناجحة، ومع ذلك وصل تيميستوكل إلى هدفه وبقي معه واحد وعشرون (21) تالنت².

كان أسطول الإغريق المستعد للمعركة في أرتيميسيوم يتكون من مئة وسبعة وعشرين (127) سفينة أثينية جزء منها يركبها الأثينيون والجزء الآخر يركبه البلاتيون (Platéans)، الذين كان حماسهم الكبير للحرب يغطي نقص خبرتهم فيها، أربعون (40) سفينة كورينثية، وقد قدم الميغاريون (les Mégariens) عشرين (20) سفينة، الإيجينيون (les Eginètes) ثمانية عشر (18) السيسيونيون (les Sicyoniens) اثنا عشر (12)، الأسبرطيون عشرة (10)، الأبيدوريون ثمانية (8) (les Epidauriens)، الإريتيريون سبعة (7) (les Erétriens)، التريزيونيون (Trézeniens) خمسة (5)، الستيريون (les Styréens) إثنان (2)، أما سكان جزيرة كيوس (Céos) فكان لهم في هذه المواجهة مركبين (2) حربيين مع سفيتين آخرين من ذوات الخمسين مجدفاً، وأخيراً أرسل اللوكريون الأوينتيون (les Locriens Opuntiens) سبعة (7) سفن لنجدة الحلفاء الإغريق من ذوات الخمس مجدفاً³.

ويبدو أن الغواص سكيلياس (Skilliès) حين أخبر الإغريق عن مشروع كزاركسيس، كان قد زودهم كذلك بخطة الأسطول الفارسي في الهجوم على الإغريق في أرتيميسيوم،⁴ وتفاصيل الخطة كما يرويها هيرودوت تفيد أن الفرس حين عاينوا حجم الأسطول الإغريقي قليل العدد

¹ - Plutarque, vie de Thémistocle, op.cit, VII, 6-7.

² - Peter Green, op.cit, p195.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, I.

⁴ - Peter Green, op.cit, p193.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

مقارنة بأسطولهم، زاد شوقهم وحاسهم لمهاجمتهم، غير أنهم وضعوا احتمال هروب الإغريق من جهة الجنوب إذ ما رأوهم قادمين إليهم، ومن أجل ذلك وبغرض إنجاح مشروعهم اختاروا مائي (200) سفينة من الأسطول وأرسلوها للالتفاف على الأسطول الإغريقي من جزيرة سكياتوس ثم الالتفاف على إقليم أوبيي من جهة الجنوب و هو الذي كان يشكل بحد ذاته جزيرة عائمة محاذية لوسط اليونان، لكي لا تتم مشاهدتهم من طرف العدو، ثم الوصول بعد ذلك إلى أوريب (Euripe) ومحاصرة الأسطول الإغريقي من جهة الجنوب، وبذلك يتم الهجوم على الإغريق من الأمام ومن الخلف¹.

كان من الواضح أن العدو الفارسي قد فقد عنصر المفاجأة في هذه المحاولة لان تيميستوكل صار على علم مسبق بتحركه، كان ضرورياً بالنسبة للإغريق غلق الطريق على السفن المتنقلة على مستوى مضيق خالكيس (Chalcis) من أجل حماية الأوريب (Euripe)، رغم أن هذا العمل سيكون مكلفاً بالنسبة للإغريق سواءً من حيث السفن أو من حيث الرجال، إلا أنه كان مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم، وتبقى بعد ذلك مسألة التوقيت الخاص لمهاجمة الأسطول الفارسي في أفيثاس مطروحة للنقاش على مستوى قيادة الأسطول الإغريقي².

قرر الإغريق بعد التشاور على مستوى قادة الأسطول أن يظلوا ساكنين ذلك اليوم الذي تحركت فيه السفن الفارسية للالتفاف على أوبيي في 17 من شهر أوت 480 ق.م ولا يرسلوا بسفنهم التي ستسبق السفن الفارسية نحو خالكيس إلا بعد منطقة الليل من يوم الغد، وهو ما حدث، على أن يخوض أسطول الإغريق في أرتيمسيوم مواجهة مع الفرس في أفيثاس، ومع منتصف يوم 18 أوت 480 ق.م، تحركت القطع الإغريقية باتجاه الفرس³.

حين شاهد قادة الأسطول الفارسي السفن الإغريقية تتقدم نحوهم بأعداد صغيرة اعتبر الفرس الإغريق من خلال إقدامهم على هذا العمل كالحمقى، ليرفعوا مراسيهم ويتحركوا نحوهم معتبرين أنفسهم سيصبحون السادة على هذه المنطقة دون أي عناء، كانوا يتباهون بأسطولهم

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, VII (07).

² - Peter Green, op.cit, p196.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, IX (09).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الأكثر عددا من الإغريق وسفنهم الأفضل من غيرها، وهو ما يمنح إمكانية محاصرة سفن الإغريق من جميع الجهات.¹

وبما أن الفرس تقدموا نحو الإغريق من مراسي متفرقة دون خطة معدة مسبقا، استطاع تيميستوكل الإيقاع بالسفن الفارسية المتفرقة الواحدة تلو الأخرى، فأغرف الكثير منها، وأجبر عددا آخر على الفرار ولاحقهم في بعض الأحيان إلى اليابسة. وكانت الأمور تسير على ذلك النحو إلى غاية أن أعاد الفرس تنظيم أنفسهم وتجميع صفوفهم تحت قيادة موحدة. والملاحظ أن تفوقهم العددي لم يكن في صالحهم فالفرق كان صارخا بين السفن ثلاثيه صفوف المجاديف الفينية السريعة والخفيفة والمراكب الحربية الإغريقية الثقيلة.²

ولم يستطع الفرس في هذه المعركة تطبيق خطة الاختراق (Dickplous) لان الإغريق كانوا يقاتلون بسفن متراسة (serrés) ولذلك طبقوا خطة التطويق (Encerclement) أو (Périplous)، وبما أن الإغريق كانت لهم خبرة عالية في المعارك البحرية فقد تصدوا للتطويق بتطبيق طريقة القنفذ (hérisson) أو (Kyklos)، فالسفن اصطفت بشكل تلقائي الواحدة بجانب الأخرى مشكلة جميعا دائرة، بحيث يكون مقدمة السفينة متوجهاً نحو العدو ثم يهاجمون كانت المواجهة عنيفة غير أن الطرفين كانا مترددين في الالتحام التام، فكان التناوب في التفوق واضحا.³

وأخيراً لا أحد منهم استطاع حسم الأمر ومع حلول الظلام توقف القتال وعاد كل طرف إلى مكان رسوه والملاحظ أن الإغريق استطاعوا اصطياذ ثلاثين سفينة، واسروا طواقمها، ويتعلق الأمر بوحدة قبصرية لأنه من الأسرى وجد أخ ملك سلامين (Salamine)⁴، وهو قبطان إغريقي كان في خدمة ملك الفرس، أنتيدوروس اللمنوسي (Antidoros de lemnos)، فقد انحاز إلى

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, X (10).

² - Peter Green, op.cit, p198.

³ - Ibid

⁴ - Salamine : يتعلق الأمر هنا بميناء على الساحل الشرقي من جزيرة قبرص وليس خليج سلامين المعروف ببلاد اليونان. أنظر : Peter Green, op.cit, p199.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الإغريق بعد هذه المعركة وهو ما تشجع هؤلاء على المزيد من مواجهة الفرس¹. بعد حلول الليل بزمان قليل هبت على المنطقة عاصفة قوية من جديد، لم تكن الرياح هذه المرة تهب من الشمال ما يعرف عند الإغريق بالملتيمي (Meltemi) ولكن كانت تأتي من الجنوب، وهي رياح السيريكو (sirocco)، كانت الرياح مصحوبة بأمطار شديدة الغزارة مع رعود قوية وبرق على جبل بيليون (Pelion). ساقطت المياه عددا كبيرا من الجثث وبقايا السفن بفعل حركة الرياح إلى مرفأ أفيتاس، لتتجمع أمام مقدمات سفن الفرس، مما أدى إلى تعطيل حركة المجاديف بالنسبة لبعض السفن التي كانت تحرس مضيق أوبيي . وقد أحدث انهمار الأمطار القوية وصوت الرعد المخيف ذعرا في صفوف الجنود الفرس، ومما زاد من تفاقم الوضع عندهم دفع الرياح للسفن القريبة من الصخور في المضائق مما أدى إلى إنكسارها وتحطم الكثير منها².

وكان المصير نفسه بالنسبة للواحدة التي كانت في طريقها للانتفاف على إقليم أوبيي³، ففي الوقت الذي انفجرت فيه العاصفة كانت تلك السفن تحتاز الرأس الجنوبي لجزيرة أوبيي ، ويبدو أن طواقم تلك السفن كانت لديها أوامر بالاستمرار في الإبحار ليل نهار مع بعض التوقيفات، وقد وصلت في تلك الأثناء إلى ساحل يسمى المغارات (les creux) في أعالي منطقة كاريستوس (Carystos)⁴.

تواصل هبوب رياح السيريكو بعنف شديد مع هطول أمطار غزيرة إلى درجة أن المحاربين الفرس لم يعودوا يرون شيئا أمامهم بسبب قوة الأمطار، وقد وصف المؤرخ هيرودوت تحطم قوة التدخل السريع عند الفرس بقوله: "كانت إرادة السماء تسعى أن تجعل من أسطول الفرس بكل الطرق مساويا في حجمه لأسطول الإغريق، وانتزاع ميزة التفوق العددي منه" ويبدو أن هذا الأمر كان يمكن أن يكون قد تحقق فالظاهر أن جزءا كبيرا من الجيش البحري الفارسي قد تحطم على صخور الشعاب الأوبية (Eubée)⁵.

¹ - Hérodote, op.cit,VII, XI (11).

² - Peter Green, op.cit, p201.

³ - Hérodote, op.cit,VII, XIII (13).

⁴ - Peter Green, op.cit, p201.

⁵ - Hérodote, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

توالت الأخبار السيئة بالنسبة للأسطول الفارسي فقد كانت فرقة من المراكب الأثينية التي كانت تحرس أتيكا (Attique) تعبر الأوريب لتلتحق بمضيق خالكيس لحمايته، كانت الفرقة تتكون من ثلاث وخمسين سفينة (53) وقد مشطت هذه الفرقة الأوريب في طريقها واستطاعت الإيقاع ببعض السفن الفارسية التائهة، وبعد استجواب من كانوا بها علموا أهمية ما يحدث وما سيحدث، ومن أجل دعم حلفائهم في أرتميسيوم، ورغم حالة التعب التي كانوا عليها في منتصف تلك الليلة واصلوا الإبحار مسافة (80) ثمانين ميلا بحري، وهي المسافة التي كانت تفصلهم عن أرتميسيوم¹.

أما بالنسبة لأسطول الفرس في أفيثاس فقد انتظروا بفارغ الصبر بزوغ شمس النهار في الليلة الماضية ليستكينوا لشيء من الراحة على مراكبهم بعد الأهوال التي عايشوها الليلة الماضية، أما الإغريق فبعد وصول المدد إليهم ووصول معلومات جديدة عن تلك السفن التي كانت تنوي الالتفاف على الأويبي (Eubée)، فقد شنوا هجوما جديدا في نفس توقيت الهجوم الماضي قضوا من خلاله على مجموعة من السفن الكيليكية (Ciliciens) وحطموها، ثم عادوا إلى مرفأ أرتميسيوم بداية الليل²، دون أن ينتظروا إعطاء فرصة للفرس للدخول في معركة كبيرة بين الطرفين. كان هذان الانتصارات إن صح الوصف في يومين متتاليين محفزا لنفسية محاربي الأسطول الإغريقي، وهو ما كان يحتاج إليه في هذه الظروف³.

وخلال اليوم الثالث لم يتقبل قادة الفرس أن تتم معاملتهم بهذه الطريقة المهينة من طرف عدد قليل من المراكب الإغريقية، وخوفا من غضب كزاركسيس من آدائهم قرروا الدخول في معركة جديدة يكونون هم أصحاب المبادرة فيها، وما إن حل منتصف اليوم حتى تقدموا باتجاه أرتميسيوم مصطفين في نظام المعركة. وفي تلك اللحظات كانت سفن الإغريق في مراسيها، تقدمت المراكب الفارسية على شكل هلال لمحاصرة السفن الإغريقية من جميع الجهات والإيقاع بها جميعا، كانت الحرب في ذلك اليوم بقوات متساوية تقريبا، التحم الفريقان وكان أسطول كزاركسيس غير فعال

¹ - Peter Green, op.cit, p 202.

² - Hérodote, op.cit, VIII, XIV (14).

³ - Peter Green, loc.cit.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

بسبب ضخامته وازدحام السفن بعضها ببعض، والتي كانت تصطدم فيما بينها ورغم محاولة الاستماتة في ذلك الوضع، إلا أنها في الأخير تراجعت نتيجة لمقاومة الإغريق وفقد الإغريق الكثير من السفن في هذه المعركة لكن خسارة الفرس كانت أكبر، لينسحب في الأخير كل إلى مرفأه¹. لم تكن المعركة التي خاضها الإغريق ضد الفرس ذات نتائج حاسمة ولكنها منحت الإغريق خبرة ضرورية، فقد تعلموا من مجريات أحداثها وعاشوا أخطارها، فلم يكن عدد السفن الكبير للفرس، ولا زخارفهم وزينتهم ولا صيحات التخويف الصادرة عنهم، ولا أناشيدهم الوطنية مصدر خوف ورهبة بالنسبة لرجال يعلمون كيف يصلون إلى أعدائهم وكيف يختارون الأسلوب المناسب للاشتباك معهم، ويملكون الشجاعة الكافية لمجابهتهم، وقد وصف الشاعر الإغريقي بندار (Pindare) معركة أرتميسيوم قائلا: "هنالك وضع أبناء أثينا الاساس الرائع للحرية" لأن بداية الانتصار في الحقيقة هو الجرأة².

2- معركة تيرموپيل (Thermopyles) (480 ق.م) :

يتحدث هيرودوت من حيث التوقيت على أنه حين وصل الأسطول الفارسي إلى أفيثاس (Aphètes)، أي قبل خوض معركة أرتميسيوم، كان كزاركسيس بجيشه البري يجتاز أرض تساليا (Tessalie) ومن بعدها آخيا (Achaïe)، ثم دخل أرض الميليين (Mélienes)، من بين أنهار تساليا، كان نهر الأونوكوس (l'Onochonos) هو النهر الوحيد الذي يمكنه أن يكفي لاحتياجات الجيش الفارسي من الماء.³

واصل جيش كزاركسيس بعد ذلك طريقه نحو وسط بلاد اليونان ليصل إلى ميليد (Melide) بالقرب من خليج الماليك (le golfe Maliaque)، بجوار هذه المنطقة يوجد سهل واسع من جهة، ومن الجهة الأخرى يتميز بالضيق الشديد، كما ترتفع جبال غير قابلة للاجتياز تسمى بالقمم التراكيينية (Trachiniennes) تحيط بمنطقة الميليد من جميع الجهات، كانت مدينة

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, XVI-XVII (16-17).

² - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, VIII, 1-2.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CXCVI (196).

أنتيكير (Anticyre) أول مدينة يمكن أن يمر بها الجيش على الخليج الذي يدخل بعمق في إقليم آخيا (Achaie) ، تلك المدينة التي تمر بالقرب منها أنهار سيركيوس (Sperchuis) الذي يصب في البحر، ديراس (Dyras) ثم ميلاس (Mélas) الذي يجتاز مدينة تراكيس (Trachis) وهي أقرب مدينة إلى موقع تيرموپيل (Thermopyles)¹.

وصل الملك ليونيداس (Léonidas) إلى موقعه مع قواته في تيرموپيل متأخرا نوعا ما، ولكن ليس متأخرا مقارنة بوصول الأسطول البحري، وقد خرج ليونيداس من مضيق كورينثة ومعه فرقة من أربعة آلاف (4000) رجل على الأكثر، كان نصفهم تقريبا من فلاحي أركاديا، أما أسبرطة نفسها فلم ترسل معه سوى ثلاث مائة (300) من المشاة الإغريق (الأوبليت) (hoplites) من النخبة المقاتلين في أسبرطة، ويمكن أن يكونوا معهم تسع مائة (900) من الخدم (hilotes) لخدمتهم في هذا الظرف، والموت معهم إن لزم الأمر². (أنظر الملاحق 6-7-9 صور)

ويعطينا هيرودوت أرقاما أكثر تفصيلا عن القوة الصغيرة التي كانت مع ليونيداس فيقول أنها كانت تتشكل من ثلاث مائة (300) أسبرطي ذو سلاح ثقيل، ألف (1000) رجل من التيجيات (Tegeates) تضم من المونتينيين (Mantinéens)، مائة وعشرون (120) رجلا من أورجومويناس (Orchomènes) في أركاديا، وألف (1000) رجل من بقية أنحاء أركاديا، أربع مائة (400) رجل من كورينثة، مائتي (200) رجل من فليوننت (Phliunte) وثمانون (80) من موكينا، وهذه القوات التي جندتها البيلوبونيز (Péloponnèse) مع ليونيداس، كما التحق به في بيوتيا (Béotie) سبع مائة (700) من التسبيين (Thespiens) وأربع مائة (400) من الطيبين (Thébains)، كما تمت دعوة قوات من اللوكريين الأوبنتيين (Locriens-Opuntiens) و ألف (1000) من الفوسيديين (Phociediens)³.

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXCVIII-CC (198-200).

² - Peter Green, op.cit, p168.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CCII-CCIII (202-203).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

كان ليونيداس¹ ملك أسبرطة قد عُرِفَ عنه شجاعته وخبرته الكبيرة في أمور الحرب، أرسله الإغريق إلى معبر تيرموبييل، وحين تم تعيينه على رأس تلك القوات التي كان هدفها منع البرابرة الفرس من دخول بلاد اليونان، صرح أنه لن يأخذ معه سوى ألف (1000) مقاتل فقط، وقد اعترض الإيفور² (les Ephores) على هذا الرأي بحكم أن هذا العدد يعتبر قليلا جدا لمقاومة جيش كزاركسيس الضخم، فأجابهم ليونيداس أنه حقيقة في قلة من خلال هذا العدد لمواجهة عبور البرابرة، ولكن هذا العدد يكفي في الوقت الحالي. ومن خلال هذا الرد الغامض والذي يحتمل العديد من التأويلات، طلبوا منه إن كان يريد أن يقوم بإنجازات مهمة هناك، ليجيئهم ليونيداس أن مهمته من حيث الظاهر هي حراسة وحماية معبر ترموبيل، إلا أن الحقيقة هي أنه ذاهب للموت محاربا من أجل الحرية الجماعية للإغريق، فموت ألف مقاتل أضاف ليونيداس ستجعل من أسبرطة أكثر شهرة، ولكن إذا أُخِذْتُ معي كل جيش الأكيدومينيين (Lacédémoniens)، سيتم تحطيم أسبرطة بالكامل، لأن كل واحد من الأكيدومينيين سيبحث عن سلامته ونجاته في الهرب³.

كان لكل فرقة من الفرق المذكورة سابقا لها قائدها، غير أن ليونيداس كان القائد العام لتلك القوة مجتمعة، ويتحدث هيرودوت على أن الأسبرطيين سمحوا لمجموعة الثلاث مائة مقاتل بالذهاب مع ليونيداس على أن يلتف به في طريقه نحو الشمال أعداد أخرى من الحلفاء الإغريق، لذلك أرجأوا إرسال قوات أخرى إلى ما بعد هذه الفترة، وأن لا يتركوا أسبرطه دون حماية، كما أن الحلفاء الآخرين كان لهم نفس الغاية خاصة مع اقتراب موعد الألعاب الأولمبية لذلك لم يتعجلوا المشاركة في وقت مبكر في تيرموبييل⁴.

¹ وصل ليونيداس إلى الحكم في أسبرطه في ظروف إستثنائية، فقد كان له أخوان أكبر منه كليومان (Cléomènes) ودوري (Dorée) أما كليومان فقد مات دون أن يخلف وراءه أبناء ذكورا في حين أن دوري لم يكن مقيما في أسبرطه فقد قضى آخر أيامه في صقلية، وبمجرد ما تزوج ليونيداس ابنة كليومان حتى تم تنصيبه ملكا لأنه الأكبر من أبناء كليومبروت (Cléombrote) الابن الأصغر من أبناء أناكساندريد (Anaxandrides)

بحسب رواية هيرودوت أنظر: Hérodote, op.cit, VII, CCV (205)

² - الإيفور (Ephores) هم حكام منتخبون لهم صلاحيات واسعة على مستوى الشرطة والقضاء، عددهم خمسة ويتم إنتخابهم كل سنة ويشكل

الملوك جزء من هذه المجموعة انظر: <http://www.cnrtl.fr/definition/ephore> le 29/03/2020 à 18:57

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, IV, (4).

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CCVI (206).

ولكن التساؤل الذي طرحه المؤرخون هو لماذا كانت المدن الدول البيلوبونيسية شحيحة إلى هذه الدرجة في الدفع بالمقاتلين إلى معبر تيرموبييل؟ فالواضح أن هذه المدن لم تكن لها نية إرسال كل فرقها إلى الشمال، فهم كانوا يعولون على هذه القوات لحماية البيلوبونيز وذلك في حالة فشل الخطة الطموحة لتميستوكل، كما كان يتخوف الكثير من المتحفظين في مؤتمر كورينثا، وفي هذه الحالة يمكنهم تنظيم مقاومة موحدة على مستوى المضيق الكورينثي. وفي هذا الصدد لا يمكن لأي خبير حربي إسبرطي أن يتوقع أن تكون مهمة مجموعة ليونيداس أكثر من غلق مؤقت لمعبر تيرموبييل، وهي ما صورها عليه هيرودوت، وليونيداس نفسه صورها بهذا الشكل فهدفه الأساسي بالتعامل مع الأسطول الإغريقي، كان تشجيع المدن الدول الإغريقية المترددة في بلاد اليونان الوسطى على مقاومة الفرس بدل الانصياع إليهم، وعلى أحسن تقدير إيقاف الفرس لمدة زمنية عند تيرموبييل إلى غاية وصول مدد كبير من جيش البيلوبونيز¹.

كان معبر تيرموبييل هو الممر الذي تتصل به برا تساليا ببيوتيا، كان طوله حوالي ستة (6) كيلومترات ولا يتجاوز عرضه الثمانية (8) أمتار في بعض أجزائه فمن هنا اكتسب أهميته الاستراتيجية لأنه كان يشكل المدخل الأساسي من تساليا إلى بلاد اليونان².

في طريقه إلى تيرموبييل مر ليونيداس بمدن الوسط اليوناني ليأخذ معه ما قدمته هذه المدن من مقاتلين، فمر ببيوتيا ليلتحق به التسييين (les Thespiens) والطيبين (les Thébains) بالإعداد التي ذكرناها سابقا، كما التحق به وهو في الطريق كل من الفوسيديين (Phocidiens)، المالديين (les Malidiens) واللوكرين (les Locriens) بعدد ألف (1000) من المتطوعين، وحين وصل الأسبرطيون وحلفاؤهم إلى تيرموبييل في الأسبوع الأول من شهر أوت 480 ق.م، تموقعوا في هذا المعبر في منعه من جدار دفاعي أعيد بناؤه في المكان الذي يعرف اليوم باسم باب الوسط بتيرموبييل "Porte du Milien"³.

¹ - Peter Green, op.cit, p168.

² - Henri Pigaillem, op.cit, op.cit, p50.

³ - Peter Green, op.cit, p170.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

كان تيرموبيل بحسب وصف هيرودوت موقعا حصينا فعزبي هذا المعبر يعلو جبل لا يمكن اجتيازه، صخري يمتد إلى غاية قمة أوتا (Oeta)، أما الجانب الشرقي فيحده البحر وبعض البحيرات والوديان، كان المعبر مغلقا بجدار كبير به بوابة، هذا الجدار كان قد بناه الفوسيديون خوفا من هجوم التساليين والزحف على أرضهم¹.

كان على ليونيداس القيام بأمرين مستعجلين بعد أخذ موقعه مع مقاتليه، الأول والأكثر أهمية هو تنظيم خطوط تأمين المؤونة لجنوده، وكان هذا الأمر يعتمد أساسا على القرية الأقرب من خطوط الأسبرطين وهي قرية ألبين (Alpènes)، غير أن ليونيداس قام بعملية تمشيط ليلية للمناطق المزروعة بين تيرموبيل ولاميا (Lamia) حيث قام جزء من قواته بإحراق المزارع وقطع الأشجار، في حين أن الجزء الآخر تكفل بالبحث عن مخازن الحبوب والطحين في المنطقة وأخذها وكذلك القطعان. أما الأمر الثاني فكان تكليف قادته بحماية وتأمين الطرق الجبلية التي كان يمكن للإعداء أن يلتفوا منها على قواته حيث كانت هناك طرق يعرفونها وطرق أخرى لا يعرفها سوى أدلاء محليين من تلك المنطقة². (أنظر الملحق 18 خرائط)

حين علم الإغريق باقتراب الفرس من معبر تيرموبيل تلقوا الخبر بنوع من الخوف وتداولوا فيما بينهم عن إمكانية انسحابهم أو بقائهم، كان البيلوبونيزيون مع العودة وتدعيم التحصينات عند مضيق كورينثة، إلا أن ليونيداس الذي كان يرى أنه لا يمكن التعويل على اللوكرين والفوسيديين في حراسة هذا المعبر، رأى أن يبقوا على أن يرسلوا إلى كل المدن الحليفة لطلب نجدة ضد الفرس، لأن عددهم يظل قليلا مقارنة بجيش الأعداء³. وفي يوم 13 أوت 480 ق.م، كان كزاكسيس بجيشه يتقدم على طريق ساحلية باتجاه منطقة لاميا (Lamia) مع خليج المالياك، أين كانت أوببي تختبأ خلف المضيق المحاذي لهذا الخليج. وفي اليوم الموالي أصبح الجيش على مشارف تيرموبيل نفسها في سهل كان يضيق شيئا فشيئا. كان يجتاز هذا السهل نهران هما السبيركيوس

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CLXXVI (176).

² - Peter Green, op.cit, p 172, 14.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CCVII (207).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

(Spercheios) والأسوبوس (Asopos)، واللذان كان وعاءهما يكاد يجف ولا يبدو أنه يكفي لسقي الجمال، والجياد والمقاتلين لجيش كزاركسيس.¹

حين كان الإغريق يتداولون في أمر البقاء أو الانسحاب، أرسل كزاركسيس فارسا ليتعرف على عددهم، وما الذي يقومون بفعله في ذلك المكان، لأنه تناهى إلى سمعه وهو في تساليا بأن جسما من بعض الفروق الإغريقية قد تجمعت في هذا المعبر وبأن الأسبرطيين يقودهم ليونيداس من سلالة هرقل (Hercule) كانوا على رأس أولئك المقاتلين. وبعد إقتراب الفارس من جيش الإغريق عاين المكان بدقة، غير أنه لم يتمكن من مشاهدة كل الفرق التي كانت خلف الجدار ولم يشاهد سوى المتقدمين منهم وهم الأسبرطيون الذين يحرسون المكان، فرأى أن بعضهم كان يقوم بتمارين رياضية، والبعض الآخر كانوا يصففون شعورهم ويعتنوا بها، وهو ما أدهش هذا الفارس وبعد معرفة عددهم بالتقريب عاد إلى معسكر كزاركسيس.²

كان الفرس قد نصبوا معسكرهم بالقرب من تراكيس (Trachis) بين نخري الأسوبوس (Asopos) وسبيركيوس (Spercheios) وكان ذلك دون شك من خلال مدينة (Anthéla)، كان أول عمل لكزاركسيس بعد توقفه في هذا المكان هو التعرف على نقاط القوة وأضعف لمن يغلقون معبر تيرموبيلا، ولذلك أرسل ذلك الفارس ليستطلع الأمر غير أن هذا الأخير لم يعد بمعلومات قاطعة، بل زاد على ذلك استغرابه من سلوك الأسبوطيين الذين يمارسون الرياضة مرتاحين ويمشطون شعورهم ويعتنون بها في مثل هذا الظرف، وهو ما اندهش له الفارس وكذلك الملك كزاركسيس، إذ أنه لم يكن مألوفا لديهم في الهضبة الإيرانية مثل هذه التصرفات ولا مثل هذه الطبيعية الجبلية الوعرة.³

استدعى كزاركسيس ديماراتوس (Démarate) الملك الأسبرطي الذي يعيش في جواره ليسأله عن هؤلاء الأسبرطيين ومدى استعدادهم للحرب وعن سلوكهم الغريب الذي نقله إليه فارس الاستطلاع، ليجيبه ديماراتوس دون إبطاء "لقد حدثتكم عن هذا الشعب حين خرجنا من بلاد

¹ - Peter Green, op.cit, p187.

² - Hérodote, op.cit, VII, CCVIII (208).

³ - Peter Green, op.cit, p188.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

فارس متوجهين نحو اليونان، وحين أخبرتك بما توقعته من أحداث استهزأت بكلامي، ورغم أني أعرض نفسي للخطر حين أقول لك الحقيقة التي لن تروق لك، ومع ذلك انصت إلي، إن هؤلاء الرجال المقاتلون جاؤوا لينازعوك هذا المعبر، وهم الآن يحرزون عليه، أما عن اعتناؤهم بشعورهم فهم معتادون على ذلك حين يكونون مستعدين لتقديم أرواحهم والتضحية بها في الحرب التي هم مقبلون عليها، وأعلم أيها الملك أنك إن تمكنت من هؤلاء الرجال، ومن الذين ظلوا في أسبرطة من اللاكيدوميين، لأن الأسبرطيين الذين تنوي حربهم الآن هم الأكثر شجاعة ومقدرة على الحرب في بلاد اليونان، أما ممالكهم ومدنهم فهي الأكثر ازدهارا وجمالا في البلاد.¹

ومقابل هذه الإجابة سأل كزاركيس ديمارتوس² مرة أخرى ما إذا كان الإغريق بهذا العدد الصغير قادرين على محاربة جيشه، فأجابه ديمارتوس: "سيدي عاملني كمدعٍ أو كاذبٍ إذا لم يتحقق ما أخبرتك به". ويتحدث ديودور الصقلي على أن كزاركيس أرسل سفراء إلى تيرمويل لمعرفة موقف الإغريق من الحرب، وقد طلب هؤلاء السفراء باسم الملك كزاركيس من المقاتلين الإغريق أن يضعوا السلاح، وأن يعودوا إلى بيوتهم بهدوء، وأن يكونوا حلفاء للفرس واعداء إياهم في نفس الوقت بأن يعطيهم بلادًا شاسعةً وأرضًا خصبةً أكثر من التي يملكونها. ويضيف ديودور الصقلي أن ليونيداس أجاب رسل كزاركيس أنه إذا كان يتوجب على الإغريق أن يكونوا حلفاء لملك الفرس، فسيكون ذلك أكثر من خلال أسلحتهم، وإذا أجبروا على حرب الفرس، فسيفعلون ذلك بكل نبل من أجل الحرية، أما بالنسبة للأراضي التي عرضها، فيجب أخذها والحصول عليها بالشجاعة والإقدام وليس بالجبن والخنوع.³

لم يقتنع كزاركيس لا برد الإغريق بحسب ديودور الصقلي،⁴ ولا بكلام ديمارتوس بحسب رواية هيرودوت،⁵ لكنه إنتظر أربعة أيام على أمل أن ينسحب الإغريق من المعبر ويفروا، وفي اليوم الخامس وبما أنهم لم ينسحبوا وتوضح له أنهم ظلوا في مواقعهم عنادا وشجاعة، ظهرت عليه

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CCIX (209).

² - Ibid.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, V.

⁴ - Ibid.

⁵ - Hérodote, op.cit, VII, CCX (210).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

علامات الغضب وأرسل لهم قطعة من جيشه من الميد (les Mèdes) والسيسين (les Cissiens)، وأمرهم بأن يجعلوا من أولئك الإغريق أسرى وأن يجلبوهم إليه¹، كان ذلك يوم 18 أوت 480 ق.م، وهو اليوم الذي وقعت فيه آخر المعارك البحرية في أرتميسيوم².

انهمر الميد بكل عنف على الإغريق لكن الإغريق أبادوا منهم أعدادا كبيرة، لتأتي بعدهم أعداد أخرى لكن الإغريق لم يتزحزحوا عن مواقعهم، وقد لاحظ الجميع وبكل وضوح حسب هيرودوت، وحتى الملك نفسه، أن أعداد المهاجمين كانت كبيرة لكن المقاتلين من بينهم كانوا قلة، وقد دامت هذه المعركة طوال النهار، وحين أدرك الميد أنه تم صدهم بكل قوة تراجعوا ليأخذ الفرس المبادرة هذه المرة³.

وقد أشار ديودور الصقلي إلى أن كزاركسيس دفع بالميد كأول دفعة تهاجم الإغريق، إما لشجاعتهم وإما بغية القضاء عليهم والتخلص منهم، لأن الميد لا يزالون يحتفظون بعزة نفس ونوع من الاستعلاء على غيرهم، لكونهم كانوا سادة على الفرس في زمن ليس بالبعيد، كما أن الملك دفع بأولئك الذين قُتل آباؤهم وإخوانهم في موقعة الماراثون عساهم يكونوا متأثرين، ويزيد حب الانتقام لذويهم من حماسهم في القتال⁴.

أظهرت المواجهة بين الميد والسيسين ضد الإغريق عجزا واضحا، خاصة حين يتلاقى المقاتلون وتلتحم الأجسام، فظهر تفوق أسلحة الإغريق الذين كانت حراهم ورماحهم أطول من التي يستعملها الميد، كما أنهم كانوا دروعهم كانت طويلة قادرة على حمايتهم، وأسلحتهم البرونزية الثقيلة أعطتهم أولوية وتفوقا لا جدال فيه على حساب رماح وحرايب الميد القصيرة، وكذلك دروعهم الكبيرة المصنوعة من خشب الصفصاف، والتي لا تسمح لهم بالحركة الحرة في المناطق الضيقة، كما هو الحال في معبر تيرموبيل⁵.

¹ - Hérodote, loc.cit.

² - Peter Green, op.cit, p199.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CCX (210)-CCXI (211).

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, VI (6).

⁵ - Peter Green, op.cit, p200.

ورغم ذلك كانت المواجهة شديدة العنف، كان الإغريق لا يفكرون سوى في حريتهم التي يحاربون من أجلها يحفزهم على القتال صمود وقوة ملكهم وقائدهم ليونيداس الذي كانت له مكانة بالغة الرفعة بينهم، كانوا محميين بشجاعتهم وبدروعهم الضخمة ونجحوا بصعوبة على رد الميد، حيث احدثوا بينهم أعدادا كبيرة من القتلى والجرحى، ليتم إستبدالهم بالسييسين (Cissiens) والساس (Saces)،¹ ورغم أن هؤلاء دخلوا المعركة في أريحية بدنية مقارنة بالإغريق الذين خاضوا معركة قوية ضد الميد، لأن هؤلاء استماتوا في الدفاع عن المعبر والصمود كالجدار المنيع في وجه القادمين الجدد ليلقوا نفس المصير الذي لقيه سابقهم، كان محاربو ليونيداس الإشداء يصنعون أمجاد الإغريق من خلال صمودهم وتمكنهم من النيل من أعدائهم بكفاءةهم الحربية وقوتهم البدنية ليتحولوا إلى رمز للمحاربين الإشداء والبواسل في بلاد الإغريق.²

أصبحت ساحة المعركة مليئة بالجثث المكومة، ومع ذلك لم يظهر على الإسرطيين أي علامة من علامات الضعف، ومن أجل إنهاء هذا المشهد السيء بالنسبة للملك كزأكسيس أرسل فرقة من النخبة الفارسية المشهورة والمعروفة باسم الخالدين (les Immortels) يقودهم هيدارناس (Hydranès)، توجهوا نحو الإغريق وكأهم سيحصلون على نصر سهل وأكيد، ولكن حين التحموا معهم لم يكن آدؤهم أفضل من الميد، لأن حراهم كانت أقصر من حراب الإغريق، ولأن الأمر تم في مكان ضيق فلم تفدهم كثرة العدد في شيء. كان اللاكيدومينيون يحاربون بطريقة احترافية إلى درجة أن أعداءهم ظهروا أمامهم كأناس لاخيرة لهم في فنون القتال، وفي كل مرة يتراجعون فيها تبقى صفوفهم متراصة، يوهمون أعداءهم بالفرار فيلحقون بهم مطلقين صيحات ومحدثين ضجيجا مخيفا غير أنهم حين يصلوا إليهم ويلتحموا معهم من جديد، يستعيد الإغريق تفوقهم ويوقعون بأعداد كبيرة منهم.³ ولم تدم المواجهة معهم زمنا طويلا حتى استطاع الإغريق نفعهم وتفريقهم ولكن مع حلول الليل أمر الملك بإيقاف القتال.⁴

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, VII (7).

² - Peter Green, op.cit, p 200.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CCXI (211).

⁴ - Peter Green, op.cit, p 201.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

وفي اليوم الموالي ومن أجل تدارك الأمور اختار كزاركسيس عددا كبيرا من مقاتليه المعروف عنهم الشجاعة وحضهم على إنهاء هذا الأمر مستعملا معهم طريقة الترغيب من خلال منحهم أعطيات مجزية، ثم ترهيبهم بحيث أعلن لهم أنه سيقوم بقتل كل من يفر من مواجهة الإغريق، اعتقد هؤلاء أن الإغريق لن يقدرُوا على مجابتهم نظرا للجروح البليغة التي لحقت بهم جراء معارك الماضي وكذلك نظرا لقلة عددهم¹، إلا أن مقاتلي ليونيداس كانوا في هذه المواجهة يتداولون على مواجهة الفرس أمة بعد أمة فيما عدا، الفوسيديين الذين كانوا مكلفين بحراسة طريق جبلية يمكن أن يلتف عليهم الفرس منها. رأى الفرس أنهم يحاربون كما حاربوا بالأمس دون تحقيق أي نصر ولا تقدم يذكر تركوا المعركة ولاذوا بالفرار².

يبدو أن نفسية المقاتلين الفرس بدأت تنهار مقابل تلك المقاومة الإغريقية الشرسة، وأصبح الملك كزاركسيس يتساءل عن المخرج من هذا المأزق معتبرا أنه بعد هذه المحاولات، لا يمكن لأي مقاتل أن يتحلى بالشجاعة من أجل العودة للمعركة من جديد ولم تعد له أي فكرة عن ما يمكن فعله³. وفي هذه الوقت العصيب تلقى كزاركسيس عرضا من رجل من ميلاس (Milas) يدعى إيفيالت (Ephialtes) بن أوريدام (Eurydeme) أعاد الأمل إلى كزاركسيس في عبور تيرموبيلا، وقد تقدم الرجل بهذا العرض طمعا في عطايا مجزية من الملك، هذا الخائن كما وصفه هيرودوت كان خبيرا بالطرق الجبلية في هذه المنطقة، ولهذا عرض على الملك أن يقود محاربة عبر طريق جبلية توصلهم إلى خلف مواقع المحاربين الإغريق⁴.

وقد قبل كزاركسيس هذا العرض بفرح شديد بحسب ديودور الصقلي ليغمره بالهدايا والأعطيات ويرسله مع عشرين ألفا (20000) من محاربيه⁵ يقودهم هيدراناس (Hydranès) قائد المقاتلين الخالدين (Immortels)، فبعد أحداث اليومين الماضيين ولإنجاز عملية دقيقة مثل هذه لا بد من انتخاب فرق محترفة ومدربة بشكل جيد لتقوم بالمهمة على أكمل وجه، وقد أمر كزاركسيس

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, VIII (8).

² - Hérodote, op.cit, VII, CCXII (212).

³ - Peter Green, op.cit, p 203.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CCXIII (213).

⁵ - Diodore de Sicile, XI, VIII, (8).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

هيدراناس باتباع إيفالت وأن ينطلق مع الغسق حين تشتعل نيران الليل لأن الطريق تستغرق الليل كله، يمكن أن يكون في آخرها مقاومة خاصة من طرف الفوسيديين¹.

في هذه الظروف إستطاع جندي من جيش كزاركيس يدعى تيراستياداس (Tyraștiadas) وهو إغريقي من مدينة كيم (Cyme) الهروب من المعسكر مع حلول الليل، وذهب ليحذر ليونيداس من مشروع كزاركيس الذي يرمي إلى الالتفاف من خلفهم،² وبسبب هذا الخبر اجتمع الإغريق منتصف تلك الليلة ليتداولوا في الأمر، وفي هذا الخطر المحدق بهم. اقترح بعضهم الانسحاب من المعبر والالتحاق بالحلفاء الإغريق في مضيق كورينثية لأنه يستحيل إنقاذ الجيش من خلال البقاء والمقاومة. كان ليونيداس يرى في هذه الفرصة مجدا عظيما، لذلك أرسل بقية الإغريق وحثهم على حماية الوطن في معارك أخرى، وأمر اللاكيدومينيين بالبقاء وعدم ترك المعبر مهما كانت الظروف، ومع هذه المجموعة من الأسبرطيين ومن بقي معهم من التسبيين (Thespiens) وعدد من الحلفاء لم يعد عدد الإغريق المدافعين عن المعبر يتجاوز الخمسمائة (500) ، واللذين كانوا يذهبون بأرجلهم نحو الموت من أجل اليونان³.

وصف هيرودوت ذلك الطريق الذي سلكه هيدراناس بكتييته بأنه بدأ في نهر أسوبوس (Asopos) الذي يصب من فتحة في الجبل المسمى أنوبي (Anopée)، وكذلك اسم ذلك الطريق، وهو يبدأ بصعود ذلك الجبل وينتهي عند مدينة ألبين (Alpène)، وهي أول بلاد اللوكرين (Locriens) من جهة الميليين (Méliens) بالقرب من صخرة ميلامبيدج (Melampyge)، أين يقطن شعب الكيركوبس (Cercopes) وفي هذه الناحية يضيق الطريق⁴.

تسلك الفرس الجبل طوال الليل ومع بزوغ الفجر أصبحوا بالقرب من تلة نيفروبوليس (Nevropolis) ثم اجتازوا غابة لشجر البلوط كانت كثيفة، كانت العواصف الأخيرة قد أسقطت على الأرض عددا كبيرا من الأوراق الجافة الأمر الذي جعل حركة مشي المقاتلين مسموعة بسبب

¹ - Peter Green, op.cit, p 204.

² - Diodore de Sicile, loc.cit.

³ - Ibid, XI, IX, (9).

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CCXVI (216).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

الضجيج الذي تحدّثه أقدامهم، هي الإشارة الأولى التي تلقفها الفوسيديون الذين أدركوا أن القادمين عددهم كان كبيراً، غير أن حراسهم وبمجرد ما بدأوا في إيقاظ زملائهم والاستعداد لأخذ سلاحهم، حتى وجدوا هيدراناس قد صار قريباً منهم. كان هيدراناس يعتقد أنهم أسبرطيون، لكن حين أدرك أنهم فوسيديون قام بتقديم الرماة الذين قاموا بإمطارهم بعدد كبير من السهام إلى درجة أن الفوسيديين قاموا بالاختباء وراء تلة قريبة للإحتماء بها.¹

استعد الفوسيديون بعد ذلك للقاء الفرس بكل شجاعة إلا أن هيدراناس ومقاتلوه نزلوا بسرعة إلى أسفل الجبل يقودهم إيفالت دون الاشتباك معهم،² وبعد زمن قليل من طلوع النهار، نزل الفوسيديون من الجبل بأمر من ليونيداس، فقد استطاع هيداراناس المرور خلف المعبر، كان ليونيداس قد أرسل حلفاءه من الإغريق سواء البيلوبيزيين أو المحليين إلى داخل بلاد اليونان مفضلاً بذلك إدخارهم امعارك قادمة مع الفرس وظل هو والثلاثمائة من الأسبرطيين ليقاوم الفرس حتى الموت عساه يحقق نبوءة معبد دلفي.³ تلك النبوءة التي توقعت منذ بداية إرهابات هذه الحرب إما أن تدمر أسبرطة بفعل الغزو الفارسي، أو أن يهلك ملكها في الحرب.⁴

وفي هذا الإطار يمكننا أن نتساءل عن سبب إبقاء ليونيداس معه كل من الطيبين (Thébains) والتسبيين (Thespiens) من أجل هذه المعركة حتى الموت؟ أما بالنسبة للطيبين فيرجح أنهم كانوا معارضين سياسيين لنظام مدينة طيبة (Thèbes) ولن يستفيدوا شيئاً من رجوعهم إلى المدينة، وأما فيما يخص التسبيين فيعتقد أنهم ترجوا ليونيداس من أجل إبقائهم لكي يقاسموه المصير الذي سيلقاه هو ومن معه من الأسبرطيين، وليثبتوا له في نفس الوقت بأنهم ليسوا أقل وطنية منه ومن مقاتليه.⁵

كان في معسكر ليونيداس عراف إغريقي من أخارنانيا (Acarname) قد تنبأ من خلال قراءته لطوال المقاتلين أنهم سيقتلون في هذا المعبر في يوم الغد، وبعد ذلك وصلت أخبار التفاف

¹ - Peter Green, op.cit, p 205.

² - Hérodote, op.cit, VII, CCXVIII (218).

³ - Peter Green, op.cit, p 206.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CCXX (220).

⁵ - Peter Green, op.cit, pp 206-207.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

هيدراناس مع إنييلات عبر الجبل، ورغم ذلك قرر ليونيداس البقاء والتضحية مع جنوده في هذا المكان المتقدم من بلاد اليونان.¹ أما الفرق الأخرى من المتحالفين معه من التجيئين (Tégéates) واللوكرين (Lociens) والمونتيين (Mantiniens) والكورينثيين (les Corinthiens) ومقاتلي أورخومانس (Orchomens)، وموكيناي (Mycène)، فقد توجهوا نحو الجنوب الشرقي في أمان تام في تلك الطريق الساحلية الضيقة بين الجبل والبحر، تاركين مصير وشرف اليونان بين أيدي ليونيداس ومقاتليه، وتجدد الإشارة هنا إلى أنه لو تم إخلاء تيرموبيل فلن تسلم الفرق الإغريقية من خيالة كزاركيس وهي في حالة تراجع، كما أن أسطول اليونان في أرتيميسيون (Artimisiun) سيصبح في قبضة الفرس محاصراً بحراً وبراً، لذلك كان ليونيداس يعي جيداً ما يفعل من خلال هذه التضحية التي حمى بها كل بلاد اليونان.²

مع شروق الشمس أراق كزاركيس كميات من الخمر إرضاء للآلهة وبعدها انتظر إلى غاية الوقت المتفق عليه مع دليله إنييلات، أمر بتحرك الجيش نحو معبر تيرموبيل³، كان الصمت يخيم على مقاتلي ليونيداس لأنه لم يعد هناك ما يقال، فقد اقتربت ساعة الحسم، لقد أمر ليونيداس جنوده منذ الصباح الباكر بتناول وجبة الصباح، وجبة جيدة لكي يستطيعوا الإستماتة في القتال أطول وقت ممكن، وحين أخبرهم أحد الطراكيين (Trackinien) أن الفرس قد حضروا لهم أعداد عظيمة من النبال قد تغطي ضوء الشمس، أجابوا متهمكين: "هذا رائع لإننا بذلك سنقاتل في الظل"، كان الجميع متشوقاً لتلك التضحية إلى درجة أنه حين طلب ليونيداس من مقاتليه أن يتطوع أحدهم ويذهب إلى أسبرطه برسالة من عنده، رفض الجميع أي الثلاثمائة، فالأول أجابه: "أنا قدمت معك لأقاتل لا لإيصال الرسائل"، أما الثاني فأجابه: "أنا أقوم بواجبي بشكل أفضل إذا بقيت هنا كما أن الأخبار ستكون أكثر أهمية إذا بقيت هنا" ثم أمسكا بدرعيهما وأخذا مكانهما في الصفوف⁴.

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CXIX (219).

² - Peter Green, op.cit, p 207.

³ - Hérodote, op.cit, VII, CCXXIII (223).

⁴ - Peter Green, op.cit, p 208.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

بدأ تحرك جيش كزاركسيس في حوالي الساعة التاسعة صباحا، كان على ليونيداس أن يجعل هذه المواجهة مكلفة قدر ما يستطيع¹، كان الإغريق يتقدمون إلى موت محقق، تقدموا إلى أماكن لم يصلوا إليها في المواجهات السابقة، تقدموا إلى المنطقة الأكثر إتساعا في المعبر، ففي الأيام السابقة لم يتجاوزوا المنطقة الضيق في المعبر، لكن هذه المرة ستكون في فضاء واسع.²

كلما اسرعوا بالتقدم كلما تمكنوا من قتل عدد كبير من الفرس قبل أن يخرج هيدراناس من بين الأشجار التي تغطي طرف الجبل، كان ملك أسبرطه يعلم أن وقته محدودا، لذلك انقضوا على أعدائهم بكل عنف ويأس، على تلك الجموع من المقاتلين الفرس³، ويتحدث هيرودوت عن أعداد كبيرة من الجيش الفارسي تم قتلها من طرف الأسبرطيين، كان قادتهم خلفهم يحملون السياط ويضربون الجنود للتقدم ويحضونهم على الاندفاع إلى الأمام باستمرار، سقط الكثير منهم في البحر ولقوا حتفهم غرقا، كما قُتل الكثيرون تحت إقدام فرقة العسكرية المتقدمة كالآلة إلى الأمام، كان الإغريق يقاتلون وينتظرون الموت في أية لحظة من طرف الملتفين من خلفهم وراء الجبل، كان الكثير منهم قد كسرت حراهم ولا يقاتلون إلا بسيوفهم⁴.

وجاءت اللحظة التي قتل فيها ليونيداس، حينها قاتل الأسبرطيون بالقرب من جثته جفعا عنها بكل ضراوة إلى أن وصل نبأ وصول الملتفين من خلفهم، ليتراجع من بقي منهم حيا إلى الخلف قليلا وبصفوف منتظمة إلى الجزء الضيق من المعبر وليواصلوا قتالهم هنا لك بما بقي معهم من سلاح بالخناجر إن وجدت، وإلا بالأيدي والأسنان، كانت كثرة أعداد الفرس كفيلا بإفنائهم جميعا⁵. سقط ليونيداس بعد ما تلقى وابلا من سهام الفرس، وقتل الأسبرطيون الثلاثمائة من حوله دون أن يبقى منهم أحد، وتراكموا على جسد ملكهم⁶. سقط أيضا في هذه المعركة أسبرطيون من بيوت مرموقة في أسبرطة، كان هيرودوت يعرف أسماءهم ومكانتهم كما كتب في تاريخه. الفرس

¹ - Peter Green, op.cit, p 209.

² - Hérodote, op.cit, VII, CCXXIII (223).

³ - Peter Green, loc.cit.

⁴ - Hérodote, loc.cit.

⁵ - Peter Green, op.cit, pp 209-210.

⁶ - Henri Pegaillem, op.cit, p50.

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

أيضا سقط منهم في هذه المواجهة قادة كبار من البيت الملكي من بينهم أيروكوماس (Ayrocomès) وهيبيرونثاس (Hypéranthes) وهما الإثنان من أبناء الملك داريوس¹.

أما ديودور الصقلي فقد مجد وأثنى على العمل الذي قام به ليونيداس ومقاتلوه قائلا: "من يمكن أن لا يعجب بموت هؤلاء الشجعان، الذين أجمعو على منح حياتهم بكل فرح واقتناع من أجل سلام اليونان والذين فضلوا أن يموتوا أبطالا على أن يعيشوا عبيدا"².

انتهى كل شيء قبل منتصف نهار المعركة، وفي أواخر أحداث المواجهة صعد هابرونيكوس (Habronichos) وهو ضابط مكلف بالتواصل مع الأسطول الإغريقي، إلى زورقة السريع وذهب إلى أرتيميسيوم مع ذلك الخبر المفجع. تم تعلم من تبقى حيا من الجنود الطبييين بالحديد الأحمر الساخن وهي علامة استعباد ملك الفرس، وبعد منتصف النهار شرع كزركسيس في معاينة ميدان المعركة رفقة كبار قادته، وحين عثروا على جثة ليونيداس أمر الملك بقطع رأسه وتعليقه على وتد، وهو تقليد تعتمده الشعوب البربرية بحسب الإغريق، كان ليونيداس هو الهدف الرئيسي الذي كان يثير غضبه، ولولا ذلك لما مثل كزركسيس بجثته لأن الفرس كانوا من الشعوب الذين يوقرون ويحترمون المقاتلين الشجعان.³

كانت بطولة ليونيداس ومقاتليه رغم الخسارة قد صنعت لهم مجدا أكثر من المجد الذي يصنعه النصر المؤزر، وقد نقشت في مكان المعركة كلمات على الصخر مفادها: "أيها العابر، قل لأسيرطه أننا متنا هنا طاعة وامثالاً لقوانينها"⁴. وقد قال ديودور الصقلي في مصير هؤلاء الأبطال معجبا بما فعلوه: "كم هو مجيد مصير الذين قُتلوا في تيرموبيلا، أيُّ نهاية رائعة أنتهوا إليها، لقد أصبح قبرهم قداسا، وبدل الدموع أصبح لديهم ذكرى لاتنسى، موتهم صار يذكر على كل الألسن، لا الغبار ولا الزمن بطوله يستطيعان أن يبيدا ذلك الرداء الجنائزي الذي غطى هؤلاء الأبطال، فالمكان المقدس الذي يرقدون فيه احتوى على أمجاد اليونان..."⁵

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CCXXIII (224).

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XI (12).

³ - Peter Green, op.cit, p 210.

⁴ - Henri Pegailllem, op.cit, p 52.

⁵ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XI (11).

الباب الأول- الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس

قام كزاركيس بمراسم التشريف للمقاتلين الفرس الذين قتلوا أعترافا بشجاعتهم، وفي نفس الوقت أعطى أوامره بأن تخفى جثث الموتى من على الطريق، وتوضع في حفر تم حفرها، وتغطى بالأوراق ويوضع عليها التراب ، كان من الطبيعي أن يظهر كزاركسيس نصره على الإغريق في هذا المكان، إلا أنه كان خائفا من إظهار الثمن الذي دفعه والذي قدر بآلاف المقاتلين الفرس، وهو ثمن باهض يستحق أن يخفيه حفاظا على معنويات جيشه.¹

¹- Peter Green, loc.cit.

الفصل الخامس

المعارك الحاسمة بين الفرس والاعريق ونهاية

المواجهات

—I معركة سلامين (Salamine) 480 ق.م

—II معركة بلاتيا (Platéés) 479 ق.م

—III معركة ميكالي (Mycalé) 479 ق.م

I- معركة سلامين (Salamine) 480 ق.م

1- غزو كزاركسيس لإقليم أتيكا واحتلال أثينا

كان اليوم نفسه الذي وقع فيه الهجوم الأخير على قوات ليونيداس في تيرموبيل وهو يوم 20 أوت 480 ق.م، هو نفسه الذي قام فيه الأسطول الفارسي بمهاجمة الأسطول الإغريقي في أرتيمسيوم، وهو ما تحدثنا عنه سابقا وعرفناه بهجوم اليوم الثالث. في ليلة ذلك اليوم وبعد انتهاء الالتحام بين المحاربين وعودة كل إلى مرفأه، وصل الزورق السريع لها برونيكوس (Habronychos) في حوالي الساعة الثامنة ليلا حاملا معه خبر سقوط معبر تيرموبيل في يد الفرس ومقتل ليونيداس في ذلك المكان.¹

كان تيمستوكل يتصور أنه في حالة تحييد القوات البحرية الأيونية والكارية عن الأسطول الفارسي يمكن تحقيق التفوق على بقية الأسطول بكل سهولة، لذلك وبعد سماعه لبحر سقوط تيرموبيل إختار أفضل السفن الأثينية وطاف على الأماكن التي بها عيون الماء الشروب، وكتب عليها نقشا على الصخور عبارات موجهة للأيونيين يدعوهم فيها إلى فك ارتباطهم بالفرس والانحياز للإغريق الذين تربطهم بهم صلات قرابة وثيقة، وأن حرب الفرس ضد الإغريق كان سببها في الأصل نصره الإغريق للأيونيين². كان من الواضح أنه مع سقوط معبر تيرموبيل لم تعد وضعية الأسطول الإغريقي في أرتيمسيوم آمنة، ولذلك أصبح من المحتم عليهم الانسحاب في أسرع وقت، رغم أنه سيكون انسحابا مخزيا بعد تلك الندية التي فرضها الإغريق على القوات البحرية الفارسية التي كانت متفوقة في العدد تفوقا كبيرا.³

في هذا الوضع أصبحت كل من بيوتيا (Béotie) وأتيكا (Attique) مهددتان بالغزو البري الفارسي، فقد أدرك الإغريق الآن أن انهمار قوات الفرس على بلاد اليونان بعد كارثة تيرموبيل تستوجب تغييرا شاملا في استراتيجية الدفاع،⁴ لذلك وفي نفس تلك الليلة جمع تيمستوكل كل

¹ - Peter Green, op.cit, pp 212, 215.

² - Hérodote, op.cit, VII, XXII (22).

³ - Peter Green, op.cit, p 215.

⁴ - Henri Pegaillem, op.cit, p 52.

قادة الأسطول على الشاطئ وأخبرهم أنه لابد للأسطول أن يبحر دون أي تأخير تحت جنح الظلام، وليس هنالك أي وقت للتكفل بالمدينين في المنطقة. في ذلك الوقت بدأ الجنود يجمعون أكبر عدد ممكن من القطعان لذبح جزء منها وأكلها من أجل القدرة على السفر طوال الليل وكذلك لعدم تركها من خلفهم للفرس لاستهلاكها، ومن أجل تلك الغاية تم إشعال الكثير من النيران على الشاطئ بأخشاب تلك المراكب المحطمة، وذلك لهدفين أساسيين: الأول هو شي كمية كبيرة من لحم تلك القطعان، والثاني من أجل إيهام الأعداء ببقائهم في المعسكر وعدم لفت انتباههم إلى الرحيل المخطط له. وما إن أنهى المقاتلون وجبتهم حتى أبحروا في اتجاه الجنوب مجتازين مياه أوبيي (Eubée).¹

بعد زمن ليس بالطويل من رحيل الإغريق عن أرتيميسيوم وصل رجل من مدينة هيسيبي (Histiée) إلى معسكر الفرس في أفيتاس يخبرهم برحيل الإغريق وفرارهم من أرتيميسيوم، غير أنهم لم يثقوا في كلامه وتحفظوا عليه بغرض التحقق من المعلومات التي أوردتها إليهم من خلال إرسال بعض المراكب الخفيفة، وبعد التحقق من صحة كلامه أبحر الأسطول الفارسي بأكمله مع شروق الشمس من أفيتاس إلى أرتيميسيوم، ليحتلوا على الفور مدينة هيسيبي الواقعة إلى الغرب من أرتيميسيوم على إقليم أوبي (Eubée) (انظر الملحق 18 خرائط) ثم مشطوا تلك المنطقة بحثاً عن مؤونة لمحاربي لأسطول.²

أما عن كزاركسيس، فبعد تأكده من كلام ديمارات حول قوة وصلابة وإستماتة الأسبرطين في القتال والدفاع عن وطنهم أحضر إليه الملك المنفي ديمارات مرة أخرى ليطلب رأيه في كيفية التغلب على هؤلاء اللاكيديمونيون.³ وقد اقترح عليه ديمارات إرسال قوة بحرية إلى جنوب البيلوبونيز يكون مقرها الرئيسي جزيرة سيتار (Cythère)، لتكون قاعدة لعمليات الأسطول، ومن هناك يقترح ديمارات أنه يمكننا قيادة عمليات عسكرية في شبه جزيرة البيلوبونيز، وهو مركز نفوذ اللاكيدومينيون، على أن يتم ذلك تحت قيادته هو شخصياً، خاصة بعد موت ليونيداس وشغور

¹ - Peter Green, op.cit, p 221.

² - Hérodote, op.cit, VIII, XXIII (23).

³ - Ibid, VII, CCXXXIV, p 234).

منصب الملك في أسبرطة، وفي حضم ذلك يكون الجيش البري بقيادة الملك كزاركسيس يتقدم في بلاد اليونان الوسطى. ومن خلال هذه الاستراتيجية أي فتح جبهتان إحداهما في وسط اليونان والثانية في جنوب البيلوبونيز تكون ناجحة لأنه لا اللاكيديمينيون سيرسلون المدد إلى إغريق الوسط، ولا إغريق الوسط يستطيعون مجابهة الكثرة العددية لجيش الملك كزاركسيس¹.

كاد كزاركسيس أن يقتنع بكلام ديمارات لولا تدخل أخيميناس (Achéménès) الذي أبدى رأيته في كلام ديمارات، وحذر الملك من فصل القوات البرية عن الأسطول البحري، مذكراً إياه بقدرة الإغريق على التكيف والتعلم بسرعة في المعارك البحرية وكذا بصمود الإغريق في الحرب البرية. وأضاف أنه بعد الخسارة التي تكبدها الفرس على مستوى الأسطول البحري، والتي تقدر بفقدان مئات من السفن الحربية، وكذا آلاف المقاتلين سواء في الجيش البري أو البحري، سيصبح فصل الأسطول عن الجيش البري مغامرة كبرى لا يمكن توقع نتيجتها، أما عن رأي ديمارات فقد وصفه أخيميناس بأنه رجل يغار من المجد الذي أصبح عليه الملك كزاركسيس، وأنه خائن لمصالح الملك لأن هذا هو السلوك الطبيعي للإغريق².

حين كان محاربو الأسطول الفارسي في مدينة هيسيتي، وصل إليهم رسول من الملك كزاركسيس يدعو من أراد منهم مشاهدة آثار وبقايا معركة تيرموبييل، لكي يعاينوا بأم أعينهم أي نصر عظيم حققه كزاركسيس على أعدائه، وأي جيش مقاتل يملك الفرس، وقد فعل الملك ذلك لكي يستفيد من نصر تيرموبييل، ويرفع من خلاله معنويات جنوده. وإذا كان البحارة الفرس قد وصلوا إلى هيسيتي يوم 22 أوت 480 ق.م، فإنهم قضوا اليوم الموالي وهو يوم 23 أوت في تيرموبييل يعاينون جثث الموتى التي وضعها جنود كزاركسيس بشكل مدروس إختلطت فيه أجساد المقاتلين الأسبرطيين بمن كان معهم من خدم ومعاونين³، وقد تم إخفاء عدد كبير من جثث

¹ - Peter Green, op.cit, p216.

² - Hérodote, op.cit, VII, CCXXXVI (236).

³ - Peter Green, op.cit, p223.

المقاتلين الفرس كما سبق الإشارة إلى ذلك، وقد قدر هيرودوت أولئك القتلى بعشرين ألفاً (20000)، لم يترك منهم كزاركسيس سوى ألفٍ واحدة ظاهرة والباقي تم إخفاؤه.¹

في اليوم الموالي هو يوم 23 أوت 480 ق.م، عادت المراكب المحملة بالجنود الفرس الذين كانوا في تيرموبيلا يشاهدون آثار المعارك هناك، أما جيش كزاركسيس البري فقد إتجه نحو بلاد اليونان الوسطى، وقد توجهت مفرزة من المشاة ومن الفرسان وكانوا من نخبة مقاتلي كزاركسيس إلى مدينة أثينا كطليعة جيش لاحتلالها، وكذلك لاحتلال فالير (Phalère)، كما تم إرسال أمر إلى الأسطول البحري بعدم التحرك قبل السادس والعشرين من شهر أوت 480 ق.م، وكانت استراتيجية كزاركسيس في هذا الإطار هي التوغل في الأراضي اليونانية من ناحية الجنوب من أجل تأمين أماكن رسو الأسطول، وكذلك ضمان وجود عيون الماء.² أما عن فارق الثلاثة أيام بين مسير الجيش البري والأسطول البحري فقد عُرفَ عند الإغريق أن المسافة بين تيرموبيلا ومدينة طيبة (Thèbes) تستغرق مدة يوم ونصف، ونفس المدة يستغرقها المسير من طيبة إلى أثينا (Athènes).³ أما كزاركسيس فقد سار بجزء كبير من الجيش نحو أثينا وأرسل جزءاً آخر بإتجاه اليمين أو الجنوب الغربي أي بإتجاه مدينة دلفي (Delphes) أين تتكسد الكنوز في معبد الاله أبولون (Appollon).⁴

عرج كزاركسيس في طريقه على مدينة دوريد (Doride) على الطريق المؤدية إلى بلاد الفوسيديين (Phocidiens) حلفاء ليونيداس، ورغم أن التساليين حرضوا الفرس على الدوريديين كما حرضوهم على الفوسيديين، إلا أن الفرس لم يفعلوا أي شيء في دوريد ما دام السكان لم يبادروهم بالعداء، إلا أنهم حين وصلوا فوسيد (Phocide)، أحرقوا المدينة، وقطعوا اشجارها، ولم تسلم منهم حتى المعابد، وكان ذلك نزولاً عند رغبة التساليين، أم السكان فقد نجوا بأنفسهم قبل وصول الفرس إلى جبل بارناس (Parnasse) وكذلك لجؤوا إلى جيرانهم اللوكريين في أمفيسا

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, XXIV (24).

² - Peter Green, op.cit, pp 223-224.

³ - Ibid.

⁴ - Henri Pegaillem, op.cit, p 52.

(Amphissa) وهي مدينة تقع في سهل غريزا (Grisa)¹. نُهبت المعابد في فوسيد، وما كان قريبا منها من قرى ومدن، لم تسلم مزرعة ولا مدينة ولا معبد من الحرق، لم تسلم قرية واحدة في وادي سيفيز (Cephise)، أصبح بالإمكان رؤية أعمدة الدخان تتصاعد من أورخوميناس (Orchomènes) ببيونا (Béotie)، كان ذلك درسا كي يدخلوا في طاعة الملك وينضموا إلى جيشه². أجبر كزاركسيس المالين (les Maliens) وهم من سكان هذه المناطق على الانضمام إلى جيشه وكذلك اللوكريين الغربيين (Locriens)، أما البيوتيين فقد انتظروا قدومه كي يلتحقوا بجيشه، وبعد ثمانية أيام من مغادرته تيرموبيلا أصبح كزاركسيس بجيشه على حدود أتيكا، ذلك الجيش الذي عوض قتلى جنوده في تيرموبيلا بمن التحقوا به من إقليم بيوتيا وفوسيد³.

أما الأسطول الإغريقي فقد توجه من أرتيميسيوم إلى سلامين (Salamine) أين توقف هناك بطلب حثيث من الأثينيين بحسب هيرودوت، هؤلاء الأثينيون الذين كانوا يعتقدون أن البيلوبونيزيين المرابطين في بيوتيا كانوا هنالك بجميع قواتهم، غير أنهم أدركوا أخيرا أن البيلوبونيزيين لا يسعون إلا وراء حماية مناطقهم فهم يعملون على غلق مضيق كورينثة دون الإكترات بمصير باقي اليونان⁴.

وفي الوقت الذي رسى فيه باقي أسطول الإغريق في سلامين، رست المراكب الأثينية بقيادة تيموستوكل في فالير (Phalère) القريبة من أثينا، كان لديه الكثير مما سيقوم بفعله مع قصر الوقت المنوح له، والذي لا يتجاوز اليومين قبل وصول جيش كزاركسيس إلى أثينا. أصدر قرارا بإخلاء مدينة أثينا وترحيل سكانها إلى سلامين أو جزيرة إيجين (Egine) أو حتى إلى تريزين (Trézène) الأكثر بعدا. كانت العملية تتطلب قيمة معتبرة من الأموال للتكفل بعملية النقل وتأمين مصاريف البحارة، لذلك استطاع أعضاء الأريوباجوس (Aréopage) الأثرياء وهم من الأرخونات (Archontes) القدماء تجميع ستين (60) تالنتا (Talents) لهذا الغرض، وذلك من

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, XXI-XXII (21-22).

² - Peter Green, op.cit, pp 225-226.

³ - Henri Pegaillem, op.cit, p 52.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, XL (40).

خلال دفع ثمانية دراخمت (Drachmes) إلى كمل بَحَّارٍ من بحارة الأسطول، وهي قيمة تعادل مؤونة شهر بالنسبة له¹.

أرسل الأثينيون أسرهم إلى كل من تريزين (Trézène)، يجين (Egine) وسلامين (Slamine) وصاروا يتدافعون للخروج من أتيكا (Attique) طاعة كما قال هيرودوت، لنبوءة المعبد، معبد دلفي، خاصة في هذا الفصل من السنة، وقد تمكنت أعداد كبيرة من الإبحار على سفن الأسطول الإغريقي²، ومع ذلك ظل الآلاف من الفلاحين في المدينة مفضلين الاختباء في الجبال المجاورة، تاركين مصيرهم للحظ حين تصل قوات كزاركسيس³. كان مشهد الرحيل ورفع المراسي بالنسبة لأهل مدينة أثينا مخزنا بالنسبة للبعض، وعملا شجاعا وجريئا بالنسبة للآخرين⁴. كان هذا العمل العظيم يحسب لخصال تيميوستوكل المتميزة، أما الخصلة الثانية فهي اتخاذه قرار عودة غريمه أريستيد (Aristide) من المنفى، وكذلك كل المنفيين السياسيين والسماح لهم بالمشاركة في النقاشات مع المواطنين الأثينيين، والمشاركة في الدفاع عن اليونان⁵.

تجمعت كل قطع الأسطول الإغريقي في سلامين بعد التحاق عدد من المراكب التي كانت في ميناء بوهون (Pohon) بمدينة تريزين (Trézène)، وأصبح عدد السفن الإغريقية في سلامين أكثر مما كان عليه في أريتميسيوم وظلت القيادة مسندة لأوريبياد حسب هيرودوت، رغم أنه لا ينحدر من بيت ملكي في أسبرطة. كان الأسطول الراسي في خليج سلامين مؤلفا من سفن البيلوبونيزيين بمن فيهم الكورينثيين (les Corinthiens)، السيكيونيين (les Sicyoniens)، الإيودوريين ، التريزينيين (Les Trézèniens)، الهيرميونيين (les Hirmioniens)، أما سكان وسط اليونان فكان للأثينيين النصيب الأكبر من السفن التي وصل عددها إلى مائة وثمانين (180) سفينة، وذلك من دون احتساب سفن البلاتيين الذين ظلوا منشغلين بنقل نسائهم وعبيدهم من

¹ - Peter Green, op.cit, pp 230-231.

² - Hérodote, op.cit, VIII, XLI (41).

³ - Peter Green, op.cit, p231.

⁴ - Plutarque, vie de Thémistocle, op.cit, X, 8.

⁵ - Ibid, XI, 1.

أرض بيوتيا،¹ وربما تم تكليفهم بمهام أخرى، الأمر الذي منعهم من المشاركة في الأسطول الذي تجمع في سلامين. وقد كانت سفن الميغاريين (les Mégariens) وهم دوريون ينحدرون من كورينثة، أما سكان الجزر فكانت مراكبهم حاضرة في سلامين وهم شعوب الإيجينيات (les Eginètes) وهم أيضا دوريون ينحدرون من إبيدور (Epidaure)، الخالكيديين (les Chalcidiens)، الإيريتريين (les Erétréiens)، وسكان جزر كيوس (Céos)، وناكسوس (Naxos)، كما قدم أيضا السيثيريون (Styréens) سفنهم، والسيرفيون (les Sérifiens) وسكان جزيرة ميلوس (Mélus).²

تم تجميع الأسطول الإغريقي منذ يوم 27 أوت 480 ق.م في خلجان جزيرة سلامين الشرقية، وقد زادت أعداد وحداته، غير أن عدد مراكبه وخاصة السفن ثلاثية صفوف المجاديف، ظل محل اختلاف بين المصادر القديمة.³ ففي الوقت الذي حدده هيرودوت بثلاثمائة وثمانية وسبعين (378) سفينة، دون احتساب المراكب الصغيرة ذات الخمسين مجدفاً،⁴ أفاد إيسخولوس أنه كان في حدود الثلاثمائة والعشرة (310) من السفن فقط.⁵ أما ثوكيديديوس (Thucydides) فأفاد بأنه يصل إلى ثلاث مائة (300) سفينة كان للأثين منها الثلثين⁶، ويبدو أن أقرب المصادر إلى الحقيقة هو إيسخولوس (أنظر الملحق 3 صور) لكونه كان شاهداً ومشاركاً في هذه الحرب.⁷

وفي الوقت الذي إتجه فيه كزاركسيس نحو أثينا كما سبق ذكر ذلك، توجهت فرق من جيشه نحو مدينة دلفي لنهب أموال معبد أبولون، ويتحدث هيرودوت في هذا الإطار عن أن كزاركسيس كان يعرف الكثير عن تلك الأشياء الثمينة الموجودة هناك، وعن تلك الثروات الطائلة خاصة الأعطيات التي منحها لهم كريسوس ابن آليات (Crésus fils d'Alyatte)، ولذلك يسترسل هيرودوت واصفاً موقف الدلفيين: "أصاب الذعر الدلفيين فما كان منهم إلا أن استطلعوا رأي

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, XLIII-XLIV (43-44).

² - Ibid, XLV-XLVI (54-46).

³ - Peter Green, op.cit, p 234.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, XLVIII (48).

⁵ - Peter Green, loc.cit.

⁶ - Thucydide, op.cit, I, LXXIV (74), P 69.

⁷ - Peter Green, loc.cit.

الإله في إمكانية نقل أمواله إلى خارج المدينة أو إلى مكان آخر، إلا أن الإله أجابهم عن طريق الكاهنة المكلفة بتعبير نبوءات الإله أبولون (la Pythie) أن الإله قادر على حماية ممتلكاته، وعلى هذا الأساس لم ينشغل الدلفيون إلا بأنفسهم، فأرسلوا نساءهم وأبناءهم إلى ما وراء خليج كورينثة جنوباً، وإلى آخيا (Achaie) شمالاً، أما عن الرجال منهم فأغلبهم إختبأ في جبل بارناس (Parnasse)، في مغارات كوريسيا (Corycie)، كما توجه آخرون منهم إلى مدينة أمفيسا (Amphissa) المجاورة، وفي النهاية ترك الدلفيون المدينة ولم يبق منهم سوى ستين (60) رجلاً مع الكاهن وسيط الإله أبولون¹.

وحين وصل الفرس إلى المدينة تحدث هيرودوت عن معجزات وقعت، منها أن أكيراتوس (Acératus) مُعَبِّرُ الإله أبولون لاحظ أن الأسلحة المقدسة التي كانت داخل المعبد لا يجرؤ أحد على لمسها، قد تم نقلها خارج المكان المقدس ووضعها أمامه دون معرفة من قام بذلك²، وحين اقترب البرابرة الفرس من المعبد، وقعت عجائب أخرى أكثر غرابة حيث نزلت صاعقة على تلك الكوكبة من الجنود، وتساقطت على إثرها صخور وحجارة من قمة جبل بارناس، محدثة ضجيجا وسحقت عددا كبيرا من جنود الفرس، كما سُمِعَتْ أصوات صدرت من المعبد تشبه صيحات الحرب³.

وحين تسامع الفارون الدلفيون بخبر تلك المعجزات، عادوا وإشتبكوا مع الفرس، وقتلوا عددا كبيرا منهم. أما من فر من الفرس من تلك المذبحة، بحسب هيرودوت، فقد توجهوا إلى بيوتيا (Béotie)، وقد ذكروا أنهم كانوا ملاحقين من طرف مُقاتِلَيْنِ إثنين لهما جسدين عظيمين. هذين المقاتلين قال الدلفيون أنهما فيلاكوس (Phylacus) وأوتونويس (Autonouïs)، وهما بطلين من أبطال البلاد اليونانية، وهكذا كما روى هيرودوت ثم تحرير المعبد وإبتعاد الفرس عن المدينة⁴.

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, XXXIV (34)-XXXVI (36).

² - Ibid, VIII, XXXVII (37).

³ - Peter Green, op.cit, p238.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, XXXVIII (38)-XXXIV (33).

ويمكننا في الحقيقة طرح العديد من التساؤلات بخصوص هذه الحادثة التي تداولتها المصادر التاريخية مثل هيرودوت، ديودور الصقلي وجوستينيوس (Justin)، هؤلاء الذين حملوا كزاركيس نتيجة هذا العمل الفاشل، ولكن إذا قلبنا الأمر على وجهه الآخر، لوجدنا أن الخسارة والفشل أمام معبد عريق مثل معبد دلفي لطالما خدمت الأهداف الفارسية الرامية لغزو اليونان، إذ أن هذا المشروع أصلا كان نتاج تسوية أو إتفاق بين كهنة معبد دلفي وبين كزاركيس، وإلا فما الدافع من وراء هجوم كزاركيس على المعبد الذي يعتبر عملا بربريا وهمجيا لا يليق برجل سياسي رسين مثل كزاركيس، ولذلك رجح بعض المتخصصين أن هذا الهجوم قد تم دون علم وموافقة من كزاركيس، وقد يرجع إلى عدم إنضباط بعض وحداته، وأن الواقع أن كزاركيس كان على اتفاق تام مع كهنة دلفي¹.

2- تجمع الإغريق في خليج سلامين واستدراج الفرس إليه

في خليج سلامين اجتمع قادة الوحدات بالأسطول الإغريقي، قائد عن كل مدينة سياسية مساهمة في الأسطول، اقترح قائد الأسطول أن يبدي كل قائد من الوحدات رأيه حول المكان الذي يمكن خوض المعركة البحرية ضد الفرس به، لم يكن الأمر يتعلق بأتيكا إطلاقا ولم تكن فكرة خوض الحرب مطروحة أصلا، وكانت أغلب الآراء تميل إلى الإبحار نحو مضيق كورينثة وخوض المعركة بالقرب من البيلوبونيز، وكانت حجتهم أنه في حالة خسارة المعركة في سيلامين سيكون الأسطول محاصرا في هذه الجزيرة ولا يمكن لأي مدد الدخول إليه على عكس المعركة في مضيق كورينثة².

وفي خضم هذا الاجتماع قدم عليهم شخص من أثينا يخبرهم بأن كزاركيس قد دخل إقليم في أتيكا وأخبرهم بما وقع بيوتيا وتيسيا (Thesies) وبلاطيا (Platéés)³ من حرق وتخريب للمزارع والحقول والمعابد وحتى تماثيل الآلهة. كان تقدم كزاركيس في أتيكا مدمرا لكل ما يعتري طريقه،

¹ - Peter Green, op.cit, p238.

² - Hérodote, op.cit, VIII, XLIX (49).

³ - Ibid, VIII, L (50).

كان لا يعرف فسوى عبارتين اثنتين للتعامل مع البلاد التي سوف يغزوها إما التعاون والإنضواء تحت نفوذ الفرس أو الترهيب والرعب حتى الإستسلام، فإن فشلت الأولى يتم الذهاب للثانية. ويبدو أن ذلك الرجل الفار من أثينا قد أخبر المجلس أن آخر بؤرة لمقاومة جيش كزاركسيس في المدينة هو ذلك الفيلق المتحصن بقلعة الأكروبوليس (Acropole) والذي لا يزال كزاركسيس يكرر المحاولات للقضاء عليه ليكون سيد أثينا¹.

وجد الفرس مدينة أثينا حين دخلوها شبه خالية من سكانها، ولم يجدوا من يقاوم تقدمهم سوى عدد قليل في معبد الربة أثينا (Athéna)، مع عمال الخزانة بالمعبد والكهنة وبعض المواطنين الذين ظلوا بالمدينة، والذين أغلقوا الأبواب والطرق المؤدية إلى القلعة بالأخشاب التي يمكن أن تعطل العدو للولوج إليها². لم يكن كزاركسيس في هذه الحالة يستطيع أن يعلن أنه أصبح سيدا لأتيكا دون القضاء على المتحصنين بالمعبد. كانت الجهة الغربية للمعبد هي التي يمكن الدخول منها إلى ذلك المبنى دون استعمال سلام، وفي هذه الجهة أقام المدافعون عن المعبد جداراً من الأخشاب، كما نصبوا في أعلاه مجموعة من رماة السهام فوق صخرة الأريوباجوس (Aréopage) والتي يمكنهم من خلالها امطار المتقدمين إليهم بالسهام المشتعلة، ورغم أن هذه التقنية الدفاعية كانت بسيطة، إلا أنه من الواضح أنها كانت فعالة، ورغم المحاولات الدبلوماسية لإقناع المدافعين عن المعبد بالاستسلام من خلال عروض قدمها كزاركسيس عن طريق أثينيين موالين له من أبناء بيزاستراتوس (Collaborateurs pisistratides)، إلا أن المتحصنين بالمعبد رفضوا حتى الاستماع لهؤلاء الذين تم خلعهم من الحكم منذ ثلاثين سنة³.

حاول كزاركسيس الاقتحام المباشر من تلك الجهة إلا أن المدافعين تمكنوا باحترافية من صدّهم من خلال دحرجة حجارة صخرية كبيرة الحجم، الأمر الذي جعل كزاركسيس يبقى محتاراً لفترة لا يدري كيف ينهي هذا الأمر⁴، إلا أن الفرس تمكنوا أخيراً من تسلق الجهة الشمالية

¹ - Peter Green, op.cit, pp 239-240.

² - Hérodote, op.cit, VIII, LI (51).

³ - Peter Green, op.cit, p 240.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, LIII (53).

للأكروبول، وهي عبارة عن مرتفع صخري لم يكن من المتوقع التمكن من الولوج عن طريقها إلى المعبد، ومن ثم إستطاع المهاجمون الدخول إلى ساحة المعبد وفتح الأبواب للجيش الفارسي، وحين أدرك المدافعون عن المعبد أنه لا جدوى من المقاومة رمى بعضهم نفسه من أعلى الصخور، أما الآخرون فقد تحصنوا في المكان الأكثر قداسة في المعبد أو ما يسمى بقدس الأقداس (le saint des saints) بالمعبد، إلا أن الفرس لم تكن لديهم أي رحمة بهؤلاء، فقد سحقوا كل من تدب فيه الحياة بهذا المعبد كهنة، كاهنات تم قتلهم دون مراعاة أي ذمة فيهم¹.

حين أصبح كزاركسيس سيذا على أثينا دون منازع بعد ذلك التسلسل الأخير،² الذي يتوقع أنه تم يوم الخامس من شهر سبتمبر 480 ق.م³، سارع في إرسال هذا الخبر إلى سوس (Suses) عن طريق فارس سريع ليخبر عمه أرتبان (Artabane) بهذا النجاح الباهر. وفي اليوم الموالي استدعى كزاركسيس الإثنيين الذين كانوا معه من المخلوعين والمنفيين وأمرهم بأن يصعدوا إلى القلعة، وأن يقدموا الاضحيات بحسب معتقداتهم الإغريقية.⁴ ثم ذلك بعد مذبح ارتكبتها الفرس في حق من كانوا بالمعبد، وبعد الظفر بكل الثروات والنفائس التي كانت به، وبعد حرق الأكروبول والتهام النيران لأجزاء كبيرة منه. ورغم أن هذه الممارسات أثبتت أن كزاركسيس لم يكن لديه أي احترام للجوانب الدينية، إلا أنه بعد ذلك طلب من آل بيزاسترات تقديم الأضحيات على الطريقة اليونانية مع أثنيين آخرين منفيين، وفي النهاية كان بيزاسترات (Pisistrate) جد هؤلاء هو من كان رمزا من رموز السياسة الأثينية الذين اعتبروا الأكروبول رمزا للعزة والافتخار الديني والوطني. لذلك حاول كزاركسيس استدراك الأمر من خلال ممارسة الشعائر الدينية اليونانية في نهاية الأمر.⁵ علم المجتمعون في سلامين المصير الذي آلت إليه قلعة أثينا، وهو الأمر الذي أفرعهم إلى درجة أن بعض قادة الوحدات دون الاتفاق والمصادقة على مقترح المجلس، اتجهوا إلى سفنهم

¹ - Peter Green, op.cit, p 240.

² - Hérodote, op.cit, VIII, LIV (44).

³ - Peter Green, loc.cit

⁴ - Hérodote, loc.cit.

⁵ - Peter Green, op.cit, p 241.

وعملوا على رفع أشرعتهم بغرض الرحيل، أما من بقي منهم فقد قرروا أن يخوضوا المعركة مع الفرس أمام مضيق كورينثة، ومع حلول الليل خرج كل منهم من المجلس وصعدوا سفنهم¹.

حين عاد تيميستوكل وعلم بأمر هذا القرار القاضي بخوض المعركة في مضيق كورينثة أراد أن يلغي هذا القرار الكارثي بأي ثمن قبل فوات الأوان. أرسل مبعوثا شخصيا إلى أوريبياذ يخبره بأنه يريد في أمر ذو أهمية قصوى ليناقله معه. لم يتردد أوريبياذ في دعوة تيميستوكل مانحا إياه الفرصة لقول كل ما يفكر فيه. كان تيميستوكل يعرف جيدا شخصية أوريبياذ ويعرف كذلك نقاط ضعفه، كان يكفي الإيعاز لأوريبياذ أن تراجع الأسطول إلى مضيق كورينثة سيؤدي في الحقيقة إلى تفرق وحداته، واحتمال ذهاب كل مجموعة لحماية المدينة التي قدمت منها، كان ذلك كافيا لدعوة أوريبياذ قادة الوحدات مرة أخرى لاجتماع كان لإعادة دراسة الأمر مرة أخرى².

خلال هذا الاجتماع ورغم معارضة الكورنثيين استطاع تيميستوكل إقناع أوريبياذ القائد العام للأسطول بخوض المعركة في سلامين، كانت حجته أن ضيق الخليج سيمنع العدو من نشر سفنه ويقلل من خططه الحربية، ولن يستفيد من تفوقه العددي³. ويبدو أن تيميستوكل في هذا المجلس قد رافع بشكل مقنع مستعملا الطرح المنطقي المقنع ومذكرا ممثلي المدن أن الإثنيين الذين يملكون مائتي (200) سفينة في هذا الأسطول، سيعتبرون انسحاب الأسطول إلى مضيق كورينثة خيانة ثانية لهم وهم بذلك لن يغادروا خليج سلامين، وإذا أراد البيلوبونيزيون أن يدعموا الإثنيين في حرب الفرس فعليهم محاربتهم هنا في سلامين، وأن الإثنيين لا يزالون يملكون القوة الكافية والمكان المناسب للدفاع عن مدينتهم الكبيرة، وبذلك شعر أوريبياذ أنه إذا فقد دعم الأسطول الأثيني فلن تقوم قائمة لأسطول الإغريق⁴، ومن ثم أعطى أوريبياذ الأمر بالبقاء في سلامين وخوض المعركة البحرية فيه⁵.

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, LVI (56).

² - Peter Green, op.cit, pp242-243.

³ - Roux Georges, Eschyle, Hérodote, Diodore, Plutarque recontent le bataille de Salamine, Bulletin de correspondance hellénique Volume 98, Livraison 1.1974, p57. <https://www.persee.fr/doc/bch-0007-4217-1974-num-98-1-2097>.

⁴ - Plutarque, vie de Thémistocle, op.cit, XI, (2-5).

⁵ - Hérodote, op.cit, VIII, LXVI (66).

بعد معركة أرتيميسيوم توجه الأسطول الفارسي نحو هيسيبي (Histiée) في تراكيس (Trachis) وذلك بعد انسحاب الإغريق إلى سلامين، وظل هناك ثلاثة أيام ثم اجتازت السفن الفارسية الأوريب (Euripe)، في ثلاثة أيام وتوقفن السفن أخيرا في ميناء فالير (Phalère)، وهو ميناء حربي على شاطئ أثينا على الجهة الشرقية من خليجها المائي، ويعتبر خليج فالير مكانا ممتازا تحتمي فيه السفن قشوائته الرملية تجعلهم في مأمن من الرياح التي تهب على سواحل أتيكا¹. وبذلك اجتمع بأرض أثينا الجيش البري بقيادة الملك كزاركسيس مع أسطوله البحري الذي أصبح في فالير (Phalère)، ويتحدث هيرودوت عن كزاركسيس الذي وصل بنفسه إلى الأسطول الفارسي، ليجتمع مع قادته ويستطلع آراءهم بمساعدة قائده ماردونيوس (Mardonius)، كان أبرز الحاضرين في الاجتماع حكام المدن الإغريقية الطغاة المنضوين تحت إمرائه، ملوك صيدا وصور وكذلك قادة بعض الوحدات البحرية².

عقد في ذلك اللقاء كزاركسيس مجلس حرب للتداول في أمر المعركة البحرية في سلامين أو إبحار الأسطول نحو البيلوبونيز لمساعدة القوات البرية التي ستخوض المعركة الفاصلة مع القوات الإغريقية البيلوبونيزية هناك. كان مارنيوس هو صاحب المكانة السامية عند الملك من بين جميع الحاضرين، لذلك طلب الملك رأيه قبل الجميع، كان رأي ماردونيوس يميل إلى تجميع القوات الفارسية وتركيزها أمام مضيق كوينثة الذي يسعى الفرس إلى اجتيازه³، مع تجنب المعركة البحرية في سلامين لأن الإغريق حسبه لا يزالون في متفوقين في الحرب البحرية على الفرس، فهم أقدر عليها من هؤلاء الحلفاء الذين لا يمكن الاعتماد عليهم بأي حال من الأحوال، لذلك يجب الاحتفاظ بالأسطول البحري لمساعدة الجيش البري، وإذا ما طلب الإغريق المواجهة في البحر كان لهم الأسطول المرصاد⁴.

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, p56.

² - Hérodote, op.cit, VIII, LXVII (67).

³ - Henri Pegaillem, op.cit, pp 56-57.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, LXVIII (68).

بعد إنهاء مداخلته شرح ماردونيوس في معرفة رأي القادة البحريين والملوك الحلفاء لكزاركسيس الذين أجمعوا كلهم على خوض معركة بحرية ضد الإغريق في مكان تواجد قواتهم البحرية ودون إبطاء، فيما عدا أرتميس (Arthémise) ملكة هاليكارناس (Halicarnasse) وهي من دوريي آسيا الصغرى والتي كان رأيها أن هذه المعركة ستعرض أسطول الملك ومصالحه للخطر. فهو الآن أثينا سيد أثينا وسيد بلاد اليونان، أما الإغريق فلا يستطيعون البقاء طولا في هذه الجزيرة، فهي لا تحتوى على مؤن كافية لهم فإن تركتهم فسيذهب كل منهم إلى مدينته، أما إن واجهتهم فقد يلحقون الأذى بأسطول الملك البحري، ومن ثم سينهار الجيش البري من بعده بعد فقدان الدعم البحري له¹.

كان لكزاركسيس مع كل هذه الآراء حساباته الخاصة ومشاكله التي يجب تسويتها، قبل تحصين الخط الدفاعي الذي سيكون أمام مضيق كورينثة، كان يجب عليه تحديد دور الأسطول الإغريقي فقواته البرية تحتاج إلى تموين وهو الأمر الذي ستتكفل به السفن البحرية. لا يمكن أن يغامر بالذهاب إلى المضيق ويخوض هناك معركة كبيرة، ويترك في نفس الوقت خلفه قوات بحرية كبيرة للحد من حركة أسطول تيميستوكل على البحر. أما أن يقسم الأسطول إلى جزئين بحيث يترك جزء ويأخذ معه جزء فإن هذا الجزء الأخير لا يضمن له التفوق العددي على الإغريق، في الوقت الذي لا يمكن لأي قوات برية أن تهزم الإغريق في المضيق دون مساعدة قوات بحرية لها².

ورغم أن هيرودوت تحدث عن إعجاب كزاركسيس برأي أرتميس وصراحتها وشجاعتها في قوله: "حين عرضت الآراء على كزاركسيس أعجبه رأي أرتميس وأبدى رأيه في هذه الملكة بأنها أكثر احتراما مما نكنه لها". إلا أنه في النهاية أمر بإتباع رأي الأغلبية. كان يحضر نفسه ليكون شاهدا على هذه المعركة، لم يبق له سوى أن يمد يده ليكون سيد اليونان³. كان كزاركسيس متخوفا من قدوم الخريف مع عواصفه وتقلباته الجوية، وفي هذا الفصل لا مجال لأي عمليات بحرية، لذلك كان عليه إتخاذ قرار بعمل سريع ينهي فيه هذا الأمر، ولا يمكن أن يترك هذا الأمر

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, pp 57-58.

² - Peter Green, op.cit, p 246.

³ - Henri Pegaillem, op.cit, p 58.

دون نهاية طويلة فصل الشتاء. كانت كل الحلول تتجه نحو قرار واحد هو الحرب البحرية في أقرب وقت¹.

كما أن الملك وجد الفرصة جيدة جدا من أجل محاصرة القوات الإغريقية المتحالفة في مضيق سلامين الذي لا يتجاوز طوله السبعة (7) كيلومترات وعرضه كيلومترين (2) فقط، والذي تقسم الجزيرة إلى بسيتالي (Psyttalie) جنوبا وإلى فارماكوساي (Pharmacousasi) شمالا الملحق ليكون مقبرة للبحرية الإغريقية، ومن ثم سيكون غزو البيلوبونيز مجرد لعبة².

أمر كزاركسيس أميرالاته بالإبحار نحو سلامين، وقد تم تنفيذ الأمر دون وقت محدد لبدء المعركة. استعدت الفرق التي اصطفت في الأماكن التي حددت لها وانتشرت في أعالي البحر على عرض جزيرة سلامين في خليج سارونيك (Saronique) على المياه الممتدة بين فالير (Phalère) والساحل الجنوبي لجزيرة سلامين (Slamine). لم يعط هيرودوت توضيحات حول أسباب هذه السرعة في اتخاذ قرار المعركة، لكن الأمر واضح، كان كزاركسيس مستعجلا لإنهاء الأمر في مضيق كورينثية أين تتواجد الفرق البرية الكبيرة للإغريق، لذلك كان عليه التخلص من هذه المحطة البحرية التي تحوي ثلاثمائة وثمانين (380) سفينة، والتي تعيق تقدمه، لقد عرض المعركة على الإغريق ولكن بالشروط التي كانت تصب في صالحه من حيث الكثرة العددية في المراكب التي يمتلكها في متسع من هذه المنطقة البحرية التي يمكن أن تتحرك فيها مراكبه بخفة وأريحية³. (أنظر الملحق 20 خرائط)

وبهذه الحركة تمكن كزاركسيس من خلق نوع من الذعر والشد العصبي داخل الأسطول الإغريقي في خليج سلامين، فالبيلوبونيزيون كانوا في حالة قلق شديد وهم في هذا المكان القريب من أثينا والذين صاروا يشعرون فيه أنهم سيحاربون من أجل هذه المدينة، وأنهم في حالة هزيمتهم ستم محاصرتهم في جزيرة سلامين، في الوقت الذي تتعرض فيه بلادهم البيلوبونيز لتهديد كزاركسيس، والتي ستصبح في هذه الحالة دون دفاع بحري عليها⁴. ويوضح هيرودوت أن أسطول

¹ - Peter Green, op.cit, pp 246-247.

² - Henri Pegaillem, op.cit, p 58.

³ - Roux George, op.cit, p 58.

⁴ - Peter Green, op.cit, p 251.

كزاركسيس تحرك نهاراً إلا أن وصوله إلى مكان المعركة واصطفافه فيها كان مع حلول الظلام، لذلك كان كل شيء مهيباً لخوض المعركة في الغد، وفي نفس تلك الليلة التي أخذ فيها الأسطول الفارسي موقعه فيها، أُعطيَ الأمر للجيش البري للتحرك نحو مضيق كورينثة بالبيلوبونير.¹ ويقدر الباحث بيتر غرين (Peter Green) أن تنفيذ أوامر كزاركسيس سواء بتحريك الجيش البري أو البحري كان يوم السابع عشر (17) من سبتمبر سنة 480 ق.م، وقد أعطيت التعليمات للجنود المتجهين نحو البيلوبونير بحمل مشاعل النيران، ورفع الأصوات بالأهازيج بشكل قوي بحيث يمكنه قذف الرعب في نفوس الأعداء.²

وبحسب هيرودوت فإن البيلوبونيزيين لم يعلموا إلى ذلك الوقت بأمر مقتل ليونidas ومقاتليه وكانوا قد أتموا التحضيرات الخاصة بالتحصينات على مستوى مضيق كورينثة بقيادة كليومبروت (Cléombrote) شقيق ليونidas، حيث سددوا بالرمل طريق سكيرون (Sciron)، وحسب توصيات مجلس أجتراح كورينثة فقد قاموا ببناء جدار من بداية المضيق إلى نهايته.³ لم يستغرق هذا العمل في الحقيقة وقتاً طويلاً بفضل تشجيع الرجال على العمل وكثرة عددهم، وبذلك صار البيلوبونيزيون محصنين وراء جدار أو سور يمتد من لاكميوم (Lacheum) إلى كونكريه (Cenchrée).⁴

من بين الإغريق البيلوبونيزيين الذين كانوا قد جاؤوا بكل قواتهم للدفاع عن مضيق كورينثة كان اللاكيدومينيون (les Lacédémoniens)، وكل الأركاديين (les Arcadiens)، الإيليون (les Eléens)، الكورنثيون (les corinthiens)، السيكيونيون (les Sicyoniens)، الإيبيدوريون (Les Epidauriens)، الفلازيون (les Phliasiens) التريزيون (les Trézéniens)، والهيرميونيون (les Hermionéens) وهؤلاء هم الذين كانوا متخوفين ومقدرين لحجم الخطر الذي يهدد اليونان وقدموا لنجدتها، أما باقي البيلوبونيزيون فلم يكونوا مكترئين للأمر، وظلوا في مناطقهم

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, LXX-LXXI (70)-(71).

² - Peter Green, op.cit, p252.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXI (71).

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XVI (16).

يمارسون الألعاب الأولمبية والأعياد الكارنيانية (les fêtes carniennes) التي لم يمض عليها وقت طويل¹.

في اليوم الموالي لليوم الذي تحرك فيه الأسطول الفارسي نحو سلامين، كان المعسكر الحربي البحري الإغريقي مكانا تستخدم فيه المناقشات والآراء اليائسة لرجال الصف الأول في الأسطول.² وكما وصفها هيرودوت كانت تلك الآراء مجرد انتقادات ضد قرار أوريبباد الغير متوقع بالبقاء وخوض المعركة في سلامين، لتتحول بعد ذلك تلك الآراء إلى معارضة صريحة لهذا الرأي أدت إلى عقد اجتماع جديد وأعادت المطالب القديمة من طرف البيلوبونيزيين بأنه لا فائدة من البقاء هنا والدفاع عن بلاد أصبحت في يد العدو، وأن على الأسطول الإبحار نحو البيلوبونيز للدفاع عنها، ومن جهة أخرى طالب الأثينيون والأيجينيات (Eginètes) والميغاريون بأنه يتوجب بقاء الأسطول وخوض المعركة في سلامين.³

وفي خضم هذا الجو العاصف الذي كان يمكن أن تكون له نتائج كارثية على بلاد اليونان، لجأ تيميستوكل هذه المرة إلى الحيلة التي كانت معروفة في تقاليد الحروب القديمة، كان له خادم يدعى سيكونيوس (Sikinos)، كان مربيا لأبنائه كما كان متعلما شديد الفطنة، كما أن بلوتارخوس أضاف أنه من أصول فارسية، لذلك كان على اطلاع بتقاليد مواطنيه من الفرس، ويمكن بأن يكون لكلامه ورسائله مصداقية عندهم. كلف تيميستوكل خادمه بالذهاب إلى معسكر كزاركسيس،⁴ من أجل إخبار الملك باسم تيميستوكل قائد فرق الأثينيين في الأسطول الإغريقي، بأنه غيّر من قناعاته وأصبح إلى جانب ملك الفرس، وأنه يتمنى الآن بكل حماس انتصار الفرس.⁵ ويضيف هيرودوت أن سيكونيوس الذي وجه كلامه لقادة كزاركسيس والذين بدورهم نقلوا الرسالة إلى الملك، أخبرهم أيضا على تيميستوكل بأن الإغريق الذين أصابهم الذعر تداولوا فيما بينهم شأن الحرب، وقرروا الفرار لذلك فالفرصة صارت الآن سانحة للملك للقضاء

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXII (72).

² - Peter Green, op.cit, p 252.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXIV(74).

⁴ - Henri Pegaillem, op.cit, p 62.

⁵ - Peter Green, op.cit, p 254.

عليهم، إلا إذا أراد الملك السماح لهم بالفرار فهم الآن لم يعودوا متفقين فيما بينهم، وبدل مقاومة قوات الملك ستجدونهم يتقاتلون فيما بينهم¹.

بطبيعة الحال لم تكن هنالك أي إثباتات تؤكد صدق تيميستوكل وتبين صحة كلامه، لكن كان يمكن أن يُفسَّر ذلك بنقمة على سلوك البيلوبونيزيين، ويمكن أن يكون ذلك داعما لموقفه ذلك في سبيل إقناع الملك. والواقع فعلا أن الإغريق كانوا قد عزموا على إخلاء سلامين في تلك الليلة التي عقد فيها المجلس، وبالنسبة للملك فإن خروجهم من سلامين يعني التحامهم ودعمهم لقوات البيلوبونيز البرية²، أو بحسب رواية بلوتارخوس فإن سيكونيوس أخبر الفرس على لسان تيميستوكل بقوله: "هاجمهم وحطم قوتهم البحرية قبل أن ينظموا صفوفهم، وقبل اتصالحهم بالجيش البري"³. كان يمكن لتيميستوكل أن يتوقع وصول أخبار لا تتطابق أو تخالف ما أخبرهم به إلا أن كل المعلومات التي وردت في تقرير ذلك الجاسوس الذي أرسله تيميستوكل كانت قابلة للتصديق، فذلك الخلاف الذي حدث بين قادة الأسطول الإغريقي، وخطر التمرد على أوربياد حين قرر البقاء في سلامين وخوض المعركة هناك، كلهما كانت تدل على الضغط الشديد الذي كان يعيشه المعسكر الإغريقي، كل ذلك أستغله تيميستوكل للوصول إلى أهدافه⁴.

بالنسبة لكزاركسيس كان كلام تيميستوكل بتطابق تماما مع أهدافه، فالقضاء على الأسطول الإغريقي في سلامين سهل من عملية غزو البيلوبونير، وبالمقابل إذا ما ترك كزاركسيس تلك الفرق البحرية تمر من بين أصابعه، وتذهب إلى مدنها فالحرب بعد ذلك ستكون أكثر طولاً، لأنه ستكون هنالك جولة من المعارك مع كل مدينة دولة يونانية⁵. أما تيميستوكل فكان هدفه واضحاً وهو دفع كزاركسيس إلى إعلان المعركة ضد الإغريق، واستغلال ذلك الوضع الهش السائد بين القادة الإغريق، وفي هذه الحالة سيوضع قادة الأسطول الإغريقي بما فيهم القائد العام للأسطول

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXV (75).

² - Peter Green, op.cit, p 254.

³ - Plutarque, vie de Themistocle, XIL, 4.

⁴ - Henri Pegaillem, op.cit, pp 62-63.

⁵ - Peter Green, op.cit, p 255.

أوريبياد أمام الأمر الواقع، ويجبرون على الدخول في المعركة المفروضة عليهم، ولذلك ستوجب عليهم الحرب دون هوادة ودون مناقشة إن كانت في صالحهم وغير ذلك¹.

3- تحرك الفرس نحو سلامين ووقوع الاشتباك الحاسم

يذكر بلوتارخوس أن كزاركسيس تلقى رسالة تيميستوكل بقبول كبير، كما أنه سُرَّ بها، لذلك أصدر أوامره إلى قادة الأسطول بالتعبئة العاجلة للمراكب بالمحاربين وبمحاصرة مضيق سلامين وكذلك الجزر المجاورة، لكي لا يفلت أيا من الأعداء من هذه المنطقة². أما هيرودوت فيقول "بما أن نصيحة تيميستوكل ظهرت له صادته، فقد أمر بإرسال عدد من الفرس إلى الجزيرة الصغيرة المعروفة باسم بيستالي (Psytalie) الواقعة بين سلامين والقارة (بلاد اليونان)، وحين وصل منتصف الليل، تقدم جناح من أسطول الفرس الذي بالجهة الغربية نحو سلامين لكي يحاصر الإغريق، أما المراكب التي كانت حول كيوس (Céos) وكنوسور (Cynosure)، فقد أبحروا وغطوا المضيق إلى غاية مينوشي (Munychie)، وقد وضع كزاركسيس جيشه بهذه الوضعية من أجل منع الإغريق من النجاة أي من الفرار [...]"³. أما عن إبحار الفرس إلى بيستالي فقد قاموا به لأن هذه الجزيرة تقع في المضيق الذي ستجري فيه المعركة، وكذلك لأن المراكب المحطمة والرجال الفارين سيقصدونها حتما إذا ما وقعت الحرب، لذلك كان الفرس ينوون إنقاذ رجالهم بها وقتل الأعداء وقد قام الفرس بهذه الترتيبات ليلا وبشكل سري ودون أخذ قسط من الراحة من أجل مفاجأة الإغريق⁴. (أنظر الملحق 24 خرائط)

أما إيسخيلوس فوصف موقف كزاركسيس قائلاً: "إن كزاركسيس الذي كان يتصرف تحت أوامر تيميستوكل أعلن عن أمر إلى كل قادة السفن: حين تتوقف الشمس عن حرق الأرض بأشعتها، وحين تغمر الظلمة السماء، على القادة التوجه بسفنهم وبأعداد كبيرة في ثلاثة اتجاهات من أجل غلق المخارج التي تتحرك فيها السفن وبالسفن الأخرى عليهم محاصرة جزيرة أجاكس

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, p 63.

² - Plutarque, vie de Thémistocle, op.cit, XII, 5.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXVI (76).

⁴ - Ibid.

(Ajax)، وإذا حدث أن تمكن الإغريق من النجاة من هذا المصير المحتوم الذي ينتظرهم، ووجد واحد منهم طريق سرياً للفرار فسيجد قادة السفن بانتظاره للقبض عليه"¹.

كل تلك التحركات الفارسية تمت ليلاً بين 19 و 20 سبتمبر 480 ق.م على الأرجح، وبمجرد أن أصبح الحصار على سلامين مكتملاً، يمكن القول أن الخطة قد ضبطت ولم يبق إلا المواجهة، إلا أنه وإلى غاية ذلك الوقت كان من الضروري أن لا يعم الإغريق بتلك الحركات، وأن لا يلاحظوا تحركات غير عادية على البحر، فأى خلل في هذه الترتيبات يمكن أن يؤدي إلى إلغاء العملية برمتها، كما أنه كان من الضروري أن يكون الإغلاق تاماً².

وفي تلك الليلة وفي الجانب الآخر من المعسكر الإغريقي كانت الخلافات لا تزال محتدمة بين قادة الأسطول في سلامين، كانوا يجهلون إلى غاية تلك اللحظة أنهم صاروا محاصرين من طرف الفرس، وكانوا يعتقدون أن الفرس ما زالوا بمواقعهم التي كانوا بها بالنهار. كان المجلس لا يزال منعقداً حين وصل أريستيد من إيجين (Egine)، وهو الذي كان آرخونا في أثينا وتم نفيه بعد خلاف مع حزب تيميستوكل، ويقول عنه هيرودوت أنه مهما قيل عن هذا الرجل وعن عاداته إلا أنه كان رجلاً فاضلاً ومستقيماً إلى أبعد الحدود. وقبل دخوله إلى المجلس طلب لقاء تيميستوكل رغم الخلافات والكره الذي كان يسود العلاقات بينهما، إلا أن لخطر الذي يحرق بالبلاد كان السبب وراء نسيان تلك الخلافات. كان أريستيد قد سمع بنيه البيلوبونيزيين في الانسحاب إلى مضيق كورينثية في أقرب وقت³.

أخبر أريستيد تيميستوكل بأن الإغريق باتوا محاصرين وهو الخبر الذي تلقاه تيميستوكل ببهجة كبيرة، إلا أنه كان حذراً في أن يوضح لمحدثه أنه هو من كان مسؤولاً عن هذا الحصار، ثم ترجى أريستيد أن ينقل هو بنفسه هذا الخبر إلى زملائه من قادة الأسطول، لأنه إذا أخبرهم هو أي تيميستوكل فسيظنون أن له علاقة بالموضوع، وهو ما فعله أريستيد غير أن قادة الأسطول ظلوا غير مصدقين ومذهولين لهذا الخبر إلى أن وصل مركب حزبي إغريقي يقوده رجل تيني (Téniens)

¹ - Henri Pegaillem, loc.cit.

² - Peter Green, op.cit, p 260.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, LXXVIII (78)-LXXIX(79).

يدعى باناييتيوس (Ponaitios) فرّ من أسطول الفرس، وأخبرهم بكل ما جرى في تلك الليلة¹. وهذا المركب الذي التحق بقوات الإغريق الحربية، وذلك الذي التحق بالإغريق في أرتيميسيوم من جزيرة لمنوس أكمل عدد المراكب الإغريقية حسب هيروdotus إلى ثلاثمائة وثمانين (380) مركباً². وتجدد الإشارة إلى هنالك من المؤرخين من شككوا في حدث رواية قدوم أريستيد بخبر حصار الفرس لمعسكر الإغريق قادما من جزيرة إيجه، سواء من حيث المدة الزمنية التي كان يجب أن يستغرقها ليلا للوصول إلى سلامين، والتي يرى هاموند (Hammond) أنها لا يجب أن تكون قبل الساعة الرابعة صباحا بعد حساب المسافة والمسار بين إيجه والخليج الغربي لسلامين، وكذلك من حيث تمكنه من الوصول والنجاة من مراقبة الفرس للمنطقة، هذا بالإضافة إلى أن الإغريق كان يجب أن يكون لهم مراكز حراسة ومراقبة على طول الساحل من كينوزور (Cynosure) وبيتريتس (Pétritis) مع توقع أن تكون الرسائل كانت تصل تباعا طوال الليل إلى مقر الأسطول البحري الإغريقي³.

وفي هذا الصدد يفيدنا ديودور الصقلي المعروف نقله عن إفوروس (Ephoros) أن قائد الأيونيين في أسطول الفرس هو من أرسل سباحا من ساموس، الذي قطع المسافة سباحةً ووصل إلى معسكر الإغريق ليخبرهم بمخطط كزاركيس، وعن الوضعية التي صار عليها الأسطول الفارسي، كما أن قائد الأيونيين أبلغ الإغريق أنه أثناء المعركة سينسحب من خطوط القوات الفارسية⁴. ومع طلوع النهار، أخذ كزاركيس مكانه على ربوة عالية ليراقب وضعية أسطوله، تلك الوضعية التي سبق وأن أصدر أوامره بشأنها، وحسب كلام فاندودام (Phanodème) فقد اتخذ من سطح معبد هيراقليس أين تنفضل جزيرة سلامين عن أتيكا بمضيق تبدأ منه حدود ميغاريد (Megaride)⁵. والواقع أنه منذ أن وضع كزاركيس يده على أثينا وقام بحرقها ذهب بعدها إلى سلامين ليوقف بشخصه على تنفيذ التعليمات والأوامر التي أصدرها لبحارة أسطوله وقادته الكبار

¹ - Peter Green, op.cit, p 263.

² - Hérodote, op.cit, VIII, LXXXII (82).

³ - Peter Green, op.cit, pp 263-264.

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XVII (17).

⁵ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, XIII, 01.

الذين يعتبرون في هذه الحرب مجرد منفذين لأوامر الملك، فقد احتكر كزاركسيس في الواقع التخطيط الإستراتيجي لهذه المعركة، وليس لقادته إلا التحرك والتنفيذ، وبخصوص هذه المعركة عين كزاركسيس أخيميناس (Achémènes) ابن داريوس قائدا عاما للأسطول، أريابيناس (Ariabignès) ابن داريوس قائدا للفرق الموجودة على الجناح الأيسر، براكزاسباس ابن أسباتينوس (Aspathinéos)، وميغابيز (Mégabise) ابن ميغابات (Mégabate) قائدا على الجناح الأيمن، وكلهم كانوا مستعدين لإطاعة أوامر ملك كل الإثنيات في المملكة¹. جلس الملك على كرسي من ذهب وأمر بجلب عدد من المدونين مهمتهم تدوين أحداث المعركة².

وأخيرا صفف أوربياد وتيميستوكل قراتهما في خطوط المواجهة، كان على اليسار الأثينيون واللاكيديمونيون في مواجهة الفينيقيين في جيش كزاركسيس لأن الأسطول الفينيقي كان الأكثر هبة بين أجزاء أسطول الفرس سواء من حيث عدده أو من حيث خبرته في الحروب البحرية. أما اليمين فكان يشغله الإيجينات (Eginètes) والميغاريون (Mégariens)، وهما شعبان بآتيان في المرتبة الثانية في الإستماتة والقوة بعد الأثينيين، وفي حالة الخسارة والتراجع سيجد هؤلاء أنفسهم دون مأوى لأن بلادهم أصبحت في حوزة الفرس³. وأخيرا الوسط كان متكونا من شعوب الإغريق الأخرى، وبهذا النظام تحرك الأسطول ليصل ويحتل القناة الواقعة بين مضيق سلامين ومعبد هيراقليس⁴.

بدأ المجدفون الإغريق يقفزون داخل مراكبهم وأخذ كل قائد فرقة يجمع مقاتليه على عجل محفزا إياهم ومحذرا من اقتراب العدو منهم، وبدى كأن الجميع مبتهج للقتال بعد زمن من التوقف عن الحركة، وبمجرد طلوع النهار حتى شرع الضباط الكبار في الجيش يخاطبون ويخطبون في جنودهم، إلا أن تيميستوكل فاقهم فصاحة في هذا الموقف، كان خطابه بحسب هيرودوت يدور

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, p 66.

² - Plutarque, op.cit, XIII, (1).

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XII, XVIII (18).

⁴ - Ibid.

حول التعارض بين الخير والشر، وفي هذا الصدد حض تيميستوكل المحاربين على كل ما يوافق طبيعة الإنسان وفطرته وعلى اختيار الخير بدل الشر¹.

اجتاز الأسطول الفارسي في الصباح ذلك الممر الغربي بين رأس كينوزورا (Cynosure) والذي سمي حالياً رأس فارفاري (Cap Varvari) وبين جزيرة بسيتاليا (Psyttaeia) والمسماة حالياً ليسوكوتالي (Lipsokoutali)، ومن الشرق أي شرقي هذه الجزيرة اجتازت الفرق الفارسية ذلك الممر بينها وبين شاطئ أثينا (انظر الملحق 20 خرائط)، وكان هذا التحرك بغرض مفاجأة أسطول الإغريق الراسي في خليج أمبيلافي (Ambélaki)، غير أنهم علموا بسرعة أن ذلك الأمل في مفاجأتهم قد تلاشى، فالإغريق قد وصلت إليهم أنباء تحرك الفرس نحوهم وقد تبين لهم في وضوح النهار انتشار الأسطول المعادي لهم بحسب رواية أيسخيلوس لهذه الأحداث².

أصبح كل أسطول يشاهد عدوه من خلال مسافة محدودة، وفي هذه الوضعية، إما أن يبقى الفرس داخل المضائق ليعاينوا تقدم السفن الإغريقية نحو الجهة الشرقية بالقرب من رأس كينوزورا (Cynosoura) أو أن يتقدموا هم أنفسهم، وهي الفرصة الأرجح ويختاروا المضائق ليجدوا أنفسهم في خليج أمبيلافي بكل عمقه ليجدوا أعداءهم في طريقهم إليهم لأخذ مواقع المعركة. (انظر الملحق 21 خرائط). كان الفرس يعتقدون أن الإغريق لا يفكرون سوى في الفرار ليجدوا أمامهم أسطول مُصمَّم على القتال. أما الإغريق الذين تفاجأوا بتقدم الفرس نحوهم كان تحركهم منظماً، حيث انتشر أسطولهم لمواجهة ذلك التقدم، ولو أنهم لم يدركوا المواقع التي كانوا ينوون الوصول إليها لخوض المعركة³.

كانت بداية المعركة من خلال تقدم أحد السفن الأثينية بقيادة أمينياس البالي (Aminias de pallène) حيث اصطدم بأحد المراكب الفينيقية كان على الجناح الغربي لجيش الفرس من جهة إلوسيس (Eleusis)، ويبدو أن السفن من قوة الاصطدام التصقتا ببعضهما واشتبكت بعض

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, p 67.

² - Jean Delorme, Deux notes sur la bataille de Salamine, Bulletin de correspondance hellénique, Volume 102, Livraison1, 1978, p 87.

³ - George Roux, op.cit, p 98.

أجزائهما إلى درجة عدم تمكن أي منهما الانفصال عن الأخرى، قدمت سفينة إيجينية (Eginète) لنجدة الأثينيين، ومن ثم تبعها باقي أسطول الإغريقي وكانت تلك الشرارة التي بدأت معركة سلامين.¹

خلال هذا الاشتباك قُتل أريابينياس أحد القادة الفرس الكبار المكلفين بقيادة الجناح الأيسر، والذي هرع لنجدة المركب الفينيقي، غير أنه لقي حتفه بضربة حربة من أمينياس ومساعدته صوسيكللاس (Sosiclès) ليسقط بعدها في البحر.² ويتحدث بلوتارخوس عن مقتل أرتيميس (Artemis) ملكة هاليكارناس في هذه الحادثة التي تم التعرف على جثتها وهي تعوم بين جثث القتلى والتي تم أخذها إلى كزاركيس.³

اكتمل الاشتباك في جميع جهات الجبهة بين الجيشين في معركة تحولت إلى مجموعة من المنازلات الخاصة⁴، ففي الجناح الأيمن دار الاشتباك بين اللاكيدوميين والايونيين من جانب الفرس، كان الأيونيون وبفرق قليلة يحاربون بنوع من البرودة بحسب اتفاقهم مع تيميستوكل، لكن هذا لم يكن السلوك الحربي لأغلبية أسطولهم وقد ذكر هيرودوت بعض القادة منهم الذين استطاعوا انتزاع سفن الاغريق منهم تيميستور (Thémestor) ابن أندروداماس (Androdemes)، وفيلاكوس (Phylacus) بن هيسيبي (Histiée)، وكان الإثنان من جزيرة ساموس (Samos) وقد حظيوا بمكانة عالية عند كزاركيس لقاء فعلهم هذا.⁵

في هذه المرحلة صار الاشتباك عاما بين الاسطولين، وكان موت أريابينياس كارثيا بالنسبة للفينيقيين، ولو أنهم استطاعوا اختراق صفوف الإغريق والاستحواذ على المزيد من المساحة لتغير مسار المعركة، وعلى ما يبدو لم يكن لدى الفينيقيين قائد ينوب أريابينياس الذي كان يفرط في الثقة بنفسه⁶، وقد خسر الفينيقيون في هذا الاشتباك الكثير من سفنهم الحربية، وقد اتهموا

¹ - Henri Pegaillem, op.cit, p73.

² - Peter Green, op.cit, p275.

³ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, XIV (14), 4.

⁴ - Henri Pegaillem , op.cit, P 74

⁵ - Hérodote , op.cit, VIII , LXXXV (85)

⁶ - Peter Green , op.cit, P 275

الأيونيين (les Ioniens) عند الملك بالخيانة وأنهم وراء تلك الخسارة، غير أن الملك عاقب الكثير منهم بقطع رؤوسهم¹.

وبحسب تقييم إيفوروس فإن عدم النظام والاضطراب غلب على العمل الحربي لأسطول الفرس، لأن عدد الذين كانوا يصدرون الأوامر كان كبيراً، كما أن الأوامر كانت مختلفة وليس لها غاية واحدة، وبذلك سرعان توقف الهجوم الفارسي، وبدأت المراكب الفينيقية بالتراجع نحو المياه التي بها فسحة من المساحة التي تسمح بالحركة الحرة².

وبحسب رواية هيرودوت لأحداث المعركة فإنه بعد الذي وقع للفينيقيين حاول عدد من سفن أسطول الفرس الفرار باتجاه ميناء فالير (Phalère)، إلا أن الإيجينات (les Eginètes) المتواجدين في المضيق قاموا بأعمال بطولية، ففي خضم الاضطراب والفوضى التي عاشها أسطول الفرس، كان الأثينيون يحطمون المراكب التي تواجههم وتلك التي تحاول الفرار، ومن الجهة الأخرى كان الإيجينات لا يفلتون المراكب الفارسية التي تحاول الفرار، فالسفينة التي تنجو من قبضة الأثينيين تقع بين أيدي الإيجينات³.

لقد تحول خط السفن الإغريقية إلى زاوية تقع فيها السفن الفارسية كما تقع في الفخ وكأنها تدفع إلى ذلك دفعا، فالسفن الفينيقية التي انسحبت من المعركة أحدثت فوضى على مستوى الصف الدفاعي الثاني لأسطول الفرس، الذي كان يحاول التقدم إرضاء للملك الذي كان يراقب المعركة عن قرب وخوفاً من عقابه، كانت لا محالة ستصطدم بتلك السفن المنسحبة وذلك لضيق المدخل والمخرج في مياه سلامين. وفي هذا الإطار حاولت السفن الكيليكية وكذا سفن حلفاء الفرس في وسط الأسطول المقاومة في وجه الإغريق، إلا أنه مع غياب الجناح الأيمن أو بالأحرى حين مشاهدة السفن الأكثر قوة وتمرسا وهي سفن الفينيقيين تنسحب لم يبق لهم إلا الانسحاب في نهاية الأمر⁴. (أنظر الملاحق 22-23 خرائط)

¹ - Hérodote , op.cit, VIII , XC (90).

² - Peter Green, op.cit, P 275.

³ - Hérodote , op.cit, VIV , XCI (91).

⁴ - Peter Green , op.cit, pp 277-278.

في هذا الزحام وتلك الأحوال السيئة التي كان يعيشها أسطول كزاركسيس الذي كان بعيدا على أن يكون في وضعية المنتصر، كان لاختلاف اللغات بين فرقه مانعا كبيرا في وصول الأوامر والتعليمات بطريقة سليمة إلى المحاربين، فكانت عمليات الهجوم أو الإلتفاف لا تُنفَّذ بالشكل المطلوب.¹

وفي هذا الظرف ومع انسحاب الجناح الأيمن والوسط من أسطول الفرس وجد الأيونيون وإغريق الجزر الحليفة للفرس أنفسهم يقاتلون بشجاعة بحسب وصف إيفوروس (Ephoros)، ولذلك ظل مصير المعركة مدة طويلة غير محسوم، غير الإثنيين وبتعليمات وتكتيك حربي من تيميستوكل استطاعوا من خلال القيام بعمليات نوعية حسم المعركة لصالح الاعريق، وذلك بالتوقف عن ملاحقة السفن الفارة في الجناح المقابل لهم والالتفاف من خلف الايونيين ومهاجمتهم. ورغم ان هناك بعض العمليات الفردية الناجحة من طرف بعض السفن التابعة للأسطول الفارسي، والتي استطاعوا من خلالها تحطيم بعض السفن اللأثينية، إلا ان الغلبة كانت واضحة للاعريق، ولذلك أدرك الايونيون أنهم يحاربون ضمن معركة غير متكافئة، مما ادى الى انسحابهم.²

انتهت المعركة في ذلك اليوم، تراجع الاعريق الى سلامين ومعهم عدد من السفن المحطمة التي كانت عائمة في ضواحي تلك الجزيرة، وكانوا يستعدون من خلال هذا التراجع إلى مواجهة ثانية في الغد معتقدين أن الملك سيعاود بدء معركة جديدة ضدهم مع ما تبقى لديه من سفن حربية، وفي تلك الأثناء دفعت الرياح الغربية إلى شاطئ أتيكا (Attique) المسمى كولياس (Colias) الكثير من حطام الاسطول الفارسي، إلى درجة أن نساء كولياس صرن يحمصن القمح بمجاديف السفن³. لم يدرك الإغريق إلى غاية انتهاء اليومين المواليين ليوم المعركة حجم الانتصار الذي حققوه على الفرس ففي اليوم الموالي للمعركة [21 سبتمبر 480 ق.م] ، كانوا يعملون على إعادة تهيئة السفن المحطمة مخافة أن يعاود كزاركسيس الهجوم عليهم بما تبقى معه من سفن، غير أن أسطول الملك تضرر وقل عدده إلى درجة أنه لم يعد يمكنه خوض معركة متكافئة مع الإغريق.

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, P 76.

² - Peter Green, op.cit, p 278.

³ - Hérodote, op.cit, VIII, XCVI (96).

لقد أصبح حقيقة خارج الخدمة نظرا للحالة النفسية السيئة لمقاتليه ومحاربيه ولم يعد يتهيأ إلا للإبحار والعودة إلى بلاده¹.

ويتحدث ديودور الصقلي عن نصر باهر حققه الإغريق في نهاية معركة سلامين، وقد قدر خسارة الإغريق في هذه الواقعة بأربعين (40)² سفينة، أما خسارة الفرس فقد وصلت حسبته إلى مئتي (200) سفينة، أما ستيزياس (Ctèsias) فقد قدر خسارة الفرس بخمسمائة (500) سفينة حربية. ولم يقدم هيرودوت وكذا إيسخيلوس وهما المصدران الأساسيان لهذه الأحداث أي أرقام لخسائر الطرفين، وهو ما يبين صعوبة إعطاء الأرقام الحقيقية لتلك الخسائر³. أدرك كزاركسيس مبكرا أن جيشه قد خسر المعركة، كما خشي أن يعتمد الإغريق وبمشورة بعض اليونانيين إلى الإبحار إلى مضيق الهيلسوبونت من أجل قطع الجسور بين أوروبا وآسيا، وبذلك تصبح حياة الملك في خطر، لذلك فكر جادا في العودة إلى بلاده⁴.

لقد علم كزاركس أن وضعية جيشه البري مهما كانت قوية فانه لم يعد بإمكانه الاعتماد على أسطوله البحري، فعدد من الطواقم الفينيقيه صارت في حالة خوف شديد بسبب قتل الملك لعدد من زملائهم، ولم يعودوا ينتظرون سوى حلول الليل ليفروا من معسكر الملك، أما من تبقى من أسطوله فلا يبحثون سوى عن الانسحاب الفوري⁵.

لقد سجل المؤرخون الإغريق القدامى في هذه الحادثة تردد وخوف كزاركسيس الذي كان مهتما قبل كل شيء بالفرار والهرب من نتائج الخسارة المدوية التي وقعت له في سلامين، لقد كان واضحا أن أخبار سلامين ضربت أحلام الفرس الذين كانوا يعتمدون على تفوقهم العددي الكبير. كما أن هذا الحدث سيفاجئ أيضا أولئك الفرس الذين ضلوا في الإقامة الملكية بسوس (Suses) والذين كانوا حسب هيرودوت يتهيأون لاستقبال كزاركسيس المنتصر⁶.

في هذا الظرف الحالك من خلال غضب كزاركسيس وخوفا على مصيره لكونه صاحب الرأي في غزو بلاده اليونان، حاول ماردونيوس إيجاد مخرج لنفسه بعد هذه الهزيمة، حيث اقترح على الملك أن يترك له جيشا بریا محاولا اقناعه بأن النصر في هذه الحرب لا يكون عن طريق السفن

¹ - Peter Green, op.cit, p 282.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XII, XIX (19).

³ - Henri Pegaillem, op.cit, p102.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, XCVI (97).

⁵ - Peter Green, op.cit, p 286.

⁶ - Pierre Briant, op.cit, p 546.

ولكن بفضل الفرسان والمشاة، فبهؤلاء يمكنه إخضاع بلاد اليونان، ويبدو أن كزاركسيس وبعد مشاورات مع كبار قادته استجاب لطلب ماردونيوس وأمره بأن يختار من جيشه الفرق التي يريد للاحتفاظ بها، وطلب منه أن يكون كلامه مطابقا لأفعاله¹.

أما الملك كزاركسيس فقد غادر أتيكا على رأس جيشه، وحين وصل إلى تساليا ترك نخبة من جيشه مع ماردونيوس ليكمل بها مهمته، وسار الملك نحو الهيلسوبونت الذي وصله بعد خمسة وأربعين (45) يوما، ليصل بعد ذلك إلى سارديس (Sardès) عاصمة ليديا². أما بالنسبة للإغريق فقد كانوا ينتظرون هجوما جديدا من طرف الفرس، وكانوا يعتقدون أن أسطولهم لا يزال عائما في فالير (Phalère)، لذلك احكموا استعدادهم لمقاومة ذلك الهجوم ولم يعلموا إلا متأخرين عن طريق عيونهم أن الفرس قد أبحرو نحو آسيا الصغرى، وقد كان الرحيل سريعا إلى درجة أن أميرالات الفرس لم يكن لهم من المؤمونة ما يكفيهم، لذلك توقفوا في جزيرة أندروس (Andros) للترود³.

وفي هذا الصدد فُتِحَ نقاش في معسكر الإغريق حول إمكانيه اللحاق بالأسطول الفارسي وقطع الطريق عليه أو بالأحرى قطع جسور الهيلسوبونت، وكان ذلك رأي تيميستوكل إلا أن هذا الرأي وجد معارضة شديدة، فهيرودوت أورد أن من عارض هذا الرأي هو أوريباد معتبرا أن قطع طريق العوده أمام كزاركسيس وإبقائه في أوروبا سيفتح باب جهنم على بلاد اليونان، فالملك حين يكون محاصرا ومجبرا على البقاء في اليونان، سيطيل مدة الحرب التي ستتحول إلى حرب من أجل الأقوات والمؤن، وسيتم فيها إخضاع مدن وشعوب بالقوه من أجل تحصيل كفاية جيش الفرس، وفي الأخير ستكون المواجهة عنيفة والمسألة ستصبح مسألة حياة أو موت. لذلك من الأفضل تركه يهرب حتى يصل إلى بلاده ثم مهاجمته بعد ذلك إن كان ذلك ضروريا، وقد تمت المصادقة على هذا الرأي من طرف القادة البيلوبونيزيين⁴.

أما بلوتارخوس فقد أورد أن من عارض تيميستوكل هو أريستيد (Aristide) معتبرا أن كزاركسيس إذا حوَصِر في بلاد اليونان بالقوة لن يضل جالسا في كرسيه الذهبي يراقب بهدوء

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, C (100), CI(101) , CII (102), CIII (103), CVII (107).

² - Pierre Briant, op.cit, p 546.

³ - Henri Pégaillem, op.cit, p106.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, CVIII (108).

المعركة، بل سيتحول إلى عنصر فاعل، وسيكون حاضرا في جميع تفاصيل المعارك، سينتهي الإهمال الذي كان يتعامل به مع الحرب، وستتحول قراراته إلى قرارات وأوامر صائبة، وفي هذا الإطار لم يعد واجبا علينا قطع الجسور المؤدية إلى آسيا، بل يتوجب علينا اصلاحها وترميمها إذا كان ذلك ممكنا، والتسريع بكل الطرق خروج هذا الرجل من أوروبا¹.

وإذا ما ألقينا الضوء على نتيجة معركة سلامين خاصة على الجانب الفارسي الذي مني بالهزيمة، فإن الخسائر لم تكن بالنسبة له كارثية، فالجيش البري ظل كما هو فهو لم يدخل المعركة، وكان يمكنه أن يمسك بزمام المبادرة ويهاجم تحصينات الإغريق في البيلوبونيز. أما بالنسبة للأسطول فهو لم يُحطَّم بشكل كامل بل كانت خسائره جزئية، فالإغريق أنفسهم كانوا يتهيئون لهجوم جديد من طرف الفرس، وفي هذا الإطار كانت إحدى مبررات انسحاب كزاركسيس من المواجهة والذي قدمته لنا المصادر الإغريقية أن الملك كان يخشى قطع الإغريق لجسور الهيلسوبونت، ومن ثم قطع طريق العودة عليه إلى آسيا².

كما أنه يمكن أن تكون لكزاركسيس مخاوف أخرى لم يشر إليها المؤرخون الإغريق، فمشهد العودة والتراجع إلى آسيا مشابهة إلى حد كبير لمشهد تراجع وعودة داريوس من حملة الفاشلة ضد السكيثيين سنة 513 ق.م، أين كانت تلك العودة مرهونة بالجسر الذي أقامه على نهر الدانوب، والذي كان يحرسه الأيونيون. وإذا كان الأيونيون ضلوا أوفياء في تلك الفترة لداريوس وللفرس عموما، فإن مخاوف كزاركسيس في هذا الموقف كانت كبيرة من تقلب موقف الأيونيين، وإذا ما تواصلت الحرب البحرية فإن انتشار الاسطول الإغريقي في بحر إيجه قد يشعل الساحل الغربي لآسيا الصغرى بثورة جديدة للأيونيين من كاريّا (Carie) إلى الدردونيل (Dardenelles)، خاصة إذا علم سكان تلك المناطق بأخبار معركة سلامين³.

ومن جهة أخرى يمكن اعتبار ما فعله كزاركسيس من حركة انسحاب سريعة باتجاه سارديس (Sardès) في آسيا الصغرى بمثابة تحرك استراتيجي جديد في خطته الحربية، حيث أنه بمقتضاه

¹ - Plutarque, Vie de Thémistocle, op.cit, XVI, 3.4.

² - Pierre Briant, op.cit, p 547.

³ - Peter Green, op.cit, p 286.

يقسم جيشه إلى جزئين، جزء يتركه بقيادة ماردونيوس ليتابع هجومه البري في بلاد اليونان، أما هو فيعود بالأسطول إلى سارديس ويظل هناك إلى غاية صيف 479 ق.م، وهنا لم يعد الأمر يتعلق بفرار سريع، ففي سارديس سيبقى على اتصال دائم مع ماردونيوس، ويواصل الإشراف من بعيد على العمليات الحربية، كما أن هذه الاستراتيجية لها إيجابية أخرى بالنسبة لكزاركسيس، ففي الوقت الذي يبقى فيه جيش ماردونيوس البري على أرض اليونان، فإنه من الصعب على الإغريق التحرك بأريحية في البحر لعلمهم أن المعركة الفاصلة مع الفرس ستكون على الأرض اليونانية¹.

تلك هي أحداث معركة سلامين التي كانت أول معركة بحرية دَوَّنَ أحداثها التاريخ بنوع من التفصيل، ولابد هنا من الإشارة إلى أهم المصادر التي سمحت للباحثين بتتبع جزئياتها بشكل أساسي والتي تمثلت في كتابات هيروdot وكذا الشاعر إيسخيلوس، فالمعلومات المقدمة من طرف هيروdot الذي يعتبر كأول مدون للوقائع التاريخية المتواترة زمنيا، خاصة فيما يتعلق بالحروب الميدية كانت في الحقيقة أكثر مصداقية وواقعية من تلك المقدمة من طرف إيسخيلوس (Ecchyle)، رغم أن هذا الأخير كان محاربا وكان حاضرا وشاهد عيان في معركة سلامين، ليتحول بعد ذلك إلى كاتب مسرحي (Dramaturgue)، والمعروف أن كتاب الدراما ليسوا بالضرورة الأقدر على تحري المادة التاريخية الصحيحة والموضوعية².

¹ - Pierre Briant, op.cit, p 548.

² - Henri Pegaillem, op.cit, p 95.

II - معركة بلاتيا (Platées) 479 ق.م

1- محاولة ماردونيوس أستماله الأثينيين

لم ينته الصراع بين الفرس والاعريق مع انتهاء يوم سلامين المشهود فوضعية ماردونيوس في تساليا لا تزال تحظى بالقوة والقدرة على تحريك فرق باتجاه وسط وجنوب اليونان، ومن ثم غزو هذه البلاد من جديد، أما الاعريق فلا يزال الخوف من الخضوع للفرس يشكل لهم هاجسا، أما بالنسبة للأثينيين فقد تم التخلي عن خدمات تيميستوكل كقائد لجيوشهم وتم استبداله بأريستيد (Aristide) الآرخون السابق العائد من المنفى¹. وفي ربيع 479 ق.م، وجد ماردونيوس نفسه بآتم الاستعداد لخوض الهجوم المنتظر على بلاد اليونان، كان يعتمد في ذلك على تفوقه العددي والعسكري على الاعريق، لم يكن هذا الاقتناع يدل سوى على تعجرف وخيلاء هذا القائد وهو الأمر الذي أشار اليه هيرودوت².

في بداية الأمر حاول ماردونيوس القيام ببعض المحاولات الدبلوماسية لاستماله الأثينيين إليه ومحاولة تحييدهم عن بقية مدن اليونان وخاصة فك الارتباط بينهم وبين الأسبرطين، ولهذا الغرض أرسل إلى أثينا ألكسندر بن أمينتاس المقدوني (Alexandre fils d'Amyntas)،³ وقد اختار ماردونيوس هذا الأمير بحسب هيرودوت لارتباطه بصلات قرابة ومصاهرة مع الفرس،⁴ كما أنه كان من أولئك الحكام الأكثر انصياعا وتبعية للملك كزاركسيس، وقد وصل ألكسندر الى الإكليزيا (Ecclésie) في أثينا في نفس اليوم الذي وصل فيه مبعوثين من أسبرطه للمشاركة في مفاوضات مع الاثينيين بخصوص حرب ماردونيوس⁵.

¹ - Henri Pigaillem, op.cit, p110

² - Pierre Briant, loc.cit.

³ - Henri Pigaillem, loc.cit.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, CXXXVI (136)

⁵ - Henri Pigaillem, loc.cit.

كان هدف ماردونيوس هو احداث شقوق وتصدعات بين الاعريق، أو بالاحرى منع أي تعاون عسكري بين أسبرطة وأثينا، فإذا استطاع الاتفاق مع الاثينيين سيصبح سيدا لبحر إيجه، كما أنه على الأرض سيكون تفوقه العددي مضاعفا.¹

كانت سفارة ألكسندر الى مجلس الإكليزيا في أثينا مفادها أن الملك كزاركسيس قد عفى عنهم وسامحهم على الأخطاء التي ارتكبوها، وأنه يعرض عليهم أن يكونوا حلفاء للملك، مذكرا اياهم أنهم لا قبل لهم بقوة كزاركسيس وجيشه الذي يقوده ماردونيوس، والذي من المؤكد أنهم سمعوا عن عدده وعدته. كما ذكرهم أن بلادهم بحكم موقعها ستكون وجهة لجيش الملك إن رفضوا هذا الحلف، كما أن معابدهم سيعاد بناؤها اذا ما انضموا لحلف ماردونيوس، وفي الأخير دكّرهم أن هذا العرض من قبل الملك يعتبر بمثابة الفرصة التي لا يمكن تفويتها، لأن الاثينيين هم وحدهم من سامحهم الملك ومن يطلب حلفهم.²

أدى سماع خطاب ألكسندر إلى استفزاز اللاكيدوميين، وإثارة قلقهم وهم الذين كانوا يحضرون مجلس الإكليزيا بأثينا، لذلك أخذوا الكلمة بعد خطاب ملك مقدونيا.³ دعى مبعوثو أسبرطة الاثينيين إلى عدم الاستماع لكلام ألكسندر لأنه طاغية ولا يعمل إلا لصالح الطغاة، وذكروا الاثينيين أنهم هم من كانوا وراء اشعال هذه الحرب، فإذا كانت الآن تستهدفهم بحكم قرب مدينتهم من مجريات الأحداث، فإنها تستهدف قريبا كل بلاد اليونان. وأضافوا أنه سيكون عملا مقبلا ومذلا للاثينيين إذا ما دخلوا في هذا الحلف وهم الذين لطالما كانوا منذ زمن بعيد دعاة لحرية الشعوب والمدفاعين عنها، اعترف الاسبرطيون بالوضعية السيئة التي آلت اليها احوال أثينا بسبب هذه الحرب وما لحقها من دمار وخراب، وعرضوا عليهم التزامهم واطعام أفراد أسرهم الذين لا يشاركون في الحرب طالما ظلت متواصلة، وفي الأخير طلبوا منهم عدم الانصياع وراء كلام ألكسندر وعود ماردونيوس وملكه كزاركسيس.⁴

¹ - Pierre Briant, loc.cit.

² - Hérodote, op.cit, VIII, CXL (140)

³ - Pierre Briant, op.cit, p 548.

⁴ - Hérodote, op.cit, VIII, CXLII (142).

كان رد الأثينيين وكما أورده هيرودوت واضحا على اقتراحات ألكسندر ومن ورائه ماردونيوس، بأنه لا داعي لتضخيم قوة الفرس فالأثينيون يعلمون أن قواتهم أقل من قوة الفرس إلا أنها قادرة على اشعال نار الحرية التي سيدافعون عنها بكل قوة، كما طلب الأثينيون من ألكسندر بأن لا يحاول اقناعهم بالتحالف مع الملك البربري فهذا أمر لن يتحقق أبدا، قائلين له اذهب وأبلغ ماردونيوس ردنا بأنه ما دامت الشمس تطلع كل يوم فنحن لن نقيم أي حلف مع كزاركسيس، ونحن واثقون من حماية آلهتنا وأبطالنا لنا، فهو الذي حطم معابدنا وتماثيل أبطالنا دون احترام، لذلك سنذهب في سبيل مواجهته وسندفع به خارج بلادنا بكل شجاعة. وفي الأخير قام الأثينيون بتحقيق الدور الذي يقوم به ألكسندر طالبين منه عدم القيام بمثل هذه الاعمال التي تحت الاثينيين على خيانة بلدهم وإلا فإنهم سيعاملونه معاملة لا تروق له¹.

بهذا الموقف الذي لم تكن له أي تفاهات مسبقة ولا اتفاق مع الحلفاء قطع الاثينيون كل حبال الدبلوماسية، كما قال الباحث ماكون (Macan): "تم ذلك بموقف يدل على عظمة الروح الهيلينية"². أما بالنسبة للأسبرطيين فقد كان رد الأثينيين عليهم بأنهم يُقَدِّرون قلقهم من امكانية تفاهتهم مع البرابرة، إلا أن هذا القلق يظهر الأسبرطيون بشكل مهين: "فأنتم تعلمون"، كما قال الأثينيون، نبل وسمو أنفس سكان أثينا مذكرين اياهم أنه لا يمكن للاثينيين تحت أي ظرف أن يأخذوا وضعا متقاربا مع الميدي، وذلك لعدة أسباب أهمها الحفاظ على وحدة الهيلينيين الذين يربطهم الدم الواحد، واللغة الواحدة والذين يعبدون نفس الآلهة ويرتادون نفس المعابد ويقدمون لألهتهم نفس الاضحيات ونفس الطقوس والعادات، لذلك سيكون عملا مهينا ومذلا للأثينيين أن يخونوا كل ذلك الاتحاد. وفي الأخير طلب الأثينيون وبدبلوماسية من الأسبرطيين تحريك جيشهم البري نحو الشمال للقاء البرابرة وبأسرع وقت، لأن هؤلاء البرابرة بمجرد معرفتهم بموقف أثينا من

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, CXLIII (143).

² - Peter Green, op.cit, p 319

عروض ماردونيوس سينهمرون دون تردد على أتيكا (Attique) ويدخلون أثينا مرة أخرى، لذلك لابد من الذهاب إليهم وإيقافهم في بيوتيا (Biotie)¹.

2- رفض الأثينيين التخلي عن الحرب وبداية الاشتباكات

حين وصل رد الأثينيين الى ماردونيوس تحرك بجيشه باتجاه أتيكا (Attique)، والتي تم اخلاؤها من سكانها مرة أخرى²، قام ماردونيوس بتخريب أثينا (Athènes) حتى حطم كل شيء واقف فيها من جدران ومبانٍ³، كما قام بحرق ما تبقى من معالم في كل جزر أتيكا، ويبدو أن نائب كزاركسيس في اليونان وخلال تواجده في أثينا اعاد فتح قناة دبلوماسية جديدة مع الأثينيين المتواجدين بسلامين، معيدا عليهم عرض نفس الاقتراحات السابقة، ولكن هذه المرة متفاخرا بضمه لأتيكا واحكام قبضته عليها⁴. ورغم أن هذه الاقتراحات وجدت قبولا عند بعض الأثينيين المعزولين واللذين يُشكُّ في أنهم تلقوا أموالا من ماردونيوس، إلا أن اغلب الأثينيين رفضوا هذه الاقتراحات مجددا⁵.

ومرة أخرى أرسل الأثينيون سفراء الى أسبرطه يشكون من خالاهم عدم تحركهم لحرب ماردونيوس مهددين اياهم في الاخير بأنهم ان تُركوا طويلا دون تحرك البيلوبونيزيين لمحاربة ماردونيوس معهم، فإن الأثينيين سيضطهرون الى اعادة فتح مفاوضات مع ماردونيوس، ليتحرك في الأخير جيش البيلوبونيز ويغادر شبه الجزيرة بقيادة بوزانياس (Pousanies)⁶ (أنظر الملحق 13 صور) الذي كان وصيا على الملك الشاب بلايستاركوس (Pleistarchos) الذي خلف الملك كليومبروتوس (Cléombrotos). حين علم ماردونيوس بتقدم الاسبرطيين بقيادة بوزانياس، والذين قدر الارجوسيين أصدقاءه (Les amis d'Argos) عددهم بخمسة آلاف (5000) أسبرطي، والذين لحقت بهم بعد ذلك فرقة من المشاة الأثينيين (Hoplites Athéniens) بقيادة أريستيد⁷.

¹ - Hérodote, op.cit, VIII, CXLIV (144)

² - Pierre Briant, loc.cit.

³ - Henri Pigaillem , op.cit, p 111.

⁴ - Hérodote, op.cit, IX, IV (04).

⁵ - Ibid, IX, V.

⁶ - Pierre Briant, loc.cit.

⁷ - Henri Pigaillem, op.cit, pp110-111.

انسحب هذا الجنرال الفارسي إلى منطقته ديسيلي (Décélie) في بيوتيا (Béotie)، وكان بها أرض منبسطة تصلح لأن تكون مكانا مفضلا للمعركة، خاصة بالنسبة لتحرك فرسانه فيها بكل حرية، وضعا مقدمة جيشه بمنطقة بلاتيا (Platéas) القريبة، وكان ماردونيوس بجيشه المتكون من مائة وخمس وعشرين ألفا (125000) من المحاربين ، ستة وتسعون ألفا (96000) منهم من المشاة وأربعة آلاف (4000) من الفرسان مقتنعا بالنصر اعتمادا على تفوق جيشه العددي على القوات الاغريقية المتحالفة¹.

واذا كانت قوات ماردونيوس قد تدعمت بفرق من منطقة بيوتيا، وهم من الاغريق الذين آثروا مولاة الفرس فيما عدا الفوسيديين (les Phocidiens) الذين اضطروا إلى تقديم ألف (1000) من مقاتليهم للمشاركة في هذه المعركة مع ماردونيوس إلا أن هذا الأخير أعفاهم من مساعدته اذ توجس من وجودهم بين قواته وهو لا يضمن ولاءهم له².

وفي الجهة المقابلة تدعمت قوات الحلفاء الاغريق بأعداد كبيرة من البيلوبونيزيين الذين ساروا وراء بوزانياس، والذين وصل عددهم إلى اثنين واربعين ألف (42000) محارب، وكذلك بالمشاة الأثينيين الذين وصل تعدادهم الى ثمانية آلاف (8000) من المشاة الاشداء³. ويبدو أن هذه القوات الاغريقية قد اجتمعت في إيلوزيس (Eleusis) ليعاودوا فيها القَسَمَ على حرية اليونان والذي عُرفَ بقسم بلاتيا (Serment de Platées) والذي التزمت فيه جميع المدن الدول المنضوية في الرابطة الهيلينية على العمل من أجل الدفاع عن حرية اليونان⁴.

حين علم الاغريق بعد وصولهم إلى منطقة إيريتراس (Erythres) في بيوتيا، أن الفرس قد اتخذوا معسكرهم على ضفاف نهر الأزوبوس (l'Asope)، عسكروا هم مقابله على سفوح جبل سيتيرون (Cithéron)⁵، ولكي يستفز ماردونيوس الاغريق للنزول الى السهل الذي يراه مناسبا لجيشه لخوض المعركة، ودفعهم لترك مرتفعات الجبل قام بإرسال خيالاته للاغارة عليهم ومناوشتهم.

¹ - Henri Pigaillem, loc.cit.

² - Hérodote, op.cit, IX, XVII, XVIII, (17-18).

³ - Henri Pigaillem, op.cit, p111

⁴ - Peter Green, op.cit, p335.

⁵ - Hérodote, op.cit, IX, XIX, (19)

كان الاغريق متحصنين في أرض جبلية كثيرة الصخور عموماً، وكان من بينهم الميغاريون (Mégariens) فقط، بعدد ثلاثة آلاف (3000)، من يعسكرون على منطقة منبسطة سهلة الاختراق من طرف الخيالة الفرس، ولذلك طلبوا نجدة من بوزانياس لمساعدتهم في التصدي لإغارة الفرسان الفرس.¹

ومن أجل تلبية طلبهم استطاع بوزانياس رأي الحلفاء الاغريق فيمن يستطيع القيام بهذه المهمة، فلم يتلق منهم أي رد ايجابي فيما عدا مجموعة من النخبة المقاتلين الأثينيين يقودهم أولمبيودور (Olympiodore) ابن لمبون (Lampon) الذي تكفل بهذا العمل، وأخذ المقاتلون الأثينيون موقعهم جالبين معهم عدداً من الرماة لمؤازرتهم في صد هجوم الخيالة الفرس.²

ولم يكن هذا الأمر ليتم دون موافقة قائد الأثينيين أريستيد وبأمر منه، وقد لاحظ قائد الخيالة الفرس ذلك التحرك من طرف هؤلاء المقاتلين الأثينيين، لذلك استهدفهم بشكل مباشر في هجومه، كان هذا القائد يدعى ماسيستوس (Masistios) معروف بقوته البدنية المتميزة، كما كان له قامه طويلة وهيئة ذات هيئة³، إذ كان يركب أحد الجياد البنزانية (Cheval niséen) بلجام من الذهب، وبجلّة رائعة، إلا أنه يحسب رواية هيرودوت لم يكن موفقاً في هجومه على الأثينيين، حيث أصيب جواده بجروح إثر إصابته بسهم، مما أدى إلى سقوط ماسيستوس أرضاً، وهو الأمر الذي عجل بقتله من طرف المقاتلين الأثينيين، رغم مقاومته لهم، ورغم ارتدائه لترس وخوذة جديدين ساعده في الاحتماء بهما من ضربات الأثينيين، إلا أن أحدهم أدخل حربته في عينيه من خلال فتحة الخوذة التي يرى منها وتمكنوا بذلك من قتله.⁴

وقد أُلْمَ مقتل ماسيستوس الفرس وخاصة قائدهم ماردونيوس، فقد فقدوا في الحقيقة رجلاً ذا مكانة متقدمة في جيش الفرس كما أن له حضوة عند ملكهم كزاركسيس، وربما كانت له المرتبة

¹ - Plutarque, Vies des Hommes illustres , Vie d'Aristide, texte traduit par Alexis Pierron, Charpentier Editeur-Libraire, Paris, 1845 , 208.

² - Hérodote, op.cit, IX, XXI, XXII (21-22).

³ - Plutarque, op.cit, Vie d'Aristide (208)

⁴ - Hérodote, op.cit, IX, XXII (22).

الثانية في هذا الجيش بعد قائدهم ماردونيوس¹، ويمكن أن يكون ماردونيوس قد تفاجأ بهذا الثمن الباهض الذي دفعه من خلال خسارة ماسيسيوس في هذا التدخل، ولكنه وصى نفسه بعد يوم أو يومين في أن هدفه قد تحقق من خلال هذا الهجوم. وبما أن حركة الفرس هدأت لعدة ايام ولا يبدو عليهم التحضير لأي هجوم، قرر بوزانياس إعادة نشر فرقة في مكان أفضل من الذي يحتله الآن، وذلك بتنقله غربا نحو مدينة بلاتيا (Platéas)، خاصة وأن المناطق التابعة لهذه المدينة تضمنن للاغريق التزود بالماء الشروب وبوفره بدل النزول بشكل مستمر من مرتفعات إيريتاس (Erythes) الى السهل لاقتناء الماء وهو ما يجعلهم عرضة لهجومات الخيالة الفرس².

كما أن هذا المكان الجديد يسمح لقوات بوزانياس بالانتشار في مكان محمي بواسطة سلسلة من الهضاب تعرف بهضاب الاوسوبوس (Grêtes de l'Assopos) والتي لها شكل موازي لمعبر النهر، كما أنهم في هذا الموقع الجديد يصبحون في نطاق مدينة بلاتيا (Platéas) الحليفة، مروراً بهيسي (Hysies) أين يمكن للفرق أن تنتشر بالقرب من منبع ماء يعرف باسم عين غرغافيا (Gargaphie)، وسور مقدس هو سور أندروكراتاس (Androchrates). كانت عين الماء بعد إعادة انتشار قوات بوزانياس أقرب إلى الجناح الأيمن الذي يتمركز فيه بوزانياس وقواته الاسبرطية، أما القوات الاغريقية الأخرى فكانت تنتشر أكثر نحو الغرب حيث تقترب شيئاً فشيئاً من نهر الأسوبوس³. (أنظر الملحق 18 خرائط)

تقدم الاغريق نحو بلاتيا حاملين أسلحتهم وقد مروا في طريقهم بمنطقة هيسي (Hysies)، وحين دخلوا نطاق مدينة بلاتيا انتظموا أمة أمة بالقرب من عين ماء تسمى غارغافيا (Gargaphie) القرية من معبد لأحد أبطال اليونان يسمى أندروكراتاس (Androchrates)، بعضهم فوق التلال المرتفعة وبعضهم الآخر على السهل⁴. وحين لاحظ ماردونيوس أن الاغريق قد تركوا معسكرهم وتوجهوا نحو مدينة بلاتيا (Platéas) وضع جيشه في حالة استعداد للمعركة ولحق

¹ - Hérodote, op.cit, IX, XXIV (24).

² - Peter Green, op.cit, pp 345-356.

³ - Ibid.

⁴ - Hérodote, op.cit, IV, XXV (25).

الباب الأول- الفصل الخامس: المعارك الحاسمة بين الفرس والاغريق ونهاية المواجهات

في اثرهم مع مقاتليه الذين كانوا يطلقون صيحات واصوات مخيفة. أمر بوزانياس أن يأخذ الكل في جيش الاغريق مواقعه استعدادا للمعركة¹.

وانطلاقا من وصف هيروdotot لوضعية الجيش قبل المعركة فإن الاغريق قد وضعوا على الجناح الأيمن عشرة آلاف من اللاكيدومنيين (10000) بمعية ألف وخمسمائة (1500) من التيجيتيين (Tégéates)، يقابلهم في الجانب الآخر الجناح الأيسر الفارسي اثنا عشر ألفا (12000) من الفرس، أما عن صدر الجيش الفارسي فكان به جزءان الصدر الايمن والايسر وفي الوسط من جهة اليمين تركز خمسة آلاف (5000) من الكورنثيين (Cornithiens)، ثلاثمائة (300) من البوتيديات (Potidéates)، ستمائة (600) من الأورخومانيين (Orchoménien) وثلاثة آلاف (3000) من السيكيونيين (Sicyoniens) يقابلهم من جيش ماردونيوس سبعة آلاف وخمسمائة (7500) من الميد، كما تركز مع هذه الفئة أي الوسط من جهة اليمين ثمانمائة (800) من الايبيدوريين (Epidauriens)، ألف (1000) من التريزينيين (Trézéniens)، مائتين (200) من الليبريات (Lépréates)، أربعمائة (400) من التيرنت (Trynithiens)، وعدد غير معروف من الموكنيين (Myceniens)، ألف (1000) من الفيلياسين (Phliasiens)، يقابلهم ثلاثة آلاف (3000) من البكتيريين (Bactriens) في جيش ماردونيوس².

أما في جهة الوسط إلى اليسار فقد تركز من جهة الاغريق ثلاثمائة (300) من الهرميونيين (Hermionéens)، ستمائة (600) من الإريثيريين (Erétrien) والستيريين (Styréens)، أربعمائة (400) من الخالكيديين (Chalcidiens) يقابلهم في جيش ماردونيوس ألف (1000) من الهنود (Indiens)، كما أخذ بجانب هؤلاء في نفس الوضعية أي الوسط إلى اليسار خمس مائة (500) من الأمبراكيات (Ampraciates)، ثمانمائة (800) من الاناكتوريان (Anactoriens)، مائتان (200) من الباليين (Paléens)، خمسمائة (500) من الايجينات (Eginètes)، وعدد غير معروف من اللوكادين (Laucadiens)، يقابلهم في جيش ماردونيوس ألف وخمسمائة (1500)

¹ - Plutarque, Vie d'Aristide ,op.cit, 213-214.

² - Peter Green, op.cit, pp 348-349; Hérodote, op.cit, IX, XXXI (31).

من الساس (Saces). أما في الجناح الأيسر لجيش الاغريق فقد تركز ثلاثة آلاف (3000) من الميغاريين (Mégariens)، ستمائة (600) من البلاتيين (Platéens)، وثمانية آلاف (8000) من الأثينييين وكان يقابلهم في جيش الفرس (15000) خمسة عشر ألفاً، متكونين من المقدونيين (Macédoniens)، والبيوتيين (Béotiens)، اللوكرين (Locriens) والماليديين (Malidiens)، والتساليين (Tesseliens) والفوسيديين (Phocidiens) الذين كان عددهم يصل إلى الألف (1000) مقاتل¹.

كان ماردونيوس راغباً بشدة في بداية القتال والالتحام مع الاغريق في معركة فاصلة، إلا أن الاضحيات التي قدمها للآلهة لم تصدر عنها نبوءات إيجابية تعده بالنصر إلا اذا اتخذ وضعية المدافع لا المهاجم، وبعد عشرة أيام من عسكرة الجيشين بالقرب من بلاتيا (Platéas) واللدان كان يفصل بينهما نهر الأسوفوس، ورغم تقدم الفرس إلى حافة النهر لاستفزاز الاغريق ودفعهم للقدوم إليهم، إلا أنه في النهاية لم يجرؤ أي جيش على اجتياز النهر².

ويبدو أنه وبعد مضي أحد عشر يوماً، بدأ صبر ماردونيوس ينفذ بحسب وصف هيرودوت، أما بلوتارخوس فقد وصفه بالمنزعج والغاضب والقلق بسبب الامدادات التي تتواصل في القدوم على الاغريق، وكذلك بسبب يأسه من حصوله على تموين لجيشه الكبير في هذا المكان³. وفي هذا الظرف الحرج لجأ ماردونيوس بحسب هيرودوت الى استشارة أرتباز (Artabaze) بن فارناس (Pharnace) الذي كان يحظى بمكانة معتبرة عند الملك كزاركسيس، هذا الأخير أشار على ماردونيوس برفع معسكره من هذا المكان في أقرب وقت، والاقتراب من أسوار مدينة طيبة الحليفة للفرس بغرض تأمين المؤن للمقاتلين، والأعلاف للجياد، وبذلك يمكن مواصلة الحرب بأريحية⁴. كما عرض أرتباز على ماردونيوس فكرة أخرى لإنهاء الحرب بطريقة مختلفة، تمثلت في استغلال جرار الذهب الموجودة لديهم في استمالة أصحاب السلطة والنفوذ في المدن اليونانية التي تشارك

¹ - Peter Green, loc.cit; Hérodote, loc.cit.

² - Hérodote, op.cit, IX, XL-XLI (40-41).

³ - Peter Green, op.cit, P 358.

⁴ - Hérodote, op.cit, IX, XLI (41)

بقواتها في جيش الاغريق، ومن ثم العمل على تفجير التحالف من الداخل¹، وقد أيد الطبييون (Les Thébains) هذا الرأي، غير أن ماردونيوس كان مقتنعا بضرورة إعلان الحرب وبداية المعركة، لأنه كان يرى ان جيشه متفوق على جيش تحالف المدن الاغريقية سواء من حيث القوة أو من جيش العدو، بذلك كلما أسرع الفرس، حسب رأيه في الالتحام، كان ذلك أفضل، كما أنه يجب ايقاف تقديم الأضحيات وانتظار النبوءات².

كان قرار ماردونيوس واضحا فلربما كان منزعجا من طول مدة التحضير لهذه المعركة وخمول الجيش عن الأعمال الحربية، كما أنه يمكن للأخبار القادمة من بحر إيجه والتي مفادها أن الاسطول الاغريقي تتعاضد قوته من خلال الامدادات التي يتلقاها باستمرار، وكذا ابحاره إلى جزيرة ساموس مما يعني قرب تمرد أيوني جديد ضد الفرس، وهذه كلها أسباب ودوافع تحتم على ماردونيوس الالتحام بسرعة مع الاغريق من أجل تحقيق نصر مدوٍ عليهم³. اتخذ اذن ماردونيوس القرار ببداية المعركة ولم يجرؤ أحد من أعضاء مجلس حربه و قاداته على الاعتراض عليه، لأنه كان يملك وحده صلاحية القيادة العليا للجيش وهي التي منحها له كزاركسيس، ولم يمنحها لأحد غيره، ولذلك تم إصدار الأمر بالقيام بالاستعدادات اللازمة والاصطفاف لخوض المعركة في يوم الغد⁴.

ورغم أن المصادر التاريخية تحدثت في هذا الاطار من وصول معلومات الهجوم الذي سيشنه ماردونيوس على جيش الاغريق في يوم الغد، وذلك عن طريق ألكسندر المقدوني ملك مقدونيا الذي الذي انطلق ليلا من معسكر الفرس وقطع نهر الأسوبوس⁵ وتوجه نحو معسكر الأثينيين، وطلب لقاء أريستيد ليبلغه بأن ماردونيوس سيهاجم القوات الاغريقية صباح الغد، وأنه لا بد من ابلاغ بوزانياس بذلك، كما أعلم ألكسندر الأثينيين بأنه لا توجد لدى ماردونيوس مؤن كافية، وأنه

¹ - Peter Green, op.cit, P 359.

² - Hérodote, op.cit, IX, XLI (41).

³ - Peter Green, loc.cit.

⁴ - Hérodote, op.cit, IV, XLII (42)

⁵ - Peter Green, op.cit, p361

الباب الأول- الفصل الخامس: المعارك الحاسمة بين الفرس والاغريق ونهاية المواجهات

في حالة لم يقيم ماردونيوس بالهجوم في الغد، فإن عليهم البقاء في مواضعهم فليس بإمكان ماردونيوس البقاء طويلا دون مؤن كافية.¹

وإذا كان ألكسندر قد برر مغامرته هذه، من خلال ابلاغ الأثينيين بالمعلومات المتعلقة بهجوم الفرس، بحبه لبلاد اليونان لكونه يوناني قبل كل شيء، وبأنه لا يرغب أن تدخل بلاد اليونان في العبودية، إلا أن بعض المحللين شككوا في هذا المبرر وأشاروا إلى أن هذه الحركة قد تصب في صالح خطة ماردونيوس، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بعض التحضيرات التي كان ماردونيوس يرغب في استكمالها قبل هجومه على الإغريق، خاصة فيما تعلق بقطع طريق الهروب والتراجع بالنسبة للإغريق، ومحاولة التسلل وحرمانه من التزود بالماء من خلال استيلائه على عين غارغافيا (Gargaphie) التي يتزود منها كل جيش الاغريق بالماء الشروب.²

تحدث كل من هيرودوت وبلوتارخوس أنه في صباح اليوم الموالي وهو اليوم الذي كان مقررا فيه خوض المعركة من طرف الفرس، طلب بوزانياس من أريستيد تغيير الأجنحة بين اللاكيدومينيين والأثينيين، ليكون الأثينيون في مواجهة الفرس وذلك بحكم الخبرة القتالية التي اكتسبها الأثينيون في قتال هؤلاء منذ معركة الماراثون (Marathon)، وبذلك يصبح الاثينيون في مواجهة الفرس، والاسبرطيون في مواجهة الاغريق المتحالفين مع الفرس. ورغم أن الاثينيين قبلوا عرض بوزانياس، إلا أن ماردونيوس غير أجنحته من جديد ليظل الفرس في مواجهة اللاكيدومينيين الأمر الذي دفع بوزانياس الى العودة الى التوزيع الأول لفرقه، وكذلك الأمر بالنسبة لجيش الفرس، غير أن الموقف أصاب ماردونيوس بالزهو والافتناع بخوف بوزانياس وجنوده الاسبرطيين من مواجهة الفرس، لذلك أرسل لهم معبرا عن خيبة أمله فيهم، إذ أنه كان يعتقد انهم أكثر شجاعة وقدرة على التحدي مما وجده منهم اليوم من محاولة تجنب قتال الفرس وتفضيل قتال الاغريق المتحالفين معه.³

أطلق ماردونيوس خيالته ضد الجانب الذي أصبح يراه الأضعف في جيش الاغريق وهم اللاكيدومينيين، كما أرسل حاملي الأقواس على جيادهم من السكيثيين (Scythes) والساس

¹ - Plutarque, Vie d'Aristide, op.cit, 209-210.

² - Peter Green, op.cit, pp 262-265.

³ - Plutarque, vie d'aristide, op.cit, 210-212 ; Hérodote, op.cit, IX, XLVI-XLIX.

(Saces) يطوفون حول الفرق الاغريقية، ويرمونها بالسهم والحرب ودام ذلك طوال اليوم، ويبدو أن الاغريق قد تلقوا خسائر معتبرة خاصة على مستوى الفرق المتوقعة في الوسط. وفي الحقيقة لم يكن لدى الاغريق ما يردون به هذه الهجمات السريعة عن طريق الجياد، إذ أنهم لا يملكون فرقا من الرماة فيما عدا الاثنيين الذين يملكون بعض الوحدات منهم¹، وفي خضم هذه الجلبة وتلك الاضطرابات التي أحدثها هذا الهجوم تمكنت كتيبة من فرسان الفرس من الوصول إلى عين الماء غرغافيا لتتلفها وتسد المنبع الذي ينهمر منه الماء، والذي كان أقرب إلى مواقع اللاكيدومنيين، من بقية الاغريق الآخرين².

بعد هذه الخسارة لمنبع الماء بالنسبة للاغريق، اجتمع قائد الاغريق عند بوزانياس على عجل ليعقدوا مجلس حرب مستعجل، لقد كانوا متأثرين بشكل كبير بتحركات الخيالة الفرس، وكذا حاملي السهام منهم وحرمانهم من الماء والتموين، ولم يعد بإمكانهم الاستمرار بالبقاء في هذا المكان. وبعد مناقشات بينهم خلصوا إلى أنه لا بد من البقاء إلى غاية آخر النهار فأي تحرك أو تراجع إلى الخلف ستكون له آثار كارثية على الجيش، ولكن مع حلول الظلام، وبما أن ماردونيوس لم يبدأ معركة شاملة، فإنه بإمكانهم التراجع إلى مدينة بلاتيا (Platéés)، وتحديدًا إلى أرض جيدة وملائمة تسمى الجزيرة (L'Ile) إلى الشرق قليلا من بلاتيا بين ذراعين لنهر أويروي (Oéroé)، فهناك يوجد الماء بوفرة كما أنه سيكون محميا من هجمات الخيالة الفرس من خلال بعض التلال الموجودة بالقرب من جيل سيتيرون (Citheron)³.

3- انسحاب الإغريق نحو معبد هيرا (Héra) ووقوع الالتحام الحاسم

عند حلول الظلام وتحرك الاغريق في الساعة المتفق عليها والتي يرجح أنها بعد الساعة العاشرة (22h) ليلا، إلا أن اغلب الفرق لم تكن تعلم الوجهة الأخيرة التي اتفق عليها قادة الجيش، لذلك لجأ اغلب المقاتلين إلى ناحية مدينة بلاتيا (Platéés) للهرب من خيالة الفرس، وعند

¹ - Peter Green, op.cit p 364.

² - Hérodote, op.cit, IX, XLIX (49).

³ - Peter Green, op.cit, p 356.

وصولهم إلى معبد هيرا (Héra) القريب من بلاتيا، وضع المقاتلون أسلحتهم ونصبوا خيامهم، ويشير هيرودوت في هذا الاطار الى تأخر بوزانياس في التحرك مع الجيش بسبب عصيان أحد قادة الاسبرطيين وعدم الامتثال لأمره بالرحيل، والذي اعتبره هذا الأخير فرارا من أجنب يجب البقاء ومقاتلتهم، إلا أنه بعد أخذ ورد بين هذا الأخير وبين بوزانياس، امتثل هذا القائد المدعوا أموفارات (Amopharete) الذي وجد نفسه وحيدا في المكان بعد انسحاب الاغريق وانسحاب بوزانياس نفسه مع جنوده اللاكيدوميينين¹.

وفي الصباح حين علم ماردونيوس بانسحاب الاغريق خلال الليل، أرسل في طلب بعض القادة الاغريق الموالين له ليحقر أمامه الاسبرطيين الذين يقال أنهم لا يفرون أبدا من المعركة، والذين يتحدث جميع الاغريق عن شجاعتهم وبسالته في الحرب، وها هم الآن يثبتون أنهم لا يجراؤون على حرب الرجال الشجعان من الفرس، ولا يتميزون إلا بين مواطنيهم من الاغريق الذين وصفهم جميعا بالجناء، ولم يفوت ماردونيوس الفرصة ليعلق على رأي أرتباز (Artabaze) الذي طلب منه الانسحاب إلى مدينة طيبة، وأنهى قائد الفرس كلامه بضرورة عدم فرار الاغريق من قبضته وألوية اللحاق بهم ومعاقتهم على كل الآلام التي سببها للفرس². كان ماردونيوس يعتقد حقا أن الاغريق أصبحوا في حالة فرار من قواته، لذلك أعطى الاوامر دون انتظار بملاحقتهم، اجتازت قواته الاسوبوس (l'Asopos) وتحرك جميع قادته في إثر قوات ماردونيوس، دون تنظيم ولا اصطفاف³.

ارتفعت قوات الفرس نحو الامام لتتبع آثار الفرق الاغريقية، كان ماردونيوس يلاحق بصفة خاصة اللاكيدوميينين والتيجيات (Tégéates) الذين بسبب تأخر تحركهم كانوا ظاهرين له⁴. كان الفرس يطلقون صيحات وأصوات مخيفة⁵ معتقدين أنهم ليسوا معينين بالقتال في هذه المرحلة بل

¹ - Hérodote, op.cit, IX, LII, LVII, (52-57)

² - Ibid, IX, LVIII (58).

³ - Peter Green, op.cit, p 369

⁴ - Hérodote, op.cit, IX, LIX (59)

⁵ - Plutarque, vie d'Aristide, op.cit, 213.

بإيقاف الاغريق الفارين وسلب ما في أيديهم¹. وحين أدرك بوزانياس أن قواته صارت على مسافة قصيرة من كوكبة فرسان الفرس، أرسل على جناح السرعة فارسا إلى الاثينيين يطلب منهم القدوم لمؤازرته في مواجهة خيالة ماردونيوس، مشيرا إلى أن الأمر يتعلق هنا بحرية أو عبودية بلاد اليونان وأنه لو أن الخيالة الفرس هاجموا الاثينيين أولا لهب اللاكيدومينيون لنجدتهم وأضاف مخاطبا الاثينيين أنه في حالة تعذر قدومهم فليرسلوا بعدد من حاملي السهام للتصدي لفرسان ماردونيوس².

أريستيد قائد الاثينيين والذي وصل بقواته من المشاة إلى مشارف منطقة الجزيرة (Ile) غير اتجاهه إثر نداء بوزانياس ليدرك اللاكيدومينيون، غير أنه بعد مسافة متواضعة من مسيره اعترضه بالهجوم فرسان من القوات الاغريقية المتحالفة مع الفرس، والذين يشكلون الجناح الأيمن لجيش ماردونيوس، هذه القوات كانت مكونة من التساليين (Thessaliens) والمقدونيين (Macédoniens) وفرقة قوية من البيوتيين (Béotiens) التي كانت تحارب من أجل أرضها وحدودها القديمة. أُجبرَ بذلك أريستيد على التوقف وتنظيم صفوف جنوده، وبمجرد ما أنهى تلك الاستعدادات حتى وصلت فرق مشاة البيوتيين والفرس، ليجد الاثينيون أنفسهم قد تورطوا في المعركة، وبذلك أصبح من المحتم أن يواجه بوزانياس فيالقه من اللاكيدومينيون والتيجيات، وأن يواجهوا لوحدهم هجوم الجناح الايسر لجيش الفرس عليهم³.

ويذكر بلوتارخوس أنه رغم هجوم الفرس على جناح اللاكيدومينيون، إلا أن بوزانياس ظل ينتظر نبوءة الآلهة بخصوص هذه المعركة من خلال الصلاة لها وتقديم الاضحيات، وخلال تلك الصلوات أمر جنوده بالانتظار وعدم التحرك إلى أن يصلهم أمر منه، إلى درجة أن أحد الاسبرطيين من ذوي المكانة الرفيعة والمعروف بشجاعته وتمرسه في الحرب أصيب بسهم، وكانت الاصابة قاتلة فقال على إثرها: "ليس الموت ما آسف عليه، فمئذ أن خرجت من بيتي كنت عازما

¹ - Peter Green, op.cit, p 369.

² - Hérodote, op.cit, IX, LXXX (80).

³ - Peter Green, op.cit, pp 370-371

على منح حياتي فداء لليونان، ولكن ما آسف عليه، أن أُقتل دون أن اضرب ضربة واحدة في هذه المعركة¹.

ظلت النبوءات التي ينتظرها بوزانياس لا توحى بالإيجاب، ليلتفت هذا الأخير بحسب رواية هيرودوت نحو معبد هيرا (Héra) بالقرب من بلاتيا ليستجدي إلهة الاعريق ويترجأها أن تحقق أمله في خوض معركة تنتهي بانتصار على الفرس، وضل على ذلك إلى أن هب التيجيات وتقدموا لمواجهة الفرس، لينهي في ذلك الوقت بوزانياس صلاته وتتحول النبوءات في النهاية الى ايجابية، ويتحرك اللاكيدومينيون مثلهم كذلك ضد الفرس².

ووصف بلوتارخوس هجوم اللاكيدومينيون على الفرس قائلا: "تم اعطاء الامر وانهمرت الفرق في شكل كتل بشرية على العدو، هجم اللاكيدومونيون كأنهم وحش يُكشّر عن أنيابه، ووجد الفرس أنفسهم يقاتلون رجالا يحاربون بشراسة حتى الموت، كانوا جميعا يحتمون تحت دروعهم الكبيرة ويطلقون السهام على اللاكيدومنيين، أما هؤلاء فكانوا يتقدمون بخطى ثابتة حاملين دروعهم ومندفعين نحو عدوهم فيوقعونه ويضربون بقوة عن طريق حراهم وجوه وصدور مقاتلي الفرس"³.

كانت المعركة تزداد شراسة بين مشاة بوزانياس ومشاة ماردونيوس وخيالته، وقد استطاع الفرس استيعاب شدة هجوم اللاكيدومنيين والتيجيات من خلال استماتتهم في صده وكسر حراهم التي كانوا يمسكونها بأيديهم ويكسرونها، إلا أنهم كما يقول هيرودوت لم يكونوا في مستوى شجاعة وقوة الاعريق، كما أن سلاحهم الخفيف وقلة احترافيتهم في الحرب جعل الاسبرطيين يتفوقون عليهم، ويشتتوا شملهم ويقتلون منهم أعدادا كبيرة. كان ماردونيوس يقاتل بشخصه على حصان أبيض، على رأس ألف من نخبة مقاتلي الفرس، كان مستميتا في صد هجوم اللاكيدومنيين ويحارب مع فيلقه بشجاعة، إلا انه قُتل في ميدان المعركة، الأمر الذي أدى بنخبة مقاتليه، وهم

¹ - Plutarque, Vie d'Aristide, op.cit, 213.

² - Hérodote, op.cit, IX, LXII (62).

³ - Plutarque, Vie d'Aristide, op.cit, 214.

الفيلق الأقوى في جيشه الى التراجع بعد ظهور بوادر هزيمتهم، مما دفع بقية المقاتلين إلى الإِدْبَار والفرار معلنين بذلك انتصار اللاكيدومنيين عليهم¹.

في تلك الأثناء كان الاثينيون بقيادة أريستيد يهاجمون أولئك الاغريق المتحالفين مع ماردونئوس، والذين طلب منهم أريستيد في البداية الامتناع عن قتال مواطنيهم، وعدم اعتراض طريق الاثينيين الذين كانوا بصدد الذهاب لنجدة الاسبرطيين، وهم جميعا إنما يدافعون عن حرية اليونان، إلا أن هؤلاء وبدل التأثير بكلامه عمدوا إلى مهاجمته، كان أريستيد ومن معه من الاثينيين قادرين على التكفل بهؤلاء الاغريق، الذين سرعان بدأوا يتراجعون أمام قوة وشراسة الاثينيين وعمدوا إلى القتال بطريقة التقهقر (Battre en retraite) إلى الوراء، وما لبثوا أن تراجعوا وفروا بعد أن ابدوا في البداية نوعا من استيعاب هجوم الاثينيين².

في ذلك اليوم الفاصل من معركة بلاتيا، ثار اللاكيدومينيون لمقتل ملكهم ليونيداس من خلال قتل مارودنيوس الذي قتله أحد الاسبرطيين البارزين في جيش بوزانياس يدعى أيمنيستوبس (Aeimmèstos)³، والذي هشم رأسه بحجر قذفه عليه⁴. انتهت المعركة بدفع اللاكيدومينييين أعداءهم إلى الفرار، وكذلك فعل الاثينيون بعد أن قتلوا من اعدائهم ثلاثمائة (300) من مقاتليهم المتميزين، وقد هموا بملاحقتهم عندما علموا أن مقاتلي جيش الفرس قد انكفأوا على أنفسهم في معسكرهم داخل تحصيناتهم الخشبية، تلك التحصينات التي صار الاسبرطيون يحاصرونها، إلا أنهم لم يتعاملوا معهم بحزم إلى غاية وصول الاثينيين ليقتلوا تلك التحصينات ويرتكبوا مجزرة مريعة في حق المحاصرين من جيش الفرس⁵.

لم ينج من جيش الفرس سوى أربعين ألفا (40000) استطاع أرتباز الفرار بهم من المعركة⁶، أما بالنسبة للاغريق الذين كانوا يحاربون في بلادهم فلم يقتل منهم بحسب بلوتارخوس سوى ألفا وثلاثمائة وستين (1360) رجلا بينهم اثنان وخمسين (52) فقط من قبيلة أيونتيدي (Aiantide)⁷.

وكان لمشاركة الميغاريين (Les Mégariens) وسكان فيليوننت (Phliunte) رغم تأخرهم عن بداية المعركة أهمية واضحة، ففرقهم المكونة من سبعة آلاف (7000) رجل، وصلت إلى ساحة

¹ - Hérodote, op.cit, IX, LXII-LXIII, (62-63)

² - Plutarque, Vie d'Aristide, op.cit, 215.

³ - Hérodote, op.cit, IX, LXIV (64)

⁴ - Peter Green, op.cit, p375.

⁵ - Plutarque, Vie d'Aristide, loc.cit.

⁶ - Hérodote, op.cit, IV, LXVI (66)

⁷ - Plutarque, Vie d'Aristide, loc.cit.

المعركة عدواً عبر السهل المفتوح شمال منطقة الجزيرة (l'Ile) لنجدة الاثينيين والذين تعرضوا لهجوم شرس من طرف الاغريق المواليين للفرس، كان تدخل الميغاريين يعبر عن قدر كبير من الشجاعة والاقدام، رغم أنه لم يكن منظماً ومنضبطاً كما أشار الى ذلك هيرودوت، كان دورهم فعالاً في تحييد هجوم الخيالة الطيبين (Cavaliers Thébains) الذين كانوا يركزون ضرباتهم على المشاة الاثينيين، ويبدو أن الميغاريين نجحوا في لفت انتباه قائد الخيالة الطيبين اسوبودور (Asopodore) حين رأى جموعهم تهاجمه بعفوية ودون تنظيم، ورغم أن الطيبين قتلوا عدداً كبيراً من الميغاريين يقارب الستمائة (600)، ثم قاموا بملاحقتهم عبر التلال، إلا أن هذه الحركة سمحت لأريستيد ومقاتليه الاثينيين بإنهاء مصير المعركة لصالحه ضد بقية الإغريق¹، رغم أن هيرودوت وصف عملهم بأنه كان موتاً دون مجد أو شرف ضد الخيالة الطيبين². (أنظر الملحق 11 صور)

كما أنه لابد من الإشارة في هذا الإطار إلى دور قام به الكورنثيون، إذ أن فرقة كان الكورنثيون على رأسها حاولت الوصول لنجدة اللاكيدومينيين، حيث انطلقت من معبد هيرا وعبرت بسرعة منحدرات سيتيرون (Cithéron)، ورغم الاختلاف في الآراء بين المصادر القديمة حول عمل الكورنثيين هذا ومدى فعاليته في المعركة، إلا أنه في جميع الأحوال ساهمت حركتهم من خلال محاولة نجدة اللاكيدومينيين، في تثبيط عزيمة أرتباز الذي كان يمكن أن يقحم مقاتليه في المعركة لنجدة الفرس حين كانوا يتلقون ضربات اللاكيدومينيين³.

تلك كانت نهاية معركة بلاتيا التي بدأت إرهاباً منذ اجتياح ماردونيوس لأتيكا نهاية شهر جوان (Juin) سنة 479 ق م ، وبعد ثلاثة أسابيع من الاحتكاكات المتواصلة والصراع حول منابع الماء في منطقة بلاتيا أدت في النهاية إلى خسارة الفرس وانسحابهم بعد مقتل ماردونيوس⁴. وزال بذلك خطر الغزو الفارسي لبلاد اليونان بشكل نهائي وإلى الأبد، فما بدأت سلامته صدقت نهاياته بلاتيا بنصر باهر للاغريق على الأرض بعد انتصارهم على كزاركسيس في البحر، وبذلك كانت خسارة كزاركسيس نهائية. هذه المعركة التي لا يعرف بالضبط تاريخ وقوعها، إلا أن الفترة الأقرب لوقوعها يمكن تحديدها بمنتصف شهر أوت من سنة 479 ق م، أي بعد حوالي ستة أسابيع من اجتياح ماردونيوس لأثينا⁵.

¹ - Peter Green, op.cit, pp 373-374

² - Hérodote, op.cit, IX, LXIX (69).

³ - Peter Green, op.cit, p374

⁴ - M.C Amouretti, F. Ruze, op.cit, p144.

⁵ - Peter Green, op.cit, p 378.

III- معركة ميكالي (Mycale) 479 ق.م

يتحدث هيرودوت أنه في نفس اليوم الذي هُزم فيه الفرس في معركة بلاتيا، منيوا بهزيمة أخرى في معركة بحرية بالقرب من رأس ميكالي (Mycale) جنوب الساحل الغربي لآسيا الصغرى¹، وتعود أحداث المعركة أو بالأحرى بداياتها إلى ذلك الوقت الذي كان فيه جيشا بوزانياس وماردونوس يتربص كل منهما بالآخر حول نهر الاسوبوس، في تلك الفترة قصد ثلاثة مندوبين عن سكان جزيرة ساموس (Samos) دون علم حاكمها تيومستور (Thémestor) طاغية المدينة الخاضع للفرس، قصدوا قائد الأسطول الاغريقي العائم آنذاك بالقرب من جزيرة ديلوس (Délös) طالبين منه انقاذ الأيونيين من هيمنة الفرس عليهم، ومذكرين إياه بصلة الدم التي تربطهم بالاعريق، كما أضاف المندوبون أن جزيرة ساموس مستعدة للثورة على الفرس،² وانه بمجرد ظهور الأسطول الاغريقي في بحر إيجة الشرقي ستشتعل الثورة في كل المدن الأيونية ضد الفرس، أما الفرس فلم يعودوا قادرين على مواجهة أي مقاومة جديّة من طرف الأيونيين، فمراكبهم أصبحت محطمة من طول الخدمة، ولم يعد بوسعها خوض معركة منظمة ضد الاعريق.³

استمع الاميرال الأسبرطي ليوتكيداس (Léotyichidès) بانتباه إلى ما قاله المندوبون الساموسيون، ويبدو أنه اقتنع بطلبهم خاصة مع الوضعية التي آل إليها الأسطول الفارسي بعد معركة سلامين، وتراجع الثقة الكبير بين الفرس والفينيقيين وهم الذين كانوا يمثلون عمود اسطولهم.⁴ وافق القائد الاسبرطي على طلب مندوبي ساموس بشرط أن يُقَسِّمُوا على التحالف مع القوات الاغريقية ودعمها بكل شجاعة وحزم، ليطلب منهم قائد الأسطول بعد ذلك الابحار إلى جزيرتهم وانتظار وصول الاسطول الاغريقي الى المنطقة.⁵

ويبدو أنه وبعد مضي يوم واحد، وبعد التأكد من ايجابية النبوءات، تحرك الاسطول الاغريقي نحو الشرق الايجي، إلا أن ارتاينناس (Artaynatès) وإيتاميتراس (Ithamitrès) قائدا الأسطول

¹ - Hérodote, op.cit, IX, XC (90)

² - Peter Green, op.cit, p 386.

³ - Hérodote, op.cit, IX, XC (30).

⁴ - Peter Green, op.cit, p 387

⁵ - Hérodote, op.cit, IX, XCI, XCII (91-92).

الفارسي العائم بالقرب من ساموس، وحين علما بتحرك الاسطول الاغريقي حركوا قطعهم البحرية نحو ساحل آسيا الصغرى،¹ لأنه وحسب هيرودوت كان الفرس قد قرروا في آخر مجلس عسكري عدم خوض أي معركة بحرية لكونهم أصبحوا في حالة غير مكافئة للقوات البحرية الاغريقية، لذلك انسحبوا نحو الساحل ليكونوا في حماية الفرق البرية المرابطة بمنطقة أيونيا (Ionie)، والتي كان يقدر عدد مقاتليها بستين ألفا (60000) يقودهم تيقران (Tigrene) وهو قائد معروف بقوته بين الفرس.² سحب الفرس مراكبهم إلى اليابسة وأحاطوها بخندق عميق وجدار من الأخشاب آملين أن يتجمع لهم جيش من مائة ألف (100000) مقاتل لهزيمة الأيونيين، كما أنهم بحسب ديودور الصقلي استعدوا استعدادا جيدا للحرب.³ (أنظر الملحق 25 خرائط)

قاد ليوتيكيدياس أسطوله إلى خليج ساموس، وحين وصل الجزيرة وجد أن الفرس قد رحلوا عنها، كانت المفاجأة سارة بالنسبة لهذا القائد الاسبرطي لأن هذه الجزيرة ستتحول بالنسبة له كقاعدة بحرية جيدة لجميع عملياته في غرب بحر إيجه. كان القائد الاسبرطي متلهفا لقتال الفرس، ولكن وبعد تغير المعطيات كيف يمكن له وهو المستعد لمعركة بحرية أن يحول مقاتليه البحريين إلى القتال على الأرض؟ خاصة وأن عدد مقاتليه لم يكونوا مساويين لعدد مقاتلي الفرس في ميكالي.⁴ ويتحدث هيرودوت أنه في بداية الأمر لم يكونوا يعلمون إلى أي وجهة ذهب الفرس، واعتقدوا أنهم توجهوا نحو الهلسوبونت (Hellespont)، لكنهم علموا بعد ذلك أنهم توجهوا نحو ساحل آسيا الصغرى، لذلك ذهبوا في أثرهم نحو ميكالي، وحين اقتربوا من الشاطئ، بدل أن يقترب منهم اسطول الفرس وجدوا على اليابسة المراكب محاطة بجدار، كما وجدوا جيشا على الأرض كثير العدد مصطفا على الشاطئ، لذلك أوقف ليوتيكيدياس أسطوله في اقرب نقطة من الشاطئ وخاطب الأيونيين المنضوين تحت لواء الفرس محاولا تحييدهم عن المعركة، وذلك من خلال مخاطبتهم بلغة يونانية لا يفهمها الفرس مذكرا الأيونيين أن هدفه يماثل هدف تيميستوكل في

¹ - Peter Green, op.cit, pp 387-388.

² - Hérodote, op.cit, IX, XCVI, (96).

³ - Diodore de Sicile. op.cit, XI. XXXIV (34)

⁴ - Peter Green, op.cit, p 389.

أرتيميسيوم (Artémisium) ويمكن القول أن أقل هدف حققه هذا الخطاب هو ضرب الثقة بين الفرس وبين حلفائهم من الاغريق في الجيش الذي يستعد لخوض المعركة.¹

ويضيف ديودور الصقلي أن ليوتيكيدياس أمر من كلفه بمخاطبة الايونيين بصوت مرتفع، أن يعلن أن الاغريق قد انتصروا على الفرس في معركة بلاتيا، ليزرع في صفوف جيش الفرس بذور الاضطراب والتخلخل، وهو ما وقع فعلا لأنه على إثر ذلك ارتاب الفرس في نوايا الاغريق المتحالفين معهم الى درجة أن قادة الفرس أمروا بنزع سلاح الاغريق الذين ارتابوا فيهم ومنحوا تلك الاسلحة الى حلفاء آخرين اكثر ثقة. وفي هذا الاطار لابد من الاشارة إلى أن ليوتيكيدياس قد استعمل خبر هزيمة الفرس في بلاتيا كنوع من الحرب النفسية لتحقيق النصر في معركته، لأن المصادر تتحدث عن وقوع معركتين في يوم واحد، ولم يكن بالامكان ان يصل خبر بلاتيا الى ميكالي بتلك السرعة رغم بعد المسافة بين المنطقتين.²

قاد ليوتيكيدياس اسطوله نحو الجنوب لشاطئ ميكالي لكي يتسنى له إنزال قواته على الأرض ووضعهم في صفوف استعدادا لخوض المعركة دون أي مضايقة من العدو، ويبدو أن ليوتيكيدياس لم يكن معه عدد كبير من المقاتلين البحارة، لذلك فضل أن تبقى مراكبه على أهبة الاستعداد على الماء، ومجهزة بعدد من المسلحين لتكون جاهزة في حالة التراجع أو الخسارة، كان لديه على وجه الاحتمال بين 2000 و3000 من المشاة الخفاف بين بحارته والذين ادخرهم كمدد محتمل لمشاته الثقال على الأرض، ومع ذلك فقواته كانت قليلة العدد مقارنة بقوات تيقران.³

اصطف الجيشان في وضعية المعركة واصبحا مستعدين للمواجهة، وبما أن الفرس انتبهوا إلى العدد القليل للاغريق فإنهم هم من كانوا المبادرين بالهجوم مطلقين صيحات حادة، وفي هذا الصدد يتحدث هيرودوت عن الخطة التي اعتمدها ليوتيكيدياس في هذه المعركة والمتمثلة في تقسيم جيشه إلى جزئين. جزء تركه وجها لوجه في مواجهة الفرس، وهو يتكون من الاثنينين ومن معهم

¹ - Hérodote, op.cit, IX, XCVIII (98).

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XXXIV-XXXV (34-35).

³ - Peter Green, op.cit, p 392.

من الكورنثيين والسيكيون (Sicyone) والتريزينيين (Trézéniens)، وجزء آخر من الاسبرطيين يقودهم هو بنفسه فضل الالتفاف بهم على الفرس من خلف الوديان والجبال المجاورة، غير أنه بمجرد مغادرته هو وجنوده هجم الفرس على الأثينيين ومن معهم، لتبدأ المعركة بين الطرفين¹.

وكما وقع في بلاتيا، استطاع الاغريق استيعاب الصدمة الأولى لجيش الفرس، وبعد فترة من التردد، رص الأثينيون وحلفائهم صفوفهم محتمين بدروعهم، وعملوا على مواجهه المقاتلين الفرس، وقد تعرض السيكيون في هذه المواجهة لضغط شديد فقدوا على إثره عددا كبيرا من رجالهم، وفي هذه الأثناء انضم الساموسيون الذين نزع الفرس اسلحتهم إلى الاغريق بعد ان كانوا في معسكر الفرس، ولأنهم استطاعوا جمع الاسلحة التي وجدوها على ارض المعركة فإنهم كانوا قوة دعم للأثينيين، خاصة بعد أن لحق بهم أيونيون آخرون موالون للفرس، كان ذلك دافعا قويا للاغريق الى درجة أن الاثينيين استماتوا في مواجهة الفرس عاقدين العزم على احراز النصر دون انتظار وصول الاسبرطيين الذين كانوا يلتفون على جيش الفرس بقيادة ليوتيكيدياس².

وهو الأمر الذي تحقق فعلا إذ أن الاثينيين ومن معهم استطاعوا اختراق جدار الدروع الذي يحتمي به المقاتلون الفرس، ليشند القتال بين الطرفين، ورغم أن الفرس قاوموا هجوم الاثينيين لمدة من الزمن إلا أنهم سرعان ما تراجعوا وفروا محتمين بمعسكرهم، ليلحق بهم المقاتلون الاغريق. ويبدو أن الجدار الخشبي الذي كان يحيط بالمعسكر سرعان ما انهار ليفر اغلب مقاتلي جيش الفرس من الأمام الأخرى، ويبقى الفرس لوحدهم يقاومون هجوم الاغريق بكل شجاعة إلى غاية سقوط قادتهم قتلى: ماردونتاس (Mardontès) وتيقران قادة الجيش البري، أما قادة الأسطول ارتاينتاس (Artayntès) وايتامتراس (Ithamitrès) فقد لاذا بالفرار³.

حين وصل الاسبرطيون إلى معسكر الفرس كانت المعركة أوشكت على النهاية من خلال المواجهة اليائسة والشديدة الوطأة التي قادها تيقران، ولم يبق لهم من دور سوى القضاء على

¹ - Hérodote, op.cit, IX, CII, (102)

² - Peter Green, op.cit, p393.

³ - Hérodote, loc.cit.

الجيوب الاخيرة للفارين والمقاومين من جيش الفرس.¹ وفي هذا الاطار ظهر دور الميليزيين (Milésiens) الذين كانوا موالين للفرس والذين كلفهم تيقران بحماية الطريق المؤدية الى جبل ميكالي بغرض ابعادهم عن أرض المعركة لشكه في ولائهم، حيث أنه كان عليهم بحكم معرفتهم بالمنطقة، إيصال الفارين من جيش الفرس الى مناطق آمنة على طريق سارديس (Sardès)، إلا أنهم قاموا بعكس ذلك حيث دلوا الفارين على طريق تُوصِلُهُم في النهاية الى اماكن تواجد أعدائهم الاغريق، ولم يكتفوا بذلك بل تجمعوا وقتلوا عددا من اولئك الفارين، وهكذا كما يروي هيرودوت عرفت شعوب منطقة أيونيا ثورة جديدة ضد الفرس.²

مع نهاية معركة ميكالي عقد الاغريق اجتماعا لبحث مسألة حماية المدن والجزر الأيونية وكان ذلك في جزيرة ساموس. اقترح الاسبرطيون المتعجلون للرجوع إلى البيلوبونيز على الأيونيين ترك مدنهم والعودة الى بلاد الاغريق والعيش فيها بدلا من الشعوب التي ناصرت الفرس في هذا الصراع، لأنه لن يكون باستطاعتهم صد الفرس إذا ما عاودوا الهجوم عليهم في آسيا الصغرى، وهو امر متوقع كرد فعل طبيعي.³

إلا أن الاثنينين رفضوا هذا الاقتراح، وعارضوا معارضة شديدة أن يترك الأيونيون مدنهم وجزرهم، ويبدو أن اللاكيدومونيين لم يصروا على اقتراحهم حين رأوا الحاح الاثنينين على دعم الأيونيين في مدنهم، وهكذا دخلت المدن الأيونية وجزر بحر إيجه مثل ساموس، كيوس (Chios) ولسبوس (Lesbos) والجزر الأخرى وهم الذين حاربوا مع الاغريق في حلف مواطنيهم من سكان شبه جزيرة اليونان، وذلك بعد تعهد سكان هذه الجزر بالوفاء وعدم خيانة هذا الحلف مهما كانت الظروف، وبعد القسم على ذلك عاد اولئك السكان الى جزرهم.⁴

وهكذا ولد ما عرف في تاريخ الاغريق بحلف ديلوس (Délös) ولو أنه في هذا التاريخ لم يكن سوى امتدادا للرابطة الهيلينية التي نشأت سنة 480 ق.م في كورينثه لمقاومة تقدم كزاركسيس

¹ - Peter Green, loc.cit.

² - Hérodote, op.cit, IX, CIV (104).

³ - Pierre Briant, op.cit, p551.

⁴ - Hérodote, op.cit, IX, CVI (106).

نحو بلاد اليونان آنذاك. ومع أن عدد المدن الأيونية التي انخرطت في هذا الحلف كانت قليلة إلا أن تلك المدن الجزر كانت قوية بفضل موقع جزرها، وكذا بفضل قوة بحريتها، وهم الذين كانوا عوناً للاعريق في حملتهم على ميكالي، وهي الحملة التي انطلقت من ديلوس وكانت وجهتها في البداية جزيرة ساموس¹.

كانت أثينا العضو الرئيس من حيث الدور في حلف ديلوس الذي كان يعتبر حلفاً بحرياً يتم تمويله من عائدات الضرائب التي فرضت على أعضائه، ومن أهم أعمال الحلف بقيادة الضابط سيمون (Cimon) هو القضاء على الفيالق العسكرية الفارسية التي كانت ترابط في تراقيا (Thrace) وفي سنة 467 ق.م وفي مصب نهر الأوريميدون (Eurymedon) في بمفيليا (Pumphylie) حطم الاعريق المنضوين تحت راية هذا الحلف حوالي ثلاثمائة (300) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف تتبع أسطول الملك الفارسي. ومنذ تلك الفترة، تقزم تهديد الفرس بل اضمحل وانتهى واستطاعت أثينا ضم مدن أيونية أخرى الى هذا الحلف مثل لوسيا (Lycie)، كاليا (Carie). ومن خلال اتفاق سلام عقد مع الفرس سنة 440 ق.م تخلى الملك الفارسي أرتاكزاركسيس (Artaxerxès) نهائياً عن الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وكذا عن الجزر المجاورة له، وتم تجديد هذا الاتفاق سنة 423 ق.م مع الملك داريوس الثاني (Darius II) لتنتهي بذلك ما عرف في التاريخ القديم بالحروب الميديّة².

¹ - Pierre Briant, loc.cit.

² - Henri Pigaillem, op.cit, p113.

الباب الثاني

صراع الدول الكبرى في غرب المتوسط

الفصل الأول

القرطاجيون والإغريق في غرب

المتوسط

- I- التطور السياسي للوجود القرطاجي في شمال افريقيا
- II- النظم السياسية القرطاجية من التأسيس إلى بداية الحروب البونية
- III- الجيش القرطاجي
- IV- الفينيقيون والإغريق في صقلية " بدايات التواجد وأسباب الصراع"

I- التطور السياسي للوجود القرطاجي في شمال افريقيا

1- الوجود الفينيقي في غرب المتوسط

لا يمكن في حقيقة الأمر الحديث عن الكيان السياسي القرطاجي وتطوره في شمال بلاد المغرب القديم دون الحديث عن التوسع الفينيقي في غربي المتوسط، والذي توج بتأسيس دولة قرطاجة. ذلك التوسع الذي تضاربت الآراء في تحديد تاريخه بسبب الاختلاف الواضح بين التواريخ الواردة في المصادر الأدبية وتلك التي تشير إليها الحفريات الأثرية¹، ومع ذلك فإنه من المتعارف عليه لدى المؤرخين أن أول مستعمرة فينيقية في الغرب كانت قادس (Gadès) وهي كاديز (Cadix) الحالية قرب مصب الوادي الكبير على شاطئ إسبانيا الغربي، وقد اشتق اسمها من الكلمة الفينيقية جادير (Gadier) التي تعني القلعة²، كان ذلك تقريبا سنة 110 ق.م³. ومن المستعمرات الفينيقية الأخرى في اسبانيا نذكر ملقة (Malaga) أو ملاكة بالفينيقية، بمعنى دكان أو معمل صغير وقد تحدث سترابون عن مكان لتمليح الأسماك في هذه المدينة⁴. وهناك أيضا أبديرا (Abdera) وسكسي (Sexi)⁵.

أما عن أهم المستعمرات الفينيقية في جزر البحر المتوسط فكانت في صقلية (Sicile)، وقد استعملوها في بداية الأمر كمحطات ينتفعون بها في أسفارهم البحرية الطويلة إلى أعمدة هرقل، وكانت لهم مدن في تلك الجزيرة مثل بانورموس (Panormos) أو باليرمو، سيلينونت (Selinonte) وموتيا (Motya)⁶. وقد استقر الفينيقيون كذلك بجزيرتي مالطا (Malte) و وجوزو (Gozo) بحسب رواية ديودور الصقلي، وذلك نظرا لموقعهما المهم في عرض البحر المتوسط

¹ - الشاذلي بورويبة ومحمد طاهر، قرطاج البونية تاريخ حضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص 61.

² - محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص 175.

³ - محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1982، ص 69.

⁴ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 177.

⁵ - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 85.

⁶ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 177.

وكذلك لكونهما تصلحان لاستعمالهما كمرفئ لأساطيلهم عند مرورهم من شرق البحر المتوسط إلى غربه.¹

كما أسس الفينيقيون مراكز لهم في كورسيكا (Corse) وسردينيا (Sardaigne)، وفي هذه الأخيرة كانت مستوطنة فينيقية تقع في الركن الجنوبي وهي مدينة نورا (Nora)، التي يحتمل أن تاريخ تأسيسها يعود إلى القرن التاسع ق م. أما بقية المدن الفينيقية فكانت تنتشر على الأطراف الجنوبية الغربية، نذكر منها سولكيس (Sulkis) التي كان موقعها على طرف جزيرة سان أنتوخو (Saint Anticho) الحالية، وكذلك كارليس التي عثر فيها على قبور تعود إلى القرن الخامس ق م.² (أنظر الملحق 34 خرائط)

أما ببلاد المغرب القديم فكان تأسيس الفينيقيين للمدن والمستوطنات متزامنا تقريبا مع تلك التي قاموا بتأسيسها في شبه جزيرة إيبيريا (Ibérie)³، فكان تأسيس مستعمرة ليكسوس (Lixus) على الساحل الأطلسي لبلاد المغرب الأقصى الحالية، شمال مدينة العرايش (Laraiche)، ويعود تاريخ تأسيسها بحسب شهادة بليوس الكبير (Pline l'Ancien) إلى تاريخ أقدم، مقارنة بمستوطنة قادس الإسبانية،⁴ وكان ذلك لأسباب استراتيجية أكثر منها اقتصادية.⁵ كما تعتبر مدينة أوتيكا (Utique) من أهم المستعمرات على الساحل المغربي، وهي تقع تحديدا في الناحية الغربية من خليج تونس الحالي بالقرب من مصب نهر مجردة.⁶ أما عن تاريخ تأسيسها فيرجح أنه كان في حوالي 1101 ق م استنادا إلى رواية كل من بلين الكبير وأرسطو المنحول (Le Pseudo-Aristote).⁷

¹ - جورج كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، (د.س.ن)، ص ص 95-96.

² - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 87.

³ - نفسه، ص 69.

⁴ - الشاذلي بورويبة، محمد طاهر، المرجع السابق ص 63.

⁵ - عبد المالك سلاطينة، المستوطنات الفينيقية-البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، إشراف محمد الصغير غانم، قسم التاريخ والآثار كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري-قسنطينة.

⁶ - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 87.

⁷ - الشاذلي بورويبة، محمد طاهر، المرجع السابق ص ص 63-64.

وفي هذا الإطار تكتفي المصادر التاريخية بذكر أسماء بعض المستوطنات الأخرى التي قام الفينيقيون بتأسيسها على سواحل شمال إفريقيا مثل مستعمرة هيبو (Hippo)، ومستعمرة لبتيس (Leptis)¹.

ويبدو أن الدراسات المعاصرة قد أجمعت على أن مستوطنة لبدة أو لبتيس توافق لبدة الكبرى شرق طرابلس، وتشير هذه الدراسات أيضا إلى مستوطنة هدروميث (Hadromète) أو سوسة على الساحل التونسي الشرقي، غير أن هذه الأبحاث وقفت عاجزة عن تحديد مكان مدينة هيبو بدقة بسبب وجود مدينتين تحملان هذا الاسم وهما هيبوديراتيوس (Hippo-Diarrytius) بنزرت، وهيبو ريجيوس (Hippo-Regius) عناية.²

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المستوطنات الفينيقية في غربي البحر المتوسط كانت قد ظهرت في بداية الأمر في شكل محطات تجارية في خدمة الوطن الأم في الشرق، ولم تتحول إلى مستوطنات إلا بعد أن استوفت الشروط الأولى التي تمثلت في تكاثر أعداد المهاجرين، ثم التعاون مع السكان المحليين، ومن ثم العمل على تنفيذ أهدافهم الاقتصادية، وبالتالي إنشاء حضارة جديدة ستعرف فيما بعد باسم الحضارة القرطاجية.³

2- قرطاجة الموقع الجغرافي والتأسيس

تعود تسمية قرطاجة (Carthage) إلى كلمة Carthago ، أو بدقة أكثر إلى كلمة Karthago وهو لفظ لاتيني يعود للكلمة اليونانية Karchedon وهي في الحقيقة تحريف للكلمة الفينيقية المركبة **ق ر ت ح د ش ت** التي تعني المدينة الجديدة.⁴ وما لاشك فيه أن قرطاجة كانت من أعظم المدن الفينيقية عبر المتوسط⁵، وهي تقع على بعد ستة عشر (16) كيلومتر تقريبا إلى

¹ - جورج كونتنو، المرجع السابق، ص 97.

² - الشاذلي بورويبة، محمد طاهر، المرجع السابق ص 64.

³ - محمد الصغير غانم ، المرجع السابق، ص 69.

⁴ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو امبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق 1994 ، ص 53.

⁵ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 177.

الشمال الشرقي من تونس الحالية¹، فيما بين سيدي بوسعيد ولاجويت²، وقد اتخذت المدينة موقعا لها على شبه جزيرة واسعة يحدها من الجنوب خليج تونس، من الشرق البحر ومن الشمال بحيرة سوكر المالحلة والممتدة على الشاطئ، وتتصل شبه الجزيرة من الغرب بأرض إفريقيا وتنتهي عند البحر بنتوء صخري ارتفاعه حوالي 150 مترا.³ (أنظر الملحق 33 خرائط)

ويصف لنا المؤرخ اليوناني بوليبي (Polybe) الذي كان شاهدا على حصار وتدمير قرطاجة موقع المدينة فيقول: "تقع المدينة ذاتها على شاطئ أحد الخلجان، في شبه جزيرة تكاد تكون محاطة إما بماء البحر أو بمياه بحيرة، وتتصل بالقارة بواسطة لسان عرضه خمسة وعشرين غلوة (أي ما يساوي 4400 مترا) وعلى مسافة قليلة يوجد بجانب قرطاجة شاطئ البحر ومدينة أوتيكا، ومن الجهة الأخرى وبمحاذاة البحيرة تقع مدينة تونس (Tunis)⁴، كما توجد على هذا اللسان مجموعة من التلال الوعرة التي لا يمكن اجتيازها إلا من خلال بعض الطرق التي عبدتها أيادي البشر بغرض ربط قرطاج بباقي البلاد⁵.

ويبدو أن الجزيرة التي تقع عليها قرطاجة ذات تكوين جيولوجي قديم جدا فهي تشكل جزءا من جبال الأطلس التلي، وتعتبر أحد امتداداتها القصية، غير أن شكل السواحل تبدل بفعل الزمن تبديلا واضحا تحت تأثير التيارات البحرية وترسبات نهر مجردة (Bagrada)⁶.

كانت قرطاجة تحظى بموقع من أجمل المواقع في العالم قاطبة، ذلك الموقع الذي قدم لها مزايا قيمة⁷، فهي المدينة القائمة على هضبة صغيرة تحميها الطبيعة من جميع الجهات، داخل شبه جزيرة

¹ - مادلين هورس، تاريخ قرطاجة، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت - بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية في فرنسا، ط 1، 1981، ص 10.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 180-181.

³ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 10.

⁴ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 61.

⁵ - نفسه.

⁶ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 11.

⁷ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 60.

ثلاثية الشكل قاعدتها تمتد من الشمال إلى الجنوب، أما رأسها فيدخل من الشرق إلى البحر لينتهي بنتوء مرتفع، ذلك هو رأس قرطاجة أو رأس سيدي بوسعيد.¹

أما عن مناخ قرطاج فكان معتدلاً حاراً أشبه إلى حد كبير بمناخ تونس الحالية، ولربما كان أشد رطوبة. وقد سمح هذا المناخ لقرطاج بإنتاج مزروعات متوسطة كالحبوب والزيتون والخضار وغيرها²، هذه المزايا الطبيعية وفرت لقرطاج ضمانات كافية لتتطور كعاصمة متوسطة ولتحمي مجدها الصاعد³.

• السكان:

لا شك أنه خلال الفترة التاريخية كان السكان المغاربة ممن عرفوا باسم البربر هم من كانوا يقيمون في الأرض التي وقعت فيما بعد تحت سيطرة البونيين، أولئك البربر الذين كانوا يعيشون حياة البداوة في الجنوب ويمارسون الزراعة في الشمال، وذلك قبل تدفق الفينيقيين على قرطاج، كما أنهم عرفوا أيضاً تربية الماشية ومختلف الصناعات.⁴

ويذهب المؤرخ مادلين وارمينجتون (B.H.Warmington) إلى أن سكان المغرب في العصر القرطاجي باستثناء الفينيقيين كانوا ينقسمون إلى ثلاث مجموعات:

أ- **الموريون أو المور (Les Maures)** : وهم أولئك الذين كانت مضاربهم تمتد من غربي نهر ملوشة (Mulucha) إلى المحيط الأطلسي وقد سميت بلادهم موريطانيا.⁵

ب- **النوميد (Les Numides)** : وهم الذين قال عنهم بلين الكبير أنهم كانوا يسمون نوماد (Nomades) ويقصد بها البدو، وذلك لأنهم كانوا يغيرون أماكن إقامتهم بحسب وجود الكلاء

¹ - ستيفان قزال، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، ج 2، الدولة القرطاجية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص 08.

² - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 11.

³ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 60.

⁴ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 15.

⁵ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 191.

لمواشيهم حاملين معهم خيامهم وأمتعتهم¹، وكان النوميدي يعيشون بين الموريين وأقصى امتداد غربي للقرطاجيين.²

ت- الجيتول (Les Gétules): وهم السكان الذين يمارسون الرعي على طول حواف الصحراء الشمالية.³

ث- القرطاجيون: أما القرطاجيون أو الفينيقيون الذين أسسوا قرطاج فهم ساميون من الفرع الكنعاني، وقد ثبت ذلك من خلال دراسة لغة الفينيقيين وديانتهم، وقد عثر في قبور قرطاج على بعض الجماجم لنماذج بشرية متنوعة وهي لا تتصف بميزات العرق السامي الأصيل إلا استثناء، وقد يكون تفسير ذلك في صحة الرواية التي تذهب إلى أن قرطاج أسسها صوريون بمساعدة قبرصيين وكذلك بعدم تورع البونيين عن الاقتراح بالنساء الأجنبية.⁴

• تأسيس قرطاج

وبحسب الرواية المنقولة عن المصادر الأدبية القديمة فإن مدينة قرطاج تأسست لظروف طرأت في البيت الحاكم لمدينة صور.⁵ ويتحدث جوستينيوس في هذا الصدد أن موتو (Mutto) أو ماتان (Matan) ملك صور قد أورث عرشه قبل وفاته لابنه بيغماليون (Pygmalion) وابنته إليسا (Elissa) أو إليشار (Elisha) تلك الفتاة التي كانت على قدر عال من الجمال.⁶ ورغم صغر سن بيغماليون إلا أن الشعب في صور رحب به كملك على المدينة، أما إليسا فقد تزوجت من خالها عشرباص (Acherbas) الذي كان يشغل منصب الكاهن الأكبر لمعبد الإله ملقرت (Melkart)، وكان ذا ثروة طائلة، وبحكم منصبه كان يعتبر الرجل الثاني في المملكة بعد الملك.⁷

¹ - Pline l'Ancien, Op.cit, V, 1.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 191.

³ نفسه.

⁴ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 16.

⁵ - Khaled Melliti, Carthage, Histoire d'une métropole méditerranéenne, Perrin, Paris, 2016, p 26.

⁶ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 54.

⁷ - Justin, Op.cit, XVIII, IV.

ويبدو أن عشباص كان متخوفا من طمع الملك في كنوزه لذلك قام بدفنها في أرض خارج قصره، ومع ذلك كان ينوي الفرار مخافة أن يغدر به الملك.¹ ثبت بعد ذلك أن تخوف عشباص كان في محله، إذ أن بيغماليون لم يتأخر كثيرا في قتله بغية الاستحواذ على كنوزه²، وهو الأمر الذي دفع إليسا إلى التفكير بجدية في الرحيل، وعلى الفور بدأت الاستعداد للفرار من صور وقد ساعدها في ذلك عدد من ذوي المكانة الرفيعة في المدينة من خصوم أخيها الملك.³

كان على الأميرة أن تقنع أخيها بفكرة ترك قصر زوجها، فادعت أنها تريد مغادرته والانتقال إلى قصر الملك لكي تنهي الحزن الدائم الذي صار يخيم على حياتها⁴. وقد تقبل الملك هذه الفكرة آملا في خروج أخته ومعها كنوز زوجها، ومن أجل ذلك أرسل لها عددا من العمال لمساعدتها في الانتقال من قصرها، ومع حلول الليل استطاعت الأميرة تحميل كنوز زوجها في سفينة، ولكي تضمن عدم افتضاح أمرها أخذت معها عمال الملك في السفينة واتجهت بمن عليها نحو عرض البحر.⁵ وبذلك أصبح عمال الملك مجبرين على الذهاب مع الأميرة لإدراكهم أنهم إن عادوا إلى ملكهم سيحاسبهم عن فقدان كنوز عشباص التي أخذتها إليسا وأبحرت بها، وانطلق الجميع حسب جوستينيوس آملين في رعاية الإله ملقرت لهم في رحلة بحثهم عن وطن جديد لهم⁶.

رست مراكب القادمين من صور على شواطئ قبرص (Chypre) وكانت تلك الجزيرة محطتهم الأولى، وتذهب الرواية إلى أن كاهن الإله جونون (Junon) قدم إلى الصورين وعرض على إليسا أن يصحبها في رحلتها بشرط أن يحتفظ برتبته الكهنوتية في الوطن الجديد وأن تبقى تلك المكانة وقفا على ذريته⁷. رأت إليسا في هذا العرض فألا حسنا لمشرعها وقد تصادف مجيء إليسا إلى هذه الجزيرة مع يوم عيد يقدم فيه الفتيات المقبلات على الزواج بقايا عذريتهن حسب العادات

¹ - فرانسوا دوكريه: المرجع السابق، ص 55.

² - الشاذلي بوروينه و محمد طاهر: المرجع السابق ص 95.

³ - Justin, Loc.cit.

⁴ -Khaled Melliti, loc.cit.

⁵ - فرانسوا دوكريه: المرجع السابق، ص 55.

⁶ - Justin, Loc.cit.

⁷ - الشاذلي بوروينه و محمد طاهر، المرجع السابق، ص 96.

إلى الآلهة بغرض تحصيل مهورهن، ولذلك قدم إلى الشاطئ مجموعة من الفتيات لهذا الغرض غير أن الأميرة إليسا أمرت باختطافهم لتتخذ منهن زوجات للرجال الذين كانوا معها، لتضمن بذلك تأمين أجيال جديدة للمدينة التي تنوي تأسيسها.¹

أما في صور فقد صمم بيغماليون على ملاحقة أخته بعد أن علم بفرارها غير أنه توقف عن ذلك بعد منع العرافين له، وكان كلامهم له حاسماً في هذا الصدد، إذ قالوا له: " لن تمر دون عقاب محاولتك عرقلة إنشاء مدينة جديدة شملت عناية الآلهة دون بقية أرجاء العالم "². وبعد رحلة طويلة وصلت إليسا ومن معها إلى شواطئ إفريقيا،³ وكان أول ما سعت إليه في هذا المكان هو إبداء حسن نواياها من خلال إقامة علاقات حسنة مع سكان المنطقة، هؤلاء الذين رأوا في قدوم الصوريين عليهم أمراً مبشراً من خلال إمكانية التبادل التجاري معهم وبالتالي تحصيل ربح مادي جراء ذلك.⁴ لم تتأخر الأميرة الصورية في أن تعرض على أولئك السكان المحليين شراء قطعة أرض منهم بمساحة يمكن أن يغطيها جلد ثور، لكي تنعم هي ومن معها فيها ببعض الراحة بعد تلك الرحلة المضنية التي قطعوها في البحر.⁵

لا شك أن الأفارقة كانوا متوجسين من أولئك الغرباء، غير أن عرض إليسا بدا لهم غير مخيف لذلك قبلوا به. لجأت إليسا بعد ذلك إلى حيلة تجعل من قطعة الأرض التي اشتريتها تتحول إلى رقعة تصل مساحتها أضعاف ما تم الاتفاق عليه، وذلك من خلال قص جلد الثور إلى أشرطه رفيعة، وهو الأمر الذي مكنها من شغل مساحة واسعة من الأرض.⁶ وبذلك اطلق على المكان الذي استقرت به إليسا فيما بعد تسمية بيرسا (Byrsa)، وهي كلمة مشتقة من اليونانية وتعني جلد.⁷

¹ - Justin, op.cit, XVIII, V.

² - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 96.

³ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 39.

⁴ - Justin, Loc-cit.

⁵ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 56.

⁶ - Khaled Melliti, Loc-cit.

⁷ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 56.

وبغرض الربح أقبل العديد من سكان المدن والقرى المجاورة لبيع سلعهم ومنتجاتهم لأولئك الوافدين الجدد بعد أن نجحوا في الإقامة بتلك المنطقة، ويبدو أن عددا من المحليين قرروا الإقامة مع الفينيقيين الوافدين، لذلك كان عدد سكان هذه المستعمرة يزيد شيئا فشيئا.¹ وما لبث بعد ذلك أن أقبل مندوبون عن مدينة أوتيكا الذين كانوا يرون في الصوريين إخوانا لهم حاملين معهم هدايا لهم، وداعين إياهم للإسراع في إقامة مدينة في المكان الذين دفعهم القدر إلية ليكون ملجأهم. هذا بالإضافة إلى أن الأفارقة أرادوا إبقاء أولئك الوافدين بينهم، ومن خلال موافقة الجميع تأسست قرطاج مع فرض ضريبة سنوية على سكانها مقابل الأرض التي يقيمون فيها.²

في بداية الأمر حين باشر الصوريون الحفر بغرض وضع الأساسات لمدينتهم عثروا على رأس ثور، وهو الأمر الذي فسروه على أن ذلك المكان ذو أرض خصبة، لكن من الصعب حراستها والعمل فيها، كما أن ذلك يرمز إلى العبودية الدائمة مما دفعهم إلى تغيير المكان، ووقع اختيارهم بعد ذلك على أرض أخرى عثروا فيها حين باشروا الحفر على رأس حصان، وهو الأمر الذي رأوا فيه رمزا للقيم الحربية، فكان ذلك المكان هو الذي أقيمت به المدينة، وما لبث صيت قرطاج أن ذاع في تلك الناحية مما أدى إلى توافد الكثير من سكان المناطق المجاورة للاستقرار بهذه المدينة الجديدة.³

ويذهب جوستينيوس في روايته إلى أن قرطاج سرعان ما صارت قوية ومزدهرة، إلا أن هيارباس (Hierbas) ملك الماكسيثان (Maxitains) أحد شعوب شمال إفريقيا، استدعى إليه عشرة من ذوي المكانة العليا في قرطاج، وطلب منهم يد ملكة مدينتهم إلسيا مهددا إياهم بالحرب أن هم رفضوا طلبه. أرعب هذا الطلب ممثلي المدينة الذين لم يجدوا في انفسهم الشجاعة لنقله إلى ملكتهم، غير أنهم استعملوا الحيلة وغيروا محتوى طلب هيارباس حين سألتهم عنه مدعين أنه طلب واحدا منهم يقيم عنده ويعمل على تمدين الأفارقة وملكهم متسائلين أمام الملكة عن من

¹ - الشادلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 96.

² - Justin, Loc-cit.

³ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 56-57.

يستطيع ترك مدينته ليعيش بالقرب من أولئك البرابرة. كان رد الملكة حازما تجاههم إذ وبختهم بسبب جبنهم وعدم التضحية في سبيل أمن وسلامة وطنهم.¹

أمام هذا الموقف الغاضب من طرف الملكة صرح الوفد إليسا بطلب الملك يدها داعين إياها إلى الالتزام بالنصائح التي تسديها للآخرين من أجل إنقاذ قرطاج. تفاجأت الملكة من هذا الطلب وانزعجت انزعاجا بالغا، وما كان منها إلا أن ذرفت الكثير من الدمع متذكرة زوجها عشباص، وأخيرا وعدت مخاطبها بأنها ستذهب إلى المكان الذي يدعوها إليه مصير قرطاجة.²

وبعد انقضاء مدة ثلاثة أشهر وهي المهلة التي حددها لهم ملك الماكستان للرد على طلبه، عمدت إليسا إلى إقامة محرقة كبيرة عند مدخل المدينة، قدمت فيها الكثير من الأضحيات زاعمة أنها من أجل أن تهدأ روح زوجها، تكفيرا على ما ستقوم به من قران جديد بغيره، إلا أنها بعد ذلك أخذت خنجرا وصعدت المحرقة ثم التفتت إلى شعبها وخاطبتهم قائلة: " طاعة لرغبتكم سألتحق بزوجي"، ثم طعنت نفسها وسقطت وسط لهيب النار، وقد حازت إليسا من طرف شعبها على حظوة متميزة وأمجاد إلهية طوال فترة قوة وازدهار قرطاجة حسب جوستينيوس.³

وقد أله القرطاجيون ملكتهم إليسا وخصّوها بطقوس الإلهة على امتداد تاريخ قرطاج،⁴ وقد أطلق عليها الرومان اسم عليسة (Alissa) ولقبوها بديدون (Didon)، وهو اللقب الذي أطلقه السكان المحليون على هذه الملكة،⁵ والذي يعني " القَارَةُ "،⁶ وقد اختلفت التفسيرات في أصل هذه التسمية إذ يحدّثنا تيمايوس (Timée) وهو مؤرخ إغريقي عاش في القرن الرابع ق.م،⁷ أن الملكة إليسا لما تعرضت لبعض المحن، رست في ليبيا وهنالك أطلق عليها السكان المحليون لقب "

¹ - Justin, Loc-cit.

² - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 57.

³ - Justin, op.cit, XVIII.

⁴ - الشادلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 97.

⁵ - Serge Lancel, Carthage, Fayard Editeur, Paris, 1992, P40.

⁶ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 182 ؛ Serge Lancel, loc.cit.

⁷ - أحمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، المجمع التونسي للبحوث والآداب والعلوم-المعهد الوطني للتراث، تونس، 1993، ص 11.

ديدون " وذلك بسبب الرحلات البعيدة التي قامت بها، هذا بالإضافة إلى أن الشاعر الروماني فرجيل (Virgile) الذي كان يشير إلى الأميرة الصورية في انيادته بإسم ديدون إلى جانب تسميتها الأولى إليسا، ويبدو أن لقب ديدون قد ألحق فيما بعد بالاسم الحقيقي لإليسا، غير أن المؤرخين الإغريق لم يعطوا تفسيراً واضحاً لسبب هذه التسمية.¹

أما عن تاريخ تأسيس قرطاج فإن التاريخ المتعارف عليه والأكثر قابلية بين الباحثين هو سنة 814 ق.م²، وهو تاريخ قدمه المؤرخ الإغريقي تيمايوس (813/814) وقد افترض المؤرخ الألماني أ.ملتزر (O.Meltzer) أن هذا التاريخ مشكوك فيه ولا يستند إلى أدلة قوية، بحكم أن تيمايوس قد خلط في محاولته تفسير أسطورة قرطاجة بين بيجماليون (أحد آلهة قرطاجة) وبين بيجماليون ملك صور الذي عاش في القرن التاسع ق.م، وهو ما أدى إلى اعتماد التاريخ المتداول لتأسيس قرطاجة سنة 814 ق.م.³

وقد حاول بعض الباحثين والمؤرخين المحدثين إثبات أن تأسيس مدينة قرطاج قد يعود إلى ما بين سنتي 673 و 663 ق.م، وذلك اعتماداً على دراسة للقطع الأثرية المستخرجة من موقع العاصمة القديمة والتي يرون أنها لا يمكن أن ترقى إلى ما قبل النصف الأول من القرن الثامن ق.م، وهو تاريخ في الحقيقة لا يزال موضوع نقاش.⁴ وقد دعم أصحاب هذا الرأي موقفهم بتلك الظروف الخارجية التي كان لها بالغ التأثير على منطقة فينيقيا خلال القرن الثامن وبداية القرن السابع ق.م، والتي تمثلت في انعكاسات الهيمنة الآشورية المباشرة على المنطقة⁵، غير أن الخرائب الموجودة بموقع المدينة القديمة لا تزال تنطوي على آثار أقدم، كما أن أحد المختصين في هذا المجال وهو الأثري

¹ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 59.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 181 ، Hédi Dridi, Carthage et le monde Punique, , les Belles Lettres, Paris, 2006, P 27.

³ - أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص 12.

⁴ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 59.

⁵ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 117.

الفرنسي بيار سانتاس (Pierre Cintas) أشار إلى المشاكل التي يمكن أن تطرحها، الآثار البونية القديمة، إذ أن المدافن الأولى في المدينة لا تزال كما يرى في طور الاكتشاف.¹

وإذا أخذنا بعين الاعتبار حفريات الحملة الالمانية لإنقاذ موقع قرطاج، والتي كشفت عن مستويات المساكن القديمة واللقى التي ساعدت على تحديد تاريخ لهذا التأسيس، حيث انتهت إلى نوع من التقارب والملاءمة بين المعطيات الأثرية ورواية التأسيس في أواخر القرن التاسع ق.م أو حوالي 814 ق.م.² وبذلك يمكننا تقبل الروايات الكلاسيكية والشرقية التي تتقاطع إجمالاً بخصوص هذا الشأن، وهو أن تأسيس مدينة قرطاج يعود إلى الربع الأخير من القرن التاسع ق.م، أي فيما بين عامي 824 - 813 ق.م، وهو الأمر الذي أكدته المؤرخ الإغريقي تيمايوس دوتورمينوس الذي استند في معلوماته إلى مصادر بونية والذي حدد سنة 814 ق.م كتاريخ لبناء مدينة قرطاج.³

¹ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 60.

² - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 118.

³ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 60.

II- النظم السياسية القرطاجية من التأسيس إلى بداية الحروب البونية

وصف المؤرخ أبيانوس (Appien) مدينة قرطاج بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية لكونها بنيت في شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من جهة، وبالبحيرتين من جهة أخرى، وهو ما جعل توجهها بحريا متوسطيا أكثر منه بريا إفريقيا.¹ وفي هذا الصدد يتحدث المؤرخون عن ظهور قرطاج كمدينة مستقلة، ثم سرعان ما فرضت زعامتها على سائر الكيانات الفينيقية المتواجدة في غربي البحر المتوسط.² ويبدو في الحقيقة أن الصفة البحرية التجارية التي اتصفت بها قرطاج في المصادر الكلاسيكية إجمالا هي ما ساهم في إضعاف حضورها البري في شمال إفريقيا، وهنا سجل الكثير من المؤرخين أن خسارة قرطاج في معركة هيميرا بصقلية سنة 480 ق.م كمنعطف في مسارها البحري، وتحولها للتوسع البري في العمق الإفريقي لتعوض ما خسرت في صقلية،³ وما كان لقرطاج لتحديد عن توجه مدينتها الأم صور، وهي التي ظلت لمدة قرنين ونصف من الزمان تتبّع سياسة تلك المدينة الفينيقية الشرقية خاصة فيما يخص الجانب الاقتصادي، لذلك حافظت قرطاج على سيادة الفينيقيين في المنطقة الغربية،⁴ خاصة بعد ضعف مملكة صور ثم خضوعها للإمبراطورية البابلية.⁵

أما من الناحية السياسية فلا يبدو أن قرطاج قد اتخذت لنفسها في بداية ظهورها في شمال إفريقيا نظاما سياسيا يختلف عن المدينة الأم صور، ورغم صمت المصادر الكلاسيكية عن الحديث عن القرون الأولى لحياة قرطاج السياسية، إلا أنه يمكن الاستنتاج أن نظامها السياسي كان بدون شك نظاما ملكيا، كما كان عليه الحال في المدن الفينيقية.⁶ وبحكم تمتع قرطاج منذ تأسيسها

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 196.

² - اللجنة العلمية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)، تاريخ إفريقيا العام، مجلد -02- حضارات إفريقيا القديمة، اشراف د. جمال مختار اليونسكو، ص 456.

³ - Khaled Melliti, op.cit, P 65.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 141.

⁵ - ل.ع لتحرير تاريخ إفريقيا العام، المرجع السابق، ص 456.

⁶ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 103.

باستقلال كامل، فيرجح أنها مارست حكما ذاتيا تجسد في ملكية وراثية أين كان الملك مبدئيا يُختار من الاسر التي ترجع إلى أصل إلهي.¹

وقد وردت في نقائش قرطاجية لفظ ش ف ط (شوفاط) أو سبط في وصف لوظيفة بعض من ناذري الانصاب للآلهة بعل حمون وتانيت، وترجع وظيفة الاسبطية من خلال أقدم الوثائق الدالة عليها إلى حوالي سنة 400 ق.م على الأقل. وعلى ما يبدو فإن هذه الكلمة ذات الأصل السامي "شوفاط" وكانت تعني في الحقيقة " حاكما " لإقليم ما، ولم تكن تعني وظيفة " الملك " كما هو معمول به عند الإغريق والرومان، وهو ما يرجح أن كلمة " ملك " التي نقلتها المصادر القديمة الكلاسيكية في حديثها عن مؤسسات قرطاج، لا تدل بالضرورة على اعتماد النظام الملكي على الأقل منذ القرن الخامس ق.م، بل على قيام حكام على رأس هرم السلطة في هذه المدينة.²

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى أن صمت المصادر التي تحدثت عن تاريخ قرطاج عن الخوض في المرحلة الفاصلة بين تأسيس هذه المدينة وأواسط القرن السادس ق.م، يجعل عملية الجزم بنوع النظام السياسي الذي كان قائما في تلك الفترة أمرا صعبا في ظل تضارب التفسيرات المتعلقة بوصف النظام السياسي ونوع المؤسسات التي كانت تدير شؤون الحكم في قرطاج،³ وإذا ما سلمنا بوجود النظام الملكي في قرطاج منذ تأسيسها فإن أقدم ملك وصلتنا أخباره عن طريق المؤرخ اليوناني هيرودوت هو " عملقار " (Hamilcar) الذي حكم قرطاج أوائل القرن الخامس ق.م والذي أكد هيرودوت أنه تولى حكم القرطاجيين لأجل قيمته، وهو ما يدل على أن تعيين الملك لم يكن وراثيا بل كان يقع بالاختيار، رغم أن قرطاج كانت تسيطر عليها منذ تأسيسها أرسقراطية تقوم على الثروة والنسب.⁴

¹ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 74.

² - أحمد الفرجاوي، المرجع السابق، ص 128.

³ - الشاذلي بوروينه، المرجع السابق، ص 168.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 103.

وعلى ما يبدو فإنه منذ زمن بعيد أخذ يحد من سلطة الملوك في قرطاج مجلس للشيخوخ يختار أعضاؤه من الأسر الثرية، وتدرجيا استطاع هذا المجلس فرض نفوذه، وخلال القرن الخامس ق.م ثم التأسيس لجمهورية يقوم على حكمها قاضيان ينتخبان لسنة واحدة أو لعدة سنوات،¹ ويحتمل أن مؤسسة مجلس الشيخوخ كانت موجودة في قرطاج منذ العهد الملكي وكان يمارس صلاحياته إلى جانب السلطة الملكية، وكانت عضويته تقتصر على العائلات الكبيرة، ويحدثنا جوستينيوس خلال كلامه عن رحلة إيلسا، عن المواطنين الأوائل وأعضاء مجلس الشيخوخ الذين وقفوا ضد الملك الجديد بيغماليون.²

واعتمادا على هذا الافتراض الوارد في المصادر الكلاسيكية فإن القيادة العسكرية لجيش قرطاجة قد انحصرت في يد عائلة "ماغون" « Magon » من منتصف القرن السادس ق.م إلى بداية القرن الرابع ق.م، وهو ما اعتبر جمعا بين سلطتين عسكرية وسياسية في إطار ملكية وراثية.³ وقد استأثرت عائلة ماغون بالسلطة لنحو ثلاثة أجيال متتالية، وهي التي كانت تعتبر من أغنى العائلات التي تمتلئ النشاط التجاري، وهي تنحدر من " ماغون " الذي سبق ذكره وهو في الأصل قائد عسكري يبدو أنه افتقى أثر قائد عسكري آخر اسمه مالخوس (Malckus)، وهو شخصية تاريخية أثارت جدلا بين المؤرخين.⁴

وقد أورد جوستينيوس أن هذا القائد تمكن من الوصول للسلطة في منتصف القرن السادس ق.م، وكان من أشهر الرجال الذين ساهموا في بناء العظمة البونيقية بانتصاراته الباهرة على أعداء القرطاجيين في صقلية وإفريقيا.⁵ غير أن القرطاجيين تنكروا له وقاموا بنفيه بعد انتصاره وهزيمته في سردينيا (Sardaigne)، ورغم أن مالخوس استطاع العودة لقرطاج مع جنوده المنفيين معه ومحاصرة

¹ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 74.

² - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 79.

³ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 169.

⁴ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 79-80.

⁵ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 103.

المدينة، ومن ثم الاستيلاء على السلطة فيها من جديد، إلا أن الشعب في قرطاج استطاع خلع
من جديد من خلال اتهامه بالتطلع للسيطرة على الحكم الأبدي ومن ثم تم إعدامه.¹

حكم القرطاجيين بعد ماخوس أي تحديدا في النصف الثاني من القرن السادس ق م
والنصف الأول من القرن الخامس ق م ثلاثة أجيال من أسره ماغون فكان الأول ماغون ثم ابنه
صدر بعل (Asdrubal) الذي توفي في صقلية سنة 480 ق.م وعملقار (Amilcar) الذي تولى
بعد اخيه سنة 480 ق.م، ثم بعد ذلك أبناء صدر بعل الثلاثة حنبعل (Hannibal) وصدر بعل
وسافو (Sapho)، وأخيرا أبناء عملقار الثلاثة هميلكون (Himilcon)، حنون (Hannon)
وجيسكون (Giscon).²

وقد أسهم آل ماغون مساهمة بالغة الأهمية في تاريخ قرطاج، وذلك نتيجة لسياستهم الجريئة
وانتصاراتهم الحربية بفضل الجيوش التي كانت رهن إشارتهم، والتي خاضوا بها المعارك الطاحنة
وتمكنوا من توسيع رقعة نفوذ قرطاج، ليحولوها إلى إمبراطورية، وبهذا المجد حاز الماغونيون لأنفسهم
مكانة سياسية مرموقة في قرطاج، وأنصارا كثيرين بالمدينة، وما ساعدهم على ذلك فتحهم
الأسواق في وجه الصناعة والتجارة في الخارج ومنحهم الطبقة الارستقراطية مزارع وأملاكا على
الأرض الإفريقية وهو الأمر الذي مكّنهم من الاستحواذ على السلطة والاستبداد من خلالها
لسنوات طويلة.³

غير أنه في منتصف القرن الخامس ق.م، أي حوالي سنة 450 ق.م انقلبت الأمور على آل
ماغون من خلال ثورة داخلية انتهت بسقوطهم، وإبعاد آخر ملوكهم جيسكون ونفيه إلى صقلية،⁴
ونحبرنا جوستينيوس في هذا الشأن أن هذه العائلة من القادة العسكريين والقضاة واسعي
الصلاحيات أصبحت خطيرة على الحرية العامة في قرطاج، ولذلك قرروا إنشاء محكمة تتكون من

¹ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 137.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 104.

³ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 138.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 104.

مئة (100) قاضي يختارون من السيناتورات (أعضاء مجلس الشيوخ)، ليصبح القادة ملزمون بعرض أعمالهم عليها بعد كل حرب فُتِلَزْمُهُمْ بذلك خشية الأحكام والقوانين المطبقة، على احترام سلطة الدولة خلال قيادتهم للجيش.¹

أدى تفسخ السلطة الملكية في قرطاج إلى قيام حكم أقلية من العائلات الثرية والكبيرة التي تكونت لديها ثروات هائلة خلال فترة التوسع الإمبريالي في عهد الماغونيين، وقد دفع الثراء بهذه العائلات إلى التطلع لممارسة السياسة والحكم.² ويبدو أنه من العوامل التي ساعدت على ثراء هذه العائلات في هذه الفترة هو امتلاكها لأراضٍ زراعية ذات مساحات واسعة، وقد عرفت تلك العائلات في المجتمع القرطاجي طبقة ملاك الأراضي التي استطاعت منافسة الماغونيين على السلطة وانتزاعها منهم منتصف القرن الخامس ق.م.³

ظهر إذن في قرطاج ما عرف بالحكم الأوليجركي (Oligarchique) أو حكم الأقلية، وقد استمر الأمر على ذلك الحال إلى نهاية الحرب البونية الأولى سنة 241 ق.م، ليظهر بذلك نوع جديد من الأشراف والأعيان تقوم قوتهم لا على ثروة البحار ولكن على ثروة الأرض وامتلاك الأراضي الكثيرة وثروة الفلاحة، ومن هنا أصبحت الأسر النافذة في قرطاج والمتحكمة في زمام الأمور بما تبني قوتها على أساسين هما الملاحة والفلاحة.⁴

ويبدو أنه في أواخر القرن الخامس أصبحت الصورة السياسة لنظم قرطاج أكثر وضوحاً من خلال النصوص الأدبية، كانت هذه النصوص كثيراً ما تذكر الملوك (Basileus-rex) خاصة في فقرات إيسوقراط (Isocrate)، وأرسطو (Aristoto) وبوليبي (Polybe) أين كان أولئك المؤرخون يتحدثون عن حكومة القرطاجيين.⁵

¹ - Justin, op.cit, XIX, II.

² - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 81.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 197.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 106.

⁵ - ستيفان قزال، ج 2، المرجع السابق، ص 142.

كما تزامن هذا التطور السياسي الجديد مع سلطة ما عرف بـ "الشفطان" (Sufètes)، وقد تحدث عن هذا المصطلح السياسي الكتاب اللاتين وكانت كلمة الشفطان أو السبطان تعادل الرقباء (Censeurs) عند الرومان، وفي اللغة السامية يقابلها "القضاة" عند بني إسرائيل. وكان عند القرطاجيين منذ القرن الثالث ق م ينتخب اثنان منها، وربما أكثر من ذلك سنويا، ويبدو أن هذا المصطلح "الشفط" ظل مستخدما في شمال إفريقيا في المناطق المحسوبة على النفوذ البونيقي لمدة تقارب القرن بعد غزو الرومان لقرطاج.¹

ويعود الاختلاف في المصطلحات المستعملة بين كتاب الإغريق واللاتين للعديد من الفرضيات أهمها عدم معرفة التسمية البونية للوظيفة التنفيذية العليا ومقارنتها مع الملكية الاسبرطية، خاصة إذا اخذنا بعين الاعتبار التماثل العددي، وذلك إسقاطا على ثنائية السلطة الملكية في النظام الاسبرطي وهو الأمر الذي اعتمده أرسطو في توصيفه لنظام الحكم في قرطاج، أما تيتوس ليفيوس (Tite-Live) فقد تعرض للوظيفة السياسية بالصيغة البونية (suffètes-Sufes) أي السبط ثم في صيغة الجمع الذي قد يعني أيضا المثني.²

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم عدم ضبط المصطلحات بالنسبة لكتاب الإغريق من أمثال أرسطو، إلا أنهم عرضوا لنا طبيعة المؤسسات الدستورية التي سائرت التطور السياسي السريع في قرطاج وكذا النظام الانتخابي الذي كان سائدا بها، ويقول أرسطو في هذا الصدد "لقد عُرفَ القرطاجيون بأنهم منظمون جيدا، كما ان دستورهم هو أرقى بكثير، من عدة نواحٍ، من الدساتير الأخرى (...)", إن عدد المؤسسات في قرطاج كبير، وهذا يدل على الاحترام الذي يحظ به الدستور.³

أما بالنسبة للهيئات والمجالس الدستورية في قرطاج فيقول عنها أرسطو: "إن لهذا النظام هيئات (مجالس) شبيهة بتلك الموجودة في دستور لاكونيا (Laconie)، فالجمعيات السياسية

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 198.

² - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، ص 171.

³ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 81 ؛

Aristote, La Politique d'Aristote, texte traduit en français par J.

Borthélemy -s-Hilaire, Tome I, Imprimerie royale, Paris, 1837, Livre II, ch VIII, P 187.

(Hetairies) الموجودة في قرطاجة شبيهة بالفاليلدلس (Philidles) الموجودة في أسبرطة، كما أن هيئة القضاة المائة والأربعة شبيهة بالإيفور (Ephores) (مجلس حكام اسبرطة)، وأخيرا فإن الملوك القرطاجيين أي القضاة (suffètes) ومجلس الشيوخ (Gerosia) يمثلون مجالس وشيوخ مدينة أسبرطة ، إلا أن الميزة التي تتفوق فيها قرطاجة هي أن الملوك أو (القضاة) لم يكونوا منتمين إلى عائلة واحدة أو إلى عائلة بحد ذاتها، أما في حال وجود عائلة ما قوية، فإن اختيار الملوك يتم بالاقتراع، بدلا من اخذ كبير السن بعين الاعتبار".¹

ومن هنا يمكن أن نرسم صورة عن المشهد المؤسسي السياسي في قرطاج خلال فترة ما بعد الملكية، أي بعد منتصف القرن الخامس ق.م وذلك من خلال الحديث عن المؤسسات التالية:

أ- الشفطان أو السبطان: ويقومان بمهامها لمدة سنة كاملة تعرف بعد ذلك باسميهما.² وتتمثل صلاحيتهما في رئاسة مجلس الشيوخ وتزويده بجدول أعمال جلساته و القضايا المبرجة للمداولة، ويوضح أرسطو لجوءهم أحيانا إلى مجلس الشعب في حال عدم الاتفاق بينهما، وبين مجلس الشيوخ.³ أما بالنسبة لقيادة الجيوش فلا نجد ذكرا لها في كتابات القدامى ماعدا ما أورده ايزوكراتوس (Isocrate) عن قيادة أحد الملكين للحملات العسكرية، وهي في الحقيقة أقرب للواقع الاسبرطي منها إلى القرطاجي، ولا يمكننا في هذا الإطار الجزم بالجمع بين القيادة السياسية والعسكرية لأسباط قرطاج دون أن يستبعد هذا الاحتمال بوجه كامل نظرا لافتقارنا للأسانيد التي تدعم هذا الموضوع.⁴

ب- مجلس الشيوخ: يرجح أنه في قرطاج ومنذ أواسط القرن السادس ق م كان بها مجلس للشيوخ،⁵ كالذي كان موجودا بمدينة صور،⁶ غير أن العمل به في الشرق الفينيقي وذكره في رواية

¹ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 81-82 ؛ Aristote, op.cit, pp 189-191

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 107.

³ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 176.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه، ص 177.

⁶ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 108.

تأسيس قرطاج يعطينا الفكرة بوجوده في هذه المدينة حتى قبل القرن السادس.¹ وقد استعملت المصادر القديمة عدة ألفاظ للدلالة على هذا المجلس أو مجلس في قرطاج، وعلى ما يبدو فقد كان لهذه المجالس دور كبير في تسيير والتحكم في الشؤون العامة، وتلك التسميات هي: الجيروسيا (Gerousie)، السنكليتوس (Synklétus)، السونيدريوس (Sunedrion)، والبولي (Boulé)، والسيناتوس (Sénatus).²

كان أعضاء مجلس الشيوخ يجتمعون في مقر قريب من ميدان قرطاجة الرئيسي، أما عن طريقة اختيار أعضائه فيرجح أنها كانت تتم من خلال تمثيل للعائلات البارزة في قرطاج،³ والتي كانت من الطبقة الارستقراطية، وكانت عضويتهم تمتد مدى الحياة.⁴ أما عن عدد الأعضاء في هذا المجلس فيقترح أ. ملتر عدد ثلاث مئة (300) استنادا إلى عدد الأسرى من الشيوخ الذي اشترطه الرومان سنة 149 ق.م.⁵ كان مجلس الشيوخ يختص بالقضايا السياسية والإدارية والبت في مسائل الحرب والسلم، والتداول في ما يخص العلاقات الخارجية وابداء الرأي فيها، تسيير شؤون الجيوش وتنظيمها وانتقاء المرتزقة المساعدين لها،⁶ تولية وعزل قادة الجيش، عقد جلسات سرية دون التصريح بنتائج التصويت فيها إذا اقتضى الأمر،⁷ وأخيرا الاهتمام بكل ما من شأنه أن يمس بأمن الدولة واستنكار القوانين المتعلقة بالضرائب وأمور المال.⁸

ت- مجلس المائة وأربعة: ذكر هذا المجلس الفيلسوف أرسطو وربما أُخْتُصِرَ عدده ليعلمه مجلس المائة، وقد قارنه بالإيفورات (Ephores) في أسبرطة، غير أن المائة وأربعة حسبه خلافا للإيفور ينتخبون لقيمتهم ولا ينتقون من بين أي كان من الناس.⁹ وقد سبق لنا الحديث عن هذا المجلس

¹ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 177.

² - ستيفان قزال، ج 2، المرجع السابق، ص 147.

³ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 84.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 108.

⁵ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 177-178.

⁶ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 84.

⁷ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 108.

⁸ - فرانسوا دوكرية، المرجع السابق، ص 84-85.

⁹ - ستيفان قزال، ج 2، المرجع السابق، ص 149.

بوصفه المحكمة التي يُنتَقَى أعضاؤها من المنتمين إلى مجلس الشيوخ¹ والذين كلفوا بمراقبة الملوك وقادة الجيش وجميع الحكام، ومحاکمتهم عند الضرورة،² وإضافة إلى الصفة القضائية لهذا المجلس التي تخص الحق العام، فإن أعضائه كانوا غير قابلين للعزل ومن مسؤولياتهم أيضا تحقيق الأمن العام بالإشراف على شرطة قوية تضمن ذلك.³

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة داخل المجلس إلى تلك الهيئات الخماسية التي تحدث عنها أرسطو أو البنطرشيات (Pentrachies)، وتتألف من خمسة رؤساء ينتدبون أنفسهم بأنفسهم من بين الحكام بمجلس الشيوخ، وكانوا هم أصحاب الأمر والنهي وأرباب الحل والعقد دون تقاضي أجر على أعمالهم في هذه اللجنة، مع المحافظة على عضويتهم في مجلس الشيوخ.⁴ كانت أهم مسؤولية لهذه الهيئة هو انتخاب مجلس المائة وأربعة،⁵ ومراقبة قطاعات الحياة السياسية والاجتماعية المختلفة في قرطاج⁶

ث- مجلس الشعب: يؤرخ ظهور هذا المجلس من خلال الإشارات التي وردت في المصادر القديمة إلى القرن السادس ق.م حين اعتزم القائد العسكري مالخوس (Malchus) الانفراد بالسلطة فتوجه إلى مجلس الشعب ليخبره بهذا التوجه محاولا كسب تأييده،⁷ وقد أكدت العديد من النصوص القديمة وجود هذا المجلس الشعبي، وأشارت إلى أنه كان يعقد اجتماعاته في الميدان العام إما بدعوه من القضاة (suffètes)، أو من تلقاء نفسه في حالة وقوع أحداث خطيرة.⁸ ويحدد أرسطو أهمية دور هذا المجلس في أنه الهيئة الفاصلة في الأمور الخلافية التي يمكن أن تقع بين الملوك (السبطان) ومجلس الشيوخ، كما أن تدابير السلطة التي يعرضها السبطان والشيوخ على الشعب يمكن لمجلس الشعب ان ييدي حكمه فيها.⁹ ويبدو أنه بدءًا من القرن الثالث ق.م أصبح من حق هذا المجلس

¹ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 85.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 108.

³ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص ص 84-85.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 108.

⁵ - ستيفان فزال، ج2، المرجع السابق، ص 149.

⁶ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 85.

⁷ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 180.

⁸ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 85.

⁹ - الشاذلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 180.

اختيار قادة الجيش الكبار، لتتحول مسؤولية الهزائم العسكرية، حين تحدث، على عاتق الشعب كله.¹

ج- الجمعيات: Hétairies

ذكر أرسطو في خضم حديثه عن قرطاج جمعيات سياسية ودينية كان أفرادها يتناولون طعامهم مع بعضهم أحياناً، ويعقدون اجتماعاتهم ليلاً للتباحث في شؤون الدولة وكذا أعمال المجالس الشعبية، وكانت لهذه الجمعيات صبغة الهيئات الرسمية، وهي تختلف عن الجمعيات الخاصة أو النوادي أو حتى النقابات المهنية التي ترخص بها الحكومة. وكانت لهذه الجمعيات أقسام وشعب انتخابية، ويمثل رأي الأغلبية رأي الشعبة كلها والذي يحتسب صوتاً واحداً في الانتخاب العام.²

وخلاصة القول بالنسبة للمشهد السياسي القرطاجي أن القرطاجيين كانوا يستمتعون بهامش من الحياة الديمقراطية من خلال إبداء بعض الرأي في انتخاب الملوك والشفطان وغيرهم من الموظفين السامين، إلا أنه من الثابت أن السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة في الأساس وهو الأمر الذي أشار إليه الفيلسوف اليوناني أرسطو، ونظر فيه بسلبية للدور الذي لعبته الثروة في قرطاج، فقد كان شرف المولد والثراء شرطين للانتخاب، إما القرارات المصيرية فكان يقرها الملوك الثراء أو الشفطان بالتشاور مع مجلس الشيوخ، وفي حالة عدم توافقهم فقط، يتم اللجوء إلى رأي الجمعيات الشعبية.³

ورغم ذلك تبقى مزايا الدستور القرطاجي أكثر من مساوئه كما شهد بذلك الأقدمون من أمثال أرسطو وكذلك بوليبيسوس (Polybe) الذي اعترف أنه خدم مصالح الدولة إلى غاية الحرب البونية الثانية.⁴ ولعل ذلك انعكس في جانب معين من جوانب الحكم وهو أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر، كما حدث وتكرر في المدن الإغريقية خاصة في صقلية، وقد يعود ذلك إلى الأجهزة الرقابية وقوة نفوذها وسيطرتها في قرطاج.⁵

¹ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 85.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 110.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 199.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 111.

⁵ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 199.

III- الجيش القرطاجي

منذ أن تأسست قرطاج سعى مواطنوها إلى ترسيخ مكانتها وتدعيم كيانها من خلال بناء قوة عسكرية برية وبحرية للدفاع عن دولتهم في شمال إفريقيا،¹ أو عن ممتلكاتهم في ما وراء البحار، سواء لحفظ الأمن في تلك المستوطنات أو لحمايتها من الهجمات الخارجية.² وعلى ما يبدو فإن قرطاج من خلال القرون الأولى من وجودها لم يدافع عنها سوى أبناءها وأحياناً حلفاءها، والواقع يحدثنا بعدم خوض هذه المدينة لأي حرب بعيدة في هذه الفترة.³

ظل الأمر على هذا الحال إلى غاية القرن السادس ق.م،⁴ وتحديدًا منتصف القرن السادس ق م، ودليلنا في ذلك هو تلك الجيوش التي عاد بها القائد مالخوس من سردينيا (Sardaigne) واستعمالها لإنجاح انقلابه على الحكم في قرطاج كانت على الأرجح من القرطاجيين،⁵ غير أنه بعد هذا التاريخ وخلال حكم المواغونين لهذه الدولة، اتبعت قرطاج سياسة استخدام القوات المرتزقة على نطاق واسع، وهو الأمر الذي ظل معمولًا به إلى نهاية الوجود القرطاجي.⁶

تعددت الأسباب التي دفعت بالقرطاجيين إلى هذا الخيار، ولعل أهمها هو أن مدينة مثل قرطاج وهي التي كانت عليها عبء قيادة الفينيقيين في الحرب،⁷ لم تكن بإمكانها مهما بلغ عدد سكانها أن تؤمن القوة البشرية التي تمكنها من تحقيق ما تتطلبه السياسة الاستعمارية التي كانت تتبعها.⁸ كما أن قرطاج بحكم نشاطها الرئيسي وهو النشاط التجاري، لم يكن متاحًا لها انتزاع مواطنيها من عائلاتهم، وإبعادهم عن مصالحهم ومهنهم وأعمالهم للمغامرة في بعثات عسكرية بعيدة

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 199.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 166.

³ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 79.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 166.

⁵ - ستيفان فزال، ج 2، المرجع السابق، ص 254-255.

⁶ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 200.

⁷ - نفسه.

⁸ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 166.

ومتواترة،¹ فهذا من شأنه ان يساهم في إضعاف الاقتصاد والقضاء على التجارة والصناعة، وهو الأمر الذي عولت عليه قرطاج في ازدهارها من خلال فتح أسواق جديدة.² وربما رأى الحالمين بالسلطة آنذاك في أن استعمال جيوش أجنبية لا تعنيها الخلافات الماغونيون السياسة الداخلية، سيكون سبيلا لسيطرة مضمونة على حكم قرطاج، إضافة إلى الرغبة في إبعاد الشعب عن السلاح وامتهان الحرب لتخلو الساحة لهم في الاستئثار بالسلطة وقيادة الجيوش.³

ورغم هذه السياسة الرامية إلى استعمال المرتزقة من الأجانب ومن أهالي الأقاليم التي ضمتها قرطاج، إلا أن القرطاجيين لم ينقطعوا عن إدخال أنبائهم في الجيش، فلقد تحدثت المصادر الأدبية عن فرقة للخيالة تتكون من شباب الأسر الأستقرائية،⁴ كانت تضم ألفين وخمس مئة (2500) شاب، حاربت بشجاعة منقطعة النظير في صقليه، وأيدت عن بكرة أبيها في نهاية الأمر في معركة كرميسوس (Crimisos) سنة 339 ق.م.⁵

وبغض النظر عن القادة الذين كانوا من القرطاجيين فإن مواطنيهم شاركوا وبأعداد كبيرة في معارك خارج قرطاج، فكانت مساهمتهم في حروب صقليه سنوات 480 ق.م ، 409 ق م ، 405 ق م ، 406 ق م 397 ق م 396 ق م ، وكذلك 383 ق م⁶ وكان الناس في قرطاج يحملون الخواتم بقدر ما خاضوا من معارك، وشاركوا في وقائع حربية وهو ما يدل على أنهم كانوا يفتخرون بانجازاتهم العسكرية.⁷ ويذهب المؤرخ الفرنسي ستيفان قزال إلى أن طريقة التجنيد الخاصة بالقرطاجيين ظلت مجهولة، غير أن الكثيرين من أولئك الجنود لم يكونوا من الطبقات الدنيا،

¹ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 255.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص 166-167.

³ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 255.

⁴ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 79.

⁵ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص ص 88-89.

⁶ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 255.

⁷ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 167.

وكانت علامات الرفاهية بادية عليهم حيث كانوا يملكون أسلحة صنعت بإتقان فني،¹ كالخوذ من البرونز، والدروع الفولاذية، والتروس المستديرة، والسيوف الحادة المصنوعة من الفضة والذهب.² إذا ما قمنا بمقارنة بسيطة بين علاقة الشعب بالجيش والتجنيد بين الدول المدن الإغريقية وروما وبين قرطاج لوجدنا أن المواطن الروماني أو الإغريقي كان مشروع جندي، فكما هو معروف فإن الجمعيات المئوية (Comices centuriates) التي كانت تجتمع في ساحة مارس في روما، كانت تمثل الشعب المعبأ تحت السلاح، أما في قرطاج فلم يكن مجلس المواطنين ملزماً بأي واجبات عسكرية.³

وقد فُصِّلَتْ في قرطاج قيادة القوات المسلحة فصلاً كاملاً عن الوظائف الأخرى ما بين القرنين الرابع والثالث ق.م، وكان القادة في تلك الفترة يتم تعيينهم فقط في حالة الضرورة، لحملات محددة الجهة والهدف،⁴ أما في روما فكان القناصل يتقدمون طلائع الفرق العسكرية، وتسند إليهم رسمياً قيادة الحملات على خلاف قرطاج التي لا يتدخل القضاة أو الأشفاط فيها في سير المعارك.⁵

لذلك اعتاد مجلس الشيوخ القرطاجي أن يعالج المشاكل الخارجية بالاتفاق الدبلوماسي وتقديم تنازلات مالية، ولا يلجأ إلى استعمال القوة العسكرية إلا اضطراراً، ومن ثم كان الضعف في تدريب الجنود وعدم تحقيق الانتصارات العسكرية منذ القرن الرابع ق.م، رغم توفر الأموال بخزانة الدولة ورغم شجاعة القادة العسكريين القرطاجيين.⁶ ويبدو أن عقيدة قرطاج العسكرية كانت تعتمد على تجنيد الجنود، وتأليف الجيوش في حالة اللجوء للحرب، ثم تسريح أولئك المقاتلين بمجرد انتهاء المهمة، فحكومة قرطاج كانت تود دائماً ألا تطول المهمة الحربية لما يتبعها من خسائر

¹ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 256.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 167.

³ - فرانسوا دوكره، المرجع السابق، ص 88.

⁴ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 199.

⁵ - فرانسوا دوكره، المرجع السابق، ص 88.

⁶ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 79.

ونفقات باهظة، فهي في النهاية تُعْتَبَرُ الحرب مجرد عملية تجارية قد تجلب ربحاً أو تتسبب في خسارة ككل العمليات التجارية¹.

أما عن تركيبة الجيش القرطاجي فكان ككل جيوش الأمم القديمة يتكون من مشاة وخيالة فيما يخص القوات البرية، أما المشاة فجاء منهم من المواطنين القرطاجيين والجزء الآخر من المرتزقة الأجانب، وكان هؤلاء الجنود يحملون سلاحاً ثقيلاً وبمسكون بسيف أو رمح قصيرين، ويتسلح البعض منهم بحراب أو مقاليع يرشقون عن طريقها كرات من الفخار المسخن². وكان لفرق الأجانب دور هام في حروب قرطاجة خاصة الليبيين منهم، وتحدثنا المصادر عن مشاركتهم في جيش هاميلكار الماغوني، خلال معركة هيميرا سنة 480 ق.م، لتعمل قرطاج بعد ذلك على ضم مجموعات منتقاة من الأقاليم التابعة في إفريقيا،³ وتزيد من أعدادهم في جيشها ليصبح بذلك تجنيد هذه القوات إجبارياً ويضطلعوا بذلك بدورهم في الجيش القرطاجي كمشاة خفيفي الحركة.⁴

كما كانت قرطاج تستعمل مجموعات مساعدة تؤمنها المدن والممالك الحليفة لقرطاج كمملكة سيفاقس (Syphax) في أواخر القرن الثالث ق.م، وكانت قرطاج تعتبر النوميديين كمعاونين أو مساعدين لها يحاربون إلى جانبها مع محافظتهم على شخصيتهم واستقلالهم.⁵ أما النوع الثالث من الأجانب الذين حاربوا إلى جانب القرطاجيين فهم أولئك المرتزقة المتعاقدين مع الحكومة القرطاجية، أو قادة الجيش والذي تنتهي مهمتهم بانتهاء مدة العقد المبرم بين الطرفين.⁶

وكان هؤلاء يجلبون من الجهة الغربية للمتوسط ومن بلاد اليونان، لذلك نجد المصادر تتحدث عن وجود الليغوريين (les Ligures) والكلتيين (les Celtes) والغاليين (les Gaulois)

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 166.

² - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 80.

³ - فرانسوا دوكره، المرجع السابق، ص 89.

⁴ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 200.

⁵ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 168.

⁶ - ستيفان قزال، ج 2، المرجع السابق، ص ص 260-261.

وكذلك الإغريق (les Grecs)،¹ وقد عملوا بالجيش القرطاجي في أوقات مختلفة، وطبقا لظروف متباينة.²

أما بالنسبة للخيالة فكان شباب الإشراف من القرطاجيين يمثلون جزء صغيرا من هذه الفئة في الجيش، وكان القسم الأكبر يمثلته الفرسان النوميديين الذين كانت لهم جياد صغيرة تعرف بسرعتها وبثقلها للتعب، فكانت هذه الجياد الطيعة لفرسانها تساهم في انهك العدو بهجمات المتكررة وعدم مبالاة بالعناء والنصب.³ وقد أولت قرطاج اهتماما كبيرا بهذا القسم من الفرسان النوميديين بدءاً من القرن الثالث ق.م، ويحدثنا تيتوس ليفيوس عن ستة آلاف (6000) فارس وصلوا إيطاليا وكانوا يستخدمون خيولا صغيرة الحجم وسريعة، وكانوا يعتبرون أفضل فرسان إفريقيا بحكم أن تدخلهم في أغلب المعارك كان حاسما.⁴

أما عن المعدات الحربية للقرطاجيين فقد تم استعمال العربات قبل القرن الثالث ق.م، لتحل محلها الفيلة فيما بعد، هذه الحيوانات الضخمة⁵ التي تعتبر بمثابة الدبابات في وقتنا الحالي،⁶ والتي كان يصل عددها في المعركة الواحدة حوالي مائة (100) في كل صف، وكان يقودها سائس ويتعقبها مجموعة من الجنود بغرض تهيجها من خلال وخزها بأطراف الحراب وبقرع الأجراس لتهاجم صفوف العدو، لتحطم مقدمته وتبث الرعب بين جنوده من خلال دوسهم، فاسحة المجال للمشاة لإكمال مهمة سحقه.⁷

أما عن أسطول قرطاج البحري فكانت له سمعة طيبة وكان يُضربُ به المثل حتى عند أعداء القرطاجيين، ولم يكن هذا الأسطول يختلف كثيرا عن ذلك الذي يحارب به الإغريق،⁸ وبخصوص

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 168.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 200.

³ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 80.

⁴ - فرانسوا دوكره، المرجع السابق، ص 90.

⁵ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 80.

⁶ - فرانسوا دوكره، المرجع السابق، ص 90.

⁷ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 80.

⁸ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 170.

سفن القرطاجيين فعلى الرغم من أن السفن الحربية تختلف في هيئتها عموماً عن التجارية، فإن هذه المراكب الحربية كانت ذات مؤخرات مرتفعة ومقدماتها تنتهي بنتوء يلامس سطح الماء، مهمته تحطيم سفن الأعداء إذا ما توفرت له قيادة ماهرة،¹ إلا أن القرطاجيين كانوا يملكون نوعين من السفن الحربية السفينة الطويلة المعدة للحرب وتحركها المجاديف، والسفينة المدورة التي يسيروا الشراع وتحمل شحنات كبيرة.²

وفي الأخير ورغم اعتماد القرطاجيين في جزء كبير من جيشهم عن الأجانب والمرتزة، إلا أنهم أحسنوا استغلال هذا الأمر من خلال قادتهم الأبطال الذين اعترف لهم الأعداء قبل الحلفاء بالقوة والبأس والشجاعة مثل هاميلكار وحنبل، وصدر بعل.³ وبفضل أسطولهم القوي استطاعوا بسط نفوذهم وسيطرتهم على أجزاء كبيرة من غرب المتوسط، كما استطاعوا دعم تنظيمهم السياسي القرطاجي، وهو ما ساعد على تثبيت أقدام الدولة القرطاجية في شمال إفريقيا وحوض المتوسط، هذه الدولة التي صمدت في وجه القوى اليونانية والرومانية لفترة طويلة من الزمن.⁴

¹ - مادلين هورس، المرجع السابق، ص 72.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 170.

³ - نفسه، ص 171.

⁴ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص 200-201.

IV-الفينيقيون والإغريق في صقلية "بدايات التواجد وأسباب الصراع"

يبدو أن جزيرة صقلية كانت وجهة للفنيين والإغريق في فترات متقاربة في بدايات الألف الأولى ق.م، فقد قصدوها بغرض الاستيطان والتجارة وربما لأغراض إستراتيجية تجار هذين الشعبين في هجرات متتالية، وتمكنوا من الاستقرار على سواحل هذه الجزيرة الشرقية والغربية، ليدفعوا بذلك السكان المحليين إلى المناطق الداخلية ممتهين فلاحه الأرض وزرعها.¹

ويذهب المؤرخ اللاتيني ثوكيديدس إلى أن الفنيقيين كانوا الأسبق في القدوم والاستيطان في جزيرة صقلية، ويقول في هذا الصدد: " انتشر بعض الفنيقيين أيضا في صقلية محتلين تلك التلوات الساحلية التي حصنوها، وجزرا صغيرة مواجهة لها، وذلك ليجعلوا من أنفسهم أسياد التجارة التي كانوا يمارسونها في صقلية. لكنهم عندما رأوا جماعات كبيرة من الإغريق تأتي إلى الجزيرة تخلو عن قسم كبير من الأماكن التي كانوا قد حلوا فيها، وتجمعوا في أماكن أخرى، فسكنوا في موتي (Motyé) وبانورم (Panorme)، وسولويس (Soloeis) إلى جوار إليمس (Elymes)، وتحالفوا مع سكان هذه المواقع اعتقاداً منهم أن هذه الجهة هي الأقرب ما يكون بين صقلية وقرطاجة. أولئك هم الغرباء الذين سكنوا صقلية وأقاموا منشآت فيها..."² (أنظر الملحق 26 خرائط)

يمكننا إذن ان نفهم من كلام ثوكيديدس أن الفنيقيين قد نزلوا صقلية قبل الإغريق إلا انهم غادروا جهتها الشرقية بعد قدوم الإغريق، ليتجمعوا في الجهة الغربية المواجهة لقرطاجة.³ واعتمادا على المصادر المادية وبغض النظر عن الهوة الزمنية بين المعلومات التي تؤكدتها، وبين تلك الواردة في المصادر الأدبية، فإن الدلائل تشير إلى الحضور الفنيقي في جزيرة صقلية خلال القرن الثامن ق.م وهو ما تؤكدته شواهد فخارية في موقع موتيا بأقصى غرب صقلية.⁴

¹ - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 88.

² - Thucydides, Histoire de la guerre du Péloponnèse, Texte traduit par E.A.Bétant, 2ème Edition, Librairie de L.Hachette et Cie, Paris, 1869, VI, 2, p 318.

³ - جان مازيل، المرجع السابق، ص 101.

⁴ - الشادلي بوروينه ومحمد طاهر، المرجع السابق، ص 73.

ويذهب الأستاذ أحمد صفر إلى أن الفينيقيين أسسوا على السواحل الشمالية الغربية من جزيرة صقلية مراكز أو مصارف تجارية في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، أي قبل تأسيس قرطاج، وتلك المراكز كانت بانورما (Panorme) أو باليرما (Palerme) موتيي (Motyé) وسولونت (Solonte) أو سولويس (Soloïs).¹ ويعتقد بعض المؤرخين أن غرض الفينيقيين من الاستيطان في جزيرة صقلية كان استراتيجيا أكثر منه تجاريا، لذلك كان تواجدهم على الجهة الغربية لصقلية، القريبة من أوتيكا (Utique) وقرطاجة، هذا بالإضافة إلى السيطرة على المضيق الذي يفصل الحوض الغربي للمتوسط عن الحوض الشرقي.²

أما بالنسبة للإغريق فقد أسسوا مستعمرات لهم في جزيرة صقلية ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م،³ فكانت المستعمرة الأولى ناكسوس (Naxos) التي أسسها خالكيدون (Chalcidéens) قدموا من إقليم أوبيي (Eubée) في بلاد اليونان⁴ سنة 757 ق.م،⁵ ثم سيراكوز (Syracuse) التي أسسها كورنثيون⁶ سنة 740 ق.م، ليؤسسوا بعد ذلك ليونيتي (Leontini)⁷ وكاتان (Catane) سنة 729 ق.م.⁸

كما أسس الإغريق بعد ذلك مستعمرات الأخرى مثل تابسوس (Thapsus)، ميغارا إيبيليا (mégara-Hybléa)، وجيلا (Géla)، أجريجنتي (Agrigente)، زنكلي (Zonclé)، هيميرا (Himére)، سيلينونت (Sélinonte) وغيرها من المستوطنات الأخرى التي أسس بعضها إغريق جاؤوا من بلاد اليونان، والبعض أسسه إغريق صقلية أنفسهم.⁹ (أنظر الملحق 26 خرط)

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 184.

² - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 89.

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 184.

⁴ - Thucydides, loc.cit.

⁵ - M.C.Amouretti, F.Rusé, op.cit, P74.

⁶ - Thucydides, Loc-cit.

⁷ - M.C.Amouretti, loc.cit.

⁸ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 184.

⁹ - Thucydide, op.cit, VI, 4-5, pp 318-319.

كانت أهداف الإغريق في أول الأمر في كل من جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا تميل إلى عملية استغلال الأرض، لذلك كانوا غالباً ما يصطدمون بالسكان المحليين، وينتزعون منهم الأراضي الصالحة للزراعة ليؤسسوا من خلالها مستعمرات اسكان زراعية يستقلون بها عن بلاد اليونان، أما الفينيقيون فكانوا على خلاف ذلك يتبعون سياسة مع السكان الأصليين تتسم بالتعاون والتحالف معهم على أساس المصالح المتبادلة.¹

أما عن العلاقات اليونانية الفينيقية فقد طغى عليها في البداية طابع التنافس الاقتصادي بين هذين الشعبين البحريين، ورغم أن تاريخ تلك العلاقات تخله بعض الفترات التي اتسمت بالود والسلمية، والتي نتج عنها تبادل خبرات وانجازات حضارية بين الطرفين، إلا أنها سرعان ما تحولت إلى علاقة عدائية نتيجة للمنافسة التجارية والسياسية، ويبدو أن بؤادر ذلك العداء قد ظهر في القرن السادس ق.م في جزيرة صقلية وهو المكان الذي احتكت فيه المستعمرات الإغريقية بنظيراتها الفينيقية. وإذا كانت مدينة صور هي التي مثلت المدينة الأم لتلك المستعمرات الفينيقية المتناثرة في غربي المتوسط إلى غاية ذلك التاريخ، فإنها في هذه الفترة بالذات لم تعد قادرة على لعب دور الحامية والمدافعة عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب هيمنة الاشوريين ومن بعدهم البابليين الكلدانيين على المدن الفينيقية الشرقية عموماً.²

لذلك وجدت المستعمرات الفينيقية في غربي المتوسط عموماً وفي جزيرة صقلية على وجه الخصوص نفسها مضطرة للارتباط مع أكبر مدينة فينيقية في الغرب، وهي مدينة قرطاجة لتضمن لنفسها حليفاً قوياً يساندها عند الحاجة.³ وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلا أن المصالح الإستراتيجية والاقتصادية لهذه المستعمرات الفينيقية في صقلية قد تقاطعت مع طموحات قرطاجة التوسعية في البحر المتوسط، فالتحكم في المفاصل والطرق التجارية في البحر المتوسط لطالما شكل بالنسبة للقرطاجيين ضرورة منذ القرون الأولى التي ظهر فيها هذا الكيان في شمال إفريقيا، خاصة

¹ - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 89.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص 239-240.

³ - أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 72.

إذا علمنا أن الارسقراطية التي كانت تحكم هذه المدينة كانت تؤسس وتبنى قوتها من خلال تجارة متعددة الوجهات قائمة على غزو الأسواق المربحة.¹

وقد اشتهر القرطاجيون بالنشاط التجاري منذ ظهورهم في غربي المتوسط،² كما عرفوا كشعب بالدهاء والحدق والنشاط المتناهي. لا يعرفون الكل ولا الملل وهي صفات ورثها القرطاجيون عن الفينيقيين الذين كانوا يحسنون فرض أنفسهم على الشعوب الأخرى، تلك الشعوب التي كانت لا تحبذ فيهم صفة المكر والغش وجني المال وكثرة الطمع، ومع ذلك كانوا لا يستطيعون الاستغناء عن خدماتهم فهي تضطر في النهاية للتعامل معهم.³

وقد أحسن القرطاجيون الاستفادة من التقاليد الفينيقية في التجارة حتى بلغت شهرتهم في هذا النشاط الآفاق،⁴ إلى درجة أن بلين الكبير (Pline l'Ancien) نسب لهم اختراعها قائلاً " إن إقامة النظام الملكي كان من صنع المصريين، وإقامة النظام الديمقراطي يعود للأثينيين بينما البونيون إنما اخترعوا التجارة".⁵ وتجدد الإشارة إلى أنه من العوامل المهمة في نجاح سياسة قرطاج التجارية هو إتباعها لمنهج صارم يتلخص في فتح الأسواق الخارجية سواء بالقوة أو بالمعاهدات أو بإنشاء المستعمرات، وكذلك في إبعاد المنافسين لها، المزاحمين لتجارها من طريقها بشتى الوسائل.⁶

أما أهم السفن التجارية التي كان يجوب بها القرطاجيون البحار وينقلون من خلالها سلعهم فهي السفن الفينيقية التي أطلق عليها الإغريق تسمية غولوس (Gaulos) وهو مصطلح مشتق من أصل فينيقي ترجمته "GWL" والذي يعبر عن الشكل الدائري، وهو في الحقيقة مركب ثقيل، أشرعته ذات بطون، ذا هيكل دائري وكان مخصص لنقل السلع.⁷

¹ - Khaled Melliti, op.cit, P 51.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 225.

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 138.

⁴ - فرانسوا دوكرية، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة، ط1، دمشق، 1994، ص 89.

⁵ - Pline l'Ancien, op.cit, VII, 57, pp 8-9.

⁶ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 138.

⁷ - Khaled Melliti, op.cit, P 52.

أما عن بداية تأسيس القرطاجيين للمستعمرات في غربي المتوسط، فنجد إشارات أفادتنا بها المصادر الكلاسيكية كان أولها ديودور الصقلي الذي ذكر بان اييزا "Ebiza" قد تأسست في البليار (Baléares) بعد مائة وستين (160) سنة من تأسيس قرطاجة أي حوالي 653-654 ق.م، وهي المستعمرة التي أمنت بها قرطاجة لنفسها ميناءً على الطريق بين سردينيا (Sardaigne) واسبانيا (Espagne).¹

ويمكن ان يكون القرطاجيون قد استقروا في نفس هذه الفترة في كل من جزيرتي سردينيا وصقلية أو على الأقل وطدوا علاقاتهم في هذه الجزر مع المستعمرات الفينيقية هناك. ويمكن أن يكون ذلك قد حدث بعد بضع عشرات من السنين، وبذلك يمكن القول أن عملية الانتشار والتوسع القرطاجي في البحر المتوسط واحتلال قرطاجة مكان صور في زعامة المدن والمستعمرات الفينيقية في هذه المنطقة، إضافة إلى تأسيس القرطاجيين لمستعمرات جديدة، قد تم على الأرجح خلال القرن السابع ق.م.²

وقد اعتبرت قرطاجة منطقة البحر التيراني (Mer Tyrrhénienne) منطقة لنفوذها مانعه بذلك أي استيطان لقوى منافسة لها بهذه المنطقة وخاصة الاستيطان الإغريقي.³ ورغم ذلك فشلت قرطاجة في منع مستوطنين من فوسيا (Phocée) الإغريقية من إقامة مستوطنة مرسيليا (Marseille)، وكان ذلك بعد معركة بحرية ضد القرطاجيين تمكن الإغريق فيها من سحق القوات القرطاجية، ليتسكنوا من تأسيس مارسيليا بالقرب من مصب نهر الرون (Rhône).⁴

ويبدو أن التأسيس تم سنة 600 ق.م،⁵ ورغم أن هيرودوت تحدث عن هذه الأحداث أو المعركة التي وقعت بين القرطاجيين والتيرانيين ضد الفوسيين (Phocéens) بالقرب من سردينيا (Sardaigne)،⁶ وإذا كانت هذه الواقعة تعتبر أول اشتباك وتعارض في المصالح أدى إلى صدام

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 72.

² - نفسه، ص 73.

³ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 145.

⁴ - Justin, op.cit, XLIII, III (43-3).

⁵ - Thucydide, op.cit, notes portées sur le livre I, chapitre XIII, P 487.

⁶ - Hérodote, Livre I, P 166.

مسلح بين القرطاجيين والإغريق، والذي بدأ مع نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس ق.م فإن المواجهة الثانية بحسب المصادر التاريخية كانت في صقلية سنة 550 ق.م، وهي الواقعة التي استطاع فيها القائد القرطاجي مالحوس الانتصار فيها على اليونانيين، ليُخْضِعَ جزء من الجزيرة لنفوذ القرطاجيين.¹

وتعود أسباب هذه المعركة إلى أن الإغريق حاولوا تأسيس مدينة جديدة في منطقة قريبة من أماكن استقرار الليميين (les Élymes) حلفاء الفينيقيين الذين استوطنوا المنطقة الغربية من صقلية منذ زمن،² ويبدو أن تدخل مالحوس كان لتدعيم مركز المستعمرات الفينيقية في صقلية،³ وقد جهزت قرطاجة لهذه الحملة أسطولاً به عدد كبير من الجند بقيادة مالحوس الذي تمكن من هزيمة الإغريق الذين كان يقودهم بنتالوس (Penthalos) ومنعواهم بذلك من تأسيس مستعمرة لهم في الجهة الغربية التي كانت تمثل منطقة إستراتيجية بالنسبة لقرطاجة.⁴

انعكست تلك الهزيمة القرطاجية سلماً على وضع مالحوس السياسي الذي تم إبعاده عن قرطاجة، ويبدو أنه تهور وحاصر قرطاجة بجيشه وتمكن من احتلالها، إلا أن القرطاجيين سرعان ما اتهموه بالاستبداد والجنوح نحو الطغيان ليتم قتله والتخلص منه.⁵ ورغم ذلك سرعان ما استطاعت قرطاج استعادة زمام الأمور في غربي المتوسط والتصدي لمحاولات التوسع الإغريقي هناك خاصة في جزيرة كورسيكا وسردينيا.⁶

وكان ذلك بعد أن حكم قرطاجة " ماغون "، مؤسس الأسرة الماغونية التي حكمت قرطاجة لمدة ثلاثة أجيال، وساهمت مساهمة واضحة في عظمه وازدهار المدينة، وبعد التحالف بين القرطاجيين والأتروسكيين تمكنوا من هزيمة الأيونيين الإغريق الذين كانوا قد اتخذوا من الأليا

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 73.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 184.

³ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 73.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 184-185.

⁵ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 74.

⁶ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 145.

(Alalia) في جزيرة كورسيكا قاعدة لهم لممارسة القرصنة فأضروا بذلك بتجارة البحر المتوسط، ليتصدى لهم القرطاجيون والأتروسكيون ويلحقوا بهم هزيمة مدوية سنة 535 ق.م.¹

كان لذلك التحالف بين القرطاجيين والأتروسك أهمية بالغة، لكونه أوقف التوسع الإغريقي في المنطقة أولا، ثم لأنه أسفر عن إبرام معاهدة بين الطرفين تم بمقتضاها اقتسام مناطق النفوذ ليصبح غربي إيطاليا من جبال الألب إلى كمبانيا (Campagna) من نصيب الأتروسكيين، بينما أصبحت المنطقة الشاسعة في الجنوب بما فيها المنطقة التي احتلها اليونان من نصيب القرطاجيين.² ويبدو أن انتصار القرطاجيين على الإغريق أطمعهم في حسم الأمر في جزيرة صقلية أين يتمركز عدد من المستوطنات الإغريقية هناك،³ ليعرف العالم القديم صراعا دمويا بين الإغريق والقرطاجيين هدفه السيطرة على هذه الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي،⁴ هذه الجزيرة التي كان يمكن للقرطاجيين إن سيطروا عليها، أن يصبحوا سادة الحوض الغربي للمتوسط.⁵

وقد انعكس النشاط التجاري للقرطاجيين في الحقيقة على الدولة البونيقية بالثراء الواسع من خلال تلك الأسواق المربحة التي كانت تدر عليها أرباحا طائلة،⁶ كما أن اقتصادها الداخلي الذي ازدهر بمردود ذلك العدد المعتبر من الصانع المهرة والمحترفين، أعطى دفعة قوية لمكانة قرطاج الاقتصادية، وقد تقاطع ذلك مع السياسة الإستراتيجية لقرطاج التي غيرت اتجاهها نحو البحار، مستغلة إمكانياتها التجارية. كل ذلك جعل من تلك المدينة البونية أو العاصمة المتوسطية إحدى أهم القوى البحرية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها في الحوض الغربي للمتوسط والتي لم تتوان في أخذ موقعها كقطب من أقطاب القوى البحرية في هذه المنطقة، لتدخل بذلك في تحد ومنافسة اتسمت بالحدة والتصعيد المستمر.⁷

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 74.

² - نفسه.

³ - فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 145.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit, p 77.

⁵ - ستيفان فزال، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، ج3، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص 07.

⁶ - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية، د.م.ن، 2010، ص 132.

⁷ - Khaled Melliti, op.cit, P 54.

كان الفينيقيون تحت لواء مدينة صور يبسطون نفوذهم التجاري على حوض المتوسط الغربي ليس من شواطئ السيرت وما بعدها فحسب، بل يتعداه إلى ما وراء أعمدة هرقل.¹ وبما أن قرطاج قد أخذت على عاتقها المصالح الفينيقيو-بونيكية في المتوسط الغربي منذ القرن السادس ق.م، فقد عملت في هذه الفترة ونتيجة لحجم العبء الملقى عليها، على تطوير إستراتيجية عسكرية ودبلوماسية هدفها الحفاظ على هيمنتها البحرية خاصة على وسط المتوسط أين كانت المنافسة مع الإغريق عاملاً يهدد مصالحها.²

وقد استطاعت قرطاج الحفاظ على كل مناطق النفوذ التي ورثتها عن صور، وباحتكار التجارة فيها بشكل حصري إلى غاية نهاية القرن الثالث ق.م.³ وقد تحقق لها ذلك من خلال إستراتيجية اتبعتها قرطاج منذ نهاية القرن السادس ق.م، تلك الإستراتيجية التي دفعتها إلى التقرب مع الارستقراطيات البحرية المجاورة، فكان الحليف الأول للقرطاجيين هم الاتروسك الذين كانت لهم علاقات سابقة بهم نتيجة تبادلات تجارية بين الطرفين في إطار ما عرف قديماً بتجارة البحر التيراني (Trafic Thyrrhénien)، وانطلاقاً من هذه التبادلات التجارية بين قرطاج والمدن الأروسكية تبلورت علاقات سياسية وعسكرية بين الطرفين يمكن وصفها بمحور اقتصادي وسياسي في البحر التيراني، هدفه الواضح دعم التوازن التجاري في هذا البحر الذي لطالما كان مهدداً بحركة القرصنة الإغريقية.⁴

وقد تم توثيق هذه العلاقات الأتروسكية القرطاجية بعدة شواهد تاريخية أشهرها ذلك النقش البوني الذي يعود إلى حوالي سنة 500 ق.م والذي عثر عليه في مدينة سانت سفير-Sainte-Severa) أو بيرجي (Pyrgi) قديماً،⁵ ذلك النقش الذي عثر عليه في ثلاثة ألواح ذهبية، والتي تم

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجنة الحضارة والتاريخ، المرجع السابق، ص 90.

² - Khaled Melliti, op.cit, P 54.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجنة الحضارة والتاريخ، المرجع السابق، ص 90.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit PP 54-55.

⁵ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 74.

اكتشافه سنة 1963م، وقد كتب باللغتين البونيقية واللاتروسكية تم فيه ذكر التقدير والاحترام والتقدير لإلهة البونيين عشتار (Astarte).¹

كما تحدث مقطع من كتاب أرسطو (Aristote) عن وجود اتفاقيات تجارية، مدنية وعسكرية بين الشعبين الاتروسكي والقرطاجي دون قدرتنا على تحديد الفترة التي أبرمت فيها تلك الاتفاقية التي كان نصها " الاتروسك والقرطاجيون وكل الشعوب المرتبطة باتفاقيات تجارية يجب أن تكون معتبرة كمواطنين لشعب واحد، لدولة واحدة، وبفضل اتفاقياتهم حول الصادرات وحول السلامة الشخصية، حول الحرب المشتركة...".²

ويبدو أن أهم ثمرة لهذه الاتفاقيات تجسدت في التحالف ضد الإغريق في معركة الأليا سنة 535 ق م، والذي منع الإغريق من الاستيطان في كورسيكا.³ وهو ما اعتبر نجاحا لتلك العلاقات التجارية والعسكرية التي أقامتها قرطاج بصفتها قوة بحرية مع شركائها الاتروسك، وبنفس الطريقة نجحت العاصمة البونية في إقامة علاقات مماثلة مع الجارة روما سنة 509 ق.م، والتي كانت في إطار استمرار الاتفاقيات مع العالمين الأتروسكي واللاتيني.⁴ وبحسب ما ترويه المصادر التاريخية فإن عددا من الاتفاقيات الدبلوماسية تم عقدها بين قرطاج وروما كان أولها سنة 509 ق.م والتي نصت على منع الملاحة عن الرومان وحلفائهم فيما وراء الشناخ أي إلى جنوب من كاب فارينا أو رأس سيدي علي المكي إلى شمال الشرقي من قرطاج ما لم تجربها على ذلك العواصف أو قوة معادية.⁵

وبالمقابل كان محرما على القرطاجيين دخول المدن اللاتينية المستقلة في إيطاليا مع تجنب مهاجمتها، وإذا حدث وان استولوا على واحدة منها، وجب تسليمها سالمة إلى الرومان، كما مُنع القرطاجيون بموجب هذه الاتفاقية من بناء أي حصن في إقليم لاتيوم، وإذا تصادف وان توغلوا في

¹ - Khaled Melliti, op.cit, P 55.

² - Ibid.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 241.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit, P 56.

⁵ - فرانسوا دوكريه، قرطاج الحضارة والتاريخ، المرجع السابق، ص 91.

أرض لاتينية بقوة السلاح، وجب أن ينسحبوا منها قبل أن يقضوا فيها ليلة واحدة.¹ وقد أشار بوليب إلى أن هذه المعاهدات مع الرومان كانت تُظهِرُ أن القرطاجيين كانوا يعتبرون سردينيا وإفريقيا من ممتلكاتهم الخاصة، إلا أن الأمر يختلف عندهم بالنسبة لصقلية حيث يميزون بشكل واضح بين الجزء الخاضع لهم، وذلك الذي يخضع للإغريق.²

وهنا لابد من الإشارة إلى أن القرطاجيين أدركوا أنه بعد التحول السياسي الذي حدث في روما من خلال تحولها إلى جمهورية سنة 509 ق.م، وكذلك من خلال تطور الأحداث في شبه جزيرة إيطاليا في تلك الفترة، أدركوا أن الرومان هم القوة الصاعدة في إيطاليا، لذلك سارعت إلى عقد اتفاقيات معها من أجل ضمان أمن التجارة البحرية، وإذا كانت الاتفاقية الأولى التي تمت سنة 509 ق.م، نصت بوضوح على النطاق الحصري الخاص بإبحار وتجارة القرطاجية والذي سبق ذكره،³ فإن اتفاقية سنة 348 ق.م بين الطرفين أكدت وضع يد قرطاج على ذلك المجال البحري، بل امتد وتوسع إلى غاية جنوب شبه جزيرة إيبيريا، وقد أضافت قرطاج لنفسها امتيازات جديدة من خلال منع الرومان من الاستقرار أو تأسيس مستوطنات لهم في سردينيا وإفريقيا، وكذلك من التجارة في هذه المناطق وحتى في جنوب شبه جزيرة إيبيريا، في حين سمحت للتجار الرومان بممارسة نشاطاتهم في غرب صقلية،⁴ وقد استمر منع هذه المناطق على الرومان حتى اتفاقية سنة 273 ق.م، التي جسدت هذه المرة تحالفا عسكريا ضد عدو مشترك هو الملك الإغريقي بيروس (Pyrrhos) ملك إبيروس.⁵

ويبدو أن قرطاج قد فرضت على اليونانيين نفس الشروط تقريبا، وهي التي مفادها منع التجارة عنهم في سواحل إفريقيا وسردينيا وليبيا، ولتضمن ذلك شيدت أبراجا تحرس تلك السواحل

¹ - Polybe, Histoire générale, Texte traduit par M.Felix Bouchot, Tome premier, Charpentier Lilliaire-Editeur, Paris, 1847, III, 1, P 22.

² - فرانسوا دوكريه، قرطاجنة الحضارة والتاريخ، المرجع السابق، ص 91.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁴ - Polybe, op.cit, III, 1, p 24.

⁵ - Khaled Melliti, loc.cit.

بأعداد كبيرة، كانت تعرف بأبراج حنبعل، وهو ما يثبت في الحقيقة أن قرطاج وحدها كانت صاحبة السيادة على كل الحوض الغربي للمتوسط في القرن الخامس ق.م.¹

كان القرطاجيون يمارسون التجارة عبر شبكة من المراكز التجارية في غرب المتوسط، تلك المراكز التي انشأ الفينيقيون عددا كبيرا منها، وعددا آخر أسسه القرطاجيون، وفي هذه الشبكة تجدر الإشارة إلى تلك المراكز التجارية التي كانت تشكل ما عرف بالمثلث الفينيقي الذي كان رؤوسه قرطاج مع مدنها في ليبيا، صقلية وسردينيا، ويبدو أن قرطاج قد توغلت في صقلية شيئا فشيئا، فبعد مدينة موتي (Motyé) أو (San pantaleo) الحالية، تقدمت نحو جبل إيريس بالقرب من تراباني (Trapani) ويليبي (Lilybée) أو مارسالا (Marsala) الحالية، بالجهة الغربية من صقلية، ثم تمددت بعد ذلك نحو بانورموس (باليرم) وسولوبيس (سولونتي) على الساحل الشمالي للجزيرة. ويبقى بعد ذلك أن تحدد قرطاج رقابتها ونفوذها على المنطقة الواقعة إلى الغرب من خط يصل إلى مدينة هيميرا شمال الجزيرة التابعة لسيلونتي هو ما سبب النزاع بينها وبين الإغريق الذين كانت قاعدتهم مدينة سيراكوزا (Syracuse).²

أما عن إغريق صقلية فتاريخهم يمكن اختصاره في تاريخ مدينة سيراكوزا وذلك ابتداء من القرن الخامس ق.م، هذه المدينة التي عرفت حكم الطغاة، وهو حكم ظهر في صقلية في نفس الفترة التي ظهر فيها في بلاد اليونان، لكن استمر بل ازداد تجذرا وقوة في صقلية بعد القرن الخامس، أي بعد اضمحلاله وسقوطه في المدن اليونانية بشبه جزيرة اليونان. كان حكام المدن الإغريقية بصقلية يمارسون حكما ملكيا عسكريا يعتمدون فيه على فرقهم العسكرية المؤلفة من مواطني تلك المدن ومرتزة من الأهالي المحليين في صقلية، كما كان الصراع واضحا في هذه المدن بين أرستقراطية حاكمة وديمقراطيون معارضون. ولطالما دفع سكان بعض المدن ثمن معارضتهم

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 138.

² - فرانسو دوكريه، قرطاج الحضارة والتاريخ، المرجع السابق، ص 93.

لأولئك الطغاة فكان مصيرهم الترحيل عن مدنهم وضمهم إلى مدن أخرى، أما من ظل يعارض ويرفض الانصياع لهم فيكون مصيره البيع والابعاد عن صقلية.¹

ويبدو أن هذا النظام السياسي الذي يوصف بالحكم الفردي قد ظهر جليا في عدة مدن خلال القرن الخامس بصقلية من خلال ظهور شخصيات نشطة حكمت عددا من المدن الإغريقية مثل الطاغية جيلون (Gélon) الذي تمكن من الوصول إلى الحكم سيراكوز سنة 485 ق.م وكذلك ثيرون (Théron)² الذي نجح هو الآخر في تكوين دولة قوية في أجيريغونتوم (Agrigente) سنة 489 ق.م، وكان في مدينة جيلا قبل هذا التاريخ بسنوات طاغية يدعى هيبوكرات (Hippocrate)، وكان أولئك الحكام يسعون إلى ترسيخ حكمهم الفردي على تلك المدن على عكس ما كان يحدث في بلاد اليونان.³

ويحدثنا هيرودوت في كتابه السابع عن جيلون الذي كان أسلافه كهنة (Hiérophantes) في معبد الربتين سيراس (Cérès) وبروسرين (Proserpine) والذين ضلوا محتفظين بذلك المنصب، وتلك المكانة الدينية في مدينة جيلا، ; حين وقع تمرد واضطرابات في هذه المدينة تمكن تيليناس (Telinés) أحد أجداد جيلون من إعادة المهزومين الذين تم نقلهم من المدينة إلى جيلا، وذلك بفضل المكانة المرموقة التي يحظى هناك، ويبدو أن جيلون لم يتقلد هذا المنصب الديني، بل كان فارسا من مجموعة الحماية للحاكم هيبوكرات (Hippocrates) الذي حكم جيلا بعد مقتل أخيه كليوندر (Cléandre) ابن بينتاراس (Pantarés). وقد عمل هيبوكرات على إخضاع العديد من المدن في صقلية وحاصر شعوب الكاليبوليت (Callpolites) والناكسيون (Nexiens)، والزנקليين (Zancléens) والليوننتيين (Léontins)، وكذلك السيراكوزيين (Syraeusians) وشعوب أخرى، ومن هذه المدن الشعوب لم تسلم سوى مدينة سيراكوز من الخضوع له، وذلك بعد أن خاض سكانها معركة ضده بالقرب من نهر ايلوروس (Elorus)، إلا أن الكورنثيين والكوركوريين سعوا في

¹ - M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit, P 205

² - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 146.

³ - M.C.Amouretti et F.Rusé, loc.cit.

صلح بين الطرفين وجنبوا سيراكوز الخضوع لهيبوكرات مقابل التنازل له عن مدينة كمارين (camarine) التي كانت تتبع لهم منذ القدم.¹

ويضيف هيرودت إلى ان هيوبكرات مات بالقرب من مدينة إيلبا (Hylba) وهو يجارب شعب السيكل (les Sicules)، وذلك بعد ان حكم جيلا مدة سبع سنوات، وفي خضم هذه الأحداث تولى جيلون مهمة الدفاع عن حق أبناء هيوبكرات أوكليد (Euclides) وكليوندر (Cléandre) في حكم جيلا ضد مواطني المدينة الذين رفضوا الاعتراف بهم كحكام عليهم، وقد تمكن جيلون من هزيمة سكان جيلا في معركة فاصلة معهم، إلا أنه بعد انتصاره تولى السلطة بنفسه وخلع ابني هيوبكرات. جلب جيلون من مدينة كازمان (Casméne) فئة من السيراكوزيين يدعون الغاموراس (Gamores)، وهم الذين تم طردهم سابقا من طرف حكام المدينة، وحين أعادهم إلى سيراكوز عرف السيراكوزيين قوته ومكانته، وعلموا أنه سيهاجمهم لا محالة، لذلك سلموا له المدينة وخضعوا لحكمه، وحين صارت سيراكوز تحت سلطته تولى حكمها بنفسه وترك حكم جيلا لأخيه هيرون (Hiéron)، وسرعان ما ازدهرت سيراكوز تحت حكم جيلون حيث ضم إليها سكان مدينة كامارين (Camarine) ومنحهم حق المواطنة بها وأخلى مدينتهم، كما ضم إليها كذلك نصف سكان جيلا، ودخل بعد ذلك في صراع دامي مع الميغاريين والابويين (Eubéens) في صقلية، وبعد ان تمكن منهم أعطى حق المواطنة للارستقراطيين منهم الذين كانوا موالين له، أما معارضوه فقد باعهم ورحلهم خارج صقلية، وبذلك تحول جيلون إلى أحد حكام مدن صقلية الأقوياء.²

¹ - Hérodote, op.cit, VII, CLIII-CLIV (153-154).

² - Ibid, VIII , CLV-CLVI (155-156).

الفصل الثاني

الحروب الإغريقية القرطاجية

- I اندلاع الصراع القرطاجي السيراكوزي
 - II حرب البونيين ضد دونيس
 - III سياسة ماغون القرطاجي ضد مشاريع دونيس
- التوسعية

I- اندلاع الصراع القرطاجي السيراكوزي

1- معركة هيميرا (La bataille D'Himère) 480 ق.م

لم تكن الأحداث التي سبقت معركة هيميرا بعيدة عن ذلك الصراع الفارسي الإغريقي في عهد كزاريس الذي كان يحاول محاصرة اليونانيين من جميع النواحي ليضمن النصر في معركة سلامين كما سبق الإشارة لذلك، وقد أرسل مندوبين عنه بمعية الفينيقيين إلى قرطاجة في خضم تلك الأحداث ليؤلب القرطاجيين على إغريق صقلية، داعيا إياهم إلى فتح جبهة للحرب هناك من خلال إرسال أسطولهم إلى الجزيرة لهزيمة الإغريق، ومن ثم الذهاب إلى السيلوبونيز لمساندة جيشه، ومهما يكن فقد كان القرطاجيون بدعوة من كزاريس مضطرين فعلا للتدخل في صقلية للحد من توسعات جيلون (Gélon) وحليفه ثيرون (Théron) والرد على تدخلاتهم الأخيرة ضد حلفاء قرطاجة.¹

أما جيلون طاغية سيراكوز الذي دعاه الإغريق في مؤتمر كورينث لمساعدتهم بقواته البحرية والبرية، فقد كانت له أسبابه وحججه ليبقى بعيدا عن ذلك الصراع الشرقي ضد كزاريس، ليس عن ضعف أو جبن لأنه وفي ظرف عشر سنوات من الحكم في جيلا وسيراكوز أصبح من أقوى الحكام في العالم الإغريقي، بل لأن عدوا يحسب له حسابا كبيرا كان يدرك أنه يترصده وهو القريب منه في صقلية أو في إفريقيا، إنهم القرطاجيون.² كان طموح كل من جيلون حاكم سيراكوز وثيرون طاغية أجرينجيتوم، الذي تمكن هو الآخر من بناء مدينة دولة قوية، واضحا في بسط نفوذهما على جزيرة صقلية،³ لذلك قام ثيرون سنة 483 ق.م بالاستيلاء على مدينة هيميرا (Himère)، وقام بطرد حاكمها تيريلليوس (Terillus)، والذي كان حليفا لقرطاجة، وقد استنجد هذا الأخير بحلفائه لاستعادة مدينته.⁴

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 76.

² - Peter Geen, op.cit, P 132.

³ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 76.

⁴ - Peter Geen, loc.cit.

أدركت قرطاج أن الخطر قد اقترب من مناطق نفوذها في صقلية، ووجدت نفسها أمام مواجهة حتمية ضد قوى إغريقية متحالفة،¹ على غير ما عهدتهم عليه سابقا، فقد كان الإغريق في ما مضى لا يشتغلون في مستعمراتهم بصقلية سوى بأنشطه زراعية وفلاحية، ولذلك لم يكن القرطاجيون يحشون جانبهم، إلا أن هذه المستعمرات الإغريقية سرعان ما تحولت إلى مراكز تجارية هامة صارت تهدد البونيين وتعيق توسعهم، وربما تضايق نشاطهم التجاري.²

هذا الحدث الأخير سيغير مجرى الأحداث في صقلية، فهو يعتبر عنصرا مفجرا للأحداث وعاملا جديدا من عوامل اللعبة السياسية في صقلية، هذه الجزيرة التي ستصبح مسرحا للحروب والصراعات والتي لطالما كان التنافس فيها بين الإغريق والبونيين تجاريا بحتا. فالنسبة لجيلون لم يكن ليتخلى عن جاره الإغريقي ثيرون (Théron) ويتركه لقمة سائغة للقرطاجيين، كما أنه لم يكن ليقبل أن يتم استدعاء قوات قرطاجية للتدخل في صقلية ضد حليف إغريقي. أما بالنسبة لقرطاج فالأمر أصبح ملحا وضروريا خاصة مع تعاظم قوة جيلون، إذا لابد من وضع حد لتحرشاته بالمدن الصقلية وتوسعاته في الجزيرة قبل أن يفوت الأوان.³

وإذا ما تطرقنا لإمكانيات الطرفين قبل هذه المعركة فإن جيلون أخبر رسل الإغريق إليه قبل معركة سلامين أنه بإمكانه أن يرسل لهم مائتين (200) من السفن ثلاثيه صفوف المجاديف (Triremes)، عشرين ألفا من المشاة الأوبليت (Hoplites)، ألفين (2000) من الفرسان الثقال، ألفين (2000) من رماة السهام، ألفين (2000) من رماة المقاليع وألفين (2000) من الفرسان الخفاف، كما أنه يمكنه حسب قوله من خلال رواية هيروdot أن يمدهم بالقمح إلى غاية نهاية الحرب.⁴ وهذه الأرقام - إن صدق جيلون - تعكس في الحقيقة إمكانيات بشرية هائلة تتمتع بها سيراكوز في تلك الفترة. أما عن إمكانيات القرطاجيين فإنه بين سنتي 483 و480 ق.م سعت السلطات القرطاجية إلى التحضير لحملة غزو صقلية بقوات هائلة، إذا قامت خلال تلك

¹ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 147.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 175.

³ - Peter Geen, op.cit, pp 132-133.

⁴ - Hérodote, op.cit, VII, CLIII (158)

الفترة بجلب المرتزقة من كل مكان حتى من اسبانيا (Espagne)، وغاله (Gaule) ومن ليغوريا (Ligurie)، وآلاف المواطنين من قرطاجة ثم استدعائهم للحرب، كما أرسل الليبيون فرقتهم العسكرية وتم صنع ما يقارب المائتي (200) سفينة حربية.¹

بعد انتهاء تحضيرات الحملة، ندب القرطاجيون هاميلكار² بن حنون³ (Hamilcar fils de Hannon) وهو أكثر القادة القرطاجيين شهرة، وقد خرج هذا القائد من ميناء قرطاج مع كل قواته المجتمعة هناك، والتي كان عددها بحسب ديودور الصقلي ثلاثمائة ألف (300000) رجل على أقل تقدير، وأسطول حربي متكون من أكثر من مائتي (200) سفينة طويلة، دون حساب ثلاثمائة (300) سفينة مخصصة لنقل المؤن، وبعد اجتياز البحر الليبي واجهت هاميلكار وقواته عاصفة بحرية تحطم على إثرها تلك المراكب المخصصة لنقل الجياد والعربات، وحين وصل إلى بانورموس (Panorme) بصقلية، قال هاميلكار أنه يرى أن الحرب قد انتهت أو أصبحت بالنسبة له منتهية.⁴

ظل هاميلكار ثلاثة أيام في بانورموس أو باليرمو وذلك من أجل إصلاح الأضرار التي أحدثتها العاصفة، وكذلك لكي يأخذ رجاله قسطا من الراحة بعد الذي تعرضوا له في عرض البحر من أهوال، كما أرسل إلى حليفه في سيلينونت (Selinonte) ليطلب منه تحريك ما يملكه من فرسان نحو هيميرا في الوقت المتفق عليه.⁵ ويبدو أن هاميلكار كانت له علاقات جيدة بحكام المدن الصقلية وجنوب إيطاليا مثل تيراليوس حاكم هيميرا الفار، أناكيسلاس بن كريتيناس (Anaxilas fils de Getines) طاغية ريجيوم (Rhégium) الذي قدم له أنباءه كرهائن من أجل تشجيعه على القدوم إلى صقلية ومحاربة جيلون انتقاما لصهره تيريلليوس إذ أنه كان متزوجا من ابنة هذا الأخير.⁶

¹ - Peter Geen, op.cit, P 134.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XX(20), 102.

³ - Hérodote, op.cit VII, CLXV (165).

⁴ - Diodore de Sicile, Loc-cit.

⁵ - Peter Geen, op.cit, P 182.

⁶ - Hérodote, loc.cit.

اتجه هاميلكار مع قواته نحو الشرق على طول الساحل الشمالي متجها إلى هيميرا، وكان ذلك بالموازاة مع اسطوله الذي كان يسير على مياه الساحل. لم يسع هاميلكار إلى الاجتماع مع قوات حلفائه حول المضيق (مضيق ميسينا Messine) وذلك لأن طبيعة الأرض بين ميسينا وهيميرا تتسم بالصعوبة، ويمكن أن يكون القائد القرطاجي قد اعتمد على حلفائه ليوفرون (Léophron) حاكم زنكل (Zancle) أو ميسينا (Messine) و أناكسيلاس لأخذ المضيق في حالة ما إذا قرر جيلون الدخول بالقوة عبر البحر، وفي هذا الاتجاه يكون احتمال اندلاع معركة بحرية وارد.¹

عسكر هاميلكار بالقرب من هيميرا ناصبا معسكرين أحدهما للجيش البري، وآخر للقوات البحرية، وكان قد سحب مراكبه نحو اليابسه وحصنها بحفرة عميقة وجدار من الخشب، أما معسكر الجيش البري فكان مواجهها لأسوار المدينة من جهة، ومحما من الخلف بالقوات البحرية وبمجموعة من الهضاب التي تحيط بالمدينة، وبعد أن احتل الجهة الغربية للمدينة أنزل ما لديه من مؤن لجيشه من المراكب وأرسلها إلى سردينيا لجلب المزيد منها.²

وعلى خلاف كزاركسيس كان هاميلكار يملك في حربه عنصر المفاجأة الذي كان يمكن أن يستغله أحسن استغلال، فثيرون وجيلون يعلمان أن هجوما قرطاجيا قد يشن ضدما في أي وقت، لكن لم يكونا يعلمان بوضوح، متى وأين سيكون هذا الهجوم ؟ أما الوقت الذي قضاه هاميلكار في المسير بين بانورموس وهيميرا فقد استغله ثيرون في التحصين الجيد لمدينه هيميرا قبل أن يصل القرطاجيون إلى أسوارها. تقع هذه المدينة المسماة اليوم تيرميني إيميراس (Termini Imerse) على بعد حوالي خمسين (50) كم شرق باليرمو، على أرض تغطي الطريق الساحلية المؤدية إلى سيفالو (Cefalou) على مقربة من نهر تكثر بجانبه المرتفعات الرملية، والذي يعرف اليوم باسم فيوم الكبير (Fiume Grande)، وعلى بعد بعض الكيلومترات إلى الغرب يحد مدينة

¹ - Peter Geen, op.cit, pp181-182.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XX (20), 102.

هيميرا نهر آخر يسمى فيوم تورتو (Fuime Torto)، أما بين المدينة والبحر فيمتد سهل منبسط، وفي هذا المكان عسكر هاميلكار مع قواته البرية والبحرية.¹ (أنظر الملحق 31 خرائط)

بمجرد إنتهاء أعمال التحصين بالمعسكر وانزال المؤن أخذ هاميلكار نخبة جنوده وتوجه نحو مدينة هيميرا متحديا سكانها ومحاربيها لمنازلته هو محاربيه، وقد خرج عدد كبير لملاقاته إلا أن هاميلكار قتل عددا كبيرا منهم الأمر الذي نشر الرعب والذعر في داخل المدينة، وهو الأمر الذي دفع ثيرون المدافع عن هيميرا إلى إرسال مندوبين عنه إلى سيراكوز طالبا قدوم جيلون لمساعدته ومساعدة الهيميريين.²

حرك جيلون جزء كبيرا من جيشه استجابة لنداء هيميرا وهو ما يثبت أنه لا أحد كان يعلم بمخطط هاميلكار الهجومي. وقد أخذ طاغية سيراكوز معه خمسين ألفا (50000) من المشاة، كان جزء كبير منهم من الأوبليت (Hoplites) وخمسة آلاف (5000) من الفرسان، وفي ذلك الزمن كانت جزيرة صقلية معروفة بتربية الخيل بأعداد وافرة، ففلاحوها كانوا يمتنون هذه الحرفة، وكان البسطاء منهم يستطيعون تجهيز فارس من الفرسان الثقال. قطع جيلون المسافة من سيراكوز إلى ضواحي هيميرا في وقت وجيز، وهو ما يوحي إلى أنه أخذ طريقا برية وسط صقلية، وهي المعروفة قديما بطريق هينا (Henna) وقد عسكر بالجهة الجنوبية الشرقية للمدينة متبعا الوادي المنفتح باتساع على النهر.³

اختار جيلون مكان معسكره بالقرب من هيميرا، وحصنه بخندق كبير وسياج من حوله، وسرعان ما أطلق فرسانه في إثر أعداد كبيرة من القرطاجيين من جيش هاميلكار الذين انتشروا في الأرياف المجاورة بحثا عن المؤن، وقد استطاع فرسان جيلون أسر عدد كبير من القرطاجيين واقتادوهم إلى هيميرا.⁴ كان من الواضح أن القائدين جيلون وهاميلكار يتمتعان بقدرات عسكرية عالية، وهو ما يفسر اختيار جيلون ذلك الموقع الذي سمح له بالاتصال بالمدينة، وكذلك بالمناورة

¹ - Peter Geen, op.cit, P 183.

² - Diodore de Sicile, Loc-cit.

³ - Peter Geen, op.cit, pp 183-184.

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XXI (21), 103.

خارج المدينة بكل حرية. وفي الحقيقة لم يكن جيلون ينوي التخندق والاختباء وانتظار هجوم القرطاجيين لأنه كان يعلم أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم، إلا أن السؤال المطروح بالنسبة إليه هو متى وأين يشن ذلك الهجوم ؟ إذا أنه كانت لهاميلكار الأفضلية من حيث عدد المقاتلين ومن حيث الوضعية على الأرض التي يعسكر بها، ومفاجأته بهجوم كان يبدو عملاً صعباً ومستحيلاً، أما خوض معركة من خلال مواجهة مباشرة فهو أمر خطير وغير محسوب العواقب.¹

وفي هذا الإطار يروي لنا ديودور الصقلي القصة التي لعب فيها الحظ لعبته مع جيلون وهياً له النصر على أعدائه. كان هاميلكار في معسكر قواته البحرية يقوم بالتحضير ليوم تقديم الأضحيات للإله نبتون (Neptune) أي بوسيدون (Poseidon)، حين أتاه فرسانه بشخص قبض عليه، اتضح أنه رسول من السيلونتين (Sélinontins) إلى هاميلكار، وكان محتوى الرسالة التي يحملها والتي اطلع عليها جيلون أن الفرسان السيلونتين الذين طلبهم هاميلكار في طريقهم إليه، وأنهم سيصلون في اليوم المتفق عليه، وهو اليوم الذي سيقوم فيه هاميلكار باحتفال لتقديم الأضاحي للإله، وبما أن جيلون كان رجلاً معروفاً بذكائه العسكري، فقد أمر مجموعة من فرسانه بالدوران حول المدينة والسير في الطريق الذي كان يمكن أن يقدم منه السيلونتين من أجل الولوج إلى معسكر هاميلكار، وتقديم أنفسهم على أنهم الحلفاء القادمين من سيليونت (Sélinonte)²

كان جيلون يعلم أنه بالنسبة للقرطاجيين، تتشابه جميع فرق الفرسان الإغريقية وهو عامل يساهم في نجاح مهمة خيالاته لذلك طلب منهم حين يصلون إلى باب معسكر القوات البحرية لهاميلكار، وبعد دخولهم واجتيازهم السياج، أن يضرموا النار في الخيام والسفن القرطاجية، وإن استطاعوا الوصول إلى هاميلكار نفسه فعليهم بقتله، وبعد ذلك يتم إعطاء الإشارة عن طريق مراقبين قريبين من المدينة برفع مشاعل من النار ليتسنى لجيلون القيام بهجوم مباشر ساحق، وفي

¹ - Peter Geen, op.cit, p 184.

² - Diodore de Sicile, loc.cit.

نفس الوقت تقوم فرق ثيرون المجتمعة داخل المدينة بهجوم على القرطاجيين من الجهة الأخرى، كما أعطى جيلون أوامره لجنوده بأن لا يكون هنالك أسرى بعد المعركة.¹

ومع طلوع شمس ذلك اليوم توجه فرسان جيلون إلى معسكر القوات البحرية القرطاجية الذين استقبلوهم كحلفاء لهم، وسرعان ما انقض هؤلاء الفرسان على هاميلكار الذي كان منشغلا بتقديم الأضاحي، فقتلوه وأضرموا النار في المراكب² التي جف خشبها جراء أشعة الشمس ثم رميت شعلات من النار على خيام القرطاجيين بالمعسكر. كان الوصول إلى هاميلكار والتعرف عليه أمرا سهلا فهو الشخصية المعروفة في المعسكر، إذ أنه كان واضحا في الهيئة التي عليها وهو يقدم الأضاحي على نصب كبير به نار مشتعلة عليها الذبائح التي بدأت لحومها تستوي على النار، ويبدو أن الفرسان السيراكوزيين بعد أن مزقوا هاميلكار بسيوفهم قاموا برميهِ بين ألسنة النار المشتعلة، ويقال أن جيلون بحث بشغف عن عدوه هاميلكار بعد المعركة لكنه لم يعثر له على أثر لا حيا ولا ميتا.³

بعد أن تلقى جيلون الإشارة من فرسانه، هجم على رأس قواته على معسكر القرطاجيين، قام القادة القرطاجيين باخراج قواتهم على عجل لملاقاة الصقليين الإغريق، واشتبكت الفرق فيما بينها، اشتد القتال بين الطرفين وسقط القتلى بأعداد كبيرة، وكان النصر يتأرجح بين هذا وذاك، إلى أن ازداد لهيب النيران المشتعلة في مراكب الفنقيين، ووصول انباء مقتل القائد هاميلكار وهو ما زاد من رفع معنويات الإغريق وعزيمتهم وأحبط محاولات القرطاجيين في التغلب على أعدائهم،⁴ كان خبر مقتل هاميلكار عاملا حاسما في انهيار قوى الجيش القرطاجي وانتهاء مقاومتهم. تعالت صيحات جنود جيلون وثيرون فرحا بالنصر، في حين بلغت ألسنة النار عنان السماء في المعسكر القرطاجي المنهوب. تم تطبيق أوامر جيلون التي صدرت قبل المعركة بأن لا يكون هنالك أسرى،

¹ - Peter Geen, op.cit, P 217.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XXII (22), 104.

³ - Peter Geen, op.cit, PP 218-219.

⁴ - Diodore de Sicile, loc-cit.

وتحولت المعركة في نهايتها إلى مذبح. ويبدو أن ديودور الصقلي كان يبالغ نوعا ما حين تكلم عن مائة وخمسين ألف (150000) قتيل أو جثة تبعثت في أرض المعركة تخص القرطاجيين فقط.¹ فر عدد من القرطاجيين من المذبحة واحتموا بمكان محصن² من جهة الغرب يرجح أنه كالوجيرو (Calogero) أين اختبأوا لزمان وتفادوا شدة وطأة طلب الإغريق لهم، كانت وضعيتهم جيدة إلا أن المكان كان خاليا من الماء، وهو ما يعني أنه يكفي أن ينتظرهم جنود جيلون لبعض الوقت حتى يضطروا للنزول بسبب العطش.³

بعد المعركة استطاعت المراكب العشرين (20) التي كلفها هاميلكار بالبقاء على الماء لتأمين احتياجات الجيش، النجاة من المصير الذي لاقاه الجيش القرطاجي على الشاطئ، وكان لديهم الوقت الكافي لرفع اشرعتهم والتوجه نحو قرطاجة، إلا أنهم لم يصلوا إلى وطنهم بفعل عاصفة صادفتهم في عرض البحر تحطمت فيها المراكب وهلك من فيها من مقاتلين.⁴ فقط مجموعة من القرطاجيين قليلة العدد أفلحت في الوصول والعودة إلى بلادهم في قارب صغير، ليخبروا مواطنيهم وحكومتهم بالخسارة التي منيت بها الحملة في صقلية. وإثر ذلك أرسلت قرطاج مندوبين عنها لطلب السلام، وقد أصبح جيلون سيد الموقف ويمكنه املاء شروطه على القرطاجيين.⁵

خسرت إذن قرطاج هذه المعركة في شهر سبتمبر سنة 480 ق.م، في نفس الوقت تقريبا الذي خسر فيه الفرس معركة سلامين البحرية ضد الإغريق لتنتهي مواجهة كبرى في الشرق وأخرى في الغرب.⁶

ورغم أن جيلون السيراكوزي كان المنتصر في هذه الواقعة إلا أن المعاهدة التي أبرمها مع القرطاجيين لم تكن بتلك القساوة التي كان يمكن أن تعكس النصر الساحق للإغريق، فقد احتفظت قرطاج بجميع ممتلكاتها في صقلية وربما كان ذلك لأن جيلون لم يكن يتمنى أن يصبح

¹ - Peter Geen, op.cit, P 219.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, Loc-cit.

³ - Peter Geen, op.cit, P 219.

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, XXIV, 105.

⁵ - Peter Geen, op.cit, pp 219-220.

⁶ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 147.

بالقرب منه حليف إغريقي عظيم القوة في اجرينجتوم،¹ ومع ذلك ساهم ما غنمه الإغريق من حرب قرطاجة في بناء مرافق في المدن الإغريقية في صقلية مثل المعابد والحمامات، وقنوات المياه خاصة في سيراكوز وأكراجاس (Akragas)، أما المكسب الواضح للإغريق والمهم بعد هذه المعركة هو أنهم قضوا على تهديد البرابرة بحسب تعبيرهم إلى زمن بعيد في غرب صقلية.²

ومن النتائج التي يمكن تسجيلها على الجانب الإغريقي بعد معركة هيميرا إضافة إلى إبعاد القرطاجيين عن الصراع مع الإغريق طوال القرن الخامس ق.م ودفعهم بهم إلى التخذق في أطراف الجزيرة،³ نجد أنه بعد انتصار جيلون لم يعد يُصنَّفُ كحاكم إغريقي (Stratagème) معروف وشجاع بين إغريق صقلية فقط، بل أصبح يحظى بتمجيد واحترام كل العالم الهيليني بعد هذا الانتصار،⁴ وكما ساهم نصره هذا في إعطاء زخم كبير لحكم الطغاة في صقلية، وبما أن هذا الانتصار قد تدعم بانتصار إغريقي آخر لمدينة كومي (Cumes) في إيطاليا على الاتروسك، فقد ثبت وبشكل قوي سطوة سيراكوز في صقلية وإيطاليا. كما توسعت سيراكوز بعد معركة هيميرا على حساب مدن نيابوليس (Néapolis)، تيشي (Tyché) في إيطاليا، وبذلك تأسست أغورا (Agora) جديدة رفعت المعابد للآلهة ديمتر (Déméter)، كوري (Koré)، أثينا (Athéna)، وتم بناء أول مسرح على الصخر في صقلية، وأصبح بلاط الحكم لأولئك الطغاة في صقلية وإيطاليا من أضخم المباني في المدن اليونانية.⁵

وبفعل هذا الازدهار تحولت مدن صقلية إلى قبلة لكبار المثقفين الإغريق مثل بندار (Pindare) الشاعر، وسيمونيد (Simonide) اللذان قدما من بيوتيا (Bèotie) أو من كيوس (kéos) ليتم الاحتفاء بهم وتكريمهم. كما تم استقبال الشاعر إيسخيلوس (Eschyle) استقبالا حارا و ظل في جزيرة صقلية إلى أن توفي بمدينة جيلا (Géla).⁶

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 77.

² - Peter Geen, op.cit, P 220.

³ - M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit, P 206.

⁴ - Peter Geen, op.cit, P 217.

⁵ - M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit, P 206.

⁶ - Ibid.

أما على الجانب القرطاجي فقد ضاق البحر المتوسط على القرطاجيين بعد معركة هيميرا، إذ هيمن الإغريق على الحوض الشرقي للمتوسط أي من المضيقين (مضيق صقلية ومضيق ميسينة) إلى سواحل مصر، وأغلقت في وجه القرطاجيين الطريق المؤدية إلى الشرق، ومن ثم حرمت من أهم أسواق العالم القديم وأكثرها ربحاً لتجارها.¹ أما على المستوى الداخلي، ففي شقه السياسي تخلى القرطاجيون عن أهم أعضاء أسرة ماجون، وبذلك غيروا الهيئة الحاكمة التي ظلت على رأس السلطة لثلاثة أجيال عاشت فيها المدينة البونية حروباً متواصلة، وشكل القرطاجيون هيئة حاكمة متكونة من مائة شخص تدعيماً للسلطة الجماعية وتجنباً لحكم الفرد، وفي هذه الفترة تغير لقب ووظيفة الملك إلى لقب قاضي وهو ما يعني تقلص مدة ولايته دون شك.²

أما على المستوى الاقتصادي فقد اتجهت قرطاج بعد هزيمتها في هيميرا نحو الداخل الإفريقي لتتوسع مستوطناتها في الساحل الإفريقي وتتحول إلى مدن.³ ويبدو أن قرطاج خلال هذه الفترة قد اتبعت سياسة تتميز بالتقشف والبحث عن موارد جديدة بدل الأرباح التي كانت تحصلها من تجارتها، وبعدها كان البونيقيون لا يعتمدون إلا على البحر، التفتوا الآن إلى البر، واقتبلوا على الزراعة والفلاحة، وهو الأمر الذي خلصهم من شبح المجاعة والفقر، كما ساهمت الرحلات التي قام بها حنون وخميلكون في إرجاع ذخائرها المعدنية التي أضرت بها هزيمتها في صقلية، وظلت قرطاج تستمر في التقشف وتستغل ذهب السينيغال وفضة إسبانيا في حشد الجنود المرتزقة وصنع السفن الحربية استعداداً للانتقام من الإغريق مرة أخرى.⁴

وقد تزامنت هذه التغيرات على المستوى السياسي والاقتصادي بتطور على الصعيد الديني، بينما كانت النصوص البونية القديمة تشير إلى إله واحد هو "بعل" أصبحت النصوص المتأخرة تشير إلى تانيت وإلى بعل حامون، ويبدو أن هذه التطورات الأخيرة جعلت القرطاجيين ينفصلون في هذه الفترة عن العالم الفينيقي الأمر الذي أدى دون شك إلى تعرضهم لأزمة ثقافية أسفرت عن استقلال قرطاج الثقافية.⁵

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 144.

² - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 77.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص 242-243.

⁴ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص 144-145.

⁵ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 77.

2- تجدد الصراع القرطاجي السيراكوزي أواخر القرن الخامس ق م.

إذا كانت قرطاج قد غيرت حكومتها بسبب خسارتها في معركة هيميرا فإن سيراكوز ظلت تكن الاحترام والتقدير والاحلال لجيلون حاكمها الذي عرفت في عصره ازدهارا وتطورا واضحا، غير أن عاشته المدن الإغريقية في بلاد اليونان من حكم ديمقراطي كان له الأثر البالغ والانعكاس المباشر على مدن صقلية، رغم قبضة الطغاة على هذه المدن. ويبدو أن تلك الحكومات الاستبدادية بخصائصها المتميزة قد حدثت بها تغييرات جوهرية في تلك المدن، وذلك خلال القرن الخامس ق.م، ووقعت الحكومات الاستبدادية ضحية لازدهار الحياة بمدنها وانفتاحها، ليتم ازاحتها من طرف فئات جديدة من تلك المجتمعات الإغريقية التي عملت هي نفسها على دعمها في البداية، وبذلك تأسست حكومات ديمقراطية في أغلب المدن اليونانية بصقلية مثل أجريجنت (Agrigente) أين استطاع الفيلسوف أمبيدوكل (Empédocle) الهيمنة على الحياة السياسية بها.¹

أما في سيراكوز فيحدثنا ديودور الصقلي عن خلع الملك تراسيبول (Thrasybule) من طرف سكان المدينة، وأقاموا بها حكومة ديمقراطية وحرروا المدن الأخرى من حكم الطغاة بحكم تأثير سيراكوز عليها،² ويرجح أن يكون ذلك قد حدث حوالي سنة 466 ق.م.³ ويبدو أن السيراكوزيين ظلوا أوفياء لجيلون طوال مدة حكمه، وكذلك طوال حكم أخيه هيرون (Hieron) الذي خلفه لكونه الأكبر من بين اخوته، ورغم أنه لم يكن يملك حنكه وحسن تدبير أخيه جيلون، وكان بخيلا وعنيفا ولا يتحلى بصفات البساطة والتواضع التي كان يتصف بها جيلون، إلا أن سكان سيراكوز لم يثوروا عليه وفاء لملكهم السابق جيلون. إلا أنه بعد وفاة هيرون تولى حكم سيراكوز أخوه تراسيبول (Thrasybule) والذي كان أكثر سوءاً في نظر السيراكوزيين من هيرون، فيصفه ديودور الصقلي بأنه كان عنيفا ودمويا، قتل الكثير من المواطنين دون وجه حق ولا محاكمات، كما قام بنفي عدد كبيراً منهم جراء اتهامات كاذبة لفقها لهم، ليصادر بعد ذلك ممتلكاتهم لصالح الخزانة الملكية. وبسبب الكره الشديد الذي صار يميز العلاقة بينه وبين مواطنيه،

¹ - M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit, P 206.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XI, LXVII-LXVIII, (67-68).

³ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 146.

اتخذ لنفسه حرسا من المرتزقة لحمايته من معارضيه، وبذلك هيا المناخ المناسب للثورة عليه، وهو ما حدث إذ اختار سكان سيراكوز قادة لهم، وثاروا عليه طلبا للحرية ورفضاً للاستبداد وحكم الطاغية.¹

ومنذ أن تأسست في سيراكوز حكومة ديمقراطية بعد تراسيول الذي سُمح له باللجوء إلى لوكريس (Locres) للعيش بها، عرفت المدينة زمنا من الحرية، هي والمدن الأخرى التي تحررت من الاستبداد وازدهرت الحياة بها لحوالي ستين (60) سنة، أي إلى غاية حكم الطاغية دونيس الأكبر (Denys l'Ancien) أي حوالي 406 ق.م.²

كان دونيس ضابطا في جيش سيراكوز الذي هزم الاثينيين،⁴ في حملتهم على المدينة خلال الحروب البيلوبونيسية 415-413 و 406 ق.م.⁵ استغل ذلك الفعل البطولي لينتخب حاكما (Stratège) على سيراكوز، وهو المنصب الذي ظل يستغله لمدة أربعين (40) سنة، ليظهر في هذه الفترة من أشهر الطغاة في بلاد اليونان. تحققت في هذه الشخصية كل صفات الطغاة اليونانيين حيث أنه خرج من الأوساط الشعبية، ومعتدا على حرسه الشخصي خلال حكمه، ليهاجم تارة الأغنياء ويصادر أملاكهم، ويحرر عبيدهم ليحولهم إلى مواطنين جدد فيكونوا مجموعات في خدمة مشروعه. استطاع تحقيق الاستقرار في مناطق حكمه وتحقيق توازنات مع أعدائه،⁶ ووصلت سيراكوز في عصره إلى ذروة قوتها واتساعها.⁷

إذا كان دونيس يعتبر من أهم الحكام السيراكوزيين الذي أسسوا حكمهم ووطدوه اعتمادا على التهديد الذي صار يشكله القرطاجيون على سكان سيراكوز بصفة خاصة وعلى الإغريق بصفة عامة، فإن الصراع بين مدينة سيراكوز والقرطاجيين بدأ وبصفة مباشرة وواضحة قبل وصول دونيس إلى السلطة بسنوات قليلة، هذه المرحلة من المواجهات التي انتهت بمعاهدة للسلام بين

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XI, LXVII (67).

² - Ibid, XI, LXVIII (68).

⁴ - M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit, P 207.

⁶ - M.C.Amouretti et F.Rusé, loc.cit.

³ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 146.

⁵ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 146.

⁷ - فوزي مكاي، المرجع السابق، ص 146.

الطرفين سنة 405 ق.م مع انتصار واضح للقرطاجيين تأروا من خلاله لكارثة هيميرا سنة 480 ق.م¹.

فبعد أن أخذ القرطاجيون في التوسع داخل الأراضي الإفريقية واهتموا بالمجال الزراعي خلال القرن الخامس ق.م، وبعد أن متتوا اتصالاتهم ومدوها خارج نطاق رقعة دولتهم، وبعد تلك الرحلات الطويلة فيما وراء أعمدة هرقل حيث أبحر هيميلكون (Himilko) بمحاذاة سواحل اسبانيا وفرنسا إلى الكورنوال (Cornwall) رغبة منهم في الحصول على مواد لم يعد بإمكانهم الحصول عليها من أوروبا عن طريق البر مثل القصدير، وذلك بعد أن قطع الإغريق كل المواصلات البرية بعد احتلالهم مرسيليا، أما حنون فقد أبحر حول إفريقيا ويحتمل أنه وصل إلى خليج غينيا (Guinée) ليضمن الحصول على السلع التجارية الثمينة من المنطقة المجاورة له، وكان ذلك يعبر عن سياسة اتبعتها قرطاج ترمي من خلالها إلى تأسيس قواعد قوية من الناحيتين الحربية والاقتصادية عندما يحدث صراع لا يمكن تجنبه ضد الإغريق.²

وبذلك كان يجب الانتظار إلى غاية نهاية القرن الخامس ق.م لشهد عودة المواجهات المسلحة في جزيرة صقلية مع حملة حنبعل بن جسيكون (Hannibal Ben Gisco). أصبحت قرطاج في تلك الفترة تحظى بشهرة المدينة الثرية،³ فهذا ثوكيديديوس يخبرنا بأن هذه المدينة كانت تحتكم على مخزون هائل من الذهب والفضة⁴ في حوالي سنة 415 ق.م.⁵ أما عن السبب المباشر الذي تدخلت من أجله قرطاج في صقلية ضد سيراكوز فيعود إلى أن مدينة سيجسته (Ségeste) حليفها كانت في صراع مستمر ضد مدينة سيلنونت (Sélinonte) التي تدعمت مكانتها أخيرا بعد انتصار حليفها سيراكوز على الاثينين.⁶

¹ - أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 78.

² - نفسه.

³ - Khaled Melliti, op.cit, P 78.

⁴ - Thucydide, op.cit, VI, P 34.

⁵ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁶ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XIII (13) 43.

وكانت قرطاج قد رفضت طلبا لسيجسته سنة 416 ق.م، كما تعودت سابقا على رفض العديد طلبات المساعدة من مدن إغريقية أخرى في صقلية. وعموما لم تكن قرطاج مهتمة بشكل كبير بالعودة لفتح جهات قتال في صقلية منذ هزيمتها في هيميرا سنة 480 ق.م، فلم تستجيب قرطاج لطلب دوكتيوس (Douketios)¹ الذي نجح في إشعال ثورة ضد تحالف سيراكوزي أجريجونتي في موتيون (motyon) سنة 453 ق.م، ولا حتى طلب تحالف مع الأثينيين سنة 416 ق م ضد سيراكوز تمكن من اقناع قرطاج بالعودة إلى التدخل في صقلية وانتهاز هذه الفرصة السياسية والعسكرية المتاحة.²

وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب تورط المدن الإغريقية في صقلية في الصراع الكبير بين أثينا وأسبرطة في بلاد اليونان، وعلى الرغم من أن حملة أثينية على صقلية كان مصيرها الفشل، إلا أن نتيجتها النهائية هذه المرة أدت إلى توريط وتدخل القرطاجيين بالجزيرة، إذ أن سيجسته وهي المدينة الصقلية الأصل، وحليفه قرطاج كانت وراء استقدام تلك الحملة الأثينية، لذلك تحولت بعد هذه الحملة إلى هدف لهجوم تأديبي من مدينة سيلينونت الإغريقية خاصة بعد اشتداد الخلاف بينهما على الحدود، ورغم أن هذا الخلاف قد تم تسويته بصفة مبدئية في مؤتمر جيلا بصقلية سنة 424 ق.م، إلا أنه تكرر بعد ذلك مرتين وفي المرة الأخيرة طلبت سيجسته العون من قرطاج بل حتى الانضمام إلى السيادة القرطاجية وذلك سنة 410 ق.م.³

لم يكن قرار التدخل القرطاجي وإرسال حملة إلى صقلية ليكون إلا بعد نقاشات طويلة في قرطاج، كما أن محاولات قرطاج الدبلوماسية في سبيل حل هذا النزاع بين سيجسته وسيلينونت وصلت إلى طلب قرطاج من سيراكوز التحكيم بين الطرفين، إلا أن رفض هذه المبادرة من طرف

¹ - اهتزت صقلية على خطر تمرد للسكان المحليين قام به السيكل دولكتيوس (Douketios)، وهو مرتزق سابق كان يطمح لإقامة دولة لشعب السيكل (Sicules) في وسط جزيرة صقلية، لذلك استيقظت روح التضامن والتكاتف بين المدن الإغريقية، وسرعان ما جمعت سيراكوز فرقها العسكرية وهزمت دولكتيوس وتم نفيه إلى مدينة كورينث في بلاد الإغريق. أصبحت صقلية منذ ذلك الحين أي منتصف القرن الخامس ق.م، هيلينية وأصبحت سيراكوز تشكل دولة قطرية مترامية الأطراف يحكمها دستور ديمقراطي يتسم بالاعتدال، وأصبح في إمكانها منافسة المد الأثيني الأخذ في التنامي في بلاد اليونان وخارجها. أنظر: M.C.Amouretti et F.Rusé, op.cit. P 207.

² - Khaled Melliti, loc.cit.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 244.

سيلينيوت وسيراكوز هو ما استفز القرطاجيين لإرسال جيشهم بقيادة حنبعل بن جكسون إلى موتيي (Motyé) سنة 410 ق.م.¹

تم تكليف حنبعل بن جيكسون بقيادة هذه الحملة حسب ديودور الصقلي تطبيقاً للقوانين السارية في تلك الفترة، لكونه كان يمارس السلطة العليا في البلاد، وهو في الحقيقة حفيد هاميلكار والذي هُزِمَ في معركة هيميرا 480 ق.م وقتل خلالها، أما والده فقد دفع ثمن هزيمة أبيه حيث تم نفيه إلى سيلينوت التي قضى بقية أيامه فيها. حنبعل الذي كان يكن كرها شديدا للإغريق أراد أن يصلح أمام شعبه صورة أسلافه من عائلة ماغون.²

تقدم حنبعل إلى صقلية بجيش يقدر بخمسة آلاف (5000) مقاتل من المرتزقة³ الليبيين ويفسر قلة العدد الذي انطلق به حنبعل بعدم الاهتمام الكبير إلى غاية تلك الفترة من طرف القرطاجيين بالحرب في صقلية، وعدم إدراجها بين أولويات الأجندة السياسية للمدينة البونيقية، إلا أن حنبعل بن جيكسون كان يعلم أنه يمكن الاعتماد على الفرق السييجستية، وكذلك على حلفائه الليميين (les Elymes)، كما أنه استطاع الاستعانة بمجموعات من المرتزقة الكمبانيين (les Campaniens) والذين قد حاربوا حديثاً مع الأثينيين الذين هُزِمُوا ضد الفرق السيراكوزية، كل هذه العوامل المساعدة كانت كافية لهذا القائد الماغوني ليرفع الضغط السيلونيتي على سييجسته، وكان يجب انتظار سنة كاملة لكي ترسل له الحكومة المركزية في قرطاج مدداً، وتقرر بذلك الاستثمار بشكل جدي وعملي في جزيرة صقلية.⁴

ويبدو أن قرطاج أدركت أخيراً أهمية المشروع الذي أقبل عليه حنبعل، وكذا أهمية الحفاظ على سييجسته حليفة لها، لأنها إن دخلت تحت السيطرة الإغريقية فستحول المستعمرات الفينيقية في صقلية إلى مجرد موطئ ق.م في غرب صقلية،⁵ كما أنها شعرت بمدى قوة سيراكوز التي استنجدت

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XIII (13), 43.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 245.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit, pp 78-79.

⁵ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 244.

بها سيلينونت حمايتها من القرطاجيين، وبذلك يمكن القول أن اقتناع قرطاج بتدخل قوى في صقلية، ودعم غير محدود حنبعل يعني بداية المواجهة المباشرة مع سيراكوز ولذلك أطلقت يد حنبعل لتجنيد الأعداد التي يحتاج إليها من إفريقيا وكذلك من اسبانيا.¹

دعم حنبعل قواته في صقلية بأعداد كبيرة من المرتزقة الإيبيرين (Iberès) والليبين، كما أن الظرف كان مناسباً ليتقبل دعم السيكل (Sicules) المتعطشين إلى الانتقام من السيلينونتيين وحصار مدينتهم سيلينونت (Sélinonte)، وقد استطاع حنبعل اقتحام المدينة والظفر بها بعد تسعة أيام طوال من الحصار المشدد على المدينة، ليعمد بعد ذلك إلى تدميرها، كما أنه توجه بعدها إلى مدينة هيميرا ودمرها بمجرد القضاء على الفيلق السيراكوزي الذي كان يحميها، ويذكر أنه قتل ثلاثة آلاف (3000) من سكانها وقدمهم قربانا لروح جده هاميلكار.²

بعد أن أنهى حنبعل مهمته هذه قام بحل جيشه وهو لا يزال في صقلية، وأرسل المقاتلين من حلفائه الصقليين كل إلى مدينته، ثم أمر الكمبانيين أيضا بالعودة إلى بلادهم رغم احتجاجهم وعدم رضاهم عن المكافأة التي أخذوها مقابل العمل الكبير الذي قاموا به معه. حمل حنبعل بعد ذلك مقاتلي بلاده سواء في المراكب الحربية الطويلة أو مراكب النقل، ولم يترك في صقلية سوى عددا من المحاربين يمكنه حماية حلفائه من المدن الإغريقية، وأبحر حنبعل بعد ذلك محملا بالغنائم إلى مدينته ليتم استقباله هنالك من طرف جميع المواطنين بترحيب وتشريف كثيرين معبرين له عن رضاهم وإعجابهم بانجازه العظيم في صقلية وفي وقت وجيز، وهو العمل الذي لم يستطع القيام به الضباط القرطاجيون الذين سبقوه.³

ويمكننا أن نستنتج أنه من خلال تسريح حنبعل لجيشه وعودته إلى قرطاج أن القرطاجيين لم يكونوا يفكرون في التوسع في صقلية على حساب المدن الإغريقية، ولو أنه من الواضح أن تلك

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XIII (13) 44.

² - Khaled Melliti, op.cit, P 79.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XVIII (18), 62.

المدن الفينيكية التي كانت تتمركز في غرب صقلية، وكذا في المناطق التي سيطر عليها القرطاجيون إنما أصبحت في الحقيقة ولاية قرطاجة في صقلية.¹

وبذلك يتوضح لنا ان مهمة حنبعل في صقلية كانت محدودة تمثلت في معاينة سيلنونت والتأسيس لوضع سياسي جديد في صقلية، ولم يكن مضطرا حتى لتوسيع المواجهة من خلال تدمير هيميرا وما تبع ذلك من أعمال قتل ونهب، وهو الأمر الذي سيفتح باب المواجهة على مصراعيه مع سيراكوز. أما على الصعيد الشخصي فقد كان ما حظي به من تشريفات رسمية في قرطاج قد سمحت لعائلته أي عائلة ماغون (les Magonides) بتقليب الصفحة السوداء التي وُسمت بها منذ كارثة هيميرا 480 ق.م، لتعزز هذه العائلة مكانتها من جديد.²

لم يدم غياب حنبعل طويلا عن صقلية نظرا لتغيير الأوضاع هناك، ذلك أن مغامرا يدعى هيرموكرات (Hermocrate) أحد أبطال سيراكوز في حربها ضد أثينا خلال الصراع الأثيني الاسبرطي، والطامح إلى حكم استبدادي بسيراكوز، جعل من المجال البونقي في صقلية سقفا لطموحه التوسعي بعد عودته إلى صقلية من بلاد اليونان، حيث كان في مهمة دعم للاسبرطين. وبعد فشل محاولته الوصول إلى السلطة في سيراكوز مع من جمعهم من الهيميرين الفارين والسيلونتين المطرودين من مدينتهم مؤخرا وبدعم من أصدقائه الفرس، توجه هيرموكرات مع بضعة آلاف من المقاتلين الذين جمعهم إلى غرب صقلية واحتل سلينونت وخرب الأرياف التابعة لسيطرة البونيين.³ وقعت هذه الأحداث في سنة 408 ق.م، ولم يبق القرطاجيون دون حركة لقاء هذه التجاوزات التي قام هيرموكرات ولم تتبناها سيراكوز، لذلك تسرعوا في التحضير لتحركهم نحو صقلية، وقد سبقت هذه التحضيرات وصول مندوبين من سيراكوز إلى عاصمة البونقيين في إفريقيا ليطلبوا عدم شن الحرب التي تنوي قرطاج القيام بها في صقلية، إلا أنه وبالرغم من موت هيرموكرات سنة 407 ق.م خلال محاولته الثانية للاستيلاء على السلطة سيراكوز، لم تغير قرطاج قرارها المتعلق

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 245.

² - Khaled Melliti, loc.cit.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XIX (19), 63.

بإرسال حملة عسكرية إلى صقلية هدفها رفع الضغط السيراكوزي على مناطق غرب صقلية المنضوية تحت نفوذ قرطاج، اما قائد الحملة هذه المرة فكان حنبعل بن جيكسون وكان محل إجماع في العاصمة القرطاجية دون أي عناء، وهذا ما يفسر ضخامة الجيش الذي أعده للحملة والذي قدره بنوع من المبالغة ديودور الصقلي بمائة وعشرون ألف (120000) مقاتل مكون من أفارقة، إيبيرين، إيطاليين (كمبانيين)، وكان حلفاء المور (les Moures) والنوميدي (les Numides) هم كذلك ضمن هذه الحملة.¹

3- الصراع المباشر بين قرطاج وسيراكوز في صقلية

أدرك القرطاجيون من خلال القوة العسكرية التي أصبحوا يمتلكونها والتي عكستها النجاحات الأخيرة لحنبعل بن جيكسون في جزيرة صقلية، أنه بإمكانهم ان يصبحوا سادة الجزيرة وهو الهدف الحقيقي الذي سيحركون من خلاله قواتهم بقيادة حنبعل، إلا أن هذا الأخير يرجح أنه أصبح في سن لا تسمح له بقيادة هذه الحملة بمفرده، لذلك تم تعيين ضابط برتبة عالية لمساعدته وهو هاميلكار (Himilcar) او هميلكون (Imilcon) بن حنون (Hannon) من عائلته، عائلة ماغون وبعد ان عرض القائدان مشروعهما في مجلس شيوخ المدينة البونية، تم تعيين مجموعة من القرطاجيين من ذوي الشأن في المدينة لإرسالهم، مزودين بمبالغ مالية معتبرة، للذهاب إلى إسبانيا (Espagne) وجزر البليار (iles Baléares) لجلب أكبر عدد من الجنود المرتزقة وكذلك لتجنيد أعداد كبيرة من الليبيين سواء في ليبيا أو حتى في قرطاجية ومن القرطاجيين أنفسهم، كما أرسلوا إلى حلفائهم ملوك موريطانيا (Mourtanie) ونوميديا.²

وعلى الصعيد الدبلوماسي أبرمت قرطاج معاهدة مع أثينا بين سنتي 407 و 406 ق.م، تسمح هذه المعاهدة لأثينا بتجنب نجدات سيراكوزية نحو أسبرطة، كما تسمح لقرطاج بتجنب نجدات أسبرطية نحو سيراكوز، وبطريقة عملية سمحت هذه المعاهدة بحيادية المدن البونية في صقلية مثل كاتان (Catane) وناكسون (Naxos)، وفي سنة 406 ق.م جمعت قرطاج جيشها بالعاصمة

¹ - Khaled Melliti, op.cit, PP 79-80.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XXIV (24), 80.

البونية وتم نقله بأسطول ضخم. بدأت قرطاج عملياتها الحربية بجزء من الجيش، كتيبة مؤلفه من أربعين (40) مركبا يقودها هميلكون بن حنون، والتي تعرضت لهزيمة في منطقة إيريكس (Eryx) البحرية من طرف الأسطول السيراكوزي، ولولا تدخل حنبعل بن حنون بقواته لإنقاذ الموقف لكانت الكارثة بالنسبة لجيشه هميلكون، وتم بذلك حرمان الإغريق من الاستثمار في هذا النصر الجزئي. توجهت بعد ذلك الفرق البونية إلى أرض صقلية وتحديدًا إلى مدينة أجريجونت (Agrigente) للتأكد على الأقل من حياديتها، وفي الحقيقة لم يكن حنبعل ليترك مدينة مثل أجريجونت في متناول السيراكوزيين، ولا للدخول في حلفهم خاصة وهو يضع نصب عينيه سيراكوز كهدف لحملة، بالإضافة إلى أن موقع مدينة أجريجونت يمكن أن يكون عائقًا أمامه في الاتصال بقواعده في غرب صقلية.¹

كان خبر وصول حنبعل إلى صقلية بقواته مفرعًا بالنسبة لجميع المدن الإغريقية خاصة مع اعتقادهم أن قائده جلب معه كل ما تملكه قرطاج من قوات، أما السيراكوزيين فقد أرسلوا مندوبين عنهم إلى إغريق إيطاليا وإلى الأسيرطيين ليطالبوا منهم الانضمام إليهم في هذه الحرب، لأن الأمر حسبهم يتعلق بأمن جميع الإغريق في صقلية، وفي المنطقة بشكل عام، أما سكان أجريجونت الذين أدركوا أن بداية العاصفة ستكون عندهم فبدأوا بجمع القمح من مزارعهم وكذا جميع المنتوجات الزراعية التي يمكن أن تشكل مؤنًا بالنسبة إليهم، وكما جلبوا كميات كبيرة من الثمار من الإرياف التي تتبع مدينتهم.²

ويصف ديودور الصقلي هذه المدينة وتلك الأراضي التي تتربع عليها أجريجونت بأنها من أجمل المناطق السكنية، وأن سكانها من أسعد الناس بأرضهم لجمالها في العالم، أما أشجار الكروم بها فكانت بجمال وعلو رائعين، ولكن الجزء الكبير في البلاد كان مغطى بأشجار الزيتون والذي كان يستخرج منه كميات هائلة من الزيت، والذي كان سكان أجريجونت يبيعونه في قرطاج، لأنه

¹ - Khaled Melliti, op.cit, P 80.

²- Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XXIV (24), 81.

في ذلك الوقت لم تكن الزراعة مزدهرة في ليبيا، وهو الأمر الذي حقق من خلاله الصقليون ثروات معتبرة حصلوها من قرطاج انطلاقاً من الزراعة والتجارة في بيع متوجاتهم.¹

رفضت أجريجونت صداقة وحلف البونيين، الأمر الذي دفع حنبعل إلى ضرب الحصار عليها، وقد تأخر الحصار بسبب المقاومة المتعنتة لسكان المدينة الذين كانوا مدعومين بألف وخمسمائة (1500) من المرتزقة الأجانب، وتحت إدارة صاحب الخبرة العسكرية الاسبرطي ديكسيب (Dexippe). استطاع المحاصرون مواجهة الحصار والتقليل من فعاليته، قبل أن ينتشر الوباء القاتل بين صفوف أفراد الجيش البونيقي. لم يستطع قائد الجيش حنبعل مقاومة الطاعون، وقضى في تلك الأيام بعد أن إصابته العدوى، وكانت بذلك النهاية الحزينة لهذا القائد القرطاجي الكبير، والذي استطاع من خلال هذه العملية على الأقل تأسيس بعض السلطات البونية في صقلية، ومن المنطقي أن يكون خليفة حنبعل على رأس الجيش القرطاجي في هذه الظروف ابن عمه هملكون ابن حنون.²

علم السيراكوزيون بوصول أعدائهم القرطاجيون إلى مشارف أجريجونت، وتخوفوا من أن يكون مصير المدينة كمصير سيلينونت وهيميرا، وبما أنهم كانوا قد بدأوا في التحضير منذ مدة لمساعدة أجريجونت، أرسلوا في طلب نجدة من حلفائهم الإغريق الإيطاليين، وعينوا على رأس القوات المتوجهة إلى أجريجونت القائد دافني (Daphnée)، وفي طريقهم إلى وجهتهم التحقوا بهم مقاتلون من كمارين (Camarine) ومن جيلا (Géla)، كما استقدموا كذلك جنوداً آخرين من وسط الجزيرة، وسارت القوات برا حتى وصلت مشارف أجريجونت. وكانت قوات بحرية تتبع لهم مشكلة من حوالي ثلاثين (30) مركباً. كانت قواتهم البرية قد وصلت إلى ثلاثين ألفاً (30000) من المشاة وعدد من الفرسان لا يقل عن خمسة آلاف (5000).³

¹ - Diodore de Sicile, loc.cit.

² - Khaled Melliti, op.cit, P 80.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XXIV (24), 86-87.

وحين علم هيملكون يتحرك هذه القوات الإغريقية أرسل إليها قوة من الأسبان والكمبانيين، ومقاتلين آخرين وصل عددهم جميعا إلى أربعين ألفا (40000) من المحاربين، كان السيراكوزيون قد تجاوزوا نهر هيميرا حين ظهرت لهم القوات التي أرسلها هيملكون، ويبدو أن القوتين سرعان ما اشتبكتا في المعركة التي استغرقت وقتلا طويلا كان النصر فيها لصالح السيراكوزيين الذين قتلوا من أعدائهم أكثر من ستة آلاف (6000)، رجل وأحدثوا تخلصا في صفوف القوات القرطاجية التي فقدت نظامها وتراجعت إلى هيميرا. لم يشأ القائد الإغريقي المنتصر دافني المغامرة من خلال ملاحقة القرطاجيين لكونه لاحظ أن فرقه قد انفصلت عن بعضها البعض ومخافة أن يفاجأه هيملكون ويستغل هذه الفرقة ويخطف نصرا سهلا لصالحه.¹

لجأت القوات القرطاجية المهزومة أخيرا إلى المعسكر الرئيسي لجيشهم بالقرب من أجريجونت، ولم يتأخر قائد السيراكوزيين دافني في محاصرة معسكر القرطاجيين وشد الحراسة على الطرق التي يمكن أن يتزود منها القرطاجيون بالمؤن والأعلاف لدوابهم. كاد الجيش القرطاجي أن تفتك بإفراده المجاعة وعانى قائده من تضجر وإمكانية تمرد فرق المرتزقة التي كانت تعمل تحت إمرته، ولولا الحظ الذي ساق إليهم أنباء عن شحنه من القمح، كانت سيراكوزا قد أرسلتها إلى جيشها بجرأ، لهلك هو وجيشه أو استسلم لأعدائه.²

أرسل هيملكون قوة للاستيلاء على مراكب القمح بعد القضاء على مراكب الحراسة التي كانت ترافقها، والتي كان عددها عشرين مركبا. غيّر هذا العمل المفاجئ من قبل البونيين مجرى الأحداث وانقلب الحال، إذ أصبحت مدينة أجريجونت وحماتها السيراكوزيين هم من يعانون من العوز في الطعام والمؤن وبذلك صار من الضروري على فرق ديسكيب (Dexippe) ودافني التراجع والانسحاب، أي ترك المدينة واخلائها قبل نهاية سنة 406 ق.م، بعد حوالي ثمانية (08)

¹ - Diodore de Sicile, loc.cit.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 81

أشهر من بداية الحصار عليها، وقد تبع خروج الجيش منها خروج عدد كبير من سكانها الذين نزحوا واستقروا في مدينة ليونتيوم (Leontium).¹

تحدث ديودور الصقلي عن نهب للمعابد والمنازل الخاصة، ويبدو أن القائد القرطاجي قد حاز على ثروات هائلة تفوق ما كان متوقعا من مدينة يبلغ عدد سكانها في ذلك الزمن مائتي ألف (200000) ساكن، والتي لم تخضع لأي غزو منذ تأسيسها، لتصبح من أفخم المدن الإغريقية بجزيرة صقلية على الإطلاق، وقد اشتهر سكانها بحرصهم على النظافة وذوقهم الراقي في تأثيث بيوتهم التي وجدت بها تماثيل بمختلف الأحجام غاية في الروعة، ولوحات فنية كانت تعتبر قمة في الذوق الفني. وقد أرسل هيملكون إلى قرطاج كل تلك الغنائم والمقتنيات الرائعة والتي كان من بينها ثور فالاريس (Taureau de Phalaris)² والذي كان في الحقيقة لا يقدر بثمن.³

II- حرب البونيين ضد دونيس السيراكوزي

1- سياسة دونيس تجاه إغريق صقلية

تسببت الأحداث الأخيرة التي وقعت بأجريجونت في أزمة سياسية في سيراكوز، وانتهت بوصول الشاب دونيس (Denys) بن هيرموكرات إلى السلطة، هو ابن المغامر والقائد العسكري هيرموكرات الذي سبق الحديث عنه. استطاع دونيس النجاح في مسعاه بفضل ضغط شعبي ساهم في تقويض سلطة الجنرالات الذين كانوا مسؤولين عن مسرحية أجريجونت حبسه. ومن خلال خطاب ديماغوجي متقن استطاع شيئا فشيئا الظفر بسلطة سياسية مطلقة، وقد بدأ مشواره السياسي بإحداث تغييرات جذرية عسكرية، متحججا بذلك التهديد الذي سببه التدخل القرطاجي على الشعوب الإغريقية في صقلية وخاصة في سيراكوز، ثم ركز بعد ذلك على عودة

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - ثور فالاريس هو ثور برونزي صنعه شخص يدعى بيريلوس (Périlaos) لسيده فالاريس (Phalaris) في القرن السادس ق.م، هذا الطاغية الذي اشتهر بدمويته في أجريجونت، والذي كان يستعمل هذا الثور لطيحي ضحاياه داخله، ولطالما ربطت الدراسات الأدبية الكلاسيكية التي تبعثها دراسات تاريخية معاصرة بين هذا الثور البرونزي والعبادات البونية المتمثلة في عبادة بعل حمون (Ba'al Hommon)، والتضحية بالأطفال التي كانت مرتبطة بعبادته أنظر : Khaled Melliti, loc.cit.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII , XXIV, 90.

المنفيين ليؤسس دكتاتورية، واستطاع الحفاظ عليها بالتهديد والإغراء. هذا التطور الأخير الذي وقع في سيراكوز سيغير بصفة جذرية العلاقات مع قرطاج، تلك العلاقات التي لم تكن علاقات صداقة ولم تكن تحظى بملامح العلاقات الدبلوماسية. وقد عمل طغاة سيراكوز عبر تاريخهم على المبالغة في تهديد البرابرة البونيين، وذلك من أجل المحافظة على سلطتهم، ومن هناك كانت الحروب تندلع بين الطرفين بشكل منتظم ومتكرر مع زيادة العنف التي اتصفت به تلك المواجهات المباشرة بين المدينتين خلال القرن الرابع ق.م.¹

في إطار مد نفوذه، وفي خضم الترحيب الذي صار دونيس يحظى به في صقلية، تلقى رسائل من مدينة جيلا (Géla) يطلب فيها سكانها منه نجدة وسنداً قَوِيَّين. لم يفوت دونيس هذه الفرصة لتحقيق وتجسيد أهدافه، وتوجه إلى المدينة مرفوقاً بألفين (2000) من المشاة وأربع مئة (400) من الفرسان، كانت المدينة محمية من طرف ديكسيب (Dexippe) الأسبرطي، مكلفاً بذلك من طرف حكومة سيراكوز السابقة. حين وصل دونيس مدينة جيلا، وجد خلافاً عميقاً بين الشعب وأثرياء المدينة وأعضاء مجلسها البارزين، وإرضاء لشعب جيلا قام دونيس بقتل أولئك الأثرياء ومصادرة أملاكهم وعرضها للبيع في المزاد العلني، ومن خلال الأموال التي حصلها من المزاد، قام بتسديد رواتب جند ديكسيب والجنود الذين كانوا قد قدموا من سيراكوز حسب اتفاق سابق معهم، وكسب بذلك ولاء جنود جيلا وكذلك جنود سيراكوز في آن واحد.²

كما اكتسب ود واحترام شعب جيلا الذين صاروا يرون فيه رمزا لحريتهم خاصة وأنهم كانوا يعتقدون أن علو شأنهم وتفوقهم لطالما كان مرتبطاً بالاستبداد وحكم الطغاة. ترجى سكان جيلا دونيس للبقاء في مدينتهم بعد أن علموا أن القرطاجيين عازمون على مهاجمة مدينتهم بقوات كبيرة، إلا أنه غادر المدينة ووعدهم بالعودة مع قوات أكبر من سيراكوز حين يأتي القرطاجيون لحصارهم.³

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 81-82.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XXV (25), 93.

³ - Ibid.

بعد أن أخذ القرطاجيون مدينة أجريجونت ونقلوا غنائمها إلى بلادهم، نقلوا قواتهم إلى معسكراتهم الشتوية، واستغلوا ذلك الوقت في تحضير آلاتهم الحربية وأسلحتهم التي سيحتاجونها في أعمالهم العسكرية القادمة مع حلول فصل الربيع، خاصة وأن هدفهم القادم كان محددًا وهو حصار مدينة جيلا.¹

تحرك هيملكون بجيشه نحو كل من جيلا (Géla) وكامارين (Camarine) ومشط المناطق المحيطة بهما، ليجمع كل ما يمكن أن يكون موردا لجيشه في هذه الحملة وبعدها ثبت معسكره بالقرب من مدينة جيلا وتحديدًا تحت أسوار المدينة، على طول النهر الذي يحمل اسمها. قام القرطاجيون بقطع أشجار الغابات المجاورة لتحسين معسكرهم بتلك السواتر الخشبية لأنهم كانوا يتوقعون قدوم دونيس السيراكوزي بقوات كبيرة. أما سكان المدينة فقد اتحدوا نساء ورجالًا وأطفالًا وتجمعوا للدفاع عن مدينتهم، وبالفعل فقد تصدوا لهجمات القرطاجيين بكل شجاعة وكأنهم لا ينتظرون عونًا من خارج المدينة.²

كان تحطيم أجريجونت وحصار جيلا من قبل هيملكون فرصة أمام دونيس من أجل إثبات نفسه وفرض مكانته على إغريق صقليه، لذلك تحرك من سيراكوز مدعوما بفرق من إغريق إيطاليا، وآخرين أجانب، وبمجموع غفيرة تجمععت له سار إلى جيلا وقاد هجومًا على القرطاجيين، غير أنه مُنيّ بهزيمة، وفشل في الانتصار على جيش هيملكون، وانتهى دونيس ومن معه محاصرا داخل أسوار المدينة، ليكون مصير مدينة جيلا كمصير أجريجونت عن طريق تسوية تُخلى بموجبها المدينة للقرطاجيين، وكذلك كان مصير مدينة كرمانيا أو كامارين. كانت تلك الخسارة وذلك الإخفاق مصيريا بالنسبة لدونيس والليدان ترتب عنهما مواجهة تمرد لفرسانه في سيراكوز، وهم الذين حاولوا خلعه من سدة الحكم.³

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XIII, XXV (25), 96.

² - Ibid, XIII, XXVIII (28), 108.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 82.

ولسوء الحظ لم تكن لهيملكون الفرصة في المشاركة في هذه الأحداث، وما أن استطاع دونيس السيطرة على الأمور في سيراكوز من جديد حتى انتشر الطاعون بين أفراد الجيش القرطاجي مرة أخرى، ليؤدي بحوالي نصف عديده من الجنود، هذا الجيش الذي كان قائده ينوي من خلاله، وكمرحلة قادمة ضرب الحصار على مدينة سيراكوز نفسها، ونظرا لحالة الإعياء التي وصل إليها الطرفان، وقع هيملكون بن حنون ودونيس السيراكوزي معاهدة سلام سنة 405 ق.م ثبت فيها القرطاجيون تقدمهم الذي حققوه في صقلية الغربية، والتي تعني سيطرتهم على مدن أجرينونت سيلينونت، تيرماي (Thermai)، والتي صارت قرطاج من خلالها تمارس تأثيرا واضحا ضد تأثير سيراكوز. وقد أسست بذلك معاهدة سنة 405 ق.م إطارا جيوسياسيا شكل أرضية مناسبة للعديد من المعارك والحروب التي اندلعت على طول القرن الرابع ق.م، وبضراوة لم تحدث من قبل.¹

يتحدث ديودور الصقلي أن سكان مدينة ريجيوم (Rhégum) وهي مستوطنة خالكيدية (Chalcidienne) تقع إلى الجنوب من شبه جزيرة إيطاليا بالقرب من المضيق الفاصل بينها وبين جزيرة صقلية، لاحظوا تعاظم قوة دونيس وتوجسوا خيفة من سوء نواياه نحوهم خاصة بعد أن استولى على مدن ناكسوس (Naxos)، كاتان (Catane) وليونيتيوم (Léontum) وهي جميعها مستوطنات خالكيدية مثل ريجيوم، لذلك قرروا السير نحو سيراكوز والقضاء على سلطة هذا الطاغية بالتعاون مع المنفيين السيراكوزيين الذين كانوا يعيشون لاجئين في ريجيوم، وبعد اجتيازهم للمضيق حاولوا التأثير على حكام مدينة ميسينيا (Mésine) على الجهة الأخرى من المضيق.²

وقد قبل قادة الجيش في ميسينيا مشروع الريحبوميين وساروا معهم بجنودهم نحو سيراكوز دون استشارة الشعب في هذه المدينة، إلا أنه قبل اجتيازهم حدود ميسينيا تمرد الجند الميسينيين على قادتهم بدعوة أحد الخطباء فيهم يدعى لاوميدون (Laomedon) الذي حثهم على العودة لأن دونيس لم يعمل على إيذاء مدينتهم ولا سكانها وأنهم لم يروا منه شرا، وبعودة الجنود الميسينيين

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, XL (40).

أدرك مقاتلوا ريجيوم وحلفائهم السيراكوزيين صعوبة مواصلة هذا المشروع بمفردهم لعدم قدرتهم على ذلك فعاد الجميع أدراجه.¹

ويواصل ديودور الصقلي بأن دونيس قاد جيشه في هذا الشأن إلى غاية حدود سيراكوز واستعد لملاقاة أعدائه، إلا أنه حين علم برحيله أعاد جيشه إلى المدينة. و يبدو أن مدينتي ريجيوم وميسينا قد أرسلتا له أعضاء من مجالسهم طالبين منه الكف عن أعماله العدائية نحو المدن الإغريقية، والملاحظ أن دونيس أدرك أنه لا بد من الكف في هذه المرحلة عن هذه الأعمال وتوصل معهم إلى عقد معاهدة سلام بينهم.² وإذا كان دونيس قد غرض الطرف عن تمرد ريجيوم وميسينا وتآمرهم عليه، فإنه لم يغض الطرف عن ذلك التواجد البوني في غرب صقلية، وهيمنة القرطاجيين على العديد من المدن الإغريقية هناك، خاصة وأنه كان يستمد القوة لحكمة من العداء ضد القرطاجيين، ومن خلال هذا العداء كان يحكم قبضته على سيراكوز وعلى المدن التي استولى عليها.³

ومن أجل تحصين نفسه وسلطته شرع دونيس في إعادة تهيئة مدينته حيث أمر ببناء قلعة ضخمة على جزيرة أورتيجي (Ortygie) القريبة، وبناء حصن على منطقة الإيببول (Epipole) بطريقة تمكنه من الإحاطة الأمنية بالمدينة وقمع أي تمرد داخلي، وكذا الدفاع عن المدينة من أي هجوم خارجي، بل ومهاجمة أعدائه من خلال هذه التحصينات. ومن جهة أخرى عمل دونيس على جلب عدد كبير من المرتزقة وزاد من كمية الأسلحة في المدينة من خلال صنع كميات كبيرة منها، كما عمل مع زيادة عدد المقاتلين في جيشه، وفي هذه الفترة من تاريخ سيراكوز، لا يتردد ديودور الصقلي في الإشارة إلى ظهور سلاح المنجنيق (La catapulte) (أنظر الملحق 8 صور) وكذا المراكب خماسية صفوف المجاديف (La Quinquérème).⁴

¹ - Diodore de Sicile, loc.cit.

² - Ibid.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p83.

⁴ - Ibid.

لاحظ دونيس أن الكثير من الإغريق في صقلية قد هرعوا للاستقرار في المدن الخاضعة لسيطرة القرطاجيين وقد تحصلوا فيها على حق المواطنة وحقوق الملكية واعتقد دونيس أنه كلما طال السلم بين سيراكوز وقرطاج فإن أعدادا أخرى من الإغريق سيهاجرون إلى مناطق البونية، أما إذا عادت الحرب فإن أولئك الإغريق المهاجرين سيتحولون إلى عبيد عند القرطاجيين وسيتمردون عليهم ليعودوا إلى جانبه. ومن جهة أخرى علم دونيس أن وباء الطاعون قد أودى بحياة الكثيرين من القرطاجيين في ليبيا، لذلك قَدَّرَ الطاغية أن الوقت قد أصبح مناسباً لإعادة إشعال الحرب مرة أخرى، ولم يكن يخفي أن هذه الحرب يجب تكون حرباً حقيقية وطويلة الأمد لأنه بصدد مواجهة وَاحِدَةٍ من الأمم القوية في المنطقة.¹

عمل دونيس في هذه الفترة على تحسين علاقاته وتمتينها مع حكومة وسكان ريحيوم في جنوب إيطاليا، وهي التي تعتبر أُمًّا لتلك المدن التي قام بإخضاعها مؤخراً، وكذلك مع الميسينيين (Les Messénies) الذين كان لهم ثقل يمكن أن يغير موازين القوى في حرب في الجزيرة. كل هذه الحركة وتلك التحضيرات لا يبدو أنها أقلقَت قرطاج التي لم تحرك ساكناً في سبيل عرقلتها، بل أن دونيس هو من أخذ زمام المبادرة هذه المرة بمجرد أن استطاع تجميع جيش تم تحضيره وتدريبه بتفانٍ، مدعماً بأعداد من المرتزقة الأسبرطيين، وبمساعدة أسطول كبير حضره لهذه المهمة، وقرر دونيس إعلان الحرب بين سنتي 398 و397 ق.م، وقد ذهب الطاغية السيراكوزي هذه المرة إلى رفع شعار حرية الإغريق لإعطاء الشرعية لهذا العمل، وإقناع الشعب في سيراكوز بضرورة وحتمية هذه الحرب.²

2- دونيس يعلن الحرب على القرطاجيين - الاستيلاء على موتبي -

مرر دونيس مشروع الحرب ضد القرطاجيين على مجلس الشيوخ السيراكوزي، ويتحدث ديودور الصقلي عن إصرار دونيس من خلال الخطاب الذي ألقاه هنالك على تمرير هذا المشروع بعد أن استعد له أتم الاستعداد، أما أعضاء المجلس فقد خشوا إن رفضوا أن يجبرهم دونيس على

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, XLI (41).

² - Khaled Melliti, loc.cit.

الموافقة وهو المعروف بدمويته وعنفه، كما أنهم رأوا في هذه الحرب فرصة للتسلح وحيازة السلاح بغرض المشاركة فيها، إلا أنهم بذلك سيكونون مستعدين للثورة عليه عند أول فرصة تتاح لهم. ويضيف ديودور الصقلي أنه مع خروجه من هذا الاجتماع سمح دونيس للسيراكوزيين بنهب الممتلكات القرطاجية في سيراكوز خاصة تلك التي يبدو عليها الثراء، فالكثير من التجار القرطاجيين كانت مراكبهم محملة بالبضائع على ميناء سيراكوز وقد تمت مصادرتها جميعا من طرف السيراكوزيين¹.

وقد حذا الإغريق الصقليين حذو أهل سيراكوز من خلال طرد من عندهم من القرطاجيين وأخذوا ممتلكاتهم، ورغم كره الإغريق للحكم الاستبدادي لدونيس إلا أنهم ساندوه في هذه الحرب، وأخذوا جانبه إذا أنهم في نفس الوقت كانوا يمتقنون أفعال القرطاجيين الفظيعة. أما تلك المدن الإغريقية التي كانت تحت هيمنة القرطاجيين فقد انفجر فيها الكره للجنس البوني بمجرد علمهم بإعلان الحرب، فسكان هذه المدن لم يكتفوا بمصادرة أملاك الفينيقيين بل نالوا حتى من شخوصهم مستذكرين بذلك الطريقة العنيفة التي تعامل بها معهم القرطاجيون حين اخذوا مدتهم. وبعد أن أنهى دونيس جميع التحضيرات أرسل مندوبيين عنه إلى قرطاجة يبلغهم من خلالها أن السيركوزيين سيعلمون حربا عليهم إذ لم يمنحوا الحرية للمدن الإغريقية التي تخضع لسيطرتهم².

قررت قرطاج التي لم تكن مستعدة لهذه الحرب جلب المرتزقة من أوروبا كخطوة أولى نحو الحشد لها، وفي تلك الأثناء ظفر دونيس بمنطقة إريكس (Eryx) ليتوجه بعدها بجيشه نحو مدينة موتبي (Motyé) الفينيقية، وجيش قوامه ثمانين ألف (80000) مقاتل بدأ مباشرة في حصار هذه المدينة، كانت موتبي تقع على جزيرة تبعد حوالي كيلو متر واحد على الساحل الصقلي، وهي ترتبط به من خلال طريق ضيقة، وبهذه الوضعية كانت تمتلك كل خصائص المدينة البونية: المرفأ بشكله البوني، ومساحة من الأرض تسمى الساحة المقدسة بها نصب تذكاري، وبما أنها كانت المركز الأساسي للتأثير البوني في صقلية فإن المدينة كانت الهدف الرئيسي في حملة دونيس، وثقة

¹- Diodore de Sicile, op.cit, XIV, XLVI (46).

²- Ibid.

منه في نجاح هذه المرحلة الأولى أوكل دونيس مهمة حصار موتيي البحري أي عن طريق الأسطول إلى شقيقه لبتين (Leptine)، أما دونيس وبالتعاون مع شعب السيكان (Les Sicanians) فقد كثف مجهوداته ووجهها نحو المدن الصقلية الحليفة لقرطاج مثل سولونت (Solonte)، بانورمس (Panormos) أو (Palerme)، أونتيلا (Entella) وسيجسته (Segeste) وهي المدن التي تم تخريبها ونهبها.¹

أشرف هيملكون القائد القرطاجي بنفسه على استعداد وتحضير الفرق العسكرية، وفي هذا الإطار كُلف قائد الأسطول بأخذ عشرة مراكب ثلاثية صفوف المجاديف والتوجه بها إلى سيراكوز بأقصى سرعة، ومن ثم التسلل ليلا إلى مينائها من أجل تحطيم كل السفن الراسية هناك، كان هيمليكون يهدف من خلال هذه الحركة إلى تحويل انتباه دونيس إلى سيراكوز، وإرسال جزء من أسطوله إلى مدينته. نفذ قائد الأسطول القرطاجي المهمة بنجاح حيث انتهت بتحطيم السفن الراسية في ميناء سيراكوز ليلا، ثم عاد من فوره إلى قرطاج. في تلك الأثناء كان دونيس يخرب الأراضي التي كان يستغلها القرطاجيون بالقرب من مدينتهم ويدفع بسكان مدنها داخل الأسوار خوفا من لقاء جيشه، ثم جمع كل قطع جيشه بالقرب من موتيي معتقدا أن كل المدن القرطاجية ستستسلم آليا إذا تمكن من أخذ هذه المدينة، ولذلك جند عددا كبيرا من العمال لإصلاح الطريق الرابط بين موتيي والبحر، والذي كان سكان المدينة قد خربوه قبل مجئ دونيس، وبعد ذلك تقدم بآلاته الحربية نحو أسوار المدينة كلما تم إصلاح جزء من ذلك الطريق.²

قرر هيمليكون بعد ذلك إعادة مهاجمة القوات البحرية المعادية القائمة بالقرب من موتيي، ولهذا الغرض تم تجهيز مائة (100) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trirèmes)، ومن ثم إرسالها باتجاه موتيي بمحاذاة الساحل الصقلي. تعرضت السفن السيراكوزية للحرق والتحطم الكلي، أما تلك السفن التي نجت من هذا المصير فقد تم سحبها من طرف جنود دونيس. وفي حقيقة الأمر لم ينجح الأسطول السيراكوزي من التحطم الكلي إلا بفضل المفعول الحاسم لآلات المنجنيق التي

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 83-84.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, XLIX (49).

أحدثت خسائر فادحة مادية ونفسية مع مستوى الأسطول القرطاجي. كان النجاح البوني في هذه الحادثة جزئياً أما سقوط مدينة موتيي بعد ذلك فلم يعد سوى مسألة وقت، فتلك الحصون المتحركة التي صنعها دونيس كانت فعالة في اختراق جدار الصد الأول، فقد سمحت باحتلال المباني العالية ذات الطوابق المتعددة التي تتميز بها مدينة موتيي. وحين تمكن السيراكوزيون من دخول المدينة، بدأوا بقتل سكانها وتم إعدام كل الإغريق الذين شاركوا في الدفاع عن المدينة، أما الذين نجوا من القتل من أهل المدينة فقد تحولوا إلى عبيد، ليتم بيعهم بعد ذلك، أما المدينة فقد سُحِبَ بنهبها وتخریبها.¹ (أنظر الملاحق 18-19-20-21 صور)

أسفرت عمليات السلب والنهب التي تعرضت لها منازل السكان وغيرها من المباني عن كميات كبيرة من الأموال والذهب والملابس الفاخرة والأشياء الثمينة. أمر دونيس جنوده بإيقاف هذه العمليات بغرض إعادتهم إلى النظام والتحسب لأخطار الحرب، وكافأ بعد ذلك جنوده الشجعان وعاقب من حاول التآمر عليه مع القرطاجيين. وبعد هذا الانتصار وضع دونيس فيلقاً لتأمين المدينة بقيادة بيتون (Biton) السيراكوزي. كان الجزء الكبير من هذا الفيلق يتكون من السيكلول (les Sicules)، كما ترك على الأسطول البحري شقيقه لبين (Leptine) مع عدد من المراكب الحربية يصل إلى مئة وعشرين (120) مركباً لمراقبة حركة القرطاجيين، كما أمره بحصار سيجسته وانتيللا (Entella) واللذان كان دونيس ينوي منذ مدة تحطيمهما، وبما أن فصل الصيف أوشك على نهايته أعاد دونيس جيشه إلى سيراكوز.²

3- حصار سيجسته وحشد القرطاجيين لحرب سيراكوز

جهز دونيس حملة وأعاد الكرة سنة 396 ق.م، وركز هذه المرة على حصار مدينة سيجسته التي يبدو أنها كانت تسبب له الكثير من المشاكل. أما هيملكون بن حنون الذي صار يحظى بسلطات واسعة، فقام بتجميع جيش كثير العدد قُدِّرَ عدد أفرادهِ بمائة ألف (100000) محارب مشكلٍ من المرتزقة القادمين من إيبيريا (Ibérie) وإفريقيا وكذلك من صقليه، كما جهز

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 84.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, LIII (53).

هذه المرة أسطولا ضخما به عدد كبير من المراكب الحربية ومراكب النقل¹ قدر ديودور الصقلي عددها بأربع مائة (400) سفينة طويلة، أما المؤرخ إيفوروس (Ephore) فذهب إلى أنها كانت مرفوقة بعدد من ستمائة (600) مركب نقل محملة بالمؤن وبآلات الحرب.²

ثم توجه الأسطول القرطاجي نحو بانورموس (Panormos)، إلا أنه حين اقترب من جزيرة صقلية تمت مهاجمة السفن التي كانت متقدمة والمخصصة للنقل من طرف أسطول صغير إغريقي بقيادة لبتين (Leptine) أحد كبار ضباط دونيس، وإثر هذه العملية تم إغراق حوالي (50) مركبا يونانيا بها خمسة آلاف (5000)، أما بقية مراكب الأسطول فقد نجحت في الوصول إلى بانورموس. وفي الوقت الذي أصبحت فيه السفن اليونانية تراقب سواحل صقلية، تمكن هيميلكون من الظفر بمدينة إيريكيس (Eryx) ليضرب بعدها الحصار على موتي (Motyé). كان دونيس حينها منشغلا بحصار سيجسته (Ségeste) ونتيجة لهذه الأحداث الأخيرة قام بتراجع تكتيكي نحو مدينة سيراكوز، لتراتح ناحية صقلية الغربية من خطر تواجهه بها، أما هيميلكون بن حنون فقد فضل أن تكون هذه المرة، الناحية الشرقية لصقلية مسرحا لعملياته الحربية. فبعد أن ظفر بمدينة موتي غادرها وأسس المركز البوني الجديد للجزيرة في مدينة ليلي (Lilybée) ومنها بدأ حملته المتجهة من غرب الجزيرة نحو شرقها، معتمدا هذه المرة على حركة استراتيجية متميزة هدفها القضاء على مركز القوات السيراكوزية.³

بعد نجاح المرحلة الأولى من حملة هيميلكون في غرب صقلية استعد للسير نحو مدينة ميسينا (Messine) بهدف السيطرة على المضيق المحاذي لهذه المدينة، ويتحكم من خلالها في إمدادات أعدائه القادمة من إيطاليا ومن شبه جزيرة البيلوبونيز، أما ميناء هذه المدينة فكان ذا موقع رائع لاستقبال الأسطول القرطاجي الذي يتجاوز عدد سفنه الستمائة (600). وبعد أن عزم على تنفيذ مخططه هذا، عقد صلحا بغرض التحالف مع الهيميريين (les Hémériens) وسكان منطقة

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 84-85.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, LIV.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 85.

سيفالسيديوم (Céphalcéduim)، وبعدها أخذ مدينة ليباري (Lipiare) وفرض على سكانها ضريبة قدرت بثلاثين تالنتا (Talents) ثم توجه مع كل جيشه نحو ميسينيا في الوقت الذي كان أسطوله يسير بمحاذاة الساحل لنفس الغرض. بعد أن سار هيملكون مسافة طويلة عسكر بمنطقة بيلوريس (Péloris) على بعد مائة (100) مرحلة (Stades) من ميسينيا، وفي هذه الأثناء اختلف سكان مدينة ميسينيا في موقفهم تجاه زحف القرطاجيين نحوهم، إلا أنهم في النهاية قرروا إرسال نسائهم وأطفالهم إلى مناطق آمنة والخروج للدفاع عن حريتهم وملاقة هيملكون في بيلوريس.¹

كان خروج الميسينيين للقاء هيملكون برا خطأ تكتيكي فادح، إذ سمح ذلك لأسطوله بأخذ المدينة وبكل سهولة من جهة البحر، وذلك من خلال حركة شجاعة من قبل البحرية البونية، وفي النهاية سقطت المدينة في يد هيملكون، ليتفرغ بعد ذلك لمدينة سيراكوز نفسها، وفي هذا الوقت انضمت إلى جيش البونيين جموع من السيكل كحلفاء لهم وذلك بسبب كرههم الشديد للسيراكوزيين.²

كلف هيملكون زميله في القيادة ماغون (Magon) قائد الأسطول بنشر سفنه الحربية على طول الساحل القريب من مناطق تواجد الجيش البوني، في حين أخذ هيملكون يتنقل في منطقة تورومينيوم (Tauroménium) بغرض الالتقاء بزميله ماغون على أرض مدينة كاتان (Catane). أما دونيس فقد استعد من جهته لتحمل الحصار بعد أن اطمأن للتحصينات التي أعدها في المدينة، وكذا في المدن الأخرى المجاورة مثل مدينة إتنا (Etna) ثم عسكر بجيشه بالقرب من توروس (Taurus) على بعد حوالي ثلاثين (30) كم عن مدينة سيراكوز. كان جيشه يتألف من حوالي ثلاثين ألف (30000) محارب، وثلاثة آلاف (3000) من الفرسان مدعومين بمرتزقة من الأسبرطيين، ومن هناك وبمسير منسق مع أسطول لبتين (Leptine) نجح دونيس في اعتراض اللقاء المزمع حدوثه بين ماغون وقائده هيملكون.³

¹ - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, LVI (56).

² - Khaled Melliti, loc.cit.

³ - Ibid.

حقق القرطاجيون في البداية انتصارات على جيش دونيس خاصة على مستوى الأسطول البحري، حيث جرت معركة بين القائدين لبنتين وماغون، انتصر فيها القرطاجيون بفضل تفوقهم العددي، لينسحب بعد ذلك أسطول القرطاجيون نحو ميناء مدينة كاتان (Catane) وأجبر أسطول لبنتين على الفرار إلى عرض البحر. امتلأت المياه التي جرت عليها المعركة بالجثث وبقايا المركب المحطمة، ويبدو أن القرطاجيين قد فقدوا الكثير من محاربيهم، أما الصقليون فقد تحطمت وغرقت لهم حوالي مائة سفينة وأكثر من عشرين ألف محارب. أدرك دونيس أنه مهما فعل فإن القرطاجيين سيضربون الحصار على مدينته، لذلك سارع بإرسال في طلب النجدة من الاسبرطيين. تم اللقاء بين هيملكون وقائد أسطوله في كاتان، وتم سحب المراكب نحو اليابسة تجنباً لعاصفة بحرية اندلعت في المياه المحاذية للمدينة¹.

توجه بعد ذلك هملكون بقواته البحرية والبرية نحو سيراكوز وعسكر بالقرب منها، وظل جنوده لمدة شهر يجوبون الأرياف لجمع منتوجات الأشجار والمحاصيل الزراعية للتزود بها، كما عمد هيملكون إلى السيطرة على ناحية أخرادين (Achradine) بالقرب من سيراكوز، وفي خضم هذه الظروف كانت كل المؤشرات تدل على قرب سيطرة هيملكون على المدينة ذات التأثير الواسع على إغريق صقلية لولا أن عاملين قلبا الموازين وهما: أولاً انتشار مرض مميت بين الجنود القرطاجيين أودى بحياة الكثير منهم، مما جعل حركة جيشهم تسكن وتشجع السيراكوزيين على الهجوم وإنهاء الحصار على مدينتهم، أما ثاني هذين العاملين فهو وصول قوات من البيلوبونير ومن أيونيا قوامها ثلاثين (30) مركباً طويلاً مليئة بالمحاربين الإغريق المتمرسين في القتال على رأسهم قائدا أسبرطي يدعى فارسيداس اللاكيدوميني (Pharacidas le lacédémonien) وبذلك التهمت الروح المعنوية للسيراكوزيين الذين مالبتوا أن شنوا هجوماً برياً وبحرياً على قوات هيملكون وكبدوه خسائر فادحة².

¹ - Diodore de Sicile, XIV, LIV-LIX (54-59)

² - Ibid, XIV, LIX-LXXIV (59-74).

كانت الخسارة بالنسبة للقرطاجيين مكتملة الأركان إلى درجة أن هيملكون بن حنون اضطر إلى التفاوض مع السيراكوزيين بموقف غاية في الضعف، حيث أنه لم يستطع الحصول على موافقة دونيس بخصوص انسحاب ما تبقى من جيشه المنهزم، لذلك فاوض للحصول على حريته وحرية مواطنيه القرطاجيين مقابل مبلغ كبير من المال، تاركا المرتزقة الإيبيريين والافارقة لمصيرهم، وهم الذين تعرضوا بعد ذلك للحبس أو القتل فيما عدا جزء من المرتزقة الإيبيريين الذين ضمهم دونيس إلى جيشه¹.

عاش هيملكون بن حنون بعد هذه الهزيمة البؤس والعار في قرطاجة وقد حدث له ذلك بحسب ديودور الصقلي نتيجة لتطاوله وتدنيسه نصب الآلهة الإغريقية في صقلية وكرهه لها، لينتحر في الأخير ويضع حدا لحياته. وقد دفعت هذه الأحداث الأخيرة قرطاج إلى إدخال عبادات إغريقية بمراسيم رسمية كعبادة ديمتر (Démeter) وكوري (Koré) عساه ينقص أو يخفف غضب هذه الآلهة التي تم الإساءة لها في صقلية من طرف جيش هيملكون، وفي حقيقة الأمر كان ذلك عملا سياسيا موجها من قبل السلطة في قرطاجة لتحصيل والحفاظ على مصالح تخص القرطاجيين ودولتهم ووجودهم في خارج بلاد المغرب.²

III- سياسة ماغون القرطاجي ضد مشاريع دونيس التوسعية

1- تحالف البونيين مع الإيطاليين

وفي صقلية لم تصل الأمور إلى تسويات وتوافقات دائمة رغم الكارثة التي حلت بالبونيين أمام سيراكوز. فبعد أن ظفر دونيس بسولونت (Solonte) وإينا (Enna) فشل سنة 393 ق.م ضد السيكل في تورمانيوم (Taurmanuim)، وهذه الخسارة نجم عنها انشقاق الاجريجوتيون (les Agrigentins) والميسينيون (les Messiniens). أما ماغون (Magon) قائد الأسطول القرطاجي الذي انتصر على لبين (Léptine) في كاتان (Catane) استعاد من جهته زمام المبادرة ونجح في إثارة عداوات بين الصقليين كان دونيس في زرع بذورها قبل ذلك. وبعد أن تحالف

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p87.

² - Ibid.

ماغون مع السيכול توجه نحو ميسينيا رافعا شعار حرية المدن الإغريقية تقريبا على منوال ما وقع في أيونيا الإغريقية. وقد علم ماغون مدى فعالية هذه الدعاية إلى الحرية التي بدأها دونيس في صراعه السابق مع البونيين. كان لماغون العديد من الاعتبارات لاستعمال هذا السلاح الدبلوماسي الأكثر خطورة من سياسة دونيس التي تتميز بالعنف والعدائية وغزو الأراضي والمدن بقوة السلاح ضد العديد من الدول الإغريقية في صقلية وإيطاليا، والتي جلبت له استياء وغضب العالم الهيليني، وقد شهد على ذلك ضيف دونيس ثم حبيسه الفيلسوف بلاتون (Platon).¹ (أنظر الملحق 14 صور) استطاع ماغون فك ارتباط العديد من المدن الإغريقية بحلفها مع دونيس، وبذلك تم له الحصول على دعم هذه المدن الإغريقية سواء في صقلية أو في إيطاليا، كما جلب ماغون استعدادا لمواجهة دونيس مرة أخرى، أعدادا كبيرة من المرتزقة من إيطاليا وليبيا مشكلا بها جيشا جديدا مصحوبا بأسطول صغير من السفن ثلاثيه صفوف المجاديف، وعسكر هذا القائد البوني بالقرب من مناطق نفوذ الأجيرنيين (Les Agyrinéens) بالقرب من نهر كريس (Chrysas). لم يتأخر دونيس في حشد قواته وملاقاة عدوه بعشرين ألف (20000) محارب، ويبدو أنه في هذه الحادثة استفاد دونيس من حلفه مع طاغية (Agyrion) المدعو أجيريس (Agyris) حيث ساعده هذا الأخير من حيث التزود بالمؤن من هذه المدينة، وكذلك بالمقاتلين من خلال ضم فرق هذه المدينة إلى جيش دونيس، هذا بالإضافة إلى إمكانية منع المؤن وقطعها عن الجيش القرطاجي. وفي هذه الظروف وجد ماغون نفسه مضطرا إلى عقد معاهدة سلام لكي يتجنب فناء جيشه في معركة كانت بوادر الخسارة فيها واضحة. تحصل دونيس بموجب هذه المعاهدة على ضوء أخضر لإخضاع السيכול وكذا مدينة تورومينيوم (Tauromunium) والتي احتلها بمعية المرتزقة الأكثر وفاء له.²

من جهتها لم تحتفظ قرطاج سوى بالساحل الشرقي وبلاد الليمين (Elymes) وبلاد السيكان. أما طاغيه سيراكوز فقد تدعم نفوذه على جزء كبير من الجزيرة بذريعة التهديد البوني

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 87-88.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XIV, XCV-XCVI (95-96).

الذي صار يستعمله باستمرار لتثبيت حكمه الاستبدادي. كانت المحاولات الكثيرة لممارسة دونيس هيمنته على صقلية الشرقية وكذلك على المدن الإغريقية في إيطاليا قد تحولت إلى طلب السيادة على الإغريق في شبه جزيرة إيطاليا. وكذلك كانت السنوات التي تلت سنة 392 ق م وهي السنة التي عقد فيها دونيس الصلح مع ماغون قد شهدت صراعا عنيفا بين سيراكوز والمدن الإغريقية الإيطالية خاصة مع كروتون (Croton) وحليفاتها ريجيوم، وأخيرا تمكن دونيس من سحق الإغريق الإيطاليين (les Italiotes) على ضفاف نهر هيلورس (Hélorus)، وظفر أخيرا بمدينة ريجيوم (Rhégium)، وبعد أن دعم انتصاره هذا ببسط سيطرته على مدينة لوكريس (Locres) بعد حصار دام سنة كاملة (386 ق.م)، تمكن الطاغية من إخضاع آخر المدن الخالكيدية (Chalcidienne) الكبرى في المنطقة، وبذلك أمكن له تحقيق أهدافه التي أعلنها سنة 403 ق.م.¹

وفي سنة 383 ق.م² قرر دونيس استئناف الحرب ضد القرطاجيين بعد أن جمع جيشا وجهاز أسطولا بفضل تلك الغنائم التي جمعها من سلب المعابد الثرية في أجيلا (Agylle) على البحر التيراني (Mer Tyrrhénienne).³ اعتمد دونيس هذه المرة بحسب رواية ديودور الصقلي على ما كان يحدث في شمال إيطاليا إثر غزو الغالين لشمال شبه الجزيرة وصولا إلى العاصمة روما،⁴ وقد انعكست هذه الحادثة على الحلف الوثيق بين قرطاج ورابطة المدن الاتروسكية، هذا الزحف الغالي أراح دونيس في جبهة الشمال،⁵ وهو الذي وجد في هذه الفترة الزمن المناسب لمهاجمة القوات البونية في صقلية، والحجة هذه المرة هي تمرد وثورة في صقلية وتحديدًا في تلك المدن الخاضعة لقرطاج، هذه الثورة التي كان لطاغيه سيراكوز دور واضح في تشجيعها.⁶

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 88.

² - Ibid.

³ - Diodore de Sicile, op.cit, XV, XIV-XV (14-15).

⁴ - Ibid, XIV, CXIII-CXV (113-115).

⁵ - Khaled Melliti, op.cit, p 89.

⁶ - Diodore de Sicile, op.cit, XV, XV (15).

سارع دونيس إذن إلى عقد حلف مع هذه المدن، رافضا كل طلبات معاهدات السلام مع القرطاجيين. وفي هذه الفترة كان ماغون قد أصبح شفتا (Suffète) في قرطاجة. قَدِمَ ماغون إلى صقلية على رأس جيش ضخم من المواطنين القرطاجيين والمرزقه، ثم انتقل إلى إيطاليا ممددا ذلك الحلف القديم مع المدن الإغريقية في إيطاليا. وفي هذه الفترة يبدو أن الصراع الإغريقي القرطاجي قد أصبح أوسع مما كان عليه من قبل، فقد زاد نطاقه وتجاوزت حدوده جزيرة صقلية، فقد ظهر على الأرض حلف بونيقو-إيطاليوتي (Punico-italiote) في مواجهة حلف سيراكوز-غالي (Syracuso-gauloise). كانت الإستراتيجية البونية واضحة وهي توسيع الجبهة العسكرية ضد سيراكوز مما اضطر دونيس إلى تقسيم قواته، جزء ضد البونيين وجزء ضد الإغريق الإيطاليين (Les Italiotes). اندلعت إذن حرب طويلة بين هذه الأطراف، وكان هجوم السيراكوزيين على الإيطاليوت يتطلب الاستنجد بجملة بونيقية والتي يشار إليها سنة 379 ق.م يتوطين مواطني الهيبينيون (Hipponion) في البروتيوم (Bruttium) والذين طردهم دونيس فيما بعد.¹

إلا أنه في هذه الفترة اضطرت قرطاج إلى التعامل مع تمرد عنيف للسكان الليبيين، هؤلاء الذين أرادوا استغلال فترة انتشار وباء بالعاصمة البونية أودى بحياة الكثيرين، كما ثار أيضا عليها الليبيون المستقرون في سردينيا (Sardaigne) محرضين كذلك على الثورة، السكان المحليين لهذه الجزيرة، ولم تستطع قرطاج التحكم في هذه الوضعية إلا بعد عناء كبير.²

2- معارك كابالا وغرونيوم وانتهاء الصراع ضد دونيس

عادت المناوشات والالتحامات بين القرطاجيين والسيراكوزيين، وكان يجب انتظار سنة 375 ق.م لنصل إلى لقاءهم بين الطرفين، كان ذلك في ناحية كابالا (Cabala) في غرب صقلية قتل فيها القائد ماغون (Magon)، كما قتل عشرة آلاف (10000) من جنوده وتم أسر خمسة آلاف (5000) آخرين، أما بقية الجيش فقد استطاعوا التحصن في مكان عالٍ، إلا أنه كان خاليا من مصادر الماء، ومع ذلك لم تكن هزيمة القرطاجيين نهائية رغم السقف العالي لشروط دونيس، وذلك

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XV, XXIV (24).

لأن القرطاجيين لم يتقبلوا هذه الشروط الغير واقعية وطلبوا قبل إبرام معاهدة معه هدنة، وذلك لبحث شرط انسحاب البونيين نهائيا من صقلية وتعويض خسائر الحرب مع مجلس الشيوخ في قرطاجة. أما القرطاجيون فقد أقاموا طقوسا جنازية مهيبة للقائد المتوفى ماغون اعترافا ببطولاته، وعين على رأس الجيش ابنه هملكون (Imilco) ومنحوه صلاحيات عسكرية واسعة، هذا الأخير كان مشهودا له بالشجاعة وبقدرته على مواجهة الصعاب خاصة هذه الوضعية الدقيقة التي تتواجد بها القوات القرطاجية في صقلية.¹

استغل القائد الشاب والطموح مدة الهدنة لتحضير الفرق البونية للحرب، مركزا على الانضباط والانسجام في الحركة للقطع العسكرية من خلال تمارين تمت إعادتها العديد من المرات، وبذلك استطاع تشكيل جيش غاية في الانضباط والقوة. وقعت المواجهة الحاسمة بين الطرفين بعد انتهاء مدة الهدنة بالقرب من مكان يسمى غرونيوم (Gronuim)² غير بعيد عن بانورموس، ويرجح أن تلك المعركة وقعت سنة 374 أو سنة 373 ق.م.³

كانت المواجهة عنيفة هذه المرة، ويبدو أن الثقة الزائدة التي كان السيراكوزيون يمتلكونها من خلال انتصاراتهم السابقة سببت لهم هذه المرة هزيمة ساحقة وانتصارا باهرا للقرطاجيين، وتم سحق فرق دونيس من طرف الجيش الذي يقوده هذا القرطاجي الشاب هملكون بن ماغون. كان انهيار الجناح الأيسر الذي يقوده لبتين (Leptine) شقيق دونيس، والذي قُتل على أرض المعركة قد ألهم حماس القرطاجيين الذين اندفعوا نحو صفوف أعدائهم بكل قوة إلى أن أجبروهم على الفرار.⁴

أربعة عشر ألفا (14000) من المقاتلين الإغريق تم سحقهم مع قائدهم لبتين، كان الانتصار القرطاجي في رأس غرونيوم حاسما ومصيريا مقارنة بانتصار كابالا (Cabala)، لأنه أفضى بعد ذلك إلى صلح ومعاهدة سلام وقعت سنة 373 ق.م من طرف السيراكوزيين ممثلين في شخص ديون (Dion) صهر دونيس ومندوبه الدبلوماسي.⁵ سمحت هذه المعاهدة للقرطاجيين بتثبيت

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 89-90.

² - Diodore de Sicile, op.cit, XV, XVI (16).

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 90.

⁴ - Diodore de Sicile, op.cit, XV, XXVII (27).

⁵ - Khaled Melliti, loc.cit.

حدود سيطرتهم في صقلية إلى غاية نهر الهاليكوس (Halycos) ضامين بذلك مدينة سيلونونت (Sélinonte) والمناطق التابعة لها، وكذلك جزء من نطاق مدينة أجريجونت (Agrigente) الواقعة إلى الغرب من هذا النهر. كما تحصلت قرطاج على ألف تالنت (Talents) دفعها دونيس تعويضا عن الخسائر المترتبة عن الحرب¹ وهو ما يعني الخسارة النهائية لطاغية سيراكوز في صقلية.²

خاض الطاغية دونيس صراعا ضد الوجود القرطاجي ودفاعا عن الهيكلية لمدة وصلت قرابة الأربعين عاما، ومع ذلك لم ينجح في إنهاء الوجود القرطاجي من جزيرة صقلية. وإذا كان دونيس قد برهن عن امتلاكه لمواهب عسكرية في بعض الظروف، إلا أنه لم يكن من رجال الإغريق العظماء في الحرب. وفي الحقيقة حتى الجيوش الإغريقية في الجزيرة لم يكن يمكن الاعتماد عليها كثيرا، فهي تتكون إما من مواطنين إغريق من ذوي المراس الصعب، وإما من حلفاء قليلو الحمية، أو من مرتزقه لا ينشطون إلا إذا قبضوا المقابل من المال، ورغم أن دونيس كان معروفا عليه المهارة في إدارة الشؤون المالية، إلا أن موارد مدنه كانت غالبا ما تنضب، أما إذا خانه التدبير في معركة أو حرب فإنه كان يحسن التصرف من خلال تفويت الفرصة على أعدائه الداخليين، وتأجيل مشروعاته لأنه كان يعرف أنه لم يكن محبوبا من الجميع وأن سلطته ليست ثابتة.³

¹ - Diodore de Sicile, loc.cit.

² - Khaled Melliti, loc.cit.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص18.

الفصل الثالث

حروب القرطاجيين ضد تيموليون

وأغاتوكليس

- I حروب قرطاج ضد تيموليون (Timoléon)
 - II الحروب القرطاجية ضد أغاتو كليس
 - III عودة أغاتوكليس إلى صقلية وبداية انتصارات البونيين
- في إفريقيا

I- حروب قرطاج ضد تيموليون (Timoléon)

1- ظروف تولي تيموليون الحكم في سيراكوز

تحدث المصادر التاريخية أنه خلال فترة الهدنة الأخيرة مع قرطاج توفي الطاغية دونيس وتولى ابنه دونيس الابن الحكم وقد اختار هذا الأخير مواصلة الحرب ضد القرطاجيين رغم محاولات التفاوض التي كان يتبناها الدبلوماسي السيراكوزي ديون (Dion)، وفي هذه الفترة يبدو أن حلفا استراتيجيا ثم بن قرطاج ومدينة طيبه (Thèbes) الإغريقية والتي كانت في أوج قوتها من بين المدن اليونانية، وكان من نتائج هذا الحلف هو منع أي عون مهم يأتي إلى سيراكوز من بلاد اليونان، فهذه المدينة التي كان يحكمها إبيامينوداس (Epaminondas)، والتي كانت قد فرضت تفوقها العسكري على أبرز مدن اليونان أثينا واسيطرة بفضل أسطولها القوي الذي بنته دون شك سنة 364 ق م بعون من القرطاجيين والذي كسرت به الهيمنة البحرية الأثينية في المنطقة.¹

وقد اضطر دونيس الابن لإمضاء معاهدة سلام سنة 362 ق.م مع قرطاج لينشعل بعد ذلك بمحاولة تثبيت أركان سلطته خاصة مع وجود منافسين له على السلطة مثل ديون الذي تمكن من حكم المدينة بين سنتي 356 و354.² ويبدو أن سيراكوز لم تهاجم قرطاج خلال حكم الطاغية دونيس الابن،³ وذلك بسبب مرورها بفترة قدرت بحوالي عشر سنوات تميزت باضطرابات سياسية ليقرر بعد ذلك السيراكوزيون المطالبة بحاكم قوي يضمن الاستقرار للمدينة، وفي سبيل تحقيق ذلك توجهوا بمطالبهم هذه وبشكواهم إلى المدينة الأم وهي كورينثة، وقد وقع الاختيار في كورينثة على أحد النبلاء فيها يدعى تيموليون (Timoléon)، أولا لقدراته وكفاءته في الحكم، ولكن أيضا لبياض صفحته من أي عمليات قتل أو اتهامات بذلك. سارع تيموليون إلى سيراكوز

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 91.

² - Ibid.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص18.

لمباشرة مهامه بدل دونيس الشاب الذي كان قد استعاد السلطة سنة 346 ق.م ليتمكن من طرده نهائيا من المدينة سنة 343 ق.م.¹

وفي هذا الإطار يحدثنا المؤرخ الإغريقي بلوتارخوس بنوع من التفصيل عن تلك الفترة التي عاشتها سيراكوز، أي من بداية تولي دونيس الابن إلى نهاية حكمه وتولى تيموليون زمام الأمور في سيراكوز فيقول أنه بعد ما تمكن ديون من طرد دونيس الطاغية الابن من سيراكوز، قُتِلَ بسبب الخيانة، أما أصحابه الذين ناصروه من أجل حرية سيراكوز فقد انقسموا إلى فريقين، وفي هذه الفترة كانت سيراكوز تعيش أحلك فتراتهما، وأصبحت معزولة عن ما يجري في صقلية، أما المدين الإغريقية هناك فالكثير منها تدمرت بسبب الحرب، ولم يبق منها إلا عدد قليل بات تحت سيطرة أجانب من جنسيات مختلفة، وكذلك من طرف جنود مرتزقة ليس لهم بلاد يعيشون فيها، وفي هذه الظروف تمكن دونيس الابن، وبعد عشر سنوات من تنحيته عن حكم سيراكوز من تجميع بعض الفرق من المقاتلين الأجانب وطرده نيزي (Nisée) الذي كان يحكم سيراكوز. وظفر بالسلطة مرة أخرى وعاد طاغية من جديد، وكان ذلك سنة 346 ق.م، كما سبق ذكر ذلك. لم يتقبل السيراكوزيين العيش تحت حكم طاغية عنيف الطباع وهو دفع بهمهم للتحويل إلى الشراسة بدل الاستكانة، ولذلك قام ذوو المكانات المرموقة والمحترمون من بينهم، بمراسلة هيكاتاس (Hikétas) الذي كان يحكم مدينة ليونتيوم (Léontium) ووضعوا بين يديه كل ما يملكون من أجل التخلص من دونيس الابن، ليس لأنه أفضل من الطاغية الذي يحكمهم، بل لأنه كان الوحيد في رأيهم الذي يملك جيشا قادرا على تخليصهم من دونيس، ولأنه هو أيضا أحد المواطنين السيراكوزيين.²

¹ - Khaled Melliti, op.cit, pp 91-92.

² - Plutarque, Les vies des hommes illustres, vie de Timoléon, Tome V, Texte traduit par D.Ricard, Bibliothèque des amis des lettres, Paris, 1830, I.

كان القرطاجيون خلال هذا العقد من الزمان الذي بدأ بعام 350 ق.م يسعون إلى بسط نفوذهم على كل جزيرة صقلية بالطرق السلمية، مستغلين النزاع السياسي الداخلي الذي اضعف المدن الإغريقية¹.

رفعت قرطاج شعار الحرية للإغريق واستغلته لصالحها وفي هذا الصدد قامت بحملة دبلوماسية واسعة داخل الجزيرة وخارجها أي في شبه جزيرة إيطاليا، وكانت هذه الحملة موجهة ضد عودة سياسة الهيمنة السيراكوزية، وكذلك الخطر المتمثل في حضور المرتزقة الكمبانيين في جزيرة صقلية، هؤلاء الذين استقروا هنالك منذ القرن الخامس ق.م، وأصبحوا سادة مدنية أنتيلا (Entella) وهي مدينة محسوبة منذ زمن ضمن مناطق النفوذ القرطاجي. أبرمت قرطاج في هذه الفترة أحلافاً أخرى مع بعض طغاة الإغريق في الجزيرة من بينها هيكييتاس (Hikétas) طاغيه الليونتيني (Léontins) والذي كان من دعاة التعايش البونيقو-إغريقي (Punico-grec) في صقلية. أما على المستوى الخارجي فكان الوفاق القديم بين قرطاج وروما، والذي يعود إلى سنة 509 ق.م قد تم تجديده سنة 348 ق.م بصورة برغماتية، فبعد أن فرضت روما نفسها على القوى الاتروسكية في إيطاليا بين سنتي 354 و350 ق.م، كان حلفها مع قرطاج ضروريا بالنسبة لها، خاصة وهي تستعد لإعلان الحرب على السمينيين (Les Guerres samnites) بغرض منع أي دعم محتمل للأوسك (Osques) من صقلية نحو إيطاليا، وبمجرد أن تم لقرطاج هذه الشبكة من التحالفات حتى سارعت إلى جزيرة صقلية سنة 345 ق.م بجيش كبير تحت قيادة حنون القبطان (Hannon le Novorque)².

وكرد فعل لذلك أرسل إغريق سيراكوز سفراء عنهم إلى بلاد الإغريق لطلب النجدة من مدينة كورينثة. كانوا يعولون كثيرا على دعم الكورنثيين لأنهم يقاسموهم نفس الأصل، وكذلك لتلك

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص248.

² - Khaled Melliti, op.cit, pp 125-126.

المساعدات المتواصلة التي كانوا يتلقونها منهم منذ زمن، وكذلك لأن الكورنثيين كانوا يعشقون الحرية ويمقتون الطغاة والحكم الاستبدادي، وخاضوا لهذا الغرض العديد من الحروب، ليس بغرض الاستعمار وبسط الهيمنة، بل من أجل تثبيت الحرية لشعب اليونان، وإذا كان هيكتاس قد قبل حكم سيراكوز بطلب من بعض وجهاء سيراكوز فذلك ليس لأنه يطلب الحرية للسيراكوزيين، بل ليصبح هو طاغية سيراكوز الجديد، هذا بالإضافة إلى أنه كان ينسق بشكل سري مع القرطاجيين، وفي العلن يصرح أنه يسعى لخدمة السيراكوزيين. كان هيكتاس يسعى للاستفادة من دعم القرطاجيين للإحاطة بطاغية سيراكوز وتنصيب نفسه بدلا عنه.¹

وضعت قرطاج تحت تصرف حنون القبطان ثلاثمائة (300) عربية حربية، وألفين (2000) من العربات ذات الجوادين، إضافة إلى أسطول مكون مائة وخمسين (150) سفينة لنقل الجنود. كانت مدينة أنتيلا (Entella) هي المرحلة الأولى في حملة حنون حيث قام بتخريب أرياف هذه المدينة ثم سحق جيشا جاء لنجدة المدينة أرسلته مدينة غاليريا (Galéria).² كان اختيار الكورنثيين قد وقع على تيموليون (Timoléon) بن تيمودام (Timodème) لارساله على رأس حملة إلى سيراكوز، هذا الرجل الذي لم يكن يهتم حسب بلوتارخوس بالشؤون العامة وأمور الحكم، ولم يكن من اهتماماته ولا من تطلعاته القيام بهذا العمل، ويتحدث بلوتارخوس عن طريقة اختياره فيقول أنه حين اجتمع المسؤولون الكبار في المدينة بغرض اختيار رجل لهذا الغرض، نطق رجل من الشعب بعد أن وقف وقال تيموليون، وكان يُعْتَقَدُ في كورينثه أن إله أوحى لهذا الرجل بنطق إسم تيموليون.³

¹ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, II.

² - Khaled Melliti, op.cit, p126.

³ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, III.

حاول أسطول القرطاجيين منع تيموليون من دخول مياه صقلية إلا أن تيموليون نجح في الإفلات من قوتهم البحرية والوصول إلى اليابسة الصقلية بجيشه.¹ نزل القائد الكورنثي في منطقة تورومينيوم (Tauroménium) وثبت أقدامه فيها، وقد استقبله الملك أندروماخوس (Andaomachos) والد المؤرخ تيمايوس (Timée) رغم التحذير القرطاجي الشديد في هذا الإطار. ومن هذه المدينة بدأ تيموليون العمل لصالح مشروعه، وبعد مساعدة جريئة تلقاها تيموليون من جيش هيكييتاس (Hikétas) في الأرياف قرب أدرانوم (Adranum)، وبعد غارة مباغتة قام بها القائد الكورنثي تمكن من احتلال أحياء أكرادين (Achratine) ونيابوليس (Néapolis) في مدينة سيراكوز سنة 344 ق.م. كان الوضع في المدينة غامضاً جداً، لأن القلعة ما تزال محتلة في تلك الأثناء من طرف دونيس الابن في حين أن هيكييتاس كان يسيطر على باقي أجزاء المدينة.²

أرسلت العديد من المدن مندوبين عنها الى تيموليون للانضمام إليه ودعم قواته، منهم مامركوس (Mamercus) طاغية كاتان (Catane)، وهو رجل محارب زاد من قوته ثراوة وكثرة ممتلكاته، وقد تم الحلف بينه وبين تيموليون، وفي خضم هذه الظروف بدأ دونيس الشاب يفقد الأمل في البقاء في الحكم حيث لاحظ رغبة الإغريق في حكم تيموليون لذلك آثر مهاده الكورنثيين والدخول في حمايتهم.³

أما القرطاجيون فيبدو أنهم غيروا قائد جيشهم حنون القبطان (Hannon le Novorque) بقائد آخر يدعى ماغون (Magon)، وكان السبب في ذلك هو نجاح تيموليون في الوصول إلى صقلية، وفشل هذا القائد في منعه من دخولها رغم القوات الكبيرة التي كانت تحت تصرفه. أما ماغون الذي كان مرابطاً في ميناء سيراكوز بأسطول مشكل من مائة وخمسين (150) سفينة

¹ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص248.

² - Khaled Melliti, loc.cit.

³ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XIV.

ثلاثية صفوف المجاديف، بها خمسون ألفا (50000) رجل، فكان بصدد مساعدة هيكتاس، إلا أنه سرعان ما اضطر للتراجع والانسحاب، وبذلك حَذَلَتْ قرطاج من خلال هذا القائد، هيكتاس وفشلت في فك الحصار عليه خاصة بعد الدعم الكبير الذي تلقاه تيموليون من طرف الكاتانيين بشكل خاص وكذلك من كورينثيه. أما تيموليون فبعد استسلام دونيس الابن أقام في قلعة جزيرة أورتيجي (Ortygie) وذلك من أجل ترك دونيس الابن يخرج من قلعة سيراكوز بأمواله الخاصة، هذا الأخير الذي تفاوض على استسلامه مع كورينثيه التي التجأ إليها وقضى فيها حياته إلى أيامه الأخيرة.¹

أدرك هيكتاس أنه خسر المعركة وأن الحظ لم يحالفه في محاولته الوصول إلى حكم سيراكوز خاصة حين لاحظ أن تيموليون أصبحت قوته تتعاضد يوما بعد الآخر، كما أنه أدرك في هذه الظروف الخطأ الذي وقع من خلال الخدمات التي قدمها للقرطاجيين خاصة وأن جيشه لم تكن تنقصه القوة، فقواته كانت تقريبا مساوية لقوات القرطاجيين لذلك شعر هيكتاس بالعار مما قام به.²

أما ماغون فقد دفع ثمن فشله غالبا واختار الانتحار بدل محاكمته وإدانته من طرف محكمة المائة وأربعة، فكان رَفُعُ الحصار عن سيراكوز إشارة سيئة لحلفاء قرطاج في تلك الفترة، وكذلك الذين يرغبون في حلفها. لقد ضرب ذلك القرار مصداقية وهيبة القرطاجيين ومن جهة أخرى سمح لتيموليون بأخذ زمام المبادرة على الأرض، ولم تعد قرطاج في تلك الأثناء صاحبة الكلمة والقادرة على ضبط الأحداث في الجزيرة بل صار تيموليون الإغريقي هو الحاكم الأقوى في الجزيرة.³

دعا تيموليون شعب سيراكوز إلى حمل أدوات لتحطيم رموز الحكم الاستبدادي في المدينة خاصة قلاعهم وقصورهم، وهو ما قبل عليه السيراكوزيين مقتنعين أن هذا اليوم سيكون إعلانا

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XIX.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

لحريتهم. تم تحطيم تلك البنايات ليطلب تيموليون بناء مؤسسات جديدة مثل المحاكم والمقابر للحكومات الديمقراطية على أنقاض تلك البنايات المحطمة، إلا أنه لاحظ أن المدينة قد نقص عدد سكانها بشكل كبير، فجزء منهم قضى في الحروب والثورات، والجزء الآخر فر من عنف وجرائم الطغاة في المدينة، إلى درجة أن الساحة العامة في المدينة أصبحت مهجورة ونمت بها الحشائش وصارت تصلح للرعي. أما المدن الإغريقية الأخرى فيما عدا عدد قليل منها صارت مرتعا للغزلان والخنازير، لذلك قرر تيموليون بعد استشارة سيراكوزيين مراسلة كورينثه من أجل إرسال مستوطنين جدد من بلاد اليونان، من أجل إعادة توطينهم في سيراكوز، خاصة أنهم كانوا على ثقة من أن القرطاجيون لن يسكتوا على هزيمتهم الأخيرة، وسيعلمون حرباً جديدة عليهم في أقرب وقت.¹

2- تحرك تيموليون نحو مناطق النفوذ القرطاجي وبداية الصدام معهم

بعد أن ضبط تيموليون الأسوار في سيراكوز عجل بحصار ليونتيوم (Léontium) سنة 342 ق.م، وهي المدينة التي التجأ إليها هيكتاس وجيشه، ورغم أنه لم ينجح في اخذ المدينة، إلا أنه ظفر بممر النجوم (Engyum)، وبعد أن نهب صقلية الغربية تكونت لديه ثروة معتبرة من هذه الحرب. أخذ بعد ذلك مدينة انتيلا (Entella)، مما سمح له بإحداث اضطراب في الاتصالات بين مناطق بانورموس (Panormus) وسيلينونت (Sélinonte) في الناحية البونية من الجزيرة. كان إلحاق تيموليون لمدن السيكلول (les Sicules) والسيكان (les Sicanes) المحسوبين تقليدياً على النفوذ اليوناني قد عجل من تحرك القرطاجيين، وذلك لمعالجة واستدراك الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبه ماغون (Magon)، ومن ثم العودة إلى الوضعية التي تضمن لقرطاج مكانة المدينة الأم للمدن اليونانية في صقلية. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف حشدت قرطاج جيشاً يتكون من المواطنين القرطاجيين ومساعدين من الأفارقة والمرتقة من الايبيريين والكلتين (les Celtes)

¹ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XIV (25).

والليقوريين (les Ligures)، كما جهزت أسطولا بأموال معتبرة. كل هذه القوات تقدمت نحو ليليبي (Lilybée) لدعم القوات البونية التي كانت أصلا متواجدة في صقلية.¹

قدر بلوتارخوس الجيش القرطاجي في هذه الحملة بسبعين ألف (70000) رجل، ومائتي (200) زورق، وألف (1000) مركب نقل محملة بآلات الحرب والعربات وبالمؤن من جميع الأنواع، وقد قرر القرطاجيون هذه المرة عدم خوض معارك بقطع متفرقة من الجيش ولكن مواجهة الإغريق دفعة واحدة وطردهم من الجزيرة، كانت قوتهم بحسب بلوتارخوس معتبرة وكافية لإخضاع كل الصقليين، وقد علموا قبل انطلاقهم أن الكورنثيين قد عبثوا بأراضيهم في صقلية.²

ونظرا لصعوبة ودقة المهمة هذه المرة، شاركت في الحملة وحدة من القوات الخاصة المتكونة أكثر من ألفين وخمسمائة (2500) شاب من بلاد القرطاجيين، أما قادة الحملة فكانا اثنان من كبار ضباط القرطاجيين وهما أملكار (Amilcar) وصدر بعل (Asdrubal). قرر تيموليون مواجهة القرطاجيين رغم ضخامة قوتهم، وسار من اجل ذلك على رأس قوة من السيراكوزيين ومن المرتزقة الاوسك (Osques)، كان اللقاء على ضفاف نهر كريميسوس (Crimisos) سنة 340 ق.م. باغتت القوات الإغريقية الجيش القرطاجي وهو يجتاز النهر وقد كلف تيموليون خياله بقيادة الضابط ديمارتوس (Démarétos) بتشتيت البونيين وإحداث اضطراب بين قوتهم، لينقض بعد ذلك الجيش الإغريقي للإجهاز على القوات المشتتة. كان قلب الجيش الإغريقي تحت القيادة الشخصية لتيموليون وكان مشكلا من المقاتلين السيراكوزيين والمرتزقة، في حين أن الميمنة والمسيرة كانتا مدعومتين بقوات في الحلفاء³

استطاع الجيش القرطاجي صد الهجوم الأول للإغريق بكل شجاعة، فالمقاتلون البونيون المجهزون بتروسهم الجلدية السمكة، وخوذاتهم النحاسية، استطاعوا بكل سهولة دفع ورد حراب

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p127.

² - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XXVII.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

الإغريق، ثم بدأ الاشتباك بالسيوف، إلا أنه سرعان ما اندلعت في تلك الأثناء عاصفة مصحوبة ببرق ورعد مخيف، ثم بعد ذلك أمطار غزيرة وبرد، وكان اتجاهها ضد القرطاجيين وهو ما هيا الفرصة للإغريق لضرب أعدائهم لكونهم كانوا غير قادرين على الرؤية في مواجهة العاصفة العنيفة والبرق المضيء، ومما زاد في تعقيد الوضع بالنسبة للقرطاجيين هو تسليحهم الثقيل وارتفاع منسوب النهر.¹

وحين انهزمت الوحدة القرطاجية المكونة من النخبة والمسماة بالفيلق المقدس بعد مقاومة شرسة، بدأ الفرار الجماعي لليونانيين ومن لم يستطع الفرار مات غرقا أو قتلا، أما الفيلق المقدس فقد تم القضاء عليه. ترك الجيش القرطاجي على ساحة المعركة أكثر من اثني عشر ألف (12000) قتيل وحوالي (15000) خمسة عشر ألف أسير. قسم الإغريق الغنائم الكبيرة بعد سلب معسكر القرطاجيين بين جنودهم، وقد تمكنت بقايا الجيش الكبير من الالتحاق بصعوبة بمدينة ليلي محضرة معها شواهد من تلك الكارثة التي حلت باليونانيين وبقضيتهم في صقلية. ولم تلبث النتائج السياسية والانعكاسات المتعلقة بهذه الكارثة أن ظهرت ارتداداتها في قرطاج نفسها، وتحت الضغط الشعبي اضطرت الأوليغارشيا أو الاليجاريا (l'Oligarchie) إلى استدعاء جيكون بن حنون الكبير (Gisco ben Hannon le Grand) من منفاه في بلاد الإغريق.²

كانت شهرة جيكون بن حنون العسكرية لا يختلف فيها اثنان، وقد تم تكليفه رسميا بتسيير الحرب في صقلية، ونظرا للخسارة الكبيرة التي مني بها المواطنون القرطاجيون، لم يتم التجنيد منهم هذه المرة، وتم تجنيد المرتزقة، وعلى خلاف المرات السابقة جند جيكون هذه المرة مرتزقة من الإغريق تم دفع مال كبير لهم، والغرض من ذلك هو محاربة تيموليون بجنود يكافؤون جنوده قوة وبسالة.³

¹ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XXXII, XXXIII (32-33).

² - Khaled Melliti, op.cit, p 127.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص21.

كان تيموليون بصدد مواصلة التصفية ما يسمى بحكم الطغاة في جزيرة صقلية من خلال محاصرة مدنها وإجبارهم على التنحي طواعية أو بالقوة، فبعد أن أجبر في وقت سابق الطاغية هيكتيتاس على فك حلفه مع القرطاجيين، وعلى تحطيم قلاعها التي ترمز إلى حكم الاستبداد والعيش كمواطن عادي مع الليونتيين (les Léontins)، وكذلك الأمر مع لبتناس (Leptinès) طاغية أبولونيا (Appollomie) ليواصل بعد ذلك نفس السياسة مع مدن أخرى كثيرة صغيرة في الجزيرة.¹ وقبل وصول جيسكون إلى صقلية كان تيموليون قد سار بجيشه إلى كاتان (Catane) لمحاربة طاغيته مامركوس (Mamercus)، والذي كان ينتظره بجنوده على ضفاف نهر أبولوس (Abolus) وقد استطاع تيموليون هزيمة هذا الطاغية، وقتل من جنوده أكثر من ألفي (2000) محارب كان أغلبهم من البونيين الذين أرسلهم جيسكون لمساعدة مامركوس.²

تحدثت المصادر التاريخية عن تسامح جيسكون بن حنون مع الطبقة الأرستقراطية في قرطاج لأنه كان معاقبا ومنفيا بسببهم، وبادر بالاستعجال لتسوية الأمر في صقلية، ووضع القرطاجيين هنالك، رافعا مع مواطنيه البونيين شعار ضرورة الوحدة ورص الصفوف لحساسية الظرف الذي يمر به التواجد القرطاجي في صقلية. كما تحدثت هذه المصادر عن شهرة جيسكون الحربية وتمرسه في ضبط الخطط العسكرية، وممارسة الأعمال الحربية، وكان له ذلك من خلال الحروب التي خاضها مع أبيه في إفريقيا. وبأسطول مكون من سبعين مركبا حربية، تم نقل جيش جيسكون بحرا نحو ليليبي (Lilybée)، ومن ثم اتجه الجيش القرطاجي شرقا وأحرز انتصارات باهرة على قوات تيموليون بالقرب من ميسينيا (Messine)، وكذلك بالقرب من إياتوس (Iotos)، ورغم فقدان قرطاج لحلفائها مثل هيكتيتاس ومامرتوس إلا أنها عملت على استثمار هذه الانتصارات الأخيرة من خلال إرسال بونيين تم تكليفهم باستثمار هذه النجاحات عبر مفاوضات مع الإغريق يتم

¹ - Plutarque, vie de Timoléon, op.cit, XXVII (27).

² - Ibid, XXXVIII (38).

الحصول من خلالها على أفضل ما يمكن الحصول عليه، وكان هذا العرض القرطاجي للسلام سنة 338 ق م.¹

ويبدو أن السلام في هذه الفترة كان يصب في صالح الطرفين، فبالنسبة للساسنة القرطاجيين كان السلام سيغنيهم عن خدمات جسيكون بن حنون، أما بالنسبة لتيموليون فلم يبق معه سوى جيش صغير، وكانت الظروف الاقتصادية تفرض عليه مشقة في الانفاق، كما أنه لم يعد متأكدا في أي مواجهة قادمة مع القرطاجيين على حصوله على ظروف مواتية لنصره كالتى وقعت بالقرب من كريموسوس (Crimosos)، كما أنه كان يأمل في إتمام مشروعه الرامي إلى توطين معمرين جدد وتثبيت النظام الجمهوري، وبهذا الاتفاق الذي وقع سنة 338 ق.م احتفظت قرطاج بالحدود القديمة التي تقررت في عهد دونيس الكبير والمتمثلة في نهر هيميراس (Himéras) في الشمال ونهر الهاليكوس (Halycos) في الجنوب.²

هذا مع استعادة مدينة أنتيلا (Entella) لنفوذهم، وهنا يمكننا الإشارة إلى الحكمة الرومانية التي كان يتمتع بها تيمولون في هذا الاتفاق، والذي يبدو من خلال أنه قدم تنازلات واضحة للقرطاجيين لم يكن مجبرا على تقديمها، إلا انه لم يكن قائدا عسكريا غرضه تحقيق الانتصارات والتوسع على الأرض، بل كان صاحب مشروع سياسي يهدف إلى السلم الإغريقي، والذي لا يمكن أن يتحقق في نظره سوى عبر تركيز هيليني كبير في الجهة الشرقية لجزيرة صقلية، ولو بطريقة برغماتية، هذا السلام الذي عززه تيموليون من خلال وضع العداوات جانبا مع الطغاة السابقين ماركوس وهيكتاس من اجل تجميع أوصال صقلية الشرقية وصبغها بالطابع الهيليني الفيديريالي مقابل صقلية الغربية البونية.³

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p128.

² - ستيفان قرال ، ج3، المرجع السابق، ص21.

³ - Khaled Melliti, op.cit, pp 128-129.

كما تجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن تيموليون قد انتزع حقا للإغريق من القرطاجيين تمثل في منح الحرية إلى كل المواطنين الإغريق في صقلية الراغبين في الاستقرار في مدينة سيراكوز، بنقل عائلاتهم وأموالهم إلى هناك للعيش في كنف الإغريق، كما اجبر القرطاجيين على الامتناع عن دعم طغاة الإغريق في الجزيرة في أي حرب ضد سيراكوز.¹

فتيموليون كان يدرك أن القوة الأساسية للبوليين في صقلية تكمن في قدرتهم على خلق حروب أهلية وسياسية بين المدن الإغريقية فيما بينها، من خلال زرع الشك والريبة فيما بينها بصفة عامة وبينها وبين سيراكوز بصفة خاصة وذلك من أجل تحقيق أهدافهم الامبريالية.² وهكذا فإن الدولة المتزامية الأطراف التي كان يحكمها دونيس الكبير (Denys l'Ancien) بيد من حديد استبدلها تيموليون باتحاد فيديريالي أساسه مجموعة من المدن الحرة، وهي سياسة اطمأن لها القرطاجيون وأوقفوا مقابلها الحرب، وهم يعلمون أن هذا الوضع لن يدوم طويلا، وأن تلك المدن سرعان ما ستدخل في اضطرابات فيما بينها ولن تحترم طويلا هذا الاتحاد والذي لم تكن المدن الإغريقية مجبرة عليه.³

¹ - Plutarque, vie de Timoléon, loc.cit.

² - Khaled Melliti, op.cit, p129.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 21-22.

II- الحروب القرطاجية ضد أغاتوكليس (Agathocle de Syracuse)

1- ظهور شخصية أغاتوكليس في سيراكوز وبداية حربه ضد القرطاجيين.

نعمت جزيرة صقلية بفترة من السلم بعد معاهدة قرطاج مع تيموليون، ويبدو أن الحكومة القرطاجية لم تتح لها الفرصة لخوض الحرب ضد الإغريق، وربما تكون قد آثرت فتح الصراع من جديد مادامت السياسة التي تتبعها قد أتت أكلها من خلال إذكاء الفتنة بين المدن اليونانية، مادام الإغريق لم يتمكنوا من إعادة بناء دولة قوية في جزيرة صقلية الشرقية كما فعل جيلون ودونيس القديم، إلا أنه بعد مضي مدة من الزمن ظهر في سيراكوز حاكم يدعى أغاتوكليس (Agathocle)، والغريب في الأمر أن هذا الرجل إنما تمكن من الوصول إلى الحكم في سيراكوز بمساعدة القرطاجيين أنفسهم وتحديدا بعون من قائد جيشهم هاميلكار (Amilcar).¹ سنة 318 ق.م.²

قال جوستينيوس (Justin) عن أغاتوكليس أنه كان وريث القوة التي كانت لدونيس الكبير، نشأ وترعرع في ظروف غامضة ولم يكن من أصول نبيلة. ولد في صقلية لأب طيان (potier)، مما يعني أن أصله كان وضعياً، إلا أنه كان ذو وسامة نادرة، انتقل مع والده إلى سيراكوز بعدما حصل الإغريق في جميع أنحاء صقلية على حق المواطنة في سيراكوز في عهد تيموليون.³

تمكن أغاتوكليس من صعود درجات السلم الاجتماعي بسرعة ملفتة، وذلك بدعم من أحد أثرياء سيراكوز يدعى داماس (Damas) كان على علاقة حميمة مع أغاتوكليس. تقلد منصباً عسكرياً مهماً في حملة عسكرية ضد مدينة أجريجونت (Agrigente). سمح موت الشري داماس لأغاتوكليس بالحصول على كل ثرواته وكذلك على زوجته في نفس الوقت، وليصبح في وقت وجيز

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 23.

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 188.

³ - Justin, op.cit, XXII, II.

واحد من أهم أصحاب الثروة في سيراكوز. كان طموحه الجارف قد دفع به إلى البحث خارج سيراكوز عن طريقه لجمع الرجال والسلاح ليشترك في المشهد السياسي المعقد في سيراكوز، ذلك لأن هذه المدينة الإغريقية كانت تقطعها الصراعات السياسية بين مختلف الفصائل السياسية أهمها الذين يعارضون أنصار الأوليجركية المنفيين من طرف الديمقراطيين من حزب تيموليون.¹

تمكن أغاتوكليس من تبوء منصب نافذ في الحزب الديمقراطي إلا أنه سرعان ما أُزغِم على ترك المدينة نظراً للشكوك التي حامت حوله بسبب أفكاره المتطرفة للتمرد والطغيان.² استقر في مدينة مورغانتينيا (Morgantina) ومن خلالها شرع في حملة من الغارات على المقاطعات القرطاجية مع من كان معه من المنفيين السيراكوزيين، وبعد أن استولى على ليونتيوم (Léontuim)، دفعت به جراته إلى محاولة الاستيلاء مع سيراكوز نفسها من خلال محاصرتها سنة 218 ق.م، ولكن المدينة استطاعت الصمود في وجه أغاتوكليس بفضل مساعدة الفرق البونية بقيادة هايملكار أحد أحفاد حنون الكبير، ووصلت الوضعية في المدينة إلى موقف يضمن لأغاتوكليس والاوليجيركيين المنفيين العودة إلى المدينة في إطار وئام وسلام عام بين السيراكوزيين. كما تم عقد معاهدة سلام مع القرطاجيين تجددت بموجبها بنود معاهدة سنة 338 ق.م، وهنا يمكن القول أن قرطاج فرضت هذا السلام على سيراكوز من أجل وضع حد للاضطرابات التي تحدث على مستوى هذه المدينة لتضمن بذلك الأمان لتجارها المربحة في الجزيرة، وبذلك أصبح أغاتوكليس مجبراً على عدم اعتماد سياسة معادية للقرطاجيين في صقلية.³

لم تدم تلك الوضعية طويلاً وسرعان ما بدأ أغاتوكليس بالعمل لصالحه ممن خلال دعم نفوذه ضد الحرب الأوليجيركي وكذلك ضد النفوذ القرطاجي في الجزيرة، وبما أن الأوليجيركيين صاروا يتمتعون بأريحية في الحياة السياسية بسيراكوز، فإن أغاتوكليس تظاهر بالقيام بحملة عسكرية ضد

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p135.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 24.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p136.

المتمردين المتجمعين في مدينة إربيتا (Erbita)، لكي يظفر بقيادتها، ومن أجل ذلك تجمع له حوالي ثلاثة آلاف رجل ليكونوا محاربين تحت إمرته.¹ استطاع أغاتوكليس جمع ذلك العدد من المقاتلين من منطقة مورغانيتينا (Morgantina) وكذلك من المناطق التي تكن الكره للقرطاجيين والذين كانوا يساعدونه سابقا في الحرب عليهم.²

ويبدو أن أغاتوكليس حين أقسم على الوفاء لقرطاج من خلال معاهدة 318 ق م مع هاميلكار، حصل على دعم عسكري من هذا الأخير تمثل في خمسة آلاف (5000) مقاتل أفريقي من أجل دعم سلطته في حكم المدينة، غير أن أغاتوكليس استغل تلك القوة في القضاء على خصومه السياسيين، فقتل أعضاء مجلس الشيوخ وعددا كبيرا من الشعب الأكثر جرأة عليه، وكذلك الأكثر ثراء بينهم.³

ويذهب ديودور الصقلي إلى أن عدد المقتولين في هذه الحادثة وصل إلى أربعة آلاف (4000) شخص⁴، والراجح أن هؤلاء الأشخاص كانوا من أنصار الحزب الأوليكركي، ومع ذلك ظل منهم عدد كبير يقدر بستة آلاف آخرين في المنفى وتحديدًا في مدينة أجريجونت، والظاهر أن إتفاقا شخصيا قد تم بين أغاتوكليس وهاميلكار والذي من خلاله راهن القائد القرطاجي على مساعدة ودعم طاغية سيراكوز الجديد، مقابل خدمة المصالح البونية في الجزيرة، وعلى أي حال فإن أغاتوكليس لم يهاجم مباشرة البونيين في حياة هاميلكار، لكن ذلك لم يمنعه من القضاء على كل من يعارض سلطته في الجزء الأغريقي من الجزيرة.⁵

أما في السنوات الموالية فقد شهدت سلطته طاغية سيراكوز الجديد نوعا من الاستقرار والتثبيت في المدينة، وفي صقلية عموما أين أدت تحرشاته بالمدن الإغريقية، وخاصة ميسينا

¹ - Diodore de Sicile, Histoire universelle, texte traduit par l'Abbé Terrasson, Tome sixième, De Bure l'Ainé et Quay des Augutins Imprimerie, Paris, 1744, Livre XIX, III.

² - Ibid.

³ - Justin, loc.cit.

⁴ - Diodore de Sicile, Histoire universelle, Loc-cit.

⁵ - Khaled Melliti, op.cit, pp136-137

(Messine) إلى تحرك القرطاجين وتدخلهم في الجزيرة ، وقد أدت نوايا أغاتوكليس السيئة ضد المدن الإغريقية في صقلية إلى ظهور حلف عسكري بين مجموعة من هذه المدن مثل أجريجونت (Agrigente)، جيلا (Géla) وميسينا بدعم منظم من مدينة تارنت (Tarente) في إيطاليا ، ونظرا لأن تارنت لم تستطع إدارة هذا الحلف بسبب مشاكل داخلية بها، فإن أجريجونت طلبت عون أسبرطة في هذا الإطار لتأطير هذا الحلف محاكاةً لتدخل تيموليون في صقلية¹.

لم تكن قرطاج تريد أن تتفاهم وتتضاعف قوة أغاتوكليس، ولذلك سعت للتوسط بينه وبين هذه المدن الإغريقية وتم التوصل سنة 313 ق م إلى إتفاقية بعناية هاميلكار إعترفت له فيها بالسيادة على مدن ثيرماي (Thermes) وسيلينونت (Sélinonte) وهيرالكليا (Héraclée)، وهي مدن إغريقية كانت تحت سيطرته منذ زمن، كما ورد في الإتفاقية ضرورة إعتراف الأغريق الآخرين بسيادة سيراكوز عليهم دون أن يفقدوا احترامهم، وكان ذلك يعني تسليم هاميلكار هذه المدن لأغاتوكليس، فهل كان ذلك قصر نظر منه أم أنه كان يخشى خوض حروب جديدة في صقلية، وما قد يترتب عنها على الجمهورية القرطاجية، أم أنه كان ينجح إلى السلام ومن ثم محاولة ضمان سلامة مناطق النفوذ القرطاجي في صقلية من خلال الابتعاد عن الفوضى والإضطرابات في الجزيرة، أم أن الحقيقة أنه كان متواطئاً مع أغاتوكليس منذ زمن بغرض الهيمنة على وطنه فهو يساعد الآن هذا المغامر ليكون له عون فيما بعد. وعلى أي حال فقد اتهمته قرطاج بالخيانة وحكمت عليه بغرامة مالية حسب ديودور الصقلي، أما جوستينيوس فيذهب إلى أن مجلس الشيوخ حاكمه بشكل سري إلا أنه مات قبل تنفيذ الحكم عليه.²

لقد نجى هاميلكار من المحاكمة والوضع المهين الذي كان ينتظره في قرطاج بفضل القدر الذي عجل بموته قبل عودته إلى العاصمة البونية ، لكن ذلك الحكم بحسب رواية جوستينيوس

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² ستيفان قزال ، ج3، المرجع السابق، ص25.

أعطى الفرصة لأغاتوكليس للتنصل من كل إلتزاماته مع القرطاجيين، ومن ثم إعلان الحرب عليهم.¹ وفي سبيل تحقيق طموحاته قام أغاتولكس بحملة سياسية وعسكرية تهدف إلى تنظيف صقلية من كل ما يبدو معارضا لسلطته من قريب أو بعيد.²

كانت سياسته تهدف إلى التخلص من أعدائه الداخليين بغرض تأمين ظهره من الخلف، وذلك تحسبا لحربه التي سيشعر فيها ضد قرطاج. لم يكن يبدو لمشروعه القادم أي نهاية أو حد. يجب القول أن المعاهدة الأخيرة التي وقعها مع البونيين سمحت له بتوطيد موقعه من خلال الوضع تحت تصرفه موارد مهمة من السلاح ومن الفضة، كما أنه تحصل من خلال إتفاقه مع اليونانيين على درجة من الوفاق والصداقة مع كل المدن الإغريقية التي كانت تعارضه، والتي دخلت في حلفه وطردت من أجل ذلك المنفيين السيراكوزيين بما في ذلك مدينة ميسينا (Messine) ورغم ذلك وطبقا لأستراتيجية شخصية لم يتردد هذا الطاغية في تصفية معارضة من هذه المدينة.³

لم يكتف أغاتوكليس بهذا الحد بل جاهر بعدائه للقرطاجيين، وبعد أن جند الكثير من المرتزقة بدأ حملته داخل جزيرة صقلية، فاستولى أولا على مدينة ميسينا بالقوة، وبدأ يتحرش بمدينة أجريجونت، وعاث فسادا في مناطق النفوذ القرطاجي في صقلية، فحرب الأرياف والمدن ، لقد كانت بذلك حربا علنية على البونيين ، ومن اجل حماية أجريجونت أرسلت قرطاج أسطولا وأمرت قواتها بالتمركز في هضبة إكنوموس (Ecnomos) بالقرب من مصب نهر هيميراس (Himéras) بين أجريجونت وجيلا ، وفي هذه الأثناء ظهر أمام سيراكوز خمسين (50) مركبا قرطاجيا ، وبما أن الحكام في قرطاج كانوا متحمسين لعملية عسكرية حاسمة في صقلية فقد جهزوا حملة كبيرة عُيِّنَ على رأسها هاميلكار بن جيسكون.⁴

¹ - Justin, op.cit, XXII,III.

² - Khaled Melliti , op.cit, p 138.

³ - Ibid.

⁴ - ستيفان قزال ، ج3، المرجع السابق، ص25.

جندت من أجل هذه الغاية قرطاج المرتزقة من الأفارقة ومن البليار ، كان تحركا بونيا غير مسبق منذ هزيمة كرىموس (Crimisos) 340 ق م ، وكانت الحملة مزودة بفرقة من النخبة القرطاجين من الفين (2000) من نبلاء القرطاجيين من بينهم يؤكد ديودورا الصقلي الكثير من المقاتلين من ذوي الشهرة العسكرية ، إلا أن عددا كبيرا منهم لم يحصل له شرف إثبات هذا الصيت الحربي وذلك لأن عاصفة عنيفة عرقلت إبحارهم نحو صقلية وسببت لهم خسائر كبيرة على مستوى أسطولهم، إذ خسر القرطاجيون حوالي نصف مراكبهم الحربية وأكثر من مائتي (200) مركب نقل، ولم يصل منها إلى القائد القرطاجي هاميلكار الذي قد سبقهم إلى الجزيرة سوى حطام هذا الأسطول ، لذلك عمل هذا القائد على تجنيد عدد كبير من المقاتلين من جزيرة صقلية نفسها. كانت الإمكانات القرطاجية على الأرض لا تجزم بالتفوق على الإغريق ولا تضمن النصر، إلا أن سير الأحداث فيما بعد سيثبت مدى كفاءة قائد الحملة الجديد هاميلكار بن جسكون.¹

وتجدر الإشارة إلى أن أغاتوكليس خلال تحضيره لحرب القرطاجيين في صقلية قام بمراسلة أغريق قوريني (Cyrène) في ليبيا للإستعانة بهم ضد قرطاجة، كما أنه لا يستبعد أن يكون قد اتصل بالليبيين أنفسهم الذين لطالما كانوا على علاقة سيئة مع العاصمة البونية. ولا يعرف بالضبط متى كانت تلك الاتصالات وليس من المستبعد أن تكزن قد حدثت حدثت في عهد هاميلكار، وربما كانت نية مهاجمة قرطاجة في عقر دارها مبيتة منذ زمن².

حشد هاميلكار بن جيسكون مايقارب الخمسة والأربعين ألف (45000) جنديا مقسمة إلى أربعين ألف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان ، ويبدو أن الصيت القوي الذي كان يتمتع به قائد الحملة الجديد كان له ما يبرره، وهو مستمد من خبرته التي أكتسبها حين كان مساعدا لوالده في حملاته العسكرية ، كان المطلوب منه إصلاح وضعية جيشه التي كانت في البداية سيئة

¹ - Khaled Melliti , op.cit, pp138-139.

² - مفتاح محمد سعد البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي من القرن السادس حتى منتصف القرن الثالث ق م وأثره على الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والدينية في قرطاجة، مجلس الثقافة العام ، طرابلس ليبيا ، 2008، ص 158.

بسبب العاصفة. وإذا ما أضفنا إلى هذه المعطيات إستلاء اليونانيين على أسطول مكون من عشرين (20) مركبا سيراكوزيا، فإن ذلك ألهم حماس المدن الصقلية الحليفة لهاميلكار والتي عانت منذ مدة من الإحباط بسبب نجاحات وإنتصارات أغاثوكليس وتقدمه على الأرض تنفيذا لمشاريعه، ومقابل هذا التحرك الحيوي لهاميلكار بن جيسكون، فضل أغاثوكليس مساعدة مدينة جيلا له وهي التي سيكون دورها الإستراتيجي في المنطقة مهم جدا في الأحداث القادمة، وقد نجح في السيطرة عليها سنة 311 ق م عن طريق الحيلة ثم تخلص فيها على أربعة آلاف (4000) من المعارضين ويحصل على ثروة معتبرة ثم لينهي الأمر بوضع أحد فيالقه عليها ، ليتوجه بعدها إلى إكنوموس (Ecnomos) وهناك إستقر في قلعة مواجهة لهذه الهضبة والتي يحتلها البونيون.¹

ثم يمر وقت طويل لتحسم الأمور بين الطرفين فبعد مناوشات وإشتبكات بين القرطاجيين وقوات أغاثوكليس إتجهت الأمور نحو التصعيد، لتقع المعركة الحقيقية، ويبدو أن الحظ هذه المرة كان لصالح البونيين،² إذ أنه في آخر المطاف وصلت قوات جديدة من قرطاج، ونزلت خلف قوات الإغريق، وهو الأمر الذي عجل بهزيمة أغاثوكليس وجنوده.³

أما عن تفاصيل أحداث هذه المعركة فإنه بعد مرور زمن التربص والملاحظة والسكون بين الجيشين، وبعد عملية نهب وتخريب قام بها الطرفان في كلتا الجهتين، قام أغاثوكليس بمفاجأة جزء من الجيش القرطاجي ودفعه للتراجع، ثم عمد لملاحقة الجنود الأغريق المتحالفين مع أعدائه، ويبدو أنه وهو مدفوع بذلك الحماس قرر اجتياز النهر الذي يفصل بين المعسكرين لباغت العدو بهجوم غير متوقع، وحين شاهد هاميلكار تقدم الإغريق نحو معسكره رغم المقاومة الشرسة حول الخندق الذي يحمي المعسكر ، عمد القائد القرطاجي إلى تقديم كوكبه من الرماة البلياريين ، وقد أحدثت نجاعة رمي هذه الكوكبة خسائر معتبرة في صفوف قوات أغاثوكليس الذين تم إبعادهم إلى ماوراء

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p139

² - ستيفان فزال، ج3، المرجع السابق، ص 25 .

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص188.

الخندق. إلا أن المعسكر البونيقي تمت مهاجمته من جهات أخرى وكادت الهزيمة تلحق بالبونيين لولا قوات الدعم الليبية، والتي وصلت وهاجمت مؤخرة الإغريق لتحث عملية الفرار في صفوف الإغريق، الذين حاول من نجى منهم من الموت اجتياز النهر ليموت غرقا في مجرى وادي هيميراس، أما أولئك الذين حاولوا العودة إلى معسكرهم ، فإن تلك المسافة الفاصلة بين النهر ومعسكرهم والمقدرة بثمانية كيلومترات قد سهلت المهمة للخيالة البونيين الذين أحدثوا مذبحة كبيرة بين فرق الأعداء، ويبدو أن الفرسان الإغريق هم وحدهم من نجوا من تلك المقتلة الكبرى.¹

طاف هامليكار بعد إنتصاره على أغاثولكس في أنحاء صقلية، أين كان يعامل سكانها بلطف وهو الأمر الذي جعل الكثيرين من الأهالي، وحتى من الإغريق يسارعون إلى الدخول في حمايته والخضوع له.² أما أغاثوكليس الذي فقد في المعركة سبعة آلاف (7000) من رجاله مقابل خمسمائة فقط في صفوف البونيين، فقد جمع بقايا جيشه وأنكفأ على نفسه في مدينة جيلا ليصرف إهتمام العدو عن سيراكوز، ويسمح لمدينته بالتزوم والدعم مخافة حصار طويل،³ ويبدو أنه عاد بعد ذلك إلى سيراكوز وقام بدعم تحصيناته لتجابه الحصار الذي كان يظهر وشيكا، خاصة مع تواجد أسطول بوني بالبحر أمامها منذ زمن.⁴

يحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هامليكار يكسب ود المدن الإغريقية من خلال إتباع سياسة أسلافه المتمثلة في رفع شعار حرية الإغريق ليظفر في النهاية بحلف وصدقة كل المدن الصقلية الكبرى في الجزيرة مثل كامارين (Camarine)، تورمونيوم (Taurmonium) وحتى ميسينا (Messine)، عازلا بذلك سيراكوز. وتجدد الإشارة هنا إلى أن عزلة أغاثوكليس في سيراكوز سهلت مهمة هامليكار بشكل كبير خاصة وأن هذا الأخير كان أكثر تصالحية من عدوه

¹ - Kahled Melliti, op.cit, pp139 -140.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق ص25.

³ - Kahled mellitii, op.cit, p140.

⁴ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 25.

طاغية سيراكوز بالنسبة لسكان صقلية، صقليون كانوا أم إغريق ، ومقابل هذا النجاح الذي حققه هاميلكار بن جيسكون عمل أغاتوكليس على نقل جميع فرقته إلى سيراكوز أين قام بتجميعها، وقوى تحصينات المدينة، وبعد أن أصبح تحت يده حشود معتبرة أعاد مهاجمة البونيين، إلا أن هاميلكار تمكن من هزيمته مرة أخرى.¹

2- أغاتوكليس ينقل الحرب إلى إفريقيا

أدرك أغاتوكليس أنه لم يعد يملك القوة الكافية لمقاومة القرطاجين ورأى أنه لا يمكنه الصمود طويلا أمام قوات البونيين الزاحفة إليه عاجلا أم آجلا، وهنا فكر في مخطط جديد لانقاذ مدينته سيراكوز ، وكان ذلك المخطط يهدف إلى غزو قرطاجة نفسها². هذا العمل الفجائي والخطير إعتبره المؤرخون والمتخصصون في الحرب عملا جريئا بل وفي منتهى الجرأة والجسارة، إذ أنه نقل الحرب إلى إفريقيا وكان صاحب السبق في فتح الطريق لهذه المغامرة التي سيتبعها بعد ذلك عدد من قادة الرومان مثل روغولوس (Régulus) وسكيبو الإفريقي (Scipion l'Africian) ثم بعد ذلك سيكيو إيميليانوس (Scipion Emilien).³

ولا يمكن أن يعتبر هذا العمل من قبل أغاتوكليس عملا متهورا أو جموحا خاصة وأنه قد بلغ الخمسين من عمره، وهي سن لا يُقبلُ فيها المرء على أي عمل إلا بعد التروي والتأني والتأمل، ولئن وصفت هذه الخطوة بالجريئة فهي في الحقيقة لم تكن توصف بالرعونة نظرا لأنها جنبته الوقوع في كارثة، فالقرطاجين في هذا الموقف أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من وضع أيديهم على صقلية، ولم يبق لهم إلا حصار سيراكوز الذي إن راهن عليه أغاتوكليس والذي سيخسره حتما، خاصة مع عدم إستطاعته على الحصول على المؤن، إضافة إلى ذلك هل كان السكان والمقاتلون سيصممون

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p140 .

² - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 158-159.

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 148-149.

ويحتملون آلام الحصار الذي كان يبدو محسوم النتائج؟ وهل سيبقى ولاؤهم له حتى النهاية خاصة مع كثرة أعداد خصومه السياسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة للإنقلاب عليه ودعوة المنفيين من شرق الجزيرة بأسلحتهم.¹

كما أن أغاتوكليس كان يأمل من خطوته هذه الحصول على أموال ومقاتلين من خلال نهب المدن الإفريقية الغنية، ولم لا كسب ود و صداقة وحلف الليبيين الذين يتطلعون إلى التحرر من الهيمنة القرطاجية.² وربما يكون الطاغية السيراكوزي قد نسق قبل كل شيء مع الليبيين المعادين لقرطاج ، إذ لا يمكن ترجيح أن يغامر أغاتوكليس بعدد من الجنود لا يزيد عددهم عن أربعة عشر ألف (14000) مقاتل، كما تشير إلى ذلك المصادر التاريخية، ويذهب بهم لغزو قرطاج وهو الفار في الحقيقة من جيش أرسله القرطاجيون لحربه في صقلية، إذ يرجح هنا أنه كان ضَمَنَ موطن قدم لجنوده، وقوات محلية توفر لهم الحماية.³

يضاف إلى كل ذلك عدم وجود جيش قرطاجي يحمي العاصمة البونية على عادة القرطاجيين، ومعظم مواطنيها لا خبرة لهم بالحرب، أما الأفارقة الذين تحكمهم قرطاج فقد ينتفضون ضدها، خاصة وأن هذه الأرض هي المجال الحيوي للمرتزقة الذين تعتمد عليهم قرطاج، وقد يستميلهم أغاتوكليس ويتألفهم بالمال والغنائم أو يمنحهم مناطق خصبة إزدهرت واخضرت بفضل السلام الطويل الذي عاشته الأرض الإفريقية. أما الانتصارات التي قد يحققها أغاتوكليس في إفريقيا فمن شأنها أن تبعث روح الشجاعة إلى المحاصرين في سيراكوز، وربما تُحوّل مواقف الصقليين الآخرين بإتجاه الولاء لهذا الثائر الإغريقي. وعلى أي حال فهذه الحملة سترغم القرطاجيين في النهاية على تقسيم قواتهم بين صقلية وإفريقيا مما سيؤدي إلى تخفيف الحناق عن مدينة سيراكوز بصفة خاصة، وعن صقلية عموما، والأكد أن حسابات هذا الطاغية الذي لا تعوزه الفطنة لم

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص26.

² - Kahled Melliti, op.cit, p141

³ - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 159.

تكن ترمي لاحتلال العاصمة قرطاج لعلمه بشدة تحصيناتها، ولعدم إمتلاكه آلات حربية تمكنه من تحطيم أساطيلها ومحاصرتها من جهة البحر، ولكنه يمكنه الضغط عليها للحصول على إتفاقية مع الدولة الإفريقية، ويخلص بذلك الإغريق من خطر القرطاجين الدائم.¹

لم يفصح الطاغية لأحد عن المشروع المتضمن ذهابه إلى إفريقيا، أوكل أمر حكم سيراكوز إلى أخيه أنطوندر (Andandre) تاركاً له قوات كافية لحمايتها، وفي نفس الوقت قام بتجنيد عدد كبير من المقاتلين حيث أمر المشاة بالتجهز تحت السلاح والإستعداد، أما الخيالة فأمر بأخذ أسلحتهم وسروجهم دون جيادهم لعدم قدرته على حملها في السفن، وأملاً في الإستيلاء على جياد في إفريقيا حين يصلون إليها ومخافة إنقلاب السيراكوزيين عليه حين يغادر المدينة فرق أفراد العائلات السيراكوزية عن بعضهم البعض، حيث أخذ أفراداً من كل عائلة وترك أفراداً آخرين، ولذلك لا يستطيع من تبقى في المدينة الثورة عليه خوفاً على أبناءهم الذين جندهم معه. وبما أنه كان بحاجة إلى الأموال أخذ ما يريد من ثروات المعابد، كما أخذ الحلي من نساء المدينة لأستغلالها في حملته.²

أركب الطاغية قواته على ظهر ستين (60) سفينية، وكانت مؤلفة من قرابة عشرة آلاف (10000) من المرتزقة الإغريق والسمنيين (les Samnites) الإيطاليين والأتروسك (Etrusques) والغالين (les Gaulois) كما أخذ معه ولداه أركاغوتوس (Archagathos) وهيراكليد (Héraclide).³ وبعد أن باغت السفن البونينية التي كانت ترابط بميناء سيراكوز، نجح أغاتوكليس في الخروج من شاطئ المدينة والتوغل في عرض البحر بأسطوله ووصل السواحل الإفريقية في شهر أوت من سنة (310) بعد سبعة (7) أيام من ملاحقة البونيين له في عرض البحر. أنزل أغاتوكليس قواته في ساحل رملي بين منطقتي داغلا (Dagla) ومرایسة (Maraisse) واللذان كانتا

¹ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص26-27.

² Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, IX.

³ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 27.

قديمًا تحملان أسمى ميسوا (Missua) وسمين (Samnina) على الساحل الشمالي للرأس الطيب (Cap Bon) وهناك خاض معركة ضد السفن القرطاجية التي كانت تلاحقه ، وتمكن من صدها بعد أن أدرك القرطاجيون أن الإنزال قد تم وتفرق جنود أغاتوكليس في العمق الإفريقي.¹

وهناك من المؤرخين من أشار إلى أن أغاتوكليس قد نزل بجزيرة أبي شريك بجهة مقالع الحجر (les Carrières)، وهناك أقدم على حرق سفنه لكي لا يترك فرصة لرجاله للتخاذل أو الفرار فإما الإنتصار أو الهلاك.² وقد برر الطاغية خطواته هذه بأنه قد نذر للآلهة إن هو نجى من ملاحقه القرطاجين له في عرض البحر، ليهبها جميع سفنه.³ وقد قدم أغاتوكليس العديد من القرايين بعد وصوله الشاطئ الإفريقي لإلهتين ديمتري (Démeter) و كوري (Coré) حاميتي صقلية ، كما أقام تحصينات بمنطقة الرأس الطيب في طرفها عند البحر.⁴

وفي هذا الإطار يصر بعض الباحثين على أنه لولا علم أغاتوكليس بحماية محلية وتنسيق مسبق مع قوات محلية، لما فعل ذلك، ويقطع الأمل في العودة لجنوده ، كما أنه لم تواجهه في اليابسة أي مقاومة تذكر،⁵ لذلك شق الطاغية طريقه نحو مدينة ميغابوليس (Mégalepolis)، والتي يرجح أن موقعها الأثري يعرف اليوم بإسم كيركوان (kerkouane)⁶، الواقعة بين شاطئ قليبيا (kélibia) والهوارية (Hawaria)،⁷ وهناك من أشار أن هذه المدينة هي مدينة مقصورة لة (Maxula) وهي رادس (Rades) الواقعة في الجنوب الشرقي لمدينة تونس الحالية، ولكن الراجح

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p 141

² - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 189.

³ - Kahled Melliti, op.cit, p 142

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص32

⁵ مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 159 .

⁶ - Kahled Melliti, op.cit, p 141

⁷ - <http://www.machoua.com/sbeitlo/kerkouane-2.htm>. 10/08/2020 à 11:25.

أن ميغابوليس التي تحدث عنها ديودور الصقلي كانت على مسافة قريبة من مكان نزول أسطول أغاتوكليس لذلك يرجح أنها تلك القرية من الهوارية.¹

أما عن الطريق الذي قطعه جيش أغاتوكليس من الشاطئ أين كان يعسكر إلى هذه المدينة، فقد قدم له ديودور الصقلي وصفا غاية في الروعة والجمال، إذ تحدث عن منطقة تملأها الحدائق والبساتين التي ترويهما الجداول ، أما البيوت الريفية، فكانت مصففة تتلوا بعضها بعضا، وقد بنيت بنوع من الترف يدل على ثراء ملاكها ، كما كانت المنطقة مليئة بأشجار الكروم والزيتون وكذا أشجار الفاكهة. وهناك سهول ترعى فيها قطعان البقر والغنم ومراع أخرى تربي فيها الخيول، وهو ما يدل على الثروات وسعة العيش التي كانت تتمتع بها الإرسقراطية البونية ، كما تدل أيضا على طول عهد هذه المناطق بالسلام والأمن ومتعة الحياة. كما عبر ديودور الصقلي عن إعجاب الصقليين بتلك المشاهد الرائعة التي شاهدها، وإستعادوا بذلك ثقتهم بأنفسهم، وأدركوا أن هذا سيكون ثمن الإنتصار الذي سيحققونه، وأنساهم ذلك تلك المشاهد المريعة للنيران التي التهمت مراكزهم، والتي أصابتهم بالصدمة في بداية الأمر.²

حين لاحظ أغاتوكليس حماسة رجاله، أصدر لهم الأمر بالهجوم على المدينة (ميغابوليس)، ومن خلال عنصر المفاجأة الذي كان في صالح الإغريق، وكذا قلة خبرة سكان المدينة بفنون القتال، نجح أغاتوكليس في أخذ المدينة بسهولة كبيرة، ثم أمر جنوده بنهبها، الأمر الذي عاد على الجيش بغنائم معتبرة، وفي نفس الوقت منحهم هذا النصر دفعا معنويا وشجاعة إضافية.³ إتجه بعد ذلك أغاتوكليس نحو مدينة تيناس البيضاء (Tynes la blanche)، والتي كانت تبعد عن

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 34.

² - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XIII.

³ - Ibid

قرطاج حوالي 200 مرحلة،¹ واستولى عليها ، أما جنوده فقد فضلوا الإحتفاظ بهذين المدينتين لتكونا مكانا آمنا لغنائمهم وأموالهم². إلا أن أغاتوكليس أصر ألا يحتفظ بأي مدينة قبل النصر النهائي على القرطاجيين، ولذلك قام بهدم المدينتين ميغابوليس وتيناس البيضاء، وعسكر في مكان مكشوف.³

أما في مدينة قرطاج فكان الرعب والخوف يخيم على الجميع، هذا إضافة إلى الإشاعات التي مفادها أن الأسطول القرطاجي في صقلية قد حلت به هزيمة ساحقة، ولولا ذلك لما أستطاع الطاغية القدوم إلى بلادهم. إلا أنهم بعد أن تبينوا الأمر، إجتمع مجلس الشيوخ وعين على وجه السرعة قائدين ليكونا على رأس جيشين أحدهما بوملكار (Bomilcar) ابن أخ هاميلكار بن حنون، أما الثاني فكان حنون (Hannon) وهما من عائلتين متنافستين، وكان ذلك القرار من مجلس الشيوخ لقطع الطريق عن أي طموح سياسي، أو طمع في أخذ السلطة بالقوة خاصة مع وجود شكوك من تطلع بوملكار لحكم إستبدادي.⁴

ثم تجنيد الرجال من المقاطعة البونية والمدن الحليفة بسرعة لأن الخطر كان داهما، ووصل عدد المقاتلين إلى أربعين ألف (40000) من المشاة وألف (1000) من الفرسان، إضافة إلى ألفي (2000) عربية حربية. وسارت القوات تحت راية القائدين إلى أن عسكرا على مرتفع لا يبعد كثيرا عن قوات الإغريق وتم تصفيف الجنود للمعركة، ويبدو أن التفوق العددي للقرطاجيين منحهم ثقة زائدة بأنفسهم. قاد حنون الجناح الأيمن الذي كانت به قوات النخبة من القرطاجيين، أما الجناح

¹ - 200 مرحلة تعني أكثر من 350 كم، ومن خلال هذه المسافة يمكننا أن نشكك في هذا الرقم الذي قدمه ديودور الصقلي، لأن المسافة بين مكان نزول أسطول أغاتوكليس وقرطاج لا تتعدى بأي حال من الاحوال الخمسة والعشرين فرسخا أي بمعنى أنها أقل بكثير من تلك المسافة التي أشار إليها ديودور الصقلي: انظر ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص34.

² - نفسه.

³ - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, loc.cit.

⁴ - Kahled Melliti, op.cit, p 142.

الأيسر فرتب فيه بوملكار قوات المشاة التي كانت كتائبها مكتظة نظرا لطبيعة الأرض التي لم تكن تسمح بالإنتشار الواسع للجند، أما العربات والخيالة فقد تم وضعها في مقدمة الكتائب¹.

حين علم أغاتوكليس بخطة بخططه القرطاجيين ووضعهم قبل المعركة، أسند إلى ابنه أركاغاثوس (Archagathus) قيادة الجناح اليمين المكون من الفين وخمسمائة (2500) رجل من المشاة تليها ثلاثة آلاف (3000) من السمنيين (les Samnites) والتيرانيين (Tyrhéniens) والكتيين (les Celtes) أما أغاتوكليس فقد تكفل بقيادة الجناح الأيسر أين كان محاطا بحرسه المشكل من ألف (1000) من المشاة الأغريق الأوبليت (Hoplites) ليكونوا في مواجهة النخبة القرطاجية أو الفيلق المقدس، ثم نشر على الجناحين خمسمائة (500) من رماة السهام ورماة المقاليح، إلا أن جنوده بحسب ديدور الصقلي لم يكونوا مسلحين بشكل كاف وبعضهم لم يكن لهم دروع².

دون إنتظار الإمدادات التي كانت ستصل إليهم بادر القرطاجيون بالهجوم، كان أغاتوكليس قد اختار بعناية الأرض التي يعسكر بها التي ستكون قريبة من ميدان المعركة بحيث تشكل صعوبة على تقدم الكتائب البونية³. إنطلق هجوم العربات البونية التي واجهتها قذائف المنحنيق الإغريقية، التي إنهالت على الدواب لدرجة أن قسما منها إرتبك وتعطل، بينما إستطاع البعض الآخر المرور في سلام بين صفوف الجيش الإغريقي الذي أفصح جنوده لها الطريق ليتفادوا الاصطدام بها. وفي الوقت الذي قام فيه الخيالة القرطاجيون بالهجوم على جيش أغاتوكليس إستطاع الجنود الإغريق إمتصاص هذه الصدمة وأرغموهم على التراجع. إشتبك كمرحلة ثانية جنود المشاة من الطرفين، ويبدو أن القائد حنون الذي كان على رأس الفيلق المقدس، أراد أن يظفر

¹ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 36 .

² - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XI.

³ - Kahled Melliti, op.cit, p 143

بشرف هذه المعركة، فتوغل في صفوف الإغريق يقاتل ببسالة منقطعة النظير، وبحماس شديد إلى درجة انه كبد أعداءه عددا كبيرا من القتلى، إلا أنه سقط قتيلا لكثرة الجراح التي لحقت له ¹. كان مقتل حنون بمثابة بعث لروح الحماس في الجيش الإغريقي، وعاملا مشبها لمعنويات البونيين ، أما القائد الثاني بوملكار فقد اختار الانسحاب بفرقه مُقَدِّراً أن ساحة المعركة غير مناسبة لطريقة قتال البونيين.² أما ديودور الصقلي فذهب إلى أنه انسحب لحسابات شخصية بينه وبين الحكومة القرطاجية، متوها أنه إذ انتصر في المعركة فلن يحتاج مواطنوه إليه بعد ذلك، ولن يستطيع النجاح بمشروعه الرامي إلى الهيمنة على السلطة. وفي الحقيقة لا يمكن الجزم بهذه الأفكار للقائد هاميلكار خاصة وأنه لم يكشف بها أحداً ولم يعلنها أمام الناس ، لكن الثابت أنه أصدر الأمر بالتراجع نحو المرتفع الذي كان يربط به الجيش قبل بداية المعركة، ولكن تحت ضغط الجنود الإغريق، سرعان ماتحول ذلك إلى فرار لأن الجيش البوني أدرك أن جبهته إنكسرت ولذلك تفرقت كتائبه. أما الفيلق المقدس الذي حارب مقاتلون بشجاعة فإنه تراجع في نهاية الأمر لأن ظهره صار مكشوفاً بعد فرار من كان خلفه من جنود، لذلك صار مهددا بأن يباعته الإغريق في الخلف، وبذلك كان التراجع النهائي للبونيين باتجاه قرطاج. أما أغاتوكليس فقد لاحق الفارين ما استطاع ليعود بعد ذلك أدراجه، وينهب المعسكر البوني.³

وقد قدرت خسائر الإغريق في هذه المعركة بنحو مائتي (200) محارب في حين أن أعداءهم القرطاجيين خسروا حوالي ألف (1000) محارب بحسب رواية ديودور الصقلي.⁴ أما جوستينوس فيقول أن ألفين (2000) من الإغريق وثلاثة آلاف (3000) من البونيين قد قضوا في هذه المعركة.⁵ إنهمز القرطاجيون إذن ولاذوا بمدنيتهم ليحتموا بأسوارها العالية وتحصيناتها القوية، وقد

¹ - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XII.

² - Kahled Melliti, loc.cit.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 37.

⁴ - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, loc.cit.

⁵ - Justin, op.cit, XII, VI.

المتهم هذه الكارثة وظنوا أنها حلت بهم نتيجة لسخط الآلهة عليهم، لذلك بادروا بتقديم القرابين لها من أطفالهم، حيث تتحدث المصادر بأنهم قدموا خمسمائة (500) من صفوة أطفالهم وفلذات أكبادهم لتلتهمهم النيران إسترضاء لآلهتهم وإسكاتا لغضها.¹

أما أغاتوكليس فقد إستولى على العديد من المواقع الحصينة قرب العاصمة البونية، كما دخلت بعض القرى والمدن في حلفه حقدا على قرطاجة أوخوفا منه، لذلك أقام معسكره قرب تونس الحالية ساعيا إلى تثبيط همة أعدائه بتواجده الدائم قرب أسوارهم. وقد يكون هدفه هو ضرب الحصار عليهم منعا لأي تموين يصلهم من جهة البر، عازلا بذلك أبنتهم عن محكوميتهم وجميع حلفائهم الأفاقة. ويبدو أنه بعد مدة ترك حامية من جيشه على هذا المعسكر وخرج في حملة على المدن الساحلية الشرقية، فاستولى على مدن نيابوليس (Néapolis) أو نابل الحالية والتي عامل سكانها معاملة حسنة، ثم إتجه نحو هدرومييت (Hadrométe) أو سوسة الحالية، ليحاصرها ويستسلم له أهلها فيما بعد ،كما أخذ مدينة تبسوس المجاورة لها Tapsus أو رأس ديماس ،كما حاز بعد ذلك عددا كبيرا في المدن بحيث وصل عدد المدن والقرى التي أصبحت تحت سيطرته منذ نزوله المنطقة إلى مائتي (200) مدينة.²

في تلك الأثناء انتهزت قرطاج فرصة غياب أغاتوكليس عن معسكره لتهاجم الحامية التي كانت مرابطة به وتستولي عليه، لكن القرطاجين لم يفلحوا في إستعادة مدينة تونس (Tunis) التي سبق وأن استولى عليها الطاغية رغم وصول قوات دعم من صقلية لدعم القرطاجيين، وكذلك مجموعات من الليبيين (les Libyens) المتحالفين معهم، وبذلك إستطاع الإغريق صد الهجوم القرطاجي على المدينة، وحين علم أغاتوكليس بهذه الأخبار وهو الذي كان قد توغل في غرب البلاد القرطاجية، عاد أدراجه وانقض على حين غرة على تلك القوات البونية التي كانت ترابط

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 189.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 38،39،40.

أمام مدينة نونس، وتحدثت المصادر التاريخية في هذا الإطار عن قتل أغاثولكش لألفين (2000) من البونيين وأسر آلاف منهم.¹

ويتحدث ديدور الصقلي عن أغاثوكليس أنه حين كان يحاصر مدينة هدروميت عقد حلفاً مع ملك الليبيين الذي يدعى إيليمار (Elymar) إلا أن هذا الأخير سرعان ما تراجع عن حلفه مع أغاثوكليس وانقلب عليه وقاتله، لكن الطاغية استطاع هزيمته وقتله مع عدد كبير من رجاله وهو مازاد من قوة أغاثوكليس وثقته بنفسه، وفي نفس الوقت حطّ من ثقة القرطاجين بقواتهم المحاربة والتي كانت خلال موقعتين تفوق عدداً وعدة قوات الإغريق، ومع ذلك منيت بهزائم متتالية مقابل إنتصارات مصيرية لطاغية سيراكوز.²

وقعت هذه الأحداث التي أوردها ديدور الصقلي في نفس السنة التي نزل فيها أغاثوكليس أرض إفريقيا أي بين صيف 310 ق م وصيف 309 ق م، ورغم مرور سنة على حملة الإغريق في إفريقيا إلا أن القرطاجين المرابطين في صقلية ظلوا مصرين على الإستلاء عن سيراكوز. وفي بداية صيف سنة 309 ق م حاول هامليكار بن جيسكون أخذ المدينة من خلال الإقتراب منها بجيش كبير، إلا أنه تمت مباغته ليلاً أثناء سيره فوقع في أيدي الإغريق الذين قاموا بقتله وإرسال رأسه إلى أغاثوكليس.³

إستطاعت بقايا جيش هامليكار الإلتحاق بالقائد السيراكوزي المنفي والمعارض لأغاتوكليس دينوكرات (Dinocrate) وذلك تحت تأطير وقيادة القادة البونيين نواب هامليكار.⁴ أغاثوكليس الذي زاد من نشوته هذا الإنتصار الغير متوقع في صقلية، حاول الإحباط والخط من همم القرطاجين من خلال جلبه رأس هامليكار وعرضه أمامهم مقابل المعسكر البوني، إلا أن

¹ -Kahled Melliti, op.cit, p 144 .

² - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XVIII.

³ ستيغان فزال، ج 2، المرجع السابق، ص ص 40، 41.

⁴ - Kahled Melliti, loc.cit.

القرطاجيين الذين سجدوا تحية لملكهم هاميلكار إكبارًا وإجلالًا له، والذين تألموا لفقدانه ومقتله ومع ذلك أصروا على مواصلة الصراع مستفيدين من خبرتهم الطويلة في الحرب، وكذلك من تحصيناتهم التي يزالون يراهنون على قوتها.¹

عاش معسكر أغاتوكليس عدداً من التمردات الداخلية بسبب خلافات بينه وبين كبار ضباطه الذين لم يعودوا يخفون إستيائهم من تصرفات قائدهم وأبنائه، وصاروا يتحينون الفرص للتطاول عليه، إلا أن أغاتوكليس ورغم حدة تلك الحركات التمردية التي وصلت إلى درجة القبض عليه وإحتجازه في المعسكر ، كان يجد الوسيلة لإنقاذ نفسه ومركزه وإستعادة قيادة الجيش من جديد. ولم تفوت قرطاج هذه الفرصة لاستماله بعض رجال أغاتوكليس، وقد نجحت في ذلك وحشدت من جديد قواتاً لحربه، ولكن أغاتوكليس نجح كعادته في هزيمة البونيين من جديد في منطقة بين عاصمتهم قرطاج وبين تونس التي كان يعسكر بها طاغية سيراكوز، وكان ذلك سنة 308 ق.م. وفي خضم هذه الحادثة تمكن أغاتوكليس من سحق وحدة من الفرسان الإغريق المعارضين له ولحكمه بقيادة قائد يدعى كلينون (Clinon) كان يحارب مع القرطاجيين، ويبدو أنه كان في إفريقيا عند القرطاجيين حين نزل أغاتوكليس أرضها سنة 310 ق م.²

لم يغير هذا الإنتصار الأخير من وضع أغاتوكليس شيئاً، فجيّشه لا يزال محدود العدد غير قادر على إحراز إنتصار حاسم على القرطاجيين، ومن أجل إخضاع قرطاج والسيطرة عليها أو حتى إجبارها على التفاوض معه لابد له على الأقل من مضاعفة أعداد قواته، أما الأفارقة الذين قبلوا التحالف معه فكان يعلم أن ثباتهم معه لم يكن مضموناً ، كما أنه لم يكن يملك بوابة بحرية تمكنه أن يتلقى الإمدادات من خلالها.³

¹ - Kahled Melliti, loc.cit.

² - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XXXIII (33),XXXIV (34), XXXVIII (38), XXXIX (39).

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص44.

ومن أجل كل هذه الأسباب فكر أغاتوكليس في طلب العون من أوفيلاس (Ophelas) المقدوني ، وهو أحد رفقاء الإسكندر الأكبر، والذي انتهى به الأمر في هذه الفترة حاكما لقورينة (Cyrénaïque) مساعدا لبطليموس حاكم مصر. كان أوفيلاس ومنذ بضع سنوات الحاكم الفعلي للمستعمرات الإغريقية في شمال إفريقيا، وكان يملك تحت يديه قوات هامة . أوفد أغاتوكليس مندوبا عنه إلى أوفيلاس يطلب منه مساعدته في محاربة القرطاجيين على أن يتركها له بعد القضاء على البونين لأنه لم يكن يطمع بحكمها،¹ إنما كان طموحه في بسط نفوذه على صقلية وحكما وهي التي لن يجد مشقة في إخضاعها إذا ما هُزِمَ القرطاجيون وتم القضاء على عاصمتهم.²

كان لأوفيلاس طموحات توسيعية نحو الغرب، وقد تقاطعت مع طموحات أغاتوكليس، هذا الأخير كان يعرف أنه لن يتمكن من القرطاجيين ماداموا يتحكمون في البحر، فهو يأمل في مساعدة الأسطول البطلمي (Ptolémique) لكي يقطع الإمدادات عن العاصمة البونية، وبذلك يتم له محاصرتها برا وبحرا.³ وافق إذن أوفيلاس على عرض أغاتوكليس، وشرع في جمع الرجال وحشد الجنود والإستعداد للزحف نحو الغرب، وحين اكتملت الأستعدادات سار أوفيلاس على رأس قوات بها عشرة آلاف (10000) من المشاة ، ستمائة (600) من الفرسان ومائة (100) عربية حربية، كما سحب الجيش الآلاف من الرجال والنساء والأطفال المحملين بالأمتعة لدرجة أنه من يشاهد الركب يسير يحسبه مستعمرة بأكملها تنتقل وترتحل.⁴

ولكن هنالك من فسر جلب الأطفال والنساء والرجال مع الجيش بأنه إتباع لسياسة تأسيس المستعمرات التي كان يتبعها الإسكندر الكبير، وما حضور هؤلاء إلا للحصول على الثروات

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 190 .

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص45.

³ - Kahled Melliti, op.cit, pp146-147.

⁴ - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XLI.

والأراضي في إفريقيا، بعد إحتلال أرضها.¹ كانت المسافة من قورينة إلى نواحي قرطاج تتطلب على الأقل ثمانية عشر يوما من المسير فهي مقدرة قديما بثلاثة آلاف مرحلة أي مايعادل خمسمائة 500 كلم، لتصل الحملة إلى أوتومالا (Automala) في آخر السيرت الكبير على الحدود القرطاجية، ليدخلوا بعدها أرضا صحراوية منبسطة مليئة بالثعابين السامة، وقد عاش الإغريق أياما صعبة خلال هذه الرحلة لانعدام الطعام وقلة الماء، إلى درجة أنهم إضطروا لأكل ثمار اللوتس (Lotus) لعدة أيام، وبعد مرور شهرين من موعد إنطلاقهم وصل أوفيلاس ومن ، وأقاموا في خريف سنة 508 ق م معسكرهم على مسافة قصيرة من مكان المعسكر الصقلي.²

رحب أغاتوكليس بقدوم حليفه وصديقه أوفيلاس، وبالع في إكرامه وضيافته، ووفر له أسباب الراحة ووسائل المتعة، غير أنه في الحقيقة كان يطن الغدر به ، إذ أنه لم يكن يحتاج إلا لقواته وجيشه ولا يحتاج منافسا له بمركز ملك أو حاكم ينافس في قراراته، وما إن أتاحت له الفرصة من خلال تواجد أوفيلاس من منعزلا عن رجاله حتى قتله، وأصبح بذلك قائد الجيشين أو جيش كبير، ليبدأ في حملة غزو جديدة في إفريقيا. فاستولى على أوتيكا (Utique)،³ التي كانت على ولائها لقرطاج ، ثم زحف نحو هيبوا أكرا (Hippo-Acra) أوبنزرت، وهي المدينة المحمية بالبحيرة المحيطة بها⁴، ليستولي عليها ويقوم فيها بأشغال بالغة الأهمية تمثلت في بناء حصون وقلاع وموانئ ودار لصناعة السفن. وفي تلك الفترة أسكن الطاغية عددا كبيرا من الصقلين في الجهة الشرقية لهضبة الرأس الطيب من المكان المسمى أسبيس (Aspis) وهذه الكلمة من أصل يوناني وتعني الترس، والذي يسمى باللاتينية (Clypeus) قليبس، ومنها ظهرت كلمة قليبيا (Clybea) وهو الاسم الحالي لهذه المدينة، والتي أقام أغاتوكليس فيها أيضا دارًا للصناعة⁵.

في هذه الأثناء كانت قرطاج لاتزال تتخبط في أزمتها الداخلية فهذا بوميلكار الذي أصبح يرى أن الأوليجركيا صارت عاجزة عن مواجهة أغاتوكليس، والذي يرى في نفسه الوحيد القادر على التصدي له ،حاول الإستيلاء على السلطة في قرطاج بالقوة بمساعدة أربعة آلاف (4000) من المرتزقة وخمسمائة (500) من المواطنين، إلا أن المقاومة العنيفة للشعب في العاصمة البونية

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p147

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 45-46.

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص 190-191.

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 48.

⁵ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 191.

أحبطت محاولة بوميلكار، ليتم بعد ذلك محاكمته وصلبه من طرف السينا (Sénat)، يحدث هذا في الوقت الذي أصبح فيه الطاغية سيذا على معظم مدن الساحل الشمالي والشرقي لمناطق النفوذ القرطاجي، كما عقد عددا من الأحلاف مع القبائل النوميديّة.¹

أصبحت قوات أغاتوكليس تفوق قوات القرطاجيين في ليبيا خاصة بعد الأحلاف الأخيرة التي عقدها، لكنه بعد هذه المدة التي قضاها في ليبيا أصبح قلقا من الوضع في صقلية.² خاصة وأن الانتصارات التي حققها في إفريقيا لم يكن لها صدى كبيراً، وهو ما كان ينتظره الطاغية ولم يتحقق له، فالأغنيق لم يتحدوا لطردهم القرطاجيين، أما المنفيون السيراكوزيون فلا زالوا يسيطرون على الأرياف والبوادي بقوات معتبرة.³

كما أن سكان أجريجونت (Agrigente) بقيادة القائد كزينودوكوس (Xenodocus) صاروا ينافسون سيراكوز السيادة على صقلية من خلال مسيرتهم لحرب السيراكوزيين. أما القرطاجيون فإنهم وإن خسروا بعض المدن بعد مقتل هامليكار وإن تخلى عنهم بعض الحلفاء، فإن مقاطعتهم لا تزال تحت نفوذهم وسيطرتهم، كما أن قواتهم البحرية لا تزال تحاصر سيراكوز، لذلك رأى أغاتوكليس أن الوضع في ليبيا أصبح مستقرًا وقرر العودة إلى صقلية بغية تغيير الوضع لصالحه، فبنى لأجل ذلك سفنا للنقل، ومراكب حربية ذات الخمسين مجدافا، وركب البحر بمعية ألفين (2000) من رجاله بعد أن أوكل قيادة جيشه في إفريقيا إلى ابنه أركاغاتوس.⁴

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p 148.

² - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XLV. (45)

³ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص49.

⁴ - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XLV,XLVI (45,46) .

III- عودة أغاتوكليس إلى صقلية وبداية انتصارات البونيين في إفريقيا

1- تفرق القوات الإغريقية في إفريقيا واستعادة البونيين زمام المبادرة

كلف أراكاغاتوس أحد مساعديه يدعى أوماخوس (Eumachos) بأن يسير بقسم من الجيش ويتجه لغزو مناطق أخرى في الأراضي العالية¹ (La Haute-Lybie) وهي المناطق الغربية الشمالية لتونس الحالية،² فقام بهذه المهمة على أحسن وجه، ونجح في الإستيلاء على دوقة (Thugga)، ثم على مدينة كانت تسمى فليني (Phelliné) ولعلها تكون عين دراهم الحالية، كما حاز كذلك مدينة أكرا هيبو (Acra-Hippon)،³ وهي التي أطلق عليها في نصوص كلاسيكية متأخرة هيبوريحيوس (Hippo-Reguis).⁴ ويمكن أن تكون مدينة بونة أو عنابة الحالية،⁵ وأخيرا على مدينة أكريس (Acris) وهي منطقة يرجح أنها تقع في ولاية قسنطينة الحالية.⁶

ويبدو أن القرطاجيين كانوا يترصدون حركات أعدائهم بانتباه شديد، لذلك إستغلوا فرصة غياب أغاتوكليس وتفرق الصقليين في إفريقيا وجهزوا جيشا كبيرا وهجموا عليهم من كل الجهات⁷ وذلك بعد أن أصدر مجلس الشيوخ قرارا يتكوّن ثلاثة جيوش، يتوجه أولها نحو الساحل الشرقي أي إلى المدن البحرية هناك، والثاني يتجه نحو الداخل الأوسط، أما الثالث فيتوجه نحو الأراضي العالية أي الجهة الشمالية الغربية لتونس الحالية، الأمر الذي سيحفز الحلفاء حين يرون جيوشا

¹ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 191.

² - Kahled Melliti, op.cit, p 149

³ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 191.

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص51.

⁵ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 191.

⁶ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص51.

⁷ - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 191.

قرطاجية تجوب أراضيهم، وتسعى لحمايتهم ونجدهم، أما أولئك الذين تعاونوا مع الإغريق وانظموا إليهم فسيعودون لا محالة إلى أحلافهم القديمة.¹

غادر عاصمة البونيين ثلاثون ألف رجل وكان يقود الجيش المتوجه غربا هملكون (Imilco)، أما جيش الداخل فكان قائده حنون (Hannon)، ولم تذكر المصادر إسم القائد الثالث الذي إتجه بجيشه نحو الساحل الشرقي.² ومقابل ذلك كان أركاغاثوس قد أرسل قسما من قواته إلى منطقة الساحل، كما قسما آخر إلى مساعدة أسكريون (Aixhrion) وتكفل هو بقيادة ماتبقى من الجيش، بعد أن ترك حامية على مدينة تونس.³

أنهى القائد حنون مهمته بنجاح فقد إستطاع عن طريق هجوم مباغت هزيمة عدوه أسكريون الذي قُتل في المعركة مع أكثر من أربعة آلاف (4000) من المشاة ونحو مئتي (200) فارس، أما من بقي من المقاتلين فقد تم أسرهم، وقد قدر عددهم بالآلاف إلا من فر إلى جيش أركاغاثوس الذي كان معسكره على بعد حوالي خمسمائة (500) مرحلة من موقع المعركة، أي حوالي مائة (100) كلم، ذلك الموقع الذي نجهل تحديدا أين كان بالضبط.⁴

أما هملكون فقد إنتظر عدوه المتمرس في القتال أومارخوس في إحدى المدن القريبة من الساحل، وحين اقترب مارخوس بجيشه المثقل بالأسلاب، أدرك أنه على موعد مع القرطاجيين لخوض المعركة، لذلك أستعد لها. كانت خطة هملكون تقضي بأن يبقى نصف الجيش في المدينة وأن يخرج بالنصف الآخر للقاء أومارخوس، فإن وقع الإشتباك وتراجع القرطاجيون بعد قتال شديد نحو المدينة يخرج النصف الآخر وهو في أريحية لينقض على جيش الصقليين الذين سينهارون من هول الصدمة والمفاجأة، وهو ماتحقق أثناء سير المعركة وما زاد من ضعف الصقليين هو فقدهم

¹ Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, XX, XLIX (49).

² ستيغان فزال، ج3، المرجع السابق، ص53.

³ Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, XX, LX (60).

⁴ ستيغان فزال، ج3، المرجع السابق، ص53.

لنظام حين كانوا يلاحقون جيش البونيين المتراجع نحو المدينة، الأمر الذي سهل مهمة جنود هملكون الذين كانوا في المدينة في الإنقضاض عليهم خاصة وأنهم كانوا يهاجمون بشكل منظم، ليحدث الارتباك في صفوف الإغريق الذين لم يعد بإمكانهم العودة إلى معسكرهم، لكون هملكون قطع عليهم طريق الرجعة ليتوجهوا إلى أحد الهضاب القريبة ويتحصنوا لها، إلا أن العطش والقذائف التي إنحالت عليهم قضت على معظمهم¹.

ولم ينج منهم سوى ثلاثين (30) من المشاة من بين ثمانية آلاف (8000)، وأربعين (40) فارسًا من بين ثمانمائة (800). أما أركاغاتوس فحين علم بهذه الكارثة التي حلت بجيشه، عاد إلى تونس وجمع هنالك بقايا جيشه وأرسل مندوبين إلى والده في صقلية ليخبروه بما حدث ويطلبوا منه نجدة سريعة، إلا أن الوضع خلال تلك الفترة ازداد شدة على الإغريق حيث تخلص عنهم أغلب حلفائهم واقتربت جيوش البونيين منهم وأصبحوا يهددون معسكرهم، حيث عمل هملكون على إختصار الطرق وحاول الوصول بأسرع وقت إلى تونس أين يتحصن أركاغاتوس وجنوده وأصبح على بعد حوالي مائة (100) مرحلة فقط، في الوقت الذي كان فيه قائد قرطاجي آخر يعسكر على مسافة أربعين (40) مرحلة، أي حوالي ثلاثة عشر (13) كلم فقط من مدينة تونس، وبما أن البونيين كانت لهم السيطرة الكاملة على البحر، فإن الحصار اشتد على جنود أركاتوس الذين أصيبوا بالإحباط وروح الإنهزامية.²

أغاتوكليس الذي دخل معترك الصراع مرة أخرى في صقلية حاول فك الحصار البحري الذي فرضته عليه قرطاج، فقام بتجهيز سبعة عشر (17) مركبا بغرض العودة بها إلى إفريقيا. وبعد أن تدعم أسطول به ثمانية عشر (18) سفينة حربية أرسلها له حلفاؤه الأتروسكيون، وحين وصلت إليه الأنباء من الضفة الأخرى من البحر أوكل قيادة القوات في صقلية إلى أحد قادته يدعى لبتين

¹ Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, loc.cit.

² ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 54.

(Leptine) الذي هزم الأجريجونتيين وقائدهم كزينودوكوس (Xenodokos). وفي سنة 307 ق.م إستطاع أغاتوكليس بما لديه من مراكب هزيمة وحدة بحرية قرطاجية من ثلاثين (30) مركبا على السواحل الصقلية ليتجه بعدها إلى إفريقيا.¹

وكان أغاتوكليس حين رحل إلى صقلية قد نزل أولا بمدينة سيلينونت (Sélinonte) ليكون على رأس مقاتليه هناك الذين هزموا مقاتلي أجرينونت، ويأخذ زمام المبادرة من جديد ويخضع كل في هيراقليا (Héraclée) تيراماي (Thermai) وسيجسته (Segeste)، ثم ليعود بعد ذلك إلى سيراكوز. ورغم أن منفيي سيراكوز عرضوا عليه المعركة، إلا أنه تجنبهم لعدم ثقته في هزيمتهم، خاصة مع ورود الانباء إليه في تلك اللحظات من إفريقيا.²

2- عودة أغاتوكليس إلى إفريقيا وهزيمة قواته أمام القرطاجيين

حين عاد أغاتوكليس إلى إفريقيا ووصل إلى تونس حيث معسكره وجد بها حوالي إثنين وعشرين الفا (22000) من المقاتلين المشاة بهم ستة آلاف (6000) إغريقي وعدد مماثل من الغاليين والسمنين والأتروسك، كما وجد عنده أيضا نحو عشرة آلاف (10000) من الليبيين. كما أنه كان بإمكانه الإستفادة من عدد منالفرسان قدر عددهم بألف وخمسمائة (1500) فارس وكذلك عدد من العربات يقودها أصحابها من الأهالي. كان أغاتوكليس يتوق إلى احراز نصر بشتى الطرق على القرطاجيين، ليعيد الحماس لجنوده اللذين صارت وضعيتهم بائسة بسبب الجوع والحصار واليأس، لهذا لم يتوان في التحرك طلبا للعدو، وعلى الأرجح إتجه أغاتوكليس بجيشه نحو أقرب الجيوش القرطاجية إليه، وهو جيش أذربعل، هذا الجيش الذي كان يعسكر في مكان مرتفع ليس من السهل مهاجمته إلا إذا نزل إلى السهل.³

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p 150.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص55.

³ - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, op.cit, LXV (64).

لم يغامر أغاتوكليس بمهاجمة القرطاجيين في بداية الأمر، وكذلك لم يفعل البونيون ذلك وراهن الطاغية على حصار أعدائه مع محاولة إستفزازهم للنزول لقتاله ، إلا أنه سرعان ماغير موقفه نظرا لإستعجاله، فالظرف لا يسمح بالإنتظار أكثر، لذلك قرر مهاجمة أعدائه الذين إستطاعوا صد هجومه بحكم موقعهم الجيد وكثرة عددهم. حاول الإغريق الصمود في هذه المعركة لكنهم سرعان ما انهاروا وبدأوا بالفرار ، وقد ضيق البونيون الخناق على الفارين فكانوا يُجْهِزُونَ على كل من يصلون إليه من الإغريق وحلفائهم ماعدى الليبيين الذين كانوا يأملون في أجتذابهم مرة أخرى للعمل معهم، وقد خسر أغاتوكليس في هذه المعركة اضافة إلى هزيمته ثلاثة آلاف من مقاتليه.¹

بعد هذه الهزيمة تخلى الليبيون عن حلف أغاتوكليس، وأدرك أنه لا يملك القوات الكافية لأستئناف الحرب ضد قرطاج لذلك عقد العزم على العودة إلى صقلية ، وبما أنه لا يستطيع العودة بجيشه لأن القرطاجين سيحاصرونه بحرا، كما أنه لم يكن يملك حتى عدد السفن الكافية لنقلهم هذا إضافة إلى عدم رغبته في عقد إتفاق مع القرطاجين، وهو في هذا الموقف الضعيف. لأجل كل ذلك قرر الفرار منفردا وخفية حتى لا يعلم به جنوده ، ويبدوا أن محاولة هربه سرعان كشف أمرها وألقى بعض القادة القبض عليه للتشهير بخسة الموقف الذي كان سيقدم عليه الطاغية، ولولا إشفاق جموع الجنود عليه، والذين طالبوا بإطلاق سراحه لكانت نهايته في أرض إفريقيا، وبمجرد فك أغلاله حتى سارع بركوب البحر تاركا إبنه خلفه بين أيدي الجنود.²

غادر أغاتوكليس إلى صقلية لكن جنوده قتلوا ولديه أركاغاتوس وهيراكليد ليؤمروا عليهم بعد ذلك قادة جددا بغرض التفاوض مع الحكومة القرطاجية، وتم الإتفاق على أن يعيد الصقليون المدن التي إستولوا عليها مقابل تعويض قدر بثلاثمائة (300) تالنت، هذا بالاضافة إلى تخيير الجنود الإغريق وغيرهم ممن كانوا في جيش أغاتوكليس في أن ينظموا إلى البونيين كمرتزقة وينالوا مقابل

¹ - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, loc.cit.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 57-58.

ذلك الأجر الذي كانوا يأخذونه من قبل، لتأخذ قرطاج قسما من هؤلاء إلى صقلية و الذين أقامت لهم معسكرا في مدينة صولنت (Solonete). وقد وافق الأغلبية على هذه الإقتراحات القرطاجية.¹ ومع ذلك لم تعترف بعض الحاميات إلا بقيادة أغاتوكليس ولذلك قاومت فكان مصيرها قتل القادة وأسر الجنود وتحويلهم إلى عبيد.²

إنتهت حملة أغاتوكليس على إفريقيا في شهر أكتوبر من سنة 307 ق.م، وكانت نهايتها ظاهريا في غير صالح الطاغية السيراكوزي، ولكن في الحقيقة يمكن القول أنه حقق هدنة ونجح في خطته من خلال لعب ورقته الأخيرة في إفريقيا بعد أن أُغْلِقَتْ أمامه جميع أبواب النصر في ساركوز، بل إنه كان يسعى للنجاة في خطر محقق كان سيقضي عليه حين كان محاصرا في سيراكوز. وها هي مدينته صمدت كل تلك المدة التي قضاها أغاتوكليس في إفريقيا، وكاد هذا القائد بعد إنشاء منياء بنزرت، وميناء قلبية، ودارا للصناعة بكتا المدينتين أن ينشأ أسطولا قويا يُمكنُهُ من عزل قرطاج وفرض شروطه عليها، إلا أن الوقت لم يسعه لذلك خاصة وأنه كان عليه التنسيق بين صقلية وإفريقيا في آن واحد.³

أما بالنسبة لقرطاج فلا الهزائم ولا الانتصارات والخسائر التي حققها الإغريق في إفريقيا حول قرطاج، وفي عدد كبير من المدن البونية، ولا تخلى الكثير من الحلفاء عنها، ولا تلك النفقات الباهضة ، ولمدة طويلة دفعت أولئك القرطاجيين إلى التفاوض مع أغاتوكليس وهو في أرض إفريقيا، ورغم الإنقسام الواقع في أعلى هرم السلطة في مدينة إلسا إلا أنهم كانوا متفقين على عدم الرضوخ للإغريق، وأقرار هذا العمل الدال على الضعف، والذي يحط في هيبتهم في عيون حلفائهم ومحكوميههم وأتباعهم . كما أنه يشجع خصوم قرطاج ومنافسوها في إعادة فعل أغاتوكليس ، وإستطاع القرطاجيون بفضل تحصيناتهم وأسوارهم العالية وإصرارهم على الحرية أن يتحملوا الحصار

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p151

² ستيفان فزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 58- 59 .

³ أحمد صفر، المرجع السابق، ص192.

من جهة البر، ولم يكتفوا فقط بالمقاومة رغم الذعر الذي أحدثه هجوم أغاتوكليس المفاجئ، بل إستعادوا زمام المبادرة وجيشوا الجيوش وحاربوا هذا البطل الهيليني المزعوم، بل إستطاعوا في النهاية هزيمته.¹

بعد عودة أغاتوكليس إلى صقلية حاول الدخول في مفاوضات مع منافسيه وعلى رأسهم زعيم المنفيين السيراكوزيين دينوكرات (Dinocrate)، وتظاهر بإستعداده للتنازل عن حكم سيراكوز لتعود إليها الحكومة الديمقراطية، ولم يطلب لنفسه غير مدينتي تيرماي (Thermai) وصيفالواديون (Céphaloidion) مع ما تبعهما من مناطق ريفية. وفي سبيل الوصول إلى أهدافه وطموحه عقد صلحا مع القرطاجيين سنة 306 ق.م، إعترف من خلاله بحدود البونيين القديمة في صقلية، وهو ما يعني أن يتنازل الطاغية عن المدن التي حازها لصالحه، وذلك مقابل تعويض تقدمت به قرطاج تمثل في ثلاثمائة 300 تالنت من الفضة، ومائتي ألف (200000) مديم (Médimmnes) من القمح (وهو ما قيمته عشرة ملايين لتر من القمح).²

عمل أغاتوكليس بعد ذلك على بناء جيش جديد مركزا هذه المرة على القوة البحرية التي كان يرى أنها ضرورية لهزيمة القرطاجين ، وقد إستطاع مخادعة دينوكوات وأستماله جنوده إلى جانبه، وبذلك كون نواة لجيش قوي كما عمل على إيجاد تحالفات جديدة، وإخضاع المدن الإغريقية، وستطاع توطئة سلطته ليعلن نفسه ملكا سنة 304 ق م. وساد السلام في صقلية مدة طويلة إلى أن توفي سنة 289 ق م. ويبدو أن الموت فاجأه قبل أن يعاود الحرب على القرطاجيين من جديد، وبذلك إنتهت المرحلة الثالثة من الصراع القرطاجي الإغريقي، لتتھيا المنطقة لصراع

¹ ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص ص 59-60.

² - Diodore de Sicile , Bibliothèque Historique, op.cit, LXXVII (77), LXXVIII (78), LXXVIX (79).

جديد هو الصراع القرطاجي الروماني الذي بدأت أرهاساته مع ظهور الملك اليوناني بيروس (Pyrrhus) في إيطاليا ثم في صقلية.¹

3- جزيرة صقلية بعد غياب أغاتوكليس

تحدثت المصادر التاريخية من أغاتوكليس في أواخر أيامه سنة 289 ق.م على أنه أنهى جميع التحضيرات لبدء حملة ضد القرطاجيين حين تعرض لعملية إغتيال غادرة عن طريق السم من قبل مانون (Manon) أحد رجال الحاشية الملكية بأمر من حفيده لأركاغاثوس وابن أركاغاثوس الذي قتل في إفريقيا، وذلك طمعا في خلافة جده في حكم سيراكوز ، وموت أغاتوكليس وهو الحاكم القوي الوحيد الذي مكن للسيادة الهيلينية على مناطق كبيرة في غرب المتوسط، انتهى العصر الذهبي لمدينة سيراكوز وسطوتها القوية على المنطقة المتوسطة الغربية، فلن تلعب هذه المدينة بعد الآن دورها الحيوي في الغرب، فالسنوات والعقود القادمة التي تلت حكم أغاتوكليس لن تكون بالنسبة لسيراكوز غير سلسلة من الصراعات الداخلية التي كان هدفها الإنفراد بالسلطة في هذه المدينة.²

عاد الإغريق إلى صراعاتهم في جزيرة صقلية ولم يكن القرطاجيون بعيدون عن هذه الخلافات، بل عملوا عن تأجيحها ومحاولة الاستفادة منها، وبما أن سيراكوز كانت ولا زالت كبرى مدن الإغريق في صقلية، فهي الأولى إذن بتدخل البونيين بها، خاصة مع اشتداد الخلاف والتنازع على السلطة فيها.³ أول الطامعين في الوصول إلى منصب الحاكم في سيراكوز كان مانون (Manon)، وقد أعلن عن ترشحه لحكم سيراكوز دون أن ينفي حق أركاغاثوس حفيد أغاتوكليس، وذلك بعد

¹ - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 162.

² - Kahled Melliti, op.cit, p 153.

³ - ستيفان قزال، ج2، المرجع السابق، ص 61.

أن ضمن ولاء فرق المرتزقة، ولم يبق له إلا أن يفرض نفسه على السيراكوزيين الذين كانوا يعارضون حكمه لميلهم إلى ضابط في الجيش السيراكوزي يدعى هيكتاس (Hikites)¹.

وفي هذه الظروف المتوترة وجدت قرطاج الفرصة للتدخل في شؤون المدينة السياسية، وهذه المرة كان تدخلها بدعوة و بطلب من مانون. كان القرطاجيون جد سعداء بوضع أيدهم على أكبر مدينة أو المدينة الأم للمدن الإغريقية في غربي المتوسط. لقد تقاطعت المصالح بين القرطاجيين ومانون، فإذا كانت قرطاج بدأت تقترب من تحقيق أهدافها التوسعية في جزيرة صقلية فإن مانون وجد في هذه الرغبة القرطاجية الفرصة لمواجهة فرق هيكتاس، ويفرض سطوته على السيراكوزيين الذين كانوا يدركون حجم وقوة البونيين، الذين لطالما كانوا في مواجهتهم. تم الإتفاف على الحلف بين الطرفين،² وحصلت قرطاج مبدئياً على أربعمئة (400) من الإغريق.³ كرهائن وضمان على حسن نية وصدق مانون في وعوده للبونيين مع وعده بعودة المنفيين إلى سيراكوز لاحقاً.⁴

بدأت قرطاج تقترب من تحقيق أهدافها في جزيرة صقلية والحد من دور سيراكوز يعني أنها لم تعد قادرة على تعطيل مصالح البونيين في الجزيرة، ولهذا الغاية تدخلت عاصمة البونيين مرة أخرى عسكرياً سنة 280 ق.م بين السيراكوزيين. وفي هذه الظروف تعاظمت قوة هيكتاس العسكرية بعد إنتصاره في إيبلا (Hybla) على طاغية أجريخونت فينيتياس (Phinitias) الذي كان من أشد المعارضين للقرطاجيين والطامح هو الآخر لحكم سيراكوز، هذا الوضع الجديد كان كافياً في جميع الأحوال لتدخل القرطاجيين ومواجهة هيكتاس والقضاء على قوته المتصاعدة، وهو ما

¹ - Kahled Melliti, op.cit, p 154.

² - Ibid.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - Kahled Melliti, loc.cit.

حدث سنة 279 ق.م في معركة بالقرب من نهر تيريا (Téria) أين سحقت القوات القرطاجية فرق هيكتاس الذي تم نفيه وإخراجه من سيراكوز.¹

في تلك الأثناء ظهر نزاع جديد على السلطة في سيراكوز بين شخصيتين جديدتين هما سوسيتراتوس (Sositratos) الذي نادى به الشعب في المدينة حاكما، وبين تواتون (Thoinon) الذي كان إستحوذ على قلعة سيراكوز، وتحصن بها أما سوسيتراتوس فكان قد خلف فيكتاس على حكم أجريجونت، ويبدو أنه كان معادٍ هو الآخر للقرطاجيين، وأما تواتون فلا يبدو أنه هو الآخر كان مواليا للقرطاجيين، لذلك أرادت قرطاج أن تستغل الفرصة وتقضي على الإثنين معا، خاصة وأنهما أنهما قواهما في صراعات داخلية فيما بينهما، فحاربت تواتون بأسطولها البحري، وحاصرت سوسيتراتوس بالقوات البرية.²

كما عمدت في هذه الظروف إلى إعادة ترتيب أوراقها في جزيرة صقلية من خلال بسط نفوذها على المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية، فاستولت على جزيرة ليباري (Lipari) التي تساعدها على مراقبة مضيق ميسينا (Messina)،³ الذي نجح الطاغية أغاتوكليس مدة طويلة في السيطرة عليه. وفي خضم هذه الأحداث الجديدة التي رجحت كفة القرطاجيين من المنطقة، وبغرض تعزيز سيراكوز مركزها في صقلية، لم يعد أمامها سوى طلب الدعم الخارجي ، هذا الدعم الذي ستقدمه لها على طبق من ذهب الأحداث التي كانت تقع في إيطاليا والتي كانت ترسم التاريخ الجيو سياسي لمنطقة البحر المتوسط الوسطى.⁴

أدرك المتنازعان على منصب الطاغية في سيراكوز سوسيتراتوس وتواتون حجم الخطر الذي صار يحدق بسيراكوز خاصة بعد سيطرة الممارتين (les Mamertins) وهم مرتزقة كمبانيون على

¹ - Kahled Melliti, loc.cit.

² - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 163

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - Kahled Melliti, op.cit, p 155.

مدينة ميسينا (Messine)، ولذلك أرسلوا يطلبان العون من بيروس (Pyrrhos) ملك إبيروس (Epire) في بلاد اليونان.¹

وكان بيروس قد وصل إلى إيطاليا إستجابة لدعوة مدينة تارنت (Tarente) خلال حربها ضد الرومان ، ويبدو أنه كان يتخذ الإسكندر الأكبر قدوة ومثالا يقتدى به، وكان يطمح للسيطرة على الغرب بعد أن يتمكن من القضاء على القوة الرومانية الصاعدة، وعلى النفوذ القرطاجي في هذه المنطقة. ومن أجل تحقيق هذه المشاريع لا بد له من نقطة إرتكاز في غرب المتوسط وهذه النقطة لن تكون إلا مدينة سيراكوز التي جاءته فرصة إنقاذها من سطوة القرطاجيين الذين إن ظفروا بها منعه حتى من إمكانية النزول بالجزيرة.²

إستجاب بيروس لطلب الإغريق ونزل بالضفة الشرقية لصقلية سنة 278 ق.م، وإستطاع دخول سيراكوز،³ ولم يجرؤ القرطاجيون على محاربتة، خاصة وأنه بعد إتحاد جيشه المشكل من عشرة آلاف مقاتل مع جيش السيراكوزيين صار يمثل قوة يحسب لها ألف حساب، كما أن القادة القرطاجيين في صقلية كانوا يخشون خسارة الحرب ضده، الأمر الذي لن تسامحهم عليه الحكومة في قرطاج إن حدث. وفي السنة الموالية إنضمت إلى بيروس جميع المدن الإغريقية، واستولى على المقاطعة البونيقية وعلى ما في أيدي الممارتيين، وكانت المدن تستسلم له طوعا أو تفتح عنوة، الأمر الذي دفع بالقرطاجيين لفتح مفاوضات معه، فعرضوا عليه التنازل عن جميع مدنهم في صقلية بإستثناء مدينة ليلبي (Lilybée) التي أصروا على الاحتفاظ بها، كما حاولوا إغراءه بالمال والسفن من أجل ترك صقلية والعودة إلى إيطاليا.⁴

¹ - Kahled Melliti, loc.cit.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 62.

³ - Kahled Melliti, op.cit, p 157

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص 62-63.

ويبدو أن بيروس كان مستعدا للقبول بمقترح القرطاجين إلا أن مستشاريه أقنعوه بالاصرار على أخذ مدينة ليليلي، وبذلك توقفت المفاوضات.¹ حاصر بيروس موقع المدينة الحصين لكنه لم يستطع الإستيلاء عليها ليعود إلى سيراكوز،² عازما على نقل الحرب لأرض إفريقيا إلا أنه خلال التحضير لهذه الحملة نفر منه حلفاؤه لسوء معاملته لهم، وأصبح الجميع يبحث كيفية التخلص منه بما فيهم الإغريق الذين طلبوا تدخله، أما الصقليون الآخرون فعادوا إلى المعسكر القرطاجي بما فيهم الممارتيين، وقد تزامن ذلك مع دعوات ملحة من الإغريق الإيطاليين لنجدتهم من توسع الرومان على حساب مدتهم، وبذلك قرر بيروس العودة إلى جنوب إيطاليا لإستئناف حربه ضد الرومان، وقيل أن يركب البحر سنة 276 ق.م، إستطاع هزيمة جيش للقرطاجيين قَدِمَ من إفريقيا، بينما خسر معركة بحرية ضدهم تحطم له فيها ثلثا أسطوله ولم يعاود بعدها القدوم إلى جزيرة صقلية.³

إستعاد القرطاجيون مناطق نفوذهم في صقلية،⁴ بل إستطاعوا ضم مدن إغريقية أقوى لممتلكاتهم، فالمصادر تحدثت عن تبعية مدينة أجريخونت للأملاك البونية خلال بداية الحرب ضد روما (Rome) سنة 264 ق.م، وهي التي كانت قبل ذلك حليفة للبونين لفترات طويلة، أما مدينة ميسينا فقد علا شأنها وأصبحت منافسة لسيراكوز في شرقي الجزيرة ، لذلك ظلت قرطاج تراقب الصراع بين المدينتين بغية إضعاف كل منهما الأخرى، إلا أنه في سنة 265 ق.م، إستطاع هيرون (Hieron) طاغية سيراكوز إلحاق هزيمة مدوية بالممارتيين وأجبرهم من خلالها تفويضه في شأن مدينتهم، إلا أن حنبعل أحد القادة القرطاجيين تظاهر بتهنئة هيرون على إنتصاره، وفي نفس

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص63.

² - Kahled Melliti, op.cit, p 158.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 63.

⁴ - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص164.

الوقت ذهب إلى ميسينا وحث أهلها على المقاومة، وتَرَكَ بها حامية قرطاجية، لذلك أشتد غيظ هيرون على القرطاجيين، إلا أنه كان يدرك أنه لم يعد ندا لهم ليواجههم.¹

إنتهى الصراع الإغريقي القرطاجي على هذه الصورة التي تُظهِرُ بقاء نفوذ القرطاجيين على جزء كبير من جزيرة صقلية، وغياب أي قوة إغريقية ذات شأن يمكنها أن تهدد وجودهم، إلا أنه ظل إنجازا محدودا، فانتصار القرطاجيين ورحيل بيروس عن صقلية ثم من إيطاليا، ترك جزيرة صقلية في وضع غير محسوم، وكأن نهاية هذه الحرب لم تسفر عن غالب ولا مغلوب بعد مواجهات دامت حوالي قرنين ونصف من الزمن حاربت فيها عاصمة البونيين مدينة سيراكوز التي كانت تمثل رأس الحربة بالنسبة للمدن الإغريقية، والمدينة الأم الأكثر ثراءً وقوة وتحكما في شرق الجزيرة.²

لم يقتصر هذا الصراع الذي إنطلق من جزيرة صقلية على هذه الرقعة من الأرض، بل إنعكست إرتداداته على جميع مناطق غرب المتوسط، كما تورطت فيه العديد من الأطراف من خلال معاهدات وأحلاف تم إبرامها خلال هذه الفترة، فالمدن الإغريقية مثل أثينا وأسبرطة وكورينثة كانت حاضرة بمساعدتها وامتداداتها للمستوطنات التي كانت تمثلها في صقلية، سواء ضد القرطاجيين أو لصالحهم أحيانا. كما كان الأتروسك والرومان حاضرا أيضا في هذا الصراع، وتمثل حضورهما في المعاهدات التي أُبرِمت مع قرطاج منذ نهاية القرن السادس ق.م إلى غاية بداية القرن الثالث ق.م حسب ما تقتضيه المصالح الإستراتيجية والإقتصادية لهذين الشعبين.³

¹ - ستيفان قزال، ح3، المرجع السابق، ص 63-64.

² - مفتاح محمد سعد البركي، المرجع السابق، ص 164-165.

³ - نفسه، ص 165 ؛ Kahled Melliti, op.cit, pp 155-156

الفصل الرابع

الدولة الرومانية : الجغرافيا، السكان والتطور

السياسي

-I شبه جزيرة إيطاليا : الدراسة الطبيعية

-II إيطاليا: الدراسة البشرية

-III التطور السياسي لدولة الرومان

I- شبه جزيرة إيطاليا الدراسة الطبيعية

1- الموقع الجغرافي

كان من الصعب على جغرافي العصور القديمة تحديد الشكل الحقيقي لشبه الجزيرة الإيطالية، فعدد منهم حسب سترابون كان يعتقد أنها عبارة عن رأس بحرية مثلثة الشكل رأسه في مضيق صقلية وقاعدته في سفوح جبال الألب.¹

تعتبر شبه جزيرة إيطاليا الاطار الجغرافي الأول للحضارة الرومانية وذلك لكون تلك الحضارة قد بزغ نورها من خلال مدينة روما الواقعة إلى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية، تلك المدينة التي استطاع مواطنوها المعروفين باسم الرومان أن يحولوها من مصاف المدن إلى مصاف الدول، لتبسط بذلك هذه الدولة نفوذها على كل شبه جزيرة إيطاليا والجزر المجاورة لها، ومن ثم على حوض البحر المتوسط بشقيه الغربي والشرقي، لتتحول من ثم هذه المدينة إلى نواة لحضارة متوسطة دامت لعدة قرون.²

وفي حقيقة الأمر ورغم تمدد روما داخل وخارج شبه جزيرة إيطاليا، إلا أن أجزاء منها كانت خارج سيطرة الرومان إلى فترات متأخرة، وعلى سبيل المثال فإن الشاطئ الواقع بين مدينتي سيناغليا (Sinigaglia) وريميني (Rimini) (أنظر الملحق 32 خرائط) لم يدخل ضمن النفوذ الروماني إلا في القرن السابع من عمر روما أي خلال القرن الأول ق.م، أما وادي البو (Pô) فقد أحكم الرومان السيطرة على كامل أجزائه وجوانبه فقط في القرن الأول الميلادي.³

إن المتأمل في خريطة شبه الجزيرة الإيطالية يجد شكلها مشابه لساق بشرية قدمها في الجنوب الغربي وكعبها في الجنوب الشرقي، فهي بذلك تتوسط حوض البحر المتوسط منحدره من الشمال إلى الجنوب وكأنها تشطره نصفين، حوض شرقي وآخر غربي، ولتمنح الدولة القائمة عليها موقعا

¹ - Strabon, op.cit, V, 2

² إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الروماني، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1996، ط1، ص 13

³ -Théodor Mommsen, Histoire Romaine, traduit par C.A.Alexandre, Tome 1, Librairie A.Franck, Paris, 1863, p 06.

استراتيجيا متميزا مقارنة بالأمم الأخرى¹، ذلك الموقع الذي وصفه بعض المؤرخين بالحربي والذي مكنها من السيطرة على العالم القديم².

يصل طول شبه الجزيرة الإيطالية إلى حوالي 1150 كلم من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ أقصى عرض لها في الشمال عند سهل البو حوالي 850 كلم،³ ليتضاءل جنوبا فيبلغ ما بين 140 و 160 كم⁴.

يحد شبه جزيرة إيطاليا من ناحية الشمال العديد من الدول الأوربية، فمن الشمال الشرقي تحدها جمهوريتي كرواتيا (Croatie) وسلوفينيا (Slovénie) الحاليتين، ومن الشمال دولتي النمسا (Autriche) وسويسرا (Suisse)، أما من ناحية الشمال الغربي فتحدها فرنسا (France)، ومن جميع النواحي الأخرى تحاصرها أجزاء من البحر المتوسط، فمن الشرق يحاصرها البحر التيراني (Mer Tyrrhénienne) ومن الجنوب البحر الأيوني (Mer Ionienne)⁵ أما البحر الأدرياتيكي (Mer Adriatique) فهو الذي يرسم حدودها الشرقية⁶. (أنظر الملحق 29 خرائط)

كانت تتبع إيطاليا منذ عصر الجمهورية الرومانية العديد من الجزر المحاذية لها مثل صقلية (Sicile) التي يفصلها عن شبه جزيرة إيطاليا مضيق ميسينا (Massine)، وجزيرة سردينيا (Sardaigne) بالبحر التيراني، وكذلك جزيرة ألبا (Alba) الواقعة بين جزيرة كورسيكا وساحل إيطاليا الغربي⁷.

2- التضاريس

عُرِفَتْ إيطاليا منذ القديم بأشهر سهولها وأكثرها اتساعا وهو سهل البو الواقع شمال شبه الجزيرة، والذي تطوقه سلسلة جبال الألب، تلك السلسلة التي لطالما كانت جدار صد ضد الغزاة

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، تاريخ الرومان حتى نهاية العصر الجمهوري، ج1، جامعة الإسكندرية، 2005، ص 15.

² - ول ديورنت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، الجزء الأول، المجلد الثالث، ص 05.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 13-14.

⁴ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 140.

⁵ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 14.

⁶ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 140.

⁷ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 14.

القادمين من أوربا،¹ والتي تمتد من الشمال الشرقي حيث البحر الأدرياتيكي، وتنتهي في أقصى الشمال الغربي لإيطاليا بالقرب من نيس (Nice) على الريفيرا الفرنسية. وقد استمد هذا السهل أهميته في حقيقة الأمر من نهر البو الذي يجري عبره والذي يعتبر من أهم أنهار إيطاليا وأعظمها على الإطلاق، حيث ينبع من جبال الألب في أقصى الغرب ويتدفق بعد أن تغذيه روافد أخرى تنبع من الألب في العديد من الأماكن نحو الشرق، ليصب في البحر الأدرياتيكي شرقا، وبذلك يعمل هذا النهر على نقل الكثير من الرواسب الطمية من مرتفعات الجبال وترسيبها في سهل البو الأمر الذي عمل على زيادة خصوبة تربته بشكل مستمر². (أنظر الملحق 29 خرائط)

أما سهول إيطاليا الأخرى فهي تنتشر في الشرق والغرب على سواحل شبه الجزيرة، غير أن الاختلاف بين الجهة الشرقية والجهة الغربية كان واضحا من خلال اختراق سلسلة جبال الابنين (L' Apennin) لشبه الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، تلك السلسلة التي كانت لإيطاليا بمثابة العمود الفقري لجسم الإنسان تحتمي بفضلها شواطئ البلاد الغربية من الرياح الشمالية الباردة، وتنبع منها أنهار تمنح الحياة لسهولها وترويتها وتصب مياهها في نهاية المطاف في خلجان البحر ذات المناظر الساحرة³.

و تبدأ تحديدا هذه السلسلة من الطرف الجنوبي الغربي لجبال الألب في شمال غرب إيطاليا، وتمتد شرقا في شكل قوس مفرطح تقريبا ثم تنزل جنوبا لتصل أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية نحو الشواطئ الشرقية، وفي هذا الإطار وصف المؤرخ الألماني تيودور مومسن (Théodor Moumsen) إيطاليا بأنها غصن قوي تفرع عن سلسلة جبال الألب الغربية متجها نحو الجنوب الغربي⁴.

¹ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 05.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، ص ص 15، 16.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 05.

⁴ - Théodor Moumsen, op.cit, p 05.

وقد نتج عن ميلان جبال الابنين نحو الشرق أن ضاقت مساحة السهول الشرقية الإيطالية التي أصبحت محصورة بين مرتفعات جبال الابنين العالية وبين البحر الأدرياتيكي¹، لتلامس هذه السلسلة شواطئ حوض الأدرياتيكي بالكتلة الجبلية التي تعرف باسم الأبروز (Les Abruzzes)، ثم تتجه السلسلة نحو الجنوب بعلو ثابت، وليتضاءل بعد ذلك علو جبالها وتنقسم إلى سلسلتين صغيرتين إحداهما أقل ارتفاعا من الأخرى باتجاه نحو الجنوب الشرقي، والثانية أكثر وعورة وأخطر انحدارا والتي تتجه مستقيمة نحو الجنوب لتنتهي سلسلة جبال الابنين² من الجهتين بما يشبه الجزيرتين الصغيرتين³.

ومن هنا صار الشريط الساحلي الشرقي متصفا بالضيق من الشمال إلى الجنوب ولا يتسع إلا عند منطقة أبوليا (Apulie) في الجنوب الشرقي حيث تبتعد سلسلة جبال الابنين نحو الغرب فاسحة المجال لسهل متسع به مراعي غنية وتربة خصبة⁴، ذلك السهل الذي تمثل كتلة جبال الأبروز حدا له من الشمال والذي يعتبر استثناء من بين سهول الجهة الشرقية من حيث أرضيته المستوية والمتماثلة وشواطئه الغير مسننة⁵، ومن أهم مناطق ذلك الشريط الساحلي الشرقي في الشمال نجد سهل أمبوريا (Ombrie)، بيكينوم (Picenum) وأبوليا، أما أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة فيوجد به سهل كالابريا (Calabrie)، كما تحتاز هذه السهول الضيقة بعض المجاري المائية مثل الريبكون (Rubicon) شمال أمبوريا، ونهر أوفيدوس في منطقة أبوليا الجنوبية⁶.

وبخصوص الجهة الغربية التي كانت أوفر حظا من خلال اتساع سهولها وفساحتها نظرا لانحناء سلسلة جبال الابنين نحو الشرق لتفسح المجال لثلاثة سهول شاسعة عرفت بها إيطاليا منذ القديم وهي على الترتيب من الشمال إلى الجنوب : سهل أتروريا (Etrurie) مهد حضارة

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 17.

² - كانت جبال إيطاليا مصدرا للكوارث بقدر ما كانت مصدرا لجمال وروعة البلاد بسبب الزلازل والبراكين التي تقضي على مجهودات الأجيال المتعددة فتقهرها في الأرض أو تحرقها بحمم البراكين (ول ديورنت، المرجع السابق، ص 05)

³ - Théodor Moumsen , Op.cit, pp 05-06.

⁴ محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 17.

⁵ - Théodor Moumsen , Op.cit, p 06.

⁶ محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 17.

الأتروسك،¹ يجري به نهر الأرنو (Arno) ، وسهل اللاتيوم (Latium) الذي يجتازه نهر التيبر (Tibre)،² وهو الإقليم الذي تأسست به مدينة روما (Rome) القديمة وهو الموطن الأول للغة اللاتينية قبل انتشارها، ثم سهل كمبانيا (Campanie) في الجنوب الغربي والذي تأسست به عدة مدن شهيرة كانت وجهة لهجرات سكانية مبكرة من بلاد الإغريق مثل كبوا (Capoue)، وتقع به أيضا مدينة بومبي (Pompéi) التي غمرتها حمم بركان فيزوف (l'Éruption du Vésuve).³

كانت السواحل الإيطالية والتي يصل طولها إلى أكثر من 3000 كلم وخاصة تلك السواحل الشرقية منها على عكس السواحل اليونانية مستقيمة في معظمها، وقليلة التعاريج لذلك فهي تفتقد إلى الخلجان والمراسي أو الموانئ الطبيعية التي يمكن أن تستخدم في الملاحة، لذلك لم نسمع من خلال الأحداث التاريخية في إيطاليا قديما عن موانئ عديدة، وكأن الإيطاليين لم يكونوا يملكون خلال عصر الجمهورية الرومانية سوى ميناء واحد هو ميناء برونديزيوم (Brundisium) في أقصى الجنوب من كالابريا.⁴

وكما تغنى مفكرو اليونان ومؤرخوهم بجمال طبيعتهم وسحرها، كذلك عبر مؤرخو الرومان وشعرائهم عن شغفهم وولعهم بطبيعة بلدهم التي تتعاقب فيها الجبال بالسهول والوديان وتنشر بها الشواطئ التي تلامس البحر من ثلاث جهات، فيقول فيرجيليوس (Virgile) : "هذا الربيع الدائم والصيف حتى في غير أشهره، هنا تلد الأنعام مرتين في السنة وتثمر الأشجار مرتين." ، ويعبر بلين الكبير (Pline l'Ancien) عن فتنته بجمال بلده فيقول: "ليس على ظهر الأرض ولا تحت قبة السماء بلاد تماثلها في جمالها وروعة منظرها."⁵

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص18.

² - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 140.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص18.

⁴ - نفسه.

⁵ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 05.

II - إيطاليا: الدراسة البشرية

1- سكان إيطاليا خلال العصور البائدة

يرجح المؤرخون أن البشر قد عاشوا في منطقة شبه جزيرة إيطاليا منذ العصور الباليوليتيكية حيث أنه من الممكن تفحص آثارهم إلى غاية عصر الانحسار الجليدي الثالث¹، ويذهب علماء حضارات ما قبل التاريخ إلى أن ظهور الإنسان المبكر في إيطاليا كان مع ظهور الإنسان العاقل (Homosapiens) وذلك قبل خمسين ألف سنة عندما ذاب الجليد وبدأ الدفئ².

ومع دخول الزراعة إلى المنطقة تضاعف عدد سكان إيطاليا ويمكن القول أن شعب إيطاليا في تلك الفترة كان أغلبه عرق من نموذج متوسطي (Méditerranéens)، قصير القامة طويل الراس، قاتم الشعر³، ذلك النوع الذي يعتقد العلماء أنه دخل إيطاليا من شمال إفريقيا، عبر صقلية ومالطا كما دخل إلى إسبانيا عن طريق مضيق جبل طارق ثم اجتاحت سواحل إسبانيا وفرنسا ووصل إلى شمال إيطاليا⁴. وكان ذلك حوالي 5000 ق.م وظل ذلك العنصر يشكل النسيج السكاني لإيطاليا إلى غاية منتصف الألف الثالث ق.م⁵.

كانت جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية تعيشان مظاهر حضارية مشابهة مع نهاية العصر النيوليتيكي، وذلك من خلال تأثير الحضارة الإيجية أو المينيوية، لكن بقية أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية وخاصة المناطق الشمالية منها، تعرضت للعديد من هجرات الشعوب الهندوأوروبية منذ حوالي 2000 ق.م⁶.

كانت الهجرة الأولى مع نهاية العصر النيوليتيكي في إيطاليا وبداية عصر النحاس و البرونز، أي مع بداية الألف الثاني ق.م، وخلالها اندفعت جموع من الشعوب الهندوأوروبية عبر منافذ جبال

¹ - هشام الصفدي، تاريخ الرومان، الجزء الأول، د.د.ن، بيروت، 1967، ص 36.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق ص 30-31.

³ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 36.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 31.

⁵ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 37.

⁶ - نفسه، ص 42.

الألب في شمال إيطاليا واستقروا في السهول الإيطالية الغربية،¹ جالبن معهم ثقافات المناطق التي قدموا منها، وهي حوض الدانون الأعلى وسويسرا وقد أقام هؤلاء السكان مستعمراتهم فوق البحيرات فثبتوا بيوتهم الخشبية فوق أعمدة و أسافين من جذوع الاشجار غرست في أرض البحيرات².

أقام هؤلاء الوافدون الجدد قراهم على شواطئ بحيرة ماجيوري (Maggiore)، ومن ثم انتشروا في المنطقة الغربية في وادي البو بالقرب من بحيرات أخرى، وقد عرفت هذه القرى نوعا جديدا من المساكن يسمى مساكن الركائز (Palafitte) وذلك بغية اتقاء هجمات وحوش الآدميين³. أعقبت، هذه الهجرة هجرة أخرى حدثت حوالي 1700 ق.م وفدت من خلالها مجموعة عرقية من أواسط أوروبا لتستقر في سهل البو، وفي الجنوب والشرق من منطقة البحيرات⁴، وقد أطلق العلماء المحدثون اسم تيرامارا (Terramare) على حضارة هؤلاء الوافدين وتعني تيرامارا الأرض الخصبة السوداء⁵.

وتجدر الإشارة أنه في أواخر عصر البرونز أي بين 1500 و 1100 ق.م استطاع الموكينيون الاغريق الوصول بتجارهم إلى الشواطئ الإيطالية الغربية، وقد أقاموا بها مستوطنات هناك، ويبدو أنه قد سبق الموكينيون إلى معرفة إيطاليا أهل كريت وجزر بحر إيجه، ويلاحظ أن النفوذ الموكيني في تلك الفترة قد وصل حتى أقصى الغرب الإيطالي بل أنه يظهر بشكل جلي في جزيرتي صقلية وسردينيا اللتين كانتا من ابرز المناطق التي ظهرت بها معالم الحضارة الموكينية خلال عصر النحاس والبرونز⁶.

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص31.

² - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص42.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص06.

⁴ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص43.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص32.

⁶ - نفسه.

ويعزو بعض الباحثين ظهور حضارة عصر الحديد في إيطاليا إلى هجرة هندو أوروبية جديدة حدثت مع بدايات الألف الأولى ق.م، قادمة من وادي الدانون حيث ازدهرت حوالي أواخر الألف الثانية ق.م صياغة الأدوات الحديدية،¹ وقد ساهمت هذه الهجرة في تسريع عملية التطور الحضاري في شمال إيطاليا.² وقد أطلق علماء الآثار مصطلح حضارة فيلانوفا (Villanova) على هذه الحضارة التي وجدت آثارها في بنايات تقع إلى الجنوب من جبال الابنين في شمال غرب إيطاليا.³ نسبة إلى مدينة فيلانوفا (Villaonova) القريبة من مدينة بولونيا⁴ Bologna الواقعة في شمال شرق إيطاليا.⁵

وإذا كانت شبه جزيرة إيطاليا قد عاشت إلى غاية بواكر عصر الحديد على وقع انتشار العديد من الجماعات الانسانية بأرضها نتيجة الهجرات المتتالية التي قدمت لها، والتي لعبت دورا مهما في تاريخها خلال العصور التاريخية، فإنه من الصعب رغم ذلك تتبع تاريخ وحركة تلك الجماعات البشرية قبل القرن السادس ق.م، ذلك التاريخ الذي يمكن فيه حسب المعطيات التاريخية، ضبط الخارطة البشرية للشعوب التي كانت تقطن إيطاليا، وتصنيفها اعتمادا على معياري الجنس واللغة لتمييز مكونات سكان إيطاليا في تلك الفترة،⁶ وبذلك عمل المؤرخون من خلال تلك الأسس على تقسيم سكان إيطاليا عند القرن السادس ق.م إلى قسمين مهمين هما: الجماعات الإيطالية والجماعات غير الإيطالية.⁷

ويصف أحد المؤرخين إيطاليا خلال العصور التاريخية على أنها كانت فسيحاء من الشعوب، البعض منها مستقر في مساحات محدودة من شبه الجزيرة، والبعض الآخر لا يزال في حالة حركة.⁸

¹ - ابراهيم نصحي، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام 133 ق.م، ج 1، ط 2، (د.ب.ن)، 1978، ص 37.

² - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 47.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 33.

⁴ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 06.

⁵ - محمود ابراهيم السعدي، المرجع السابق، ص 50.

⁶ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 33.

⁷ - ابراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 19.

⁸ - Jacques Heurgon, Rome et la méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques, presse universitaire de France, Paris, 1969, P 55.

2- سكان شبه الجزيرة الإيطالية مع بداية القرن السادس ق.م

أ-الشعوب الإيطالية

- **اللاتين:** كانوا يقطنون الضفة الجنوبية الشرقية من نهر التبر،¹ تلك المنطقة التي تعتبر السهل الوحيد في إيطاليا الوسطى بين التبر ومرتفعات الألبين (Les Monts Albins) والتي تنتشر وتمتد نحو مستنقعات البونتين (Pontins).²

ويعتقد أن اللاتين هم نتاج تمازج أربعة عناصر سكانية وهم: مهاجرو العصر الحجري الحديث، ومهاجرو عصر البرونز من الهندو أوريين ومهاجرو عصر الحديد من الناطقين اللغة الهنوأوربية وفئة من الاتروسكيين المجاورين لهم والذين بسطوا نفوذهم لفترة من الزمن على إقليم لاتيوم.³ ويمكن اعتبار بعض القبائل التي كانت تقطن مشارق سهل اللاتنوم مثل الهرنيكي (Hernice) والفالسيكي (Falisci) من شعب اللاتين نظرا للشبه الكبير الذي يربط هذه الفئات بهم من حيث الجنس واللغة.⁴ (أنظر الملحق 30 خرائط)

- **الامبوريون (les Ombriens):** كانوا يشكلون أحد أهم شعوب إيطاليا قبل قيام الحضارة الأتروسكية، وكانوا يستقرون في مجال جغرافي يمتد من المنطقة الخلفية للساحل الأدرياتيكي إلى مجرى نهر التبر الأعلى⁵، هذا النهر الذي كان يفصلهم من ناحية الجنوب عن اللاتين. ويعتقد أن الامبورين قد أقاموا مدة من الزمن على شاطئ البحر التيراني لأن اسمهم مشتق من اسم نهر الامبرون (Ombrone) أو (Ombro) ذلك الذي ينبع بالقرب من مدينة غروسيتو (Grosseto).⁶

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 19.

² - Jacques Heurgon, loc.cit.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 39-40.

⁴ - نفسه، ص 40.

⁵ - أحمد سراج، في التاريخ الروماني -نشأة الجمهورية، أفريقيا الشرق للنشر، بيروت، 2001، ص 32

⁶ - Jacques Heurgon, loc.cit.

ويمكن تميز بطنين كبيرين من تلك القبائل الأمبورية التي كانت تعيش في وديان المنطقة الوسطى لجبال الابنين¹، أي في الشرق والجنوب الشرقي لسهل اللاتيوم²، وهي قبائل الأومبري (Ombri) في الشمال والتي كانت تستخدم اللهجة الامبورية وقبائل السابيلي (Sabelii) والتي كانت تستخدم اللهجة الأوسيكية في الجنوب³.

وفي حقيقة الأمر كان الأمبرويون ينقسمون إلى عدد من القبائل التي تصل بينها صلات قرابة وطيدة وهي قبائل السابيني (Les Sabins) والسمنيين (Les Samnites)، والمارسيين (Les Marses) الذين يعيشون على ضفاف بحيرة فوسنيا (Fucin)⁴ إضافة إلى قبائل البيليني (Les Pelignes) والفولسك (Les Volsques) والآيكي (Aequi)، الهربيين (Hirpins) والفستيني (Vestini) وكانت قبائل السمنيين أقوى القبائل على الإطلاق من بين القبائل السابيلية⁵.

ب- الشعوب الغير ايطالية: (Les Lagures):

• الليغوريون (les Ligures): وهم الذين كانوا يقطنون الناحية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الإيطالية، تلك الواقعة بين جبال الألب من وادي سهل البو، حتى نهر تيقينوس (Ticinius) شرقا بما فيها المنطقة الساحلية⁶، من ضفاف خليج جنوه⁷ إلى نهر الأرنو جنوبا⁸. ورغم أن الشعوب الليغورية يعتبرون من سكان تلك المنطقة في العصر الحجري الحديث، فإنه بوجه أو بآخر قد تأثروا بالهجرات الهندوأوربية لكونهم في مطلع العصور التاريخية كانوا

¹ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 40.

² - Jacques Heurgon ,loc.cit.

³ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 40.

⁴ - Jacques Heurgon, loc.cit.

⁵ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص 40-41.

⁶ - ابراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 20.

⁷ - أحمد سراج، المرجع السابق ، ص 31.

⁸ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 41.

يستخدمون لغة الهندوأوربين¹، وقد عُرفوا إبان عصر ازدهار الحضارة بأنهم شعوب جبلية متخلفة حضاريا مقارنة ببقية شعوب إيطاليا². (أنظر المرفق 30 خرائط)

• الاتروسك (Les Etrusques):

هم سكان إقليم أتروريا الذي يشمل المنطقة الواقعة غرب سلسلة جبال الألب،³ بين نهري الآرنو في الشمال والتبر في الجنوب، وكان لهؤلاء الاتروسكيين أثرا بالغا في التطور الحضاري الذي عرفه الرومان منذ تأسس عاصمتهم روما.⁴

ورغم أن الاتروسكيين كانوا جزءاً من الهجرات التي قدمت إلى شبه جزيرة إيطاليا في العصر الحديدي،⁵ وتحديدًا منذ أوائل القرن الثامن ق.م،⁶ إلا أن أصلهم ومكان قدومهم لا يزال يشكل جدلاً بين المؤرخين، فهيرودوت كان قد ذهب إلى قدومهم كان من الحوض الإيجيبي وتحديدًا من ليديا بآسيا الصغرى إثر حدوث مجاعة ضربت المنطقة.⁷

ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن هيرودوت إستد في رأيه إلى أن لغة الاتروسك لا تنحدر من أصل هندوأوربي وأن صلاتهم بالعادات الشرقية أقوى من صلاتهم بعادات شعوب إيطاليا،⁸ ورغم أن المؤرخ في الإغريق ديونيزوس الهاليكارناسي (Denys d'Halicarnasse) يعتبر أن الاتروسكيين ينحدرون من أصل إيطالي⁹ وقد أيده في ذلك علماء الآثار الذين يؤكدون عدم وجود انقطاع في تطور حضارة منطقة أتروريا منذ الحضارة القيلانو فية إلى العهد الأتروسكي، إلا أن رأى المؤرخين المعاصرة يميل إلى أن الأتروسكيين هاجروا من آسيا الصغرى وليديا (Lydie) ليستقروا في الأراضي البركانية إلى الغرب من شبه الجزيرة الإيطالية في المنطقة

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 41.

² - Jacques Heurgon , loc.cit.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق ص 43

⁴ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 33.

⁵ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 51.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 43.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 35.

⁸ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 52.

⁹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 35.

المسماة أتروريا¹، وهنالك استطاعوا بغاراتهم البحرية الاستيلاء على ساحل إيطاليا الغربي، من نابولي جنوبا إلى جنوه شمالا، وأقاموا فيه مدنا محصنة مثل: تاركويني (Tarquini)، وفوتولونيا (Vetulunia) ويورجيا (Perugia) أما أعظمها فكانت مدينة فياي (Veii)².

• شعوب الفينيت (Vénètes) والرايتي (Rètes).

كان الفينيت يقطنون إقليم إيليريا، تلك المنطقة الواقعة في الطرف الشرقي الشمالي لشبه جزيرة إيطاليا بين بحيرة جاردا (Garda) وشبه جزيرة إستريا³ بالقرب من مصب نهر البو. كانت لغتهم بوجه عام من فصائل اللغات الهند وأوربية⁴، أما شعوب الرايتي فكانت تنزل إلى الشمال والغرب من مضارب الفينيت إلى غاية إقليم ليغوريا غربا. كانت تربطهم صلات قرابة بالأتروسكيين غير أنهم لم يكونوا من الشعوب المتحضرة في إيطاليا، وسرعان ما تم طردهم من طرف الغاليين القادمين من الشمال إثر غزوات الكلتيين (les Celtes) التي حولت المنطقة فيما عرف بعد ذلك بغاليا القريبة (la Gaule Cisalpine)⁵.

• شعوب البيكنس أو السكنتس (Picens ou Picentes)

كانوا يقطنون في المنطقة الوسطى شرقي إقليم أمبوروا أي على الجهة الغربية من شبه الجزيرة الإيطالية على سواحل الأدريا تيكى،⁶ في المنطقة التي كانت تعرف باسم أنكون (Ancone)⁷.

• شعوب اليايبيجي (Japyges)

وهم الذين كانوا يتواجدون بإقليمي أبوليا وكالابريا جنوب شرق إيطاليا، أي إلى الجنوب من مواطن البيكنتس، وكانوا ينقسمون إلى عدد من القبائل مثل الداوني (Douniens) والبيوكينتي (Peucétiens) والمسابي (Messapiens)⁸. (أنظر الملحق 30 خرائط)

¹ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص52.

² - ابراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص20.

³ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص41.

⁴ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص32.

⁵ - Jacques Heurgon, loc.cit

⁶ - Ibid, p56.

⁷ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص32.

⁸ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص42.

• اللوكانيون و البروتيون: (Lucaniens/ Bruttians)

وهم الذين كانوا يقطنون المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة الإيطالية،¹ تلك المناطق التي يطلق عليها اليوم بازيليكات (Basilicate) وكالابريا (Calabre)، حيث كانوا على تماس مع المستعمرات الهيلينية التي أُسِّسَتْ ابتداء من القرن الثامن VIII ق.م. وكانت هذه الشعوب تنقسم إلى عدة قبائل أطلق عليهم اليونانيون تسميه الأونوتر (les Oenotre)، الكونس (Chones)، المورجات (Morgètes) والإيطال (Itales).²

• شعوب الأوسك (Osques) والأوسون (Ausons)

كانوا يتمركزون بإقليم كمبانيا (Campanie) وتحديدًا بمنطقة نابوي (Neples)،³ ذلك الإقليم الواقع على الساحل الغربي لإيطاليا بين لاتيوم شمالًا ولوكانيا جنوبًا وجبال الابنين شرقًا.⁴ وفي حقيقة الأمر عُرِفَ سكان هذه المنطقة بالكمبانيين، لكن قبائل الأوسك والأوسون تعتبر الشعوب الأقدم في تلك المنطقة التي سيطر عليها الإغريق ابتداء من القرن الثامن VIII ق.م ثم الأتروسك ابتداء من القرن السادس VI ق.م.⁵

• شعوب السيكان (Sicanes) والسيكول (Sicules)

يعتبر المؤرخون شعب السيكان الأصليين لمنطقة جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية قبل أن يتم إبعادهم إلى جنوب جزيرة صقلية من طرف قبائل السيكول التي قَدِمَتْ من إيطاليا في القرن الثالث عشر XIII ق.م.^{6 7}

¹ إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص42.

² - Jacques Heurgon, op.cit, p55.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص32.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص43.

⁵ - Jacques Heurgon, loc.cit.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص31.

⁷ - يعتقد أغلب المؤرخين أن السيكول ينتمون إلى العرق المتوسطي باعتبار عاداتهم المبنية على سيادة المجتمع الأموي غريبة تمامًا عن عادات وتقاليد الشعوب الهندوأوروبية (أنظر: أحمد سراج، المرجع السابق، ص31)

• الإغريق والفينيقيون (les Grecs et les Phéniciens)

لا يمكن الحديث عن الخارطة البشرية في إيطاليا دون النظر إلى المستوطنات الإغريقية والفينيقية التي ظهرت بأرض شبه الجزيرة الإيطالية أو الجزر التابعة لها مثل صقلية، سردينيا، وكورسيكا، أما الإغريق فكان استيطانهم بين منتصف القرن الثامن ق.م ومنتصف القرن السادس ق.م، حيث أقاموا مستعمرات في جنوب إيطاليا من خليج نابولي في الغرب إل خليج أوترا نتو في الجنوب على الجزء الشمالي من جزيرة صقلية ثم على معظم الجزيرة¹.

ومن خلال ذلك الوجود اليوناني بإيطاليا، تأثر الإيطاليون بتقاليد الحضارة الهيلينية المادية والفكرية حيث أنه واعتبارا من القرن السابع ق.م، بدأ الأمراء الإيطاليون باقتباس العادات الإغريقية في التفاخر بانحدارهم من نسل أبطال آلهة الإغريق². أما بالنسبة للفينيقيين فعلى الرغم من تأسيسهم لبعض المستعمرات في صقلية وسردينيا وكورسيكا واللذان أصبحت قرطاجة صاحبة النفوذ عليها بعد ضعف المدن الإغريقية في الشرق، وعجز مدينة صور عن الدفاع في هذه المستعمرات، إلا أن الوجود الفينيقي في إيطاليا سرعان ما زال بعد صراع طويل مع الإغريق على أرض ومياه جزيرة صقلية، ثم حرب ضد الجمهورية الرومانية³.

وفي حقيقة الأمر لا يمكن الانتهاء من الحديث عن الدراسة البشرية لشبه الجزيرة الإيطالية دون الحديث عن مصطلح الرومان ذلك الذي ظهر في منتصف القرن الثامن ق.م، مع تأسيس مدينة روما سنة 753 ق.م من قبل رومولوس (Romulus)⁴ الذي صار ملكا عليها، والذي ينحدر حسب أسطورة تأسيس روما في نسل الأمير الطروادي إينياس (Enée). أصبحت روما مدينة مزدهرة وصار سكانها يُدْعَوْنَ بالرومان، وهم خليط من الرعاة والمشردين الذين كانوا يعيشون في سهل اللاتيوم، والذين تزوجوا عنوة بعد ذلك من بنات الصابين⁵، ليتشكل بذلك كيان سياسي

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص21.

² - هشام الصفدي، المرجع السابق، صص49-50.

³ - نفسه، ص51.

⁴ - حسين الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة : الرومان، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1997، ص31.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، صص52، 53.

قابل للحياة اجتماعيا والاستمرار، ومن ثم التوسع في شبه جزيرة إيطاليا وخارجها. عاش الرومان في ظل الحكم الملكي إلى غاية نهاية القرن السادس ق.م، لينقلبوا بعد ذلك على آخر ملوكهم من الأتروسك ويتخذوا لأنفسهم نظاما جديدا عرف بنظام الجمهوري سنة 509 ق.م.¹

وبحلول سنة 272 ق.م تمكنت روما من إتمام السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، لتبدأ مرحلة جديدة من الحروب الخارجية دامت مدة 150 عاما ولتتحول بعدها إلى القوة الأولى في حوض المتوسط². وبذلك صار العنصر الروماني هو العنصر الطاغي في أرجاء الجمهورية الرومانية، وتدخل تلك الشعوب التي عاشت في إيطاليا شيئا فشيئا تحت العباءة الرومانية بعد صراع طويل مع مجلس الشيوخ الروماني، وكان ذلك عبر مراحل دامية كانت أهمها الحرب الاجتماعية³ بين سنتي 90 و 88 ق.م.⁴

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 104، 106.

² - حسين الشيخ، الرومان المرجع السابق، ص 31.

³ - هي حرب أشعلتها الشعوب الإيطالية ضد روما للحصول على حقوقهم القانونية مثل حق المواطنة والجنسية وذلك بعد العديد من محاولات الإصلاح التي واجهتها روما بالرفض، كانت بداية الحرب في مدينة أسكولوم (Asculum) لتلتحق بها الشعوب الإيطالية من المارسيين والبيبينيين والبيكتنس والفروننتيين والهريين وغيرهم، وانتهت تلك الثورة بعد مجاهدة دامية بين الدولة الرومانية وتلك الشعوب الثائرة، ولكن بعد تقديم روما للعديد من التنازلات مثل حق المواطنة والحق في الانتخاب، وبالمقابل رضى الإيطاليون بالبقاء تحت العباءة الرومانية، وتنازلوا عن مطلب الانفصال لتشهد بذلك شبه الجزيرة الإيطالية تحولا كبيرا سمح بانتقال الرومان من مجتمع الدولة المدنية إلى مجتمع الدولة الرومانية، ويصبح جميع أفراد هذا المجتمع مواطنون رومان يتكلمون اللغة اللاتينية. أنظر عمر بوصبيح، الحرب الأهلية بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا 49-44 ق.م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، اشراف محمد الحبيب بشاري، جامعة الجزائر -2- 2014/2013، ص ص 40-44.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.س.ن)، ص ص 64-65.

III- التطور السياسي لدولة الرومان

1- تأسيس روما من خلال الروايات التاريخية

ارتبطت الحضارة الرومانية بصفة عامة والدولة الرومانية بصفة خاصة ارتباطا وثيقا بشبه جزيرة إيطاليا وتحديدًا مدينة روما التي استطاع مواطنوها الرومان أن يجعلوا مدينتهم الصغيرة دولة كبيرة ذات قوة عظمى بسطت نفوذها تدريجياً على إيطاليا وكانت بذلك انطلاقة حضارة متوسطة جديدة، إذ أن البحر المتوسط نفسه غدا بعد ذلك بحيرة رومانية مع أواخر القرن الأخير ق.م¹. وفي الحقيقة بدأت روما في الوجود حين تم تأسيسها كمدينة من طرف بطل مؤسس هو رومولوس (Romulus) الذي أعطاها اسمه². تقع مدينة روما القديمة على تخوم سهل للاتيوم الشمالية³، على الضفة اليسرى لنهر التير الذي يعتبر حداً طبيعياً يفصل بين سهلي اللاتيوم وأتروريا⁴. وتذكر الروايات القديمة أن المستوطنة الأصلية التي قامت عليها روما كانت على تل البلاتين (Platin) وهي واحدة من التلال القديمة المجاورة لنهر التير، وتستطرد هذه الروايات لتتحدث عن توسع مستوطنة البلاتين لتظم المنطقة المعروفة بمنطقة الشعاب السبعة (Septimontium)⁵.

ورغم الدراسات العديدة التي كان موضوعها تاريخ روما وتأسيسها، إلا أن الحقائق التاريخية حول هذا الموضوع لا تزال شحيحة لكون الزمن الذي تأسست فيه هذه المدينة كان قبل معرفة الإيطاليين بالكتابة، ولكون هذه المدينة من خلال أوصافها السياسية والعسكرية والاقتصادية في البدايات لم تكن تجلب انتباه المؤرخين في العالم الخارجي⁶.

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الروماني، ص13.

² - François Hinard, Histoire romaine, Tome I, Des origines à Auguste, chapitre écrit par Dominique Briquel, Editions Fayard, Paris, 2001, p11.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص95.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص72.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص95.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص76.

وحين علا نجم الرومان ومدينتهم وبسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة سواء في إيطاليا أو خارجها، أخذت أهمية المدينة تتزايد مما استرعى بذلك انتباه الكتاب والمؤرخين¹، لذلك نسجل أن أغلب من كتبوا عن تاريخ الرومان ونشأة مدينتهم ممن بقيت كتاباتهم قائمة حتى الآن، كتبوا عنها بعد خمسمائة عام على الأقل من وقوع تلك الأحداث، وفي خلال تلك الفترة الزمنية لم يعد من السهل التمييز بين الحقيقة والأسطورة أو بين الواقع وما إمتزج به من خيال حول حقيقة تلك الأحداث.²

ويبدو أن الرومان الذين حاولوا كتابة تاريخهم في زمن متأخر عن تأسيس مدينتهم ودولتهم أرادوا بشكل أو بآخر ربط أصولهم بحضارة عريقة مجاورة هي أقدم وأعرق من تلك المدينة والدولة الرومانية الوليدة. وبما أن حضارة الإغريق كانت الأقرب إليهم من حيث الجغرافيا، وكذلك من حيث الأصل الهندو أوروبي، فإننا نجد مؤرخي الرومان يربطون جذورهم بالحدث الأشهر في تاريخ اليونان في العصر الموكيني وهو حرب الآخيين (les Achéens) ضد طروادة (Troie)، في شمال غرب آسيا الصغرى.³

ومع ذلك فإن هنالك من المؤرخين من رأى أنه حين أسترعت روما اهتمام الإغريق ومؤرخيهم خلال القرنين الخامس والرابع ق.م، وكان الإغريق معروفون بخيالهم الحضب ومسارعتهم إلى خلق مؤسس أسطوري لكل مدينة تفتقر إلى أسانيد صحيحة عن نشأتها، لذلك لم يلبثوا أن أدلوا يدلوهم في هذا الأمر وربطوا نشأة روما بماضيهم الأسطوري، مما أفضى إلى أساطير مختلفة كان مؤسس روما فيها جميعا إما أحد أبطال أساطيرهم، وإما سليل واحد من هؤلاء الأبطال، وأهم تلك الأساطير، هي تلك التي تربط بين تأسيس روما وبين الأمير الطوواوي إنياس (Enée)⁴.

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص76.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص95.

³ - نفسه، ص96.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص77.

وردت قصة تأسيس مدينة روما الأسطورية في إنياذة فيرجيليوس (Eneide de virgile)، وفيال الكتابة التاريخية (Histoire romaine) لتيئوس ليفيوس، وكذا في مؤلَّف الإغريقي دونيس الهاليكارناسي (Denys d'Halicarnasse) (Antiquités romaines)، وقد تقاطعت في هذه المصادر الثلاثة أحداث كانت بدايتها بفرار الأمير الطرادي إنياس بن أنخير (Anchise) وابن الالهة فينوس (Venus) من طروادة، بعد أن دمرها الآخيون، وإستقراره بعد طواف طويل في سهل اللاتيوم (Latiim) أين تزوج هنالك من ابنه الملك لاتينوس لافينيا (Lavinia)، وأسس لها مدينة سماها لافينيوم (Lavinium)، كما أسس ابنه أسكانياس (Ascagne) مدينة بالجوار هي مدينة ألبالونجا (Albala la langue)¹.

تعاقب على حكم ألبالونجا إثنا عشر ملكا بعد إسكانياس جميعهم من نسل إنياس ، كان الثالث عشر من بعدهم يسمى نوميتور (Numitor)، هذا الأخير أطاح به شقيقه أموليوس (Amulus) ونصب نفسه ملكا بدلا عنه²، ومن أجل أن لا ينازعه أحد في الحكم من ذرية أخيه نوميتور، أجبر ابنة أخيه ريا سلفيا (Rhéa Silvia) على أن تكون راهبة في معبد الربة فستا (Vesta)، الأمر الذي يفرض عليها أن تبقى عذراء مدى الحياة³. إلا أن الإله مارس وقع في حبها، ومن اجتماعهما ولدت توأما: رومولوس (Romulus) وراموس (Remus)، وحين علم نوميتور بالأمر قام بسجن ريا سيلفيا أمر بالتخلص من الصغيرين بالقائهما في صندوق ووضعه في نهر التير⁴. نجى الولدان حين وجدتهما ذئبة على ضفة النهر، فأرضعتهما ثم عثر عليهما راع وزوجته، وقاما يرعايتهما⁵.

¹ - Virgile, Eneide, Traduit par l'abbée Delille, <http://remacle.org/bloodwolf/poetes/virgile/eneide2.htm>, II-VII ; Tite-Live, Œuvres de Tite-Live, Texte traduit par M.Nisard, Tome premier, Firmin Didot frères, fils et Cie Libraire, Paris, 1864, I, I-III ; Denys d'Alicarnas, les Antiquités romaines, texte traduit par inconu, Tome premier, Philippe Nicolas Lottni Editeur, Paris, S.D.I, I, 45-71.

² - Denys d'Halicarnasse, op.cit, I, 72 ; Tite-Live, op.cit, I, III, 6-11.

³ - Tite-Live, op.cit, I, 3, 11.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 96-97.

⁵ Tite-Live, op.cit, I, IV, 4-7.

حين أصبح كل من روميلوس وراموس شابين أدركا حقيقة أصلهما الملكي، فعملا على خلع أموليوس من العرش وإعادة جدهما نوميديور إلى حكم ألبالونجا وكان لهما ذلك¹. قرر الشابان بعد ذلك تأسيس مدينة جديدة في المكان الذي رسى فيه الصندوق على شاطئ التبر، ومن أجل معرفة أيهما الأجدر بحكم المدينة لجآ إلى العرافة لمعرفة رأى الآلهة في ذلك. وحين كانت نتيجة العرافة لصالح روميلوس دب الخلاف بين الشقيقين وسرعان ما تحول إلى نزاع أنتهى بمقتل راموس، وإستفراد روميلوس بحكم المدينة التي أخذت أسمها منه وصارت تسمى "روما" (Rome). تلك المدينة التي يرجح أنها تأسست سنة 753 ق.م، ذلك التاريخ الذي أصبح الرومان يحصون سنوات تأريخهم انطلاقا منه².

ومن هنا يمكن القول أن روما قد بدأت في الوجود حين تم تأسيسها كمدينة من طرف بطل أسطوري هو روميلوس، وتم له ذلك بإرادته التي قوّتها موافقة الآلهة المتمثلة في علامة الأثني عشر طائرا التي أرسلها، ويرجع أن هذه المدينة قد إستنسخت عن المدينة الأصلية للبطل وهي مدينة ألبالونجا، فكان لها نفس التخطيط والتنظيم العمراني³.

ويذهب تيتوس ليفيوس إلى أنه بعد القيام بالطقوس الدينية اللازمة واللائقة تأسست مدينة جديدة، جمع روميلوس من كانوا بها من سكان ذوي الطباع الغليظة، وبدأ بسن القوانين المنظمة لحياتهم، ومن أجل تقديم نفسه كقائد صارم وذو هيبة، ظهر لهم في هيئة الملوك يحيط به عدد من الحرس يرجح أن عددهم اثني عشر (12) فردا بعدد النسور التي بشرته بمباركة الآلهة لحكمه، غير أنه من المحتمل أن ذلك العدد من الحرس كان تقليدا متبعا عند ملوك الأتروسكيين جيران روما⁴.

ومن مظاهر إخراج تلك المدينة الفتية إلى الوجود في تلك الفترة من القرن الثامن ق.م، كان حفر الأخدود أو الخندق حول المدينة بشكل أولي، والذي يحد المدينة الجديدة عن تلك القديمة،

¹ - تيتوس ليفيوس، تاريخ روما العتيقة، الكتاب الأول، عهد الملكية إلى حين سقوطها ونشأة الجمهورية ما بين 753 ق م-509 ق م، ترجمة وتعليق المصطفى حميمو، كتاب الكتروني، ص 11-12.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 97.

³ - François Hinard, op.cit, P11.

⁴ - Tite-Live, op.cit, I, VIII, 1-3 ; 14 - المصدر السابق، ص 14

ومن ثم كان على مؤسسها أن يجهزها بمؤسساتها السياسية مثل السيناتو (Sénat) أو مجلس الشيوخ، وكذلك تحديد عباداتها الأساسية والتي تمثلت في عبادة الإلهة (Vesta)¹.

ويبدو أن روميلوس وبغرض إعطاء زخم لمدينته الناشئة التي كانت تتوسع وتتطور بشكل سريع، قرر فتح ملجأ للراغبين في الانضمام إليها من المناطق المجاورة من المحاربين الأحرار، وكذلك من العبيد، وقد اجتمع له عدد معتبر من المحاربين في وقت وجيز لذلك ومن أجل إخضاع تلك القوة إلى سلطة إدارية دائمة، أوكل أمرها إلى مجلس الشيوخ الذي جعل عدد أعضائه مائة (100) من كبار المدينة كممثلين لأطياف السكان والمحاربين بها، أولئك الأعضاء الذين يحتمل أن روميلوس كان يثق فيهم ويراهم ممثلين لشعب روما الناشئة، والذين أطلق عليهم في تلك الفترة تسمية الآباء (Pâtres) تلك التسمية التي تحولت فيما بعد إلى لقب الأشراف (les Patriciens)².

كان عدد كبير من رجال مدينة روميلوس غير متزوجين³، وبغرض المحافظة على استمرارية هذا المكان الوليد كانوا بحاجة إلى زوجات، لذلك نظم الرومان إحتفالات بها ألعاب بمناسبة تأسيس مدينتهم ودعوا إليها جيرانهم من قبائل السابين (Sabines) المجاورة رفقة نسائهم و أطفالهم.⁴

وحين انطلق السباق بين المتنافسين انقض الرومان على النساء السابينيات واتخذوا منهن زوجات عنوة وطردها الرجال هو حلبة السباق، وهو الأمر الذي أغضب ملك السابين تيتوس تاتوس (Titus Tatius) وهو كبير قبيلة الكويريتين (Curites)، فشن حربا على روما وقد استطاع الملك دخول المدينة بمساعدة فتاة رومانية تدعى تربيا (Terpia). إلا أن النساء السابينيات اللاتي صرن زوجات لرجال الرومان سعين إلى الصلح بين الطرفين، وتم الاتفاق في آخر الأمر على إيقاف الحرب مقابل مشاركة تيتوس تاتوس في حكم روما مع روميلوس، وانضمام قبيلة الكويريتين إلى اللاتين ويصبح أفرادها من مواطني روما.⁵

¹ - François Hinard, loc.cit.

² - Tite-Live, op.cit, I, VIII, 4-7.

³ - Ibid, I, IX, 1.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص98.

⁵ - ول ديورنت، قصة الحضارة، ص ص16-17.

عاش الرومان بعد ذلك جنبا إلى جنب مع السابين ونشأت بينهم قرابة،¹ وقد حكم روميلوس روما زمنا طويلا رُفِعَ بعدها حسب الأسطورة إلى السماء² في عاصفة رعديّة، وقد أعلن شهود تلك المعجزة ألوهيته وقديسيته³، ليتخذ الرومان إلهً من آلهتهم المفضلين، وكانوا يعبدونه باسم كويرينوس (Quirinus)، وبعد وفاة تاتئوس اختار الأشراف في روما رجلا من السابين يدعى نوما بومبيليوس (Numa Pompilius) ملكا على المدينة⁴.

2- روما خلال المرحلة الملكية: (753-509 ق.م)

تدل الشواهد الأثرية على أنه في الفترة التي تم فيها تأسيس مدينة روما كان النظام الملكي هو نظام الحكم السائد في كل المناطق المجاورة لها سواء في أتروريا أو في سهل اللاتيوم، وما يؤكد ذلك بالنسبة للرومان هو العثور على كلمة ملك (Rex) على عمود من الحجر الأسود وجد تحت أرضية الفوروم⁵. وعلى أي حال فإن المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس يتحدث عن سبعة ملوك حكموا روما خلال الفترة الممتدة بين 753 و 509 ق.م، أُطِيعَ بعدها بالملكية ليقوم محلها نظام جديد هو النظام الجمهوري⁶ هؤلاء الملوك هم على التوالي:

1- رومولوس (Romulus) (753-716 ق.م)

2- نوما بومبيليوس (Numa Pompilius) (715-673 ق.م)

3- تولوس هوستيليوس (Tulus Hostiluis) (672-641 ق.م)

4- أنكوس ماركئوس (Ancus Marcius) (640-617 ق.م)

5- تاركينئوس بريسكوس (Tarquinius Priscus) (616-579 ق.م)

6- سرفيليوس توليوس (Servilius Tullius) (578-535 ق.م)

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص98.

² - ول ديورنت، المرجع السابق، ص17.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص98.

⁴ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص17.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص84.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص106.

7- تاركينيوس سوبربوس (Terquinius Superbus) (534-510 ق.م)¹

والجدير بالذكر أن النظام الملكي في العهد الروماني الأول، لم يكن حقاً إلهياً ترثه سلالة أو عائلة بعينها كما هو الحال عند الشعوب الشرقية، بل كان يتم تعيين الملك بعد انتخابه من قبل مجلس الجماعات (Cures) (الكور) ليحكم مدى الحياة، والذي يمنحه جميع صلاحيات السلطة التنفيذية أو ما اصطلح على تسميتها بسلطة الأمبريوم (Imperium)، وكان كل ذلك يتم بعد موافقة مجلس الشيوخ بمقتضى سلطة الأبوية.²

لذلك نسجل بالنسبة لملوك روما، إذا ما إستثنينا روميلوس مؤسسها الأسطوري، فإن الثلاثة لملوك الأوائل كانوا من السابيين، أما الثلاثة الأواخر فكانوا من الأتروسكيين، الأمر الذي يعكس التنافس والصراع بين مختلف مكونات الأسر التي اندمجت في النسيج السكاني الروماني، وخاصة من تلك الأسر والعشائر ذات المكانة المرموقة أو ما يعرفون بالأشراف.³

إن العلاقة الوطيدة بين الجانبين السياسي والاجتماعي في روما تجعلنا نعرج قليلاً للحديث عن المجتمع الروماني في العهد الملكي لكي نتمكن من فهم المشهد السياسي الذي كان سائداً بها، فالمجتمع الروماني كان يقوم في بداياته على أساس قبلي عشائري، لأن روما في الأصل بحسب المصادر التاريخية كانت تتكون من ثلاث قبائل كبيرة هي قبيلة التيتس (les Tities)، الرامنس (les Ramnes)، واللوكرس (les Luceres). وكانت كل قبيلة من تلك القبائل تنقسم إلى وحدات سميت عشائر (Curies) أو (gens)،⁴ والعشيرة في واقع الأمر كانت تشكل وحدة سياسية واجتماعية لطالما اعتبرت قاعدة للنظام الاجتماعي والسياسي في روما. ويبدو أن هذا النظام العشائري كان موجوداً حتى قبل ظهور روما ككيان سياسي، غير أنه استمر في الوجود وفرض نفسه بعد ذلك.⁵

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص106.

² - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص78.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص17-19.

⁴ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص74.

⁵ - Jacques Heurgon, op.cit, p192.

كانت العشيرة تمثل من حيث تركيبها تجمعا لعدد من الأفراد ينحدرون أو يدعون انحدرهم من جد واحد مشترك، وتتجسد علاقة القرابة تلك في حملهم لنفس اللقب (gentilice) الذي عادة ما يكون مشتقا من اسم ذلك الجد الأكبر المشترك. كما كان لكل عشيرة مدافنها الخاصة التي يقوم أفرادها على حمايتها وتعبد نفس الآلهة، ولها طقوس دينية مشتركة، هذا فضلا عن وجود نظام تشاوري في كل عشيرة تتخذ من خلاله القرارات التي تم حياة أفرادها¹. وبالإضافة إلى أبنائها الأصليين كانت العشيرة تظم عددا معتبرا من الأشخاص الذين أُلْحِقُوا بها عن طريق علاقة خاصة تنتظم في إطار نظام عرف قديما بنظام الزبونية أو التبعية (Clientelle) وهو نظام كان معروفا عند العديد من الشعوب الإيطالية وحتى عند الأتروسك².

وبموجب هذا النظام يضمن السيد الحماية لحياة ومصالح تابعيه مقابل التزام التابع بالطاعة العمياء لسيده، تلك الطاعة التي يعبر عنها بتقديم العون العسكري والسياسي للسيد، وكذلك القيام ببعض الخدمات الأخرى خاصة في الجانب الاقتصادي، ومن خلال هذه العلاقة يصبح التابع عنصرا مدججا في العشيرة، التي بسطت عليه حمايتها ومن ثم يمكنه أن يحمل اسمها كما يمكنه أن يورث تلك التبعية لأبنائه بعد موافقة سيده³.

أما فيما يتعلق بأصل هؤلاء الأتباع فالأمر لا يتعلق هنا بجهة واحدة بل بجهات متعددة، فالبعض منهم ينحدر من عائلات فقيرة تبحث عن ظهر يسندها وعصبة تحميها، والبعض الآخر هم من الفلاحين الصغار الذين خصصت لهم بعض العشائر قطعة أرضية يشتغلون فيها كعمال زراعيين⁴. كما أن هنالك فئة أخرى تتمثل في أولئك الرعاة الذين يشكلون جيش العشيرة في حالة الخطر، وكذلك بعض النجارين والصناع الذين يقطنون مدينة روما، والذين كانوا في أمس الحاجة لإطار قضائي وسياسي يضمن لهم ممارسة عملهم وهم مطمئنين في رعاية أسيادهم⁵. أما الفئة

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 62.

² - Jacques Heurgon, op.cit, p193.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 62-63 ؛ هشام الصفدي، المرجع السابق ص 77.

⁴ - Jacques Heurgon, op.cit, p194.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 63.

الأخيرة فهي فئة العبيد الذين أعتقهم أسيادهم، ورغم عتقهم من العبودية إلا أنهم يظلون تابعين لأسيادهم وكانت هذه الفئة هي التي تضمن للعشائر أعدادا كبيرة من الإلتباع¹.

وإذا ما واصلنا الحديث عن مكونات المجتمع الروماني خاصة في بداية الفترة الملكية، فلا بد من التطرق هنا إلى طبقة ثالثة أو نوع ثالث من المواطنين يضاف إلى أفراد العشائر الرومانية والإلتباع، هذه الطبقة الأخيرة كانت لها مكانة وسط بين الفئتين السالفتي الذكر، أما أفرادها فهم أولئك المواطنون الأحرار من ذوي الأملاك المحدودة، ومن التجار والحرفيين الكادحين الذين اصطلح على تسميتهم بالبروليتاريا (Prolitaires)، هؤلاء جميعا أُطلقَ عليهم تاريخيا تسمية العامة (la Plèbe)² وكلمة (Pbèbe) هي في الأصل كلمة إغريقية (Plêthos) التي تعني الجموع أو السوق، فهي بذلك تشير إلى جماهير غير منظمة مؤلفة من الفقراء والمهاجرين والمتسكعين وقطاع الطرق وهذه هي الصورة التي رسختها الذاكرة التاريخية الأرستقراطية عن هذه الفئة من المجتمع الروماني³.

وإذا ما بحثنا في أصول تكوين هذه الطبقة من المجتمع الروماني فإننا سنجد أنفسنا أمام العديد من الآراء المختلفة، إلا أن الرأي الراجح بين المؤرخين المحدثين هو أن هذه الطبقة نتجت من تراكم الوافدين والمتسللين إلى روما بغية الاندماج فيها، والذين اصطدموا بجدار منيع هو جدار العشائر الرومانية التي لم تكن تقبل إدخال عناصر جديدة إلى نطاقها، وكان أولئك الوافدون في بداية الأمر يتشكلون من الذين لا مأوى لهم، والذين يرجح أن رومولوس هو أول من فتح لهم الباب لدخول روما بغية إثراء مدينته بالعناصر البشرية التي ستعمل على إزدهارها⁴.

أولئك الوافدون كانت أعدادهم تتزايد بمرور الزمن، والذين كانت روما تستقطبهم وتجذبهم إليها في فترة ازدهارها لكونهم من أصحاب الحرف⁵ والتجار الذين استقروها بها لمزاولة مهنتهم

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, p194.

² - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص77.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص65.

⁴ - Jacques Heurgon, op.cit, p197.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص65.

خاصة في فترة حكم الملوك الأتروسكيين، ولا يمكن هنا إهمال دور هؤلاء العوام في ازدهار روما ونهضتها في تلك الفترة¹، ويبدو أن هذه الفئة من العوام قد ضُمَّت إليها تدريجياً أفراداً من الشعوب المغلوبة وأولئك المغضوب عليهم من الإتياع الذين طردهم أسيادهم من العشائر، وكذلك الفلاحين الذين يشتغلون في حقول كبار الملاكين، والذين كانوا يعيشون في وضعية مشابهة لوضعية الأتقان^{2 3}، ويختلف العامة في روما عن النبلاء بأنهم لا أتباع لهم ولا يحق لهم الوصول إلى عضوية مجلس الشيوخ (Sénat)، وكذلك لا يحق لهم شغل مناصب إدارية، إلا أنهم كانوا ممثلين بأفراد منهم في مجلس الجماعات ويحق لهم التصويت فيه⁴.

وفي نهاية الحديث عن الجانب الاجتماعي في روما الملكية لا بد من الإشارة إلى أنه في نهاية العصر الملكي كانت الأمة الرومانية تتشكل من طبقتين اجتماعيتين فاعلتين في المشهد السياسي الروماني، هما طبقة العامة التي سبق الحديث عنها وطبقة الأشراف (les Patriciens) هذه الأخيرة كانت تتألف تحديداً من كبار ملاك الأراضي الذين لهم نفوذ واسع والمتحصلين على امتيازات كبيرة في الدولة، ولذلك كان أفراد هذه الطبقة يحكم ثرواتهم الكبيرة أقدر على ممارسة وإدارة شؤون الحرب، وأكثر قدرة على حشد الجموع من المقاتلين في حالة خوض الحروب، وبذلك أصبحوا هم الأقرب إلى الملك للقيام بدور المستشارين له في أمور السياسة والكهانة⁵.

ويمكننا هنا التفريق بين طبقة الأشراف والأرسقراطيين التي ظهرت في المجتمع الروماني، وهم بعض أرباب العائلات الكبرى الذين استطاعوا بفضل ثروتهم وقوتهم أن يفرضوا أنفسهم على الساحة السياسية والدينية، وبين أفراد العشائر الذين ليس لهم في الحقيقة إلا الأصل النبيل إمكانية عضويتهم في مؤسسات الدولة⁶.

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, p197.

² - القنانة هي حالة فقدان الحرية والدخول في نوع من العبودية <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/servage/72383>

le 04/12/2020 à 18h: 31

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص65.

⁴ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص77.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص89-90.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص65.

أما عن المؤسسات السياسية في روما خلال العهد الملكي فكان على رأسها ودون شك الملك الذي كان يمارس السلطة السياسية على شعب موحد، تلك السلطة التي كانت فوق جميع السلطات القبلية التي كانت موجودة قبل ذلك¹، وبحسب رواية تيتوس ليفيوس فإن روميلوس أول الملوك قد قسم الشعب الروماني في بداية حكمه إلى ثلاثة قبائل كبيرة وثلاثين عشيرة، وقسم كل عشيرة إلى عشر قبائل².

وعلى ما يبدو فإن الهدف من هذا التنظيم هو أن تؤدي كل قبيلة نصيبها مما تحتاج إليه الدولة من مال وجنود بحسب ما يأمر به الملك، ويقوم بجمعه نقيب قبيلة وكان يسمى تريبونا (Tribun) وهو الذي يقود القوات التي تقدمها قبيلته³ تلك القوات التي كانت في بدايات ظهور روما تتكون في ثلاث فرق من المشاة، فرقة عن كل قبيلة، وثلاث مائة فارس، مائة فارس عن كل واحدة منها وهو ما يعطينا صورة أولية عن طريقة التجنيد في الجيش الروماني⁴.

وبغض النظر عن طريقة تعيين الملك التي كانت تتم عن طريق الانتخاب⁵ فإن هذا الأخير كانت له صلاحيات واسعة، حيث كانت بيده السلطات السياسية والقضائية والعسكرية دون إغفال السلطة الدينية التي كانت السلطة الأكثر وضوحاً بيد الملك، فهو الذي يقدم الذبائح للآلهة ويتكفل بوضع تقويم سنوي بمساعدة كبار رجال الدين لتحديد به الأعياد⁶.

كان الملك هو مصدر كل القوانين من حيث إعلانها وتطبيقها، وكان هو القيم على النظام في الدولة من خلال ممارسة سلطات جنائية واسعة، خاصة ضد من يرتكبون الجرائم في المجتمع مثل الجناية والقتل دون مبرر⁷.

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, p 211.

² - Tite-Live, op.cit, I, XIII, 6-8.

⁴ - Jacques Heurgon, op.cit, pp 211-212.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 95.

⁵ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 75.

⁶ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 25.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 98.

تشكل العشائر الرومانية المؤسسة السياسية الثانية في روما وهي مجلس أو جمعية الكور وهو ما يعرف باللاتينية (Comitia curiata)،¹ وكلمة كور (Curies) هي من أصل هندوأوربي، وتعني "تجمع الرجال" وقد سبق وأن ذكر أن كل قبيلة من القبائل الثلاثة المشكلة لمجتمع روما كانت تتكون من عشر (10) كوريات أو عشائر أي أن عدد العشائر هو في عشرة، وبذلك كان هذا المجلس مكونا من ثلاثين عضوا، كل عضو يمثل عشيرة، تجتمع في مكان واحد برأسها الكوريو الأكبر (Curio maximus).²

ويعتبر مجلس الكور من أولى الجمعيات العامة الدستورية التي عرفها الشعب الروماني، وكانت وظيفتها الأساسية هي المصادقة على اختيار الملك الجديد، إلا أن انعقادها في الأحوال العادية كان رهنا بمشيئة الملك،³ لرغبته في سماع مواضيع خاصة بالمجتمع مثل مواضيع التبنّي والوصايا والهبات ومنح حق المواطنة،⁴ وكذلك لرغبته في الحصول على حكم بالإعدام لأحد الأشخاص، أو لمؤازرته في حرب ينوي خوضها،⁵ كما كان مجلس الكور ينظر في القضايا التي تهم العشائر الرومانية عموما خاصة القضايا الدينية.⁶

أما المؤسسة السياسية الثالثة والتي كانت تضم أعضاء من رؤوس العائلات الرومانية الذين يتصفون برجاحة العقل، فهو مجلس الشيوخ (le Sénat)،⁷ ويذهب المؤرخون المحدثون إلى أن تأسيس هذا المجلس يعود في الأصل إلى مواكاة التطور التاريخي الذي حصل في حياة القرى،⁸ تلك القرى التي اجتمعت بعد ما كانت متفرة في تلال روما⁹، والتي اتجهت نحو تكوين وتأسيس مجلس

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, p 216.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 71-72.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 96.

⁴ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 75-76.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 96.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 72.

⁷ - هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 76.

⁸ Jacques Heurgon, op.cit, p 219.

⁹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 72.

تفوق صلاحياته سلطة العشائر المحلية، مجلس يجمع جميع أرباب العائلات (Pates familiarum) الذين تم تمثيلهم من خلال اختيار أولئك الأكبر نفوذا وتأثيرا بينهم¹.

لذلك كان عدد أعضاء هذا المجلس مرتبطا بعدد العائلات، وقد عرف هذا العدد ارتفاعا تدريجيا تبعا لتوسع المدينة روما وزيادة نسبة نمو سكانها.² كان هذا المجلس في عهد روميلوس يضم مائة (100) عضو والملاحظ أن هذا الرقم لا يتناسب منذ البداية مع شعب مكون من ثلاث قبائل وثلاثين عشيرة، غير أن هذا العدد قد زاد بصفة تدريجية ليصل إلى ثلاثمائة (300) في آخر المرحلة الملكية. ومن المهم في هذا الإطار الإشارة إلى أن عدد أعضاء السيناتو الذين كانوا مائة (100) في بادئ الأمر، قد أضافهم الملك تاركين الأول مائة (100) عضو أخرى ليصل العدد في عهده إلى مائتي (200) عضو³.

كان مجلس الشيوخ يعتبر هيئة لها وزن ونفوذ أوسع من نفوذ مجلس الكور أو الجماعات، كما أن عضويته كانت مقتصرة على ممثلي طبقة الأشراف. كان في بداية الأمر ذا دور إستشاري وآراؤه غير ملزمة للملك غير أنه مع مرور الزمن وتمرس أعضائه في عمل السياسة أصبح من الصعب تجاهل آرائه، خاصة الآراء التي تحظى بالإجماع . ومما يزيد في أهمية هذا المجلس هو أنه عند وفاة الملك كانت سلطاته تنتقل إليه، بتعيين أحد أعضائه حاكما مؤقتا (inter-rex) إلى أن يختار المجلس الملك الجديد ويصادق مجلس الجماعات عليه⁴. أما عن كيفية اختيار أعضاء المجلس فمن الواضح أنه في عصر الملوك الأتروسك كان الملك هو من يختار أعضاء السيناتو بعد أن كان هذا الاختيار يعود في بادئ الأمر إلى العشائر⁵.

وقبل الانتهاء من الحديث عن الفترة الملكية في روما، لابد لنا أن نتعرف بحسب ما رشح لدينا من معلومات تاريخية عن المظهر العسكري وتطوره خلال هذه الفترة، وهو الموضوع الذي

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, pp 219-220.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص72.

³ - Jacques Heurgon, op.cit, p 220.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص 96-97.

⁵ - Jacques Heurgon, loc.cit.

سيقودنا إلى التطرق لتوسعات روما في محيطها خلال هذه الفترة. وكما سبق لنا ذكره فإن الجيش الروماني خلال الفترة الملكية كان على الأرجح يتشكل من ثلاثة آلاف (3000) من المشاة وثلاثمائة (300) فارس يتم تجنيدهم من طرف القبائل الثلاث في روما على قدم المساواة، بمعنى أن كل قبيلة كانت تشارك في الجيش بألف جندي راجل ومائة من الخيالة.¹

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى الدور الذي كانت تلعبه العشائر في هذا التنظيم العسكري، إذ أنه كانت كل عشيرة تعتبر خلية للتجنيد مكلفة بتحضير وحدة مؤلفة من مائة (100) جندي راجل،² أما تجنيد الفرسان فكان يتم على مستوى القبيلة حيث تقدم كل قبيلة مائة فارس.³ كان أولئك الجنود يتم اختيارهم من الأشراف وأتباعهم، وكذلك من ميسوري الحال من الفلاحين الذين بإمكانهم التكفل بتسليح أنفسهم.⁴ كان تسليح المقاتلين يتمثل في تجهيزهم بخوذة، ترس، درع، حربة وسيف قصير، أما الخيالة الذين كانوا يمثلون القوة الضاربة في جيش روما فكانوا أولاً من شباب الأشراف بالمدينة، وكانوا ينتقلون إلى ساحات المعارك على صهوات جيادهم أو في عربات تقلهم إلى هناك.⁵

كان الأشراف يعتمدون في تجهيز الجيش على ثرواتهم، لذلك كانوا هم من يتحمل عبء هذه المسؤولية التي من خلالها تمكن شبابهم من التمرس والحصول على قدرات عالية في القتال.⁶ كان الملوك في روما هم من يقودون جيوشهم بأنفسهم، وهم من يقررون السلم والحرب ويعقدون المعاهدات. ويبدو أن جيش روما في تلك الفترة الملكية كان يشكل ندا لجيوش المدن الأتروسكية المجاورة، وكذلك لجيوش المدن الإغريقية القديمة وهو ما أشارت إليه الروايات الرومانية، وكذلك بعض المخلوقات الأثرية.⁷

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 99.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 72.

³ - Jacques Heurgon, op.cit, P 216.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 99.

⁵ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 31.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 99.

⁷ - نفسه.

غير أنه في حقيقة الأمر لابد من الإشارة إلى أن هذا الجيش وبهذه الإمكانيات المحدودة لم يكن قادرا على مسايرة وتجسيد طموحات ملوك روما التوسعية، رغم قدرته على ردع أي عمليات غزو قد تتعرض لها المدينة أو بعض التفرشات التي كانت تقع على حدودها من حين لآخر،¹ هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن روما في عصرها الباكر كانت مجبرة على احترام الأعراف التي تنظم العلاقات الخارجية بين الشعوب الإيطالية خاصة ذلك الذي يقضي بعدم شن أي حرب على الجيران دون مبرر ولو كان شكليا، أو دون إعلان مسبق، وهو الأمر الذي دعى ملوك روما إلى تأسيس هيئة لتفسير هذه الأعراف والحفاظ عليها.²

ومع ذلك تحدثنا الرويات الرومانية القديمة عن ملوك روما الذين شنوا حروبا ضروبا على جيرانهم،³ فإذا كان الملك نوما بومبيليوس الذي خلف روميلوس في حكم روما كان حكيما من حكماء السابيين، وكان ميالا إلى السلم والإهتمام بالمسائل الدينية، فإن خليفته توللوس هوستيليوس كان خلافا له محاربا مقداما، فاق حتى روميلوس في نزعته نحو الحرب والقتال.⁴ ويتحدث تيتوس ليفيوس عن معاقبة هوستيليوس لملك ألبالونجا ميتيوس (Mettuis) بقتله على الملأ بطريقة فظيعة، وذلك لقاء تأمره مع مدينتي فياي (Véies) وفيدناس (Fidènes) الواقعتان شمال روما، واللتان كانتا تخضعان لسلطان الرومان، بغرض الثورة على روما والتمرد عليها. ويذكر أن ميتيوس كان حليفا لهوستيليوس غير أنه حين علم بخيائنه له أنزل به ذلك العقاب، ودمر مدينته ألبالونجا وأسكن أهلها في روما.⁵ كما خاض هوستيليوس أيضا حربا ضد السابيين (Les sabins) بعد أن تأكد له أنهم يتجهزون للهجوم على روما، لذلك بادر بالهجوم عليهم وأسفر ذلك الهجوم عن مذبحة كبيرة بين السابيين.⁶

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 31.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 100.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 31.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، ص 101-102.

⁵ - Tite-Live, op.cit, I, XXVII-XXX.

⁶ - Ibid, I, XXVII-XXX, 4-8.

أما الملك الرابع لروما أنكوس ماركيوس فقد غزى مدن سهل اللاتيوم الواقعة بين روما والبحر التيراني، ومنح أشرف تلك المدن حق المواطنة الرومانية، وسمح لمن يرغب من سكانها بالإقامة في روما فوق تل الأفنتين¹ (Aventin)، وزاد ملك روما الخامس لوكيوس تاركينيوس بريسيكوس من توسيع نطاق سيطرة روما بأن بسط نفوذ الرومان على أتروريا أي بلاد الأثروسك.² أما آخر ملوك روما تاركينيوس سوبربوس فقد تمكن بغزواته من الاستيلاء على كامل شاطئ لاتيوم (Latium) إلى غاية سواحل بوميتينايا³

وفي حقيقة الأمر فإن أغلب المؤرخين يرجحون أن أغلب تلك التوسعات والغزوات التي قامت بها مدينة روما لم تتمكن منها إلا في العصر الجمهوري، غير أنه من المحتمل جدا أن روما الملكية قد توسعت على الأقل في المناطق المجاورة لها في سهل اللاتيوم مستولية على تلك المدن اللاتينية الصغيرة فيما بين روما وألبالونجا، وكذلك المدن المجاورة لوادي التير حتى مصبه أين أنشئت فيها بعد مدينة أوستيا لتظل حدود روما إلى فيدناس (Fidènes) ونومنتوم.⁴

كان آخر ملوك روما يسمى لوكيوس تاركينيوس (Lucius Tarquin) لكن الناس في روما سرعان ما نعتوه بلقب سوبربوس (Superbus) أي المغرور أو المتعطرس وذلك من جراء أفعاله العنيفة،⁵ فقد أحاط هذا الملك نفسه بحرس خاص، وأمعن في إهانته الأحرار الرومان بأن ألزمهم بأعمال مضنيه ومتعبة لمدة شهور متتالية، وأمر بصلب مواطنين في السوق العامة كما قام بقتل عدد كبير من زعماء الطبقة العليا في البلاد الرومانية. كان حكمه وحشيا ساخرا استجلب عليه

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 109.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 100.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 31.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 101.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 111.

غضب جميع أصحاب الرأي في روما.¹ كان تاركينيوس سوبربوس يقوم بشن الحروب ويبرم الاتفاقيات والمعاهدات مع الشعوب والمدن المجاورة وفق رغبته ويخرقها متى شاء.² ورغم أنه قوى من شوكة روما وحسن مكانتها بين المدن اللاتينية، إلا أنه أفسد كل تلك النجاحات حين كان يرتكب أخط الأفعال وهو ما جعله يحظى بكراهية الرومان بمختلف مراتبهم الاجتماعية.³ ظن تاركينيوس أن الانتصارات في ميادين الحرب، وفرض سطوته على الشعوب المجاورة كفيلة بأن تكسبه حب ورضى الشعب في روما، فقام بمهاجمة شعوب الفولسك⁴ (Volsques) ومحاصرة مدينة الروتول (Les Rutules) ليحصل منها على غنائم يعوض بها فراغ خزائن روما.⁵ وبينما كان الملك وجيشه يحاصرون تلك المدينة نشبت ثورة عارمة في روما بقيادة النبلاء وعلى رأسهم زعيم يدعى لوكيوس يانوس (Lucius Junus) والذي أطلق عليه فيما بعد لقب بروتوس (Brutus).⁶ وحين عاد الملك وجد أبواب روما موصدة في وجهه وأقسم الرومان ألا يحكمهم ملك بعد ذلك اعتبارا من عام 509 ق.م.⁷

3- قيام الجمهورية الرومانية 509 ق.م

يتحدث ثيتوس ليفيوس في مقدمة كتابه الثاني " تاريخ الرومان " الذي خصصه لبداية العصر الجمهوري في روما، فيقول: " سأسرد الآن ما فعله الشعب الروماني الذي أصبح حرا في السلم كما في الحرب. سأحدث عن تولية قناصله السنويين، عن هيمنة القانون التي صارت أقوى من هيمنة الرجال. وإذا كانت تلك الحرية قد استقبلها الشعب بفرح وحفاوة فذلك بسبب استبداد وغطرسة آخر ملك. أما الملوك الذين سبقوه على عرش روما فقد أنصفهم الشعب برضاه عنهم

¹ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 19.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 111-112.

³ - نفسه، ص 112.

⁴ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 19.

⁵ - Tite-Live, op.cit, I, LVII, 1.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 87.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 113.

كمؤسسين ومشيدين لتلك الأحياء من المدينة التي شكلت مأوى لجموع من الناس الذين نمت أعدادهم في ظل حكمهم ¹.

بتلك الكلمات المعبرة عن فرحة شعب الرومان بتحرره من سطوة حكم آخر ملوك روما، بدأ تيتوس ليفيوس حديثه عن تاريخ الجمهورية الرومانية الذي يجمع المؤرخون على أن بدايته كانت سنة 509 ق.م، ويبدو أنه منذ ذلك التاريخ غدت كلمة ملك (Rex) كلمة مقبولة في نظر الشعب الروماني لارتباطها بالتسلط والسيادة المطلقة التي لم يكن لهم فيها أي امتيازات ولا أدوار فاعلة في الحياة السياسية. ²

إن كلمة الجمهورية « République » هي كلمة ذات أصل لاتيني « republice » وهي في الأصل اتحاد كلمتين « res » وتعني « chose » بالفرنسية أي الشيء و« publicus » التي تعني « public » أي العام أو المشترك، والتي تشير إلى حكم جماعي أو عمومي للمدينة. أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة كما جاء في موسوعة « Larousse » فهو ذلك الشكل من التنظيم السياسي الذي يمارس أصحاب السلطة مهامهم بمقتضى تفويض من الهيئة الاجتماعية وهي بهذا المعنى تتعارض مع مفهوم الملكية « monarchie ». ³ ومن جهة أخرى يمكن تفسير معنى النظام الجمهوري بأنه ذلك النظام الذي يُعنى بالأمور العامة والشعب أو السواد الأعظم من الناس على عكس ذلك النظام الملكي الأرستقراطي السابق الذي لم يكن يعنى سوى بمصالح الأغنياء النبلاء منهم فقط. ⁴

لقد كان من اللافت في حديث تيتوس ليفيوس وفي الفقرة الأولى من كتابه الثاني أن ذكر مناصب جديدة هي مناصب القناصل السنويين في إشارة إلى الوظائف التي ستعوض وظيفة الملك

¹ - Tite-Live, op.cit, II, I, 1-2.

² - محمود إبراهيم السعدني، حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998، ص 75.

³ - Aimée Ayancic et autres, Le Petit Larousse-Dictionnaire encyclopédique, Edition © Larousse, Paris, 1994, P 881.

⁴ - محمود إبراهيم السعدني، المرجع السابق، ص 75.

في حكم المدينة، غير أنها مؤقتة وليست دائمة.¹ لذلك كان من أهم الاستحداثات التي أقرها الرومان في بداية العصر الجمهوري هي اعتماد مناصب جديدة منوط بها القيام بواجب خدمة مصالح الشعب على أضمن وجه، وكذلك ضمان انجاز تلك المهمة من طرف الشخص الذي أوكلت له مهام ذلك المنصب دون تقصير أو تجاوز.²

ومن أهم تلك المناصب التي تم اعتمادها سياسيا في بداية العصر الجمهوري هو منصب القنصل (Consule)، وتخبنا الروايات التاريخية الرومانية أن أول حاكمان تم تعيينها سنة 509 ق.م في وظيفة القنصل كانا جونيوس بروتوس (Junius Brutus) وسبوريوس لوكريتيوس (Spurius Lucretius)، وبعد ذلك تم الاتفاق على انتخاب قنصلين كل عام من طرف الجمعية المقوية (Comitia centuria)،³ وهي التي حلت محل مجلس الكور أو الجماعات الذي كان قائما في الفترة الملكية.⁴

أصبح القنصل في روما هو الممارس الفعلي للسلطتين المدينة والعسكرية ويهتم بإدارة شؤون روما السياسية،⁵ وبما أن الرومان اختاروا أن يكون على رأس سلطتهم التنفيذية قنصلان، فإنه في أوقات السلم وداخل المدينة كانا يقومان بتقسيم العمل فيما بينهما بالتناوب شهريا بحيث تصدر القرارات بإسم أحدهما بعد أخذ موافقة زميله، ولكن إذا ما أبدى أحد منهما اعتراضه على رأي زميله-ونادرا ما كان يحدث ذلك- لا ينفذ القرار لأنه لا بد من موافقة القنصلين عليه.⁶

صار في كنف هذا النظام الجمهوري الجديد جميع سكان روما الأحرار مواطنين رومان « Cives Romani » متساوين من الناحية النظرية في حقوق المواطنة الرومانية، غير أنه من الناحية العملية لم تكن تلك المواطنة تتسم بالمساواة في الحقوق والواجبات بل كان هناك تفاوت

¹ - Tite-Live, Loc-cit.

² - محمود إبراهيم السعدني، المرجع السابق، ص 75.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 137.

⁴ - محمود إبراهيم السعدني، ص 76.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 140.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 139.

كبير في الامتيازات لمن يتمتعون بها حسب وضعهم الاجتماعي.¹ ففي بداية هذا العصر الحديث كان العوام مصوتين فقط وليسوا مترشحين للمناصب العليا، فالأشراف فقط من كان لهم الحق في الترشح وتبوأ تلك المناصب العليا.² لقد منح فراغ العرش للأشراف السلطة السياسية الكاملة التي كان الملوك الأتروسكيين وخاصة تاركين قد ركزوها في أيديهم، الأمر الذي جعل الأشراف يحتكرون السلطة بكل أنواعها السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية والقضائية، وأصروا على إبعاد العناصر التي لا تنتمي إلى عشائرتهم.³

من الواضح أن الحكم الجديد كان يقوم على مبدأ الشأن العام، لكن الظروف التي طرأت بعد سقوط الملكية مهدت الطريق لأشراف الرومان للاستفراد بالحكم والسيطرة عليه وعلى مقدرات النظام الجديد، مع إعطاء دورها هامشي لطبقة العامة، ولكن المتأمل في الحالة السياسية والاجتماعية معا يجد أن الوضع سيؤول بطريقة حتمية إلى هذا الحال من خلال طرح التساؤل التالي: من عساه يكون قادرا على ملء ذلك الفراغ في الحكم والإدارة بعد الإطاحة بحكم الملوك؟ الإجابة دون تردد هي الإشراف وذلك للاعتبارات التالية:⁴

- افتقار أفراد طبقة العامة لأي رصيد في الخبرة والدراية بشؤون الحكم والسياسة لكونهم لم يكونوا يزاولون تلك المهام سابقا، ولم يكن لهم من دور سوى تنفيذ إرادة الملوك دون مناقشة، ولكونهم كذلك كانوا منشغلين بتأمين سير الحياة العملية والاقتصاد الروماني من خلال نشاطهم الزراعي والتجاري والحرفي وكان ذلك هو حدود عالمهم.⁵
- إن العمل السياسي ومزاولة أمور الحكم في روما كانت حتى خلال المرحلة الملكية حكرا على كبار الارسقراطيين وصفوة النبلاء من العائلات الملكية والأشراف.⁶

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 129.

² - Jacques Heurgon, op.cit, P 274.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 89.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 129-130.

⁵ - نفسه، ص 130.

⁶ - نفسه، ص ص 130-131.

كان ذلك يعني بالنسبة للعوام تراجعاً خطيراً حتى بالنسبة لبعض المكتسبات التي حصلوا عليها في عهد ثاني وثالث ملوك الاتروسك،¹ فالأشراف أصبحوا يتمتعون بكامل حقوقهم السياسية المتمثلة في الحق في التصويت والترشح لمناصب السلطة العليا، أما العامة فلم يكن حظهم من كل هذه الحقوق سوى حق واحد هو الحق في التصويت واختيار من يرغبون من الأشراف دون أن يكون لهم الحق في الترشح لأي منصب أو عضوية مجلس تشريعي.²

ورغم أن أولئك العوام كانوا يشكلون الأغلبية من سكان روما فكان منهم الصناع والتجار والارقاء المحررون وكثير منهم الفلاحون، إلا أن القوانين الموروثة عن الحقبة الملكية، والتي يبدو أنها ظلت حتى بداية الفترة الجمهورية، لم تعد ترضيهم وتساير طموحاتهم لذلك طالب العامة بإلغاء تلك القوانين و من ثم التخفيف عنهم عبء تراكم الديون على كواهلهم كم طالبوا بأن توزع عليهم الأراضي التي تحوزها الدولة في الحرب بدل منحها للأغنياء من الأشراف بأثمان رمزية.³

كان منطقياً في أول الأمر ألا يطلب أبناء العامة من الكادحين تقلد المناصب العليا لعدم خبرتهم بأمور الإدارة، ومن ثم لعدم قدراتهم على أداء تلك المهام خاصة وأنها كانت مناصب شرفية ليس وراءها أي عائد مادي يعينهم على أعباء ومشاكل حياتهم اليومية، لذلك فضلوا الانصراف إلى نشاطاتهم التي يعتاشون منها.⁴

غير أنه مع مرور الزمن أسفر غياب العدالة بين طبقات المجتمع الروماني إلى إدخال تلك الجمهورية الناشئة إلى أتون أزمة داخلية تجلت في صراع حاد وضع الأشراف في مواجهة العوام لمدة طويلة من الزمن، وفي نفس الوقت كانت الجمهورية الجديدة تعيش في محيط لم يكن يخلو من الأخطار الخارجية التي فرضتها عليها جيرانه من اللاتين والاتروسك والايطالين، تلك الأخطار التي تحولت إلى حروب نتج عنها توسعات رومانية تدريجية في إيطاليا، فكان تحقيق المطالب بالنسبة

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 89.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 132.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص ص 23-24.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 131.

للعوام مساييرا لتوسعات في مجال روما الجغرافي، وربما يكون الأمر الذي شجعهم على تحقيق تلك المطالب هو تضحياتهم في تلك الحروب.¹

وإذا كانت بعض الحقوق السياسية قد تحصل عليها العوام مع بداية تأسيس الجمهورية، فإن بعض المطالب الكبيرة كالترشح وتقلد مناصب كبيرة كمنصب القنصل لم يتحقق لهم إلا بعد مرور حوالي قرن ونصف من الزمان، ذلك أن الترشح لهذا المنصب لم يكن مسموحا به للعوام إلا بعد صدور القوانين اللسيانية (Lois liciennes) عام 367 ق.م وهو التاريخ الذي اعتبره المؤرخون من فاييوس بيكتور (Fabius Pictor) إلى ليسينيوس ماسار (Licinius Macer) حدثا مهما ومفصليا في تاريخ الجمهورية.²

وفي حقيقة الأمر لابد من الإشارة إلى تلك الهوة الواضحة بين الحقوق النظرية والحقيقية التي كان يتمتع بها أفراد المجتمع الروماني، فحتى الحقوق المدنية مثل حق الملكية والتجارة والزواج والمعاملات الحرة ورغم المساواة النظرية بين كافة المواطنين الرومان، إلا أن ظروف الأشراف وإمكاناتهم المادية مكنتهم من التمايز عن غيرهم، وسمحت لهم بالتحكم في تلك الحقوق، ولذلك فإنه حتى في مجال الحقوق المدنية تفوق الأشراف تفوقا ظاهرا على العامة الفقراء منهم والأثرياء، وشكلوا كيانا متميزا محدود العدد هائل الامتيازات يصعب اختراقه إلا بشق الأنفس من جانب عامة الشعب.³

كان الوضع في روما ينبئ بالانفجار فكل فئة كانت تصبوا إلى المساواة مع الفئة الأخرى، فرجال الأعمال كانوا يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ، والأثرياء من العامة كانوا يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال، والفقراء كانوا يألمون لوضعهم البائس وحرمانهم

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 88.

² - Jacques Heurgon, op.cit, P 274.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 132-133.

من الحقوق السياسية وتعرضهم للإسترقاق في أي لحظة إذا ما عجزوا عن الوفاء بما عليهم من ديون.¹

أسفر ذلك الوضع المحتقن في روما عن أول تمرد للعامة وكان ذلك سنة 494 ق.م، حيث انشق عدد كبير من العوام وانسحبوا نحو تل الافنتين (Aventin)،² معلنين أنهم سيقاطعون أي عمل أو حرب لصالح روما حتى تجاب مطالبهم، وقد سعى مجلس الشيوخ إلى حل هذا الإشكال بأقل التكاليف محاولا إغراء هؤلاء العوام من أجل العودة لكنهم استماتوا في الدفاع عن مطالبهم. ومخافة الوقوع في خطر الغزو الخارجي وهم في هذه الحالة من الشقاق الداخلي وافق الارسقراطيون على إلغاء الديون أو تخفيضها.³

وكذلك استحداث منصب تريبون العامة (Tribunat de la plèbe) والذي جُعِلَ للدفاع عن حقوق العوام وهو منصب ممنوع عن الأشراف، وكان عدد المناصب المخصصة لهذه الوظيفة إثنتين، يمكنهم الإعتراض على أي قانون يطرح من طرف أصحاب المناصب العليا الأخرى (Magistrats).⁴ كما حصل العامة على منصب الإيديل (Edile) بعدد ثلاثة،⁵ وكانوا مساعدين لترابنة العامة يقومون على تنفيذ أوامرهم في بداية الأمر، أما بعد سنة 367 ق.م فقد أصبحت مهامهم تتمثل في الاهتمام بأمر المدينة روما، والقيام على تزويدها بالحبوب والغلل والقيام على أمر الألعاب والاحتفالات الدينية المعتادة.⁶

وما لبث العامة أن حصلوا على تنازلات أخرى وحقوقا من الإشراف صدرت عن قانون فاليريا (Lex Valéria) الذي نص على نقاط مهمة لصالح العامة وهي: أن حرمة نقباء العوام لا

¹ - ول ديونت، المرجع السابق، ص 24.

² - Lucien Jerphagnon, Histoire de la Rome antique, 4^{ème} édition, Edition Tallandier, France, 2002, P 35.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 24.

⁴ - Lucien Jerphagnon, loc.cit.

⁵ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 24.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، ص ص 159-160.

يمكن انتهاكها، وأن قرارات مجامع العوام لها قيمة قانونية (Plebiscites)، كما نص على عدم خلق أي منصب جديد في الدولة دون استشارة الشعب الروماني.¹

وكان العامة في روما قد أصروا على كتابة القوانين التي يحتكم إليها لكون الأشراف بحكم وضعهم الاجتماعي وسيطرتهم لمدة طويلة على السلطتين التشريعية والتنفيذية كانوا يحتكرون فعل استصدار القوانين على مستوى مجلس الشيوخ والمجالس الجموعية، وكذلك فعل شرح تلك القوانين وتفسيرها.²

لذلك نجح أحد ترابنة العامة يدعى تارونتيليوس أورسا (Terentilius Horsa) في استصدار قانون يدعو إلى سن قوانين مكتوبة تحدد أنواع ومفاهيم السلطات، وتحدد حقوق الفرد وواجباته وكان ذلك سنة 462 ق.م، ورغم أن الارسقراطيين حاولوا تعطيل هذا المشروع، إلا أنهم لم يصمدوا أمام ضغط العوام،³ ليرسل مجلس الشيوخ في نهاية الأمر عام 454 ق.م لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة تشريعات صولون (Solon) في أثينا وغيره من المشرعين اليونان، وكتابة تقرير يتعلق بذلك، وبعد عودة تلك اللجنة عينت الجمعية سنة 451 ق.م عشرة رجال (Decemvirat) لوضع قوانين جديدة وتدوينها.⁴

فقاموا بكتابة جملة من القوانين على عشرة ألواح برونزية، وفي سنة 450 ق.م تم تعيين لجنة أخرى لتكمل عمل اللجنة الأولى، فأضافت إلى تلك اللوحات لوحين آخرين ومن ثم أخذت تلك القوانين تسمية قانون الألواح الاثني عشر الذي تم عرضه على مجلس الشيوخ ليصادق عليه، ومن ثم تم تعليقها في السوق الرومانية لكي يتسنى لكل فرد الاطلاع عليها ومعرفة حقوقه

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 100.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 199.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 95.

⁴ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 25.

وواجباته، وليصبح ذلك القانون أول قانون مكتوب ثم إخضاعه للتصويت في تاريخ روما.¹ وإذا كانت تلك اللوحات لم تعمر طويلا فإن قوانينها ظلت قائمة لعدة قرون.²

استطاع العامة الحصول على مكاسب أخرى من خلال نضالهم المستمر وصراعهم مع طبقة الأرسقراطيين، فقد تحصلوا على حق الزواج من الأشراف سنة 445 ق.م من خلال قانون عرضه التريون كايوس كنيوليوس (Caius Canulius)،³ ومن أجل معارضة فتح باب الترشح للقنصلية العامة قام مجلس الشيوخ باقتراح اعتماد منصب جديد وهو منصب التريون العسكري (Tribunat militaire) التي لها صلاحيات قنصلية، ومن حق الجميع الترشح لها. وفي نفس تلك الفترة تم اقرار منصب جديد هو منصب الرقيب (Le Censeur)⁴ وهو المكلف بعملية إحصاء افراد الشعب الروماني التي كانت تجري كل خمس سنوات لمعرفة ممتلكاتهم وقيمة الضرائب الواجبة عليهم تجاه الدولة،⁵ وهو المسؤول عن العادات والأعراف في المدينة وكذا الأخلاق في المجتمع الروماني.⁶

وخلال سنة 367 ق.م⁷ تم اقتراح مجموعة من القوانين من أجل تحسين وضعية العوام في روما، وكانت تلك القوانين ذات صيغة سياسية اقتصادية واجتماعية هدفها اقتسام السلطة العليا بين العامة والأشراف. ضد ذلك الاحتكار والاستئثار الواضح للأشراف بالأراضي التي ألحقت بروما حديثا، وكذلك التخفيف عن العوام الذين أرهقتهم الديون: وكانت الاقتراحات المطروحة هي إعادة النظر في الترشح للقنصلية من خلال أن يترشح لأحد مناصبي القنصل واحد من العامة، مع منع امتلاك أكثر من 500 يوجيرة (Jugères) من الأراضي العامة، إضافة إلى اعتماد حسم فوائد الديون التي تم تسديد أصول ديونها وتمديد فترة سداد الدين إلى سنوات.⁸

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 96.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 103.

³ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 26.

⁴ - Tite-Live, op.cit, IV, (VI-VIII).

⁵ - محمود إبراهيم السعدني، المرجع السابق، ص 79.

⁶ - Tite-Live, op.cit, IV, VIII.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 226.

⁸ - Tite-Live, op.cit, VI, XXXV.

ورغم أن تلك القوانين أثارت جدلا نظرا لعدم موافقة الأشراف عليها في بداية الأمر، إلا أنه تم إقرارها بعد حوالي عشر سنوات.¹ أما الحق في عضوية مجلس الشيوخ فقد تمكن منه العوام منذ أن بدأوا يتقلدون مناصب رسمية في الدولة، ذلك لأن الأعراف السياسية المعمول بها في روما تقضي أن أصحاب تلك المناصب يصبحون أعضاء في المجلس بعد إنتهاء مهامهم.² وبذلك التغيرات العميقة في مؤسسات الدولة الرومانية والتي مست أيضا شرائح وفئات في المجتمع الروماني انتهت مرحلة مهمة من الصراع بين العوام والأشراف في روما.³

وجدت روما نفسها عقب سقوط الحكم الملكي بها، محاطة بعدد من الدول والشعوب التي تنوي التحرش بها وغزوها.⁴ وبحكم موقعها في سهل اللاتيوم فإن تلك الدولة الناشئة ظلت لاتينية الجذور واللغة والتقاليد والديانة رغم حكم ثلاثة من الملوك الأتروسك لها في آخر عهد الملكية.⁵ لم يكن هذا الوضع الجديد في بدايات العصر الجمهوري يروق للأتروسكيين خاصة بعد طرد الرومان لملكهم تاركينيوس الأتروسكي، وفي هذا الصدد تُحدِّثنا الروايات التاريخية أن أول التحرشات بروما كانت من طرف الملك الأتروسكي لارس بورسينا (Lars Porssenne) ملك مدينة كلوزيوم (Clusium) الأتروسكية،⁶ فسار إلى روما بجيش كبير وهو مقتنع، بحسب تيتوس ليفيوس، أنه من مصلحة الأتروسك أن يكون على روما ملكا منهم، كما أن تاركينيوس سوبوربوس الذي لجأ إليه، بعد طرده من روما، حرضه على معاقبة الرومان لارتكابهم هذا العمل الغير مسبوق في تاريخ ممالك المنطقة، وهو خلع ملك عن عرشه وطرده طلبا للحرية، وأنه في حالة السكوت عن هذا الفعل ستتهوى الحكومات ، ولن يكون هنالك أي تمييز بين النبلاء والعوام، ولن تكون هنالك أي هيمنة ولا وساطات بين الناس والآلهة.⁷

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 226.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 101.

³ - نفسه.

⁴ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 104.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 233.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 112.

⁷ - Tite-Live, op.cit, II, IX, 1-5.

ويبدو أن بورسينا قد تمكن من دخول مدينة روما بجيشه واخضاعها لنفوذه بعد هزيمته للرومان، وكان ذلك لفترة من الزمن، وفي هذا الإطار يقول تاسيتوس (Tacite) أن المدينة أصبحت تحت قبضته، ويقول بلين الكبير (Plin l'Ancien) أنه جرد أهلها من السلاح، ولم يسمح لهم باستعمال الحديد سوى في مجال الزراعة.¹ ورغم أن بورسينا لم يعرض على الرومان عودة الملك تاركينيوس إلا أن الروايات التاريخية تخبرنا بأن روما لم تتخلص من هذا الغازي إلا حين تمت هزيمته أمام تحالف بين اللاتين والإغريق² سنة 505 ق.م في موقعه أريشيا (Aricie)، أين أُزغِم الأتروسك على الإنسحاب من سهل اللاتيوم بأكمله ما عدا مدينة فيدناي (Fidénes).³

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هزيمة روما ضد حملة بورسينا جعلتها تفقد المكانة التي كانت تتمتع بها بين المدن اللاتينية، خاصة وأن هذه المدينة قد توسعت خلال الفترة الملكية على حساب تلك المدن اللاتينية،⁴ ونصبت نفسها زعيمة عليهم من خلال نقل مقر رابطة الشعوب اللاتينية إلى داخل أسوارها.⁵ كل تلك الظروف ساهمت في تعكير صفو العلاقات بين روما وشعوب اللاتين المجاورة لها، الأمر الذي أدى إلى اشتعال الحرب بين الطرفين،⁶ خاصة بعد شعور أولئك اللاتين بقوتهم بعد انتصارهم على الأتروسك.⁷

اشتبك الفريقان عدة مرات غير أن الموقعة الحاسمة كانت معركة بحيرة ريجيلوس (Régille) سنة 499 ق.م أو 496 ق.م،⁸ وقد تحدثت الروايات في التراث الروماني عن انتصار بطولي للرومان على جيرائهم اللاتين وذلك بفضل عون الالهين التوأم كاستور (Castor) وبولوكس

¹ - Tacite, Oeuvres complètes de Tacite, texte traduit par J.L.Burnouf, Tome V, Librairie classique de L.Hachette, Paris, S.D.I, LXXII, P 418.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 234.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 33.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 112-113.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 104.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 113.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 236.

⁸ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 113.

(Pollux) ابني زيوس (Zeus)، لذلك أقام الرومان معبدا لهذين الإلهين في الفوروم اعترفا بفضلهما.¹

عقدت بعد ذلك، ومن أجل المصلحة العليا للفريقين معاهدة تحالف بين روما والمدن اللاتينية² سنة 493 ق.م،³ وقد ظل نص تلك المعاهدة موجودا في الفوروم إلى أيام الخطيب الروماني شيشرون (Ciceron) الذي عاش خلال القرن الأول ق.م، وقد عُرِفَتْ تلك المعاهدة بمعاهدة كاسيوس (Cassius) نسبة إلى القنصل الروماني سبوريوس كاسيوس (Spurius Cassius).⁴

ويمكن القول أن هذه المعاهدة كانت المنطلق الأول للتفكير في عملية التوسع من قبل الرومان، فبعدها أصبحت روما وشعوب اللاتين المجاورة لها كتلة واحدة رأسها روما المدينة، وقد تم ذلك بعد منح اللاتين حق المواطنة الرومانية، حق الزواج من الرومان، حق التجارة والتعامل داخل روما، والحقوق المدنية الأخرى مثل حق التوظيف والاقتراع والتقاضي أمام المحاكم في روما⁵ وقد انضمت إلى هذا الحلف الثنائي بين روما والمدن اللاتينية قبائل الهرنيكي (Les Herniques) القاطنة وسط الحدود الشرقية لإقليم لاتيوم، تلك القبائل التي كانت تتزعمها مدينة أناجينا (Anagina).⁶

وقد دخلت شعوب الهرنيكي في هذا الحلف بعد هزيمتهم أمام الرومان وخضوعهم لهم، ليصبح الحلف ثلاثيا وهو ما زاد من قوة روما التي تمكنت سنة 406 ق.م من إلحاق الهزيمة بشعوب الفولسك (Les Volsques) وبعض المدن الأتروسكية الواقعة إلى الجنوب من أتروريا،

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 236.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 104.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 33.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 237.

⁵ - محمد إبراهيم السعدني، حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص ص 84-85.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 114.

ولتخضع بعد ذلك شعوب الايكي (Les Eques) إلى سطوة الرومان بين سنتي 397 و392 ق.م.¹

أما قبائل السابين التي كانت تربطهم علاقات قري ومصاهرة مع الرومان، والذين ظل الكثير منهم يقطنون المناطق الواقعة شمال شرقي روما، أي الجانب الغربي من نهر التبر، فيبدو أنهم خلال النصف الأول من القرن الخامس ق.م لم يكونوا على وفاق مع روما، وتحدثنا الروايات التاريخية أنهم تهرشوا بالرومان ولكن روما ألحقت بهم الهزيمة سنة 449 ق.م² لتعقد معهم إثر ذلك إتفاق سلام. لكن الرومان كان عليهم بعد ذلك انتظار ما يزيد على قرن ونصف من الزمان لكي يتمكنوا نهائيا من إخضاع تلك القبائل السابينية وكان ذلك سنة 290 ق.م،³ حين غزى مواطنهم القنصل الروماني كوريوس دينتاتوس (Marcus Curius Dentatus) وتمنح لهم روما حقوق المواطنة الرومانية المنقوصة ولم تمنح لهم الحقوق الكاملة إلا سنة 268 ق.م.⁴

ولكي تستكمل روما السيطرة على المناطق الواقعة شمالها في سهل اللاتيوم وأتروريا كان عليها بسط نفوذها على أقرب المدن الأتروسكية القوية وهي مدينة فياي (Veies)، تلك المدينة الواقعة على بعد حوالي عشرين (20) كلم فقط شمالي روما، والتي كانت تسيطر على إقليم من أغني وأفسح الأقاليم في إيطاليا الشمالية،⁵ وقد كانت فياي تحتفظ بحامية تسيطر بها على مدينة فيدناي، إلا أن روما بعد استقوائها بحلفائها من القبائل التي أخضعتها تمكنت من الاستيلاء على فيدناي سنة 430 ق.م. وفي سنة 405 ق.م قررت روما غزو مدينة فياي التي خاضت ضدها حربا ضروسا.⁶

وضربت عليها حصارا دام حوالي عشر سنوات من 405 ق.م إلى 395 ق.م⁷ انتهى بدخول الرومان المدينة وتدميرها وإلحاق أراضها بروما، ويبدو أن الرومان كانوا عازمين على السيطرة على كل المدن الأتروسكية، لذلك هاجموا مدينتي تاركييني (Tarquinia) وفولزيني

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 104-105.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 239-240.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 105.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 240.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 115.

⁶ - نفسه، ص 116.

⁷ - Lucien Jerphagon, op.cit, P43.

(Volsini) زعيمتا العصبة الأتروسكية، لكن سرعان ما أُجبرَتْ روما على التوقيع على معاهدة سلام مع المدينتين نظرا لظهور خطر أكبر قادم من الشمال، وهو خطر غزو القبائل الغالية الذي لم تحسب روما حسابه من قبل.¹

كانت منطقة شمال إيطاليا على مستوى سهل البو غربا وشرقا موطنًا لقبائل غالية بعد قدومها من مواطنها الأصلية في حوض الدانوب الأعلى، وكانت أكبر تلك القبائل وأقواها شوكة هي قبائل الأنسوبر (Insubres) والسنونس (Sonones)، وبما أن تلك القبائل كانت شعوبها بدائية، خشنة الطباع، ذات نزعة قتالية ولا يميلون إلى الاستقرار والاشتغال بالزراعة، فإنهم كانوا يفضلون الإغارة على الشعوب المجاورة لهم وسلب خيراتهم، وهذا ما جعلهم يشكلون خطرا على الأتروسكين في شمال إيطاليا.²

ويبدو ان غارات تلك القبائل قد حدثت من نفوذ الشعوب المحلية في شمال إيطاليا، تلك المنطقة التي بسطوا نفوذهم عليها وصارت تسمى عند الرومان ببلاد غالة القرية (Gaule Cisalpine).³ وإذا كانت روما في بداية القرن الرابع ق.م قد بدأت تتمدد شمالا بغرض السيطرة على بلاد الأروسك بعد غزوها لمدينة فياي، فإنها بلا شك ستجد نفسها وجها لوجه أمام تلك القبائل الغالية،⁴ ويبدو ان تلك الشعوب التي كان يطلق عليها أيضا الشعوب الكلتيّة،⁵ هي من فاجأت روما من خلال اقتربها وبشكل سريع من مناطق نفوذها، مشكلة بذلك خطرا حقيقيا على وجودها.⁶

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 105.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 17-18.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 106.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 250-251.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 105.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 119.

وفي سنة 390 ق.م تحركت جموع من أولئك الغالين بقيادة زعيم سنوني يدعى (Brennus) وقاموا بحصار مدينة كلوزيوم (Clusium) الاتروسكية،¹ وتحدثت الروايات التاريخية أنه في خضم ذلك الحصار أرسلت روما بعض الدبلوماسيين للتفاوض مع أولئك السنونس وزعيمهم برونوس من اجل الانسحاب وفك الحصار عن المدينة،² غير أنه بعد فشل تلك المفاوضات لم يقف الدبلوماسيون الرومان موقف الحياد، بل سارعوا إلى اخذ مواقع لهم في صفوف الجيش الاتروски الذي حاول التصدي لهجوم الغالين،³ ومن الواضح أن الغالين قد نعموا نقمة كبيرة على الرومان بسبب هذا الموقف، خاصة بعد أن تمكن احد المفاوضين الرومان من قتل قائد كبير في صفوف الكلتيين، لذلك كان هذا الأمر كافيا لكي يصرف الغاليون النظر عن مهاجمة كلوزيوم،⁴ ويندفعون كالسيل الجارف نحو روما التي فوجئت بتقدم تلك الجموع بسرعة نحوها.⁵

وما إن تحرك الجيش الذي استطاع الرومان حشده على عجل لمواجهة الغزاة،⁶ حتى التقى بالغالين على ضفاف نهر الآليا (Allia) أحد روافد نهر التير الذي يقع على بعد حوالي ستة عشر 16 كلم إلى الشمال من روما، ويرجح أن تكون تلك المعركة قد وقعت سنة 387 ق.م،⁷ اشتبك الطرفان وكانت الغلبة للكلتيين، أما الرومان وحلفائهم من اللاتين فقد تكبدوا خسائر كبيرة،⁸ وفرت فلولهم نحو مدينة فياي التي أصبحت مهجورة، وحصنوا انفسهم بها.⁹ ولم يلبث الغاليون بعد موقعه الآليا أن اجتاحوا روما دون مقاومة، وقاموا بتدمير أسوارها ومبانيها، كما قاموا بعمليات

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص35.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص251.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص105.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص251.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص106.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 252.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 119.

⁸ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 35.

⁹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 119.

سلب ونهب واحراق للمدينة، ولم يصمد أمامهم سوى الكابيتول (Capitole)، المركز الديني لروما،¹ والذي تحصن به عدد من الرومان بقيادة ماركوس مانليوس (Marcus Manlius)².

حاصر الغاليون الذين ظلوا بسوق المدينة الكابيتول لمدة سبعة أشهر، وبما أن هدفهم كان النهب والسلب والغنائم فأنهم، فكوا الحصار وانسحبوا بعد اتفاق مع الرومان اخذوا بموجبه فدية قدرها سبعة آلاف (7000) رطل من الذهب، ليعود الرومان بعد ذلك إلى مدينتهم عاقدين العزم على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية مدينتهم من أي كارثة قد تباغتهم كالتى حلت بهم في الآليا وفي روما.³ قام الرومان ببناء سور من الحجر حول مدينتهم،⁴ بدل الذي كان مشيدا من الطين.⁵ كما قاموا بزيادة عدد مقاتليهم من الفرسان والمشاة ليشكلوا فرقتين حريتين ويرجح أنهم عمدوا كذلك إلى إدخال إصلاحات واسعة على نظام الجيش وطريقة تسليحه.⁶

عاش الرومان بعد غزو الغاليين لمدينتهم فترة عصيبة بسبب تمرد تلك الشعوب المجاورة لهم، والتي سبق لروما وأن أخضعتها، فقد انتفضت مدن الجنوب الاتروسكي بما فيها مدينتي تاركيني وفاليري⁷ واللذان حاولتا الاستيلاء على إقليم مدينة فياي،⁸ كما تمردت شعوب الفولسك بدعم من بعض المدن اللاتينية في الجنوب. كما لاحت في إقليم اللاتيوم نفسه بوادى الثورة ضد روما، ثم شعوب الهرنكي في الشرق بسبب محاولة بعض المدن منها تأسيس رابطة جديدة لشعوب اللاتين، يضاف إلى كل هذا ما عرفته روما داخليا من تمرد للعوام حين طالبوا بحق الترشح للقنصلية، لذلك

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 106.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 256.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 120.

⁴ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 36.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 257.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 120.

⁷ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 106.

⁸ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 258.

كان الأشراف الارستقراطيون المسكون بزمام الحكم في روما مطالبين باتخاذ إجراءات حازمة وسريعة واستثنائية لضبط الموقف داخل وخارج روما.¹

وإزاء ذلك تمكن الرومان سريعاً من استدراك الأمر وإلحاق ضربات قاصمة لحضومهم واحداً تلو الآخر،² ففي بضع سنين استطاعت روما أن تستعيد سيطرتها على المناطق الاوتروسكية وساعدها في ذلك ضعف الاتروسك وانحياز قوتهم العسكرية، فَوَقَّعَتْ معاهدة صلح جديدة مع مدينتي تاركيني وفاليري سنتي 353 و 351 ق.م.³ وفي الجنوب استطاعت روما فرض نفسها على المدن اللاتينية وإخضاعها،⁴ لتعقد معاهدة جديدة مع عصبة اللاتين تقوم على المساواة بينهم وبين الرومان.⁵

ومن خلال هذا الحلف الجديد تمكنت روما من الانتصار على الهرنيك والبولسك⁶ وانتزاع جزء من أراضيهم، واضطرت مدينتا برينست (Préneste) وتيبور (Tibur) اللاتينيتين واللذان كانتا تدعمان تمرد الهرنيك من توقيع معاهدة صلح مع روما سنة 354 ق.م لتبسط روما، في ظرف الأربعة عقود التي تلت غزو الغالين لها، نفوذها وسيطرتها في شمال إيطاليا وتستعيد مكانتها وقوتها في هذه المنطقة مدافعة بذلك عن وجودها، وطامحة للسيطرة على كل شبه الجزيرة الإيطالية.⁷

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 106.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 121.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 107.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 259.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 107.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 260.

⁷ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 107.

الفصل الخامس

الصراع الروماني القرطاجي، ملابسات

الاشتباك وبداية الحروب

-I التوسع الروماني في وسط وجنوب إيطاليا

-II الصراع الروماني القرطاجي في صقلية

-III الرومان ينقلون الحرب إلى إفريقيا

I- التوسع الروماني في وسط وجنوب إيطاليا

1- حروب الرومان ضد السمنيين والغالين

في الوقت الذي كانت فيه روما تبسط نفوذها وتُثَبِّتُ إقدامها في سهل اللاتيوم وجنوب أتروريا وكذا في شمال كمبانيا، كان وسط إيطاليا حيث جبال الإبنين الذي تسيطر عليه قبائل سايبيلية (Tribus sabeliennes)، تلك القبائل التي استطاعت أن تمد مناطق نفوذها وسيطرتها جنوبا من ناحيتي الشرق والغرب، ولم يكن يمنعها من التقدم باتجاه الجنوب سوى إقليم أبوليا (Apulie) ومدينة تارنتوم (Tarentum) الإغريقية، وفي الحقيقة لم تستطع تلك الشعوب تشكيل وحدة سياسية أو قوة عسكرية موحدة، وإنما أسفر تمددها شمالا وجنوبا إلى ظهور قوى صغيرة بينها، منفصلة عن بعضها البعض لا تربطها صلات قوية بموطنها الأصلي¹ وهي منطقة الإبنين الأوسط،² ومع ذلك ظلت قبائل منها تتصف بالقوة والبأس وصعوبة الانقياد لغيرها من القوى السياسية المجاورة، وقد عرفت تلك القبائل بالقبائل السمنية (les Samnites).³

وجدت روما نفسها وجها لوجه أمام القبائل السمنية بعد إخضاعها للحلف اللاتيني، وكذا شعوب الهرنيك والفولسك،⁴ لذلك تحدثنا الروايات التاريخية عن معاهدة عقدها الرومان مع تلك القبائل التي صارت مجاورة لمناطق نفوذ الرومان، ويبدو ان هدف روما من وراء تلك المعاهدة التي وقعت سنة 354 ق.م هو إتمام السيطرة الكاملة على شعوب اللاتين ومن ثم التطلع للاستيلاء على سهل كمبانيا الذي يعد من أفضل السهول الفلاحية في إيطاليا.⁵ ومن المحتمل كذلك ان يكون السبب وراء عقد الرومان معاهدة الصلح مع السمينيت سنة 354 ق.م هو مواجهة الخطر الذي كان يهدد شبه جزيرة إيطاليا من الشمال، والمتمثل في إغارات الشعوب الغالية، غير انه بعد انحسار ذلك الخطر إثر المواجهة العسكرية بين روما وحلفائها من جهة، والغالين من جهة أخرى

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص 124-125.

² - Lucien Jerphagnon, op.cit, P43.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 125.

⁴ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 41.

⁵ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص ص 107-108.

سنة 349 ق.م والتي لا يستبعد أن تكون قوات من السمنين قد شاركت فيها لصالح الرومان، لوحظ فنور في العلاقة بين أطراف الحلف الروماني السمني.¹

وفي الواقع، كانت الفترة التي تلت سنة 343 ق.م إلى غاية 290 ق.م كثيرة التعقيد بالنسبة للرومان، مما أدى إلى إجهاض كل محاولاتهم للنهوض والازدهار، لذلك لا يمكن المرور عليها مرور الكرام لأنها فترة كانت حاسمة ومفصلية في تاريخ التوسع الروماني في إيطاليا². لقد استطاعت روما في هذه الفترة تحييد أعدائها سواء بالقوة العسكرية أو بالوسائل الدبلوماسية، فبالنسبة لكمبانيا مثلاً تم إقناعها بإلغاء تحالفها مع المدن اللاتينية ضد روما، وضمها إلى حلف روما من خلال معاهدة وقعت معها، مُنح من خلالها لسكانها حق التعامل مع الرومان والزواج منهم كما أُعطوا كذلك حقوق المواطنة المدنية.³

أما بالنسبة للقبائل السمنية فقد اختلطت العلاقة معهم بين التحالفات تارة والمواجهات المسلحة تارة أخرى، نظراً لقوة تلك القبائل وتمرسها في فنون الحرب، وكذلك لسيطرتها على منطقة جبال الابنين ومشارف كمبانيا التي تعتبر مفتاحاً لشبه جزيرة إيطاليا من الناحية الإستراتيجية.⁴ وتحدث الروايات التاريخية عن ثلاثة حروب خاضها الرومان ضد القبائل السمنية رغبة منهم في الانفراد بالسيادة على شبه جزيرة إيطاليا.⁵

أما الحرب الأولى فقد تحدث عنها تيتيوس ليفيوس وهي التي وقعت بين سنتي 343 و341 ق.م، غير أن ديودور الصقلي اغفل الحديث عن هذه الحرب، وقد جازاه في ذلك عدد من الباحثين محاولين التشكيك في إمكانية وقوع هذا الاشتباك المسلح مع السمنين خاصة وأن الرومان كانوا في تلك الفترة لا يزالون منشغلين بإخماد بعض القلاقل والاضطرابات بين شعوب اللاتين.⁶

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 125.

² - Lucien Jerphagnon, op.cit, P 45.

³ - محمود إبراهيم السعدي، المرجع السابق، ص 89.

⁴ - Lucien Jerphagnon, loc.cit

⁵ - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 41.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 125.

أما الحرب الثانية فقد تعددت أسباب اندلاعها، ففي الوقت الذي دخل فيه السمنيون في حرب مع مدينة تارنتوم (Tarente) الإغريقية سنة 334 ق.م، عقدت روما حلفا معها،¹ كما أن الرومان والسمنيين على حد سواء اظهروا اهتماما بالغاً وتنافساً واضحاً في الوصول والسيطرة على مدن كمبانيا بل على سيادة شبه جزيرة إيطاليا قاطبة.²

أما الرومان فقد ادجموا المدن الشمالية الكمبانية في دولتهم، وأقاموا عدة مستعمرات قوية على حدود هذا الإقليم لقطع الطريق عن السمنيين، فكانت مستعمرة كاليس (Calès) سنة 334 ق.م³ والتي صارت مركزاً حدودياً تسيطر به روما على الوادي الواقع بين لاتيوم وكمبانيا، ومستعمرة فرجلاي (Frégelles) سنة 328 ق.م، والتي أغلقت من خلالها روما المدخل الشمالي الغربي إلى السهل الخصب لنهر ليريس (Liris).⁴

أما السمنيون فقد أتيحت لهم الفرصة للتدخل سياسياً في مدينة نابولي (Naples) من خلال مناصرة حزب على حزب آخر وأقاموا من خلال تدخلهم حامية لهم بالمدينة،⁵ الأمر الذي أثار حفيظة بقية مواطني هذه المدينة وكذلك حفيظة مدينة كابوا (Capoue) الإغريقية الكمبانية، والتي دعت روما للتدخل وطرد السمنيين من نابولي.⁶ ولم تكتف روما في هذا الصدد بطرد الحامية السمنية فقط، بل استولت على مدينتي روفيريوم (Rufrium) واليفيائي (Allifae) الواقعتين على حدود إقليم سامنيوم (Sammium)، وبذلك فتح باب الصراع واسعاً بين روما والسمنيين.⁷

كان من الواضح أن السمنيين يبحثون عن منافذ بحرية للخروج من مناطقهم الوسطى الجبلية، خاصة بعد تضيق روما الحصار عليهم، ولذلك طلبوا من الرومان إخلاء مستعمرة فرجلاي لكن الرومان رفضوا، وكان ذلك بمثابة الشرارة التي فتحت المواجهة بين الحليفين السابقين

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 39.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 109-110.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 126.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 268.

⁵ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 39.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 269.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 126.

في إطارها ما عرف بالحرب السمنية الثانية،¹ التي دامت زهاء ربع قرن من الزمان (304-326 ق.م).²

مرت هذه الحرب بعدة مراحل بدأتها روما بإحراز بعض الانتصارات، غير أن الجيش الروماني تعرض لهزيمة مذلة سنة 321 ق.م،³ اعتبرها الباحث دومينيك بريكال (Dominique Briquel)، بمثابة الكارثة التي لا تنسى في تاريخ الرومان، وذلك حين حاولت روما إحراز ضربة قاصمة ضد السمنين،⁴ من خلال تطويقهم من الخلف عن طريق أبوليا (Apulie)،⁵ غير أن السمنين الذين كان على رأس جيشهم قائد بارع يدعى كايوس بونتيوس (Cains Pontus) الذي استطاع استدراج الرومان إلى التوغل في المناطق السمنية وتحديدًا إلى مضيق بمنطقة فروشيا (Forchia)، بين سنتاماريا أفيكو (Santa Marie a Vico)، وأربايا (Arpaia)، ثم أغلق عليهم مخرج المضيق بالصخور وجذوع الأشجار، ومن خلال تركز قواته في أعالي حواف المضيق لم يبق للرومان غير قبول الاستلام.⁶

عرفت تلك الواقعة باسم واقعة شعاب كودين (Fourches Coudines) أين أرغم الجيش الروماني بعد استسلامه على إبرام صلح مع السمنين بشروط مذلة،⁷ وتحدث الروايات التاريخية على أن السمنين أمعنوا في إذلال الرومان من خلال إجبارهم على مرور أفراد جيشهم تحت حراب مقاتليهم وهي حركة ترمز إلى الخضوع للمتصر.⁸ عملت روما بعد هذه الحادثة على إعادة تنظيم جيشها وزيادة عدده ليصل إلى أربعة فرق، كل منها يصل تعداد أفرادها إلى 4200 مقاتل،

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 110.

² - Lucien Jerphagnon, op.cit, P 45.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 127.

⁴ - François Hinard, op.cit, P 270.

⁵ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 40.

⁶ - François Hinard, loc.cit.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 127.

⁸ - Lucien Jerphagnon, loc.cit.

كما فرضوا على حلفائهم المشاركة بعدد مماثل من المقاتلين، ليصل عدد أفراد جيش الرومان وحلفائهم إلى تعداد يتراوح بين 35000 و40000 محارب.¹

لم يدم السلم طويلا بين الطرفين،² وربما يعود ذلك إلى عدم اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بالصلح الذي عقد في كودين،³ ولذلك سعت روما إلى معاودة الالتفاف على أراضي السمنين من ابوليا الواقعة إلى الجنوب الشرقي لإيطاليا، ومن ثم محاولة الاستيلاء على مدينة لوكيريا (Lucéria)،⁴ تلك البلدة الواقعة على الحدود بين سامنيوم وأبوليا والتي استطاع الرومان الاستيلاء عليها وإقامة مستوطنة لاتينية بها سنة 314 ق.م.⁵

وان كان الرومان قد حاولوا التوغل في أراضي السمنين من الشرق، فإن أعداءهم كانوا يهاجمونهم من الغرب فقد تقدموا غربا نحو مستوطنة سورا (Sora) بالقرب من نهر ليريس، ومن ثم إلى الساحل الغربي لإيطاليا،⁶ والحقوا هزيمة بجيش الرومان عند لوتولاي (Lautulae)⁷ في جنوب لاتيوم سنة 315 ق.م.⁸ زعزعت هزيمة لوتولاي ولاء مدن كمبانيا لروما لتتحاز إلى جانب السمنين، غير أن الرومان وفي وقت وجيز استطاعوا استدراك الأمر وإعادة إخضاع تلك المدن سنة 314 ق.م.⁹

وخلال العامين المواليين استطاع الرومان التوغل في أرض السمنين،¹⁰ ومما ساعدهم في ذلك هي تلك الطريق التي شقتها روما وعبدتها والتي عرفت بطريق أيتوس (Via Appia)¹¹ نسبة إلى

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 40.

² - François Hinard, op.cit, P 273.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 271.

⁴ - François Hinard, lo.cit.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 272.

⁶ - نفسه، ص 272.

⁷ - François Hinard, lo.cit.

⁸ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 128.

⁹ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 40.

¹⁰ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 128.

¹¹ - Jacques Heurgon, P 316.

الكنسور (Censeur) أيتوس كلاوديوس،¹ والتي تربط بين روما وكابوا،² وقد لعبت تلك الطريق دورا مهما في تنقل الجيش بسهولة من الشمال إلى الجنوب الإيطالي وفي جميع فصول السنة.³ ولما ضاق الخناق على السمنيين من جراء تفوق الرومان عليهم عسكريا لجأوا إلى استنهاض الشعوب الحليفة لروما واثارتها ضدها فحرضوا مدينتي تاركيني وفاليري الاتروسكيستين سنة 311 ق.م على مهاجمة إقليم لاتيوم خاصة بعد انتهاء مدة الصلح مع الرومان، كما حرضوا قبائل الهرنيكي والايكوي والبايلجني (Paeligni) على نقض صلحهم مع الرومان، وهو جعل روما تتحرك بسرعة لإعادة اخضاع تلك المدن والقبائل، فخلال سنوات 310 ق.م و308 ق.م أجبرت روما الاتروسكيين على الصلح وتحديد الهدنة سنويا لمدة عشرين (20) سنة، كما استطاعت إعادة اخضاع قبائل وسط إيطاليا مرة أخرى.⁴

لم يجد السمنيون مفرا من طلب الصلح مع الرومان وكان ذلك سنة 304 ق.م، وقد وافقتهم روما وأقرت لهم بالاستقلال الداخلي وبما يملكون باستثناء بعض أقاليم الحدود.⁵ لم يهنأ الرومان بالسلم طويلا بعد الحرب السمنية، فقد عبّرت جماعات من الكلتيين الغال جبال الألب واثاروا الفوضى في بلاد غالة القريبة بين الغاليين المستقرين هنالك، ولم يكتفوا بذلك بل اجتاحتوا سهل أتروريا وتوغلوا في مناطق خاضعة للرومان سنة 299 ق.م. لم يفوت السمنيون وبعض حلفائهم من الأتروسك فرصة اضطراب الأوضاع بالنسبة للرومان وقاموا بغزو منطقة لوكانيا (Lucanie) في الجنوب.⁶

وكان الرومان في الحقيقة قد عقدوا حلفا مع اللوكانيين رغم معارضة جزء كبير منهم كان مواليا للسمنيين، وبالنسبة للسمنيين لم يكن ذلك الحلف يقلق فقط جزء من اللوكانيين بل كان

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 272.

² - Jacques Heurgon, loc.cit.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 128.

⁴ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 414.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 128-129.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 275-276.

يعني بالنسبة لهم تطويقا كاملا من طرف الرومان لا قليمهم سمنيوم (Samnium)، فقد أصبحوا محاطين من جميع الجهات بمناطق نفوذ الرومان.¹

لم يتوان الرومان في التحرك للرد على السمنيين، ويرجح أن يكون ذلك إما سنة 299 ق.م أو سنة 298 ق.م، وهو تاريخ بداية الحرب السمنية الثالثة حيث تحرك الرومان في الشمال والجنوب واستولوا على مدينتين في جنوب غرب سامنيوم، وطردها السمنيين منها وأخذوا رهائن من اللوكانيين المواليين لهم، كما هاجموا شمال سامنيوم واستولوا على إحدى مدنها.⁴

أما السمنيون فقد تحالفوا مع خصوم روما والمتربصين بها من السابين والسنونس الغاليين وبعض المدن الاتروسكية.⁵ لذلك كان على الرومان مواجهة جيش كبير من أولئك المتحالفين الذين يحتمل أن يكون معهم عدد من الامبوريين، وفي هذه المواجهة أظهر الرومان شجاعة منقطعة النظير بحسب روايات التراث اللاتيني، واستطاعوا تحقيق نصر باهر على جموع المتحالفين ضدهم، وكان ذلك في سنتيوم (Sentium) سنة 295 ق.م، وهي الواقعة التي يرى المؤرخون أن لها دورا واضحا في تحديد مصير إيطاليا.⁶

كانت تلك المعركة الحادثة ذات صدى عالمي، كما أشار إلى ذلك المؤرخ الإغريقي دوريس السموسي (Doris de Samos) والذي تحدث عن تفاصيلها حيث قدر عدد الموتى من السمنيين وحلفائهم بمائة ألف (100000) قتيل،⁷ وقد قدره تيتوس ليفيوس في روايته بخمسة وعشرين ألف (25000) فقط،⁸ ورغم أن تقدير دوريس الساموسي يعتبر مبالغا فيه من الناحية المنطقية، إلا أنه يشير في الحقيقة إلى عظم تلك الحادثة.⁹

¹ - François Hinard, op.cit, P 279.

² - Ibid.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 130.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 276.

⁵ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 41.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 276-277.

⁷ - François Hinard, op.cit, P 280.

⁸ - Jacques Heurgon, op.cit, P 334.

⁹ - François Hinard, lo.cit.

ورغم تفرق القوات المتحالفة مع السمنين بعد معركة سنتيوم وانكسارها، إلا ان السمنين استطاعوا هزيمة جيش روماني في لوكيريا سنة 294 ق.م، غير أن الرومان سرعان استعادوا زمام المبادرة وأحرزوا انتصارا كبيرا على السمنين في أكيلونيا (Aquilonia) على حدود أبوليا، وبذلك اكتمل انتصار سنتيوم.¹ أما الاتروسكيين فقد وجدوا أنفسهم لقمة سائغة للرومان الذين أرغموهم على الصلح معهم لتفرغوا لمواجهة السمنين والتضييق عليهم واستنزاف مواردهم.²

وفي عام 291 ق.م اجتاح القنصل الروماني لوكيوس بوستيموس (Lucius Postimius) مدينة فينوسيا (Venisia) وهي المتحكمة في الطريق الرابط بين كمبانيا وأبوليا وأقام بها مستوطنة لاتينية كبيرة.³ استطاعت روما خنق المقاومة السمنية بعد معركة أكيلونيا، ووجد السمنيون أنفسهم شبه عاجزين عن مواجهة روما في جميع مناطقهم ليطلبوا الصلح معها سنة 290 ق.م،⁴ ذلك الصلح الذي كان اقرب إلى الاستسلام ليصبح السمنيون بعد ذلك حلفاء لروما، يشكلون جزءاً من قواتها ويدينون لها بالطاعة في السياسة الخارجية.⁵

ظل شمال إيطاليا يشكل مصدرا للإزعاج بالنسبة لروما حتى بعد إخضاع السمنين، ففي عام 284 ق.م عبرت قبائل من السنونس الغالية شمال إيطاليا وأغارت على أتروريا وحاصرت مدينة أرتيوم (Arituim) ⁶ الأتروسكية والحليفة لروما، غير أن الرومان استطاعوا طردهم منها واستولوا على جزء من أرضهم،⁷ وأقامو بها مستوطنة رومانية عرفت باسم سينا (Sena) على بحر الادرياتيكي.⁸ كما حاولت قبائل البويي (Bouii) الغالية عام 283 ق.م أن تجمع قوة منها ومن الاتروسكيين المتمردين بعد غزو أتروريا والزحف بها إلى روما،⁹ غير أن الرومان تصدوا لهم وهزموهم

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 277.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 130.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 277.

⁴ - François Hinard, op.cit, P 281.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 278.

⁶ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 130.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 278.

⁸ - François Hinard, op.cit, P 282.

⁹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 131.

في موقعه بحيرة فاديمو التي تقع على بعد حوالي 50 ميلا شمال روما، بقيادة القنصل كورنيليوس دولابيللا (Cornelius Dolabella).¹

وفي العام الموالي أُخِيطَتْ محاولة أخرى للبويي،² ليجنحوا بعدها للسلم لمدة خمسين عاما، وما إن حل عام 280 ق.م حتى أخضعت روما ما تبقى من المدن الأتروكسية الثائرة لتصبح القوة الأولى في إيطاليا من خلال سيطرتها على شمال ووسط شبه الجزيرة الإيطالية.³

2- الحرب ضد اليونان الكبرى بزعمارة تارنتوم

كان من الواضح ان الرومان سيعودون إلى فرض سيطرتهم على كامل شبه جزيرة إيطاليا، لذلك صار حتميا الاصطدام بالمستعمرات الإغريقية في الجنوب بعد ان تسنى لهم إخضاع شعوب إيطاليا الوسطى⁴ والقبائل الغالية في الشمال.⁵ كانت مجموعة المدن الإغريقية في جنوب إيطاليا تعرف باسم اليونان الكبرى (Grande Grèce).⁶ تلك المدن التي تزعمتها في الفترة الأخيرة مدينة تارنتوم (Tarente) التي أخذت على عاتقها الدفاع على المدن الإغريقية ضد هجمات القبائل الإيطالية المحلية من الايوليين واللوكاين،⁷ خاصة بعد انهيار إمبراطورية ديونيسوس الأول Denys (l'Ancien) طاغية سيراكوز (Syracuse) سنة 367 ق.م.⁸

تأسست تارنتيوم على يد اللاكيدومينيين (les Lacédémoniens) وهي تعتبر العاصمة القديمة لإقليم كالابريا (Calabre)، كانت مشهورة بفضائها الشاسع والمسور، بجدرانها، بمينائها وبموقعها الرائع في مدخل الخليج الادرياتيكي، ومن هناك كانت ترسل سفنها إلى جميع البلدان، إلى

¹ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 278.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 131.

³ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص ص 278-279.

⁴ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 111.

⁵ - François Hinard, op.cit, P 295.

⁶ - Lucien Jerphagnon, op.cit, P 46.

⁷ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 42.

⁸ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 131.

استريا(Astrie)، إلى ايليريا(Illyrie) إلى إبيروس (Epire)، إلى آخيا (Achie) إلى إفريقيا (Afrique) وإلى صقلية(Sicile).¹

ويبدو ان بعض المدن اليونانية في إيطاليا قد طلبت عون الرومان جراء مهاجمة اللوكانيين لهم مثل مدينة توريوم (Thurims) التي أرسلت إليها روما سنة 282 ق.م حامية رومانية لحمايتهم من اللوكانيين والبروتيين، وبما أن مدن أخرى قد حذت خذو توريوم مثل ريجيوم (Rheguim) ولوكري (Locré) وكروتون (Crotone)،² فإن مدينة تارنتوم قد توجست من تمدد الرومان نحوها، غير أن الأمر الذي دفع بالأمور نحو التصعيد بين روما وتارنتوم هو دخول عشر سفن رومانية خليج تارنتوم سنة 282 ق.م الأمر الذي اعتبره³ التارنتيون خرقا لمعاهدة التحالف المعقودة بين الطرفين والتي نصت على عدم دخول القوات الرومانية إلى مياه الخليج تارنتوم.⁴

كان رد فعل تارنتوم عنيفا تجاه الرومان حيث قامت قواتها بإغراق أربع سفن رومانية وأسر إحداها، وإجبار البقية على التراجع ثم أرسلت قوات محاربة إلى مدينة ثوري بغرض طرد الحامية الرومانية واحتلال المدينة.⁵ غير أن تارنتوم سرعان ما تنبعت إلى أنها فتحت على نفسها بابا يصعب غلقه تمثل في حرب من الصعب الانتصار فيها ضد إيطاليا الموحدة بقيادة روما.⁶

في تلك الفترة كان الرومان منشغلون بمحاربة الغالين والأتروسك، وقد تشجعت تارنتوم على تحدي روما بعد حصولها على عون من الملك بيروس (Pyrrhus) ملك إبيروس (Epire) في شبه جزيرة اليونان.⁷ كان الملك بيروس آخر القادة الذين ربطت تارنتوم مصيرها به، وراهنّت على بقائها من خلاله، غير أنه بالنسبة لهذا البطل الإغريقي كان حلم توحيد المدن الإغريقية في إيطاليا

¹ - Florus, Abrégé de l'histoire romaine, Texte traduit par F.Ragon, Imprimerie C.L.F.Panckouke, Paris, 1833, I, XVIII, P 63.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 132.

³ - Jacques Heurgon, op.cit, p 338.

⁴ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 32.

⁵ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 285.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 113.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 133.

وإخضاعها مع تلك الشعوب البربرية التي تقطن المنطقة تحت نفوذه، هو عبارة عن مغامرة بين العديد من المغامرات التي يمكن ان تواسيه بسبب فقدانه لمقدونيا شمال بلاد اليونان.¹

كان بيروس يمت بصلة قرابة إلى الإسكندر المقدوني القائد العظيم في نظر الإغريق، كما أنه كان يحب التشبه به، وقد خاض غمار السياسة والمعارك التي نشبت بين خلفاء الاسكندر الأكبر بعد وفاته.² وقد تولى الحكم سنة 296 ق.م، وهو شاب لا يزيد عمره عن 23 سنة، وكانت قبيلته المولوس (Les Molosses) ، والتي كانت تشكل أهم مكون سكاني في مملكته تَعْتَبِرُ ومنذ عهد الاسكندر الأكبر الحرب صناعةً وطنيةً.³ كان بيروس يُعْتَبَرُ الأقدَر في عصره بين قادة الإغريق، وقد جلب معه جيشا إلى إيطاليا مدربا ومسلحا وفقا لأحدث وأحسن أساليب القتال، تلك التي استحدثها الاسكندر الأكبر والتي انتشرت بين جميع الجيوش الهيلنستية.⁴

بالنسبة لروما وحسب المؤرخ بوليبيوس (Polybe) فإن الحرب ضد بيروس سجلت منعرجا في تاريخ الرومان وحداً فاصلاً في سلسله حروب روما مقارنة بالحروب التي خاضتها سابقا، هذه الحرب التي شكلت تحديا صعبا للرومان لم يعرفوا مثيلا له إلا حين أوشكت روما أن تسقط بيد الغاليين في بداية العصر الجمهوري.⁵

وصلت قوات بيروس عبر أسطوله إلى ميناء تارنتوم في ربيع سنة 280 ق.م وكانت مكونة من قرابة خمس وعشرين ألفا (25000) من المقاتلين، وعدد من الفيلة.⁶ كان عدد الفرسان من بين محاربيه يناهز الثلاثة آلاف (3000) فارس، وكان الرماة أي رماة السهام بعدد الألفين (2000)، أما بقية المقاتلين العشرين ألفا (20000) فكانوا من المحاربين ثقيلي العدة، أما الفيلة فكان عددهم لا يتجاوز العشرين فيلا.⁷

¹ - Jacques Heuragon, op.cit, p 339.

² - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 285.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 113.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 133.

⁵ - François Hinard, op.cit, p 295.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 113.

⁷ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 43.

ويصف المؤرخ الروماني فلوروس (Florus) مشهد تجمع القوات من التارنتين وجيش بيروس فيقول: كان التجمع مذهلا فقد نهضت حشود من الشعوب التي عازمت على الدفاع عن التارنتين، ومعهم سار بيروس الأقوى من كل القادة الآخرين، والمتحرق إلى الانتقام والثأر لمدينة نصف يونانية من أصول لاكدومينية (Lacédémonienne)، معززا بكل قوات إيبيروس، وتساليا (Thessalie) ومقدونيا، كان السير على البر والبحر بكتلة بشرية مخيفة مزودة بجياد وأسلحة وفيلة كانت تشبه الوحوش، والتي لم تكن مألوفة عند الرومان، وقد أضفت على الجيش نوعا من الترهيب والرعب الصادر عن أصواتها.¹

كلف الرومان أحد قنصلي سنة 280 ق.م وهو فاليريوس لا فينيوس (Valerius Laevenus) بقيادة الجيش المتوجة إلى الجنوب لملاقاة التارنتين وبيروس.² وكانت المواجهة الأولى مع الإغريق في موقعة هيراقليا (Héraclée) على ضفاف نهر ليريس (Liris)³، كان الفريقان متكافئين من حيث العدد تقريبا، إلا أن جيش بيروس كان أكثر احترافية وتدريباً وفقاً لنظام الفيلق المقدونية، كما أن الفيلة التي فاجأت الرومان وأخافتهم صنعت الفارق في هذه المواجهة التي تفوق فيها جيش بيروس ليتراجع الفرسان الرومان ويفرون إلى مستوطنة فينوسيا شمالاً، تاركين سبعة آلاف (7000) مقاتل فقط في ساحة المعركة، وإذا أضفنا إلى ذلك مساندة كل من اللوكانيين والسمنيين ومديني كروتون ولوكري لجيش بيروس بعد انقلابهم على الرومان، فإن الانتصار لصالح بيروس يصبح منطقياً، ورغم ذلك فقد حقق نصراً صعباً ومكلفاً حيث تكبد خسائر فادحة وصلت إلى أربعة آلاف مقاتل خسرها من قواتها.⁴

سار بيروس بجيشه نحو روما متبعاً الطريق اللاتينية (la voie latine) إلى أن وصل أناغني (Anagni) و يمكن أن تكون برينسييت (Préneste)، غير أنه لم يواصل سيره شمالاً لأنه لم يكن يأمن على مؤخرة جيشه خاصة بعد أن يؤس من مساندة من كان يرغب في محالفتهم⁵ من المدن الكمبانية والمدن اللاتينية التي ظلت على وفائها لروما، لذلك فضل التراجع إلى سهل كمبانيا ويشرع في عملية مفاوضات مع روما (280-279 ق.م) كان مصيرها الفشل.⁶ وفي صيف سنة

¹ - Florus, op.cit, I, XVIII, p 63.

² - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 113.

³ - Florus, Loc.cit.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 286.

⁵ - Jacques Heurgon, op.cit, p 339-340.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 113.

279 ق.م وقعت مواجهة بين الطرفين التحمت فيها أعداد كبيرة من الجانبين على ضفاف الاوفيد (Aufide) بالقرب من أوسكولوم (Ausculum) بأبوليا، ورغم أن الرومان صنعوا عربات مزودة بالسلاح للتصدي لفيلة بيروس إلا أنهم خسروا تلك المعركة وانتصر بيروس مرة أخرى،¹ ولكنه تكبد خسائر كبيرة، وعرض الصلح على الرومان، ولم يشترط إلا ضمان حرية المدن الإغريقية، وقد يكون قد طلب تعويضات لحلفائه السمينيين والمسابيتي واللوكانيين والبروتيين ولولا تدخل قرطاجة لتدعم روما وتقطع الطريق عن وصول بيروس لصقلية إذا ما أنهى حربه في إيطاليا لثم الصلح بين روما وبيروس.²

وإذا كانت قرطاجة من خلال تدخلها قد حققت هدفا قريبا وهو إفشال الصلح بين روما وبيروس، إلا أن ذلك الأمر كانت له نتائج عكسية عليها³، فقد هب بيروس لنجده إغريق صقلية حين وصلت رسل من سيراكوز في صقلية ترجوه مناصرتهم ضد القرطاجيين الذين أوشكوا على التهام كل صقلية وإنهاء الوجود الإغريقي بها.⁴ وقد أحرز بيروس انتصارات باهرة على القرطاجيين حيث أرغمهم على التخلي عن كل ممتلكاتهم فيما عدا ليلوبايوم أو ليليبي (Lilybeé)، وبدأ يفكر في نقل الصراع إلى إفريقيا.⁵ غير أن الصقليين الإغريق الذين فرض عليهم ضرائب باهظة ثاروا وتمردوا عليه، مما دفع به إلى العودة إلى إيطاليا سنة 275 ق.م.⁶

تمكن الرومان خلال فترة غياب بيروس عن إيطاليا من إخضاع السمينيين واللوكانيين والبروتيين مرة أخرى إلى سلطتهم، وكان بيروس قد قرر وعزم على العودة إلى بلاده اليونان إذا لم يحرز نصرا مؤزرا على الرومان⁷، وفي خلال عام 275 ق.م اتجه بقواته التي لم تعد أعدادها كما كانت قبل ذلك، نحو الشمال راجيا إحراز النصر المأمول على أعدائه،⁸ إلا أنه مني بهزيمة شنعاء

¹ - Jacques Heurgon, op.cit, p 340.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 134.

³ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 114.

⁴ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 288.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 135.

⁶ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 114.

⁷ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 288-289.

⁸ - نفسه، ص 289.

أمام جيش الرومان في بنفينوم (Benévént)¹، انسحب على إثرها إلى تارنتوم ومنها إلى اليونان لمواصلة الحرب من أجل عرش مقدونيا، تاركا بعض قواته لحماية تارنتوم.²

لم يلبث بيروس أن قتل في ميدان القتال ببلاد الإغريق، غير أنه قبل وفاته كان قد سحب الحامية التي تركها في تارنتوم، تلك الحامية التي سلمت المدينة للرومان لتأمين انسحابها بسلام من إيطاليا.³ وضعت روما حامية رومانية في مدينة تارنتوم لتأمين المدينة بشكل دائم لصالحها، وتفرغت للقضاء على تمرد اللوكانيين والبروتين والسمنيين وحلفائهم من القبائل السابلية، لتستولي في الأخير على أقسام كبيرة من أقاليمهم،⁴ وتقيم فيها مستعمرات دائمة بها، فأُسست مستعمرة بايسيتوم (Paestum) على شاطئ لوكانيا، وآيسيرنيا (Aesernia) وينفنتوم في وسط إقليم سامنيوم، وارينيوم (Ariminum) على شاطئ الادراتيكي.⁵

وبذلك وضعت روما يدها بشكل كامل على كل أرجاء إيطاليا من جنوب نهر الريبيكون (Rubicon) شمالا، إلى ريجيوم (Rheguim) وبرنديزي (Brindes) جنوبا، وكان ذلك مع بداية سنة 265 ق.م، لتتحقق بذلك أول وحدة إيطالية في تاريخ شبه الجزيرة.⁶ وبذلك أصبحت روما بعد هذا الانجاز في مواجهة مباشرة مع قوى بحرية كانت ولزمن طويل تسيطر على البحر المتوسط، وهي قرطاجة التي صارت تتوجس خيفة من ذلك الزحف الروماني القادم من شمال إيطاليا. وإذا كان سقوط تارنتوم كان يؤشر إلى نهاية الصراع من أجل الهيمنة على إيطاليا فانه كذلك كان يؤشر على بداية عهد جديد يتميز بالصراع حول الهيمنة على البحر المتوسط.⁷

¹ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 114.

² - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 44.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 136.

⁴ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 44.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 136.

⁶ - محمد السيد محمد عبد الغني، المرجع السابق، ص 290.

⁷ - أحمد سراج، المرجع السابق، ص 115.

II- الصراع الروماني القرطاجي في صقلية

1- ظروف وملابسات اندلاع الحرب البونية الأولى

كانت روما خلال صراع القرطاجيين مع الإغريق منهمكة في توحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت سلطاتها، ولم تول اهتماما بما يجري في العالم الخارجي ولا بالتجارة الخارجية، ولكنها بمجرد أن بسطت سيادتها على إيطاليا أدركت أنها غدت واحدة من القوى الكبرى في الحوض المتوسطي، يدفعها في هذا الاتجاه الانتصارات الباهرة التي حققتها على شعوب إيطاليا، وقوتها العسكرية المتزايدة، إضافة إلى الأطماع التي بدأت تراودها، ولذلك كان الطبيعي أن تشرع في خوض غمار السياسة المتوسطية والصراعات الخارجية¹.

عشية اندلاع الصراع الروماني القرطاجي، كان الانتصار النهائي الروماني على الملك بيروس (Pyrrhos) قد سمح لروما من التمكين لهيمنتها على كامل أراضي شبه الجزيرة الإيطالية، ففي الجنوب كان إخضاع تارنتوم سنة 272 ق.م، وبرنديزي سنة 267 ق.م (Brundisi) في الوسط، أما آخر مدن الأتروسك فولزيني (Volsinies) فكان اخضاعها سنة 264 ق.م. وفي الحقيقة حاولت قرطاج مساعدة المدينة الإغريقية في جنوب إيطاليا تارنت (Terente) لكنها لم تجرؤ على ذلك و لم تتخذ إجراءات عملية حيال هذا التمدد الروماني، ولهذا الغرض وضعت قرطاج فليقا بونيا مقابل مضيق ميسينا (Messine)².

كانت العلاقة مباشرة وذات فعل سريع بين دخول ريجيوم ضمن الحكم الروماني وبين ما استجد من تطورات في صقلية، فالممارتيون المستقرون في ميسينا كانوا يعلمون بدعم الرومان لهم في جميع الأحوال من خلال فيالقهم القريبة في ريجيوم، لذلك أطلقوا أيديهم في صقلية من خلال عمليات طالت الممتلكات القرطاجية، وكذلك السيراكوزية³.

¹ - François Hinard, op.cit, P 337.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 230.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 244.

أصبح الرومان والقرطاجيون الآن وجها لوجه بعد زوال المنطقة العازلة بينها والمتمثلة في منطقة اليونان الكبرى (la Grande Grèce)، كل منهما أصبح يحكم المراقبة على ضفة من مضيق ميسينا، مع امتياز طفيف للقرطاجيين من خلال امتلاكهم لجزر ليباري (Lipari). فقط تلك المعاهدات التي تم إبرامها بين الطرفين هي الواقي الذي يمنع تصعيد الوضع بين الجانبين نظريا، لأنه من الناحية العملية وباستثناء العمل المشترك بينهما ضد ريجيوم الإغريقية سنة 279 ق.م، فما عدا ذلك يعتبر تحالفا بارد وهشا، وقد كشف عن ذلك تدخل الملك بيروس في غرب المتوسط الذي أظهر الوجه الحقيقي للطرفين، فروما لم تحرك ساكنا حين توجه بيروس إلى صقلية، وظلت تتفرج على مسرح الأحداث دون مساعدة قرطاج، كما أن قرطاج عرضت على بيروس تزويده بأسطول من أجل أن يرحل مع فرقه العسكرية إلى إيطاليا¹.

كانت قرطاج قد عقدت مع روما معاهدتين تجاريتين في عهد الجمهورية، وفي سنة 279 ق.م أبرمت بين الطرفين معاهدة عسكرية هدفها أن يظل بيروس منهما في القتال ضد الرومان ولا يولي اهتمامه إلى مساعدة إغريق صقلية، وتجدر الإشارة إلى أن تلك المعاهدات الثلاث نصت على ألا تكون لقرطاج قواعد دائمة في إيطاليا، وأنه فيما بين عامي 350 و 270 ق.م استحدث الرومان على الساحل الغربي لإيطاليا، انطلاقا من أتروريا إلى كمانيا سلسلة من المستعمرات العسكرية الرومانية الخالصة. أما في عام 311 ق.م فقد تم انشاء هيئة ثنائية لتولي حراسة الشواطئ الإيطالية بأسطول صغير. يدل كل هذا على أنه رغم العلاقات الودية التي كانت قائمة بين روما وقرطاج، فإن الرومان كانوا يشككون منذ زمن في نوايا القرطاجيين ويخشون سيطرتهم على شواطئ في إيطاليا كما فعلت في إفريقيا وإسبانيا، ومع تزايد قوة الرومان وتوسعهم على حساب كامل الأراضي الإيطالية صار الصدام بين الطرفين وشيكاً ولا مفر منه².

غير أنه إذا ما بحثنا عن أسباب الصدام وعن الشرارة التي اشتعلته بين أكبر قوتين في غربي البحر المتوسط، لوجدنا كل الروايات تتقاطع حول ميسينا، وحول الممارتين، وهو الاسم الذي

¹- Khaled Melliti, op.cit, p 230.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 253.

أُطْلِقَ على الكمبانيين (les Campaniens) الذين استولوا عن ميسينا (Messine) والذين كانوا حلفاء الرومان الذين سيطروا بدورهم على ريجيوم. لم يكن فعل الممارتين الوحيد هو الاستيلاء على ميسينا والإقامة فيها، بل كان لهم دور مقلق للقرطاجيين وكذلك لأهل سيراكوز، كما أنهم فرضوا ضرائب وإتاوات على جزء كبير من سكان صقلية، ولكنهم حين انتزعت منهم تلك المكتسبات من خلال الحصار الذي ضرب على ريجيوم فإنهم انكفأوا في ميسيبي بفعل ضغط السيراكوزيين عليهم. وحين ظهر هيرون (Hieron) كملك في سراكوز بعد انتصاره على منافسيه السياسيين، وبعد دعم مركزه من خلال زواجه من ابنة أحد أثرياء سيراكوز وكبار أعيانها، فإنه سَيَّرَ حملته العسكرية نحو ميسيبي لقتال أولئك المرتزقة البرابرة¹، الذين كانوا بالأمس القريب حلفاء الملك السيراكوزي أغاثواكليس، والذين تمكنوا عقب وفاته من أخذ مدينة ميسيبي سنة 288 ق.م وجعلوها قاعدة لإغاراتهم على أقاليم المدن الإغريقية في صقلية².

وبحسب رواية بوليبيوس فإن هيرون خاض معركتين ضد الممارتين، الأولى كانت بالقرب من ميسينا وتحديدًا على ضفاف نهر كياموسوروس (Cyamosoros)، ولكنه قدم مرتزقته لقتال الممارتين وترك الجيش المشكل من المواطنين السيراكوزيين جانبًا، وحين تمكن الممارتيون من سحق فرق المرتزقة عاد هيرون إلى سيراكوز، وأعاد ترتيب أوراقه، وجند الكثير من المقاتلين المرتزقة، وحين لاحظ زهو وجرأة البرابرة بعد إنتصارهم الأول سار إليهم بحملة ثانية وقاد هجومات على الممارتين اتسمت بالشجاعة، اعتمد فيها فرقا من أهالي سيراكوز الذين جهزهم وسلحهم بشكل جيد، والذين تلقوا تدريبًا كافيًا واشتبك مع أعدائه في سهل ميلي (Mylée) الذي استدرجهم إليه، لينزل بهم هنالك هزيمة مدوية وليأسر كبار قادتهم ويضع حداً لتمردهم وجرأتهم على الصقليين³.

ويضيف بوليبيوس أن الممارتين الذين أصبحوا محرومين من أي نجدة يمكن أن تصل إليهم من ريجيوم، وجدوا أنفسهم في حيرة من هذه الكارثة التي حلت بهم وبأرضهم، فيقول بوليبيوس أن

¹ - Polybe, op.cit, I, 8-9.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص 253-254.

³ - Polybe, op.cit, I, 9.

جزءاً منهم طلب العون من القرطاجيين، في حين جزءاً آخر منهم استنجد بالرومان عارضين عليهم دخول مدينتهم ضمن مناطق نفوذهم، راجين منهم مساعدتهم لكونهم ينحدرون من أصول واحدة¹.

غير أن رواية أخرى تفيد بأن الممارتين إنما طلبوا المساعدة في بداية الأمر من أسطول قرطاجي كان قريباً من مسرح الأحداث الجارية هناك لكون القرطاجيين كانوا متحسبين لهذا المنحى من سير العمليات، لأن قرطاجة كما سبق وأن ذكرنا كانت تحرس على عدم اتساع مناطق نفوذ السيراكوزيين، ويبدو أنه حين نجح الأسطول القرطاجي في رفع الحصار عن ميسينا، وحال دون أخذها من قبل هيرون، كان راسيا بالقرب منها، لذلك خشى الممارتيون أن تتحكم قرطاج في مدينتهم، ومن ثم أدركوا أنه لا مخرج لهم من هذه الورطة إلا بطلب العون من الرومان والدخول في زمرة رعاياهم².

تردد الرومان مدة طويلة قبل الموافقة على طلب الممارتين لكونه من غير المنطقي مساعدة مجموعة من المرتزقة لأن ذلك كان بالنسبة للرومان يمثل فعلاً متناقضاً، فلقد سبق لهم وأن ونحوا بنوع من العنف مواطنيهم الذين استباحوا مدينة ريجيوم واستولوا عليها فكيف يساعدون بعد ذلك من قاموا بعمل مماثل مع مدينة ميسينا، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يرون أن القرطاجيين الذين هم سادة إفريقيا وجزء كبير من إسبانيا وجزر البحر التيراني، إذا ما ظفروا أخيراً بصقلية فلن يظلوا فقط جيراناً مقلقين ومخيفين للرومان، بل يمكن أن يحاصروا ويهددوا جميع سواحل إيطاليا، في حين أنه إذا ما تمت نجدة الممارتين فإنه يمكن للرومان وبشكل سريع إخضاع صقلية، وبما أن ميسينا عرضت عليهم الخضوع فلن يطول الأمر حتى يتم إخضاع سيراكوز، هذه المدينة التي يمتد نفوذها على جزء كبير من جزيرة صقلية، هذا ما رآته روما بحسب بوليبيوس فلا يجب ترك ميسينا جسراً لقرطاج تعبر من خلاله إلى إيطاليا³.

¹ - Polybe, op.cit, I, 10.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 254.

³ - Polybe, loc.cit.

كان السيناتو الروماني يدرك أنه على الرغم من الخطر الذي يمكن أن يشكله استيلاء قرطاجة على ميسينا فإن الاستجابة إلى طلب الممارتين سيؤدي حتما إلى الاشتباك مع القرطاجيين في حرب بحرية، وأن الرومان لا يمتلكون بعد الخبرة الكافية لمثل هذه الحروب ولا الأساطيل التي يمكنها مواجهة عن قرب أو بعد أساطيل قرطاجة¹.

ومن ثم اختلف السيناتورات الرومان حول إقرار هذه المساعدة والموافقة على هذه الحملة. ولا عجب أن تتحمس للحرب ضد القرطاجيين أسر كمبانية كبيرة ذات شأن في روما، والتي كانت ترى في صقلية غنيمة لا يمكن تركها، ولذلك دفعت هذه العائلات وعلى رأسها الكلاوديين (la Claudii) وجمعت حولها مجموعة من السيناتورات في اتجاه القيادة حملة إلى صقلية للتدخل هناك لصالح الممارتين، ومع ذلك لم يحزم السيناتور الأمر في هذه القضية، وأحال الأمر إلى الجمعيات المثوية. كان الأمر بالنسبة للرومان، ومن خلال طلب تدخل الممارتين، يتعلق بخضوع (soumission) (de ditio) وليس مجرد رفع حصار، وهو ما يعني إعلان حرب حقيقية ضد القرطاجيين. أما بالنسبة للقرطاجيين فإن سوء النية من طرف الرومان كان واضحا جليا، وكان ذلك يعتبر اعتداء رومانيا على المعاهدات المبرمة سابقا بين الطرفين، فهذا المؤرخ الصقلي فيلينيوس (Philinos) يؤكد أن هناك إتفاقا رومانيا قرطاجيا وهو الذي سعى المؤرخ بوليبيوس إلى إنكاره بطريقة غير مهنية، مفاده أن صقلية تخضع للنفوذ القرطاجي، في حين أن إيطاليا تدخل ضمن النفوذ الروماني وهو ما يعني بوضوح أن مسؤولية الحرب البونية الأولى تعود إلى روما².

في نهاية الأمر بادر القنصل أبيوس كلاوديوس كاودييكس (Appius Claudius Caudix) من تلقاء نفسه ببدء العمليات الحربية مستغلا الدعم الشعبي الذي كان يتمتع به³، أما الشعب أو العوام في روما الذين تمثلهم الجمعيات المثوية فكانوا لا يزالون متحفظين بسبب الذكريات المريعة التي لا تزال عالقة في أذهانهم جراء الحروب الكثيرة السابقة التي خاضوها في إيطاليا، لذلك كانت

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 254.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 231.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، ط 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص 158.

العامة بحاجة إلى الاقتناع من خلال سماع مختلف وجهات النظر، ورغم أن القناصل الرومان الذين كانوا يميلون إلى الحرب التي ستجلب لكل فرد من المجتمع الروماني حصته من الغنائم، هذا بالإضافة إلى المنفعة العامة التي ستحققها لروما¹، ومع ذلك لم توافق الجمعية المئوية سوى على إرسال نجدة مستعجلة إلى ميسينا، وقد حققت النجدة هدفها دون اشتباك مع القرطاجيين لأنه بمجرد ظهور الرومان الغير متوقع انسحب الأسطول القرطاجي².

أخلى أذن قائد الحامية القرطاجية في ميسينا حنون القلعة بسرعة حين تقدم الرومان، ويبدو أنه حوكم بعد ذلك و صلب في قرطاج جراء قراره بالانسحاب، لتعمد بعد ذلك القوات الرومانية لاحتلال المدينة.³ إلى هذا الحد لم تندلع الحرب البونية الأولى أو الحرب الصقلية كما اصطلاح على تسميتها، ولكن وقوعها أصبح وشيكاً ولا مفر منه، فمن جهة كان القنصل الروماني أبيوس الذي كان يمثل العائلات النبيلة والتي تشكل جزءاً مهماً من الأرستقراطية الرومانية التي أخذت توجه روما نحو الحرب ضد قرطاج.⁴

كان ذلك بذريعة أن وجودها في صقلية سيظل يهدد إيطاليا كلها بالتطويق والمحاصرة، أو على الأقل كان يمكن لقرطاج تقديم الدعم إلى أي قوة يمكن أن تعبت من جديد بأمن إيطاليا مثل شعوب السمينيين الذين أخضعتهم روما بعد حروب مريرة، لذلك أصبحت الحرب ضد قرطاج في هذه الظروف تعني الدفاع عن إيطاليا من طموحات هذه المدينة الإفريقية الطموحة⁵. أما من الناحية التجارية فإن وجود البونيين في مضيق ميسينا كان تهديداً واضحاً للمواصلات البحرية بين موانئ البحر الأيوني وخليج ميسينا⁶.

وإذا كانت قرطاج لم ترض عن تصرف حنون من خلال انسحابه من ميسينا لأنه لم يكن من مقاصدها التفريط في هذه المدينة المهمة بتلك السهولة التي تصرف بها حنون، ولذلك واستداركا

¹ - Polybe, op.cit, I, 11.

² - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 255.

³ - فرانسوا دوكره، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 158.

⁴ - نفسه.

⁵ - Khaled Melliti, op.cit, p 231.

⁶ - فرانسوا دوكره، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 158.

للأمر أرسلت على الفور حملة لاستعادتها، ووطدت من أجل ذلك لحلف مع ملك سيراكوز هيرون بغرض مساعدتها وطرده الدخلاء الجدد من صقلية، وقام الفريقان بحصار ميسينا، الأمر الذي دفع السيناتو الروماني إلى حشد فرقتين وإرسالهما إلى صقلية بقيادة القنصل أيبوس كلاوديوس لنجدة المدينة، وحين نجحت القوات الرومانية في عبور البحر والوصول إلى ميسينا، استطاعت بسهولة رفع الحصار عنها وهزيمة القوتين المتحالفتين وبذلك أنقذت روما ميسينا، إلا أنها في نفس الوقت أشعلت حرباً بينها وبين قرطاجة وكذلك سيراكوز الإغريقية¹.

ولكن إذا ما تساءلنا هنا ونحن في على مشارف الحرب البونية الأولى: كيف أمكن لهيرون أن يتحالف مع أعدائه التقليديين وهم القرطاجيون؟ وكيف انهزمت قرطاجة في أول لقاء مع الرومان؟ وما الذي كان يجب أن تفعله لتحاشي الهزيمة أمام ميسينا؟ أما هيرون فقد اتبع إغريق الجزيرة الذين مالوا في هذه الظروف مع قرطاجة، فالعدو مرتزقة كمبانيون والمنقذ رومان لم يقف في وجههم شيء حين طهروا إيطاليا من أعدائهم. وفي الحقيقة لم يكن هيرون يريد لا السيطرة الرومانية ولا القرطاجية إلا أنه كان يخشى من أن يوطد الرومان أقدامهم في صقلية، وحين ذاك لن يستطيع الإغريق لوحدهم إخراجهم منها وهم في هذا الوضع من الضعف².

أما القرطاجيون فقد أُلِفَ الإغريق وجودهم منذ قرون وعاشوا طموحاتهم ومطامعهم واعتادوا عليها، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن يشك في قدرة القرطاجيين على صد الرومان، فهم يملكون الجزء الأكبر من الجزيرة لديهم من الجيوش التي يمكن تجنيدها فوراً لافتكاك هذه المدينة من يد الرومان، كما أن لهم قوات بحرية لا تملكها روما في تلك الفترة، إلا أن قرطاجة خيبت أمله، إذ أنها أخطأت من حيث سمحت للرومان بالعبور إلى شبه الجزيرة، وهي نفس الغلطة التي ارتكبتها مع الملك بيروس، أما الخطأ الثاني فهو انقسام قوات الإغريق والقرطاجيين إلى قسمين أحدهما حاصر

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 255.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 71.

المدينة من الشمال والثاني من الجنوب وهو ما سهل على الرومان هزيمة هيرون أولا في الجنوب ثم هزيمة القرطاجيين ثانيا في الشمال.¹

ولمعاقة هيرون على انخيازه وتحالفة مع القرطاجيين أنفذ الرومان إلى² صقلية بقيادة القنصلين مانيوس فاليريوس ماكسيموس (Manius Valerius Maximus) ومانيوس أوتاكيلوس كراسوس (Manius Otacilius Crassus) جيشا مشكلا من مواطنين رومان ومن حلفاء لهم بلغ تعدادهم على الأرجح أربعين ألف مقاتل (40000).³

وسار الجيش نحو سيراكوز أين يحن هيرون مدفوعا بقوة من طرف شعبه، خجلا من الهزيمة التي لحقت به السنة الماضية، وكان أكثر ميلا في هذا الظرف إلى التفاوض والصلح. وفي الحقيقة لم تتحدث المصادر القديمة عن معركة وقعت بين هيرون وبين الرومان خلال هذه الحملة من سنة 263 ق.م. نقول ذلك على الرغم من حصول القنصل مانيوس فاليريوس حين عودته إلى روما على الاحتفال بالنصر "على البونيين وملك الصقليين هيرون" وهو ما يفسر إحرازه نصرا عسكريا على السيراكوزيين قبل أن يوقع معهم معاهدة الصلح. أما عن سكوت المصادر عن الحديث عن هذه المعركة بين الطرفين فيمكن تفسيره بأنه منذ توقيع الصلح بين هيرون والرومان، تعامل هذا الأخير بحكمة بالغة وتحول إلى أفضل الملوك الأوفياء للرومان، وخلال مدة حكمه التي فاقت الخمسين عاما كان فيها هيرون الثاني مثالا للحكمة السياسية والتعقل.⁴

ومع ذلك فقد تحدث بعض المؤرخين عن حصار الرومان لسيراكوز وفرض الصلح على هيرون مقابل دفع غرامة حربية قدرها مائة تالنت (حوالي خمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني) على أن يحتفظ بإقليم خصب ضيق حول سيراكوز، وعقد حلفا على قدم المساوات لمدة خمسة عشر سنة. وبما أن هيرون أدرك من خلال خبرته العسكرية أنه من العبث الصراع مع دولة ليس ندا لها،

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص71

² - François Hinard, op.cit, P 341.

³ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص255.

⁴ - François Hinard, loc.cit.

وأن شروط الصلح في نهاية المطاف معقولة ومقبولة¹، وقد أسدى هيرون إضافة إلى ذلك خدمات معتبرة للرومان خلال حربهم ضد القرطاجيين فيما بعد من خلال تزويدهم بالأقوات و آلات الحصار والسفن والعاملين على ظهرها².

هذه المساعدات التي وفرها هيرون للرومان وهي المتعلقة تحديدًا بالمؤن الخاصة بالحرب هي ما شجعت القناصل الرومان على توقيع الصلح مع هذا الملك سنة 263 ق.م، وهو ما ضرب استراتيجية القرطاجيين في مقتل، ودفع بها إلى عدم الحركة مدة طويلة لمراجعة حساباتها، إلى درجة أنها لم تحرك ساكنا حين استولى الرومان على سيجسته (Ségeste) رغم وقوعها في قلب مناطق النفوذ البوني³، وكذلك مدينة هاليسي (Halicyes)⁴.

2- مجلس الشيوخ الروماني يتبنى الحرب ضد القرطاجيين

هذه التطورات دفعت مجلس الشيوخ القرطاجي إلى التحرك أخيرا والدخول بجدية في هذه الحرب من خلال جلب عدد كبير من المرتزقة الليغوريين الغاليين وخاصة الأيبيريين. تركزت القوات القرطاجية مع كم كبير من المؤن في مدينة أجريجونت تحت قيادة الضابط حنبعل بن جيسكون وقد تحولت هذه المدينة إلى قاعدة عسكرية بونية في صقلية⁵. كانت أجريجونت مدينة إغريقية تقع على الشاطئ الجنوبي الأوسط لجزيرة صقلية، إلا أن روابط تجارية قوية كانت تربطها بقرطاجة الأمر الذي جعلها تنحاز إلى جانبها⁶.

في هذه السنة 262 ق.م سجل لنا التاريخ مرحلة مهمة من مراحل الصراع القرطاجي الروماني خاصة فيما يتعلق بالقرطاجيين الذين كلما زادت أعداد قواتهم وكمية أسلحتهم عظمت خسائرهم وثقلت حصيلة قتلاهم. فبعد أن حشدت قرطاج قواتها في أجريجونت توجه قنصلا تلك السنة لوكيوس ميغالوس (Lucus Mugalus) وكانتوس فيرولوس (Quintus Virulus) بقوا تهما

¹ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص255.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص72.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 233.

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص72.

⁵ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁶ - ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص256.

إلى صقلية، وقررا ضرب الحصار على مدينة أجريجونت. كان يمكن للأمر أن تنعكس سلبا على الرومان حين ترك القائدان العنان لمقاتليهم للانتشار وبشكل واسع من أجل البحث عن المؤن والأعلاف، وهو ما لاحظته القرطاجيون الذين انتهزوا هذه الفرصة للانقضاض على معسكر الرومان آملين نهبه وقتل من فيه من المقاتلين والعودة بسرعة إلى المدينة، هذه المناورة كلفتهم ثمنا باهضا فالمقاتلون الرومان قاوموا بشكل لم يكن يتوقعه القرطاجيون، إضافة إلى أن الجنود الرومان المنتشرين خارج المعسكر سرعان ما ارتدوا وعادوا إلى إليه لتحديث مذبحة لعدد كبير من مقاتلي الجيش البوني¹.

هذه الحادثة أسفرت عن خسائر كبيرة وكذلك على نتائج مهمة لمستقبل سير المعارك، وفي هذا الشأن يقول بوليبيوس "منذ الآن - أي منذ هذه المعركة - أصبح القرطاجيون أكثر حذرا وبقظة في إقدامهم وخروجهم للاشتباك أما الرومان فأصبحوا أكثر حذرا حين يتعلق الأمر بالبحث عن المؤن"².

لكن هذه الحادثة أبانت عن تفوق واضح في طريقه قتال الرومان، وهو تفوق مؤسسي (institutionnelle) من حيث المبدأ، وهو الأمر نال إعجاب بوليبيوس، فالأمر يتعلق بجيش من المواطنين الرومان وخضوع وانضباط كل مواطن جندي (citoyen-soldat)، وكذلك الأمر بالنسبة لأي جندي من قوات الحلفاء في كل فرقة أو وحدة، التي كان لها طابع، وهو ما يضمن أكثر فعالية واستماتة من القوات التي تعرف باسم المرتزقة³.

وبعد خمسة أشهر من الاشتباكات والمناوشات حول المدينة بدأت الأوضاع تأخذ شكلا جديا حين أرسلت قرطاج قوات جديدة إلى صقلية لنجدة المدينة المحاصرة بقيادة ضابط قرطاجي يدعى جنون بن حنبعل (Hanon ben Hannibal)، هذا الأخير الذي جمع قواته في مدينة هيراكلي (Héraclée)، كما جند قوات أخرى من مدينة إيرباس (Erbesse) بغرض قطع الطريق التي تصل من خلالها المؤن للجيش الروماني التي تحاصر أجريجونت. أدى ذلك إلى إضعاف

¹ - François Hinard, op.cit, P 343.

² - Polybe, op.cit, I, 18.

³ - François Hinard, op.cit, pp 343-344.

ملحوظ للجيش الروماني، وهو ما تطلب تدخل ملك سيراكوز الذي كان عليه تزويد الرومان بما يحتاجونه. وفي تلك الأثناء أراد حنون أن يستغل الفرصة ويضابق الفرسان الرومان من خلال الفرسان النوميدي الذين كانوا تحت إمرته بطريقة تجعل الرومان ينحذبون نحو معسكره، وحين خرج الفرسان الرومان لمواجهة الخيالة النوميدي الذين كانوا يناوشونهم، تدخل هو بنفسه لدعم فرسانه بغطاء أمامي مشكل من الفيلة، وهو ما أضعف حظوظ الخيالية الرومان في النيل من فرق النوميدي¹.

عسكر حنون بن حنبل بعد ذلك بالقرب من هضبة تورس (Tours) التي تكشف مباشرة معسكر الرومان، وبعد شهرين من المناوشات ازداد حال المحاصرين داخل أجريجونت سوءاً بسبب الجوع، وهو ما دفع قائد اليونانيين إلى البحث عن الاشتباك مع الرومان وإنهاء الأمر. دامت المعركة وقتاً طويلاً، إلا أن الانسحاب الغير منتظم لليونانيين في مقدمة الجيش زرع الغموض والحيرة في صفوف الكتائب البونية والفيلة المتوقعين في الخلف، جزء كبير من جيش حنون تم القضاء عليه والجزء الآخر لجأ إلى مدينة هيراقلية وتحصنوا بها ليتهم أسرهم بعد ذلك من طرف الرومان. وفي اليوم الموالي سقطت أجريجونت بيد الرومان لأن حنبل بن جيسكون قائد اليونانيين بها نجح في الانسحاب ليلاً من المدينة بفرقه. كان مصير المدينة النهب، وكان مصير أهلها الذبح، وهو أروع الصقليين من أولئك الغزاة الجدد ومن أعمالهم الفظيعة².

لا شك أن تفوق الرومان كان واضحاً أيضاً في هذه المعركة، ومن أهم أسبابه هو ثبات الجنود الرومان في مواقعهم وعدم تراجعهم تحت أي ظرف من الظروف، لأن عقوبة من ترك موقعه في القوانين العسكرية الرومانية تعنى تعرضه لعقوبة الموت، فمن الالتزامات المطلوبة بشدة لمن ينخرط في الجيش عندهم هي عدم ترك الصف مهما كان الأمر، إلا في حالة أخذ أو جمع سلاح أو لضرب العدو أو لإنقاذ مواطن روماني، وهذا ينطبق كذلك على حالة جمع الغنائم أو في حالة

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 233.

² - Ibid, pp 233, 234.

السلب والنهب، لأن الجيوش إذا فقدت نظامها أصبحت غير متحكما بها أي غير محمية من الخطر، ومن الواضح أنه عند الرومان كل مدينة تسقط في أيديهم تقضي القوانين بنهبها¹.

أدى سقوط أجزيجونت إلى زيادة تردي أوضاع القرطاجيين في صقلية، فعدد كبير من المدن الصقلية التي كانت تتبع المقاطعة البونية اجتمعت على موقف واحد برغماتي (Pragmatique) وهو الدخول ضمن السيادة الرومانية، الأمر الذي جعل الداخل الصقلي يصبح رومانيا لذلك كان متوجبا على قرطاجة تغيير استراتيجيتها لتعتمد من الآن فصاعدا على قواتها البحرية بدل البرية، واعتمادا على المدن الساحلية القوية مثل ليلبي وبانورموس تحركت العديد من الحملات البونية بقيادة الضباط والقبطان حنبعل، وتوجهت نحو السواحل الإيطالية وقامت بعمليات تخريب واسعة محدثة بذلك إضطرابا جديا في عملية تموين الجيوش الرومانية، وفي هذه العملية أعاد البونيون اعتماد تكتيكات نجحت سابقا خاصة مع الملك أغاتوكليس، وفي هذه الفترة استبدلت قرطاج القائد حنون بن حنبعل بقائد آخر يدعى هاميكار (Amilcar) والذي وصل إلى صقلية سنة 261 ق.م، وقد أثبت هذا القائد الجديد تميزه عن القادة السابقين بحركيته وحيويته التي نظم من خلالها دفاع البونيين في مواجهة الهجمات الرومانية في صقلية الغربية².

لم تعد الحرب مع هذه النجاحات الرومانية في صقلية هدفها مساعدة الممارتين بل تحول هدفها من خلال مجلس الشيوخ الروماني إلى تحرير كل أرجاء صقلية، ومن أجل ذلك أدرك الرومان أنه صار ضروريا بالنسبة لهم إمتلاك أسطول حربي، وقد لاحظ بوليبيوس أنه على الرغم من تفوق الرومان في الحرب البرية، فإن القرطاجيين كانوا سادة البحر بشكل لا نقاش فيه، ولذلك ظلت نتيجة الحرب متعادلة³.

ومن أجل الوصول إلى هدف إخضاع صقلية وكذلك حماية الشواطئ الإيطالية من غارات الأسطول القرطاجي الذي كان في تلك الفترة يتألف من مائة وعشرين (120) سفينة حربية في

¹ - François Hinard, op.cit, p 344.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 234.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 159.

حين أن الرومان لم يكن لديهم سوى عدد قليل من السفن الحربية، وحتى التي كان يمكن أن تؤمنها لهم المدن الحليفة لم تكن تفي بالغرض. لكل هذه الأسباب قرر الرومان بناء أسطول يزيد عدد سفنه عن عدد سفن الأسطول القرطاجي، وهو ما يؤكد إصرار روما على تحطيم السيطرة البحرية للقرطاجيين، ومن المثير للسخرية أن استنسخ الرومان سفنهم من سفينة حربية قرطاجية قديمة كان أربابها قد هجروها وجعلوها مثالا لبناء سفن أسطولهم، ويرجح في الحقيقة أن يكون قد ساعدهم في بناء هذا الأسطول حلفاؤهم السيراكوزيون الذين كانوا ذوي خبرة ومهارة عالية في صنع السفن¹. (أنظر الملحق 22 صور)

شرع الرومان إذن في صنع السفن وبناء أسطولهم فبوليبوس الذي لم يخف إعجابه بالرومان الذين كانت لهم القدرة على استيعاب التقنيات الضرورية للصناعات البحرية، فالنسبة إليه فإن وضع مائة (100) سفينة ذات الخمسين مجدافا، وعشرين سفينة ثلاثة صفوف المجاديف على الماء بعد شهرين فقط من اتخاذ قرار بناء الأسطول كان بمثابة المعجزة، ولكن بوليب يؤكد أيضا أن هذا المشروع تم انطلاقا من استعمال سفينة حربية قرطاجية كنموذج، وأن تلك السفينة تم إحتجازها حين عبر أبيوس كلاوديوس مضيق ميسينا، لكن هذا الكلام يمكن التحفظ عليه لكونه يصدر عن مؤرخ إغريقي².

كان الرومان حسب المؤرخ فرانسوا إينار (François Hinard) كانوا يملكون ميناء حريبا، وورشة لصنع السفن منذ قرن من الزمان على الأقل، كما أنه كان لها من الحلفاء الذين كانوا فقط مكلفين بتزويدها بالسفن الحربية وبطواقم السفن، ومن ثم فإن هذه المدن الحليفة حسب فرانسوا إينار كانت لها منذ زمن ورشات صنع السفن قادرة على صناعة وحدات مهمة بحرية³. كما تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن ورشات صناعية تارنتية (Tarentins) كان لها الدور الأعظم في صناعة أهم الأساطيل الحربية المتوسطية، بدعم بين مؤسسات تجارية لاتينية كبيرة وكذلك من

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 257.

² - François Hinard, op.cit, P348.

³ - Ibid.

مؤسسات كمبانية، وهو الأسطول الروماني الأول الذي كان يحوي مائة (100) سفينة ذات الخمسين مجدافا وعشرين (20) سفينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trirèmes)، كما ذكر بوليبيوس.¹

أما المؤرخ اللاتيني فلوروس (Florus) فيصف عملية صنع الأسطول قائلاً: "بعد شهرين من حمل البلطات (الفؤوس) وقطع الأشجار، مائة وستين (160) سفينة وُضِعَتْ في المراسي على الشاطئ، وكأن الأشجار لم تشكلها أيادي الرجال بل إن إرادة الآلهة هي التي حولتها إلى سفن فجأة".²

ويبدو أنه لغاية سنة 260 ق.م كانت الهيمنة البحرية للقوات القرطاجية واضحة، ففي هذه السنة خرج أسطول صغير روماني بقيادة القنصل كورنيليوس سيكيو (Cornelius Scipion) وكان مكونا من سبعة عشر مركبا³، إلا أن هذه القوة حوصرت من قبل أسطول قرطاجي في مرفأ ليبارا (Lipara) ليجد القنصل نفسه أسيراً وهو الذي ينحدر من أسرة نبيلة سيكون لها صيت كبير في حروب روما القادمة وقد تم أسره قبل أن تبدأ المعركة، وبسبب هذه النتيجة المذلة عزم الرومان على تجهيز أسطولهم الحربي بتقنيات عالية تكون قادرة على قلب موازين القوة لصالحهم ضد القرطاجيين. كانت الطواقم البحرية تنقصها الخبرة الكافية في القيادة، هذا بالإضافة إلى أن سفنهم كانت لا تزال ثقيلة وبطيئة الحركة وغير طيعة، إلا أنهم لسد كل هذه الثغرات.⁴

تمكن الرومان من تزويد سفنهم بآلة عرفت باسم "كوربو" أي "الغراب" وهي عبارة عن طبقة عالية في السفينة محاطة بحواجز، يصل طولها إلى ما يقارب العشرة أمتار وبعرض حوالي متر واحد، وقد زودت في طرفها بكتله من الرصاص على شكل كماشه أو منقار طير جارح ثم تثبيته في مقدمة السفينة، وربطت إلى الصاري بكرة بحيث يسمح لها بالانتصاب أو الدوران حول محور، وقد تم تخصيص هذه الطبقة العليا لمهمة الانقضاض على السفينة المعادية التي تقترب منها بحيث

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p234.

² - Florus, op.cit, II, III, P99.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص73.

⁴ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص160.

يلقى مخاطف السفينة الرومانية على سطح السفينة المعادية وهو ما يجعل هذه الأخيرة معلقة تماماً، وحينما تكون السفينتان متحاذيتان جنباً إلى جنب ينطلق الرومان وينهمرون على وسط السفينة الثانية، أما إن تعارضت السفينتان بشكل رأسي، فإن الرومان يشتبكون بشكل ثنائي فوق الطبقة العليا ذاتها بهدف اقتحام سفينة الخصم، والجنود الذين يبرزون من المقدمة يعمدون إلى حماية رأس الرتل بتروسهم، في حين يحمي المقاتلون الآخرون جوانب الرتل بأن يسندوا أطراف تروسهم على الحواجز¹.

بفضل هذه التقنية الجديدة تمكن الرومان من شل تكتيك "النكر" الذي كان يعتمد عليه البونيون وفرضوا طريقتهم القائمة على مبدأ "الصدمة" الذي سمح لهم باقتحام السفن المعادية والالتحام في معارك مواجهة كان لهم التفوق فيها غالباً، ولذلك كان قادة الأسطول الروماني يدربون بحارهم كما يدرب الضباط فيالقهم البرية².

خلف كايوس دويليوس (Caius Duilius) القنصل الثاني كورنيليوس سيكيو على رأس القوات البحرية الرومانية والذي أبحر بأسطوله باتجاه ساحل ميلاي (Mylae) أين كانت تتمركز القوات البحرية القرطاجية³. في عرض بحر ميلاي سيعرف البونيون سنة 260 ق.م أول خسارة في معركة بحرية ضد الرومان، كان يقود البونيين في هذه المعركة حنبعل بن حيسكو، وهو واثق بقوته قرر اعتراض الأسطول الروماني المتقدم غير بعيد عن ميسينا. دخل المعركة بنوع من التعالي ودون أي خطة هجومية، ترك الأسطول البوني لمفاجآت الرومان التكتيكية بقيادة دويليوس الذي قسم أسطوله إلى صفين، الأول منهما يحطم ما استطاع من السفن البونية والثاني يتربص بمن نجح في الفرار من مراكب القرطاجيين⁴.

وعلى الرغم من أن البحارة القرطاجيين كانوا يمتلكون مهارة أكبر من الرومان، وكانوا أكثر منهم كفاية وسرعة في المناورة، إلا أن الرومان وخاصة في هذه المعركة عوضوا ما ينقصهم من خبرة من خلال إستخدام تقنية الكوربو أو الغراب التي استطاعوا عبرها قتال القرطاجيين فوق مراكبهم كأهم في حرب برية، وقد أحرز الرومان في نهاية الأمر انتصاراً باهراً⁵، ومع ذلك يمكن الحكم على

¹ - Polybe, op.cit, I, 22.

² - فرانسوا دوكريه، قرطاجية أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 160.

³ - نفسه.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit, p 235.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 257.

الانتصار الذي حققه ديوليوس بأنه انتصار مكلف ومحدود، فمن مجموع مائة وثلاثين (130) مركبا بونيا شاركوا في المعركة فقد حنبعل بن جيسكو أربعة وأربعين (44) فقط، وهو ما يعادل عددا أقل من الثلث بالنسبة لعدد مراكب الأسطول. غير أن هذا الحدث كانت له آثار بل تأثيرات نفسية لا يمكن إنكارها، فبالنسبة للرومان كان الانتصار الأول الكبير على مستوى القوات البحرية في تاريخهم، وعلى عدو كان يمارس الهيمنة البحرية ويجعل منها استراتيجيته الأساسية في التوسع وبسط النفوذ¹.

أصبح الرومان يتمتعون بحرية الحركة في البحار وفي إختيار مكان المعركة مع أعدائهم اليونيين، لذلك نقلوا الحرب إلى جزيرتي كورسيكا (Corse) وسردينيا (Sardeigne) دون الإستغناء عن الحرب في صقلية وهي المعركة الأساسية بالنسبة للرومان، كانت بداية الرومان بالبحر التيراني (Mer Tyrrhénienne) ولذلك إستولى لوكيرس كورنيليوس سكيبيو سنة 259 ق.م على مدينة أليريا (Alerie) بجزيرة كورسيكا، أما على مستوى جزيرة سردينيا فقد كانت انتصاراته محدودة².

وفي تلك الأثناء واصل الرومان التوسع في صقلية إلى غاية سنة 256 ق.م ليستولوا على المدن الواقعة وسط الجزيرة إلا أن القرطاجيين ظلوا محتفظين بالمراكز الرئيسية الواقعة غرب الجزيرة وهي ترماي (Thermaoe)، بانورموس (Penormus) أو باليرمو، ودربانا (Drepana) وليلبي (Lilybée) وسيلينوس (Sélinus) وهيراقليا (Heraclée)، وقد أدرك الرومان أن حسم الصراع ضد القرطاجيين لن يكون إلا بضربة قاصمة، خاصة وأن قرب المسافة بين صقلية وشواطئ إفريقية قصيرة وهو ما يتيح لهم الفرصة للانقضاض على العاصمة البونية نفسها، ومن هنا أضمر الرومان غزو إفريقيا، ومن أجل ذلك شرعوا في إصلاح وتجديد أسطولهم حتى وصل تعداد سفنه الجاهزة للإبحار إلى مائتين وخمسين (250) سفينة حربية إضافة إلى ثمانين (80) سفينة للنقل، ولم تكن هذه الاستعدادات عن غفلة من القرطاجيين الذين استعدوا بدورهم وأعدوا أسطولهم الذي يرجح أنه كان أصغر بقليل من الأسطول الروماني³.

¹ Khaled Melliti, loc.cit.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص73.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص258.

III- الرومان ينقلون الحرب إلى إفريقيا 256 ق.م

1- محاولة القناصل الرومان الاستيلاء على قرطاج وانتهاء الحرب

عزم الرومان إذن على تكرار تجربة أغاتوكليس من خلال نقل الحرب إلى إفريقيا، وبعد إنهاء توسيع أسطولهم الحربي، إتجه الرومان سنة 256 ق.م بسفنهم الحربية نحو إفريقيا بقيادة القنصلين لوكيوس مانيليوس فولسو (Lucius Manilius Valso) وماركوس أتوليوس ريغولوس (Marcus Atulius Regulus)، وكان القنصل الأخير يمثل فئة الكمبانيين القوية، ويبدو أن أسطول الرومان الذي إتجه إلى إفريقيا كان يضم ثلاثمائة وثلاثين (330) سفينة. وفي مواجهة هذه القوة البحرية التي كانت مقسمة إلى أربع عمارات، أرسل القرطاجيون أسطولاً ضخماً يحوي ثلاثمائة وخمسين (350) سفينة حربية حاملة على ظهورها أكثر من مائة وخمسين ألف (150000) رجلاً، في حين أن أسطول الرومان كان يحمل مائة وأربعين ألفاً (140000)، ورغم أن هذه الأرقام المتعلقة بأعداد السفن والمقاتلين المشاركين في هذه المعركة البحرية تجعلها تظهر كأكبر معركة في تاريخ العصور القديمة، إلا أنه من المحتمل بحسب المؤرخ فرانسوا دوكريه أن الأرقام المقدمة من طرف بوليبيوس مُبالغٌ فيها¹.

ويصف المؤرخ الفرنسي يان لوبواك (Yann le Bohec) المتخصص في التاريخ العسكري الروماني حملة الرومان الأولى على إفريقيا في المجمل بأن الجيش الروماني تَعَلَّمَ خلالها دروساً من حيث أن تكتيك المناورة لا يمثل في كل الأحيان الحل الناجح، فإذا كان الإبحار قد تم بطريقة سليمة دون صعوبات، وإذا كانت الاشتباكات الأولى مع القرطاجيين قد عرفت نجاحاً واضحاً، فإن الوضعية سرعان ما تعقدت وبشكل سريع على الأرض، وقد تعرضت روما إلى هزيمة قاسية، وعرف أسطولها كارثة على طريق العودة، كما عرفوا صعوبات جمة في إفريقيا أبرزها نقص الرجال والأموال، وهذه المشاكل في الحقيقة لم يسلم منها لا الرومان ولا القرطاجيون².

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص161.

² - Yann le Bohec, Histoire militaire des guerres puniques 264-146 avant J.C, Editions Rocher, Monaco, 2010, p 87.

حدثت المواجهة بين الأسطولين في مياه رأس إكنوموس (Eknomos) على الساحل الجنوبي لصقلية، وقد حاول قائد الأسطول القرطاجي هاميلكار وجنوده صد الأسطول الغازي، وإن أمكن تخطيطه، وإذا كانت بداية المعركة كانت تبدو لصالح البونيين ، إلا أن القنصلان الرومانيان سرعان ما استطاعا ترتيب أوضاع عمارتيهما اللتين هوجمتا بشكل منفصل مما دفع القرطاجيين إلى الانسحاب مخافة الوقوع في مصيدة سفن الكوربو المعادية، وفي النهاية كانت نتيجة المعركة لصالح الرومان الذين خسروا أربع وعشرين (24) سفينة، في الوقت الذي خسر فيه القرطاجيون أكثر من ثلاثين سفينة، هذا بالإضافة إلى أنه لم تقع أية سفينة رومانية مع طاقمها في أيدي البونيين بينما استلمت أربع وستون (64) سفينة قرطاجية للرومان¹.

بعد هذا الانتصار حصل الرومان على مؤن إضافية، قاموا بإصلاح السفن التي استولوا عليها مما ضاعف عدد عتادهم، الأمر الذي شجعهم على الإبحار نحو إفريقيا². إلا أن التوجه مباشرة نحو قرطاجة كان بمثابة المجازفة بالنسبة للرومان، فالأسطول البوني المنهزم قد عاد إليها، كما أن القرطاجيين كانوا يحرسون عاصمتهم بقطع من الجيوش البرية، ولذلك قرر القنصلان النزول عند رأس هيروموس (Hermès) وفيه تجمعت كل سفن الأسطول الروماني³.

ليواصل الأسطول بعدها مسيرة الساحل الإفريقي بمحاذاة الرأس الطيب (Cap Bon) وتم الإنزال في مدينة قلبية (Clupéa) على ساحل شبه الجزيرة، وقد استطاع القنصلان أخذ المدينة⁴ التي كانت تسمى (Aspis) دون أية صعوبات، ويبدو أن الرومان وجدوا موقع المدينة ملائما لتأمين مواصلاتهم مع صقلية ويمكن أن يكون القنصلان قد إستذكرا أغاتوكلس الذي استولى سابقا على هذا الموقع وحصنه⁵.

¹ - Polybe, op.cit, I, 28.

² - Ibid, I, 29.

⁴ - François Hinard, op.cit, P 353.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص75.

⁵ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص75.

استحوذ الرومان على قلعة المدينة وأصبح المكان حيا عسكريا رومانيا. سحب الجنود حسب التقاليد العسكرية، السفن إلى اليابسة وقاموا بحمايتها بجدار جدار (سور) وخندق، ويبدو أن الظروف اقتضت أن يعود قسم كبير من الجيش إلى إيطاليا تحت قيادة ما نيليوس فولسو، ويبقى ريغولوس بمن تبقى من الجيش في إفريقيا، ذلك الجيش الذي قدر بخمسة عشر ألف (15000) محارب،¹ وزهاء الأربعين سفينة، لتشروع بعد ذلك الفرق الرومانية بنهب وسلب المدن والمزارع الغنية في الأرياف المحيطة بالمعسكر، واستغل النوميديون الموقف لياشروا عمليات تخريب حقيقة، أما في العاصمة قرطاج فقد بدأت المجاعة تضرب أرجاءها خاصة وأن عددا كبيرا من اللاجئين قدر بالآلاف قد نزح نحوها.²

من بين المدن التي نُهبت من طرف الرومان نذكر كيركوان (Kerkouane) والتي يُشَبِّهُهَا الباحثون بمدينة بومبي (Pempei) فاطلقوا عليها تسمية بومبي البونية، وكذلك مدينة منزل تميم (Manzel Temime) وكوربا (Korba). كما إستولى ريغولوس على أديس (Adys) التي يمكن أن تكون أودنا (Oudna)، وذلك بعد أن هزم جيشا بونيا بها ليحول بعد ذلك معسكره إلى تونس (Tunis) ويصبح على مسافة قريبة من قرطاج وليقضى الشتاء في ذلك المكان.³

وقد لاحظ الباحثون أن القنصل ريغولوس لم يكن قائدا لامعا، إذ لم يبد أي ذكاء سياسي، فلقد أهمل منذ البداية استغلال تدمير الأفارقة من سلوك الحكام البونيين، إذ كان بإمكانه أن يحصل من خلاهم على دعم لا يستهان به، هذا بالإضافة إلى أنه كان شديد الثقة بنفسه من خلال توقعه قبول خصومه لشروط متشددة بغية توقيع معاهدة سلام مع القرطاجيين.⁴

وإذا كان القرطاجيين حين رأوا الرومان يتأهبون لمتابعة الحرب في إفريقيا قد انتخبوا قائدين لملاقاة الرومان هما هسدروبل (Hasdrubal) بن حنون وبستار (Bostar) وقد دعوا كذلك هاميلكار من صقلية الذي كان يربط في هيراقليا بعد معركة إكنوم التي شارك فيها، وقد جاء إلى

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p 87.

² - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص162.

³ - Yann le Bohec, op.cit, p 88.

⁴ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص162.

قرطاجة ومعه خمسة آلاف (5000) من المشاة وخمسمائة (500) فارس، وحصل على نفس السلطة التي حصل عليها بستار وهسدروبل. ويبدو أن هؤلاء القادة جميعا لم يفلحوا في هزيمة الرومان بدليل إنكسار القرطاجيين في أديس أو أودنا¹.

إلا أنه خلال سعي البونيين لجمع المرتزقة ذهب أحد المندوبين عنهم إلى بلاد الإغريق ليجمع منها المرتزقة فعاد مصحوبا بعدد كبير منهم ومن ضمنهم القائد اللاكيدوميني كسانتيب (Xantippe) وقد أرجع بوليبيوس وعدد من الكتاب القدامى إلى هذا القائد الفضل في ظفر القرطاجيين بانتصار سريع على القائد ريغولوس، وقد يكون دور كزانتيب في هذه الحادثة قد تمت المبالغة في وصفه، إما من طرف أحد الكتاب الإغريق المعاصرين لهذه الحرب، والذي يحتمل أنه كان لديه أسباب خاصة لمدحه، وإما أن ذلك تم على لسان الرومان الذين أرادوا القول أنه ما كان للقرطاجيين أن ينتصروا عليهم لو لم يستنجدوا بأجنبي، ومع ذلك فلا يجب الاستهانة بدور هذا الإغريقي الذي أفاد دون شك من نضائحه جيش القرطاجيين².

يتحدث بوليبيوس عن كزانتيبسوس أنه تلقى تربية وطنية في أسبرطه كما أنه يملك خبرة طويلة في مهنة السلاح، ويضيف أن كزانتيبسوس لما علم بتفاصيل الهزيمة الأخيرة انتقد شدة الترتيب التي تم اتخاذها، لذلك آمن القرطاجيون بصدق انتقاده كما ثبت صدقه من خلال ما برهن عليه من خبرة عسكرية إلى درجة أن القادة البونيين أنفسهم أسندوا إليه أمر تدريب الجيوش التي كانت تتمرن أمام الأسوار، ونتيجة لذلك عاد للقرطاجيين حماسهم وأصبحوا في شوق للمعركة ضد أعدائهم³.

وقبل أن ينتهي صيف سنة 255 ق.م، سار القرطاجيون بجيش قوامه إثنا عشر ألف (12000) من المشاة وأربعة آلاف (4000) فارس وما يقارب المائة (100) فيل⁴، ولانعلم في الحقيقة المكان الذي جرت فيه المعركة ضد الرومان لكننا نعلم أنه خلال هذه المرة كانت أخطاء

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 76.

² -- نفسه، ص ص 78، 79.

³ - Polybe, op.cit, I, 32.

⁴ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص 79.

تكتيكية من طرف الرومان. فحين أصطف القرطاجيون واضعين الفيلة في الصف الأول، مع تمركزٍ للخيالة الأفارقة بأعداد كبيرة في الأجنحة منتظمين بشكل متراس وعميق، وبعد مدة من الزمن قضاهما الجيشان في تنظيم صفوفهم¹.

بادر القرطاجيون بالهجوم بفيلهم وفرسانهم، وسرعان ما تراجع خيالة الرومان تحت ضغط هجمات الفرسان القرطاجيين الذين يفوقونهم عددا وفعالية على الأرجح، وبذلك وجد المشاة الرومان أنفسهم محاصرين بين الفرسان البونيين الذين كانوا يهاجمونهم من الأجنحة بزخات من الحراب والرماح التي تلقى عليهم وكذلك من طرف الفيلة التي كانت في الصف الأول والتي سحقته مقدمة الجيش الروماني تحت أقدامها².

ضعف الجيش الروماني بسبب فقدانه لجناحه الأيسر الذي حاول تجنب الاصطدام بالفيلة، والذي من أجل الالتحام بالمرتزة المجتمعين على الجناح الأيمن القرطاجي تسلسل مقاتلوه بين الفيلة وتوغلوا في صفوف الأعداء إلى أن دفعوهم إلى الوصول إلى المعسكر، غير أن الفيالق التي نجحت في المدورور بين الفيلة وجدوا أنفسهم أمام الكتائب القرطاجية التي لم تدخل بعد في المعركة، والتي كانت في أريحية وهو ما ساعدها على سحق الكتائب الرومانية. كانت الكارثة كبيرة وباستثناء الألفي مقاتل الذين لاحقوا المرتزة في الجناح الأيمن، والذين نجحوا في الوصول إلى أسبيس (Aspis) أين تمت محاصرتهم، لم ينج من جيش الرومان سوى خمسمائة (500) رجل الذين فروا مع القنصل³، والذين يبدو أنهم قد ألقوا عليهم القبض،⁴ ليتم أسر القنصل ريغولوس⁵.

2- فشل الحملة الافريقية وعودة الحرب إلى صقلية 254 ق.م

في السنة الموالية ازداد حجم الكارثة بالنسبة للرومان، خاصة حينما أرسلت روما وتحديدا بقرار من مجلس الشيوخ أسطولاً بحرياً يقوده قنصلاً تلك السنة، والذي كان يضم ثلاثمائة وخمسين

¹- François Hinard, op.cit, P 355.

²- Ibid.

³- Ibid

⁴ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص81.

⁵ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص163.

سفينة (350)، بغرض حماية ونقل فلول الجيش الروماني، إلا أن هذا الأسطول اصطدم بقوة قرطاجية بحرية مؤلفة من مائتي (200) سفينة، وتمكن من إلحاق الهزيمة به، ومن الاستيلاء على مائة وأربعة عشر (114) سفينة قرطاجية، ورغم هذا الانتصار، إلا أنه حين بلغ القنصلان ساحل كاماريننا (Camerine) على الساحل الجنوبي لصقلية، وهي منطقة تعرف بالخطورة، كان ذوو الخبرة من البحارة قد حذروهما من الاقتراب منها بسبب الظروف المناخية الرديئة، وقد تعرض الأسطول الروماني بها إلى عاصفة شديدة دمرته كلياً تقريباً، ولم تنج من هذه الكارثة سوى ثمانين (80) سفينة¹. ويقول بوليبيوس في هذه الحادثة "لم يسرد لنا التاريخ مثيلاً لهذه الكارثة التي قضت بضربة واحدة على أسطول بأكمله".

دفعت هزائم الرومان البحرية إلى حذرهم من هذا النوع المعارك لكنهم لم يوقفوا معاركهم وحروبهم البحرية، وفي نفس السنة 254 ق.م التي تحطم فيها أسطولهم، زاد اهتمامهم بجزيرة صقلية لذلك ضربوا الحصار على مدينة باليرمو (Palerme) ذات الولاء القرطاجي. حاصرت الفيالق الرومانية المدينة التي كانت محمية بخندق وسور متين، استعمل الرومان أرقى آلاتهم الحربية لتنهيار تحصينات المدينة تحت ضرباتهم. سقطت المدينة وفاز الرومان بغنائم معتبرة، منها سبع وعشرين ألف (27000) من الأسرى، أربعة عشر ألف (14000) منهم تمكنوا من أن يفدوا أنفسهم. زاد ضغط الرومان على المدن الموالية لقرطاجية وبدأت تلك المدن تدخل الواحدة تلو الأخرى في حلف الرومان، إيناتاروس (Enattaros) التي لا يعرف موقعها بالتحديد، وكذلك سولونت (Solonte)، بيترا (Petra) وتاندار (Tyndare). ولكي توقف قرطاج هذه السلسلة من الخسائر أرسلت مائة (100) فيل إلى صقلية، هذا المدد القوي والفعال وكذلك الإرهاق الذي بدا واضحاً على الطرفين جعل من الوضع في صقلية على حاله إلى غاية سنة 250 ق.م².

ويبدو أن روما وقبل تلك التوسعات البرية في صقلية قد حاولت مرة أخرى غزو للسواحل الشرقية الإفريقية وكان ذلك سنة 253 ق.م. ولقد تم تكليف قنصلاً تلك السنة وهما كنيانوس

¹ - فرانسوا دوكره، قرطاجية أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 163.

² - Yann le Bohec, op.cit, p 92.

سيرويليلوس كايو (Cneius Seruilius Caepio) وكايوس ساميرونيلوس باليزو (Caus Senpronius Blaesus)، وبعد أن مروا بصقلية واصل الرومان طريقهم نحو السواحل الإفريقية إلى أن وصلوا إلى جزيرة جربة (Djerba)،¹ والتي كانت تسمى لوتوفاج (Lotophages)، وهناك جنحت السفن في المياه الضحلة لخليج السرت الصغير (Petite Syrte) وليفقد الأسطول أكثر من مائة وخمسين (150) سفينة نتيجة العواصف، ولذلك تخلى مجلس الشيوخ الروماني إثر تلك العملية عن أية محاولة لإنشاء أسطول جديد.²

ويتحدث بوليبيوس عن هذه الحادثة وما تلاها فيصف الوضع بأنه نتيجة لتلك الكوارث التي حلت بالجيوش والأساطيل الرومانية، إستعداد القرطاجيون معنوياتهم وزاد تفاؤلهم بالمستقبل فمذ أن انسحب الرومان من البحر، تمكن القرطاجيون من بسط نفوذهم عليه دون منازع، وكانوا إضافة إلى ذلك يعلقون آمالا كبيرة على جيوشهم البرية، ولم يكن تفاؤلهم هذا دون مبرر.³

أمام إصرار الرومان على طرد القرطاجيين من جزيرة صقلية، قرر البونيون أن يجمعوا ويركزوا كل قواتهم في معقل محصن يقع على الجزء الغربي من الجزيرة بدلا من تركها مبعثرة في عدد من المواقع يصعب حمايتها والدفاع عنها، ويبدو أنه في تلك الأثناء لم يبق بيد القرطاجيين غير مدينتين مهمتين كانتا تمثلان قاعدتان للقوات البونية وهما ليليبي (Lilybée) (مرسالو)، ودريبان (Drepan) (ترياني)، وللقضاء على هاتين القاعدتين أدرك القادة الرومان أن مثل هذه القواعد القوية للبونيين لا يمكن أن يتمكنوا منها دون حصار تام من البر والبحر، بحيث يمنعوا عنها أية مؤونة، ويكون سلاح المجاعة هو السلاح الأكثر فعالية، ومن ثم قرر مجلس الشيوخ الروماني سنة 250 ق.م أن يجهز أسطولا جديدا لتنفيذ هذه الخطة.⁴

ثم تكليف قتيلا سنة 250 ق.م بضرب الحصار على مدينة ليليبي، ولقد تحرك القادة بأسطول قوامه مائتا (200) سفينة حربية وبأربعة فرق مقاتلة واحكموا الحصار على المدينة. كانت

¹ - François Hinard, op.cit, P 359.

² - فرانسوا دوكره، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 163-164.

³ - Polybe, op.cit, I, 39.

⁴ - فرانسوا دوكره، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 164.

ذات الأصول القرطاجية من حيث التأسيس غاية في التحصين من خلال سور منيع وخندق عميق من جهة البر، أما من الجهة البحرية فكانت محمية بالمياه الضحلة والعميقة والخطيرة بالنسبة للملاحة، وهو ما يجعل الولوج إلى المدينة أمرا صعبا المنال¹.

عملت قرطاج على حماية المدينة بكل ما أوتيت من قوة رغم حذرهما الشديد في تلك الظروف من حرب إفريقية قد تندلع ضدها من طرف النوميديين والشعوب الليبية التي تعيش في كنف الدولة القرطاجية. وضعت قرطاج لحماية ليلي فيلقا من المرتزقة الإغريق والكلبيين يقودهم ضابط قرطاجي يدعى هيملكون (Imilco)، ينوبه أو يرافقه قائد إغريقي يدعى ألكسون (Alexon)، كانت المعارك حول المدينة ضارية وطويلة الأمد سعى فيها المحاصرون إلى تحطيم دفاعات المدينة، وحاول فيها المدافعون عنها تحطيم آلات الحرب المستعملة في الحصار².

أرسلت قرطاج سنة 249 ق.م إلى المدينة المحاصرة³ حنبعل بن هامليكار (Hannibal ben Amilcar) على رأس أسطول مكون من خمسين (50) مركبا تحمل عشرة آلاف محارب، تلك القوات التي وصلت إلى ميناء ملائم، ومن هناك التحق بحنبعل بن هامليكار الأميرال أذربعل الذي كان على رأس الأسطول القرطاجي الكبير بالقرب من مدينة دريبان (Drepane)، وذلك تحضيرا للمعركة البحرية التي كان هدفها فك الحصار عن ليلي⁴. كانت البطولات البحرية للبحار القرطاجي حنبعل الرودوسي (Hannibal le Rhodien) قد أذهلت الرومان، إذ كان هذا الأخير يؤمن الاتصال بين قرطاج والمحاصرين، وذلك بفضل خفة وسرعة تنقل سفنه⁵.

وحين علم الرومان بالتحضيرات القرطاجية للمعركة البحرية، قرروا إنهاء الأمر في ليلي لذلك قاموا بمهاجمة خط الدفاع الأول والذي نجحوا في اختراقه، ولكن حركة مفاجئة وشجاعة من قبل هملكون فأجأت العدو وجعلته يقع في مصيدة بين قوات هيملكون وخط الدفاع الثاني، الأمر الذي أدى إلى حصار القوات الرومانية، ومن ثم سحقها حيث هلك عشرة آلاف (10000) من

¹ - François Hinard, op.cit, P 363.

² - Khaled Melliti, op.cit, pp 243-244.

³ - Ibid, p 244.

⁴ - Polybe, op.cit, I, 44-46.

⁵ - Yann le Bohec, op.cit, p 96.

المقاتلين الرومان، كما نجح المحاصرون، كما يؤكد يوليوس، في حرق تلك الأبراج وآلات الحرب التي كانت تستعمل في الحصار، وهو ما ضاعف خسائر الجيش الروماني، وكان ذلك بفضل خبرة الإغريق الذين استعان بهم البونيون، حسب بوليبيوس. تضاعفت خسائر الرومان وعملت هذه العملية الحربية على تخفيف ضغط حصار الرومان على المدينة الذين كانوا يعانون في تلك الفترة من تفشي بعض الأوبئة بين جنودهم ومن نقص المؤن، ولم يعد الرومان قادرين على مواصلة هذا الحصار إلا بصعوبة كبيرة، بفضل المساعدات التي وصلت إليهم من قبل الملك السيداكوزي هيرون. إستغل القرطاجيون هذه الظروف لإعادة بناء الدفاعات الأمامية للمدينة التي حطمتها المعارك خلال أشهر الحصار¹.

بدأ الرومان يأسون من الاستيلاء على ليليبي عنوة واكتفوا بحاصرها حصارا طويلا دام حتى نهاية الحرب، أما قائد قواتها هيملكون فقد أُسْتُبْدِلَ في وقت لا نعلمه بجيسكون الذي لم يكن أقل خبرة وبراعة ممن سبقه على ما يبدو. أما الأسطول القرطاجي الذي كان راسيا في ميناء دريبان، فقد قرر الرومان مهاجمته سنة 249 ق.م بقوات بحرية يقودها القنصل كلوديوس بوشر (Claudius Pucher) الذي أراد مباغته البونيين بالمائة والعشرين (120) سفينة التي كانت تحت إمرته. ويبدو أن محاولة القنصل الروماني باءت بالفشل بل إن القرطاجيين استولوا على ثلاث وتسعين (93) مركبا من أسطوله، إثر مناورة ذكية قام بها القائد القرطاجي أذر بعل (Adherbal)، واستطاع أحد مساعدي أذر بعل الاستيلاء على طابور يعمل على تموين ليليبي ودريبان².

كان ذلك قرب مدينة باليرم، كما أن كرتلون (Carthalon) وهو من قادة البحرية القرطاجية، شن هجوما موفقا على سفن راسية أمام ليليبي، ثم سار بعد ذلك بمحاذاة الساحل الجنوبي لصقلية واشتبك مع عمارة بحرية رومانية أخرى كانت قد غادرت مدينة سيراكوز، ولم يستطع الرومان مواجهته في عرض البحر، لذلك أوقفوا سيرهم ووقفوا سفنهم بالقرب من الساحل، وفي تلك الأثناء لاحظ القرطاجيون وهم من أمهر البحارة وأكثرهم خبرة أن البحر سيعرف قريبا هيجانا عنيفا، فأسرعوا بالذهاب إلى الساحل الشرقي للجزيرة، حيث رسوا في أمان ولم ينتبه الرومان وهم البحارة المبتدئين لهذا الخطر فحطمت العواصف سفنهم³.

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص86-87.

³ نفسه.

بعد هزيمة الرومان بسواحل دريبان استعاد القرطاجيون سيادتهم على البحر، في حين هيمنت أجواء توصف بالرعب أرجاء العاصمة الرومانية الأمر الذي انعكس على المشهد السياسي هناك، لتجد العائلات المحبة للسلام الفرصة المناسبة لاستعادة سيطرتها ونفوذها على مجلس الشيوخ، فتشكلت ثلاث حكومات قناصل من هذه العائلات، إلا أن الشعب الروماني وخاصة أولئك الذين كانوا يرغبون في السيطرة على صقلية، لم تكن تجد مبررا لتلك الهزائم الأخيرة، أما القرطاجيون وكعادتهم لم يحاولوا استثمار انتصارهم ودعم قواعدهم من أجل العمل على طرد الرومان من الجزيرة، وهنا يمكننا أن نتساءل هل كانت الأقلية الحاكمة في قرطاج هي التي لم تول اهتماما وعناية كافية لأمر الهيمنة على جزيرة صقلية؟ وفي الحقيقة لو أن الحكومة القرطاجية كانت مقتنعة بالأهمية الكبرى للجزيرة مثلما كان ينظر إليها الرومان خاصة بعد هزيمة دريبان، لاتخذت الحرب هنالك مسلكا آخر¹.

وعلى عكس لقرطاجيين ظل الرومان متشبثين بوجودهم في صقلية، فقد استولوا ومن خلال جيوشهم البرية على جبل إيريكس (Eryx)، كما عسكروا بقواتهم أمام مدينة دريبان. ورغم التفوق البحري للقرطاجيين إلا أنهم لم يستفيدوا من ذلك سوى في تخريب بعض السواحل الرومانية، ويبدو أن الحكومة القرطاجية قد أهملت في هذه الفترة الحاسمة تعهد أساطيلها البحرية وبدت قرطاج متعبة مثل روما وغير قادرة على القيام بعمليات حاسمة².

وإذا ما بحثنا في ظروف القرطاجيين لالتمسنا لهم بعض العذر في إهمالهم لجزيرة صقلية، ولوجدنا أن البونيين في تلك الظروف قد جهزوا حملة يقودها حنون الرب (Hannon le Rab) نحو الأراضي الليبية وتحديدًا في عمق المناطق النوميديّة، وقد نجح هذا القائد في إخضاع هيكاتومبيلوس (Hecatompylos) سنة 247 ق.م أو تبسة الحالية، وكانت قرطاج في هذه الفترة مثل روما تعاني من مشاكل مالية وكان عليها أن تتدبر مصادر مالية بعد هذه النشاطات

¹ فرانسوا دوكريه، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 165.

² ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 87.

الحربية المتواصلة في صقلية وفي إفريقيا. وتحدثت المصادر عن محاولة اقتراض قرطاج أموالاً من بطليموس في مصر (Ptolémée)، وهي محاولة لم توفق فيها العاصمة البونية. وقد عادت القوتين المتوسطيتين إلى انشغالاتها الحربية في المناطق التي كانتا تنشطان فيهما قبل حرب صقلية، وهما إيطاليا بالنسبة لروما وإفريقيا بالنسبة لقرطاج، واقتصر الأمر على بعض المناوشات بينهما هنا وهناك، وقد حاولت العاصمتان الاتفاق على معاهدة بينهما سنة 247 ق.م لكن هذا المسعى لم يوفق رغم نجاح مسعى تبادل الأسرى بينهما¹.

عادت السيطرة القرطاجية على البحر من جديد وعمل البونيون على إرهاب الرومان واستنزاف قواتهم من خلال مضايقة ومناوشة فرقهم العسكرية على الأرض، ومنع الامتدادات عنهم عن طريق البحر. كانت استراتيجية قرطاج في الحرب في هذه الفترة تعتمد الحرب الأقل كلفة، ومع وجود قائد قرطاجي بارع يحافظ على إدارة العمليات الحربية في صقلية وهو أذربعل فإن الوجود العسكري القرطاجي تدعمه بقائد شاب يدعى هاميلكار بن حنبعل².

كان هاميلكار من عائلة برقة ويبدو أنه تقلد قيادة العمليات القرطاجية في صقلية، وقد وصف بوليبيوس خلال تعليقه على نتائج الحرب البونية الأولى هذا القائد قائلاً: "يعد هاميلكار برقه أفضل القادة من حيث الذكاء والجرأة، وهو والد حنبعل الذي سيواصل الحرب ضد الرومان". ولكن تلك المواهب على ما يبدو لم تحسن قرطاج استغلالها حين كانت منشغلة بحروبها في إفريقيا، لذلك لم تمده بالقوات اللازمة³ سواء من الفرق العسكرية أو من السفن ليتمكن من خوض معركة برية فاصلة في صقلية أو ليحول إغاراته الخاطفة على الشواطئ الإيطالية إلى غزو أكثر فعالية⁴. (أنظر الملحق 16 صور)

وقد قاد هاميلكار غزوات تدميرية على الشواطئ الجنوبية لإيطاليا حتى مدينة كومي (Cumes)، وكان يدخل في اشتباكات متواصلة مع الفرق الرومانية في صقلية، فهاجم جبل

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 246.

² - Ibid.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 265-266.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 260.

هيريكتي (Heiricte)،¹ جبل بيلليغرينو (Pellegrino) حالياً، واستعداد بعد معارك ضارية مدينة إيريكسي (Eryx) أو إيريس (Erice) الحالية المشيدة على منحدرات الجبل الذي تحمل اسمه، دون أن يتمكن من تخطيط القوة الرومانية المعسكرة في قمته، أين كان ينتصب معبد أفروديت الإيريسية (Aphroudite Erycine) الشهير، وبذلك استطاع هاميلكار تأسيس نقاط إرتكاز قوية في قلب المناطق المعادية، بهدف حماية قاعدة "درييان" الكبيرة والتي كانت لا تزال محاصرة هي و ليليي. بذل القائد القرطاجي جهداً معتبراً خلال الست سنوات التي قضاها في صقلية رغم أنه لم يزود سوى بأسطول صغير يضم بضعة عشرات من السفن، وذلك لأن قرطاج ولأسباب اقتصادية نزغت السلاح من Iسم كبير من أسطولها البحري، ومع ذلك لم يتوقف القائد البرقي عن ضرب الفرق الرومانية الموجودة أمامه في جميع أرجاء جزيرة صقلية².

من خلال تواجده مع عساكره بجوار جبل إيريكس حاول هاميلكار برقة فك الحصار عن دريان، ورغم أن الجنود الذين كانوا معه لم يكن قادراً على تأمين أقواتهم ولا دفع أجورهم إلا أنهم كانوا يحبون العمل تحت إمرته، كما كانوا يطمئنون لعوده، ومع ذلك لم يستطع في نهاية الأمر أن يجبر الرومان على فك حصارهم عن دريان، ولا أن يستولي على معبد أفروديت في قمة الجبل³.

3- بناء الرومان أسطول جديد وانتصارهم على القرطاجيين

وفي تلك تلك الأثناء من سنة 242 ق.م تغلب الرومان على مشكلة عجز الخزينة الذي يسبب عجزاً في تأمين نفقاتها الحرب وبناء أسطول جديد، وذلك باللجوء إلى التبرعات الخاصة⁴ أو الاقتراض من بعض المسيورين في روما الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية بناء السفن وتجهيزها على حسابهم، على أن يتقاضوا أموالهم بعد الانتصار⁵، وهو الأمر الذي مكن الرومان من الحصول على مائتي (200) سفينة حربية. وفي المقابل قررت قرطاجة الاقتصاد في النفقات بسحب

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 247.

² - فرانسوا دوكره، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص166.

³ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص88.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص260.

⁵ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص88.

الجانب الأكبر من أسطولها، وتسريح رجاله، وتبعاً لذلك عندما تم بناء الأسطول الروماني وذهاب في صيف عام 242 ق.م ليضيق الحصار ويزيد الخناق على ليليبي ودربيان من ناحية البحر، فقد عجزت قرطاجة عن إعداد أسطولها لينجد هاتين المدينتين ولم يتسن لها سو إرسال نجدة بحرية صغيرة¹.

أُسندت قيادة تلك القوة البحرية القرطاجية إلى قائد يدعى حنون، وفي ربيع سنة 241 ق.م اتجهت هذه القوة إلى جزر إيجات (Aegates) أين توقفت للراحة، ثم إتجهت نحو جبل إيريكسي، ورغم الرياح المعاكسة تقدمت السفن الرومانية لمواجهة القرطاجيين في البحر بجرأة عالية، وكان البحارة الرومان قد اتسع لهم الوقت ليتدربوا، بينما القرطاجيون الذين جُندوا حديثاً لم يكونوا على مهارة كافية، كما كانت السفن البونية محملة بالأثقال من المؤن التي كان يحملها القرطاجيون لجيوش صقلية، وفي معركة سريعة أُغرق الأسطول القرطاجي، واستولى الرومان على عدد كبير من سفنه أما حنوى فكان مصيره الصلب جراء هزيمته².

ويبدو أن قرطاجة في حقيقة الأمر قد فوجئت بقدوم القوات البحرية الرومانية إلى جزيرة صقلية بعد قطيعه طويلة من طرف الرومان للنشاط البحري، لذلك أرسلت قواتها البحرية على عجل بقيادة حنون و كانت خطة البونيين تقضي أن تصل القوة البحرية إلى جبل إيريكس وتلتقي بقوات ها ميلكار برقه ومن ثم يتوجهون معاً لمحاربة الرومان، إلا أن أعداءهم استبقوا ذلك اللقاء وقام الأسطول الروماني بقيادة القنصل الروماني لوتاتيوس كاتولوس (Lutatius Catulus) بقطع الطريق عن القرطاجيين في عرض البحر، ووقعت المعركة التي هزم فيها القرطاجيون والتي كانت بمثابة كمين وقع فيه البونيون، وقد أسفرت نتائج المعركة عن غرق خمسين مركباً بونيا، واستيلاء الرومان على سبعين (70) آخرين، وأسروا حوالي عشرة آلاف من الجنود القرطاجيين، أما بقية الجنود الذين فروا فقد نجحوا في الوصول إلى قرطاج³.

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 260.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 88-89.

³ - Khaled Melliti, op.cit, Melliti, p 248.

أدرك القرطاجيون أنه لم يعد هنالك أمل في انقاذ ليليبي ودريبان، وأنه بإنكسار أسطولهم أصبحت الطريق سالكة بالنسبة للرومان لغزو إفريقيا مرة ثانية،¹ وعلى الرغم من أن حاميات ليليبي ودريبان وحتى إيريكس كانت لا تزال بكامل قوتها، وظلت محافظة على معنويات عالية وكانت تعول على مواصلة المقاومة.²

إلا أن الحكومة القرطاجية أعطت لهاميلكار برقه (Barca) جميع الصلاحيات للتفاوض مع القنصل لوتاتايوس كاتولوس الذي كان في آخر عهده، وكان يريد أن يخص نفسه يشرف انهاء الحرب التي طال أمدها، وقد قبل هاميلكار برقه جميع شروطه إلا شرطا واحدا كان مهينا بالنسبة اللبونيين، لذلك تخلى عنه لوتاتايوس وهو نزع السلاح من أيدي الجنود أبطال هيركتي وإيريكس واكتفى مقابل ذلك بأخذ إتاوة ثمانية عشر داققا (Deniers) على كل شخص منهم، وقد تأخر إتمام الصلح لأن رومه وبعد الاطلاع على الشروط المتفق عليها وجدت أن القنصل لوتاتايوس لم تكن شروطه قاسية بالقدر الكافي، لذلك أرسلت بعض المندوبين لبحث الأمر.³

وبعد الإضافات التي قدمها مندوبو مجلس الشيوخ الروماني، وقع هاميلكار على معاهدة السلام والتي عرفت بمعاهدة سنة 241 ق.م، والتي تضمنت تخلي القرطاجيين عن صقلية، وجميع الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا جزر لياري (Lipari)، وأن يعيدوا إلى روما دون مقابل جميع أسراها، وأن لا يحاربوا السيراكوزيين وحلفائهم، وأن يدفعوا غرامة حربية قدرها ثلاثة آلاف ومائتي (3200) تالنت⁴ وهو ما يساوي حوالي ثلاثة أرباع مليون جنيه إسترليني، على أقساط سنوية لمدة عشرين سنة،⁵ كما أضيفت أيضا شروط أخرى ثانوية تحصى حلفاء الجانبين، ومسألة منع تجنيد المرتزقة.⁶

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 260.

² - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 167.

³ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 83.

⁴ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 168.

⁵ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 260.

⁶ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 168.

كانت الحصيلة ثقيلة على قرطاج وإذا ما تقبلنا دون تردد عدد السفن التي خسرتها قرطاج خلال هذه الحرب، والذي يقارب الخمسمائة (500) سفينة، فإن ذلك حتما كان يتبعه رصد ميزانية ضخمة تم إنفاقها خلال تلك السنوات، خاصة وأننا نعلم أن قرطاج عاشت أزمة اقتصادية خانقة بعد خسارتها جزيرة صقلية بعد سنة 241 ق.م، وهي التي أشار إليها بوليبيوس وأكدتها الدراسات الخاصة بالمسكوكات القرطاجية في "تلك الفترة". أما بالنسبة للسيناتورات القرطاجيين الذين اختاروا الاستسلام مقابل أمل في الحفاظ على رفاهيتهم، فقد خرجوا مفلسين بعد هذه المغامرة، كما تعاظمت بعد ذلك مشاكلهم المالية بمرور الوقت ولا نعلم تحديدا إن كانوا قد شعروا بالعار بعد ذلك¹.

أما الرومان فبعد ثلاثة وعشرين سنة (23) من الحرب بينهم وبين قرطاج (241-264 ق.م) فقد أثبتوا مدى صلابة دولتهم ومدى قوة علاقاتهم مع حلفائهم²، وعموما فإن الحصيلة النهائية للحرب البونية الأولى بالنسبة للرومان لا تبدو مرضية بشكل تام، فالحسائر المسجلة خلالها وصلت إلى سبعمائة (700) سفينة، وميزانية الدولة عرفت تراجعاً كبيراً، غير أن تعويضات الحرب غطت عجز الميزانية والغنائم أغنت كل المقاتلين، كما أن إلحاق جزيرة صقلية ستعود على الرومان بالكثير من الموارد المادية³.

لقد تحولت روما بعد هذه الحرب إلى قوة بحرية وأصبح متوجبا عليها إدارة قطر جديد وهو صقلية، والذي سيتم إدماجه في الجسم الإيطالي. لقد أصبحت روما تملك مناطق خارج محيطها الإيطالي أو إن صح التعبير مناطق فيما وراء البحار (oultre-mer) والتي يجب عليها تأمينها ومراقبتها من خلال إيجاد وسائل لذلك. أما على مستوى الأرباح والحسائر فيمكن القول أن روما عرفت ثراءً معتبرا في أعقاب هذه الحرب، فبالإضافة إلى الضريبة الحربية التي سلطتها على قرطاج حصلت على غنائم أخرى من صقلية: خمسة وعشرين ألفا (25000) من العبيد من أجريجونت،

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p104.

² - Jean-Pierre Martin, Alain Chauvot et Mireille Cébeillac-Gervasoni, Histoire Romaine, Armand Colin Editeur, Paris, 2019, p74.

³ - Yann le Bohec, op.cit, p 104.

وسبع وعشرين ألف (27000) آخرين من بانورموس (Palerme) وعشرة آلاف (10000) من جزر ليباري¹.

ومن الناحية السيكلوجية تشكل لدى الأرستقراطيين والعوام الرومان على السواء شعور جديد بالقوة والعظمة، فهم ولأول مرة قاموا بغزو مناطق خارج إيطاليا، وقد تحدثت المصادر على أن صقلية تحولت إلى أول مقاطعة رومانية (la première province)، وهذا في الحقيقة غير صحيح فالمقاطعة الرومانية لم تكن تشمل سوى الجزء الغربي من الجزيرة، وقد تم إسناد إدارتها المالية إلى كويستور (Questeur) يقيم في مدينة ليليبي، كما أن ثلاثة مدن ظلت تتمتع بالحرية وهي سيجيسته (Segeste) باليرمو (Palerme) وسونثيريا (Centuripae) ومدينتين أخريين حظيتا بإطار مدن حليفة وهما ميسينا (Messine) وتازورمينا (Tasormina)، أما بالنسبة لمملكة سيراكوز فقد حافظت على إستقلالها الذاتي وكذلك على ملكها هيرون، وهو أقل ما يمكن لروما فعله لتكافئها على وفائها².

لقد شجع كل هذا روما على التطلع إلى بناء إمبراطورية لها خاصة وأن الأحداث الأخيرة أثبتت قدرتها على التعلم من أعدائها ما كانوا يتفوقون به عليها، كما أن مقاتليها أثبتوا تفوقهم على المرتزقة. أما نظام الحكم الذي اعتمدته في شبه الجزيرة الإيطالية فقد ظهر تفوقه ونجاحه بدليل بقاء حلفائها على ولائهم لها وثباتهم على الوفاء بالتزاماتهم على الرغم من كل ما تحملوه من خسائر فادحة على مدى سنين طويلة من القتال المريع³. أما أهم المتغيرات التي أسفرت عنها نهاية الحرب البونية الأولى فهي أن ميزان القوى البحرية قد تغير في غرب المتوسط، وأن قوة متوسطة جديدة ظهرت منذ سنة 241 ق.م، بل يمكن القول أن إمبراطورية بحرية جديدة قد ولدت هي إمبراطورية الرومان، ولم تعد قرطاج منذ ذلك التاريخ سيدة غرب المتوسط⁴.

¹ - Jean-Pierre Martin et autres, op.cit, p 74.

² - Yann le Bohec, op.cit, p104.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 261.

⁴ - Yann le Bohec, op.cit, p105.

الفصل السادس

الحربان البونيتان الثانية والثالثة ونهاية الصراع

في حوض المتوسط

- I فترة ما بين الحربين الأولى (241-218 ق.م)
- II البونيون في شبه جزيرة إيبيريا
- III الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م)
- IV أحداث النصف الأول من القرن الثاني ق.م واندلاع الحرب البونية الثالثة

I- فترة ما بين الحربين الأولى (241-218ق.م):

1- تمرد المرتزقة والسكان الأفارقة على قرطاج

لا يمكن الحديث عن فترة ما بين الحربين البونيتين الأولى والثانية دون الحديث عن انعكاسات الحرب البونية الأولى على كلتا الدولتين الرومانية والقرطاجية، وبما أن الرومان خرجوا منتصرين من الحرب البونية الأولى فإن ارتدادات الحرب كانت سلبية على القرطاجيين إن لم نقل كارثية في السنوات الأولى التي تلت نهاية الحرب، تلك الانعكاسات التي كانت في البداية اقتصادية لكنها سرعان ما تحولت إلى انعكاسات سياسية وعسكرية واجتماعية فالأوليغركيا الحاكمة في قرطاج لطالما سعت إلى إنهاء الحرب بداعي تكلفتها المادية الباهضة على ثروة الدولة.¹ هذه الفئة الضيقة الأفق التي أدت سياستها إلى ضياع القبضة البحرية من القرطاجيين بسبب حساباتها الدقيقة بين أرباح وخسارة كل عملية حربية كانت تخوضها جيوش الدولة، وكأنها في نظرهم صفقة تجارية.² وكما سبق ذكره فإن قرطاج حاولت تأمين قرض من بطليموس الثاني (Ptolémée II)، إلا أن هذا الأخير رفض متذرعاً بأنه لا يريد أن يبقى على مسافة من الفريقين المحاربين، وبما أن معاهدة السلام مع روما فرضت على القرطاجيين دفع ألف تالنت فوراً من مجموع الغرامة الحربية، وبسبب الظروف المالية الصعبة التي كانت تمر بها قرطاج، فإن أول قرار اتخذته بعد الحرب هو تأجيل دفع رواتب ومكافآت الجيوش المرتزقة الذين كانوا يحاربون إلى جانبها في صقلية، وهو الأمر الذي أدخل القرطاجيين في حرب شرسة وثورات محلية دامت أكثر من ثلاث سنوات، ألحقت الدمار بالأرض القرطاجية وأوشكت أن تأتي على الأخضر واليابس في هذا الكيان البوني.³

وفي حقيقة الأمر نكأت الحرب البونية ونتائجها المزيد من جراح الدولة القرطاجية وضاعفت من تدهور أوضاعها الاقتصادية والعسكرية وكأن قرطاج تدفع من خلال ما سيأتي من أحداث ثمن

¹ فرانسوا دوكريه، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 171.

² ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 261.

³ فرانسوا دوكريه، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 171.

تھاوتھا وتقاوعسھا في إنهاء الحرب لصالحھا، لتجد نفسها في معترك حرب جديدة أطلق علیھا بوليبيوس تسمية الحرب الإفريقية (la Guerre d'Afrique) أو الحرب الغير المبررة (la Guerre inexpiable) وهي حرب وجدت قرطاج نفسها مجبرة علی إخمادھا بسبب الرواتب المستحقة لفرق مرتزقتها، وكذلك بسبب التسيير السيئ لميزانية الدولة¹.

لقد فرضت معاهدة السلام التي وقعھا لوتاتيوس (Lutatius) وهاميلكار برقة سنة 241 ق.م علی البونيين انسحاب كل الفرق التابعة لهم من صقلية إلى خارجھا، مع منع أي نقل لهذه الفرق من مكان إلى آخر داخل الجزيرة، وقد أوكلت قرطاج هذه المهمة إلى جيسكون (Gisco) قائد حامية ليلي في صقلية،² وهو الذي كان يربط في الجزيرة مع ما يقارب العشرين ألف محارب كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تسدد لهم الحكومة القرطاجية رواتبهم المختلفة. وقد وجد كثير من هؤلاء الذين كان غالبيتهم من المرتزقة أنفسهم مقابل مستقبل غير آمن، كما أن عملية التسريح لم تكن مطمئنة لهم، وكان من بينهم المرتزقة الليغوريون (Ligures) والإيريون (les Iberes)، والغالليون (les Celtes) والبالاريون (les Baléres) إضافة إلى المرتزقة النصف إغريقين، كما يسميهم بوليبيوس، أما القسم الأكبر منهم فكان من الليبيين الخاضعين لقرطاج، وكان قسم منهم لا يعد من المرتزقة إذا كانوا قد انخرطوا في الجيش البوني أو جندوا بالقرعة³.

أما بالنسبة للتعاقد مع فرق المرتزقة فكان الاجراء المتبع في تلك الفترة، هو أن يتعهد هؤلاء المرتزقة بتعريض حياتهم للخطر في إطار عقد مكتوب يحدد فيه الراتب والمنح التي ستدفع إلى الأبناء الأيتام المحتملين، كما يتعهد فيها المستخدم هؤلاء المقاتلين بتزويدهم بالقمح والنبيد أو تعويض ذلك نقدا إن لم يستطع إحضارھا، وهذا الاجراء الثاني أي الدفع نقدا هو ما كان علی ما يبدو قد تم اعتماده من طرف الحكومة القرطاجية خلال حربھا في صقلية الأخيرة، غير أن الأزمة الاقتصادية التي اتسمت بها السنوات الأخيرة من الحرب، عَقَّدَت العلاقة بين قرطاج ومرتزقتها من

¹ - Yann le Bohec, op.cit, pp107-108.

² - Khaled Melliti, op.cit, p153.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص ص171-172.

خلال الإخلال ببعض البنود المتفق عليها، والمتعلقة بالدفع في الآجال، رغم أن قرطاج ضربت سنة 241 ق.م عملة ذهبية لدفع جزء من تلك المستحقات، وهو ما ساهم في انهاك الميزانية العامة، ومع ذلك لم يكن ذلك الاجزاء كافيا لمنع إندلاع تمرد عام في قرطاج¹.

ومحاولة لتجنب وقوع تمرد كبير في العاصمة البونية قرطاج وكذلك لأسباب تقنية اختار جيسكون إرسال فرق المرتزقة عبر مجموعات صغيرة إلى مدينة سيكا فينيريا (Sicae Veneria) الواقعة على بعد مائتي (200) كلم عن قرطاج، وذلك أملا في أن يكون للحكومة القرطاجية فسحة من الوقت للتفاوض بشكل أفضل مع هؤلاء المرتزقة، ومن ثم تدبر أمر الأموال المستحقة. كان اختيار مدينة سيكا أو الكاف (Kef) الحالية من تخطيط القائد حنون الكبير أو حنون الرب، ويعود هذا الاختيار في الحقيقة إلى عدة عوامل استراتيجية أولها أن هذه المدينة لطالما كانت نقطة ارتكاز عسكرية بونية في العمق النوميدي، فهي بمثابة مدينة الفرق العسكرية المتوجة نحو الجنوب الغربي لقرطاج، وهي رمز من رموز الهيمنة البونية باتجاه الداخل النوميدي الليبي. كانت الحكومة القرطاجية تنوي في الواقع إعادة استغلال هذه الفرق من المرتزقة في هذا المضمار، ومواصلة حملة حنون الكبير على مدينة هيكاتومبيلوس سنة 247 ق.م، ولهذا الأسباب قبلت عائلات المرتزقة مرافقة البونيين إلى هذه المدينة، غير أن ما غاب عن حسابات القرطاجيين هو أن هذه الفرق التي لم تهزم في الحرب، وهي المحبطة بسبب إيقاف قرطاج الحرب في الوقت الذي كانت الحكومة القرطاجية تملك الوسائل اللوجستية لمواصلتها، يمكن أن تشكل لتهديدا حقيقيا للعاصمة البونية على المدى القريب².

قَدِمَ حنون الكبير إلى سيكا وكان يتصرف كأنه الحاكم العسكري للمناطق الإفريقية التابعة لقرطاج، وخاطب الجنود المرتزقة مدعيا أن العاصمة تمر بمشاكل مالية مطالبا إياهم أن يتنازلوا عن جزء من مستحقاتهم المتفق عليها، إلا أن قادة المرتزقة وبنية مبينة منهم نقلوا لجنودهم، الذين لا يفهمون اللغة البونية، وبشكل محرف ما قاله حنون الكبير، فعم بذلك الهيجان والاضطراب، ونقل

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p 108.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 254.

الجنود معسكرهم من سيكا إلى مشارف مدينة تونس مدفوعين بتحريض من قادتهم، وحينها أدركت قرطاجة حجم الخطر الذي صار يهدد كيائها، وبحثا عن مخرج من هذه الأزمة حاول عدد من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي إيجاد سبيل إلى التهدئة، فبدلوا من أجل ذلك الوعود إلى هؤلاء الجنود، وأقاموا لهم أسواقا يشترون منها حاجاتهم بالسعر الذي يرونه مناسباً لهم، ومع ذلك تمادى هؤلاء الجنود في اختلاق شروط جديدة، إذ طالبوا بتعويضهم فضلاً عن رواتبهم، عن جيادهم التي نفقت خلال الحرب في صقلية، على الرغم من أن الدولة هي من تضمن الخيول للفرسان المقاتلين بعد تجنيدهم¹.

كما طالبوا الحكومة أيضاً بتعويض عن القمح الذي تم استهلاكه خلال فترة الحرب. كان عدد هؤلاء المرتزقة يقارب العشرين ألفاً (20000)، ويبدو أنه حين تعالت المطالب، وأعلن العصيان انضم عدد كبير من الليبيين لهذه الثورة، بعض هؤلاء الليبيين كانوا يعملون في الجيش القرطاجي بصفاتهم رعايا قرطاجيين، وآخرين كانوا يتقاضون رواتباً مقابل خدمتهم، وفئة أخرى منهم كانوا يحاربون مع قرطاجة بصفاتهم حلفاء، يضاف إلى كل ذلك تملل الليبيين ورفضهم للهيمنة والقبضة التي كانت تمارسها قرطاجة عليهم، من أوجه ذلك أن الشباب الليبي كانوا يؤخذون من القبائل، ويتم تجنيدهم كمساعدين في العمليات الحربية التي لم تكن تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد، كان الفلاحون الليبيون يمنحون نصف محاصيلهم للدولة، كما أن المدن كانت تدفع ضرائب خاصة، بعض هؤلاء الليبيين كانوا يدفعون مواطنيهم باتجاه حمل السلاح ضد قرطاج وكانوا يؤيدون صراحة تمرد فرق المرتزقة².

حاول جيسكون استدراك الوضع من خلال دفع رواتب الجنود المرتزقة بنفسه، محاولاً - وهو الذي كان لا يزال يخطئ بثقة الجنود القدامى - إعادة التأثيرين إلى صوابتهم ودعوتهم إلى الثقة بحكومة قرطاجة، ولكن إثنين من مثيري الشغب بين المتمردين سعوا إلى عدم وقوع مصالحة مع قرطاج من خلال التحريض ودعوة الجنود إلى التمرد وعدم الثقة في السياسة الرعناء للدولة

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 172-173.

² - Yann le Bohec, op.cit, pp108-109.

القرطاجية، أحد هذين الاثنين والأكثر خطرا كان يدعى سبونديوس (Spendios) نصف إغريقي من أصل كمباني وهو عبد فار من سيده، لاجئ في هذا المعسكر¹ مخافة تسليمه إلى سيده ثم تعذيبه وقتله بحسب القوانين الرومانية، ولذلك لم يكن له أي مستقبل ولا أمل في حياة السلم، ومع ذلك قال عنه بوليبيوس أنه كان قويا وشجاعا، ولم يكن مستكينا كما وصفه الكاتب الفرنسي فلوبار (Flaubert) وهو بذلك على تباين تام مع الناصر الآخر المقدام ماتوس (Mathos)، وهو يمثل إضافة تكتيكية حقيقية بالنسبة للمتمردين، وقدرة فائقة على الفصاحة وحسن الخطاب، وهو ما ينفذ البرابرة الثوار المحيطين به. لم يجد سبونديوس صعوبة في إقناع ماتوس أحد قادة الليبيين الكبار وذلك لاشتراكهم في نفس القضية ونفس الغاية².

كان ماتوس أحد المحرضين الكبار على الثورة ضد قرطاج، لذلك كان يخشى أن يقع في أيدي القرطاجيين إذا ما انجلت هذه الأزمة، وقد خاطب الأفارقة منذار إياهم ثار البونيين منهم إذا ما عاد المرتزقة الأورييون إلى أوطانهم ومعهم أموالهم، وأن البونيين إذا ما عاقبهم سينشرون الرعب في جميع أرض إفريقيا وبذلك استطاع استثارة غضب مواطنيه، وبما أن جيسكون لم يدفع للجنود المرتزقة سوى الرواتب المستحقة وأجل دفع ثمن الخيول والقمح، فإن المقاتلين المأجورين عقدوا اجتماعا لتقييم الموقف، وبما أن كل من سبونديوس وماتوس هما من كانا يترأسان الاجتماع، فقد سارت الأمور بنوع من العنف ضد كل من يفتح فمه ليتدخل ويدلي بدلوه من الجنود والقادة، وقد قتل عدد من أولئك المتدخلين بسبب الطريقة العنيفة التي كانت تجري عليها الأمور، وبعد أن لم يعد أحد يجرؤ على أخذ الكلمة، تم انتخاب ماتوس وسبونديوس قائدين لتلك الجموع³.

لم تعد هذه الحرب التي توشك أن تندلع تسمى "بحرب المرتزقة" فقط، بل أصبح ممكنا تسميتها بالحرب الإفريقية، وذلك لأن ماتوس ومن كان يشاركه قيادة التمرد سعوا إلى تعميم هذا العصيان إلى أرجاء ليبيا كلها، فقد راسلوا المدن الرئيسية في نوميديا يدعونهم إلى انضمام للثورة

¹ - Serge Lancel, Hannibal, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1995, p28.

² - Ibid .

³ ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص97.

على الحكومة القرطاجية، وسرعان ما تفشى التمرد والعصيان بسرعة في كافة الأرض التابعة لقرطاجية، وربما يكون سبب استجابة الأهالي هو استغلال مواردهم المالية بشكل متعسف من طرف القرطاجيين منذ بداية حرب صقلية. كان الأهالي في إفريقيا يدفعون ثمن حروب البونيين الخارجية، فمنذ الاحتلال الذي سببته العمليات الحربية الرومانية في إفريقيا بقيادة ريغولوس زاد مستوى الغضب والحق الذي أدى هذه المرة إلى انفجار العامية الإفريقية (Facquerie)¹.

وفي هذا الصدد يقول بوليبيوس: "لقد وقف معظم الأهالي إلى جانب المرتزقة وشاركوا في هذه الانتفاضة ضد قرطاجية، آملين في التخلص من سيطرتها وهيمنتها عليهم و أخذوا يمدون المتمردين بالتعزيزات والمؤن [...]"²، أما النساء اللواتي أمضين سنوات الحروب السابقة وهن مقهورات من جراء اعتقال أزواجهن أو آبائهن بهدف دفع الضرائب، فقد تعاهدن فيما بينهن وفي كل مدينة على المشاركة في هذه الأحداث، وأن لا يخفين أي شيء يملكه، لذلك تنازلن دون تردد عن كل ما بحوزتهن من مجوهرات لتغطية نفقات الحرب بشكل دائم"³ وبذلك استطاع ماتوس وسبونديوس تسديد رواتب الجنود الثائرين كما وعدوهم، كما تمكنا في نفس الوقت من التغلب على النفقات الضرورية للحرب⁴.

بالنسبة للأفارقة وبعيدا عن كون ثورتهم وتمردهم عن قرطاج ثورة اجتماعية أو مطالب متعلقة بالهوية، فإن العصيان الإفريقي منتشيا بنجاحاته الأولية من حيث التنظيم والعدد والموارد طور فكرة الحصول على كيان سياسي، ويتوضح ذلك من خلال ضرب الأفارقة لعمله خاصة بهم، عليها الهوية الليبية "AIBΩ N" نقشت باللغة الإغريقية، وقد فسر الباحثون استعمال الإغريقية لكون الثوار من جهة كانوا يريدون دعاية أفضل لوضعيتهم السياسية الجديدة في إفريقيا، ومن جهة أخرى لكون هذه العملة سيتم استعمالها في التبادلات التجارية مع صقلية الشرقية، جنوب إيطاليا

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجية أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 173.

² - Polybe, op.cit, I, 70.

³ - Ibid, p 72.

⁴ - فرانسوا دوكريه، قرطاجية أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 174.

وكذلك مع الجارة قورينة (Cyrenaïque)، ومن هذه المناطق كان المرتزقة يعولون على تأمين التمويل الغذائي والعسكري، وكذلك جلب مرتزقة آخرين لدعمهم¹.

نقش على العملة الإفريقية المضروبة صورة هيراقليس (Hérakles) والأسد، وهي تُذكرُ بحادثة قتل نصف الإله الإغريقي هيراقليس الأسد نيمي (Némée) أحد أحياء البيلوبونيز ولكن يمكن أن يكون لهذه الصورة تفسيراً آخر، لأن الأسد في الحقيقة كان يمرر إلى إفريقيا وإلى الشجاعة، ومن ثم كان الليبيون يظهرون إرادة حادة في التحرر والاستقلال، كانوا يأملون في الوصول إلى إنشاء دولة. كانت الصورة الرمزية التي اختارها الأفارقة على عملتهم تبين حدود المظهر الوطني لهذه الحركة الثورية، لأن الإله الذي تم إختباره لم يكن محلياً لكنه إما إغريقياً أو فينيقياً، فهو هيراقليس أو ملقرت (Melqart)، فالباحثون الذين يعرفون جيداً هذه التركيبات الدينية المقدسة المعمول بها قديماً منحوها مصطلح تمازج الديانات "Synchrétismes" فالليبيون كانوا قد أُشربوا من البونيين تأثيرات دينية ومن ثم بسكولوجية (Psychologiques)، هؤلاء البونيون الذين كانوا هم أنفسهم قد تأثروا بممارسة دينية هيلنستية، وهو ما يعني أنهم قد أخذوا كماً من الميثولوجيا (Mythogïe) الإغريقية، كما أن التمازج الديني كان يزداد في تلك الفترة في التفكير الجمعي لتلك الشعوب².

انظم إلى ماتوس وسبونديوس سبعين ألفاً (70000) من الليبيين، وحين عزموا على التحرك قسماً قوائهما، فذهب جيشان لمحاصرة مدينة أوتيكا (Utique) وبنزرت (Bizerte) اللتان ظلتا على وفائهما لقرطاجة، وبقيت فرق تسيطر على معسكر تونس والتي تعزل قرطاجة عن بقية أرجاء البلاد الإفريقية، بل أن المتمردين كانوا يقتربون حتى من أسوار المدينة في الليل أو في النهار، الأمر الذي يحدثون من خلاله الرعب بين سكان العاصمة. كان القرطاجيون وخاصة الفئة الحاكمة يأملون في أن يصلحوا أحوالهم في وقت السلم خاصة بعد تلك الحرب الطويلة التي انتهت نهاية سيئة عليهم، أما الآن فأصبح الخطر لا يهدد ممتلكاتهم البعيدة، بل صار يهدد كياناتهم ووطنهم، أما تلك المنتجات التي كانوا يحصلون عليها من الأرياف المجاورة للعاصمة، والتي كان منها طعامهم

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 257.

² -Yann le Bohec, op.cit, pp109-110.

وكذلك العائدات التي كانت تدرها عليهم إمبراطوريتهم الإفريقية والجنود الأجانب الذين كانوا يمثلون عماد جيشهم، كل هذه الخيرات هم محرومون منها الآن، بل إنها انقلبت عليهم، وكذلك فإن مصالح الأسلحة أصبحت شبه فارغة، أما أسطولهم الحربي فقد تحطم أكثر سفنه وليس لديهم في العاصمة إحتياطي من الطعام المخزن، ولا أمل لهم في دعم حليف أو صديق خارجي¹.

عين حنون كقائد أعلى للقوات القرطاجية المجابهة هذا العصيان وقد جمع لذلك جيشا مؤلفا من المرتزقة ومن المواطنين القرطاجيين، ودعمه بعدد كبير من القبيلة قد يصل إلى مائة (100)، وتمكن حنون من فك الحصار على مدينة أوتيكا، غير أن نصره على المتمردين لم يكن حاسما، وسرعان ما اتضح للفئة الحاكمة في قرطاج أن حنون لا يملك الكفاءة اللازمة لإدارة المعارك ضد المتمردين، وهو الذي كان معتادا على إحراز انتصارات سهلة على السكان المحليين، ولذلك تمت إحالته إلى الإحتياط دون غزلة نهائيا من وظيفته، واستدعي لهذا الأمر هاميلكار برقه الذي كان على ما يبدو القائد القرطاجي الوحيد في تلك الفترة القادر على تجنب العاصمة البونية هذا الخطر الداهم².

ولكن قبل أن نسترسل في وصف وتحليل أحداث هذه الحرب، لا بد من التوقف عند بعض المصطلحات التي استعملها المؤرخون في وصف هذا العمل، ومن أهمها مصطلح الثورة (Révolution) خاصة بالنسبة للأفارقة، فهذا المصطلح تم اللجوء إليه حين اتسعت رقعة التمرد في أرض إفريقيا، والذي إستفاد منه المرتزقة اللذين ثاروا على قرطاج³. وهذا المصطلح يظل في الحقيقة مصطلحا دقيقا، وذو معنى معبر ولا يمكن استخدامه في هذه الحالة، أين لا تتوضح أهداف سياسية، وإن ظهرت فهي متأخرة بعد اندلاع هذا التمرد، كما أنه لا شيء يثبت أن أولئك المتمردين كانوا قد هيأوا وحضروا استراتيجية سياسية واضحة⁴.

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، صص 98-99.

² فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 174.

³ - Gibert Picard, Hannibal, Hachette, Paris, 1967, p70.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, p 31.

2- هاميلكار برقه يقود الحرب ضد المتمردين

ظهر من جديد على المشهد العسكري القرطاجي هاميلكار برقة الذي كان مهماً منذ سنة 241 ق.م، فقد أدرك مجلس الشيوخ القرطاجي أهمية هذا القائد جراء النتائج المخيبة التي أسفرت عنها عمليات حنون الكبير¹، ولم يكن تحرك مجلس الشيوخ ليحدث لولا غضب المواطنين في قرطاج من نتائج أعمال حنون، ولذلك تم تسليم سبعين (70) فيلاً لها ميلكار برقة، وجيش من المشاة والفرسان الذين تم تجنيدهم من العاصمة نفسها، وأعداد من المرتزقة الذين تم تجنيدهم، وأعداد أخرى من المرتزقة الذين انفصلوا عن الثائرين فوصل مجموع الجيش الخارج مع هاميلكار إلى حوالي عشرة آلاف (10000) محارب².

كانت التلال الوعرة تمتد خلف البرزخ الذي يصل هضبة قرطاج بالأرض الإفريقية، وكانت تمر بين هذه التلال ممرات هيأها السكان للدخول والخروج منها إلى المدينة، إلا أن رجال ماتوس كانوا قد استولوا على جميع المواقع التي تمكن من غلق هذه الممرات، أما من جهتي الغرب والشمال المحاذية لهذه التلال فيجري نهر مجردة أو بغردا (Bagrada)، وكان هذا النهر يشكل عائقاً آخر للعبور إلى الأراضي الإفريقية، لأن غزارة مياهه تمنع ذلك، أما بالنسبة للجسور التي كان يستعملها البونيون فليس هناك إلا جسر واحد يصل المدينة بالقارة، وقد جعل ماتوس عليه حراسة عظيمة إلى درجة أن معسكرهم كان يشبه إلى حد ما المدينة العامرة، وبذلك كان الحصار مستحكما على العاصمة قرطاج، وكان من المستحيل على أي كان فرداً أو جيشاً أن يغادرها ولا يكشفه المحاصرون للمدينة³.

ويبدو أن هاميلكار بخبرته العسكرية استطاع الخروج من هذا المأزق وإخراج جيشه من العاصمة لمواجهة المتمردين، فقد لاحظ أن نهر مجردة على مستوى مصبه في البحر وخاصة عند هبوب الرياح يمتلئ بالرمال فيتكون على طول البحر حاجز رملي يمكن عبوره بنوع من المخاطرة، ولهذا هيأ جيشه وجعله على أهبة الاستعداد في أي لحظة للتحرك، وبعد انتظار الفرصة المواتية من

¹ - Serge Lancel, op.cit, p34.

² - Polybe, op.cit, I, 75.

³ - Ibid

دون أن يخبر أحدا بالأمر، تحرك بعد ما تم له ما يريد، فغادر مع قواته ليلا من تلك الناحية إلى الجانب الآخر من النهر دون أن ينتبه إليه أحد من الأعداء ليتقدم بعدها مجتازا النهر بجيشه وبهذا العمل الغير متوقع فأجأ هاميلكار سكان المدينة القرطاجية وأعداءه على السواء¹.

حين علم سبونديوس بخبر عبور هاميلكار، لم يتردد في خوض المعركة فتحرك لذلك جيشان أحدهما من عشرة آلاف (10000) محارب، وآخر تجاوز الخمسة عشر ألفا (15000)، قدموا على عجل من جهة الجسر ومن المعسكر القائم أمام أوتيكا، وقاموا بمهاجمة القرطاجيين من خلال خطة تقضى بالإحاطة بهم وسحقهم، وبما أن هاميلكار في بداية سيره جعل الفيلة في مقدمة الجيش تتبعها صفوف الفرسان ثم المشاة الخفاف وفي الأخير وضع المشاة ذوي التسليح الثقيل، فإنه حين رأى حماس الأعداء واندفاعهم بجرأة متهورة².

غير من ترتيب جيشه أثناء سير المعركة، فأمر من كان في الأمام بالتراجع بسرعة إلى الوراء، ومن كان في المؤخرة طلب منهم التحرك لمواجهة المهاجمين، وخلال هذه الحركة ظن المتمردون أن خصومهم قد نال منهم الخوف فاندفعوا نحوهم دون المحافظة على تنظيم صفوفهم، إلا أن المتراجعين من صفوف هاميلكار توقفوا واستداروا حين اقتربوا من المشاة الثقيل، ليواجهوا مطارديهم الذين واجههم المشاة في نظام محكم، وحينها أصيب الثائرون بالذهول من هذه المناورة غير المنتظرة، وبدأوا يفرون ويصطمون مع رفاقهم ويوقعونهم على الأرض، لتدوسهم الفيلة والخيول التي كانت قد بدأت هجومها عليهم³.

أسفرت هذه العملية عن قتل ستة آلاف (6000) من المتمردين وأسر ألفين (2000) منهم، وفر من بقي منهم حيا نحو المعسكر، استولى هاميلكار على جسور مجردة التي تركها المنهزمون ليتجمعوا في مدينة تونس، كما تخلوا كذلك عن حصار مدينة أوتيكا، ولم يتوقف

¹ Polybe, loc.cit.

² - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص ص101.

³ - نفسه، ص ص101-102.

هامليكار برقة بعد هذا الانتصار العظيم بل واصل حملته على العصاة وهو يتلقى خلال مسيره المستلمين له أو يستولى بالقوة على المناطق المحصنة¹.

استطاع هامليكار برقة ربط علاقات صداقة مع أحد الزعماء النوميديين البارزين والذي يحظى بمكانه واحترام بين القبائل المحلية وهو المدعو نافاراس (Navaras)، وقد قدم هذا الأخير مساعدة لهامليكار تمثلت في عدد معتبر من الفرسان وصل إلى ألفي (2000) فارس، وكانت هذه العلاقة قد شكلت هزيمة أخرى للمتمردين الذين استطاع القائد البرقي أسر أربعة آلاف منهم، وقتل عشرة آلاف آخرين، وبفضل سياسته المتسامحة تمكن هامليكار من استيعاب عدد كبير من أسراه الذين طلبوا العودة للخدمة تحت سلطة قرطاج، وأطلق سراح عدد آخر منهم بعد أخذ المواثيق عليهم بأن لا يعودوا لحرب العاصمة البونية².

وقد أدرك قادة التمرد أن هذه السياسة ستكون ذات نتائج خطيرة عليهم، خاصة وأنها تهدف إلى تفريق شملهم وتهديد ترابطهم كمتمردين عن حكومة قرطاج، ولذلك قرروا التصعيد وارتكاب أشنع الأعمال بحيث يمنعون من خلالها أي تقارب بين قرطاج ومن يتبعهم من مقاتلين مرتزقة وليبيين³.

في تلك الأثناء وبعد الانتصار الثاني لهامليكار على العصاة أرسلت روما بعثة دبلوماسية إلى قرطاج تعلن فيها تأييدها للحكومة في حربها ضد المتمردين، كانت قرطاج بالنسبة للحكومة القرطاجية الدجاجة التي تضع البيض الذهبي (تعويضات الحرب البونية الأولى)، كما أن مجلس الشيوخ الذي كان مشكلا من الأرسقراطية الرومانية لم يكن لسياند أي نوع من الحركات الثورية الشعبية ولا حركات التمرد ضد الحكومة المركزية⁴.

كان جيسكون الذي فاوض المتمردين في مدينة سيكا فينيريا قد تم أسره من طرف هؤلاء بعد عدم قبول قادة التمرد بعروضه، وبما أنهم كانوا يعملون على إستشارة غضب القرطاجيين ومنع

¹ - ستيفان قزال، ج3، المرجع السابق، ص101.

² - فرانسوا دوكره، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص174.

³ - نفسه

⁴ - Yann le Bohec, op.cit, p 113

أي تقارب بينهم وبين الثائرين، اقترح أحد القادة الكمبانيين المرتزقة، ويدعى أوتاريت (Autharite) أن يقتل جيسكون ومن معه من الأسرى القرطاجيين بعد تعذيبهم والتنكيل بهم، وهو ما تم القيام به على وجه السرعة¹. أثارت أنباء هذه المجزرة سكان قرطاج فكان رد فعل الحكومة أن طلبت من هاميلكار وكذا من حنون الكبير توحيد قواهما والانتقام للقتلى، لذلك أمر هاميلكار بإعدام جميع الأسرى الذين كانوا تحت قبضته، كما أمر بقتل أي أسير يقع بين أيدي جنوده مستقبلاً تحت أرجل الفيلة. رحب هاميلكار بركة بفكرة توحيد الجيوش القرطاجية لعلها تعجل بنهاية هذه الحرب، ولذلك دعا حنون إلى الالتحاق به.

بدأ القرطاجيون يستعيدون حماسهم وشجاعتهم، إلا أن نكبات جديدة حلت بهم، وذلك بسبب الخلاف الذي دب بين القائدين، ويبدو أن الخلافات التاريخية بين الرجلين منعتهما من التفاهم ومن الاستفادة من الفرص السانحة لتحقيق النصر، بل إن هذا الخلاف ساعد أعداءهم على إحراز بعض الانتصارات عليهم، ونتيجة لذلك قررت الحكومة القرطاجية توحيد القيادة في يد أحدهما أو أي قائد يختاره الجنود البونيون، فإختار الجنود هاميلكار².

كان على القائد البرقي مواجهة موقف أشبه بالكارثي، ففي تلك الأثناء أودت عاصفة بحرية بمجموعة من السفن قادمة من أمبرويا (Omboria) تحمل المؤن للجيش القرطاجي وللعاصمة نفسها، واللذان كانا في أمس الحاجة إليها، كما أن مدن أوتيكا وهييو أكرا (بيزوت) انضمتا إلى المتمردين، وخلال هذه الظروف الصعبة طلب القرطاجيون المساعدة من "هيرون" ملك سيراكوز الذي لم يتأخر في تلبية طلبهم، ويبدو أنه في هذه الأحداث الأخيرة التي وقعت في غرب المتوسط لم يعد هيرون يفضل استقرار الرومان جيرانه الجدد في صقلية واحتكار السيادة في المنطقة³.

عمل هاميلكار على تشديد الضغط على أعدائه، ورغم تكبدة بعض الخسائر، إلا أنه استطاع أن ينهك قواهم وينال منهم، وفي نهاية الأمر تمكن من عزل المرتزقة وحصرهم في منطقة

¹ - Serge Lancel, op.cit, p 36.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 106.

³ - Polybe, op.cit, I, 82-83.

ضيقة الأمر الذي اضطرهم بسبب المجاعة التي حلت بهم لقتل الأسرى والعبيد وأكل لحومهم، كان المتمردون في حالة يأس ولذلك اتجه عشرة منهم كان بينهم سبونديوس وأوتاريت إلى معسكر القرطاجيين لمفاوضتهم، وقد تم الاتفاق على أن تحتفظ قرطاجة بعشرة رجال من المرتزقة تم اختيارهم من طرف البونيين، ولذلك تم اعتقال المفاوضين العشرة، وكانت تلك حركة ذكية إذ أن المرتزقة الذين يصل عددهم إلى أربعين ألفا (40000) حسب بوليبيوس لم يعرفوا سبب اعتقال مفاوضيهم، وبسبب ذلك قاموا بالاستعداد للقتال في الوقت الذي كانت فيه الفرق القرطاجية تحيط بهم مع الفيلة التي سحقته في ذلك المكان، وقد ذكرت المصادر أن اسم تلك المنطقة كان "المنشار" ويبدو أن شكلها التضاريسي كان يشبه هذه الأداة¹.

ومع أن بحوثا كثيرة تمكنت من تحديد موقع هذا المكان، إلا أن أحد كبار المتخصصين الألمان في البحث عن ساحات المعارك في العصور القديمة وهو جورج فيث (George Veith) يعتقد أنها تتطابق مع مكان غير بعيد عن خليج الحمامات (le golfe d'Hammamet)، وهو مكان به سلاسل من التلال المسننة المتصلة بـجبال الجديدي "el-jedidi" وجبال المنزل موسى "Menzel Moussa" بتونس الحالية².

بعد هذا الانتصار أصبح من المتاح لقادة البونيين مثل هامليكار وحنبل³ الذي عينه مجلس الشيوخ القرطاجي كمساعد للقائد لهامليكار،⁴ وكذلك لحليفهم النوميدي نارافارس أن يتحركوا بكل أمان في أراضي قرطاجة، حيث كانوا يتلقون ولاء أعداد كبيرة من الليبيين، حيث عادت الكثير من المدن إلى الحكم القرطاجي، ثم عمد بعد ذلك القادة البونيون إلى الزحف نحو مدينة تونس التي كان يسيطر عليها جيش ماتوس، فعسكر حنبل على الجهة القريبة من قرطاجة، بينما

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 176.

² - Serge Lancel, op.cit, pp 40-41.

³ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 110.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, p 42.

عسكر هامليكار على الجهة الأخرى المقابلة، وامعانا في إخافة المحاصرين جيء بقائد المرتزقة سبونديوس والسجناء الآخرين ليتم صلبهم أمام أسوار المدينة على مرأى من رفاقهم في السلاح¹. ويبدو أن ماتوس لاحظ أن حنبعل كان يبالغ في الطمأنينة والثقة بنفسه مهملا حراسته الشخصية، لذلك هاجم معسكره بصفة مفاجئة وقتل عددا كبيرا من جنوده وفر من فر منهم، كما استولى على الأمتعة والعتاد، وفوق كل هذا، تمكن من أسر القائد حنبعل نفسه، ليقوم بصلبه على نفس الخشبة التي صلب عليها سبونيدوس، ويبدو أن حنبعل قد تعرض لعذاب شديد من قبل المتمردين، وقد ربط إلى الخشبة وهو لا يزال حيا، ولم يكتف ماتوس بذلك بل قام بذبح ثلاثين رجلا من نبلاء القرطاجيين حول جثة العبد الكمياني سبونديوس، ونظرا للمسافة الكبيرة التي كانت تفصل المعسكرين البونيين عن بعضهما البعض، لم يعلم هامليكار بهجومه بسبب صعوبة التنقل بسرعة في تلك المناطق، وعليه فقد قدر القائد القرطاجي أن يرفع الحصار عن تونس ويتجه إلى مصب نهر مجردة ليقيم معسكره هناك².

وكما حدث قبل سنتين من هذه الحادثة حين تم إعدام جيسكون بعد التنكيل به، اعتبرت الحكومة القرطاجية أن هامليكار قد أبدى عجزا عن منع هذه المذبحة لذلك لم يعد من المقبول أن تبقى المسؤولية الكاملة عن هذه الحرب بيده، وبذلك وجد مجلس الشيوخ القرطاجي الفرصة لاستعادة صلاحياته في التعيين والإقالة، وليعمل في نفس الوقت على تعزيز موقف حنون الكبير الذي تم استعادة من طرف الجنود، وقام في هذا الإطار وفد من ثلاثين عضوا من المجلس بترتيب أمر المصالحة بين هامليكار وحنون واللذين وافقا في نهاية الأمر على العمل معا من أجل إنهاء العمليات الحربية³.

وبعد أن اندحر ماتوس في عدة مواجهات مع البونيين حدثت غير بعيدة عن لبتييس مينور (Leptis Minor) الواقعة جنوب مدينة سوسة الحالية، قرر هذا الأخير أن يخوض معركة حاسمة

¹ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 110.

² - Polybe, op.cit, I, 86.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 177.

مع القرطاجيين الذين كانوا يبحثون بشتى السبل عن مواجهة مباشرة يnehون من خلالها هذه الحرب، وحين تمت جميع الاستعدادات والتقى الجيشان للمرة الأخيرة في معركة فاصلة، كان انتصار القرطاجيين فيها حاسماً، وانهمزم الليبيون الذين قُتل أكثرهم واستسلم عدد كبير منهم فيما بعد، أما ماتوس فقد تم أسره،¹ ليساق مع رفاقه بعد ذلك في موكب نصر في العاصمة البونية على مرأى من سكان المدينة، وفي يوم الإحتفال بالنصر تم تعذيبهم ثم إعدامهم.²

كان اجهاز قرطاج على آخر جيوش المتمردين سنة 237 ق.م بمثابة دق ناقوس نهاية اللعبة التي راهن عليها الأفارقة للتحرر من الهيمنة البونية، فقد تم إخضاع جميع المدن الثائرة الواقعة شمال نهر مجردة مباشرة بعد هزيمة ماتوس، أما مدينتا أوتيكا وبيزرت فلم تتقبلا العودة إلى حكم القرطاجيين إلا بعد حصولهما على ضمانات تخص وضعيتهما السياسية في مجال سيطرة البونيين.³

عم السلام أرجاء إفريقيا بعد انتهاء هذه الحرب، بل إن قرطاج تمكنت بعدها من توسيع نطاق نفوذها في هذه القارة، أما هاميلكار برقة فقد استقبل بحفاوة من طرف الشعب القرطاجي، وكان ذلك رغم الموقف المعادي الذي كان يتخذه عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأرستقراطيين، وقد منحته العامة لقب ستراتاج (Stratège) أي الجنرال أو القائد الأعلى، وفي هذا الصدد لا يجب تفسير رد فعل العامة في قرطاج على أنه حركة نحو الديمقراطية، فبالعكس كانت في العصور القديمة أنظمة حكم يمكن أن يتلقى فيها قائد الجيش دعم رجال أحرار وفقراء ضد الفقراء والنبلاء في تلك البلاد، إلا أن مخطط هاميلكار لم يكن الحصول على السلطة في قرطاج، لكن في مكان آخر بعيد عن إفريقيا إنه جنوب إسبانيا (le Sud de l'Espace).⁴

ويبدو أن المشهد السياسي في قرطاجة أصبح مهياً لحدوث بعض التغيرات المهمة على مستوى الهرم فيه، فقد إستبيد القلق بالفئة الأرستقراطية في مجلس الشيوخ الروماني بسبب تلك التحولات التي فتحت الطريق أمام تغير الأوضاع السياسية نحو الإصلاح في قرطاج، وفي هذا

¹ - Polybe, op.cit, I, 87.

² - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص177.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 268.

⁴ - Yann le Bohec, op.cit, p 114.

الإطار قدمت فئة ما إصطح على تسميتها (les Pâtres) بعض الشروحات والمعلومات التي كانت تبدو أكيدة، خاصة بعد انتهاء العمليات الحربية التي دارت رحاها في منطقة القبائل النوميديّة، كما أن القائد حنون الذي كان موضع انتقادهم تم استدعاؤه إلى قرطاجة لي عزل بعد ذلك من قيادة الجيش، أما هامليكار برقة وعلى الرغم من المزاعم التي تقدم بها خصومه لكونه ارتكب عمليات اختلاس في صقلية، فقد حظي بدعم العامة كما سبق ذكره، وكذلك على دعم بعض الشخصيات المتنفة في العاصمة البونية مثل صهره هاسدروبل ليصبح القائد العام للقوات القرطاجية في إفريقيا، ثم قائدا للقوات البونية في إسبانيا.¹

ولا شك أن روما لم تكن تنظر بعين الرضا لصعود هامليكار برقة على حساب الحزب الأوليجكي الذي يمثله عسكريا حنون الكبير وعصبته،² ومن ثم فإن مجلس الشيوخ الروماني لم يعد مطمئنا للسياسة التي يمكن أن تنتهجها قرطاجة خاصة تلك السياسة الخارجية التي يمكن أن تسترجع السيطرة البحرية على الحوض الغربي للمتوسط، إذ أن الرومان لم ينسوا أن أصدقاءهم هؤلاء كانوا فيما سبق ألد أعدائهم، وكان يمكن أن يحطموا قوتهم العسكرية في حرب صقلية التي دامت سبعة عشر سنة. وقد يكون بسبب هذه الهواجس الرومانية أن وافق مجلس الشيوخ الروماني سنة 238 ق.م، على اجتياح جزيرة سردينيا نزولا عند رغبة متمردي قرطاجة في هذه الجزيرة، رغم أن هذا العمل كان مخالفا لمعاهدة روما-قرطاجة سنة 241 ق.م.³

وكان المرتزقة القرطاجيون ومعهم عدد كبير من الليبيين ق انتفضوا على حكم القرطاجيين في جزيرة سردينيا عقب سقوط أوتيكا في أيدي المتمردين الأفارقة والمرتزقة الأوربيون، ويبدو أنه كان هناك نوع من الاتصال بين متمردي إفريقيا وسردينيا، وقد قدم الليبيون القاطنون في سردينيا نوعا من الدعم لهذا التمرد، واحتلوا في البداية قلعة المدينة الكبرى بالجزيرة التي يحتمل أنها كانت سولكيس (Sulcis)، بعد أن طردوا منها بوستار (Bostar) زعيم البونيين وكذلك من كان يرافقه

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 178.

² - Serge Lancel, op.cit, p 45.

³ - فرانسوا دوكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 178-179.

من القرطاجيين، وخلال هذه الأحداث رفضت روما التدخل في الجزيرة استجابة لطلب المتمردين على الحكم القرطاجي، لأنها كانت ترى أن ذلك يعتبر اعتداء على معاهدة لوتاتيس (Lutatuis)¹.

غير أنه وبعد تغير المعطيات السياسية في قرطاج وتغير موازين القوى هناك، أرسل مجلس الشيوخ الروماني حملة لتتخذ روما لنفسها موطئ قدم في جزيرة سردينيا، وكان رد فعل قرطاج بأن أرسلت بعثة إلى روما مكلفة بتوضيح حق العاصمة البونية في ملكية هذه الجزيرة منذ أزمنة قديمة، غير أن روما ردت وبوضوح أن أي عمل أو تدخل عسكري تقوم به قرطاج في جزيرة سردينيا، ستعتبره روما عملاً معادياً للرومان، كما كلفت روما تلك البعثة القرطاجية بنقل رسالة واضحة إلى قرطاج مفادها تهديد بالعودة للأعمال الحربية في حالة عدم التزام البونيين بهذا القرار، الأمر الذي دفع بالقرطاجيين إلى الرضوخ لرغبة الرومان وهم المنهكون من حرب ضد المرتزقة دامت ثلاث سنوات متتالية².

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 268.

² - Serge Lancel, op.cit, p 45.

II- البونيون في شبه جزيرة إيبيريا

1- توسعات هاميلكار برقة في جنوب شرق اسبانيا

كان استيلاء الرومان على جزيرة سردينيا بمثابة اللطمة الثانية التي تلقتها قرطاج من روما، ولم تتوان روما في إمعان إهانة الحكومة القرطاجية من خلال فرض ضريبة جديدة عليها قدرت بألف ومائتي (1200) تالنت. لقد أصبح من الواضح أن قرطاج تفقد إمبراطورية البحر المتوسط الغربي التي كانت مطمحا لها منذ قرون عديدة، فالرومان الذين هزمتهم أساطيلها في ميلي (Myles) وإكنوم (Ecnome) وفي الرأس الطيب وجزر الايغات (Aegates) أصبحوا الآن قادرين على الوصول بحرا في يوم واحد وليلة إلى موانئها¹.

لقد كلف الرومان القنصل ت. سمبرونيون جراكوس (T.Sempronius Gracchus) بالسيطرة على جزيرة سردينيا، إلا أنه شرع في نفس الوقت في احتلال جزيرتي كورسيكا (La Corse)، ولقد أدى تشدد موقف مجلس الشيوخ الروماني تجاه قرطاج إلى نتيجة عكس ما كان يتغيها الرومان، فبدلا من اضعاف شعبية هاميلكار برقة واضعاف جماعته النافذة من بين أعضاء الحكومة القرطاجية، تعززت شعبيته وهو الأمر الذي دفع البرقيين إلى البحث عن طريقة لتحقيق طموحاتهم في الانتقام من روما، والعمل على جعل هذا الطموح حقيقة².

وقد كتب المؤرخ اللاتيني تيتوس ليفيوس قائلا: إن روح هاميلكار القوية لم يكن بمقدورها أن تتعزى عن ضياع صقلية وسردينيا، فكان يرى أن اليأس هو الذي أدى إلى تسليم صقلية، وأما سردينيا فقد استغل الرومان الاضطرابات التي كانت تهمز إفريقيا لكي يقوموا بانتزاعها بحركة غادرة، ثم ليفرضوا غرامة أخرى على قرطاج³ أما المؤرخ الإغريقي بوليبيوس فقد تحدث عن فكرة الحرب الانتقامية، وهو الذي يرى أن شروع هاميلكار ببناء إمبراطورية له في إسبانيا إنما كان بدافع حقه الشخصي تجاه روما، ولكن حين سخط عليه مواطنوه بسبب قضية سردينيا، انطلق إلى غزو

¹ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص114.

² - فرانسوا دوكره، قرطاج أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص179.

³ - Tite-live, op.cit, I, 1.

إسبانيا معتقدا أن هذه البلاد قد تقدم له المصادر الضرورية التي تجعله قادرا على شن الحرب ضد روما¹.

كان القرطاجيون يكتفون بالحب لوطنهم، ولم يكونوا راضيين عن ذلك الوضع العسكري المتدهور الذي صاروا عليه بعد الحرب البونية الأولى وبعد حرب المرتزقة، والتي خسروا خلالها صقلية وسردينيا، لذلك كان هاميلكار لا يكف عن التفكير في هذه الأمور، وحين أخذ ابنه حنبعل معه إلى إسبانيا وكان عمره تسع سنين، طلب منه أن يقسم أمام المذبح الذي يقدم فيه القرابين للآلهة الكبرى أن يحلف بأغلظ الأيمان على أن يكون عدوا للرومان، ويبدو أنه بعد خمسين سنة استطاع حنبعل أن يطمئن أن ابنه قد برّ بقسمه².

ومن خلال الصلاحيات الواسعة السياسية والعسكرية التي كان يملكها هاميلكار، وضع نصب عينيه أولوية التوسع في شبه جزيرة إيبيريا، لذلك توجه رفقة صهره صدروبلع وابنه البكر حنبعل في ربيع سنة 237 ق.م إلى إسبانيا عن طريق السواحل المغربية، ولا تتوفر لدينا في الحقيقة معلومات كثيرة عن التواجد البوني بشكله التجاري والثقافي في إسبانيا ومدى قربيه أو بعده من زمن العلاقات الفينيقية المبكرة خاصة في جانبها التجاري في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا يستبعد أن قرطاج كانت قد مارست نوعا من بسط النفوذ المكاني على هذه المنطقة، ولقد أثبتت الحقائق التي أقيمت على مجموعة من المناطق في إسبانيا عن وجود مواقع تجارية دون إطار سياسي أو عسكري خاص، وذلك في الناحية الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة الإيبيرية وتحديدًا حول ملقة (Malaga)³.

كان من الواضح أن القائد البرقي كانت له طموحات كبيرة، فحين ذهب إلى بلاد ترشيش (جنوب إسبانيا) والتي كانت ثرواتها فيما سبق من عوامل ثراء وإزدهار مدينة صور الفينيقية، واقترح هاميلكار أن تُسْتَعْلَ مناجمها بشكل منظم في جبال السيرا مورينا (Cierra Morina) من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يتم إنشاء قاعدة برية واسعة وقوية تكون بعيدة بما فيه الكفاية عن عيون

¹ - Polybe, op.cit, III, 9-10.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 115.

³ - Khaled Melliti, op.cit, pp 273-274.

ومحاسبات الرومان، لكي تتمكن قرطاج فيها من استرجاع أنفاسها وتنفس هواءً جديدًا يبعث الحياة في قوتها من جديد، وبذلك تكون هذه المنطقة معبراً لإنطلاقه جديدة نحو استعادة السيطرة البحرية على البحار الغربية التي كانت فيما مضى تسمى البحار الصورية، ولم لا اكتشاف آفاق جديدة، ولا يدل هذا على عقلية انتقامية كما قال يوليوس بقدر ما يشير إلى طموح المغامر في لحظة توشك أن تكون لحظة يأس، كما أن إرادة البرقيين هذه لم تكن تهدف إلى إجراء انتقالي لمواجهة الضربات الرومانية، بل تسعى نحو التوازن المضاد في البحر المتوسط، وذلك هو العامل المهم لحماية الاحتكار التجاري في الجزر المتوسطة الغربية فيما وراء أعمدة هرقل.¹

لم يكن هذا المشروع مشروع هاميلكار برقة أو عائلته فقط بل كان مشروع الحكومة القرطاجية، لذلك كان لا بد لهذا الأمر من طرق لتمويله وتغطيته سياسياً وعسكرياً من خلال امتدادات دائمة بالمال والسلاح والرجال، وهو الأمر الذي عارضه الملاك الأرسقراطيون في قرطاج لأنهم كانوا يخافون سعي هاميلكار لتجديد الحرب، ولكن طبقة التجار التي حز في نفسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أيدته وتراضت الفئات بعد ذلك في منح هاميلكار قوة صغيرة عبر بها القائد البرقي البحر إلى إسبانيا.²

على عرض بحر السواحل الشرقية الإسبانية كانت قرطاج تمارس منذ عدة قرون سيادة كاملة على إيبيزا (Ibiza) ومنها كانت تراقب أرخبيل جزر البليار، وهنا تظهر أهمية هذه المحطة المتوسطة التي كانت ثمينة في تلك الفترة بالنسبة لقرطاج.³ أصبح من الضروري بحسب رؤية هاميلكار برقة تعزيز الوجود العسكري في إسبانيا، لذلك دخل إلى شبه الجزيرة من الجهة الجنوبية ومعه بقية أو بقايا فرقة عسكرية محاربة، كان عليه تأسيس في المنطقة الجنوبية لشبه الجزيرة استراتيجية قرطاج في إسبانيا، وقد سميت المنطقة التي أمنها هاميلكار باسم عائلته، فقد أطلق عليها المؤرخون كلمة البرقية أي إسبانيا البرقية (Barcide)، كان لقاء بين رجل ودولة، ولم يكن من السهل احتواء

¹ - فرانسوا دوكريه، قرطاجنة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 180.

² - ول ديورنت، المرجع السابق، ص 52.

³ - Serge Lancel, op.cit, p 83.

هاميلكار الرجل، كان هذا القائد يوصف بأنه يمتلك إمكانيات عسكرية وكره كبير للرومان، كان شعوره الديني وثقافته بحسب معرفتنا له قد جعلاه منه رجلا ساميا (Sémite)، لكنه على علم باللغة والثقافة الإغريقية، وقد أكد المؤرخ المتخصص في هذه الفترة جبلبار شارل بيكار (Gilbert) Charles Picard على السمات الهيلينية لمشروع هاميلكار السياسي¹.

عمل هاميلكار برقة إثر نزوله يشبه الجزيرة على تأمين المنطقة الغنية بمعادن الذهب والفضة، وهي المنطقة المحيطة بوادي غادالكيفير (Guadalquivir) أو الوادي الكبير، وكذلك منطقة جنوب ميسيتا (Meseta)، كان الهدف هو ضمان إستغلال وفي أقرب وقت ممكن وبشكل مباشر ومكثف لمناجم هذه المناطق، ولكن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة للبونيين، فرغم أنهم توصلوا لإتفاق مع الماستيين (les Mastiens) أو البستيتاني (Bestetani) إلا أن معارضة الشعوب المحلية كانت كبيرة لمشروع آل برقة، وحتى شعوب الترتاسيين (les Tertessiens) الذين كانوا مؤيدين للوجود الفينيقي-بوني إنتهى بهم الأمر بحمل السلاح ضد القرطاجيين إلى جانب شعوب كلتو إيبيرية (Celtibères)، هذه الشعوب التي كان يقودها أخوان كان أحدهما يسمى إستولاتيوس (Istolatio). خاضت هذه الشعوب مجتمعة حربا ضروسا ضد القرطاجيين، إلا أن هذا التحالف كانت نهايته سيئة نظرا لتكن البونيين من سحقه على ضفاف نهر غواديانا (Guadiana)، كما تم القضاء على قائدي هذا التمرد، أما من بقي حيا من أعداء القرطاجيين فتم دمجهم في جيش هاميلكار كما، تم إخضاع العديد من المدن الأسبانية في هذه الفترة².

لم يكن للقرطاجيين موقع عامر بالسكان وراء رأس بالوس (Cap Palos) لذلك أسس هاميلكار مدينة بالقرب من رأس لاناو (Cap la Nao) حيث توجد مدينة أليكونت (Alicante)، وجعل منها موقعا عسكريا، وكان هذا المكان المهم استراتيجيا أقرب إلى قرطاجة من قادس، كما كان موقعه أفضل للاستيلاء واحتلال وسط إسبانيا.³ وكان تأسيس هذه المدينة على

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p 115.

² - Khaled Melliti, op.cit, p 274.

³ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص117.

الأرجح سنة 235 ق.م، كانت تسمى أكرالوكي (Acra louki) والتي كانت مقابلة لمستوى جزيرة إيبيزا، غزى هامليكا الجنوب الشرقي لشبه جزيرة إسبانيا، والذي عرف فيما بعد باسم الأندلس (Andalou)،¹ وهو الأمر الذي أثار شكوكا لدى الرومان في نية قرطاج من خلال هذا التوسع، ولذلك أرسلت روما مندوبين عنها إلى هامليكار طلبا لمعلومات حول هذه العمليات القرطاجية، كان ذلك سنة 231 ق.م، وكان جواب القائد البرقي أن الأمر يتعلق بالبحث عن موارد لتحصيل تعويضات الحرب المفروضة على قرطاج.²

وحقيقة بمجرد أن تم تأمين منطقة الأندلس (Andalou) شرع هامليكار في تنظيم عمليات الاستغلال المركز للمناجم محتديا بمثال المناجم في مصر البطلمية (Egypte Lagide)، فكانت هناك مناجم ذهب ونحاس وفضة غاية في الثراء في سيرامورنيا، وهي منطقة جبلية تمتد على المنطقة الموازية مع مجرى نهر البايثيس (Baetis)،³ وقد حوّلت الثروات التي كانت ترسل إلى قرطاج من جنوب إسبانيا الحرب إلى شأن شعبي خاصة بفضل مجهودات اللوي البرقي في مجلس الشيوخ القرطاجي، كما أن التجارة البونية عرفت ازدهارا واسعا في تلك الفترة انطلاقا من السواحل الإسبانية.⁴

ويبدو أنه في إطار إخضاع هامليكار الساحل الإسباني لسلطة ظهر لمواجهة هذا القائد القرطاجي جمع من الشعوب الإسبانية وصل عددهم إلى خمسين ألف (50000) يقودهم رجل يدعى أندروتيس (Indrotès)،⁵ كما يؤكد ذلك المؤرخ يوليبيوس، وفي هذه الواقعة لم يجرؤ الأيبيريون والكلتو إيبيريين الذين كانوا ينتفزون ضد هامليكار على مواجهة البونيين بشكل مباشر، وفضلوا خوض حرب استنزاف ضد الفرق البونية، إلا أن خبرة القرطاجيين في صقلية وخاصة في إفريقيا، والذين تمرسوا في مواجهة حروب من هذا النوع، استطاع القائد البرقي محاصرة الفرق

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 274.

² - Serge Lancel, op.cit, p 65.

³ - Khaled Melliti, op.cit, pp 274-275.

⁴ - Ibid, p 275.

⁵ - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص116.

الكتلوايبيرية على إحدى المرتفعات، ليعمد بعد ذلك إلى القضاء عليها وسحقها والتنكيل بقائدها أندروتيس،¹ الذي سمل هاميلكار برقة عينيه وعذبه ثم صلبه،²

ومع ذلك فضل في نهاية الأمر هاميلكار إعطاء الحرية لعشرة آلاف (10000) من أسرى هذه الحادثة، وقد اعتمد هاميلكار في هذه المرحلة سياسة كان القرطاجيون يعتمدونها في حروب إفريقيا وهي التداول بين الدبلوماسية والرعب، إلى أن استطاع الوصول إلى مستوى عال من تأمين المناطق الإيبيرية التي كانت بحوزته وتحت نفوذه، ولم يعد هناك شيء يمكنه الوقوف في وجه الهيمنة البونية في ذلك الربع الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية.³ (أنظر الملحق 27 خرائط)

ويبدو أن مهمة هاميلكار برقة كرجل حرب ناجح في إسبانيا وكسياسي قوي أوشكت على نهايتها وذلك خلال شتاء 229-228 ق.م، بعد ثماني (8) سنوات حسب كورنيليوس نيبوس (Cornelius Nepos) من قدومه إلى إسبانيا سنة 237 ق.م، وبعد تسع سنوات حسب بوليبيوس من قدومه إلى إسبانيا، وفي هذه الحادثة التي كانت فيها نهاية هذا القائد البرقي، ترك هاميلكار الجزء الكبير من جيشه وفيلته في معسكراتها الشتوية في أكرا لوكي، وفي الوقت الذي كان فيه صدورو بعل صهره في مهمة بعيدا عن هذه المناطق، ذهب هاميلكار لمحاصرة مدينة إسبانية تسمى هيليكى (Héliké).⁴

كان هاميلكار ولداه حنبعل وصدور بعل وكلف سبب حصار هذه المدينة المعروفة باسم إيلش ديسيرا بالإسبانية (Elche de Sierra) هو رفض سكانها دفع الضرائب، ويبدو أن الخطأ الذي ارتكبه هاميلكار هذه المرة لم يكن فقط الاستغناء عن الجزء الكبير من جيشه وفيلته، ولكن ثقته التي لم تكن في محلها والتي أدت لخداعه، في ملك الأوريتاني (Oretani) وهم شعب إيبيري يقطن جنوب إيبيريا على مستوى أذرع نهر الأناس (Anas)، هذا الملك الذي كان من المفترض أن يقاتل إلى جنب هاميلكار، إلا أن هذا الأخير وقع في فخ مؤامرة بين المحاصرين وملك الأريتاني، لم

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 276.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 116-117.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, p66.

ينشغل هامليكار بعد اكتشاف الأمر سوى بتأمين حياة ولديه اللذين كانا في سن المراهقة، لذلك حاول الانسحاب ولفت انتباه المهاجمين نحوه قبل أن يهلك غريقا محاولا اجتياز النهر الكبير الجوكار (le Jucar) راكبا على جواده¹.

كانت إذا تلك نهاية هامليكار بحسب رواية ديودور الصقلي وقد اختلفت المصادر الأخرى حول تحديد نهايته فهذا بوليبيوس منحة شرف الموت حاملا سلاحه في ساعة الحرب وقد خصص له ثلاثة أسطر للحديث عن مناقبه خلال سرده لأحداث حرب الرومان في إبليريا، أما كورنيليوس تسيوس فأفاد أن هامليكار سقط صريعا خلال مواجهة مع شعب الفوتون (Vettones) وهم شعب يقطنون مناطق بعيدة غرب تولاد (Tolède) في أعالي وادي تاج (Tage)².

وقد اتفقت في هذا الشأن المصادر الإغريقو-كلاسيكية ما قبل الرومانية- على تمجيد الكفاءات العالية التي كان يتمتع بها هامليكار برقه، والتي تثبتتها الآراء الخالدة التي خلفها هذا القائد في التاريخ السياسي والعسكري لقرطاج البونية وتاريخ الحوض الغربي للمتوسط³.

2- صدور بعل يخلف هامليكار في قيادة الحملة القرطاجية في إسبانيا

حين مات هامليكار كان ابنه البكر حنبل يوشك على بلوغ العشرين عاما، ورغم أنه كان يملك خبرة وهو في هذه السن المبكرة من خلال ملازمته أبيه في حروبه إلا أنه في تلك الفترة كان لا يزال صغيرا على خلافة أبيه في قيادة الجيش وكذا في حكم المناطق التي تديرها قرطاج في إسبانيا، ولذلك وقع الاختيار على صهره صدور بعل الذي رشحه الجيش لهذا المنصب، ومع أننا لا نملك أدلة أكيدة إلا أنه من المرجح أن هذا الاختيار تمت المصادقة عليه من طرف الشعب القرطاجي، أما ما كان يحسب لصدور بعل فهو أنه كان ومنذ سنوات كثيرة مساعدا للقائد المتوفى، وكان أميرالا لأسطول قرطاج و ضابطا مساعدا لهامليكار في الحروب البرية⁴. (أنظر الملحق 17 صور)

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 277.

² - Serge Lancel, op.cit, p 67.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, p 68.

جمع صدور بعل جيشا كبيرا مشكلا من خمسين ألف (50000) محارب، ستة آلاف (6000) فارس ومائتي (200) فيل في مدينة أكرالولي (Akra leuké)، ليسير بعد ذلك بجيشه نحو أوريسون (Orisson)، وبمجرد أن أنهى قتاله لتلك الشعوب المعادية بعد هزيمتها حتى انشغل صدور بعل ببسط السلام وتأمين الكلثو إيبريين والأوريتاني والبلاد المجاورة لها، وكان يمكن لصدور بعل أن يكتفي بالحفاظ على ما يملكه البونيون في إسبانيا، إلا أنه اجتهد وأضاف إلى تلك الأملاك معتمدا -على خلاف هامليكار- سياسة دبلوماسية خاصة إزاء السكان المحليين بجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، ولكنه في نفس الوقت لم يهمل العمل العسكري إذا تطلب الأمر ذلك¹. ويبدو أن صدور بعل كان أكثر مهارة من خلفه في استخدام الوسائل الدبلوماسية، لذلك استطاع احتواء عدد كبير من سكان جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية، كما تزوج ابنة أحد ملوكهم المحليين².

استطاع صدور بعل بسط نفوذه على إثنتي عشر (12) مدينة إسبانية كانت للشعوب الأوريتاني (Oretans) وشعوب إيبيرية أخرى³، ويصعب في الحقيقة التحديد ويوضح الحدود الجغرافية التي وصل إليها، وكذا الحدود القصوى التي صارت عليها الهيمنة البونية في عهده، ولكن يمكن القول أن الربع الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية أصبح يدين بالولاء للقرطاجيين⁴، وهو ولاء وطاعة ثم تأمينهما بدبلوماسية واحترافية سياسية - كما تحدث عن ذلك تيتوس ليفيوس - تجاه الملوك الإيبيريين المحليين، والتي وصلت علاقات صدور بعل معهم إلى درجة المصاهرة⁵، وفي الإطار يمكن القول أن صدور بعل البرقي كان يحاكي في سياسته ما قام به الإسكندر المقدوني حين تزوج من أميرة من البلاط الإمبراطوري الفارسي⁶.

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 278.

² - ستيفان قزال، ج 3، المرجع السابق، ص 118.

³ - Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, Fragments, op.cit, XXV(25), 12.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, p 88.

⁵ - Tite live, op.cit, XXI, 2, 5,7.

⁶ - Khaled Melliti, loc.cit.

وبصورة عامة فبالإضافة إلى التأمين العسكري لجنوبي شرق شبه جزيرة إيبيريا، عمل البرقيون على استيعاب التقاليد السياسية المحلية، وسعوا كذلك لمنح صيغة هيلننة للعادات الدينية المحلية خاصة حين يتعلق الأمر بالأبطال المحليين وذلك لاستيعاب واحتواء شعوب تلك المناطق وتأليف قلوبهم نحوهم، ومن خلال هذا العمل العسكري والدبلوماسي في آن واحد استطاع صدور بعل انتزاع اعتراف إرادي من القادة الإيبيريين على أنه القائد والحاكم المطلق لإيبيريا، وهو لقب يمكن الاستدلال عنه من خلال تلك الصور الهرقلية التي نحتت على العملة البرقية في إسبانيا، وهو الأمر الذي ساعد آل برقة على السيادة الطوعية على الملوك المحليين في جنوب إيبيريا¹.

وبما أن مدينة أكرالوكي التي أسسها هامليكار لم تعد تليق من حيث الضخامة والرمزية لسيادة البونيين في جنوب إسبانيا، فإن صدور بعل أسس مدينة جديدة على نفس الساحل الإسباني، ولكن إلى الجنوب قليلا على ساحل الأندلس الشرقي في مكان غاية في الجمال يسمح ببناء ميناء كبير وعاصمة وهي المدينة التي أطلق عليها الرومان تسمية قرطاجة الجديدة (Carthago Nova) وهي قرطاجنة الحالية (Carthgène)، والتي سماها مؤسسها على غرار المدينة البونية الأمم قرط حدشت (Qart-Hadasht) أو المدينة الجديدة².

أثارت النجاحات السياسية والعسكرية لصدور بعل في إسبانيا مخاوف الرومان، الأمر الذي دفع بهم إلى إرسال بعثة دبلوماسية إليه وتحديدًا إلى قرطاجنة لتقييم الوضع في إسبانيا، وإذا كانت السفارة الأولى التي أرسلت إلى هامليكار برقة حوالي 331 ق.م لم تتعد نتائجها التحليل البسيط للوضعية العامة في إسبانيا، فإن بعثة سنة 226 ق.م، المتوجهة إلى صدور بعل الوسيم (Asdrubal le beau) كانت مزودة بأجنحة سياسة خاصة هدفها تطوير ومحاصرة التأثير البوني في إسبانيا، وبما أن الرومان في تلك الفترة كانوا منشغلين بتهديد الغالين أو الكلتيين في بلاد غالة القريبة (la Gaule Cisalpine) فإنهم لم يكونوا قادرين على فرض سياستهم بالقوة في إسبانيا، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا مهتمين بفرض نهر الإيبرو (Ebre) كحد نهائي لأي نشاط عسكري يونيقي، وبالمقابل لهذا الشرط تعترف روما في هذه المعاهدة الجديدة³ التي وقعت بين سنتي 226 و225

¹ - Khaled Melliti, loc.cit.

² - Serge Lancel, op.cit, p 69.

³ - Khaled Melliti, op.cit, p 279.

ق.م¹ بالمناطق التي تقع في يد البونيين، على أن السيادة عليها تعود لهم وهي المناطق الواقعة جنوب نهر الإبرو²، ليتحول بذلك هذا النهر كحد فاصل بين منطقتي التأثير البوني والروماني³. لم يكن الرومان في وضع يسمح لهم بإملاء شروطهم وقوانينهم على البونيين كما فعلوا سنة 237 ق.م في سردينيا، فالتهديد الغالي شمال إيطاليا كان يحظى بكل اهتمام روما خاصة وأن علاقة القوة بينهم وبين قرطاج قد سبق وأن بدأت منذ اللقاء الذي جمعهم بهامليكار برقه، كانت السياسة الفعالة التي انتهجها صدوروبعل الوسيم قد ساعدت في حقيقة الأمر وبطريقة حاسمة على بناء دولة حقيقية موالية للعاصمة البونية قرطاج، وبإمكانيات مالية وعسكرية كافية وراعدة وهو ما أثار هواجس الرومان في ذلك الوقت على الأقل⁴.

ويبدو أن هنالك عاملاً آخر دفع الرومان للتحرك ورييم حدود للتوسعات البونية، وذلك بسبب تعريض مستوطنة مرسيليا (Marseille) أو ماساليا (Massalie) الإغريقية حليفة روما للخطر، خوفاً من تضرر مصالحها التجارية في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية وكذلك حرصاً على بعض المستوطنات الإغريقية في إسبانيا مثل أمبورياس (Ampurias) ورودي (Rhodé) أو روساس (Rosas)⁵.

يضاف إلى كل هذا وجود مدينة إسبانية ذات صلات وثيقة بروما وتعتبر من أهم حلفائها في إسبانيا وهي مدينة ساغونته (Sagonte) والتي يبدو أنها أصبحت معرضة للدخول في مواجهة مباشرة مع القرطاجيين، بعد أن أخضع هؤلاء شعوب التيربولات (Turbolètes) لحكمهم، ويبدو كذلك أن الحلف الروماني الساغنتي قد تم توثيق أواصره بين سنوات 231 و 225 ق.م، دون أن نتأكد بالضبط ما إن تم قبل معاهدة روما مع القرطاجيين فيما عرف بمعاهدة الإبر (Ebre) سنة 226 ق.م، ولكن الراجح أن هذا الحلف كان في إطار دعم التعاون الروماني الماساليوتي (Romano-Massaliote)، كما أنه كان يخفي استراتيجية مستقلة مؤكدة لصالح الرومان⁶. خاصة إذا علمنا أن منطقتي أمبورياس ورودي على السواحل الكتلانية (Catalenes) كاننا

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p118.

² - Khaled Melliti, op.cit, loc.cit.

³ - Yann le Bohec, loc.cit.

⁴ - Khaled Melliti, op.cit, pp 279-280.

⁵ - Serge Lancel, op.cit, p 75.

⁶ - Khaled Melliti, op.cit, p 280.

شديدتا القرب من مدينة ساغنته، بل يمكن القول أنهما كانتا ضمن منطقة نفوذ هذه المدينة القريبة، وقد اشترطت معاهدة الإيبر أن تحافظ مدينة ساغنته على حريتها رغم وقوعها جنوب نهر الإيبر أي في المنطقة التي تخضع لمراقبة قرطاجة، لذلك لم تتردد روما في التدخل في القضايا الداخلية لهذه المدينة الإسبانية حين اندلعت بها خلافات بين مختلف الأطراف السياسية سنة 223 ق.م، لكن مع نوع من التحيز لأنصارها على حساب أنصار البونيين في المدينة¹.

اشتعلت إذن شرارة حرب أو مواجهة محتملة بين روما وقرطاجة كان سببها مدينة ساغنته ولكن صدور بع بطرقه الدبلوماسية المعهودة لم يكن ليُجعل هذا الخلاف يكبر ويتفاقم، وذلك من خلال ربط علاقات جيدة مع القبائل الأيبيرية القريبة من هذه المدينة، ولكنه خلال فترة بروفنصليته الأخيرة في إسبانيا سنة 221 ق.م، قُتل هذا القائد البرقي نتيجة عملية اغتيال كان دافعها حسب المصادر التاريخية الإنتقام². هذه المصادر التي استبعدت الأسباب الاجتماعية (العبيد الجنود) وكذلك السخط الشخصي أو الظلم الذي دفع القاتل إلى ارتكاب هذا العمل الجريء³.

ولكن عدم الإهتمام بهذه الحادثة كان واضحاً من طرف هذه المصادر التي ركزت على الإنتقام الشخصي لحادم ثار لسيده الأمير القرطاجي الذي قتل بأمر صدور بع كما ذهب إلى ذلك تيتوس ليفيوس⁴، وعلى أي حال فإن صدور بع البرقي استطاع خلال الزمن الذي قاد فيه القرطاجيين سياسياً وعسكرياً في إسبانيا، أن يقوم بأعمال عظيمة كانت مرشحة لأن يكون لها دور فاعل ورائد في الأحداث القادمة، وكان من الطبيعي أن يتولى الضابط والعسكري المحبوب والمفضل لدى الجنود البونيين حنبعل -الابن البكر لهاميلكار برقة- وهو في عمر الخامسة والعشرين القيادة العليا بترحيب ورغبة من الجيش القرطاجي، ولذلك كان اللوبي البرقي في قرطاج مكلفاً بتأمين وضمان تعيين هذا القائد من طرف مجلس الشعب رغم المعارضة التقليدية للفصائل والأجنحة المعادية والمنافسة للبرقيين في السيناتو القرطاجي⁵.

¹ - Khaled Melliti, op.cit, p 280.

² - Serge Lancel, op.cit, p 76.

³ - Khaled Melliti, loc.cit.

⁴ - Tite live, op.cit, XXV, 2, 6.

⁵ - Khaled Melliti, loc.cit.

III- الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م)

1- ظروف اندلاع الحرب

قبل الحديث عن بداية الحرب البونية الثانية يمكننا أن نتساءل هل كانت فكرة نقل الحرب ضد روما إلى إيطاليا نفسها راسخة بل تحولت إلى قرار اتخذ حنبعل منذ اليوم الذي أسندت له فيه قيادة القوات القرطاجية؟ هذا ما يؤكد تيتوس ليفيوس ويقدم لنا دليلا هو مهاجمته لمدينة ساغنته فورا، وذلك لكي لا يدخل في حرب مباشرة مع الرومان ولكي يبدو فقط كمتدخل في ساغنتوم ضد الكلتيو إيبيريين (Les Celtibères)¹.

قضى حنبعل أقل بقليل من عامين (221-220 ق.م) فهو يتوسع ويتمدد نحو الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية ويفرض عليها السيادة القرطاجية، وكانت أولى عملياته ضد من سماهم المؤرخون الأولكاد (Olcades) والذين هاجم حنبعل عاصمتهم ألتايا (Altaia) بحسب بوليبيوس وهي التي سماها ليفيوس كارتالا (Cartala) والتي كان حنبعل مجبرا بسببها على اخضاع منطقة واسعة لم تحدها المصادر بدقة، ولكن من المحتمل أن تكون المنطقة الحالية بين الوادي الكبير (Guadalaquivir) ومجرى نهر جوكار (Jucar) الأوسط، ليعود بعدها بغنائم معتبرة مع جيشه لقضاء الشتاء في قرطاجنة، وفي فصل الربيع توجه لحرب شعب الفاكايي (Vaccae) وظفر بعاصمتهم هيرموندিকা (Hermandica) والتي يطلق عليها إسم سالامونك (Salamanque) في قشتالة (Castille)، وبعد اخضاع منطقة قشتالة الجديدة (Nouvelle-Castille) لم يبق له دون نهر الإيبرو (L'Ebre) أي شعب خارج عن الهيمنة البونية فيما عدا مدينة ساغنتوم (Sagonte)².

كان هجوم حنبعل على مدينة ساغنته السبب الذي أشعل فتيل الحرب البونية الثانية، وقد استطاع القائد القرطاجي أخذ المدينة بعد حصار ومقاومة من سكانها لمدة ثمانية أشهر في سنة 219 ق.م ، وإذا ما أمعنا النظر في هذه الخطوة التي قام بها حنبعل فإننا نجد في الحقيقة لم يخالف

¹- Serge Lancel, op.cit, p 80.

²- Ibid, pp 80-81.

بنود معاهدة هسدروبال مع الرومان سنة 221 ق.م التي أعطت لقرطاجة الحق في التوسع في إسبانيا حتى نهر إيبرو ، الذي التزمت بعدم عبوره بقوة السلاح، وكانت مدينة ساغنتوم تقع ضمن الأراضي التابعة لمناطق النفوذ القرطاجي¹.

ويعود السبب الرئيسي وراء هجوم حنبعل على ساغنته إلى اشتباك الساغنتيين مع إحدى القبائل الإسبانية الموالية لقرطاج وذلك لإيوائها عددا من المنفيين السياسيين من هذه المدينة، ويبدو أن حنبعل كان يتحين الفرصة للإستيلاء على هذه المدينة التي تدين بالولاء لروما.² مع سقوط ساغنتوم كان شعور الرومان بضرورة التحرك أكثر جدية، والذي يبدو أنه كان أقوى من مجرد التحرك لنصرة مدينة صديقة³ لم يتأخر مجلس الشيوخ الروماني في ارسال بعثة إلى قرطاجة عام 218 ق.م طالب من خلالها الحكومة القرطاجية بتسليم حنبعل وهيئة قيادته، وعندما رفضت الحكومة القرطاجية تسليمه وأيدته أعلنت روما الحرب على قرطاجة فكانت مسألة ساغنتوم السبب المباشر لنشوء الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م).⁴

إلا أننا إذا ما عدنا قليلا إلى الوراء وربطنا هذه الأحداث ببداية توجه البرقيين نحو شبه جزيرة إيبريا بقيادة هاميلكار برقة لوجدنا أن هنالك ثلاثة أسباب لرئيسية كانت تقف وراء اندلاع هذه الحرب وهي:

أ- حقد هاميلكار برقه على روما التي كان يراها مغتصبة لأملاك القرطاجيين في صقلية، والتي أرغمته على تسليم تلك المدن البونية لقناصلها، لذلك كرس بقية حياته، للانتقام منها وأورث هذا الحقد لمن خلفه في اسبانيا.

ب- غضب الحكومة القرطاجية من نقض الرومان لعهودهم السابقة من خلال غزوهم لجزر سردينيا وكورسيكا اللتان كانت الاتفاقات بين الطرفين تنص على أنهما أملاك قرطاجية، هذا بالإضافة إلى تجديد الرومان تهديداتهم بالحرب.

¹ - نبيل قلالة، المتوسط الغربي، رمان الصراع القرطاجي الروماني 241-146 ق.م (تونس عبر التاريخ - العصور القديمة)، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، (ب ط)، تونس، 2007، ج1، ص124، ينظر أيضا:

-P.E. Matheson, The growth of Rome, Oxford university, press, p.27.

² - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص125.

³ - Serge Lancel, op.cit, p 90.

⁴ - R. Charles, The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Medes and Persians, Macedonians and Grecians, London, Vol , 1, 2011, p 421.

ت- نجاح قرطاجة في إعادة تأسيس قوة جديدة انطلاقا من وجودها في إسبانيا.¹
كانت الحرب البونية الثانية بين القرطاجيين والرومان على جبهتين رئيسيتين هما الجبهة الأوربية، والجبهة الإفريقية، وفيما يتعلق بالمجال الأوربي فقد التحم القرطاجيون في عدد من المعارك الشديدة مع الرومان منذ الخطوة الأولى البادئة بخروج حنبعل وجيشه من إسبانيا باتجاه إيطاليا.²
كان حنبعل يدرك أنه سيفقد جزء من جيشه بسبب طول الطريق من قرطاجة إلى سهل البو (Pô) ولذلك كان عليه حشد أكبر عدد من المحاربين في وقت خروج الجيش،³ وكان جيشه بعدد تسعين ألف (90000) رجل من المشاة واثنى عشر ألفا (12000) من الفرسان وهو رقم يبدو أنه مبالغ فيه نوعا ما. حين وصل الأراضي الإيطالية أخيرا لم يبق له من جيشه سوى عشرين ألفا (20000) من المشاة، وستة آلاف (6000) من الفرسان، ومن هنا كان واضحا أن جيش حنبعل كانت خسارته كبيرة لأعداد من مقاتليه خاصة حين عبر جبال الألب وكذلك حين عبوره نهر الرون (Rône) وصولا إلى سهل البو.⁴

تنوعت أحداث السنوات الخمس عشر التالية وهي المدة التي استغرقها حنبعل في زحفه على إيطاليا ثم حربه فيها، لتشتد الاشتباكات ضراوة بين القرطاجيين والرومان ، وقد حقق القائد القرطاجي انتصارات متتالية، ولم يكن على الأغلب القواد الرومان ذوي كفاءة في هذه المرحلة، فكلما التقوا به حلت بهم الهزيمة، كما في معارك تراسيمين "(Trasimène)" و"كاناي" (Cannae)، بل لم يستطع أي جيش روماني طيلة حملته على إيطاليا بأكملها أن يلحق الهزيمة به. كانت حملة حنبعل على إيطاليا قوامها أربعون ألف (40000) جندي من المشاة، وتسعة آلاف (9000) من الفرسان، و سبعة وثلاثين (37) فيلا، كان معظم جنوده من أنحاء متفرقة من إفريقيا وإسبانيا، كما قام بإلحاق مجموعات أخرى وهو في طريقه إلى إيطاليا من بلاد غالة، وكان أغلب جيشه من المرتزقة ولم يجمعهم تحت قيادة واحدة سوى حنبعل لخوفهم من بطشه.⁵

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب ، المرجع السابق، ص 126.

² - رشيد الناضوري، المغرب الكبير العصور القديمة (أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1981، ص 259.

³ - Polybe, op.cit, III, 35, 1.

⁴ - Serge Lancel, op.cit, pp 103-104.

⁵ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص ص 257 - 258.

وفي أوائل عام 218 ق.م، عبر جبال البرانس أو البيريني (Pyrénées) التي تشكل الحدود الشمالية الشرقية لإسبانيا مع فرنسا، ثم مر بنهر الرون (Le Rhône) إذ أراد الرومان أن يضعوا حدا لتقدمه ثم اتجه شرقا نحو جبال الألب وعبر هذه الجبال على الرغم من الصعوبات الجمة التي واجهها¹، إذ كابد حنبعل في أثناء عبوره لهذه الجبال مصاعب منها وعورة المسالك وصعوبة اجتياز الفيلة "الممرات العميقة قبل توسيعها، وتراكم الثلوج وتساقطها على الجيش"².

ولم تكن استراتيجية حنبعل تهدف إلى تدمير روما، ولكن ليفقدها فقط السيطرة على الحلف الإيطالي³ مع إجبارها على التعايش مع قرطاجة. إذ كان يقول "لم أخلق لأقاتل الشعب الإيطالي، ولكن لأحرر الإيطاليين من سيطرة روما"⁴. ويبدو أن الرومان لم يعطوا حنبعل وقتا كافيا لإراحة جنوده المنهكين وضم بلاد غالة إلى جانبه، وذلك أن كورنيليوس سكيبيو (Cornilius Scipio) بمجرد عودته من ماسيليا اتجه إلى الشمال، إذ جمع حاميات البو (Pô) وزحف غربا لمواجهة الغزاة البونيين، كما أن روما ما إن علمت بزحف حنبعل على إيطاليا حتى إستدعت تيبيروس سمبرونيوس (Tiberius Sempronius)، من صقلية لينضم إلى سكيبيو".

2- انتصارات حنبعل في إيطاليا 218-216 ق.م

أ- معركة تيكيнос أو تيسين (Ticinos ou Tessin) 218 ق.م:

تعد معركة تيكيнос⁵ (Ticinos)، أول صدام بين الطرفين على الأرض الإيطالية حيث عسكر الجيش القرطاجي بقيادة حنبعل على يسار نهر تيكيнос بينما عسكر الجيش الروماني بقيادة كورنيليوس سكيبيو على يمين النهر استعدادا للمواجهة، ولكن حنبعل فاقه بالمناورة وتغلب

¹- D. G. Consult, Alps Ele phants, Encyclopedia, international, 1ed, The Grolier society of Canda limited, New York , 1964, p 293.

²- ف. دياكوف، س. كوفاليف، الحضارات القديمة، تر: نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين للطباعة والنشر، ط3، دمشق، 2009، ج2، ص499.

³- في نهاية القرن السادس قبل الميلاد استطاع الرومان التخلص من الحكم الأتروسكي وتكوين الجمهورية الارستقراطية في عام 509 ق.م. وبدأت روما توطيد علاقاتها مع المدن اللاتينية المحيطة بها، وعقدت معها بعض المعاهدات التي حققت الوحدة الإيطالية تحت زعامة روما. ينظر: رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص241.

⁴- مونتجمري فيكونت، الحرب عبر التاريخ، تع: فتحي عبدالله النمر، المكتبة الفنية الحديثة، القاهرة، 1972، ص121.

⁵- نهر تيكيнос: أحد روافد نهر البو في شمال غرب إيطاليا. ينظر: سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان (من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية)، دار النهضة العربية، (ب ط)، القاهرة، 1982، ص146.

عليه في الاشتباك الذي وقع بينهما¹، فحين خرج سيكيبيو مع فرسانه وحاملي الحراب خفيفي السلاح، ليستطلعوا حجم القوات المعادية، لكنه اصطدم بحنبعل الذي قدم مع فرسانه يكتشفون المكان، وفي المواجهة الأولى تفاجأ رماة الحراب الرومان بسرعة تعبئة الخصوم، وفي هذه الواقعة لعب الفرسان النوميدي دوراً فاعلاً في مواجهة الخيالة الرومان إلى أن أجبروهم على الفرار في جماعات صغيرة².

وقد أصيب سيكيبيو نفسه بجراح خطيرة ونجا من الموت بأعجوبة³، وتمكن من عبور نهر البو⁴. وفي هذه الحادثة أوشك سيكيبيو حين حوَّصر بالفرسان النوميدي أن يقع أسيراً في أيدي القرطاجيين لولا أن أبنته أنقذه والذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر سنة بحسب تيتوس ليفيوس والذي أورد في نفس الوقت رواية أخرى تفيد بأن سيكيبيو تم إنقاذه من طرف عبد ليقوري (Esclave Ligue). ومع أن معركة تيكينوس لم تكن سوى مناوشات عسكرية، إلا أن انتصار فرسان حنبعل شجع الكثير من القبائل الغالية، بالتمرد على روما، وانضمامهم إلى القرطاجيين⁵، وحتى الجنود الغاليين الذين انضموا إلى معسكر الرومان كانوا يتوقون إلى الفرار وشق عصا الطاعة ثم هجروا الرومان وانضموا إلى حنبعل⁶.

ب- معركة تريبيا (Trebia) عام 218 ق.م:

في هذه المعركة تعرض الرومان لخيانة من قبل المقاتلين الغاليين الذين كانوا معهم في المعسكر فبعد تعرض سيكيبيو للإصابة والجروح البالغة، انتهز المقاتلون الغاليون الفرصة أثناء الليل فأخذوا يذبحون الجنود الرومان الذين كانوا بجانبهم في المعسكر وبعد أن قطعوا رؤوسهم⁷، انسحبوا

¹ - نبيل قلالة، المرجع السابق، ص 126-127.

² - Serge Lancel, op.cit, pp 139-140.

³ - R. Charles., The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Medes and Persians, Macedonians and Grecians, London, Vol , 1, 2011.p 421.

⁴ - نبيل قلالة، المرجع السابق، ص 127.

⁵ - صفا محمد أسد الله، أعلام الحرب (هانيبال)، دار النفائس، ط1، بيروت، 1987، ص ص 119-120.

⁶ - Ch. A, Julien, Histoire De l' Afrique Du Nord (Des origins à la conquête Arabe), 4th Ed, Tunis, 2003, p110.

⁷ - Polybe, op.cit, III, 67, 3.

لينضموا إلى معسكر القرطاجيين، وكان عددهم ألفين (2000) من المشاة ومائتان (200) من الفرسان¹.

بعد فرار الجنود الغاليين من الجيش الروماني، رأى سكيبيو من الحكمة أن ينسحب إلى مكان أكثر أمنا، فسار نحو نهر تريبييا (Trebia) العلوي، أحد روافد نهر البو، حيث انضم إليه سمبرونيوس². كان حنبعل يتوق إلى الحرب والغاليون ما يزالون مخلصين له، لأن من طباع الغاليين عدم ثباتهم على رأي أو مبدأ، وكان سكيبيو من جهة أخرى، يرغب في تأجيل المعركة، فضلا عن ذلك فإنه كان يعتقد أنه إذا تأخر القتال، هجر الغاليون حليفهم الجديد. ولكن سمبرونيوس الذي كان في يده زمام قيادة الجيشين الرومانيين منذ أن جرح سكيبيو، لم يكن يرغب في تأخير المواجهة ضد حنبعل، وقد أدرك حنبعل أنه من السهل إغراء القنصل الثاني واستفزازه على القتال، و هو ما سعى إليه القائد البرقي محاولا دفع غريمه نحو اجتياز نهر تريبييا³.

وهنا حدثت معركة شرسة دارت رحاها قرب نهر تريبييا، إذ الحق حنبعل الهزيمة بالجيش الروماني التي بلغ تعدادها أربعين ألف رجل⁴، وكان الفصل آنذاك شتاء، وهطلت أمطار وثلوج غزيرة، ففاض النهر، ولذلك أمر حنبعل أخاه الصغير ماغو (Mago)، أن يكمن مع عدد كبير من المقاتلين في مجرى نهر جاف، وفي نفس الوقت تحركت فرقة من الفرسان القرطاجيين عبر النهر قريبا من معسكر الرومان، وكانت مهمة هؤلاء الفرسان أن يغروا سمبرونيوس على ترك معسكره والتوجه للقتال⁵.

أمر القنصل سمبرونيوس الجيش الروماني بالتقدم نحو الجيش القرطاجي، دارت رحى المعركة عند نهر تريبييا عام 218 ق.م انتهت بهزيمة ساحقة للجيشين الرومانيين، اندحرا فيها وراحا يجران ذيول الهزيمة إذ تجمعت الجيوش الرومانية عند مدينة أريمينيوم (Ariminum)، وكان هذا يعني انسحاب الرومان وهجرهم لشمال إيطاليا من نهر الروبيكوم (Rubicon) حتى نهر البو لتصبح

¹ - Serge Lancel, op.cit, p 141.

² - صفا محمد أسد الله، المرجع السابق، ص185.

³ - R. Charles, op- cit, pp 423-424.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 146.

⁵ - أمين سلامة، التاريخ الروماني، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة 1959، ص ص 185-186.

هذه المنطقة تحت سيطرة حنبعل، ولولا تقلب الجو من ثلوج وأمطار لطارد حنبعل الجيوش الرومانية جنوباً¹.

كان من أهم النتائج التي ترتبت عن هذه المعركة أن الكثير من الغاليين تشجعوا على الانضمام إلى جانب القائد المنتصر، فبلغ عدد جنوده حوالي خمسين ألف (50000) مقاتل²، على أن نتائج انتصار "تريبيا" لم يكن مقتصرًا على الانكسار الروماني فحسب، بل كان له نتائج أكثر أهمية وأشد خطورة، ذلك أن أعداء الرومان لم يقتصرُوا في هذه المواجهات على القرطاجيين، وإنما كانت هناك أيضا العناصر الغالية التي ظلت في انتظار الوقت المناسب للزحف على روما، وانتهاء السيادة الرومانية عليها، هذا إلى جانب عناصر إيطالية أخرى كالسمنيين في الجنوب، كانت هي الأخرى تريد التخلص من الزعامة الرومانية، وهكذا كان انتصار حنبعل في شمال إيطاليا حافزا على تشجيع هذه العناصر، على إعلان الحرب ضد روما، وربما تأييدها لحنبعل في عملياته العسكرية³. وقد أدى ذلك كله إلى نتيجتين مهمتين بالنسبة لحنبعل هما : ضمان حنبعل سلامة طرق المواصلات مع اسبانيا، كما أن هؤلاء الخارجين على روما إنما سوف يصبحون جنودا، يحاربون معه ضد روما عدوهم المشترك⁴.

ت- معركة تراسيمين (Trasimène) 217 ق.م:

قضى حنبعل شتاء عام 217 ق.م في سهل البو محاولا إعادة تنظيم قواته وتدريبها⁵، وما إن قدم الربيع حتى بدأ يتحرك نحو جبال الإبنين (Apennins)، فاجتاز المنطقة المتاخمة لنهر الأرنو الأدنى (Arnus)، وهي منطقة مليئة بالمستنقعات وتتفشى فيها الأمراض، حتى أنه فقد إحدى عينيه بعد إصابتها بالرمد، وما إن هبط فيها حتى وجد قوات رومانية في انتظاره يقودها القنصل فلامينيوس (Flaminius) في قاعدته أريمينوم (Ariminum)، وعلى بعد 15 ميلا، توجد القوات الأخرى في أريتيوم (Aretium) لتحمي أتروريا⁶.

¹ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 147.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 276.

³ - رشيد الناصوري، المرجع السابق، ص ص 260-261.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 277.

⁵ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 147.

⁶ - R. Charles, op- cit, pp 427-428.

وانطلاقا من منطق الضربة الأولى لغرض السيطرة على مستقبل المعارك، تحرك حنبعل للقضاء على مخططات التحرك الروماني، وذلك بخدعة عسكرية هي غاية في المكر والدهاء، إذ تظاهر بتخريب حقول سهل أتروريا وقتل الماشية، وحرق القرى، لكي يغري فلامينوس بتتبعه، وبالفعل سار فلامينوس في أثره أملا في اللحاق به حتى وجد القائد الروماني نفسه محصورا بين بحيرة تراسيمين في إقليم أتروريا وبين قوات حنبعل التي لا ترحم¹، إذ أخفى أكثر قواته في التلال الواقعة على الجانب الآخر من الطريق المار بجوار البحيرة، وبينما كانت قوات فلامينوس تمر بهذا الطريق انقض عليها مقاتلو حنبعل من جهات مختلفة وأبادت الكثير منهم، وكان من بينهم قائدهم القنصل فلامينوس ولم يلبث حنبعل أن أحرز نصرا آخر على قوات رومانية أرسلت لتعزيز جيش فلامينوس، ولكنهم وصلوا بعد انتهاء المعركة ولم يكن نصيبهم، إلا الهزيمة².

ويبدو أن عددا كبيرا من الفرسان الرومان تم دفعهم من قبل الخيالة البونيين نحو البحيرة ليتم إغراقهم فيها، ولم ينج بحسب المصادر سوى ستة آلاف من مؤخرة جيش الرومان الذين نجحوا في اختراق الجدار الدفاعي المشكل من الأفافة والبونيين لكنهم بعد ذلك وقعوا أسرى في يد القائد القرطاجي مهربال (Mahrabal)³، ويشير الناصري انطلاقا من المصادر القديمة إلى أنها لم تكن معركة بل مذبحة راح ضحيتها خمسة عشر ألف (15000) روماني ما بين الوادي والبحيرة، بل أن بعض الجنود الرومان فضلوا أن يلقوا بأنفسهم في مياه البحيرة ليموتوا غرقا على أن يلقوا مصرعهم بيد مقاتلي الجيش القرطاجي⁴.

ولم يعد ثمة ما يعوق الفاتح البوني عن الزحف إلى روما مباشرة إذا شاء، ولكن حنبعل لم يدخل ضمن خطته حصار روما، ولذلك لم تعد معه معدات للحصار، ولم يستطع في أي وقت من أن يحصل على مدد من قرطاج، أو أن يجهزها في إيطاليا، فضلا عن معرفته بمدى تحصينات روما وأسوارها المنيعة، وهو الأمر الذي جعله يفكر في خطة أخرى للاستيلاء على روما، من خلال الاستيلاء أولا على جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية، وفصل روما عن جميع حلفائها في الجنوب الأمر الذي يدفعها أخيرا إلى الاستسلام⁵.

¹ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 147.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 276.

³ - Serge Lancel, op.cit, p 156.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ حضارة الرومان، المرجع السابق، ص 147-148.

⁵ - هـ. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، تر: توفيق أجويد مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1969، مج 2، ص 544-545.

ث- معركة كاناي (Cannes) عام 216 ق.م:

تركت هزيمة " تراسيمين " أثرا سيئا عند الرومان، ومن ثم فقد قرر الرومان تنصيب دكتاتور هو "فايوس مكسيموس" (Quintus Fulish Maximus)، ولم يحاول هذا الأخير مقابلة حنبعل في معركة كبيرة، خشية الهزيمة من جديد، وإنما عول على مهاجمة جيوش حنبعل ومواقعه بقوات صغيرة، والحق أكبر الأذى بها، وبذلك اكتسب هذا القائد الذي عين عام 216 ق.م لقب "المعطل" (Cunetator)¹، قام حنبعل بنهب أبوليا (Apulie) وسمنيوم وكمانيا في شهر أوت ثم أخذ الطريق الأيبانية (Voie Appienne) وهي طريق بطول خمسمائة كلم تخرج من روما وتمر بمحاذاة الأراضي الكمبانية الساحلية على الشاطئ التيراني، واجتاز أرض المارسيين (Les Marses) ولكن هل كان يستعد لمهاجمة روما؟²

كان فايوس وكذا قائد خيالته يتبعون خطوة بخطوة أثر جيش حنبعل دون الالتحام معه في معركة، ومن هذا البطء والتمهل في الاشتباك مع الأعداء، ولكن حنبعل الذي لم تكن تعوزه الفطنة باغت القائد الروماني في أحد الليالي باطلاق قطع من الأبقار مكون من ألفي 2000 بقرة، وهو ما أحدث ذعرا كبيرا وفوضى في معسكر الرومان وبذلك استغل حنبعل ذلك الدهول والفوضى عند الرومان ليتحرك بجيشه ويفر من فايوس ويتخلص من مراقبته اللصيقة، وحين وصل إلى جيرونيوم (Geronium) قضى الشتاء بها حينها طلب المدد من قرطاج من المال والرجال.³

غير أن الرومان سرعان ما ضاقوا ذرعا بخطة "فايوس"⁴ وقرروا العودة الى نظام القنصل بعد ستة أشهر من تعيين الدكتاتور، إذ تم اختيار بدلا عنه قنصلين من أبرز قادة الجيش هما إيميليوس

¹ - لم يدر في مخيلة الرومان، أن فايوس كان من أعظم عبقريات الجيش الروماني، وأن خطته (التباطؤ العسكري) لاتقل أهمية عن فلسفة الهجوم والاكتماس، وأن فكرة الدفاع والتحصين وبناء القوة العسكرية ليس في الحقيقة إلا هجوما مؤجلا حين انتظار نقطة ضعف تظهر في جبهة العدو، ولكن الوطنية المتدققة والتلهف على الدفاع أنفد الصبر التي اتصف بها الرومان. للمزيد ينظر: سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 149.

² - Yann le Bohec, op.cit, p 187.

³ - Ibid.

⁴ - سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص 149.

باولوس (Aemilius Paulus)، والآخر هو جايوس تيرنتيوس فارو (Caius Terentius Varro)¹.

وكان حنبعل بعد الانتصار في ترازيمين قد أعلن تحرير إيطاليا من السيطرة والسيادة الرومانية، ثم هبط على ساحل الأدرياتيك، إذ استولى في ربيع 216 ق.م على قاعدة الإمداد الرومانية في كاناي². والتقى الجيشان في أغسطس 216 ق.م بالقرب من مدينة كاناي، كان الجيش الروماني معتمدا على عدد من الخيالة، اندفع المشاة الرومان داخل حوض الهلال القرطاجي، أملا في الحاق ضربة قاضية بالقوات القرطاجية، وليدفعوا تلك القوات تجاه النهر³.

كان فارو "قائد الجيش الروماني قد اتبع الخطة التقليدية في تنظيم جيشه، إذ وضع جيشه في شكل طابور ضخمة على أمل أن يحقق النصر بهجوم مباغت⁴، غير أن حنبعل بما كان يعرف عنه من مهارة حربية، قد وضع أمام القوات الرومانية الضخمة مجموعة من المشاة الاسبان والغاليين، اخذت هذه المجموعة تتقهقر تدريجيا أمام هجمات العدو، حتى حوصرت من قبل القوات البرية من الجانبين⁵، وهنا أصدر حنبعل أوامره بالهجوم، فقام فرسانه بحركة التفاف سريعة أطبقوا فيها على قلب الجيش الروماني، وعلى مشاتهم في المؤخرة⁶.

وهكذا طوقت قوات حنبعل العدو تطويقا كاملا فلم ينجوا من الشرك الذي نصب لهم إلا حوالي عشرة آلاف (10000) مقاتل من بين خمسين ألف مقاتل، وتعد هذه المعركة مثالا لامعا لنجاح جيش صغير في تطويق جيش كبير والانتصار عليه⁽⁷⁾، أعقب ذلك هجوم المشاة من كل جانب، وهكذا نجح حنبعل في شل حركة المقاتلين الرومان، وقد قتل منهم أكثر من أربعين ألفا (40000) في المعركة، وأسر منهم عشرة آلاف (10000)، بينما فر الباقون مع فارو من بينهم

¹ - اتهمه الارستقراطيون الرومان بوضاعة الأصل كان أبوه قصابا، شكل جبهة المعارضة داخل مجلس الشيوخ الروماني وعلى الرغم من إخلاصه لأداء الواجب، وكان اختياره من قبل مجلس الشيوخ هو إرضاء المعارضين للنبلاء ومجلس الشيوخ من أجل الوحدة الوطنية والوقوف بوجه الكارثة التي تحيق بروما. ينظر: أمين سلامة، التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1959، ص200.

² - كاناي: (cannes) قرية صغيرة في الجنوب الشرقي من إيطاليا، قرب مصب نهر أوفانتو (سابقا أوفيد (Aufide)) على بحر الأدرياتيك، وهي قريبة من مدينة باري الإيطالية، والى الشمال منها، ينظر: مونتميري فيكونت، المرجع السابق، ص122.

³ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص278.

⁴ - هـ. ويلز، المرجع السابق، ص 544-545.

⁵ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 262-263.

⁶ - إبراهيم رزق أيوب، المرجع السابق، ص129.

⁷ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص278.

القنصل باولوس، ومعهم ثمانون عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ، ومع ذلك فإن حنبعل لم يستطع الزحف إلى روما لأنه لم يكن يملك أدوات الحصار¹.

وكان من نتائج هذه المعركة أن هزيمة "كاناي"، أما كانت أكبر وأعنف معركة عرفها التاريخ القديم، فلقد غيرت هزيمة الرومان فيها وجهة الحرب، حتى أن قسما كبيرا من جنوب إيطاليا قد انحاز إلى حنبعل، بما في ذلك "كابوا" (Capoue) المدينة الصناعية المهمة، وأكبر المدن الإيطالية بعد روما الواقعة جنوب شبه الجزيرة، وهذا يعني أنه قد توافر للبونيين قاعدة قوية لإمداداتهم، فتمكن بذلك حنبعل من نقل قاعدته من أبوليا إلى سهل كمبانيا من غير أن يترك عدوا وراء ظهره، وفي الوقت نفسه عقد "فيليب الخامس" (221-179 ق.م) ملك مقدونيا معاهدة مع حنبعل²، ذلك لأن الرومان قد بدأوا يتدخلون في شبه الجزيرة اليونانية الأمر الذي عَدَّهُ فيليب الخامس عدوانا على سيادته هناك³.

3- استعادة المبادرة من طرف الرومان ونهاية الحرب

مرت روما بحقبة من أحلك سنوات تاريخها السياسي، فقد واصل الرومان تقدمهم بعزيمة، وربما ساعدهم ما أصاب قوات حنبعل من ضعف ونقص نتيجة المعارك المتتالية، كما أن امداداته من إسبانيا كانت قليلة، إذ لم تكن تغني عما يحتاج اليه في عملياته العسكرية، فضلا عن إعراضه عن حصار روما، واعتماده على ثورة حلفائها، وهو ما جعله في موقف ليس من السهل توقع عواقبه، وقد قسم جيشه بين هذه المدن المختلفة ضد أي اعتداء روماني، وهكذا لم تتعد لحنبعل القدرة على التحكم في جيش قوي والانتصار به على أعدائه⁴.

وفي هذا الجزء الأول من الحرب البونية الثانية يمكننا دراسة التنوع الكبير من الخطط التكتيكية والتي تمحورت حول استراتيجيتين، فقد أمن حنبعل بنجاح المسار من قرطاجة إلى توران

¹ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص263.

² - كان الجند المرتزقة في الجيش القرطاجي (ولا سيما من العناصر الغالية واليونانية) قد استخدموا التضحية البشرية تقريبا للقوى الآلهية، وأملا في مساندتها للجيش القرطاجي، وقد حدثت العملية في المرحلة المهمة من الحرب البونية الثانية، هذا يؤكد دذبذة النفوس وعدم استقرارها الكامل داخل نظام الجيش، ويتم التضحية بهم على أساس أنهم ليسوا من صميم الجيش القرطاجي، لذلك لم تتقدم القبائل الغالية في هذه المرحلة بتحقيق المساعدات الحربية الفعالة للقرطاجيين، مما أدى إلى اضطراب حنبعل إلى البحث عن حليف جديد غير دولته القرطاجية أو القاعدة القرطاجية في إسبانيا، أو حلفائه من العناصر الغالية، بل من قوة جديدة لمعت في المحيط الدولي في تلك الحقبة، وهي القوة المقدونية، وعلى رأسها الملك "فيليب الخامس". ينظر: رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص265.

³ - نفسه، ص ص 262-267.

⁴ - ول ديورانت، قصة حضارة "حياة اليونان"، تر: محمد بدران، القاهرة، 1954، ج3، مج2، ص195.

(Turin). في تيكسين نجح تحقيق انتصار بسرعة مثالية، في تربيا خاض معركة كلاسيكية ناجحة. وفي تريزيمان نصب كمينا كلل بالنجاح. وفي كاناي نجح في الانتصار في معركة أساسها محاصرة جيش العدو ومن ثم القضاء عليه، وهنا تظهر لنا إمكانيات ومواهب حنبعل الحربية الكبيرة كمخطط كبد أعداءه خسائر فادحة، وفي يوم 02 أوت من سنة 216 ق.م كانت روما قد خسرت أربعة معارك لكن روما لم تخسر الحرب.¹

وقد كانت خطة حنبعل في السنوات التالية لمعركة كاناي هي محاولة الاستيلاء على المدن الساحلية الاغريقية، والتنقل من مكان الى آخر على أمل أن يغري الرومان على الاشتباك معه في مواقع يدحرهم فيها، وبذلك يضطرون إلى الاستسلام آخر الأمر، وكانت خطة الرومان تقضي بتضييق الخناق على حنبعل، وذلك من خلال قطع اتصالاته مع الغاليين ليحولوا دون وصول إمدادات إليه، وفي نفس الوقت متابعة النشاط الذي بدأ به سكيبيو الأفريقي في إسبانيا لمنع وصول إمدادات إلى حنبعل من الخارج، ومن ناحية أخرى تتبع قاوات حنبعل مع الامتناع عن خوض معارك معه، مع محاولة استرجاع المدن التي انحازت إلى جانبه للحد من حصوله على المؤن.²

وهكذا بدأت ظروف الحرب تتغير بعض الشيء، واتجه جيش روماني إلى سيراكوز التي أصبحت واجهة جزيرة صقلية في هذه المرحلة من (الصراع القرطاجي - الروماني) وحلقة من حلقات هذا النزاع، وذلك عندما تنازعت الأحزاب السياسية داخل هذه المدينة بين الاتجاه القرطاجي و الروماني، إثر وفاة الملك هيرون (Hieron). وقد حاول كل من القرطاجيين والرومان تأييد أتباعهم في صقلية، وتطور الموقف الى حرب قوية بين الطرفين تمكن فيها الرومان من احراز الانتصار ودخول مدينة سيراكوز سنة 211 ق.م.³

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p 193.

² - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص 279-280.

³ - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 275.

اتجه الرومان بعد ذلك الى كابوا على مقربة من مدينة نابولي الإيطالية، فاحتلوها عام 211 ق.م، ثم تلاها سقوط تارنتوم في أيديهم عام 209 ق.م، بمرفأها الرئيس الذي يتلقى مؤن من قرطاجة، ثم سرعان ما بدأت إسبانيا تنتزع من أيدي القرطاجيين شيئا فشيئا، إلى أن سيطر الرومان على إسبانيا بالكامل¹. وهكذا تعقد الموقف بالنسبة لحنبعل على أثر التطورات الأخيرة التي اتسمت بالخطورة، وأصبح مركزه حرجا في شبه الجزيرة الإيطالية، فلم يعد قادرا على الاستيلاء على روما على الرغم من أنه كان على بعد ثلاثة أميال منها. ولم تصل الإمدادات التي طلبها من قرطاجة، من أسلحة ومؤن².

أ- معركة ميتاروس عام 207 ق.م:

كانت فكرة توطيد النفوذ الروماني في إسبانيا تراود أعضاء مجلس الشيوخ منذ بدء الحرب، وقد عملوا على تحقيقها، فلم تأت حنبعل أية امدادات من تلك الناحية، وفي النهاية تمكن أخوه هسدروبال من الإفلات من الجيش الروماني المرابط هناك بقيادة سكيبيو الأفريقي، واتخذ طريقا جديدا، حتى يتجنب أية مقاومة قد تعترض طريقه من جانب الرومان في إسبانيا، وأخيرا أصبح الطريق ممهدة أمامه إلى إيطاليا³. لم يجد هسدروبال صعوبة كبيرة في عبور جبال الألب مثلما لاقى حنبعل، إذ كان الفصل ربيعا ولم تكن الممرات مغطاة بالثلوج، كما أن القبائل المحلية كانت أكثر إخلاصا وأمانة، كما ساعدته الجسور والممرات التي شقها حنبعل عبر الصخور، اجتاز هسدروبال أراضي الغال وبلغ مدينة أرمينيوم (Ariminum) التي تقع على البحر الأدرياتيكي في إقليم أمبوريا في شمال شرقي شبه الجزيرة الإيطالية، وكان حنبعل يربط في إقليم أبوليا في الجنوب الشرقي، إذ تصدى له أحد القنصلين وهو كلوديوس نيرون (Claudius Nero) الذي عُهِدَتْ إليه مهمة تأديب بعض الإيطاليين المتمردين⁴.

أما القنصل الآخر، وهو ماركوس ليفيوس (M. Livius) فكان يترقب وصول الفاتح الجديد على الطريق الساحلي الكبير في جنوب ميناء أرمينيوم، وبعث هسدروبال إلى أخيه برسول ليخبره بمقدمه ويقترح عليه خطط التعاون، وما أن بلغت روما هذه الأنباء عن طريق رسول

¹ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 266.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 275.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، روما تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (ب.ت)، ج 1، ص ص 117-118.

⁴ - أمين سلامة، المرجع السابق، ص ص 208-209.

هسدروبال الذي وقع أسيرا في أيدي الرومان¹، حتى اتخذ نيرون خطوة وإن كانت من غير إذن السيناتو إلا أنها خلدت ذكره بين الرومان، فقد ترك قوة كافية لحجز حنبعل، ثم تسلل خفية إلى الشمال مع سبعة آلاف (7000) من جنوده المختارين من غير أن يكشف أمره لأحد، وقد كان من أكثر القواد دهاء، وبلغ معسكر ليفيوس في المساء بعد رحلة استغرقت حوالي مائتي 200 ميل كان اتباعه في إيطاليا الوسطى يمدونه خلالها بالموونة ويدعون لجيشه النصر².

وعند نهر ميتاروس (Metaurus) وهو نهر صغير يربط بين إقليم أومبريا من جبال الابنين الى البحر الادرياتيكي جنوبي أريمينوم بيضعة أميال، حدثت معركة ميتاروس عام 207 ق.م، وتمكن الرومان من الانتصار على قوات هسدروبال، وكانت أولى الاخبار التي وصلت إلى حنبعل عن الهزيمة الجديدة، تحمل معها رأس أخيه المفصول عن جسده³.

ولأول مرة بعد سنوات طويلة من بدء الحرب الميرية، غمرت روما موجة من الفرح الشديد، ولأول مرة في تاريخها تنبعت منها تعاويذ صادقة بالشكر للآلهة على النعمة التي لا تقدر بثمن، ولم يكن العرفان الجميل نحو الآلهة أو للبشر صفة بارزة في أخلاق الرومان، ولكن في تلك اللحظة التي تملكهم فيها شعور ديني صادق كان أول ما خطر ببالهم هو شعورهم باستعادة "سلام الآلهة" بشكل تام غير منقوص، وقرر السناتو إقامة عيد شكر رسمي ثلاثة أيام، فاغتنم الشعب فرصة العيد وتدفقوا على المعابد⁴.

ب- معركة زاما (Zama) عام 202 ق.م:

رأى سكيبيو في توجه هسدروبال إلى إيطاليا لمساعدة أخيه حنبعل فرصة لضمان تأمين إسبانيا، وكان سكيبيو⁵ حينها شابا يكتنف شخصيته شيء من الغموض، ولعل السنوات الطويلة

¹ - ه. ويلز، المرجع السابق، ص 546.

² - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 119.

³ - R. Charles, op- cit, p 451.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ص 119-120.

⁵ - بيبليوس كورنيليوس سكيبيو أو سكيبيو الإفريقي (Scipion l'Africain) أو الإفريقي الأول (Le premier Africain) ولد سنة

236 أو 235 ق.م في عائلة من الأشراف من النبلاء القدامى، كان مساره المهني الأول وهو ما يهمننا عسكريا بحتا، في تيكسين كان حاضرا حين أصيب والده، شارك في معركة تريبيا وكان يحما منصب تربيون عسكري Tribun Militaire في معركة كاناي والملاحظ أنه نجح في تحليل ودراسة مواطن الضعف في مسار روما العسكري خلال هذه الحرب، وكذا مواطن قوة حنبعل، هذه الخبرة التي اكتسبها سمحت له فيما بعد بتحقيق

مسار سياسي لامع. أنظر. Yann le Bohec, op.cit, p 225.

التي قضاها في إسبانيا بمنأى عن المنافسين الذين يسعون لمواجهة جعلته يعتد بشخصيته وينميها، كان كثير الثقة بنفسه، فلما عاد إلى روما بعد معركة ميتاروس (Metaurus)، انتخب قنصلا في عام 205 ق.م مع أنه ما يزال دون السن القانونية، واسندت اليه قيادة جيش ولاية صقلية¹.

وعند قيام سكيبيو بحملاته في إسبانيا مهد الأمر لغزو إفريقيا بإنشاء علاقات مع كثير من زعماء القبائل في نوميديا ولاسيما مع سفاكس (Syphax)، وكان أعظمهم شأننا خاصة وأنه سبب الكثير من المتاعب لقرطاجة، وعلى أثر ذلك طلب من مجلس الشيوخ السماح له بغزو إفريقيا، لكن المجلس رفض أول الأمر خوفا من خفض عدد القوات التي تدافع عن إيطاليا طالما بقي فيها حنبل، وكذلك تجنبنا لفرض أعباء جديدة على الحلفاء الإيطاليين لحشد قوات أخرى، وبعد مناقشات عنيفة بين مؤيدي سكيبيو ومعارضيه، قرر مجلس الشيوخ أخيرا التصريح له بالعبور إلى إفريقيا، بل بادر بالسماح له بتجنيد الكتائب². كان أسطول سكيبيو يتكون من أربعمئة (400) سفينة لنقل الجنود وأربعين (40) سفينة حربية، وقيل كان لديه اثني عشر ألف وخمسمئة (12500) جندي، وتم تجميع الأسطول في ميناء ليليوم أو ليليبي (Lilybée) في صقلية وقد أبحر الأسطول ووصل إلى ساحل إفريقيا بجوار ميناء أوتيكا³.

بادرت الحكومة القرطاجية إلى استدعاء حنبل من إيطاليا، وامثل الأخير على مضض منه وكان في شك من وصول الإمدادات من قرطاجة، وبعد ان استولى على إيطاليا ودمر أكثر من 400 مدينة، عاد لكي يتولى قيادة أبناء وطنه في آخر معاركه ضد الرومان⁴.

وعندما نزل سكيبيو على الشاطئ الإفريقي، لاقى قوة صغيرة من الخيالة التي جمعتها قرطاجة بسرعة، فقام بمنورة متظاهرا بتقهقر قواته وكان ذلك في عام 204 ق.م كما تظاهر باستعداده لعقد الصلح، ودخل مع القرطاجيين في مفاوضات أطالها عامدا، وما أن حل ربيع عام 203 ق.م حتى قطع المفاوضات وقام بحملة خاطفة بددت شمل الجيش القرطاجي، وجيش سفاكس، وعندما أعيد تكوين هذين الجيشين انزل بهما سكيبيو بهم هزيمة ساحقة، ثم جاء بحليفه ماسينيسا

¹ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ص 120-121.

² - إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، ج1، المرجع السابق، ص ص 285-286.

³ - أمين سلامة، المرجع السابق، ص ص 222-230.

⁴ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 263.

(Massinissa) وسلمه عرش بلاد نوميديا فضمن بذلك مساعدة خياله القادرة على منازلة خيالة حنبعل، ولزيادة تأثير هذا النوع من الضغط المعنوي على قرطاجة التي طلبت قرطاج الصلح¹. كانت شروط السلام تتضمن ترك قرطاجة لإسبانيا، تخفيض سفن أسطولها الى عشرين، ودفع غرامة حربية مقدارها خمسة عشر (15000) ألف تالنت ، إلا أن ذلك لم يستمر بعد عودة حنبعل إلى قرطاجة، إذ علت الأصوات باستئناف الحرب مع روما². وفعلا قامت الحرب مجددا، لان بنود المعاهدة كانت تهدف إلى إنهاء السيادة القرطاجية في حوض البحر المتوسط، فضلا عن المجال المغاربي، وبصورة مهينة للقرطاجيين، الأمر الذي عجل بمعركة زاما (Zama) أو جامعة في عام 202 ق.م³. ولسوء حظ القرطاجيين فقد هزم جيشهم هزيمة ساحقة بسبب الدور الذي لعبه الجيش النوميدي الحليف لروما والمعادي لقرطاج، وتم على إثر هذه الهزيمة إبرام معاهدة بين الطرفين سنة 201 ق.م⁴:
- ضمان روما لاستقلال قرطاجة.

- احتفاظ قرطاجة بقوانينها وأراضيها الإفريقية التي كانت لها قبل الحرب البونية الأولى.

- تمتنع قرطاجة عن كل عمل سياسي لا توافق عليه روما.

- عدم اقدام قرطاجة على شن أية حرب لا ترضى عنها روما، وعدم تعبئة اي جنود من أوربا.

- الاعتراف بماسينيسا ملكا على بلاد أجداده وبعض الأراضي التي انتزعها من مملكة سفاكس.

- تخلي قرطاجة عن كل فيلتها والتعهد بعدم تربيتهما ثانية.

- تجريد قرطاجة من أسطولها والسماح لها بالاحتفاظ بعشرة سفن فقط.

- إعادة ما غنمته قرطاجة في حروبها من غنائم رومانية.

- اعادة جميع الأسرى الهاربين من الرومان.

-على قرطاجة الانفاق على الجيش الروماني وحلفائه الى أن يعود المفاوضون من روما وتوقيع الصلح.

- دفع غرامة حربية قيمتها عشرة آلاف (10000) تالنت ذهبي لمدة خمسين سنة.

- تقوم قرطاجة بتسليم مائة (100) من أفراد الأسر الكبيرة كرهائن لدى روما لضمان تنفيذ الشروط⁵.

¹- إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 287.

²- R. Charles, op-cit, pp 458-459.

³- أحمد صفر، المرجع السابق، ص 231.

⁴- إبراهيم رزق الله أيوب ، المرجع السابق، ص 133.

⁵- R. Charles, op-cit, pp 460-461.

IV- أحداث النصف الأول من القرن الثاني ق.م واندلاع الحرب البونية الثالثة

1- أوضاع منطقة غرب المتوسط قبل اندلاع الحرب البونية الثالثة

كانت معاهدة 201 ق.م التي تَوَجَّبَ على قرطاج قبولها قد صنعت توازنا جديدا وكان ذلك الوضع أسوأ من ذلك الذي أعقب اتفاق 241 ق.م، فقد انحسر المجال الإفريقي خاصة مع تواجد ماسيسينيسا بالجوار، لقد خسرت قرطاج الدولة التي أسسها البرقيون في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية لصالح الرومان، كما تقلص الجيش القرطاجي وأصبح بحجم درك أو شرطة وتحولت قوتها البحرية إلى وظيفة مراقبة الساحل فقط، هذا بالإضافة إلى تعويضات الحرب التي خسرتها الخزانة العمومية ورغم هذه الظروف و هذا الاقتطاع الضخم يبدو أن الاقتصاد القرطاجي قد شهد بعد ذلك تنظيما جيدا¹.

كانت قرطاج بحسب وصف فرانسوا دوكره بعد معركة زاما عبارة عن عاصمة عظيمة توقف تاريخها، وقد حاولت لمدة تفوق الخمسين سنة التعايش والتأقلم مع الشروط التي فرضتها عليها روما، ولكن الرومان على ما يبدو كانوا قد بتوا في مصيرها إلا أنها كانت تحاول الاستفادة من فرصة أخرى². كانت نهاية الحرب البونية الثانية إيذانا ببدء توسع روما الإمبريالي، إذ كان مجلس الشيوخ الروماني قد تنبه إلى ضرورة العمل على تحصين إيطاليا من الغزو في المستقبل، وكان تكرار الغزو كما اعتقد مجلس الشيوخ الروماني على الأقل أمرا متوقعا سواء من جانب إسبانيا أو إفريقيا، بل من الممكن أن يكون من جانب مقدونيا، تلك الدولة القوية التي كان ملكها فيليب قد ناصب العداء لروما منذ معركة كاناي³.

لكن الرومان رأوا أنه طالما كان حنبعل في إيطاليا فلن يكون عندهم وقت ولا قوات يمكن توجيهها نحو مقدونيا ولذلك نجى الملك فيليب من ملاحقة الرومان حينما من الدهر، على الرغم من تجرأه على تحدي روما، وبعد الصلح بين روما وقرطاجنة أرسل الرومان جيشا قوامه عشرون (20000) ألفا، عبر البحر الأدرياتيكي لمحاربة ملك مقدونيا. وقد أسندت قيادة الجيش في بلاد

¹ - Yann le Bohec, op.cit, p 225.

² - فرانسوا دوكره، قرطاجنة أو إمبراطورية البحر، المرجع السابق، ص 217.

³ - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 125.

الإغريق عام 198 ق.م إلى القنصل فلامينوس، وفي السنة التالية، التقى بفيليب في سينو سيفالي أين وقعت المعركة بين الطرفين (Cynoscéphales) وانتصر فيها الرومان¹.

بعدها فرضت روما حمايتها على بلاد الإغريق كافة، وكانت روما ترمي من وراء هذه الحماية أن تدافع عن الإغريق ضد عدوان فيليب، غير أن هذه الحماية سرعان ما تحولت إلى سيطرة، بعد أن ساءت علاقة روما أولاً مع الحلف الإيتولي ثم مع الحلف الآخي. ومنذ ذلك الحين لم تتمتع الأحلاف أو المدن الإغريقية بالحرية، ولو استطاع الإغريق أن يقضوا على منازعاتهم لكن من الجائز أن يستفيدوا من هذه الحماية ولكنهم أحسوا بوطأة النفوذ الروماني حتى قبل أن تخضعهم روما خضوعاً تاماً عندما دمرت كورينثة وحلت الحلف الآخي في عام 146 ق.م².

أما إسبانيا التي أخذها الرومان من قرطاجة عام 201 ق.م، فلم يكتف الرومان بالاستيلاء على القواعد البونية بها، بل أرادوا تأمينها من الجانبين البحريين: الشرقي والغربي فخاضوا حربين طويلتين امتدت أحدهما من سنة 197 ق.م إلى سنة 179 ق.م، والثانية من سنة 154 ق.م إلى سنة 133 ق.م، عانوا فيها من شراسة حرب الشعوب المحلية في تلك المناطق، إلا أنهم انتصروا في النهاية على هؤلاء فسيطروا على شبه جزيرة أيبيريا³.

فقد انشأوا قيادتين دائمتين ومن ثم ولايتين في سنة 197 ق.م، إحداهما في حوض نهر الإبرو إلى الشمال الشرقي وتعرف باسم "إسبانيا القريبة" (Hispanie citérieure) والأخرى تعرف باسم "إسبانيا البعيدة" (Hispania ultérieure) في حوض "وادي آنه" و"الوادي الكبير" وهما الأسمان اللذان يطلقان اليوم على النهرين الكبيرين في جنوب إسبانيا، وأخذ الرومان يتقدمون من تلك المنطقة ببطء ومثابرة كما هو نحو الهضاب المرتفعة في وسط إسبانيا، ورغم ما تكبدوه من صعاب، حتى بسطوا سيطرتهم على الجانب الأكبر من شبه الجزيرة (154-133 ق.م)⁴.

ومن أهم أحداث هذه الحقبة أي ما بين الحربين، نجاح ماسينيسا في انتهاز فرصة ضعف قرطاجة ليتمكن لدولته النوميدية، إلا أنه لم يكتف بهذا القدر من السيادة، بل كان يطمح في

¹ - سامي سعيد الأحمد، تاريخ الرومان، جامعة بغداد، 1988، ص 66-67.

² - عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 126.

³ - إبراهيم رزق الله أيوب، المرجع السابق، ص 138.

⁴ - عبد اللطيف أحمد علي، الجمهورية الرومانية، المرجع السابق، ص 127.

التوسع على حساب بقية أملاك الدولة القرطاجية وهذا يناقض ما نصت عليه معاهدة زاما 201 ق.م الموقعة بين القرطاجيين والرومان، وبما أن بنود المعاهدة كانت تحرم على الأول القيام بالحرب من غير إذن الرومان فلم يكن أمام القرطاجيين غير إستجداء الرومان بصدد التدخل لإيقاف ماسينيسا من استمراره في الاستيلاء على المواقع القرطاجية¹.

وبما أن روما قد بدأت منذ عام 167 ق.م، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة سواء في أفريقيا، أو في خارجها، مع إظهار تعاطف واضح مع ماسينيسا الذي يغذي شكوكها نحو قرطاجة، كان ماسينيسا يعمل على التظاهر الكلي بالتحالف مع الرومان، وفي الوقت نفسه يوغر صدورهم بالكراهية ضد القرطاجيين، بل كان يصل إلى المجاهرة باتهامهم باستعادة نشاطهم المعادي للرومان². وسرعان ما أرسلت روما في إحدى المرات ماركوس بوركيوس كاتو (Marcus Porcius Cato) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاجة، وكان محاربا قديما، إذ شاهد بأم عينيه أن قرطاجة قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها ورفيها، فهاله ذلك، بل أربه ما في قرطاجة من بعض دلالات الرخاء، ومنذ تلك الزيارة أخذ يؤزم الموقف الروماني باتجاه قرطاجة، داعيا إلى تدميرها³.

بعد أن وافقت قرطاجة على بنود اتفاقية زاما، وإنهاء الحرب. عاد حنبعل لمدينته الأم إذ بادر بالقيام بإصلاحات عديدة، في الجانب الإداري والسياسي بقرطاج لا سيما الشؤون المالية والقضائية، لكن الطبقة الارستقراطية لم يعجبها هذا الاصلاح لأنه مس مصالحها، فتواطأت مع روما للتخلص منه⁴.

ظلت وشايات الحزب الارستقراطي القرطاجي بقرطاج تنهمر على المجلس الروماني من غير انقطاع، حتى أنها أوهمتها بأنه يتهيا للأخذ بالثأر منها بالتحالف مع أنطيوخوس ملك سوريا فحزم هذا المجلس أمره وقرر أن يقوم بعمل حاسم، فوجه إلى قرطاجة بعثة لحل بعض المشكلات العالقة بين قرطاجة وماسينيسا ملك نوميديا، وغايتها الحقيقة إلقاء القبض على حنبعل، وجره

¹ - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 276.

² - محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 281-282.

³ - نبيل قلالة، المرجع السابق، ص 135-136.

⁴ - نفسه، ص 133.

أسيرا إلى روما¹. لم تنطل تلك الحيلة على حنبعل، فأدرك السبب الحقيقي لمجيء تلك البعثة إذ أدرك أن روما ستطلب تسليمه بلسان وفدها، وأن خصومه السياسيين سيعملون كل ما في وسعهم ليسلموه، فقرر ألا يقع في ذلك الشرك المنصوب له².

بعد تأمر حزب التجار القرطاجي ضد حنبعل ابتعد هذا الأخير عن الحياة السياسية والعسكرية. واتجه هاربا إلى بلاد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث حتى لا يقع بيد أعدائه، لكنه بعد خسارة السلوقيين الحرب مع الرومان عام 199 ق.م، لم يبق أمامه إلا الهروب وظل ينتقل من المدن والمملكة الهيلينستية حتى وصلته دعوة من بروسياس (Prusias) ملك بثينا (Bithynie) بآسيا الصغرى للعمل كمستشار عسكري، وعندما علمت روما بوجود حنبعل في بلاد الملك البيثيني طالبت بتسليمه بالحاح، على أثر ذلك أثر حنبعل تجرع السم الذي كان يحتفظ به دائما، فغاب الشبح الذي كان كابوسا يؤرق روما طويلا في عام 183 ق.م، وحرمت روما بذلك من فرصة السير بحنبعل في مواكب نصرها³.

والغريب في الأمر أن مصير سكيبيو الإفريقي لم يكن أفضل من مصير حنبعل، فبعد أن كان الجنرال المظفر بالنصر تقلد عدة مناصب بين سنة 199 ق.م وسنة 183 ق.م من بينها قنصل لسنة 194 ق.م، لكن أعداءه ومنافسيه السياسيين اتهموه بارتكاب تجاوزات في حرب سوريا وربط علاقات صداقة مع الأعداء، لم يحكم عليه بسبب هذه التهم لكنه فضل المنفى سنة 183 ق.م في مدينة صغيرة بكمبانيا تسمى ليتارن (Litterne) أين مات بها⁴.

¹ - نبيل قلالة، المرجع السابق، ص 134.

² - أمين سلامة، المرجع السابق، ص 243.

³ - محمد صفا، المرجع السابق، ص 257؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 279.

⁴ - Yann le Bohec, op.cit, p 258.

2- الحرب البونية الثالثة (149-146ق.م) ونهاية الصراع.

إزاء تلك التطورات السياسية الرومانية غير المتوازنة، أخذت قرطاجة تسليح نفسها سرا لتستطيع مواجهة خصومها الطامعين فيها، ولكن وصول الأحزاب الشعبية إلى السلطة وحماسة زعماء هذه الأحزاب، دفعها إلى التسليح علنا مخالفة بذلك اتفاقية 201ق.م¹.

ولم يكن موقف الرومان موقف المستطلع للأحداث، بل كان عزمهم على القضاء على الدولة القرطاجية، ولكن كانت عمليات الاستعداد سائرة في سبيل الاستكمال ولانتظار الوقت المناسب، وقد شعرت الدولة القرطاجية بخطورة الموقف، وحاولت تجنب الرومان في هذه الأزمات المستمرة بين القرطاجيين والبربر ولكن دون جدوى، وقد أمعن الرومان في إذلال القرطاجيين عندما طلبوا منهم إحضار ثلاثمائة رهينة، وكذلك تسليم كافة الأسلحة القرطاجية البرية والبحرية نظير إيقاف التهديد بالتدخل العسكري في شؤون حسم النزاع بين القرطاجيين والبربر².

حاولت قرطاجة، تجنب التهديد الروماني، غير أن روما كانت قد عقدت العزم على الحرب، مهما كانت الظروف، ومن ثم فقد قرر الزعماء القرطاجيون تجنب الحرب فأرسلوا الرهائن التي طلبها الرومان ثلاثمائة طفل من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي، كما أرسلوا أسلحتهم، بل استعدوا كذلك لتسليم بعض أراضي بلادهم، على أن هذا الخضوع القرطاجي لم يكن ليزيد روما إلا تجبرا وعتوا، ولم يكن ليزيد طبقة الفرسان الرومانية الغنية إلا شراهة وجشعا، وهم الذين كانوا يتطلعون إلى إدارة الحكم في روما³.

بل كان من مطالبهم بأن يترك القرطاجيون مدينة قرطاجة كليا وينتقلوا إلى مكان آخر، يبعد عشرة أميال عن المدينة، ومن الغريب أن يكون هذا المطلب من قادة يكاد يعتمدون اعتمادا كليا في معاشهم على التجارة فيما وراء البحار، وهكذا كان على القرطاجيين أن يختاروا بين هجر مدينتهم والنزوح إلى الداخل وبين مواجهة الحرب بكل آثارها، وبما أن الرأي الثاني هو الأفضل أستؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى، وهي الحرب البونية الثالثة (149-146ق.م)⁴.

¹ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص181.

² - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص277.

³ - ه. ويلز، المرجع السابق، ص556.

⁴ - الليغر فينغريد، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة عيد مرعي، ط1، روافد للثقافة والفنون، دمشق، 2008، ص141.

انطلقت العمليات الحربية الموصوفة بالحل النهائي سنة 149 ق.م، وهنا أثبتت قرطاج أنها لن تخرج عن عرف المدن الفينيقية الشرقية، فقد احتاج الإسكندر المقدوني لسبعة أشهر لكي يهزم مدينو صور المحصنة بجزيرتها، أما الرومان فتحتهم بفرقهم وأساطيلهم أن يحاربوا ثلاث سنوات أمام أبواب مدينة إيليسا.¹ كان الجيش الروماني مشكلا من ثمتين ألفا (80000) من المشاة ونحو أربعين ألف (40000) فارس، ولم تكن روما قبل ذلك بقليل أي قبل نحو سنتين تستطيع تجنيد مقاتلين بسهولة وذلك خوفا من مواجهة المقاتلين الاسبان الأشداء، وإذا بالمتطوعين هذه المرة ينخرطون في الجيش بأعداد كبيرة وذلك للمشاركة في حرب مضمونة النهاية طمعا في منافع دون الاكتراث بالآخطار، أما الاسطول القرطاجي البحري فكان يضم خمسين سفينة خماسية، ومائة سفينة حربية صغيرة الحجم وعددا من سفن أخرى غير مسلحة وسفن شحن وغيرها².

للمرة الثالثة أصبحت قرطاج وروما في حالة حرب، فبينما كانت قرطاج تتأهب للحرب كان القنصلان الرومانيان ماركيوس (Marcius) ومانيليوس (Manilius) مستسلمين إلى الطمأنينة، لا يستعجلان أمرا، ولا يبديان حركة كأن النصر في متناول أيديهما، لقد علما بالقرار الذي اتخذته قرطاج بالدفاع عن نفسها حتى الرmq الأخير، ولكنهما أدركا أن تلك الحماسة المحتدمة، لن يطول أمرها، بل ستخمد ليحل محلها التخاذل والانهيار³.

وفي تلك الأثناء استطاع القائد القرطاجي هسدروبال أن يهيئ جيشا، وقام بمصادرة كل المواد والأدوات الضرورية للجيش في المناطق الخاضعة له، فأمن ما يحتاج إليه من المؤن والعتاد، بينما كانت حالة الرومان تتأزم يوما بعد يوم، لأن موارد المدن الإفريقية الخاضعة لهم لم تكن كافية، وقرر القنصلان أن يخرجوا من فترة الانتظار، وأن يقوموا بعمل سريع حاسم ليسحقا مدينة قرطاج⁴. وهكذا بدأت الحرب البونية الثالثة، دافع فيها القرطاجيون عن وطنهم وكرامتهم، فضلا عن حياتهم ومصيرهم، كفاحا بطوليا منقطع النظير، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد سلموا أسلحتهم

¹ - فرانسوا دوكره ، قرطاج أو مملكة البحر، المرجع السابق، ص 220.

² - نفسه، ص ص 284-285.

3 - R. Charles, Op- Cit, p 494.

4 - Ibid, p 504.

للرومان، فأنهم سرعان ما بذلوا جهدهم أضعافا مضاعفة لإعادة بناء طاقاتهم الحربية مرة أخرى وبطريقة فريدة حولوا كل معبد وحنوت إلى مصنع للأسلحة وأدوات الحرب¹.

في ظل تلك الظروف لابد من الإشارة الى أمور مهمة:

الأولى: لم تكن المدن الخاضعة للسيادة القرطاجية جميعها في صف القرطاجيين، بل انحاز بعضها إلى جانب الرومان وعلى رأسها مدينة سوسة ورأس ديماس وغيرها، كما استمرت مجموعة أخرى في ولائها إلى جانب القرطاجيين وعلى رأسها بنزرت².

الثانية: موت ماسينيسا في عام 148 ق.م أثناء الحرب البونية الثالثة، الأمر الذي أدى إلى عودة الأفارقة إلى الانقسام السياسي مرة أخرى، بعد أن نجح ماسينيسا في جمع شملهم، فضلا عن الخلافات الأسرية بين أبناء ماسينيسا الثلاثة (ميكيسا ومستنبعل وغولوسة)، فيمن يخلف الأب على عرش مملكة نوميديا، ولعل تدخل القائد الروماني سكيبيو إميليانوس في الشؤون الداخلية لمملكة ماسينيسا، بل في شؤون الأسرة النوميديّة الحاكمة، يدل على علاقة وثيقة بين الرومان والبربر، وعلى أية حال أنفرد (ميكيسا) الأخ الأكبر بعرش نوميديا (148-118 ق.م) بينما قام القائد الروماني باصطحاب غولوسة الأخ الأصغر في حملته على قرطاجة³.

الثالثة: في هذا الوقت بالذات اندلعت الحرب في مقدونيا ضد روما بقيادة فليب المزيف، والذي ادعى أنه ابن ييروس حتى بدأ الجنود الرومان يشككون في إذا ما كان النصر حليفهم⁴.

ثلاث سنوات والقنصلان ماركوس ومانيليوس يهاجمان أسوار قرطاجة بجيوشهما، وكانا في كل مرة يرتدان عنها خائبين، وفي الواقع كانت قيادة الجيش الروماني تنقصها الكفاءة، ووقعوا في كثير من الهفوات، وعندما أرسل مجلس الشيوخ الروماني وفدا لتقصي أحوال الحصار، سمع من الجنود إطراء لا مثيل له عن ضابط شاب اسمه سكيبيو إميليانوس " وهو احد الترابنة العسكريين" وقد أظهر هذا الشاب براعة ودهاء عظيمين، وحتى كبار الضباط أثنوا عليه، لم يكن سكيبيو إميليانوس شابا متغطرسا، بل على العكس تماما كان شابا متواضعا يجيد التعامل مع الآخرين. وهذا ما اعتى عنه انطبعا حسنا عندما قابله الوفد، وبناء عليه تم اقتراح الموافقة على تعيينه قنصلا

¹ - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 283.

² - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 279.

³ - R. Charles, op. cit, p 502.

⁴ - Ibid, p 503 .

وقائدا، وأقر مجلس الشيوخ والجمعية الاقتراح وعينوه قنصلا وقائدا لسنة 147 ق.م ولم يعارض هذا التعيين أحد حتى كاتون نفسه¹.

تغير الوضع عندما تسلم سكيبيو القيادة العامة حيث وصل هذا الأخير إلى بيرسا أشعل النيران في الثلاثة شوارع في وقت واحد، ولقد انتشرت النيران وقضت على كل شيء تقريبا². انقضت ستة أيام وليالي في هذا الاضطراب والدمار، وفي اليوم السابع جاء بعض المتوسلين إلى سكيبيو وطلبوا منه الإبقاء على حياة هؤلاء الذين يرغبون في الاستسلام والرحيل من بيرسا، ولقد منح سكيبيو هذا العفو للجميع ماعدا الهاريين. وعلى الفور خرج من المدينة خمسة وخمسين ألف (55.000) ألف رجل وامرأة أطفال. وعندئذ لجأ الهاربون من الرومان، الذين يمكن أن يتوقعوا الصلب كعقاب وكان عددهم تسعمائة (900)، إلى مبعد أشمون (Eshmun) مع هسدروبال وزوجته ووالديهما، واستمروا في المقاومة مع هسدروبال في إحاطة معبد أشمون. ولقد دافعوا على أنفسهم لفترة طويلة حتى أجبروا على التراجع إلى المبنى، وهزموا في النهاية، فتركوا ملحقات المعبد وهربوا إلى السطح³. (أنظر الملحق 35 خرائط)

انهارت شجاعة هسدروبال الذي كان قد أعلن في كثير من الأحيان عزمه على القتال حتى الموت⁴، حتى توصل به الأمر للهرب سرا إلى سكيبيو حاملا غصن زيتون فأمره سكيبيو بأن يجلس عند قدميه، وعندما ألقى هسدروبال نفسه كخادم عند قدمي سكيبيو إلتفت الأخير وعلق قائلا: "أنظروا، يا أصدقائي، كيف يعرف الحظ الجيد أن يقدم لنا مثال على الرجال الطائشين. هذا هو هسدروبال الذي رفض مؤخرا أكثر العروض تسامحا أنا وهبتها له، وقال أن مدينته الأم ونيرانها أحب الجنازات له، وها هو مع فروع شجرة يأتي متوسلا ومتضرعا من أجل حياته عندي، ويضع كل آماله علي، كان عليه أن يفهم أنه مجرد رجل لا يجب أن يتصرف أو يتكلم بوقاحة"⁵.

وبعد أن دمر سكيبيو قرطاجة ألقى نظرة على المدينة التي ازدهرت أكثر من سبعمائة(700) سنة منذ إنشائها والتي حكمت مناطق كثيرة، جزرا وبحارا وكانت ثرية في السلاح والأساطيل والفيلة والمال مثل الإمبراطوريات العظيمة البابلية والأشورية وغيرها والتي فاقتهم في

1- R. Charles, loc.cit.

2- Appian, Roman History, Translated by: H. White, New York, 1899, XIX ,128,129,130.

3- B.H. Warmington, Carthage, London ,1960 , p 208.

4- Ibid.

5- Polybe, op.cit, XXXVIII,20.1-9 ; Appian, op.cit, XIX,131.

الإقدام والشجاعة، على الرغم من أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها، فقد صمدت لحصار شديد ومجاعة لمدة ثلاث سنوات (149-146 ق.م) ووصلت الآن لنهايتها بالتدمير الكلي، ويقال أن سكيبيو بعد ذلك قد بكى ورثا ما آلت إليه قرطاجة¹.

وفي هذا الموقف يروي لنا المؤرخ ستيفان قزال أن القائد المنتصر سيكيبيو إيميليانوس وبينما الجنود يواصلون حرق المدينة البونية دمعت عيناه وظل لبعض الوقت يتأمل ثم نطق بصوت عال يردد شعر هوميروس: " سيأتي يوم تضمحل فيه إيليون المدينة المقدسة، وفيها يهلك بريام، الذي يجيد استعمال الرمح." وكان المؤرخ بوليب حاضرا معه يسمع كلامه ليستفسر منه عن معنى هذه العبارات التي نطق بها، فشده من يده وأخذه إلى جانبه وقال له: " لست أدري لماذا أخاف أن يردد القدر هذه العبارات ذات يوم عن وطني."² وبذلك أُسدِل الستار على تاريخ مدينة عظيمة نمت وترعرت على الشاطئ الأفريقي، وقضي عليها بوحشية لم ير التاريخ لها مثيلا، والتي تعد وصمة عار في جبين روما، تثير اشمئزاز كل من قرأ عن أحداثها³.

ويبدو أنه مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد لم تكن روما معنية بالحرب في إفريقيا فقط، فبعد تدخلاتها العديدة في بلاد اليونان في إطار ما عرف بالحروب الفيليبية (Les guerres Phillipiques) منذ بداية القرن الثاني ق.م، وبعد فرض روما ممثلين عنها في حكم شبه جزيرة اليونان ومقدونيا⁴.

وبعد موت آخر ممثل للرابطة الآخية والذي كان يمثل المصالح الرومانية سنة 150 ق.م، انفجر غضب الآخيين في بلاد اليونان وقد رأوا في انشغال روما بحربها في إفريقيا وإسبانيا⁵ فرصة للانتقام من أسبرطة جراء انفصالها عن الرابطة الآخية وذلك بمحاولة إرغامها بالقوة إلى العودة إلى

¹ - رشيد لناضوري، المرجع السابق، ص 282.

² - ستيفان قزال، ج 3، ص ص 332-333.

³ - علي عكاشة وآخرون، المرجع السابق، ص 182.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 342.

⁵ - Jean Pierre Martin et autres, op.cit, p 113.

العصبة وكان ذلك سنة 149 ق.م، وبذلك أخذت العصبة الآخية تستعد للحرب، ويبدو أن الطبقات الفقيرة في جميع المدن الإغريقية قد آزرت العصبة في موقفها أن الطبقات الفقيرة في جميع المدن الإغريقية قد آزرت العصبة في موقفها بمشاعرها عسى هذا الأمر يحسن من حالتهم الاقتصادية إن تغيرت الأوضاع.¹

وفي عام 146 ق.م بالغت العصبة الآخية في تحديها للسلطة الرومانية من خلال اجتياح بلاد اليونان الوسطى وقد انضمت اليها قوات من بيوتيا وأويبي، وحين واجهها القائد الروماني ميتيللوس بجيشه القادم من مقدونيا، استطاع أن يهزم قوات الآخيين ومن يحالفهم، ثم واصل زحفه نحو جنوب اليونان إلى أن اعترضه جيش آخر للآخيين في مضيق كورينثة² لكن القوات الرومانية تعززت بوصول أربعة فرق يقودها قنصل سنة 146 ق.م لوكيوس ميمموس (Memmius)³، فانهزم الآخيون هزيمة نهائية بعد أن قاتلوا بكل شجاعة قوات كانت تفوقهم عددا وعتادا.⁴ لتصبح روما سنة 146 ق.م سيدة بلاد اليونان في انتظار تأمين كامل تراب اسنانيا والقضاء على ثورات الكلتوإيبيريين مع توطيدها لعلاقات تكاد تكون علاقات ولاء وتبعية نع ملوك آسيا الصغرى بعد سنة 153 ق.م تميدا لإنشاء ولاية رومانية جديدة في هذه المنطقة.⁵

¹ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 342.

² - نفسه.

³ - Jean Pierre Martin et autres, loc.cit.

⁴ - إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 343.

⁵ - Jean Pierre Martin et autres, op.cit, p p 112, 114, 117.

الخاتمة

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث الذي سعيت من خلاله إلى توضيح الظروف والملابسات وكذا مجريات الأحداث المتعلقة بالصراع الدولي الذي اندلع في حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي، مع محاولة الاحاطة بكل ما من شأنه أن يزيد الموضوع وضوحاً وتحليلاً، تمكنت من الخروج بالاستنتاجات التالية:

- لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار العلاقة بين مواقع الدول المعنية بالصراع و طبيعتها الجغرافية ومكوناتها البشرية، وكذا الأنظمة السياسية التي قامت بها، بتلك الحروب والمواجهات التي اندلعت بين هذه البلدان، فكل بلد تقوم فيه دولة قوية يسعى بكل الوسائل إلى تعويض ما ينقصه من مقدرات وثروات ولا سبيل إلى ذلك إلا باعتبار ما تملكه البلاد الأخرى حقاً له.
- رغم انحدار السكان في بلاد إيران من أصل واحد وكذلك هو الحال بالنسبة لبلاد الإغريق إلا أن اختلاف الأنظمة السياسية والنشاطات البشرية في البلدين كان واضحاً، فرغبة الفرس كانت جلية في التمدد والهيمنة على أجزاء من القارة الأوروبية اعتماداً على حشد الجيوش من مختلف الأمم التي تم إخضاعها، أما الإغريق فكان تصميمهم على صد الغزو من خلال الاعتماد على قواتهم المحلية وخبرتهم العسكرية في البر والبحر وكذا احترامهم لقوانينهم من أهم العوامل التي ساعدتهم على الانتصار.
- كان واضحاً تدمير المدن الأيونية بآسيا الصغرى من الحكم الفارسي الذي كان يفرض سطوته عليهم منذ 547 ق.م إثر سقوط مملكة ليديا، ورغم تمتع هذه المدن باستقلال ذاتي إلا أن دعم الفرس للطغاة الحاكمين بها أزعج الإغريق سكان تلك المناطق، خاصة وأن تلك الفترة عرفت تغيرات سياسية في بلاد اليونان أدت إلى ظهور الحكم الديمقراطي بالمدن اليونانية وعلى رأسها أثينا والذي كانت نتائجه الاجتماعية والاقتصادية الإيجابية واضحة على السكان.

- استطاع الفرس في ظرف بضعة سنوات إخماد ثورة الأيونيين خاصة بعد تخلي الإغريق الذين كانوا يساعدونهم عنهم ، وتحول سكان ميليتوس بعد أن كانوا يتمتعون بحكم ذاتي إلى أسرى وعبيد عند الفرس. ومع ذلك أدرك الملك الفارسي داريوس أن المنطقة الغربية لآسيا الصغرى لن تبقى تحت نفوذ الفرس وسيطرتهم، إذا لم يؤمنوا ما وراءها من جزر بحر إيجه، بل لابد من بسط نفوذ الفرس على هذا البحر وهو السبب الذي كان وراء تسيير الحملة الفارسية سنة 492 ق.م ضد أثينا وجزيرة إيرتري.

- مثلت الحرب الميدية الأولى أول التحام حقيقي بين جيش الفرس والقوات اليونانية على أرض الماراثون ببلاد الإغريق، تلك المحاولة التأديبية التي أراد من خلالها داريوس إخضاع بلاد اليونان لنفوذه انتقاما من مساعدة الإغريق للأيونيين في ثورتهم على الفرس بقيادة مدينة ميليتوس.

- كان واضحا أن كثرة عدد أفراد الجيوش الفارسية لم تؤد إلى انتصار أمام صمود الأثينيين بمساعدة البلاتيين في وجه أعدائهم رغم قلة الإغريق، كما كان جليا أن تعدد الاجناس في جيش داريوس وعدم الانسجام بين أفرادهم لم يفض إلى فعالية قتالية حاسمة، كما أن الوحدة والتماسك الذي كان يتسم به المواطنون الجنود الإغريق خاصة فرق المشاة أو الأوبليت منهم، وكذا طريقة تراصهم أثناء دفاعهم مشكلين نوعا من الجدار الحقيقي الصعب الاختراق في وجه المهاجمين الفرس سواء المشاة منهم أو الرماة، قد أدت إلى نتائج عسكرية إيجابية لصالحهم.

- كان لعامل القيادة الفطنة الدور الحاسم في انتصار سهل الماراثون، فهذا ميليتياديس بشخصيته القيادية التي استطاع من خلالها اقناع القادة المرافقين له بضرورة المواجهة المباشرة ضد الفرس بدل التردد وانتظار ما يقوم به الأعداء، وكذلك الخطة المحبكة التي نفذها الإغريق بإشراف هذا القائد أنهت المعركة لصالح الإغريق، يضاف إلى ذلك توقع الهجوم على أثينا بعد هذه المعركة إنما ينم عن حدس عسكري وشخصية قيادية قادرة على التوقع بشكل استباقي أفكار العدو.

- كانت خسارة معركة الماراثون أمرا مهما في إصرار الملك داريوس على غزو بلاد اليونان والانتقام من الأثينيين، لذلك باشر التحضيرات لحملة جديدة ضد الإغريق إلا أن التمرد الذي

اندلع في بلاد مصر على الحكم الفارسي آخر بداية الجولة الثانية من الحرب لينهي القدر من خلال وفاة داريوس أمر قيادته لهذه الحملة وليستكمل هذا العمل ابنه كزاركسيس.

- كان الحوار الذي جرى بين الملك كزاركسيس وعمه أرتبان أثناء استعراض القوات البرية في مدينة أييدوس حاسما ومهما بالنسبة لهذه الحملة، حيث أبان عن بعد نظر حاد للعم أرتبان ومعرفة جيدة بخصوم الفرس ودراية واسعة في أمور الحرب، حيث أدرك أن تلك القوات الفارسية الكثيرة العدد لا يمكن ترك مصيرها للصدفة خاصة بالنسبة للقوات البحرية التي قد تتعرض للعواصف في أي لحظة في ظل عدم توفر موانئ كافية لاستعمالها.

- كان من الواضح أن كزاركسيس انما كان يريد إرسال رسالة تخويف وتهديد لليونانيين من خلال تجميع ذلك الجيش الضخم البري والبحري، والقيام بعملية عد مقاتلي جميع الأمم المشاركة في جيشه، وكان مفاد هذه الرسالة هو أنكم أيها الإغريق لستم ندا لتلك القوات الجرارة التي جلبتها من آسيا ومن أوربا ومن بلادكم اليونان لحربكم، لذلك فما عليكم إلا الاستسلام لأنه سيكون أسلم لكم ولمدنكم وشعبكم.

- كان اسناد كزاركسيس القيادة العليا لفرقه لضباط من الفرس، بل من البيت الحاكم سواء بالنسبة للقوات البرية أو البحرية في غياب وجود للقادة المحليين إلا في الرتب الثانية أو الثالثة من القيادة، أمرا يدل على عدم ثقة كزاركسيس في غير ضباطه المقربين بل من عائلة الأخيمينين رغم حديثه عن وفاء الأيونيين لأبيه الذين أنقذوه من السكيثيين.

- أظهرت مرحلة التحضير والاستعداد للحرب من جانب الإغريق عن دور مهم ومسؤول قامت به أثينا من خلال تنازلها عن قيادة القوات البحرية رغم امتلاكها لأكبر عدد من السفن الحربية في الأسطول الإغريقي، ناهيك عن تنازلها عن قيادة القوات البرية التي لم يكن الأسبرطيون ليقبلوا حتى بمجرد التفكير في التنازل عنها، ورغم ذلك استطاعت أثينا ممثلة في شخص حاكمها العسكري تيميستوكل أن تحدث انسجاما وتوافقا بين المدن الإغريقية التي كانت الخلافات والصراعات قد

عملت على تفريقها وشرذمتها، من خلال اجتماع كورنثة الأول 481 ق.م ثم الاجتماع الثاني بداية سنة 480 ق.م.

- أثبت الحاكم والقائد العسكري الأثيني تيميستوكل قدرة عالية على توقع الأحداث التي يمكن أن تلم ببلاد اليونان قبل عبور كزاركسيس مضيق الهلسوبونت، ولذلك دعا الأثينيين في وقت مبكر إلى الاستعداد للحرب من خلال تخصيص ميزانية الدولة لصناعة عدد كبير من السفن وصل إلى مائتي (200) سفينة وتسليحها، وكذلك إعلان حالة التعبئة في مدينة أثينا والاستعداد لإخلائها في حالة الخطر، وبعد كل هذا كان جهده واضحاً في مؤتمري مضيق كورنثة لتوحيد رؤية المدن الإغريقية ولم شملها وتوجيهها نحو خطط يمكن أن تحقق النصر لليونانيين رغم الفارق الواضح في القوة بين الطرفين.

- أظهرت معركة أرتيميسيوم البحرية أن كثرة عدد المراكب الحربية لا يصنع النصر إنما تصنعه الخبرة في الحروب البحرية، واختيار وقت المعركة وكذا المعرفة الجيدة بطبيعة ومناخ المنطقة، كما أظهرت أن طبيعة بلاد اليونان وشواطئها وخلجانها ليست سهلة التحكم، فقد تباغت المهاجمين في أي لحظة عواصف ورياح قوية و أمطار غزيرة، وإن لم يكن الأسطول متحصناً في مكان يضمن له نوعاً من الأمان فإنه سيتعرض للتحطم والغرق حتى قبل أن تبدأ المعركة.

- أظهرت معركة تيرموبيل شجاعة منقطعة النظير لملك أسبرطة ليونيداس الذي قَبِلَ أن يكون هو وجنوده ضحايا فدائيين لوطنهم، لأنه كان يدرك أنه هو وقواته القليلة العدد لن يستطيعوا بأي حال من الأحوال الوقوف في وجه جيش كزاركسيس الضخم، ومع ذلك آثر أن يكون جدار الصد الأول في وجه هذا الجيش، وقد استطاع هو ومقاتلوه قتل الكثير من نخبة محاربي الميديين والساس والفرس، ومع ذلك لم يستطع الملك كزاركسيس عبور ممر تيرموبيل إلا بعد خيانة من أحد الإغريق العارفين بمسالك المنطقة الجبلية.

- كان الدور الذي لعبه تيميستوكل دوراً محورياً في إقناع القوات المتحالفة الإغريقية في التوجه نحو خليج سلامين والبقاء فيها ومن ثم استدراج الفرس إلى ذلك المكان الضيق لكي يصبح العدد

الكبير للمراكب غير ذي معنى، بل يصبح عبئا على جيش الفرس، ولكي تظهر براعة المقاتلين البحارة الإغريق، ويتم استغلال خبرتهم أحسن استغلال ويتأكد بذلك نصر الإغريق على أعدائهم في معركة حاسمة خلدها التاريخ هي معركة سلامين، والتي كانت فاصلة في فشل عملية الاحتلال والهيمنة على بلاد اليونان، وهو الأمر الذي أدركه كزاركسيس سريعا ليعود أدراجه إلى آسيا الصغرى ويترك جيشه باليونان تحت قيادة ماردونيوس.

- أنهت معركة بلاتيا أحلام كزاركسيس وقائده ماردونيوس في احراز نصر بري على الإغريق، تلك المعركة التي انتصرت فيها القوات الإغريقية المتحالفة على جيش ماردونيوس الكثير العدد وعلى من كانوا يساعدونه من اليونانيين المتعاونين معه مثل المقدونيين والتساليين والطيبين وغيرهم.

- أبانت معركة بلاتيا عن براعة وتفوق الإغريق بمختلف انتماءاتهم سواء اللاكيدومينيين أو الأثينيين أو الكورنثيين أو الميغاريين خاصة على مستوى فعالية السلاح كالدرع وطول الحراب المستعملة، كل هذا يضاف إلى الروح الوطنية التي كان يتمتع بها الإغريق خاصة الأثينيين والاسبرطيين حين يتعلق الأمر بحرية بلادهم.

- كانت معركة ميكالي النقطة الفاصلة في رفع الهيمنة الفارسية عن جزيرة ساموس وجزر أخرى ببحر إيجه وكذلك على المدن الأيونية بآسيا الصغرى، وذلك بعد تأسيس حلف ديلوس الذي كانت مهمته الأولى هي ملاحقة الوجود الفارسي في تراقيا وغرب آسيا الصغرى، ويبدو أن الإغريق بقيادة الأثينيين نجحوا في وضع حد لهذا التهديد الفارسي لينهوا بذلك الصراع الفارسي الإغريقي سنة 449 ق.م من خلال اتفاق مع الملك الفارسي أرتاكزاركسيس، وليتم تثبيتته سنة 423 ق.م مع الملك داريوس الثاني، ويخلص الساحل الغربي لآسيا الصغرى وكذا جزر بحر إيجه لأصحابه الإغريق يمارسون عليه نفوذهم بكل حرية.

- كانت بداية القرن الخامس ق.م فترة حاسمة في اندلاع الصراع المسلح بين البونيين بقيادة هاميلكار وبين الإغريق بقيادة جيلون حاكم سيراكوز وثيرون حاكم أجريجونت، وذلك بسبب

التغير الواضح في سياسة المدن الإغريقية التي عرفت في هذه الفترة نوعا من الازدهار والقوة والجنوح نحو التجارة بدل فلاحية الأرض.

- كان الدافع وراء سياسة أولئك الطغاة حكام المدن الإغريقية الصقلية هو السيطرة والهيمنة على جميع مدن الجزيرة ، فكانت البداية بالاستيلاء على مدينة هيميرا التي فجرت الصراع بين الطرفين ليستمر لأكثر من قرنين من الزمان.

- انعكست نتائج معركة هيميرا إيجابيا على الإغريق وخاصة سيراكوز وحاكمها جيلون الذي أصبح يعتبر بطالا في نظر الهيلينيين، ليس فقط في صقلية بل حتى في جنوب إيطاليا وبلاد اليونان، أما الغنائم التي حصل عليها بعد هذا الانتصار فقد استغلها في بناء قصور ومعابد فاخرة وشق طرق، مما أعطى دفعة قوية لتلك المدن الإغريقية نحو الرقي والازدهار والقوة.

- مثلت الفترة بين 480 و406 ق.م فترة تراجع بالنسبة للقرطاجيين في صقلية ولكنها سمحت لهم بالبحث عن طرق جديدة لتحصيل المداخل تمثلت في التوجه نحو الداخل الإفريقي والقيام برحلات بعيدة المدى بحثا عن المعادن المربحة، كما أنهم غيروا العائلة الحاكمة وهي عائلة ماغون وأحدثوا تغييرات مهمة في مؤسساتهم السياسية أبرزها استحداث هيئة أو محكمة المائة، دون إهمال الجانب الثقافي الذي تميز في هذه الفترة بنوع من القطيعة مع العالم الفينيقي، وهو ما يعني الاستقلال القرطاجي الثقافي.

- كانت نتائج الحرب بين القرطاجيين والاعريق كالمند والجزر، فلم تلبث قرطاج أن عادت إلى الجزيرة بقيادة الشاب ماغون بن هملكون والذي حقق انتصارا باهرا على دونيس والسيراكوزيين في غرونوم 374-373 ق.م، وقد تكون الثقة الزائدة التي أبداه السراكوزيون سببا في هزيمتهم، ومن ثم خضوعهم للتفاوض مع القرطاجيين لتنتهي هذه المرحلة بمعاهدة صلح سنة 373 ق.م، أعاد فيها البونيون رسم حدود مناطق نفوذهم في صقلية إلى غاية نهر الهاليكوس ضامين بذلك مدينة سيلينونت وجزء من أجريجونت غرب الهاليكوس مع حصولهم على ألف تالنت كتعويض عن خسائر حربهم ضد دونيس.

- كان دونيس كغيره من طغاة المدن اليونانية يعتمد في زعامته على إغريق صقلية وكذلك على إغريق المدن الإيطالية، على المبالغة في تخويف الهيلينيين من خطر التواجد والنفوذ القرطاجي بالمنطقة، ليدعم بذلك مركزه السياسي ويسوق نفسه على أنه الحامي والمدافع عن الهيلينية كما فعل جيلون من قبله، أما القادة القرطاجيون فقد رفعوا شعار المساواة والعدالة بين سكان الجزيرة، وهو الأمر الذي استطاعوا من خلاله كسب ثقة الكثير من سكان المدن الإغريقية في الجزيرة خاصة الجهة الشرقية منها التي تعتبر معقل نفوذ سيراكوز.
- رغم تركيز قرطاج على العمل الدبلوماسي الخارجي من خلال حزمة من المعاهدات مع الرومان ومع الإيطاليين وهم إغريق إيطاليا وكذلك من خلال رفع شعار الحرية للإغريق في جزيرة صقلية لتحديد النفوذ السيراكوزي، إلا أن قدوم تيموليون بمشروعه الديمقراطي ومحاولته لم شمل الإغريق في الجزيرة أفسد مشاريع قرطاج خاصة بعد أن أحرز نجاحات عسكرية واضحة مكنته من الهيمنة على أجزاء كبيرة من الجزيرة.
- نجح تيموليون في تحويل الوجود الإغريقي في صقلية من مدن يحكمها طغاة وتفرقها عداوات تقوم على مصالح شخصية استغلها البونيون لصالحهم في العديد من الفترات، إلى وجود هيليني أقرب إلى الاتحاد الفيدرالي تم فيه وضع العداوات جانبا، وكان تيموليون واضحا في هذا الإطار، إذ غض الطرف عن أعدائه من طغاة الإغريق الذين كان يحاربهم بالجزيرة مثل مامركوس وهيكتاتوس في سبيل التفرغ لمواجهة البونيين في صقلية الغربية.
- أدرك تيموليون في الأخير أن مشروعه لتوحيد الإغريق في الجزيرة والقضاء على النفوذ البوني بها لم يكن ليتحقق إلا بتواجد هيليني كبير، ومع ذلك فقد نجح هذا الزعيم الإغريقي في الحصول على سلام مع القرطاجيين بحقوق مقبولة لإغريق الجزيرة مع المحافظة على وضع سياسي، تجتمع فيه المدن الإغريقية يتسم بالطابع الاتحادي الفيدرالي.
- كان صراع القرطاجيين ضد أغاتوكليس قد بلغ مستوى خطيرا هدد فيه الوجود القرطاجي في شمال إفريقيا، إذ أن هذا الطاغية السيراكوزي وبعد أن ضاقت عليه الأرض في مدينته سيراكوز بعد

محاصرتها من طرف البونيين، نقل الحرب إلى إفريقيا مبحرا مع أربعة عشر ألفا (14000) من المقاتلين ومحققا انتصارات كبيرة على البونيين في أرضهم، فاستولى على عدد كبير من المدن وحاصر العاصمة قرطاج.

- كان لعقد أغاتوكليس حلفا مع أوفيلاس حاكم قورينة طوق نجاة بالنسبة له، إذ تمكن من جمع جيش كبير من عديد الشعوب الأوربية والإفريقية، ولولا أنه عاد إلى صقلية لترتيب أوضاعها لما استطاعت قرطاج العودة من جديد وهزيمة جيوشه التي تفرقت في شمال إفريقيا بحثا عن الغنائم والأسلاب والولاءات الجديدة.

- يمكن القول أن تعنت أغاتوكليس من جهة وتعنت القرطاجيين بمختلف أحزابهم في قضية الخضوع وأبرام صلح بين الطرفين هو ما اتصفت به مرحلة الصراع بينهما، فطاغية سيراكوز حين هزمه القرطاجيون في صقلية لم يستسلم ويعقد صلحا معهم يعترف فيه بما صار بين أيديهم من أراض ومدن، كما أن القرطاجيين لم يسلموا لأغاتوكليس بالنصر رغم الانتصارات التي حققها في إفريقيا، ولم يرضخوا له ليفاوضوه على ما صار في يده من مدن في إفريقيا أو يساوموه على ما في أيديهم من مدن في صقلية، وانتظروا اللحظة المناسبة لإلحاق الهزيمة به، ومن ثم فراره بمفرده إلى صقلية دون أي مكاسب تذكر.

- استطاعت قرطاج بسط نفوذها على مناطق كبيرة من جزيرة صقلية بعد وفاة أغاتوكليس، ولم يعد لمدينة سيراكوز أي دور مؤثر على المدن الإغريقية، بل إن الصراع على السلطة داخلها سمح للبونيين في العديد من المرات بالتدخل في ترجيح كفة طرف عن الطرف الآخر، إلى أن استنجدت الأطراف الإغريقية المتنازعة بالملك الإغريقي بيروس .

- رغم المعاهدات الرومانية القرطاجية والتعاون العسكري بين الطرفين منذ تأسيس الجمهورية الرومانية سنة 509 ق.م، إلا أن لغة المصالح والسعي وراء الهيمنة طغى على احترام المواثيق والعهود، وهو الأمر الذي اتسمت به العلاقة بين إمبراطورية البحر المتوسط في بداية القرن الثالث

ق.م وبين القوة الرومانية المساعدة من شبه الجزيرة الإيطالية لتخطو هذه الأخيرة أولى خطوات تمددها خارج إطارها الجغرافي و هي المتطلعة إلى وضع يدها على جزيرة صقلية.

- كانت دعوة الممارتين للرومان بغرض مساعدتهم ضد تحرشات الملك هيرون، ملك سيراكوز، ذريعة كافية ليجد صقور السيناتو والأرستقراطيين في روما المبرر للتدخل في ميسينا، ومن ثم قطع الطريق عن القرطاجيين الذين أصبحوا في تلك الفترة بالذات قاب قوسين أو أدنى من التهام كل نطاق جزيرة صقلية.

- ارتكب القرطاجيون أخطاء جسيمة قبل بداية الحرب البونية الأولى، تمثل أهمها في السماح للرومان بالعبور إلى صقلية ودخول مدينة ميسينا، ومن ثم الالتقاء بالممارتين والالتحام معهم ليشكلوا قوة لا يستهان بها.

- سجل لنا تاريخ الصراعات في غرب المتوسط أول تحالف وثيق بين القوات القرطاجية والقوات الإغريقية في جزيرة صقلية وهما الطرفان اللذان كانا لأكثر من قرنين من الزمان يتصارعان على أرض ومياه جزيرة صقلية، ولا عجب في ذلك، فقد تغير العدو هذه المرة، فبالنسبة للإغريق فهم ألفوا الصراع ضد القرطاجيين الذين تعايشوا معهم قرونا في جزيرة صقلية، أما الرومان فكان من الواضح أنهم لن يرضوا بمن يشاركتهم في حكم أرض هم قادرون على بسط نفوذهم عليها.

- كان تمكن الرومان في وقت وجيز لا يتعدى الشهرين بحسب المصادر التاريخية، من بناء أسطول مكون من مائة وستين (160) سفينة عملا مثيرا لإعجاب المؤرخين اللاتين، ورغم أن بدايات المعارك البحرية لم تكن موفقة بالنسبة لهم، إلا أنهم سرعان ما استدركوا الأمر من خلال تحسين آداء سفنهم الحربية وتزويدها بما عرف بآلة الغراب أو الكوربو التي استطاعوا بواسطتها تحقيق أول انتصار بحري لهم على القرطاجيين، وهو العمل الذي أعطى دفعة قوية لجنود البحرية الرومانية خاصة من الناحية البسيكولوجية، لكونهم انتصروا على أعنى قوة بحرية في تلك الفترة كانت تسيطر منذ قرون على سواحل غرب المتوسط.

- لم ينتصر الرومان في حملتهم على إفريقيا لكنهم ظلوا مصرين على الانتصار في صقلية وإخراج القرطاجيين منها، لذلك زادوا من ضغطهم على المدن الموالية لقرطاج في الجزيرة، ومع ذلك استطاع القرطاجيون هزيمة الرومان من جديد في البحر، ليستعيدوا السيطرة البحرية من جديد، مقابل إصرار واضح من الرومان على محاصرة أقوى معقل البونيين في الجزيرة: مدينتي ليليبي ودربيان.
- كان لموقف أثرياء روما من خلال تمويل بناء أسطول جديد الأمر الحاسم في إنهاء الحرب البونية الأولى، فبمجرد بناء تلك القوة البحرية من جديد حتى ضربت روما الحصار الخانق على آخر معقل القرطاجيين في صقلية ليليبي ودربيان، ليكون ذلك المنعرج الحاسم في استسلام قرطاج وتوقيعها معاهدة صلح سنة 241 ق.م، والتي تنازلت بمقتضاها عن أسطولها البحري، وكان ذلك بسبب رغبة الأوليجركيين في العاصمة الجنوح إلى السلم والتوقف عن الحرب التي كانت بالنسبة اليهم عبارة عن عمليات تجارية، إن لم تجلب لهم الأرباح فهي مشاريع خاسرة.
- خسرت قرطاج قوتها البحرية والأرباح التي كانت تعود عليها من جزر غرب المتوسط، التي فقدتها واحدة تلو الأخرى، وتحولت روما إلى قوة متوسطة جديدة، وقد ربحت إضافة إلى غنائم الحرب في صقلية ضريبة معتبرة فرضتها على قرطاج لمدة عشر سنوات.
- لم يقتنع هاميلكار برقه بتلك الهزيمة التي رضي بها الأرستقراطيون في قرطاج، لذلك عزم على إعادة بناء قوة قرطاجية جديدة بعيدا عن أعين الرومان وكانت وجهته هذه المرة جنوب إسبانيا، ليتمكن هو ومن خَلَفَهُ عليها من بناء إمبراطورية قرطاجية جديدة في جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية، مستفيدا من عائدات مناجم الذهب والفضة في تلك الأرض.
- كان من الواضح أن حنبعل برقة سيواصل مشروع والده هاميلكار في إسبانيا الذي كانت نهايته ستؤدي حتما إلى حرب ضد روما التي أذلت القرطاجيين مع نهاية الحرب البونية الأولى، وما كان استيلاء حنبعل على أجزاء كبيرة من شمال غرب إسبانيا إلا مقدمة للمواجهة مع الرومان.
- كان الغموض الذي اكتنف وضعية مدينة ساغنتوم في معاهدة الإيبرو عاملا مشجعا لطرفي الصراع الذي سيندلع، فمن جهة استغله حنبعل لكون هذه المدينة واقعة جغرافيا دون نهر الإيبرو، وبالتالي فهي في نظره تدخل ضمن أملاك القرطاجيين، ومن جهة أخرى فإن الرومان كانوا يعتبرون هذه المدينة حليفة لهم ولا يجب بأي حال من الأحوال الاعتداء عليها أو ضمها من قبل القرطاجيين.

- أبان حنبعل عن شجاعة وجرأة وعزيمة ملفتة من خلال اعتماده لخطة غزو إيطاليا برا، ورغم الخسائر البشرية والمادية التي تعرّض لها جيشه خلال تلك الطريق الطويلة، إلا أنه كان في كل مرة يجد الحلول لتعويض ما فقده، مستغلا العداوات التي كانت تكنها الشعوب القاطنة شمال إيطاليا لروما لصالحه، ومن ثم قام بتجنيد أعداد كبيرة منهم بدلا عن المقاتلين الذين فقدهم في الطريق.
- استطاع حنبعل عبور جبال البيريني، نهر الرون وجبال الألب ثم تحالف مع الغاليين في شمال إيطاليا الذين لطالما خضعوا بالقوة لحكم الرومان، ليتمكن هذا القائد البرقي من هزيمة القناصل الرومان في أربعة معارك شهيرة بين سنتي 218 و216 ق.م، هؤلاء القناصل الذين طالما افتخر الرومان بقدرتهم على قيادة المعارك والانتصار فيها، وهم الذين قضوا أكثر من قرنين ونصف من الزمان يحاربون شعوب إيطاليا شديدي المراس والذين انتصروا عليهم جميعا في نهاية الأمر.
- كانت ميزة الرومان منذ تأسيس الجمهورية الرومانية سنة 509 ق.م أنهم يتمتعون بالنفس الطويل في الحرب وعدم الاستسلام بسهولة، وكذلك بالتعلم من الأخطاء والاستفادة من نقاط قوة أعدائهم، وكان ذلك واضحا من خلال مراجعة الرومان لخططهم ووضع أيديهم على مواطن الضعف في سياسة حنبعل العسكرية.
- كان لتفرق قوات حنبعل بين المدن الإيطالية التي استولى عليها، وكذا شح الامدادات الأثر البالغ في الحالة السيئة التي وصل إليها جيشه في إيطاليا، ومع أن الرومان كانوا يستعيدون المدن التي خسروها الواحدة تلو الأخرى، فإن الموازين انقلبت بشكل كلي بداية العقد الأخير من القرن الثالث ق.م.
- كان لعدم تعاون الحكومة القرطاجية مع القائد البرقي وامتناعها عن مساعدته بشكل كاف، وكذا ظهور عبقریات عسكرية رومانية جديدة من أمثال سيكيبيو الإفريقي نتائج كارثية على حملة حنبعل لتبدأ هزائمه تتوالى سنة 207 ق.م، ثم لتحصد قرطاج نتائج سياستها البعيدة عن الحكمة من خلال هزيمتها في معركة زاما 202 ق.م، وتفرض روما من جديد شروطا أكثر إهانة وإذلالا من تلك التي فُرضت عليها بعد الحرب البونية الأولى.

- كانت فترة ما بين الحربين الثانية بمثابة موت سريري لعاصمة القرطاجيين في بلاد المغرب، فقد أصبح وجودها مرتبطا بضعفها، وبمجرد أن شهدت البلاد ازدهارا اقتصاديا حتى حزم الرومان أمرهم بشأن ضرورة القضاء على مدينة البونيين، والتي كانوا يرون فيها خطرا يمكن أن يهدد وجودهم في أي وقت.
- أثبت فينيقيو الغرب في نهاية الأمر أنه لا تعوزهم الشجاعة والجرأة والقدرة على التضحية بدل الخنوع والاستسلام والتسليم للأعداء، فقد صمدوا ثلاث سنوات من الحصار الذي فرضته عليهم أكبر قوة متوسطية في تلك الفترة، ومما زاد قوة الجيوش الرومانية طمع الشعب الروماني في الحصول على مكاسب مادية من وراء نصر كانوا يرونه سهلا ضد مدينة أنهكتها الحروب والصراعات المتوسطية، لذلك انخرط عامة الرومان بأعداد كبيرة في صفوف القوات المحاربة.
- كان مشهد إحراق العاصمة البونية أمرا مفرحا للقائد سيكييو إيميليانوس ولكنه كان في نفس الوقت محزنا ومفرعا، خاصة بالنسبة لهذه الشخصية المشبعة بالثقافة الهيلينية والمطلعة على تاريخ الأمم السابقة، لذلك كان يردد في ذلك الموقف أبياتا من شعر هوميروس تصف حريق مدينة طروادة وهلاك ملكها بريام، أما حزنه ودموعه التي ذرفها فهي بسبب توجسه من دورة الزمن، ومن أن يكون ذات يوم مصير روما كمصير قرطاج وطروادة.
- لم تكن روما تحارب القرطاجيين فقط خلال فترة النصف الأول من القرن الثاني ق.م، بل كانت تضرب بقوتها في الشرق والغرب، ففي إسبانيا ظلت لعدة عقود تحارب الكلتو إيبيريين وغيرهم من شعوب إسبانيا، وفي مقدونيا كانت تصفي حساباتها مع من ساعدوا حنبعل برقة خلال الحرب البونية الثانية، ومع ذلك كانت شهية التوسع والهيمنة وبسط النفوذ على البحيرة المتوسطية واضحة في سلوك الرومان، وبنهاية الحرب البونية الثالثة كانت روما قد وضعت يدها على بلاد الإغريق وإسبانيا رغم استمرارها في إخماد عدد من الثورات بها، كما أنها كانت تتهيأ لبسط نفوذها على آسيا الصغرى وسوريا.

الملاحق

I- الخرائط

II- الصور

III- الجداول

I-الخرائط

ملحق رقم 1 : خريطة توضح أقاليم ومقاطعات ومدن مملكة الفرس



(ترجمة الباحث) <http://antikforever.com/Perse/Divers/cartes.htm>

ملحق رقم 2 : خريطة توضح مدى اتساع رقعة المملكة الفارسية



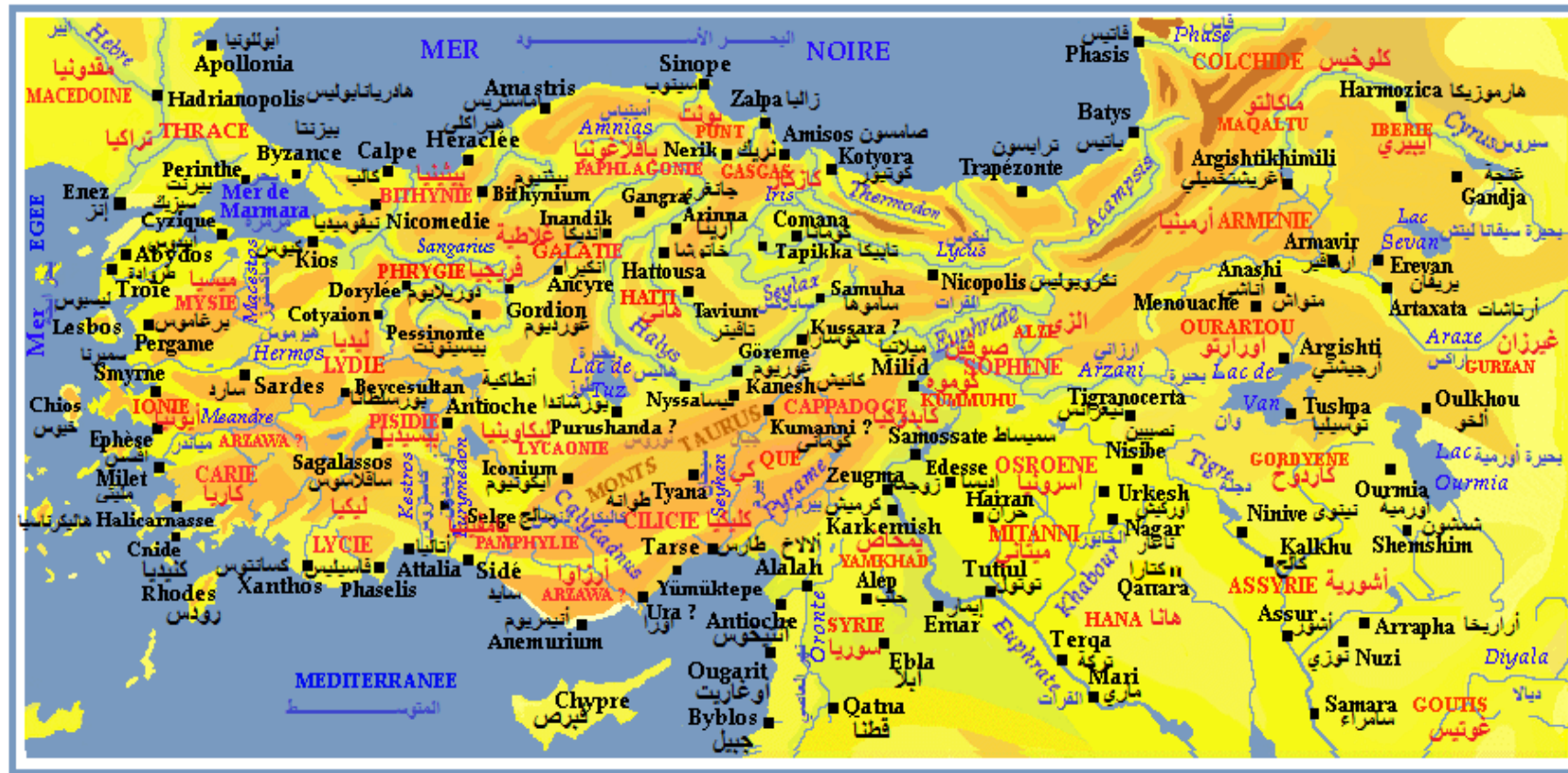
Philip de Souza, op.cit, p 10. (Carte adapté)

ملحق 3: خريطة تبين طبيعة بلاد إيران



Asia : GABRIELE PUSCHNIGG and JEAN-BAPTISTE HOUAL, Regions and regional variations in Hellenistic Central what pottery assemblages can tell us, Afghanistan 2.1 (2019): 115– 140, Edinburgh University Press, www.euppublishing.com/afg

ملحق رقم 4: خريطة آسيا الصغرى (الأقاليم - الجبال - الأنهار - المدن - المسطحات المائية)



http://antikforever.com/Asie_Mineure/Divers/cartes.htm

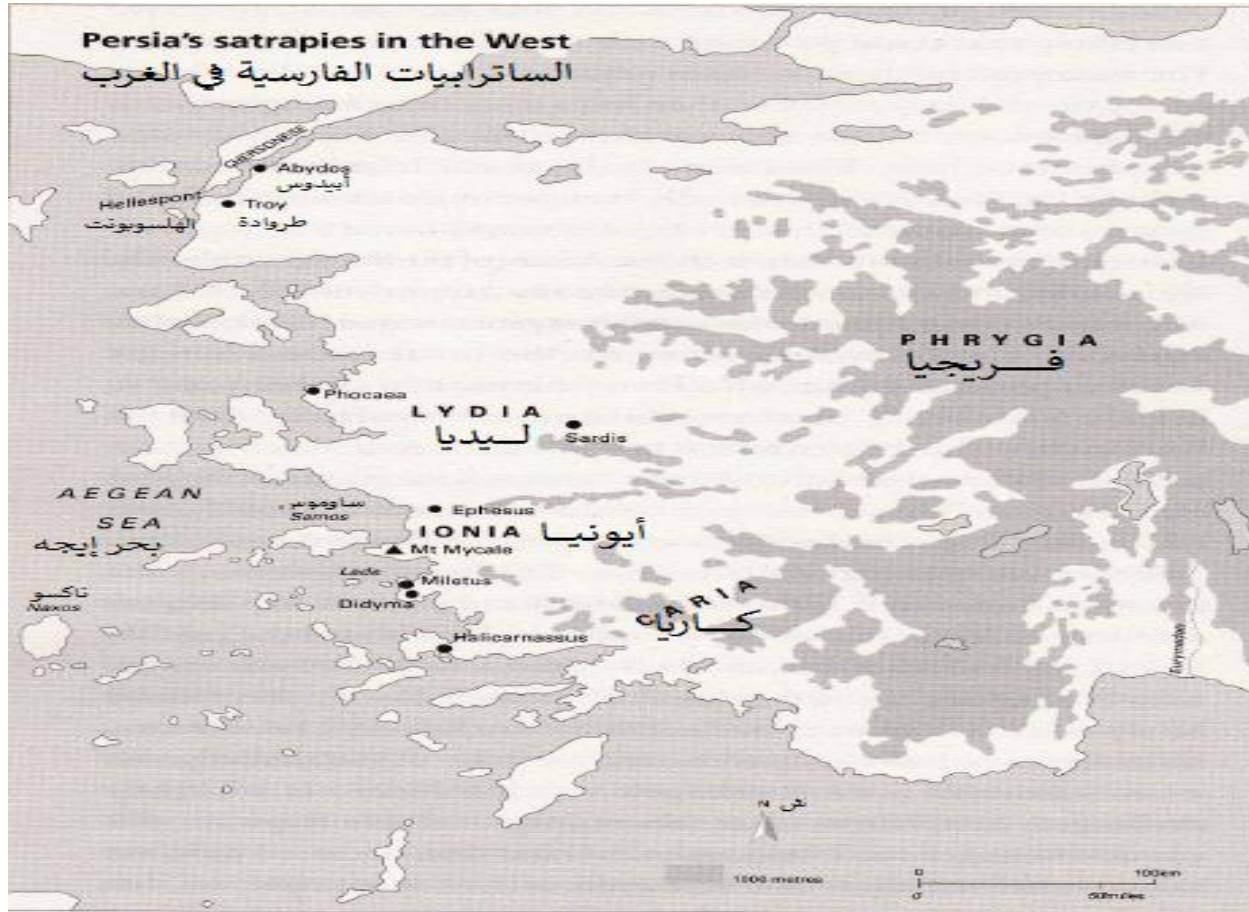
بتصرف (Adapté)

ملحق رقم 5: خريطة تبين أقاليم ومدن بلاد الأناضول



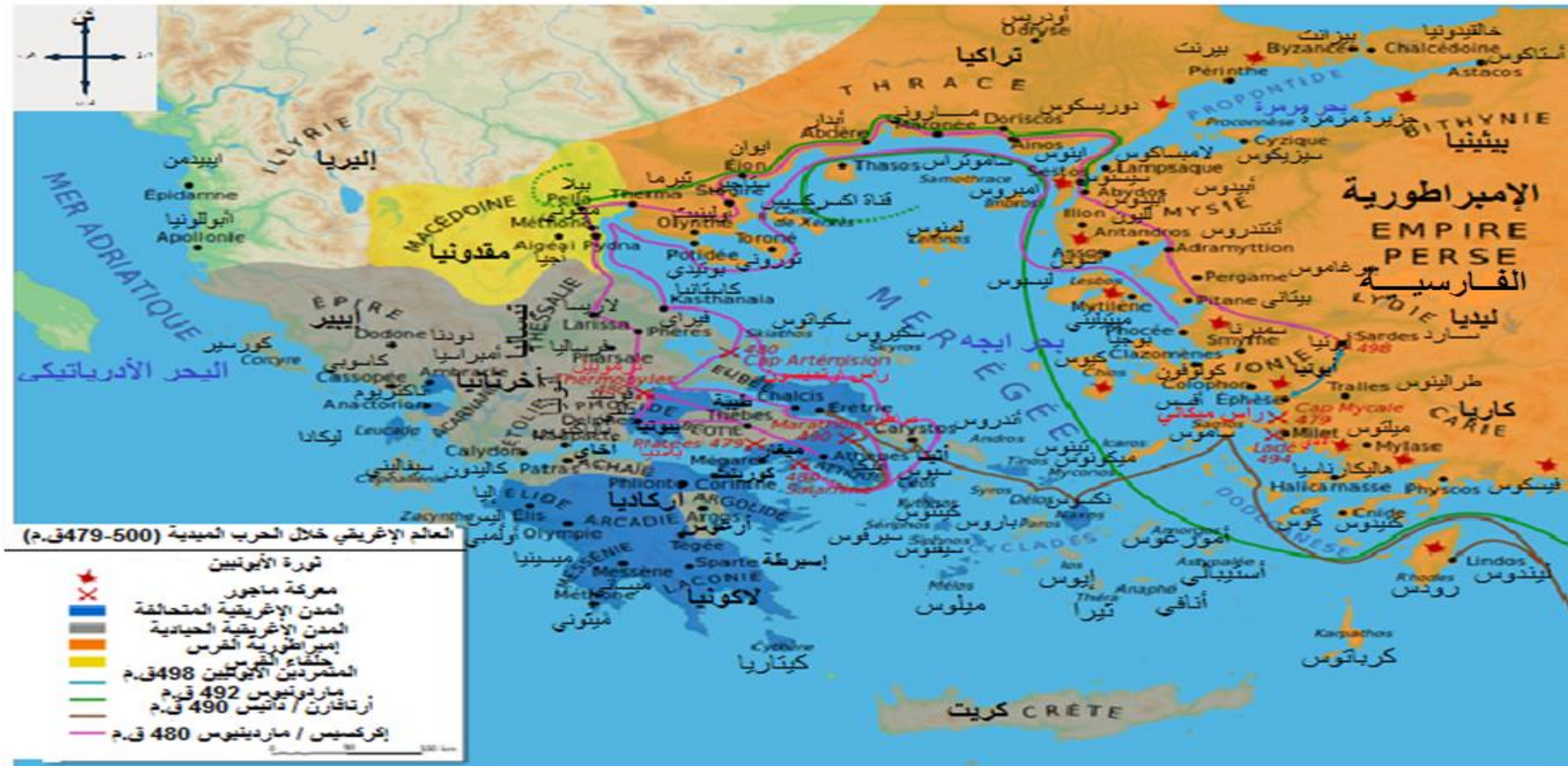
https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/2/27/Antic_Anatolia.jpg (بتصرف)

ملحق رقم 6: خريطة توضح الساترايات الفارسية في الجهة الغربية للمملكة



Tom Holland, Persian fire, Abacus edition, London, 2005, p 156. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 7: خريطة تظهر العالم الإغريقي خلال الحروب الميديّة



https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/2/27/Map_Greco-Persian_Wars-fr.svg (adapté) بتصريف

ملحق رقم 8: خريطة توضح طبيعة وتضاريس بلاد اليونان



Pin on Maps ancient civilisation : <https://www.pinterest.com/pin/697354323520186344/>

ملحق رقم : 9 خريطة توضح أقاليم، جزر، ومدن بلاد اليونان



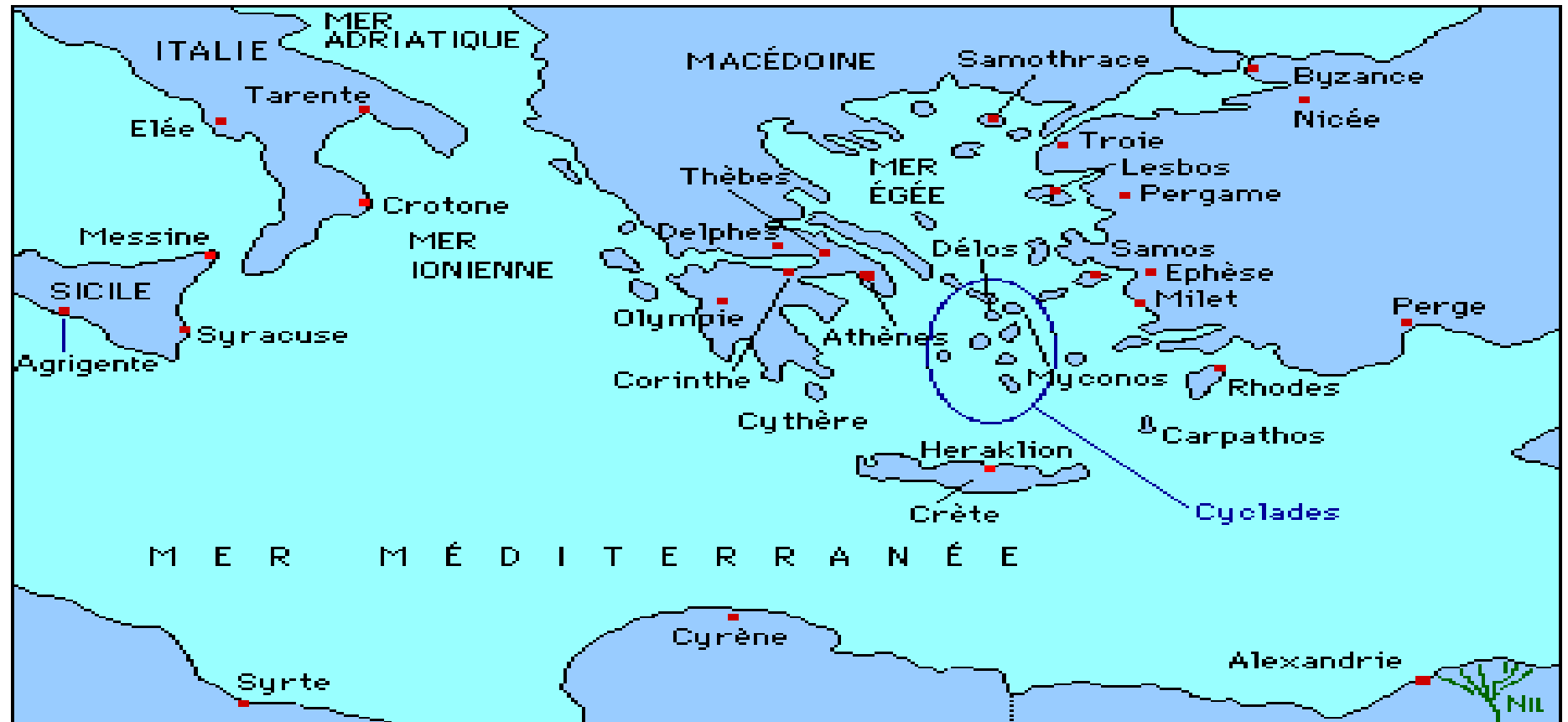
http://lastel-histoire-geo.wifeo.com/images/c/car/carte_grece.gif

ملحق رقم 10 خريطة توضح مناطق أقاليم شبه جزيرة البيلوبونيز



Tom Holland, op.cit, p 67. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 11: خريطة توضح موقع جزر السيكلاد (Cyclades) بين جزر بحر إيجه



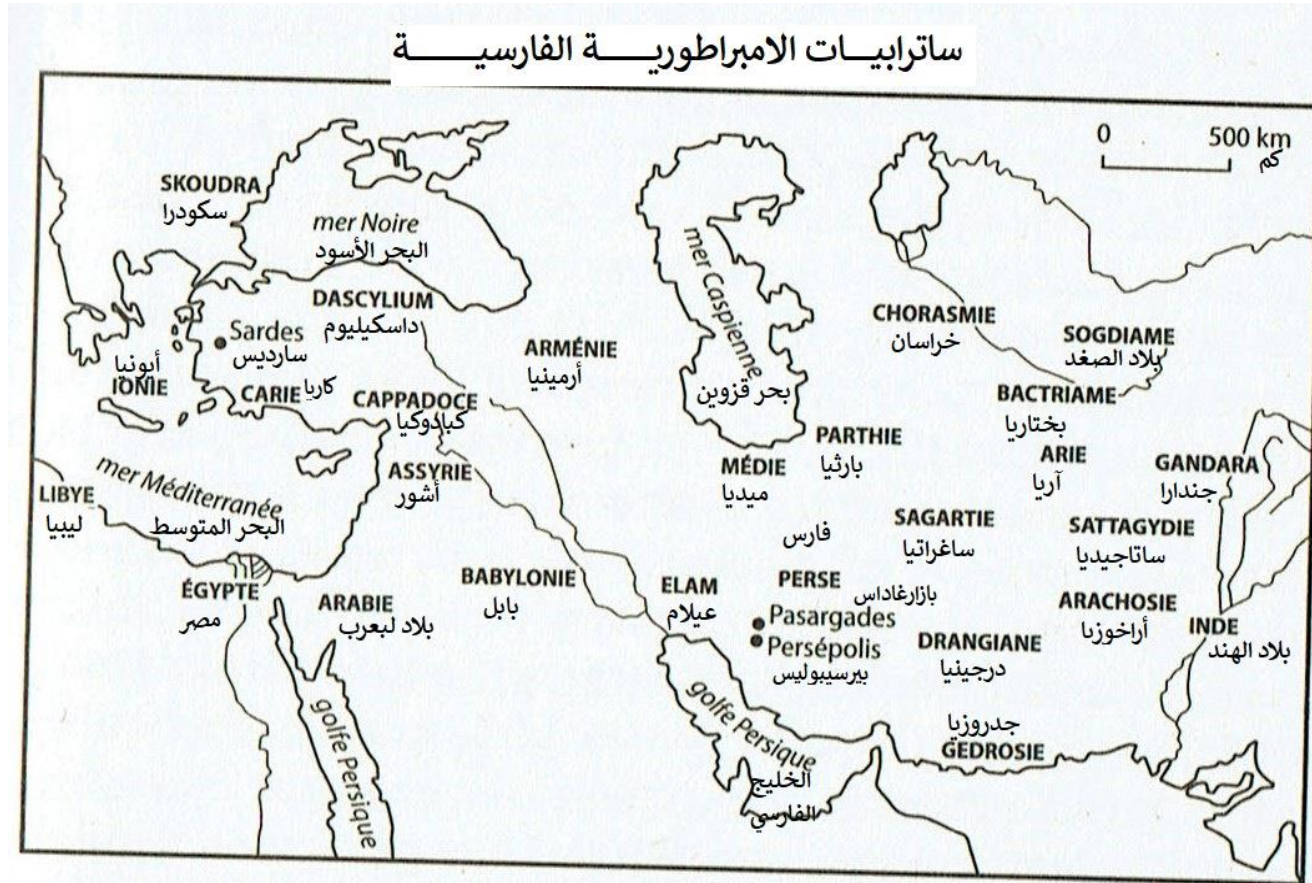
https://www.bing.com/images/search?view=detailV2&ccid=f4jakhUI&id=D5BF18E31E0098C144E80AD3A793ED7411C28027&thid=OIP.f4jakhUIyUqshVqhlhf_HwEsDU&q=La+gr%c3%a8ce+antique&simid=608028969851292052&selectedindex=95&mode=overlay&first=1

ملحق رقم 12: خريطة توضح مواقع معارك الثورة الأيونية



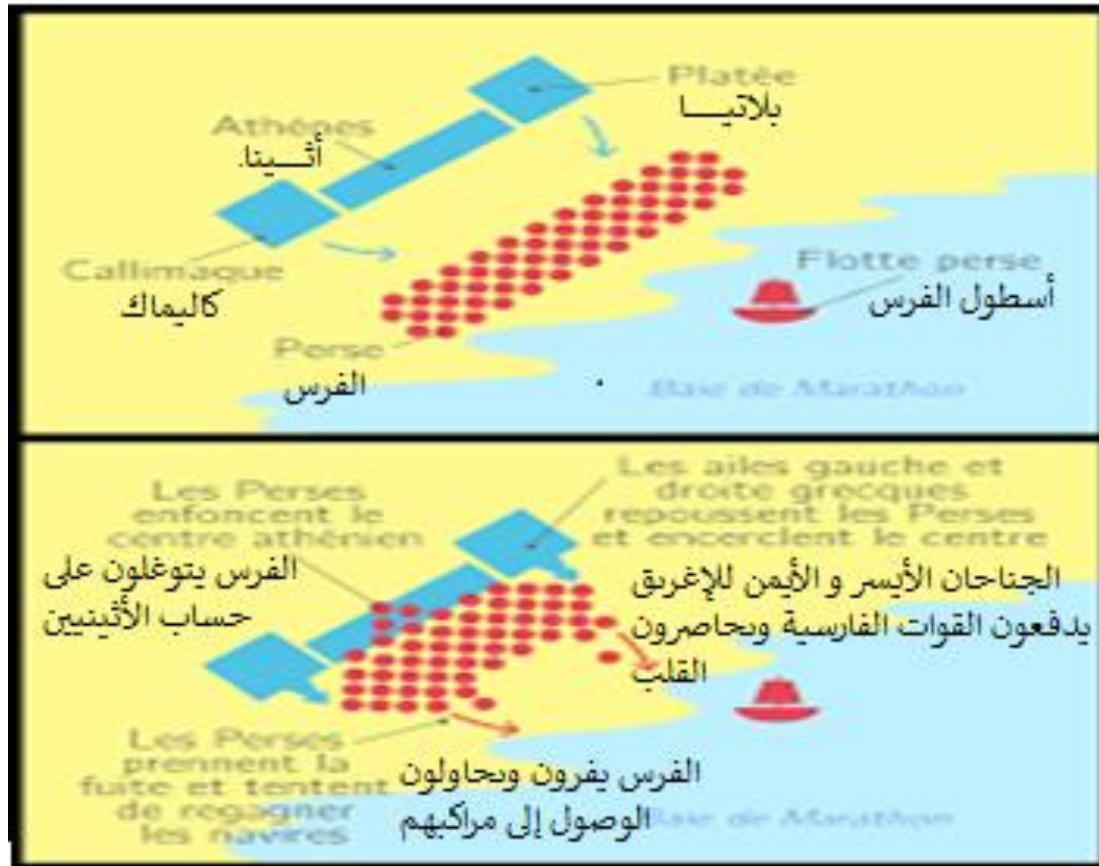
Philip de Souza, op.cit, p 11.

ملحق رقم 13: خريطة توضح الساترايات الفارسية على أرض الامبراطورية



(ترجمة الباحث) Peter Green, op.cit, p 43.

ملحق رقم 14: خريطة توضح مخطط معركة الماراثون (Marathon)



<https://www.kartable.fr/ressources/histoire/etude-de-cas/la-bataille-de-marathon/4866> (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 15: خريطة توضح الطريق من سوز عاصمة بلاد فارس إلى سارديس عاصمة ليديا



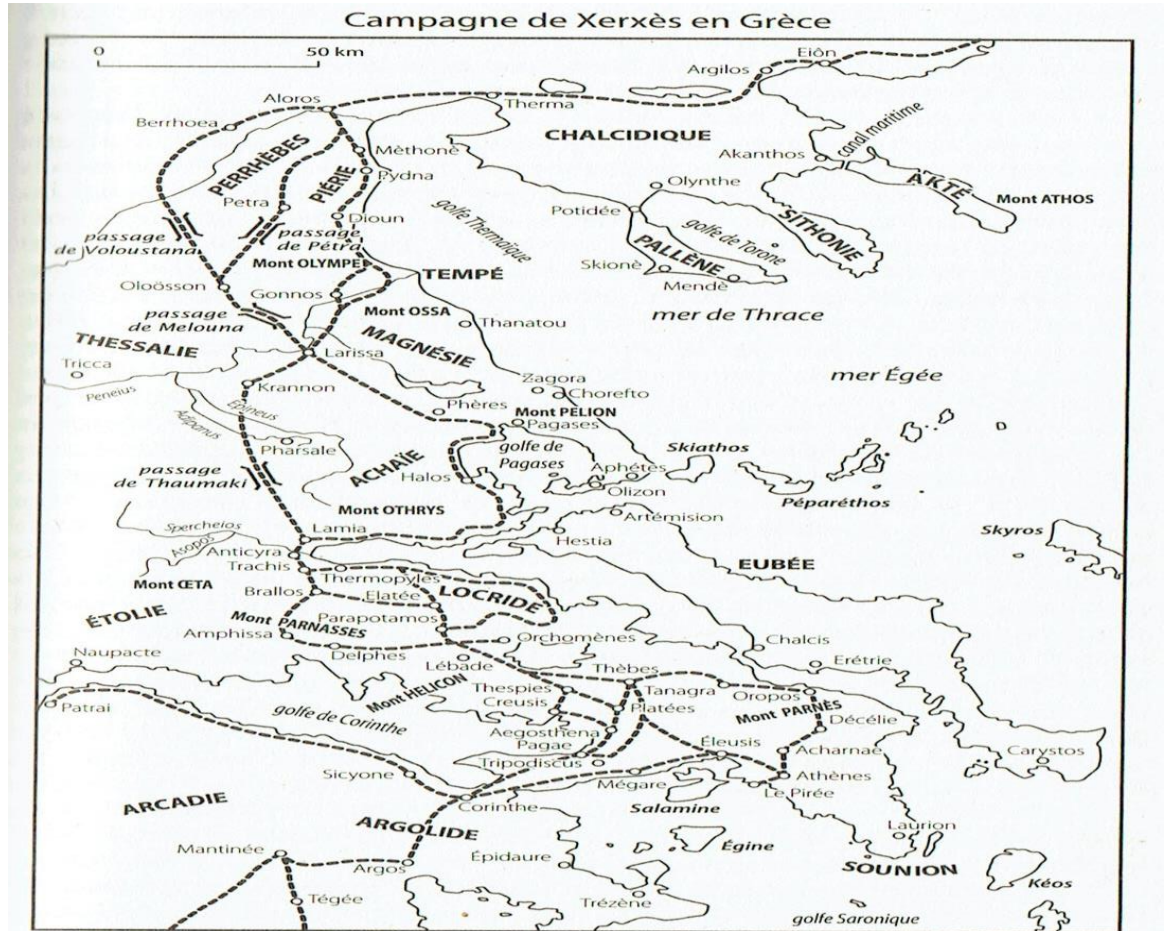
(ترجمة الباحث) <https://www.histoire-du-monde.fr/antiquite/moyen-orient-antique/empire-perse/>

ملحق رقم 16: خريطة توضح مواقع معارك الحرب الميديّة الأولى



<https://www.bing.com/images/search?view=detailV2&ccid=X1JuBgCF&id=6A00605A6C205FE4F270F16670BDB95540F7135B&thid=OIP.X1JuBgCFH6k4Et4gWYzyOQEsDB&q=La+gr%c3%a8ce+antique&simid=608021015544661248&selectindex=72&mode=overlay&first=1>

ملحق رقم 17 : خريطة توضح خط سير الجيش والأسطول الفارسيين في بلاد اليونان (الحرب الميدية الثانية 480-479 ق.م)



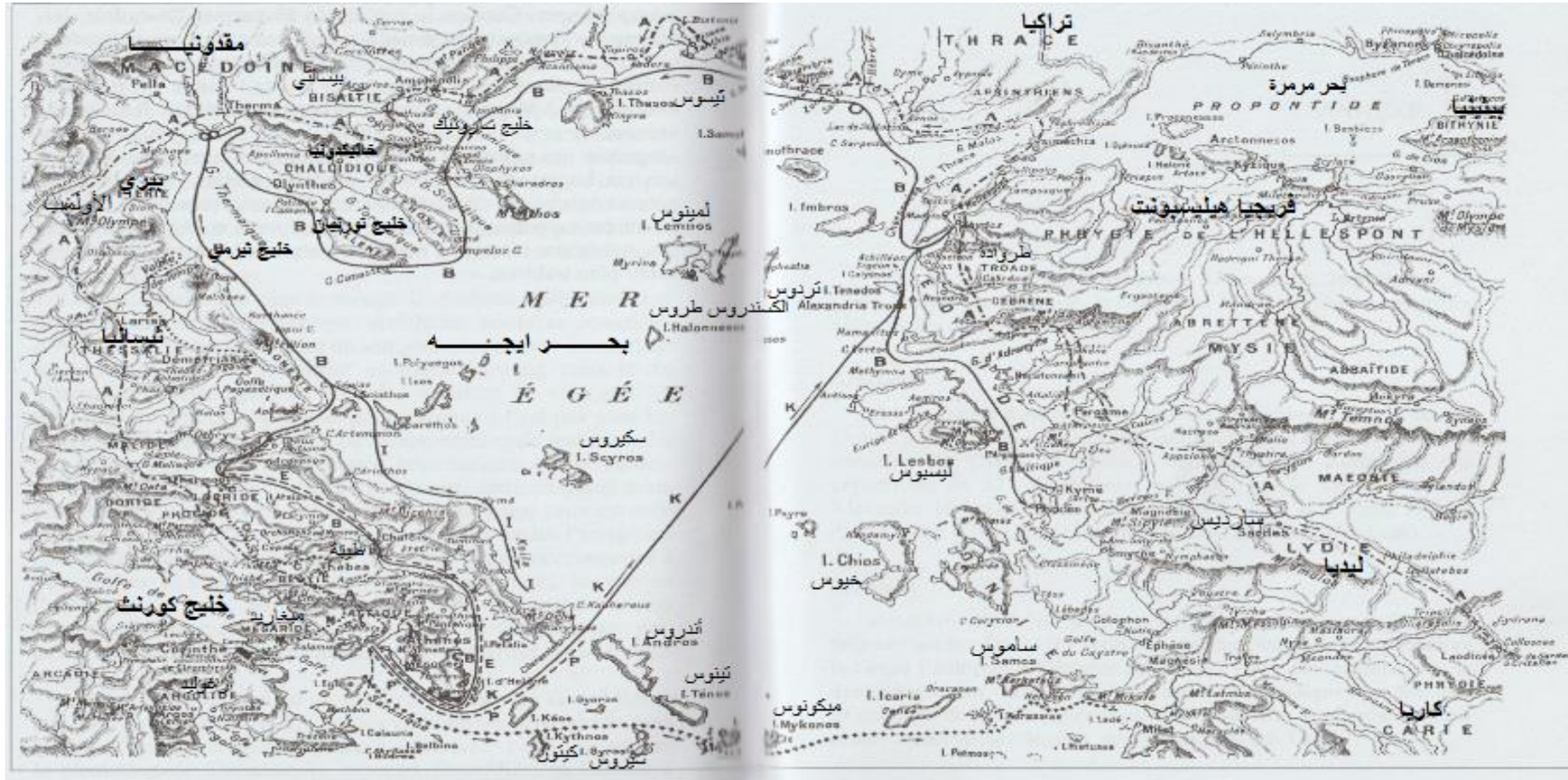
Peter Green, op.cit, p 143. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 18 :خريطة توضح خط سير الفرس نحو تيرموپيل، سلامين وبلاتيا



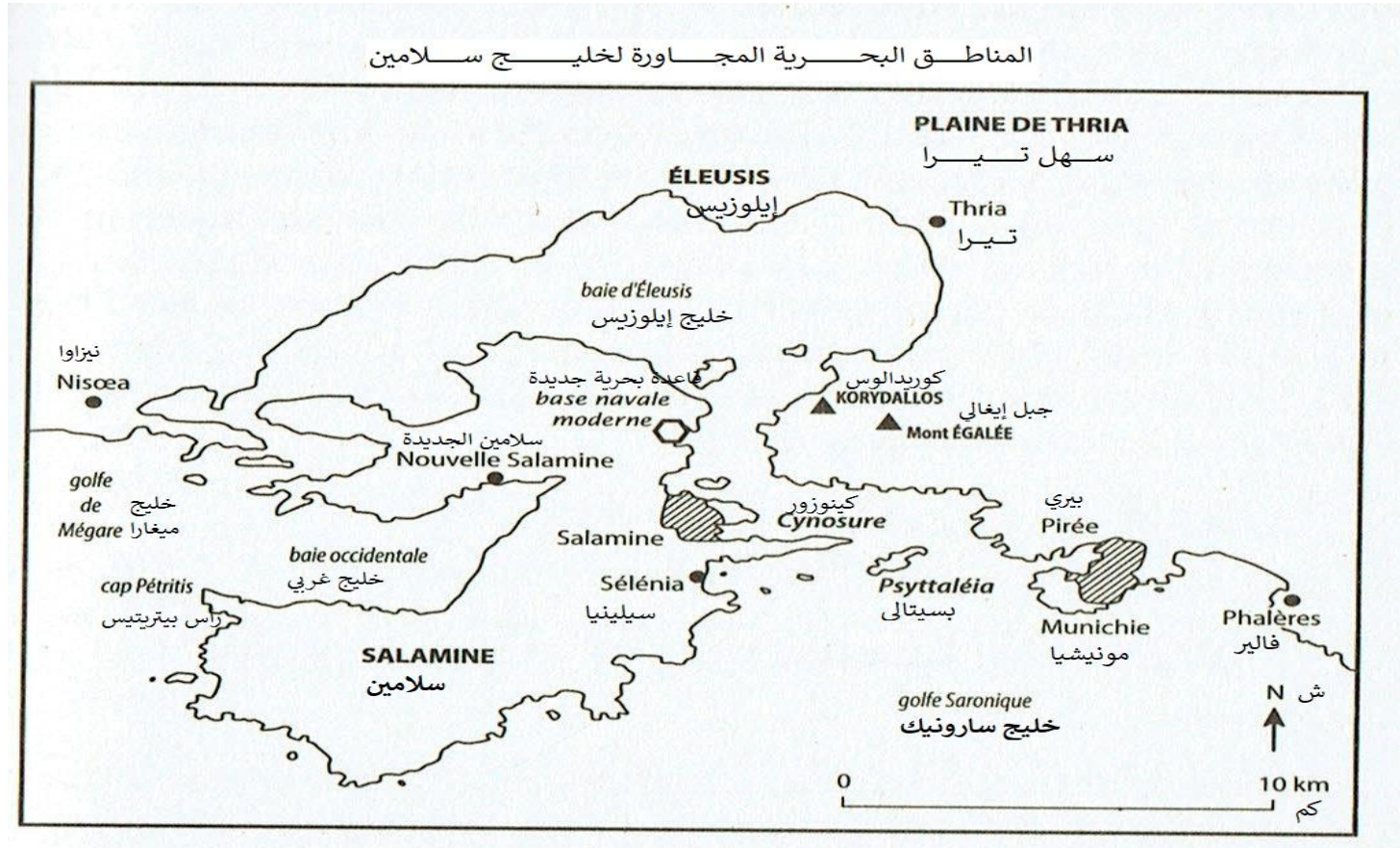
<https://www.ancient.eu/thermopylae/>

ملحق رقم 19: خريطة توضح مسرح أحداث الحرب الميدانية الثانية 480-479 ق.م



Henri Pigaillem, op.cit, pp 116-117. (ترجمة الباحث)

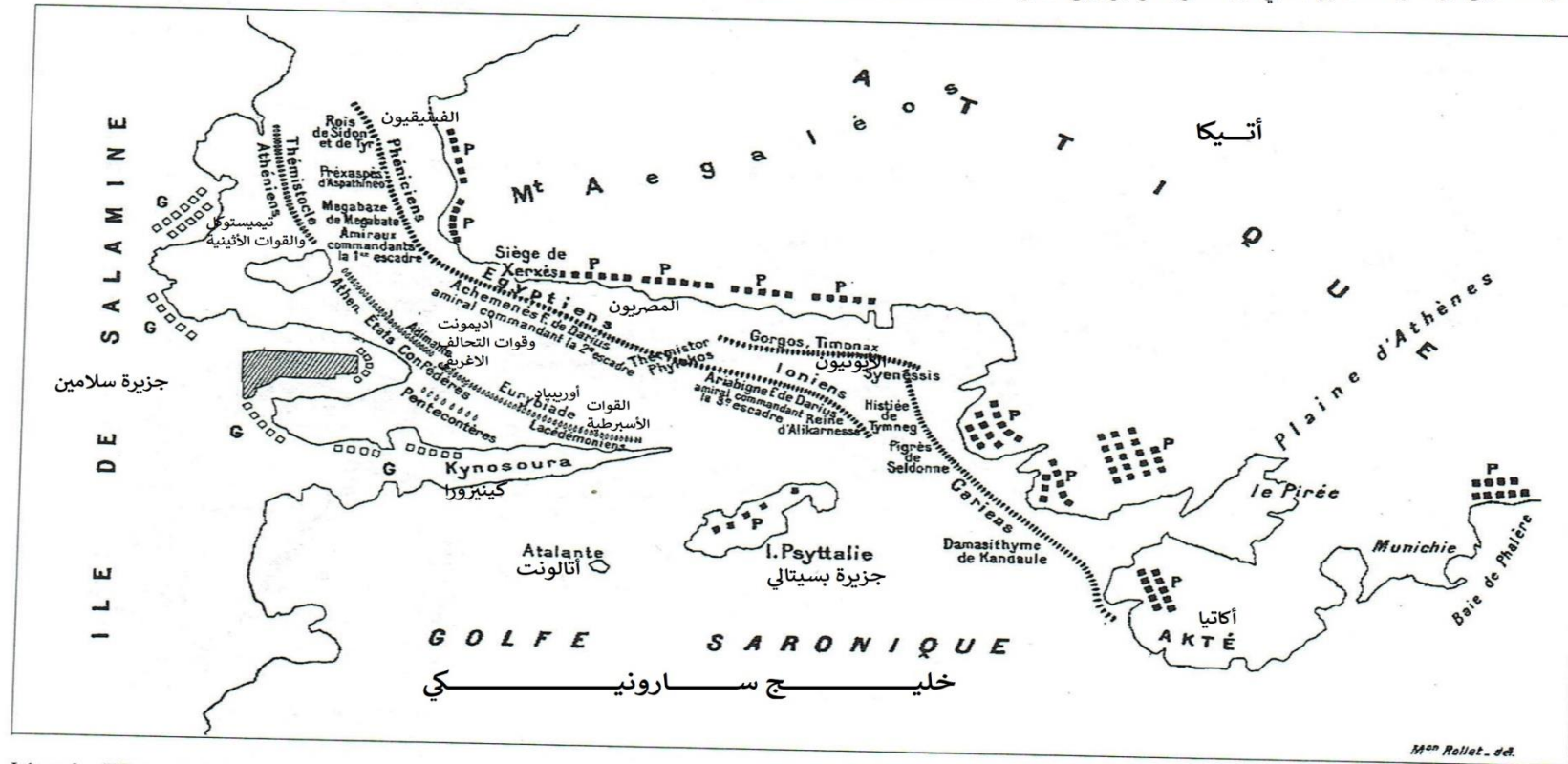
ملحق رقم 20: خريطة توضح موقع خليج سارونيك القريب من مضيق سلامين



Peter Green, op.cit, p 259. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 21: خريطة توضح مواقع القوات الإغريقية والفارسية خلال المرحلة الأولى من معركة سلامين

المرحلة الأولى من معركة سلامين : سعى كل أسطول للوصول إلى الآخر Le combat (1^{re} phase) : les flottes courant l'une contre l'autre dans le détroit

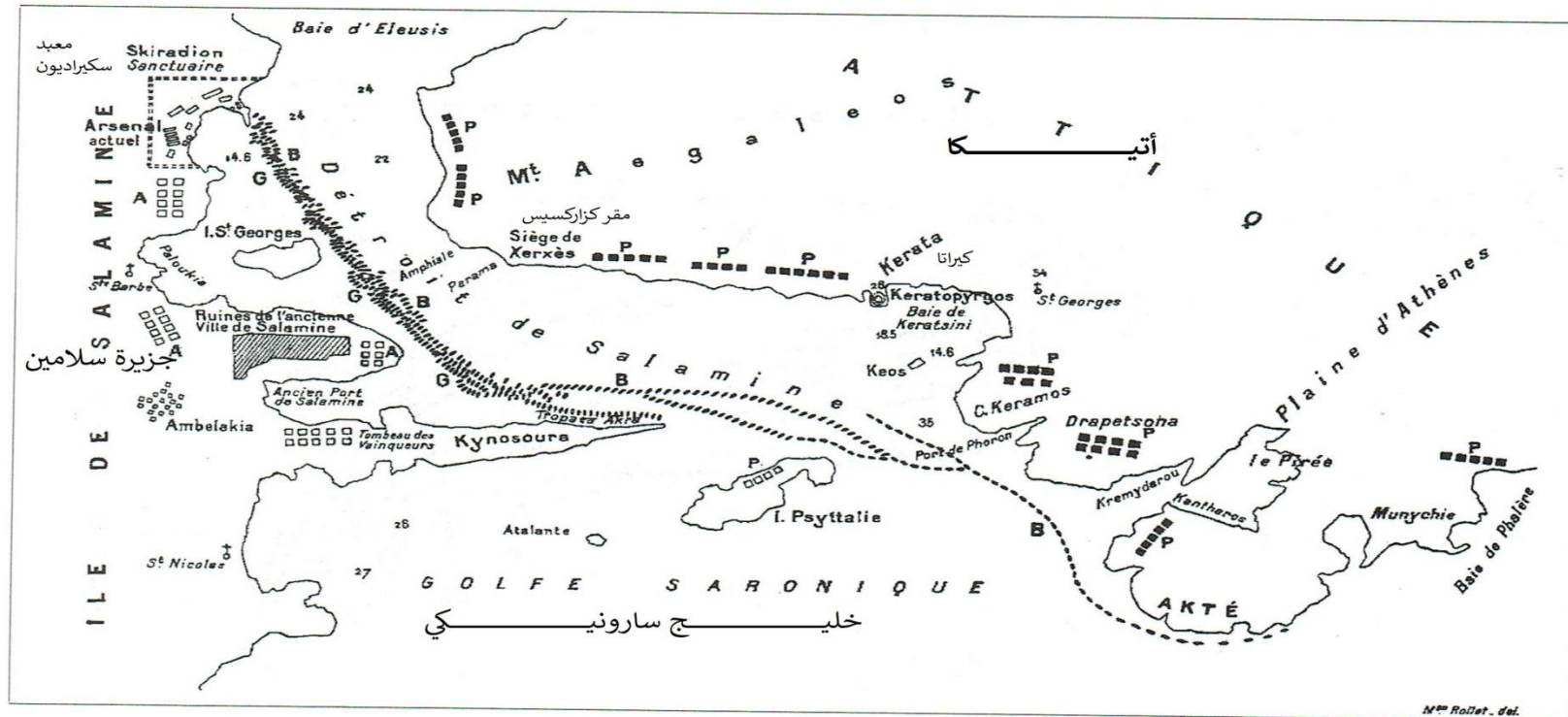


Légende : PP, فرق فارسية ; GG, مشاة أوبليت إغريق ; ■■■■■■, فيالق البرابرة ; □□□□□□, فيالق إغريقية
Source : Constantin Rados, La tactique navale des anciens, 1915.

ملحق رقم 22 : خريطة توضح مواقع القوات الإغريقية والفارسية خلال المرحلة الثانية من معركة سلامين

La bataille de Salamine
Le combat (2^e phase) : les armées aux prises

معركة سلامين: المرحلة الثانية
اشتباك الجيوش



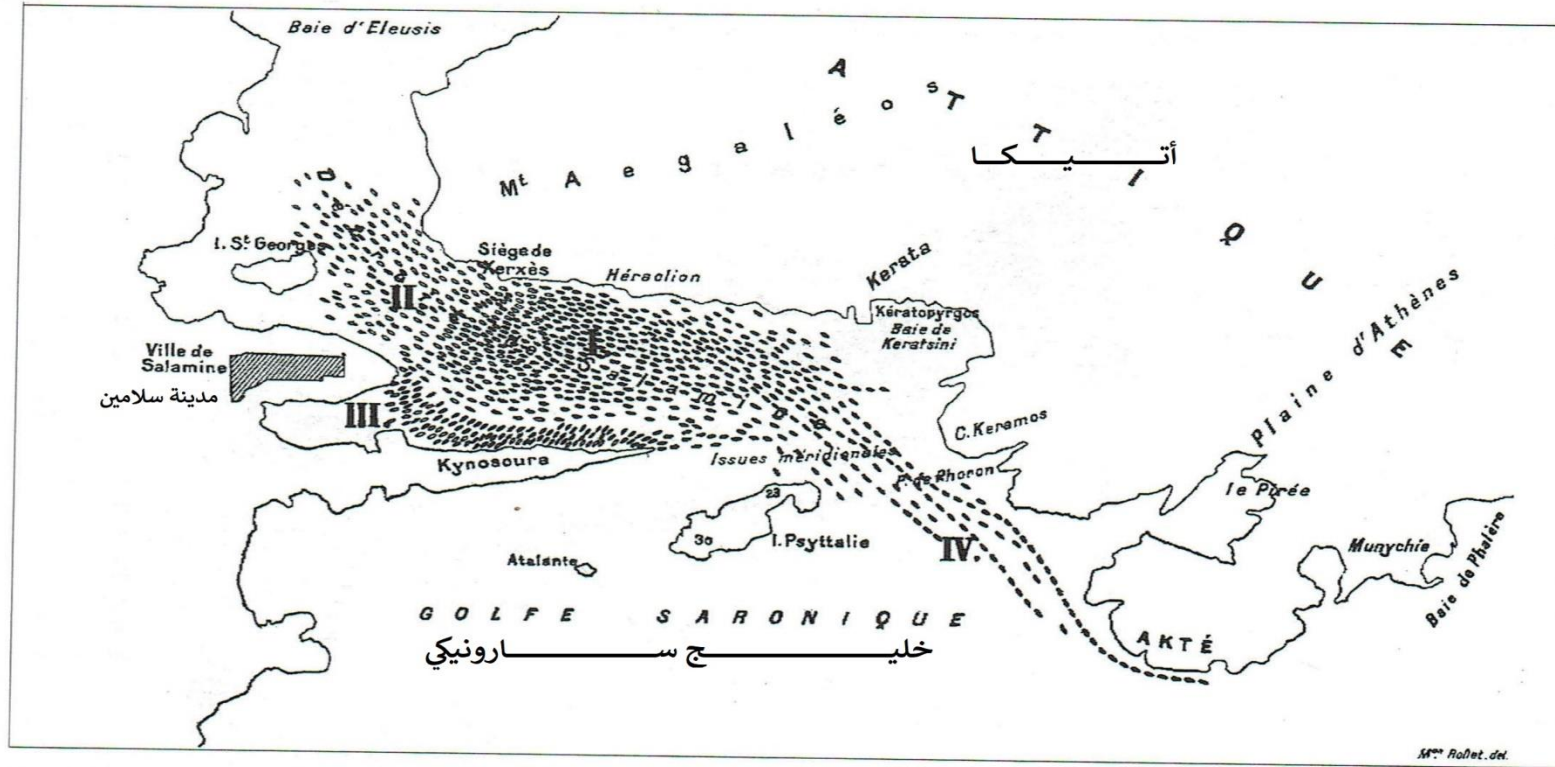
Légende : AA, الفرق الأيونية تحت قيادة أريستيد في نظام المعركة على شاطئ سلامين
Source : Constantin Rados, La tactique navale des anciens, 1915.

فيالق فارسية على شاطئ أتيكا, PP ; فيالق الإغريق, GG ; فيالق البرابرة, BB

Henri Pigaillem, op.cit, p 92. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 23: خريطة توضح مواقع القوات الإغريقية والفارسية خلال المرحلة الثالثة من معركة سلامين

معركة سلامين : المرحلة الثالثة -الاشتباك- هزيمة الفينيقيين Le combat (3^e phase) : la mêlée. – Défaite des phéniciens



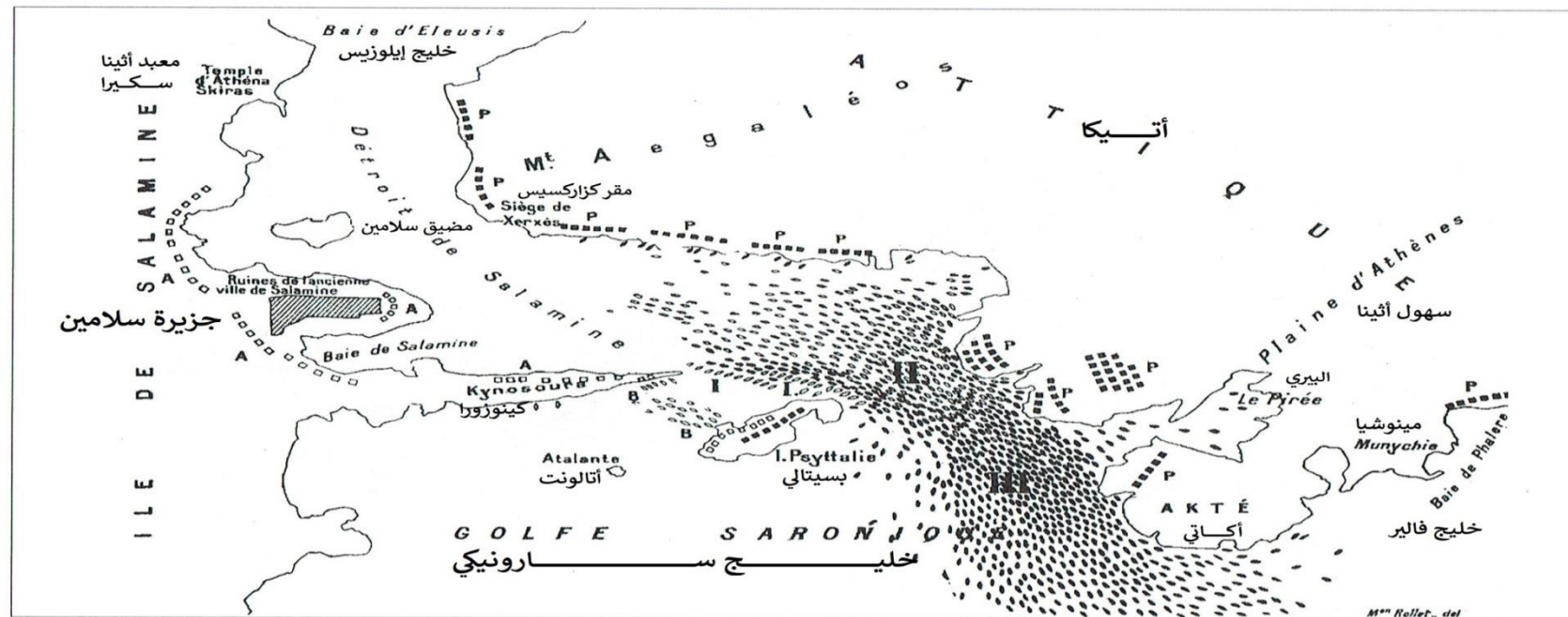
Légende : I, الفينيقيون في حالة تراجع خلف أسطول أريبيتي بحثا منفذ للخروج من المضيق ; II, الأثينيون يلاحقون أعداءهم (القوات البرية غير ممثلة في هذه الخارطة) القوات الكارية تحاول نجدة الأسطول الفارسي لكنها تصطدم بالقطع القارة ; III, يمين الإغريق في حالة تراس ; IV, القوات الكارية تحاول نجدة الأسطول الفارسي لكنها تصطدم بالقطع القارة ; IV, par les Ioniens ; Source : Constantin Rados, La tactique navale des anciens, 1915.

(ترجمة الباحث) Henri Pigaillem, op.cit, p 93.

ملحق رقم 24: خريطة توضح وضعية القوات الإغريقية والفارسية خلال المرحلة الرابعة من معركة سلامين

La bataille de Salamine
Le combat (4^e phase) : la déroute

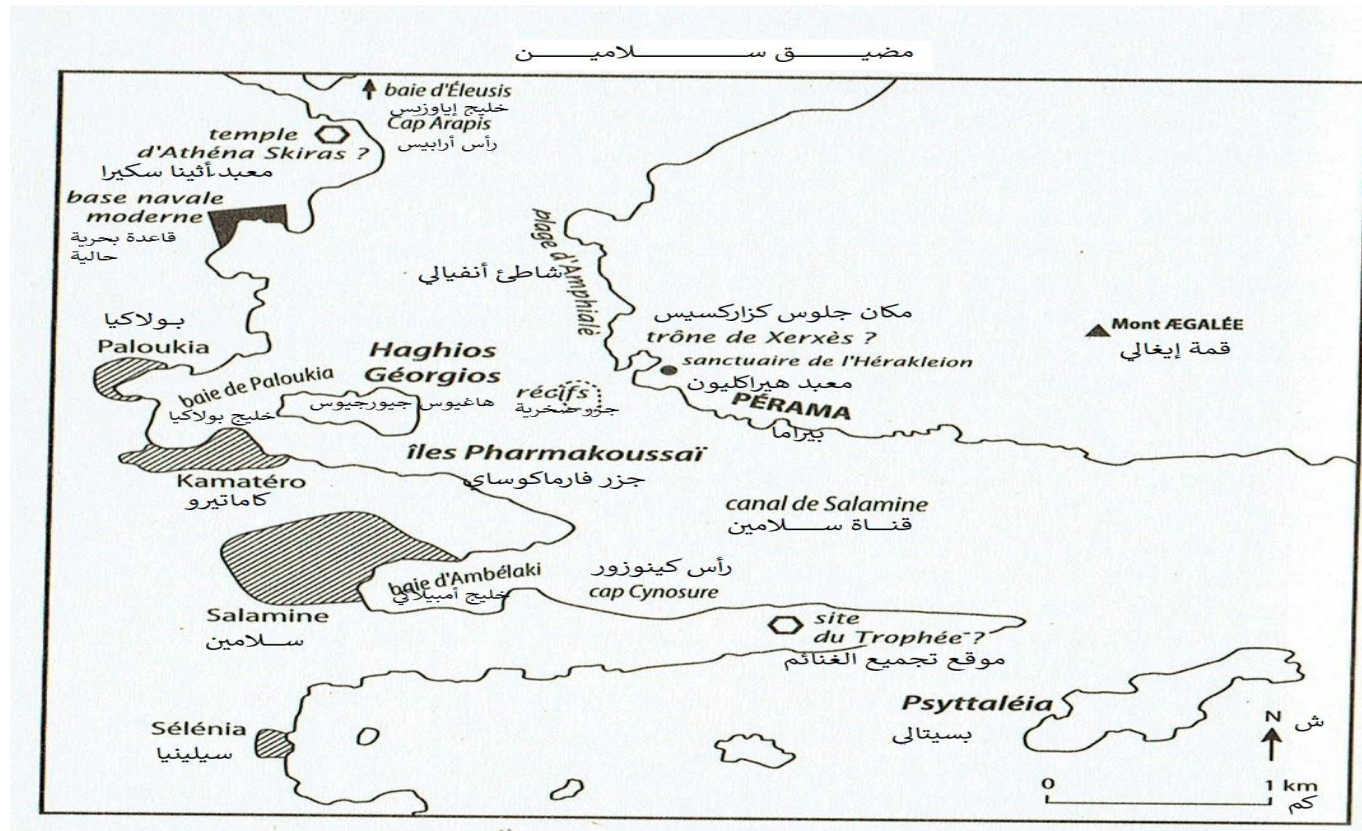
المرحلة الرابعة من معركة سلامين : تقهقر الأسطول الفارسي



Légende : I الأثينيون يلاحقون أعداءهم ; II : مقاتلو الإيجينيات يتموقعون على طول الميمنة الإغريقية محتلين الجنوب الغربي للمضيق لسد الطريق أمام سفن الأعداء التي كانت تقاتل وهي في حالة تراجع
III, الجزء الأكبر من أسطول الفرس يفر في حالة عدم انتظام وفزع نحو فالير ليشند تدافعه في معابر بسيتالي الضيقة
AA, مشاة أوبليت أثينيون ; PP, فرق عسكرية فارسية ; BB, أريستيد يهاجم ويحتل بسيتالي
Source : Constantin Rados, La tactique navale des anciens, 1915.

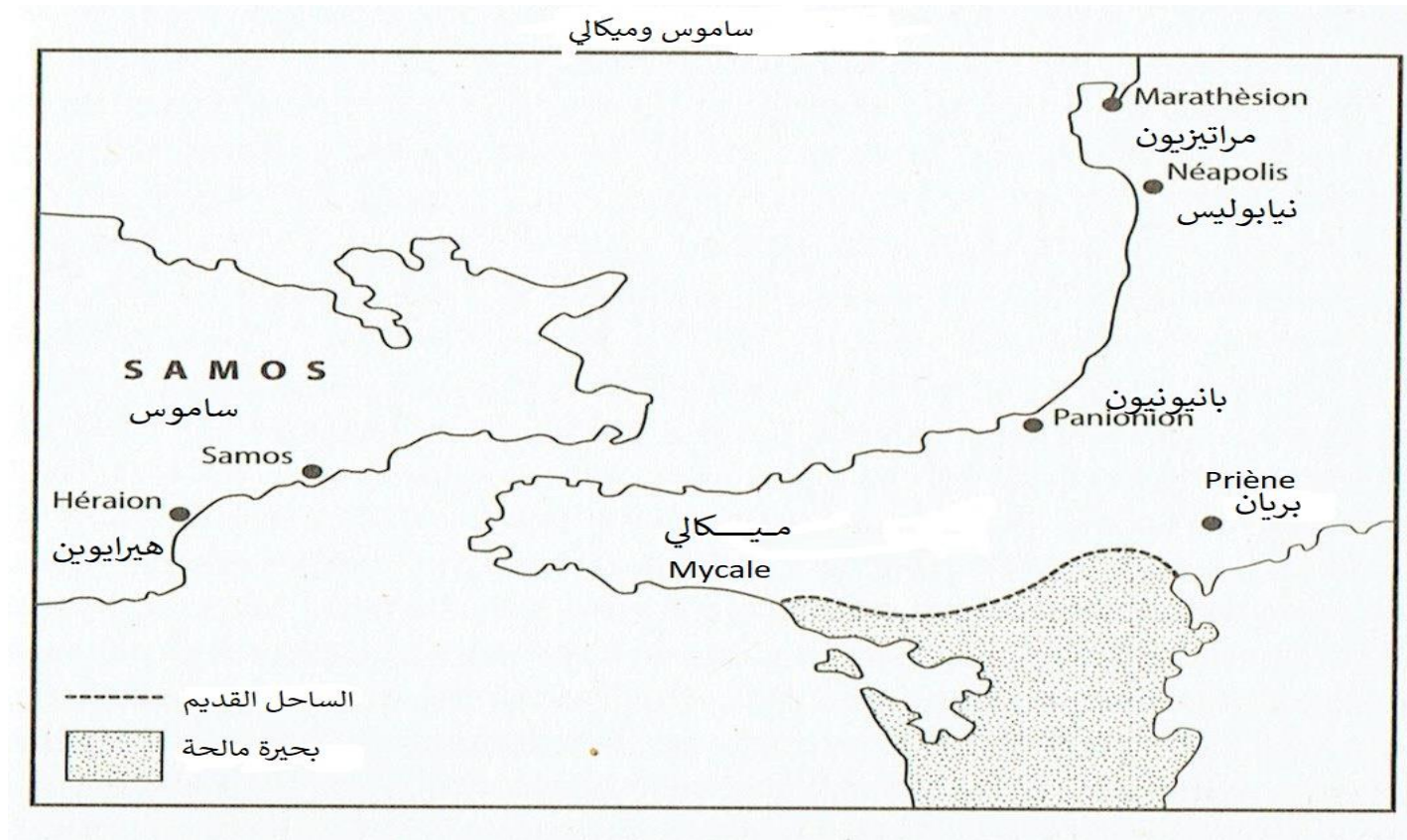
Henri Pigaillem, op.cit, p 94. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 25 : خريطة تبين مضيق سلامين



(ترجمة الباحث) . Peter Green, op cit, p248

ملحق رقم 26: خريطة توضح موقع رأس ميكالي وجزيرة ساموس



Peter Green, op.cit, p 387. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 27: خريطة توضح مواقع عدد من المدن القرطاجية والاغريقية على جزيرة صقلية



Giovanni Polizzi et Samuel Romeo, Entre destructions et reconstructions, le patrimoine sicilien pendant et après la Seconde Guerre mondiale - Le cas de Solonte-, Frontière·s Revue d'archéologie, histoire & histoire de l'art, 2/2020, <https://publications-prairial.fr/frontiere-s/index.php?id=286> (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 28 : خريطة توضح مناطق تواجد القرطاجيين في شبه جزيرة إيبيريا بين 237 و 206 ق.م



(ترجمة الباحث) https://fr.wikipedia.org/wiki/Deuxi%C3%A8me_guerre_punique#/media/Fichier:Iberia_237-206BC-fr.svg

ملحق رقم 29 : خريطة توضح موقع شبه جزيرة إيطاليا



<https://www.marefa.org/images/0/0e/Italy-2.jpg>

ملحق رقم 30: خريطة توضح مختلف تضاريس شبه جزيرة إيطاليا



<https://www.actualitix.com/carte-italie.html>

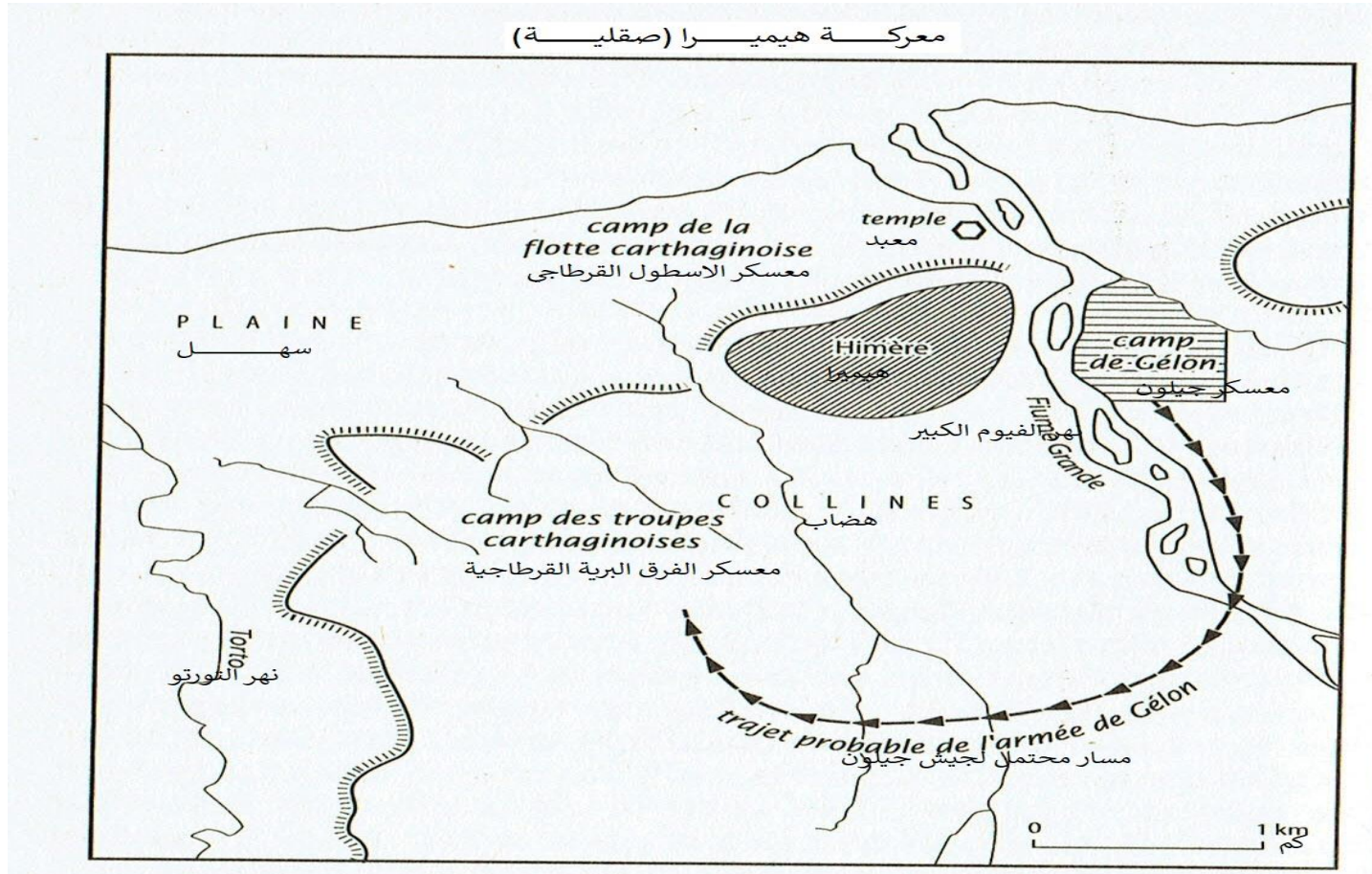
<https://www.actualitix.com/wp-content/uploads/2017/03/carte-relief-italie.jpg>

ملحق رقم 31 : خريطة تبين مناطق استقرار الشعوب على شبه جزيرة إيطاليا



https://sites.google.com/site/navigationdanslantiqute/_/rsrc/1266340468166/oceans-et-mers-concernees-dans-la-navigation-antique/la-mer-mediterranee/l-empire-romain-et-l-etrurie/carte%20italie%20antique.jpg (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 32 : مخطط معركة هيميرا في صقلية 480 ق.م



Peter Green, op.cit, p 218. (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 33 : خريطة تبين الشاطئ المحصور بين مدينتي سينيغاليا (Sinigaglia) ورimini (Rimini)



https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/7/79/Italy_relief_location_map.jpg?uselang=fr

https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Italy_relief_location_map.jpg?uselang=fr (ترجمة الباحث)

ملحق رقم 34: خريطة توضح موقع مدينة قرطاج



موقع قرطاج

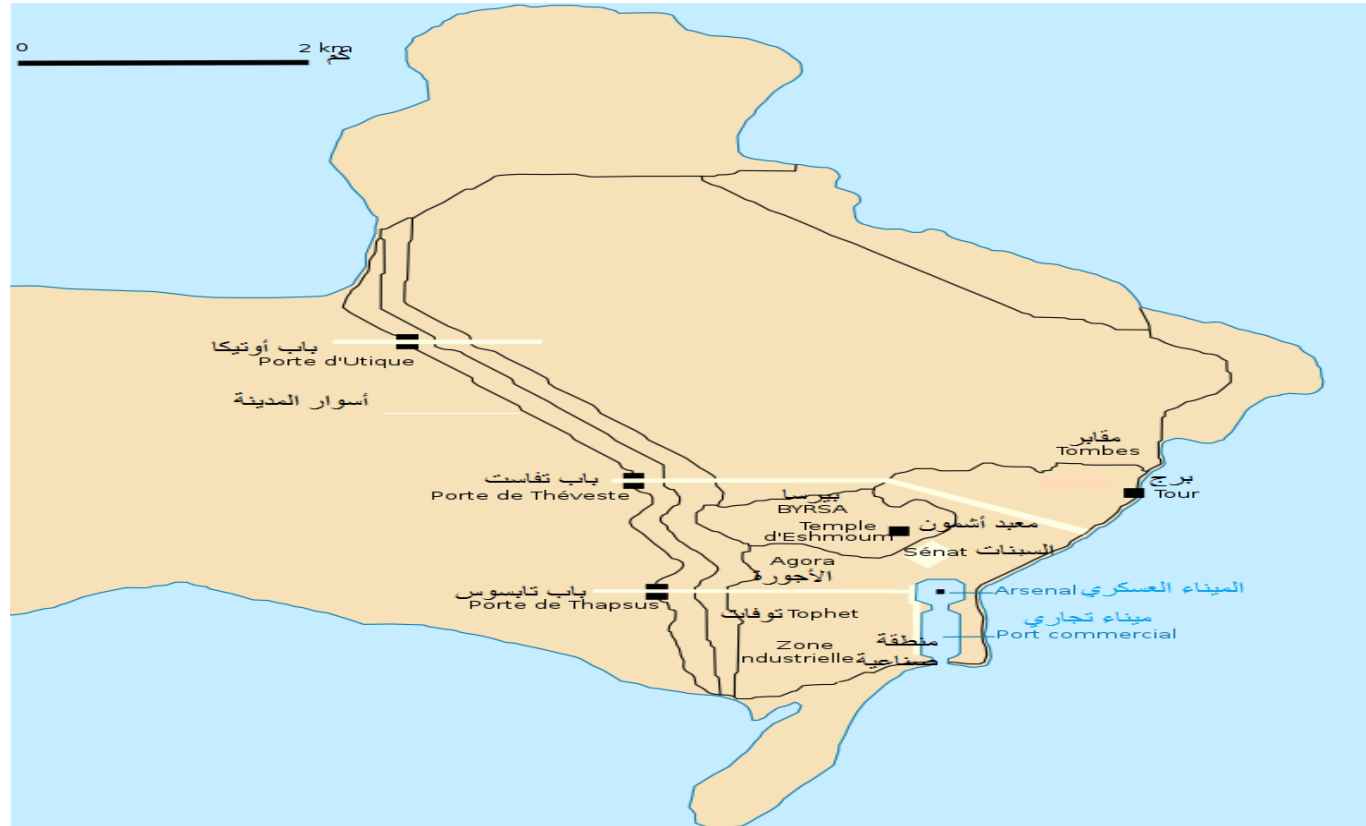
https://encysco.blogspot.com/2013/11/5_30.html

ملحق رقم 35 : خريطة توضح عدد من المستوطنات الفينيقية في غربي المتوسط



http://www.pheniciens.com/cartes/expansion_carte.php?lang=ar

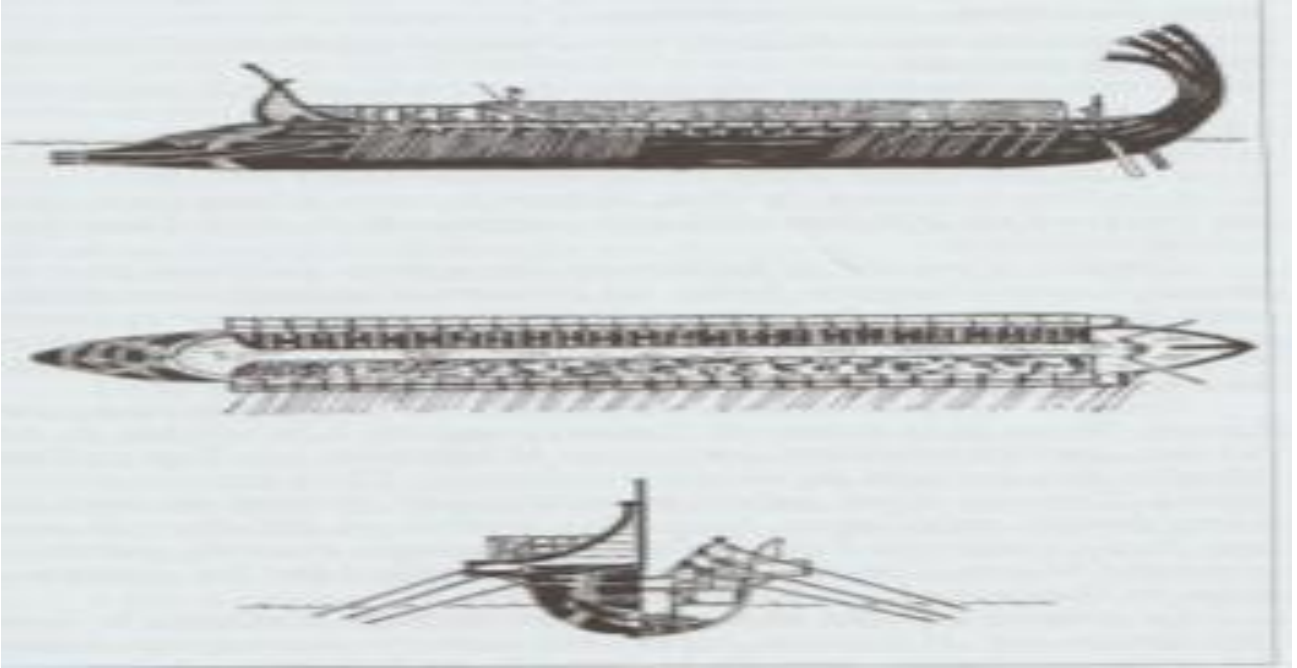
ملحق رقم 36 مخطط مدينة قرطاج البونية



https://fr.wikipedia.org/wiki/Civilisation_carthaginoise#/media/Fichier:Carthage.svg

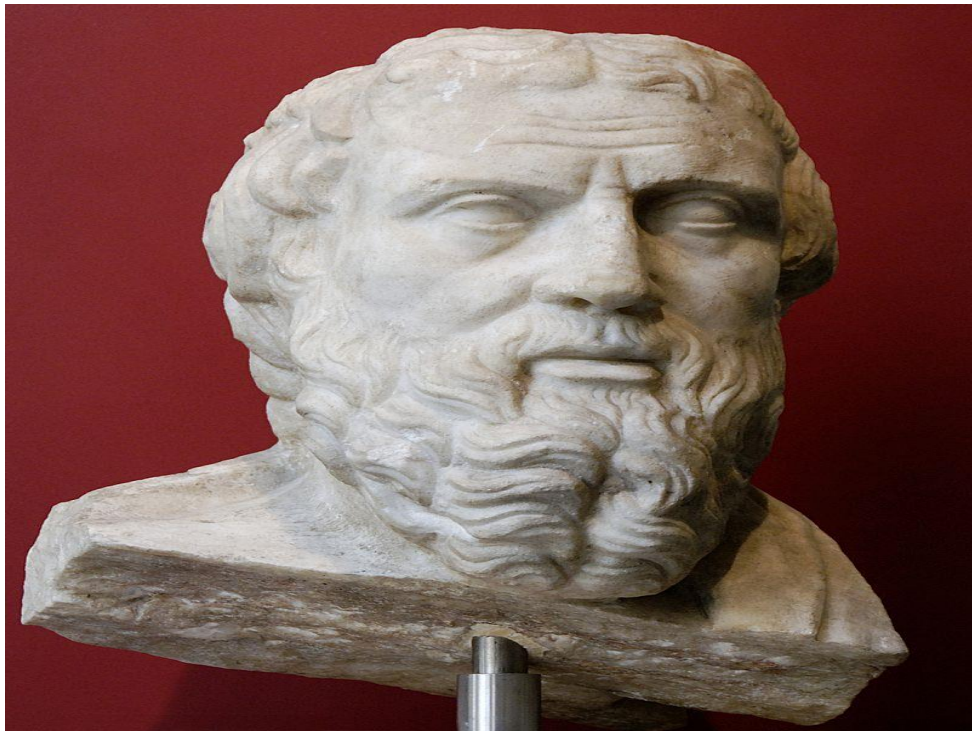
II-الصور

ملحق رقم 01: صورة من مختلف المقاطع لسفينينة ثلاثية صفوف المجاديف (Trière)



Peter Green, op.cit, p35.

ملحق رقم 02 : صورة لتمثال المؤرخ الاغريقي هيروdot



https://fr.wikipedia.org/wiki/H%C3%A9rodote#/media/Fichier:Herodotus_Massimo_Inv124478.jpg

ملحق رقم 03 : صورة للشاعر إيسخيلوس (Eschyle)



Victor Hanson, op.cit, p13

ملحق رقم 4 : صورة لتمثال داريوس الأول (Darius I)



http://antikforever.com/Perse/Achemenides/darius_I.htm

ملحق رقم 05: صورة لتمثال الملك كزركسيس (Xerxès)



[https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Column Capital in the Form of a Man-Bull, Iran, Persepolis, Tripylon, Achaemenid Period, reign of Xerxes, 586-465 BC, restored limestone - Oriental Institute Museum, University of Chicago - DSC07937.JPG](https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Column_Capital_in_the_Form_of_a_Man-Bull_Iran_Persepolis_Tripylon_Achaemenid_Period_reign_of_Xerxes_586-465_BC_restored_limestone_-_Oriental_Institute_Museum_University_of_Chicago_-_DSC07937.JPG)

ملحق رقم 06: .صورة تبين طريقة تسليح وقتال المشاة الإغريق خلال القرن الخامس



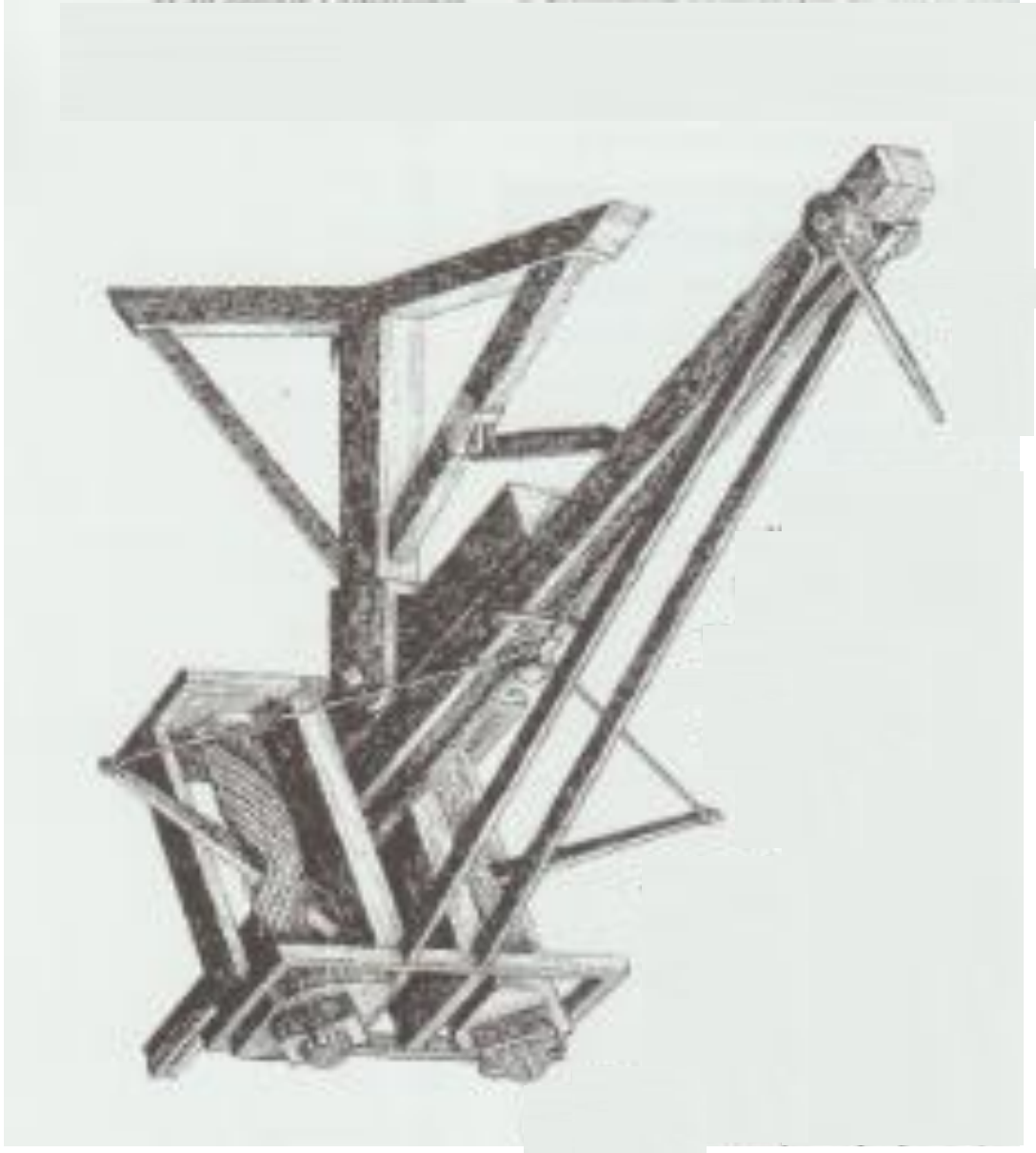
Victor Davis Hanson, op.cit, p10.

ملحق رقم 07: صورة تظهر طريقة لباس وتسليح المشاة الإغريق أو الأوبليت (Hoplite)،
الدرع، الخوذة، الترس وواقيات الركب (jambière)



Victor Hanson, op.cit, p 18.

ملحق رقم 08 : صورة لآلة المنجنيق المستعملة في حروب الإغريق وهي قادرة على رمي حجر
بوزن 90 كغ لمسافة 270 م



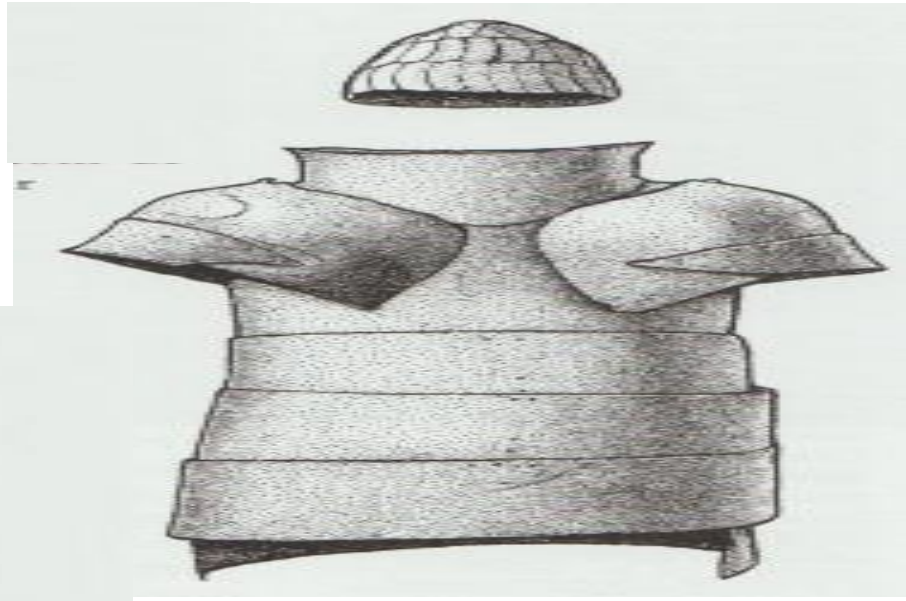
Victor Hanson, op.cit, p 23.

ملحق رقم 09: صورة لخوذة الملك الاسبرطي ليونيداس



[/https://www.freepng.fr/png-krmpnv](https://www.freepng.fr/png-krmpnv)

ملحق رقم 10 : صورة لترس كان يستعمله الجنود الإغريق خلال القرن الخامس ق.م عشر عليه
في أرجوليس (Argolide) سنة 1960 .



Victor Hanson, op.cit, p 33.

ملحق رقم 11: صورة لفارس إغريقي من القرن الرابع ق.م



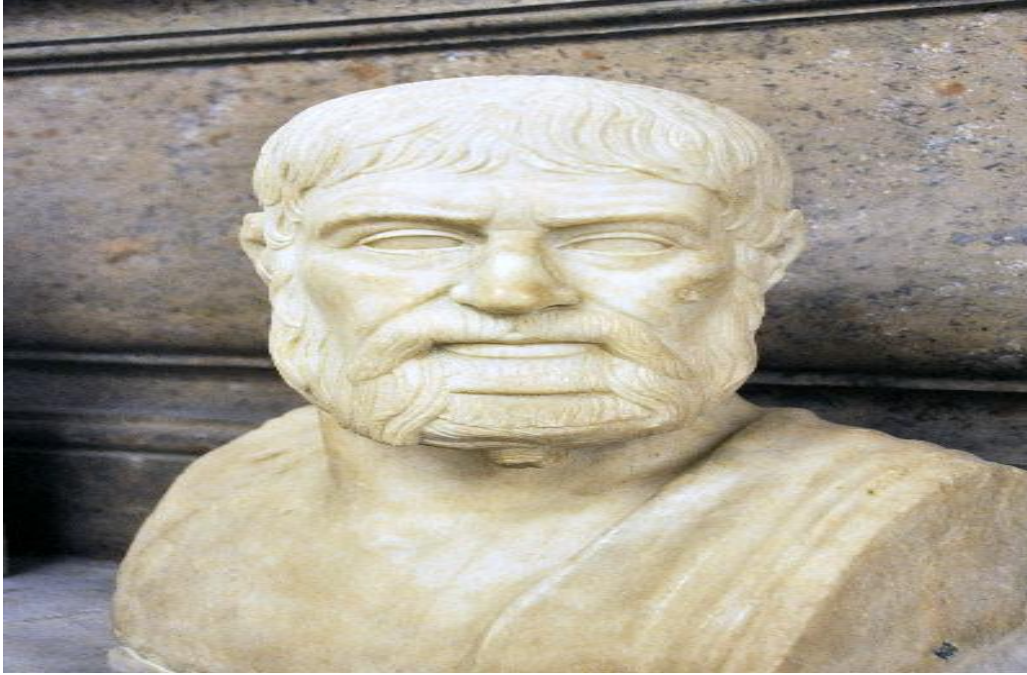
Victor Hanson, op.cit, p138.

ملحق رقم 12: صورة لتمثال القائد الأثيني تيميستوكل (Thémistocle)



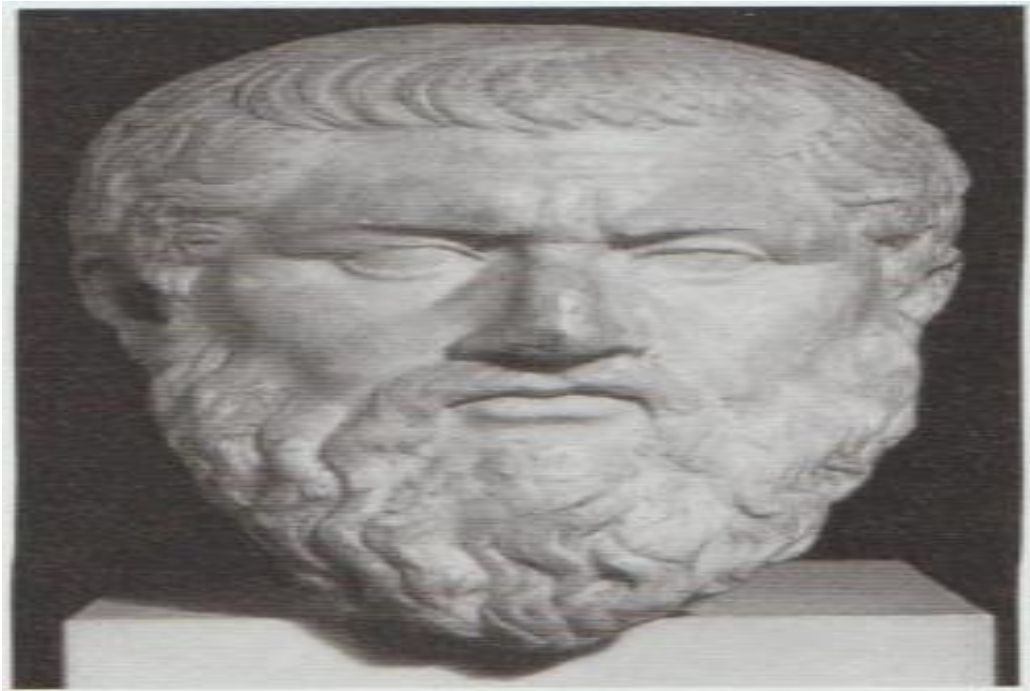
https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/8/87/Beeld%2C_Themistocles_-_Unknown_-_20408396_-_RCE.jpg

ملحق رقم 13: صورة لتمثال القائد الاسبرطي بوزانياس (Pausanias)



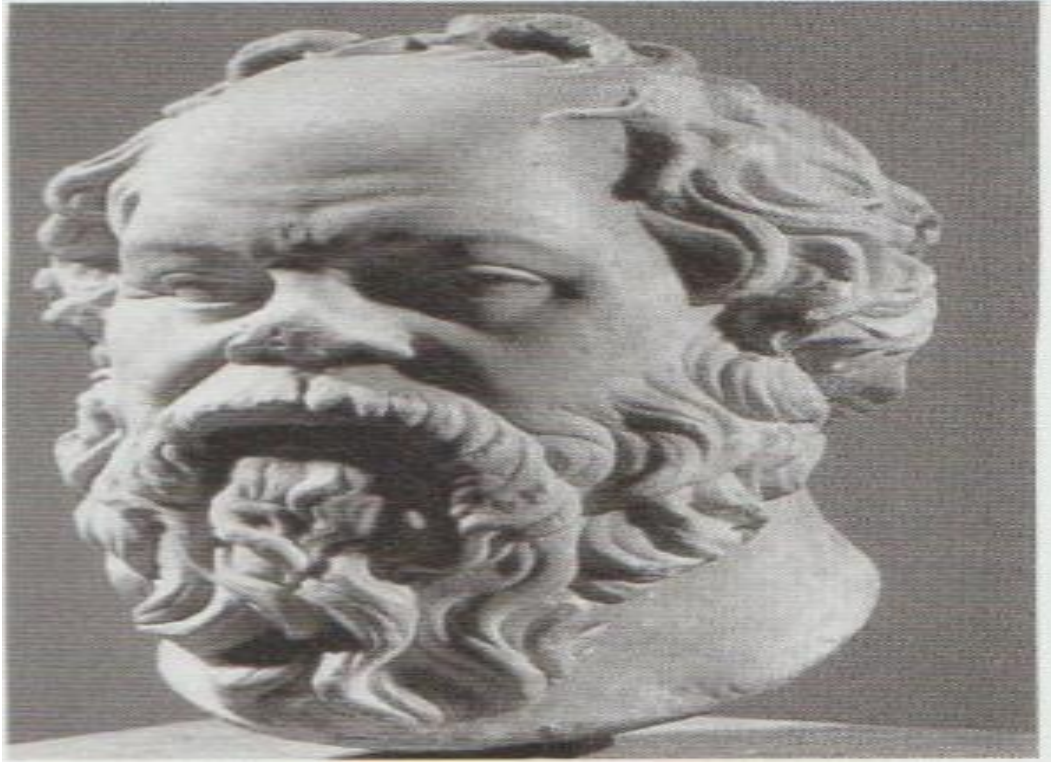
[https://fr.wikipedia.org/wiki/Pausanias_\(g%C3%A9n%C3%A9ral\)#/media/Fichier:Pausanias_in_the_Capitoline_Museums,_Rome.jpg](https://fr.wikipedia.org/wiki/Pausanias_(g%C3%A9n%C3%A9ral)#/media/Fichier:Pausanias_in_the_Capitoline_Museums,_Rome.jpg)

ملحق رقم 14 : صورة لتمثال المؤرخ بلاتون (Platon)



Victor Hanson, op.cit, p 15.

ملحق رقم 15: صورة لتمثال المؤرخ والفيلسوف اليوناني سقراط



Victor Hanson, op.cit, p 15.

ملحق رقم 16: صورة مفترضة للقائد القرطاجي هاميلكار برقة



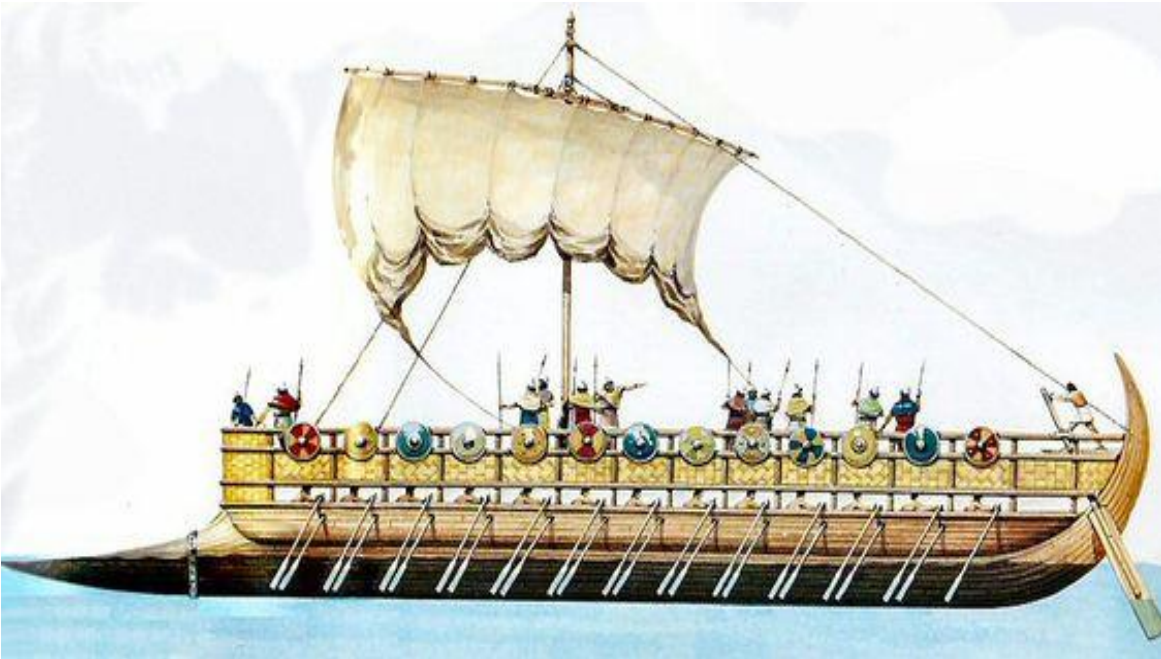
<https://dissolve.com/stock-photo/Hamilcar-Barca-Barcas-275-228-Carthaginian-general-rights-managed-image/102-D869-103-802>

ملحق رقم 17 : صورة مفترضة للقائد القرطاجي حنبعل برقة



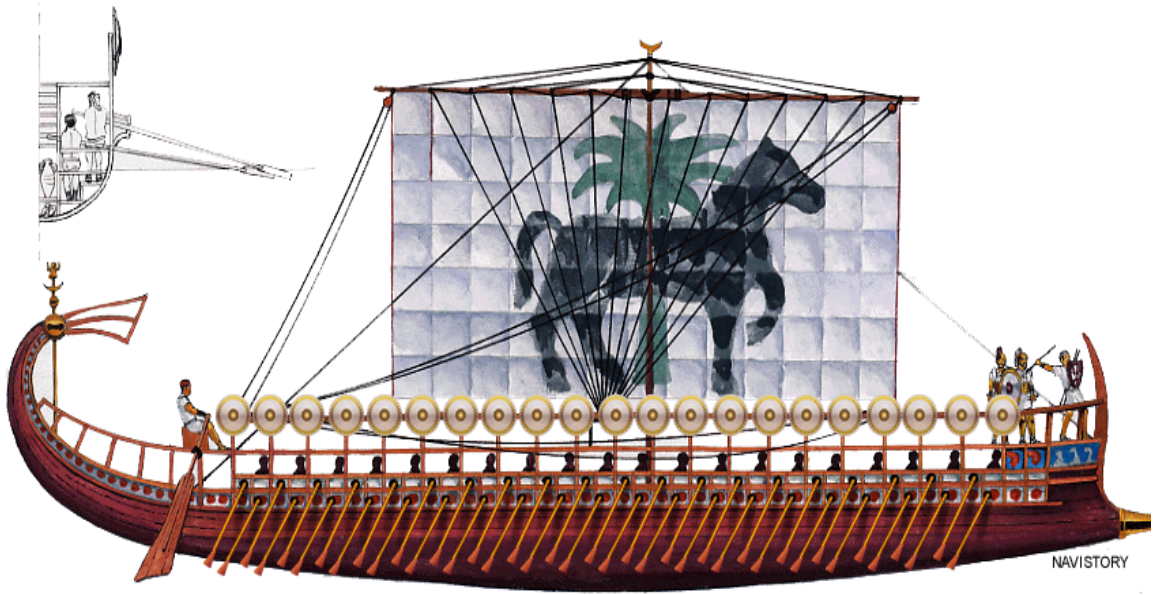
https://fr.wikipedia.org/wiki/Fichier:Mommsen_p265.jpg

ملحق رقم 18 : صورة محاكية لسفينة حربية فينيقية



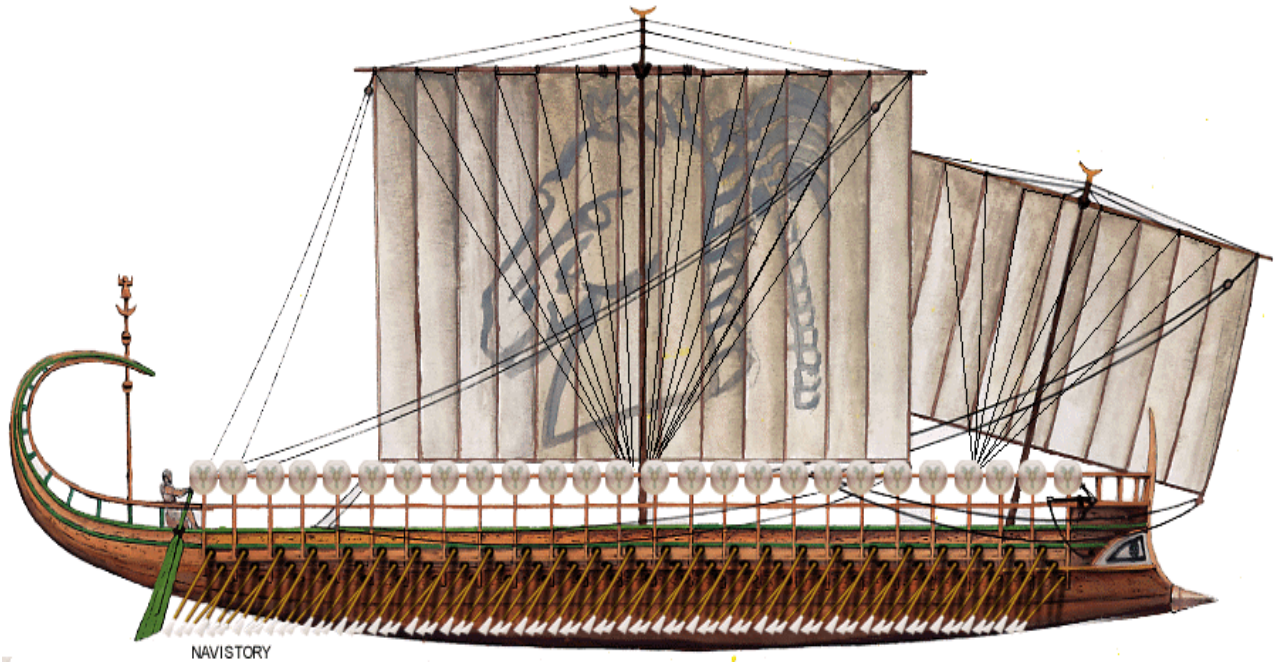
<https://i.pinimg.com/564x/c0/d2/3e/c0d23eaec6623e6cd511e66e201eec93.jpg>

ملحق رقم 19: صورة لسفينة حربية بونية يعود استعمالها لسنة 600 ق.م



http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php

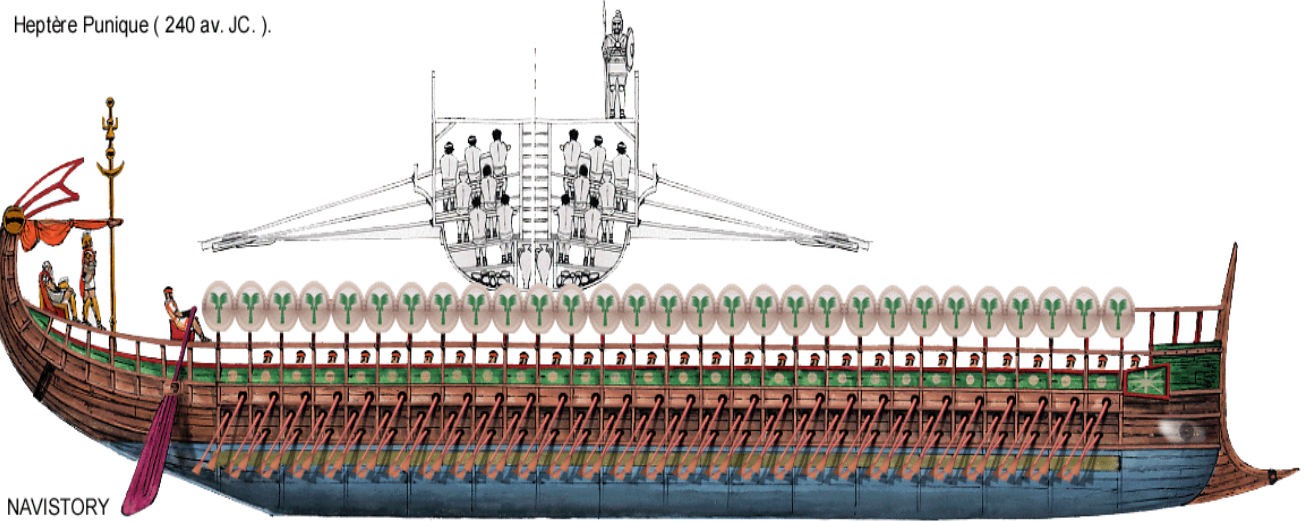
ملحق رقم 20: صورة لسفينة حربية قرطاجية من نوع ثلاثية صفوف المجاديف (Trière) كانت مستعملة في القوات البحرية منذ 250 ق.م



http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php

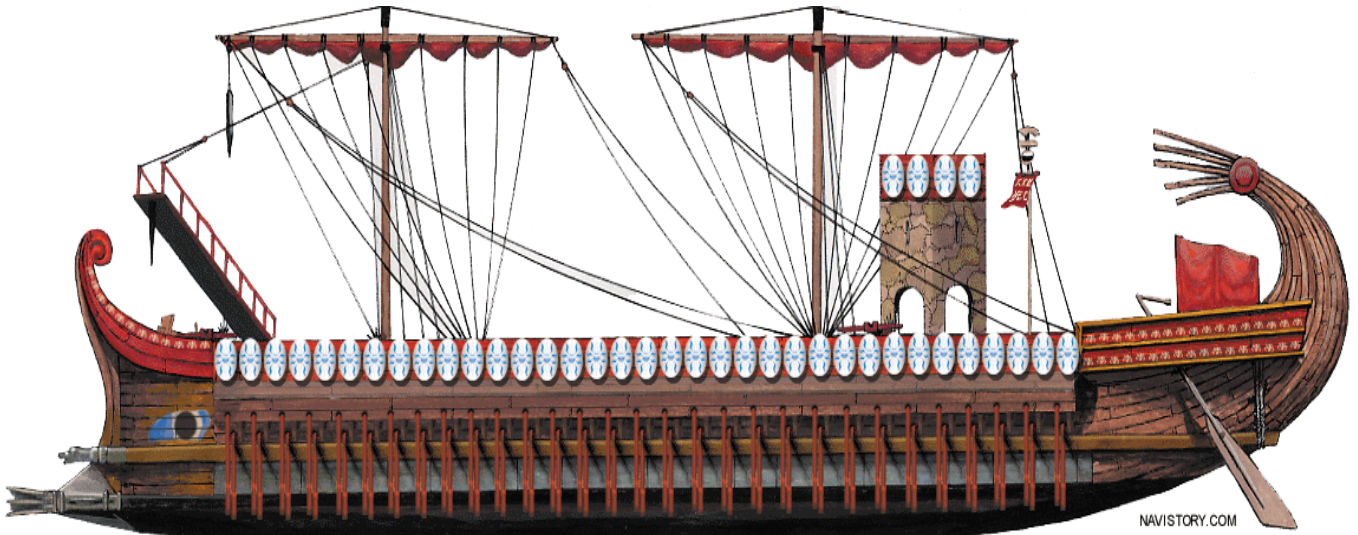
ملحق رقم 21: صورة لسفينة حربية قرطاجية من نوع هيبتار Heptère كانت مستعملة في الأسطول القرطاجي منذ سنة 240 ق.م، يصل عرض طابقها السفلي الذي يستعمل للتخزين (Cale) إلى 4.80 م

Heptère Punique (240 av. JC.).



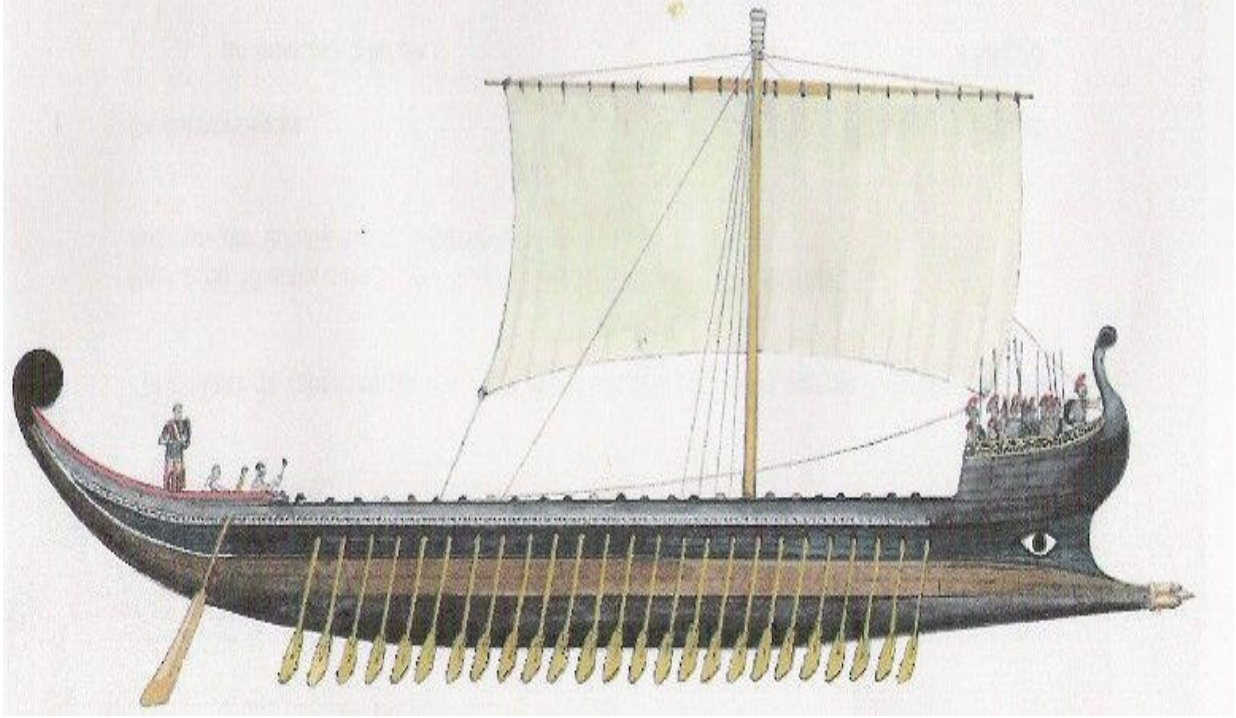
http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php

ملحق رقم 22: صورة لسفينة حربية رومانية ذات الخمسين مجدافا (Quinquérème) تم بدء العمل بها سنة 260 ق.م



http://www.navistory.com/pages/antiquite/quadrireme_quinquereme.htm

ملحق رقم 23 : صورة لمركب حربي صغير (Pentecontères)



[/https://www.pinterest.fr/pin/592293788469821812](https://www.pinterest.fr/pin/592293788469821812)

III- الجداول

ملحق 1: جدول يحصي الأمم المشكلة لجيش الملك كزاركسيس (Xerxès) خلال حملته على بلاد اليونان سنة 480 ق.م (من خلال رواية هيرودوت)

1- الجيش البري

أ - المشاة-

الرقم	الأمة المشاركة مع اسم قائدهم من الفرس	كيفية لباسهم و طريقة تسليحهم
01	الفرس (Les Perses) يقودهم أوتاناس (Otanès) والد أميستريس (Amestris) زوجة كزاركسيس	كانوا يرتدون قبعات من لباد الشعر حسنة الالتواء يسمونها التيجان (Tiàres)، سترات قصيرة مختلفة الألوان ومزينة بمقابض وأكمام ودروع من حديد يشبه شكلها شكل حراشف السمك، أحذية طويلة تغطي ركبهم. يستعملون نوعا من التروس يسمونها جرهس (gerhes)، مع كنانة من السهام في الأسفل، يحملون حرابا قصيرة وأقواس كبيرة، سهام من القصب، إضافة إلى خناجر تتدلى على أفخاذهم اليمنى معلقة بأحزمتهم. ¹
02	الميديون (Les Mèdes) يقودهم تيقران (Tigrane) من بيت الأخيمينيين	كانوا يلبسون لباسا مماثلا للباس الفرس وكذلك طريقة تسليحهم، وفي الحقيقة تعود هذه الطريقة في الأصل إلى الميديين. ²
03	السيسيون (Les Cissiens) يقودهم أنافاس (Anaphès) بن أوتاناس	كانوا يلبسون لباسا مماثلا للباس الفرس وكذلك طريقة تسليحهم. ³
04	الهيركانيون (Les Hyrcaniens) يقودهم	كانوا يلبسون لباسا مماثلا للباس الفرس وكذلك طريقة تسليحهم. ⁴

¹ - Hérodote, op.cit, Livre VII, 61.

² - Ibid, 62.

³ - Ibid.

⁴ - Ibid.

	ميغابان (Mégabane)	
05	الأشوريون (Les Assyriens) والكلدانيون (Les Chaldiens) يقودهم أوتاسباس (Otaspes) بن أرتاشي (Artachée)	كانوا يرتدون خوذات مصنوعة من المعدن (النحاس أو البرونز) وملفوفة بشكل رائع يصعب وصفه، وكانوا يرتدون دروعا من الكتان. كانت تروسهم ورماحهم وخناجرهم تشبه إلى حد كبير أسلحة المصريين كما كانوا يحملون صولجانات من الخشب تظهر عليها عقد كبيرة حديدية. ¹
06	البخثريون (Les Bactriens) يقودهم هيستاسب (Histaspes) بن داريوس	كانت خوذاتهم تشبه خوذات الميد. كانت أقواسهم مصنوعة من القصب كما هو الحال في بلادهم كما كانت رؤوس سهامهم قصيرة. ²
07	شعوب الساس (Les Saces) يقودهم هيستاسب بن داريوس	لكونهم أحد الشعوب السكيثية (Les Scythes) كانت لهم قبعات ذات التواءات تنتهي بقمة مستقيمة، كانوا يرتدون أحذية طويلة. كانوا يستعملون أقواسا على عادة ما يُستعمل في بلادهم، يحملون خناجرا وفؤوسا كانوا يسمونها ساغاريس (Sagaris). ³
08	الهنود (Les Indiens) يقودهم سيزامناس (Sisamnes) بن هيدارناس (Hidarnes).	كانوا يرتدون ثيابا من القطن. يحملون أقواسا من القصب وكذلك سهامهم التي كانت عليها رؤوسا حديدية وفي الحقيقة كانت أقواس الهنود الآريين (Ariens) أما قية أسلحتهم فتشبه أسلحة البخثريين. ⁴

¹ – Hérodote, op.cit, 63.

² – Ibid, 64.

³ – Ibid.

⁴ – Ibid, 65.

كانوا مسلحين على طريقة البختيريين ¹	09 البارثيون (Les Parthes) والكوراسميون (Les Chorasmiens) أرتباز (Artabaze) بن فارناساس (Pharnaces)	10
	الصوغديون (Les Sogdiens) أرتي (Azanes) بن أرتي (Artée)	11
	الكونداريون (Les Gandariens) والداديس (Les Dadices) أرتيفيوس (Artyphius) بن أرتبان (Artabane)	12
كانوا يرتدون لباسا من جلود الماعز. كانت أقواسهم وسهامهم من القصب على ما كان معمولاً به في بلادهم، كما كلنوا يحملون سيوفاً. ²	الكاسبيون (Les Caspiens) أريومارد (Ariomarde) شقيق أرتيفيوس.	13
كانت ملابسهم ذات لون مشرق، يرتدون أحذية طويلة تصل إلى ركبهم. كانت أقواسهم ورماحهم على شاكلة أقواس ورماح الميد. ³	السارونجيون (Les Sarangéens) كيروندات (Chérendates) بن ميغاباز (Mégabaze)	14
كانوا يستعملون جلود الماعز في لباسهم.	شعب البكتيس (Les)	14

¹ - Hérodote, op.cit, 66.

² - Ibid, 67.

³ - Ibid.

كسلاح كانوا يستعملون أقواسا كعادة ما هو معمولاً به في بلادهم. وخناجر.¹	Pactyces) يقودهم أرتينتاس (Artyntès) بن إيتاماتراس (Ithamathrès)	
كانوا مسلحين على طريقة البكتيس.²	15 الأوتيون (Les Outiens) والميسيون (Les Myciens) يقودهم أرزاميناس (Arsaménès) بن داريوس	
	16 الباريكانيون (Les) Paricaniens) يقودهم سيروميتراس (Siromitrès) بن أوباسوس (Oebasus)	
كانوا يرتدون ملابس فضفاضة تشدها أحزمة. يحملون على الجهة اليمنى أقواسا طويلة.³	17 العرب (Les Arabes) يقودهم أرسامس (Arsamès) بن داريوس.	
كانوا يرتدون جلود الفهود والأسود. كانت لهم سهام مصنوعة من أغصان النخيل يصل طولها أربعة أذرع على الأقل، أما سهامهم فكانت طويلة من القصب وضعوا في نهايتها بدل الرأس الحديدي حجارة مبرية حادة. تلك الحجارة كانوا يستعملونها كذلك في نحت الاختام. كما كانوا يحملون رماحا وضعوا في نهايتها قرون الماعز الحادة وصولجانات كثيرة العقد. حين يخرجون إلى الحرب كانوا	18 الاثيوبيون (Les Ethiopiens) القاطنور في ما وراء الأرض المصرية. يقودهم هم والعرب أرسامس (Arsamès) بن داريوس .	

¹ - Hérodote, loc.cit.

² - Ibid, 68.

³ - Ibid, 69.

يطلون نصف أجسادهم بالجبس والنصف الآخر بالزنجفر (le vermillon).¹		
كان هنالك نوعان من الأثيوبيين في حملة كزاركسيس فالشرقيون كانوا يخدمون مع الهنود، يشبهون الأثيوبيين الغربيين ولا يختلفون عنهم إلا من حيث اللغة والشعر. الشرقيون كانت شعورهم مستقيمة (cheveux droits) في حين أن الأثيوبيين الليبيين كانت شعورهم مجمدة أكثر من الآخرين. كانوا مسلحين تقريبا مثل الهنود، كانوا يضعون على رؤوسهم جلود رؤوس الخيل مع نواصيها وأذناها، كانت الأذان مستقيمة نحو الأعلى أما النواصي فيضعونها فوق الرؤوس كزركش أو رأسية (Aigrette). كانوا يستعملون جلود الحيوانات بدل الدروع.²	19 الأثيوبيون الشرقيون (Les Ethiopiens orientaux) لم يذكر هيرودوت من كان يقود الأثيوبيين الشرقيين ويحتمل أنهم كانوا مع فرقة الهنود.	
كانوا يرتدون ثيابا من الجلود، لهم رماحهم تقاوم النار.³	20 الليبيون (Les Libyens) يقودهم ماساجاس (Massagès) بن واريوس (Oarizus)	
كانت خوذاتهم من نسيج، تروسهم صغيرة وكذلك حراهم، كانت رماحهم بها رؤوس حديدية حادة كما كانوا يحملون خناجر.⁴	21 البفلاقونيون (Les Paphlagoniens) و المتيانيون (Les Matiniens) يقودهم دوتوس (Dotus)	

¹ – Hérodote, loc.cit.

² – Ibid, 70.

³ – Ibid, 71.

⁴ – Ibid, 72.

	بن ميقاسيدراس (Mégasidrès)	
كانوا مسلحين على طريقة البمفيليين . ¹	22 الليجيون (Les Ligyens) الماريوندينيون (Les Mariandyniens) الكبادوكيون (Les Cappadociens) الذين يسميهم الفرس السوريين (Les Suriens) يقودهم غوبرياس (Gobryas) بن داريوس	
كان الفريجيون الذين يسموهم أيضا البريج (Les Briges) يشكلون مع الارمينيين نفس الفرقة، كانت طريقة تسليحهم تشبه كثيرا طريقة البفلاقونيين. ²	23 الفريجيون (Les Phrygiens) الأرمنيون (Les Arminiens) يقودهم أرتوكماس (Artochmès) زوج بنت داريوس	
كانت طريقة تسليحهم تشبه طريقة الاغريق، كان يطلق عليهم اسم الميونيين (Les Méoniens). ³	24 الليديون (Les Lydiens) يقودهم أرتافارن (Artapherne) بن أرتافارن الذي كان قائدا في معركة المراثون برفقة داتيس	

¹ – Hérodote, loc.cit.

² – Ibid, 73.

³ – Ibid, 74.

	(Datis)	
كانت خوذاًهم تأخذ الشكل المعتاد في بلدهم مع تروس صغيرة وحراب مقاومة للنار. كانوا يشكلون مع الليديين فرقة واحدة. كانوا يسمون الاولمبيين (Les Olympiens) نسبة إلى جبل الأولمب.¹	الميزيون (Les Mysiens) يقودهم مع الليديين أرتافارن.	25
كانوا يضعون على رؤوسهم جلود الثعالب ويرتدون أثوابا فضفاضة متعددة الألوان، أما أحذيتهم فكانت مصنوعة من جلود الماعز. كانوا يحملون رمحا، تروسا خفيفة وخناجر صغيرة.²	الطراقيون (Les Thraces) الآسيوين يقودهم باساساس (Bassacès) بن أرتبان	26
كانوا مسلحين ولهم لباس على طريقة الكيليكين (Les Ciliciens).³	الكباليون-الميونيون (Les Cabaliens-Méoniens) و اللازونيون (Les Lasoniens) يقودهم بادراس (Badrès) بن هيستاناس (Histanès)	27
كانت لهم حراب قصيرة، ملابس ممسوكة بمشابك (Des graphes)، خوذاً من من الجلد وبعضهم كان لهم أقواس على الطيقة الليسيانية (A la lycienne)⁴	الميليون (Les Miliens) يقودهم بادراس (Badrès) بن هيستاناس (Histanès)	28
كانت لهم خوذاً من خشب، تروس صغيرة، حراب ذات قضبان صغيرة ورؤوس حديدية كبيرة.⁵	الموش (Les Moches) يقودهم أريومارد (Ariomarde) بن داريوس.	29

¹ - Hérodote, loc.cit.

² - Ibid, 75, 76.

³ - Ibid, 77.

⁴ - Ibid.

⁵ - Ibid.

كانوا مسلحين على طريقة الموش.¹	30 التيباريون (Les (Tibariens)، الماكرون (Les Macrons) الموزينواك (Les Mosynoeques) يقودهم أرتايكتاس (Artayctès) بن كيراسميس (Chérasmis) حاكم مدينة سيستوس (Sestos) على شاطئ الهلسوبونت	
كانوا يرتدون خوذا من القماش على الطريقة التي معتادين عليها في بلدهم، كما كانوا يحملون حرايا وتروسا صغيرة.²	31 الماريون (Les Mares) يقودهم فاروندات (Pharandates) بن تيسايس (Tésapis)	
كانت لهم خوذا خشبية، دروع صغيرة من جلود البقر العاري من الشعر وحرايا قصيرة إضافة إلى سيوف.³	32 سكان الكولشيد (Les habitants de la Clochide) يقودهم فاروندات (Pharandates) بن تيسايس (Tésapis)	
كانوا مسلحين على الطريقة الكولشيدية.⁴	33 الالاروديون (Les (Alarodiens) الساير (Les Sapires) يقمودهم مازيستوس	

¹ – Hérodote, op.cit, 78.

² – Ibid, 79.

³ – Ibid.

⁴ – Ibid.

	بن (Masistius) سيروميتراس (Siromitrès)	
كان لباسهم وطريقة تسليحهم تشبه كثيرا طريقة الميد. ¹	سكان جزيرة إيرتري (Erythrée) يقودهم ماردونتاس (Mardontès) بن باجي (Bagée)	34

¹ – Hérodote, op.cit, VII, 80.

ب- الفرسان :

الرقم	الأمة المشاركة في الحملة	طريقة تسليحهم
01	الفرس	كانوا مسلحين مثل المشاة ماعدا عدد صغير منهم كانوا يحملون على رؤوسهم زينة معدنية (من النحاس أو البرونز) والحديد الذي تم ضربه بمطارق لتهديب شكله. ¹
02	الساغارتيون (Les Sagartiens)	هم شعب بدوي من أصل فارسي، يتكلم لغة الفرس ويرتدي لباسا يشبه في جزء منه لباسهم وفي جزء آخر لباس الباكثيس (Les Pactyces). ساهما في هذه الحملة بثمانية آلاف (8000) من الخيالة. لم يكونوا يعتمدون في المعارك على أسلحة من النحاس أو البرونز أو الحديد ما عدا الخناجر منها، لكنهم كانوا يعتمدون على حبالهم المزودة بأحزمة يضعون فيها كامل ثقتهم، وفي وسط المعركة يرمون تلك الحبال التي تنتهي بشباك فإذا تمكنوا من لف حصان أو محارب يسحبونه إليهم مكبلا في شباكهم ثم يقتلونه، وفي الحقيقة كانوا يشكلون جزء من الفرق الفارسية. ²
03	الميد	كانوا مسلحين على شاكلة تسليح مشاتهم. ³
04	السييسيون	كانوا مسلحين على شاكلة تسليح مشاتهم. ⁴
05	الهنود	كانوا هم كذلك لهم نفس تسليح مشاتهم لكن

¹ - Hérodote, op.cit,VII, 84.

² - Ibid, 85.

³ - Ibid, 86.

⁴ - Ibid

		إضافة إلى خيولهم التي كانوا يقودونها كان لديهم عربات حربية تجرها خيول وأحمره وحشية. ¹
06	البختيريون	كانوا مسلحين مثل مشاتهم. ²
07	الكاسبيون	هم كذلك كانوا مسلحين مثل مشاتهم. ³
08	الليبيون	كانوا مسلحين مثل مشاتهم، كما كانوا يستعملون عربات صغيرة (Chariots). ⁴
09	الباريكانيون	كانوا مسلحين مثل مشاتهم. ⁵
10	العرب	كان لهم نفس اللباس ونفس طريقة تسليح مشاتهم لكنهم كانوا يركبون جمالا لها سرعة لا تقل عن سرعة الخيول. ⁶

¹ – Hérodote, loc.cit.

² – Ibid

³ – Ibid

⁴ – Ibid

⁵ – Ibid

⁶ – Ibid

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر بالعربية

(1) تيتوس ليفيوس، تاريخ روما العتيقة، الكتاب الأول، عهد الملكية إلى حين سقوطها ونشأة الجمهورية ما بين 753 ق م-509 ق.م، ترجمة وتعليق المصطفى حميمو، كتاب الكتروني.

ثانياً: المراجع بالعربية

- (1) إبراهيم السعدني محمد ، حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
- (2) أحمد حسين عاصم ، المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، مطبعة العمرانية ، الجيزة، 1991.
- (3) أحمد علي عبد اللطيف ، التاريخ اليوناني: العصر الهللاذي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1976.
- (4) أحمد علي عبد اللطيف ، روما تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.س.ط)، ج1.
- (5) أمين سليم أحمد ، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم: تاريخ العراق-إيران-آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000.
- (6) إيمار أندريه و أوبوايه جيانين ، تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريجان، منشورات عويدات، بيروت-باريس.
- (7) أيوب إبراهيم رزق الله ، التاريخ الروماني، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1996، ط1.
- (8) باقر طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيت الوراق للطبع والنشر والتوزيع، بغداد، 2011.
- (9) بوروينه الشادلي و طاهر محمد ، قرطاج البونية، تاريخ حضارة، المركز الجامعي للنشر، تونس، 1999.
- (10) بيومي مهران محمد، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- (11) الخليل احمد محمود ، مملكة ميديا، مطبعة روزنه لات، أبريل، 2011.
- (12) دبوز محمد علي ، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية، د.م.ن، 2010.

- 13) دوكريه فرانسوا ، قرطاجة أو امبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق 1994.
- 14) ديورانت ول ، قصة حضارة "حياة اليونان" ، تر: محمد بدران، القاهرة، 1954 ، ج3، مج2.
- 15) ديورانت ول ، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، الجزء الأول، المجلد الثالث.
- 16) رمضان عبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيئ حملة الإسكندر الأكبر، الأناضول- بلاد الشام، دار نهضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.س.ن).
- 17) زايد عبد الحميد ، ، الشرق الخالد- مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام 323 ق.م، دار النهضة العربية، القاهرة.
- 18) ستيفان قزال، تاريخ شمال إفريقيا القديم، التاريخ العسكري لقرطاجة، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ج3، 2007.
- 19) سراج أحمد ، في التاريخ الروماني -نشأة الجمهورية، أفريقيا الشرق للنشر، بيروت، 2001.
- 20) سعيد الأحمد سامي ، تاريخ الرومان، جامعة بغداد، 1988.
- 21) سلامة أمين ، التاريخ الروماني، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة 1959.
- 22) سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام امبراطورية الاسكندر الأكبر، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976.
- 23) الشيخ حسين ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة : الرومان، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1997.
- 24) صالح عبد العزيز ، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، مكتبة نجلو المصرية، القاهرة، 2012.
- 25) الصفدي هشام ، تاريخ الرومان، الجزء الأول، د.ب.ن، بيروت، 1967.
- 26) صفر أحمد ، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959.

- (27) عبد الوهاب يحيى لطفى ، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.
- (28) عصفور أبو المحاسن ، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- (29) عكاشة علي وآخرون، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر، أربد الأردن، 1990.
- (30) غانم محمد الصغير ، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ، 1982.
- (31) ف. دياكوف وس. كوفاليك، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين، دمشق، 2000، ج2.
- (32) ف. دياكوف، سي، كوفاليف، الحضارات القديمة، تر: نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين للطباعة والنشر، ط3، دمشق، 2009، ج2.
- (33) فيكونت مونجمري ، الحرب عبر التاريخ، تر: فتحي عبدالله النمر، المكتبة الفنية الحديثة ، القاهرة، 1972.
- (34) قزال ستيفان: تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد النازي سعود، الدولة القرطاجية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ج2، 2007.
- (35) قلالة نبيل ، المتوسط الغربي، رهان الصراع القرطاجي الروماني 241-146 ق.م (تونس عبر التاريخ- العصور القديمة)، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، (ب ط)، تونس، 2007، ج1.
- (36) كونتنو جورج: الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، (د.س.ن).
- (37) كيتو.ه.د.، الاغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، دار الفكر العربي للطبع والنشر، د.ب.ن، 1962.
- (38) اللجنة العلمية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)، تاريخ إفريقيا العام، مجلد -02- حضارات إفريقيا القديمة، اشراف د. جمال مختار اليونسكو.
- (39) الليغر فينفرید ، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة عيد مرعي، ط1، روافد للثقافة والفنون، دمشق، 2008.

- (40) محمد سعد البركي مفتاح، الصراع القرطاجي الإغريقي، من القرن السادس حتى منتصف القرن الثالث ق.م وأثره على الحياة السياسية والإقتصادية والاجتماعية والدينية في قرطاجة، مجلس الثقافة العام، طرابلس ليبيا، 2008.
- (41) محمد عبد الغني محمد السيد، تاريخ الرومان حتى نهاية العصر الجمهوري، ج1، جامعة الإسكندرية، 2005.
- (42) محمود إبراهيم السعدني، حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998.
- (43) مكاوي فوزي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980.
- (44) الناصري سيد أحمد علي، تاريخ وحضارة الرومان (من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية)، دار النهضة العربية، (ب ط)، القاهرة، 1982.
- (45) الناصري رشيد، المغرب الكبير العصور القديمة (أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1981.
- (46) نصحي إبراهيم، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام 133 ق.م، ج1، ط2، (د.ب.ن)، 1978.
- (47) نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، د.ب.ن، د.س.ن.
- (48) هورس مادلين: تاريخ قرطاجة، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت - بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية في فرنسا، ط1، 1981.
- (49) ويلز. ه.، معالم تاريخ الإنسانية، تر: توفيق أجاويد مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1969، مج2.

ثالثا: الرسائل الجامعية

- (1) بوصبيح عمر، الحرب الأهلية بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا 49-44 ق.م، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم إشراف محمد الحبيب بشاري، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2013/2014.

2) سلاطينة عبد المالك، المستوطنات الفينيقية-البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، إشراف محمد الصغير غانم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة.

رابعاً: المنشورات العلمية بالعربية:

1) عطية يونس صبحي، جيش قمبيز المفقود، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الحادي والأربعون، الجزء الثاني، أغسطس 2007.

خامساً: المصادر باللغة الأجنبية:

- 1) Appian, Roman History, Translated by: H. White, New York, 1899.
- 2) Aristote, La Politique d'Aristote, texte traduit en français par Borthélemy-s-Hilaire, Tome I, Imprimerie royale, Paris, 1837.
- 3) Ctésias, Extrait de l'histoire de perse-Histoire d'Hérodote, Texte traduit du Grec, Imprimerie de C.Grapelet, Paris, 1802.
- 4) Denys d'Alicarnas, les Antiquités romaines, texte traduit par inconnu, Tome premier, Philippe Nicolas Lottini Editeur, Paris, S.D.I.
- 5) Diodore de Sicile, Bibliothèque Historique, traduit par Fred Hoefer, T.3, Hachette, Paris, 1865.
- 6) Diodore de Sicile, Histoire universelle, texte traduit par l'Abbé Terrasson, Tome sixième, De Bure l'Ainé et Quay des Augutins Imprimerie, Paris, 1744.
- 7) Eschyle, Théâtre d'Eschyle, Texte traduit par Alexis Pierron, 8^{ème} Edition, Charpentier et Cie Libraires-Editeurs, Paris, 1870.
- 8) Florus, Abrégé de l'histoire romaine, Texte traduit par F.Ragon, Imprimerie C.L.F.Panckouke, Paris, 1833.
- 9) Hérodote, Histoire d'Hérodote, Texte traduit par Larcher, Tome II, Charpentier Libraire-Editeur, Paris, 1850.
- 10) Homère, l'Iliade, texte traduit par Charles-René Marie Lecante de l'Isle, Edition Ebouks libre et gratuits, (Edition électronique), octobre 2004.
- 11) Pausanias ou voyage historique de la Grèce, Debarle imprimeur-Libraire, Paris, 1797, IX, 19.
- 12) Plin L'Ancien, Histoire Naturelle, Texte traduit par M.E.Littre, J.J.Dubochet, le Cavalier et comp. Editeurs, Paris, 1850, Livre VI.
- 13) Plutarque, Les vies des hommes illustres, vie de Timoléon, Tome V, Texte traduit par D.Ricard, Bibliothèque des amis des lettres, Paris, 1830.
- 14) Plutarque, Vies des Hommes illustres, Vie d'Aristide, texte traduit par Alexis Pierron, Charpentier Editeur-Libraire, Paris, 1845.
- 15) Plutarque, Vies des Hommes illustres, Vie de Thémistocle, texte traduit par Alexis Pierron, Charpentier Editeur-Libraire, Paris, 1845.

- 16) Polybe, Histoire générale, Texte traduit par M.Felix Bouchot, Tome premier, Charpentier Lilliaire-Editeur, Paris, 1847.
- 17) Pomponus Mela, Géographie, Traduite par M. Louis Boudet, C-L-F.Ponckoche Editeur, Paris, 1843.
- 18) Strabon, Géographie de Strabon, Texte traduit par Amédé Tardieu, Tome premier, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1867.
- 19) Tacite, Oeuvres complètes de Tacite, texte traduit par J.L.Burnouf, Tome V, Librairie classique de L.Hachette, Paris, S.D.I.
- 20) Thucydide, Histoire de la Guerre du Péloponnèse, texte traduit par CH. Zevort, Tome I, Charpentier Libraire Edition, Paris, 1852.
- 21) Thucydides, Histoire de la guerre du Péloponnèse, Traduit par E.A. Bétant, 2ème édition, Librairie De L. Hachette et Cie, Paris, 1869.
- 22) Tite-Live, Œuvres de Tite-Live, Texte traduit par M.Nisard, Tome premier, Firmin Didot frères, fils et Cie Libraire, Paris, 1864.
- 23) Virgile, Eneide, Traduit par l'abbé Delille, <http://remacle.org/bloodwolf/poetes/virgile/eneide2.htm> .
- 24) Xenophon, Cyropédie, Oeuvres complètes de Xénophon, traduction Eugène Talbot, Hachette Librairie, Paris, 1859.

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية

- 1) Amouretti M.C., Ruzé F. avec la collaboration de Jockey. Ph., Le Monde Grec antique, Hachette Supérieur, 6ème édition, Vanves, Paris, 2018.
- 2) Baslez Maeie-Françoise, Histoire politique du Monde Grec, 3ème édition, Armand Colin Editeur, Paris, 2015.
- 3) Briant Pierre, Histoire de l'empire perse de Cyrus à Alexandre, Lilaire Artheme Fayard, Paris, 1996.
- 4) Brun Patrice, La Bataille de Marathon, Larousse, Paris, 2009.
- 5) Charles (R), The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Medes and Persians, Macedonians and Grecians, London, Vol , 1, 2011.
- 6) Coulée Anne, Histoire Archéologique des Cyclades à travers la céramique archaïque : A propos d'un ouvrage récent, Revue Archéologique, Presse universitaire de France, n° 40, 2005.
- 7) De Beaumont F.M.M., Beautés de l'histoire de la Perse, depuis Cyrus jusqu'à nos jours, Tome I, Librairie d'éducation d'Alexis Eymery, 1820.
- 8) De Saint Martin Louis Vivien, Description historique et géographique de l'Asie Mineure, Tome I, Arthus Bertrand Librairie de la société de Géographie, Paris, 1852.
- 9) De Souza Philippe, The Greek and Persian Wars, Osprey Publishing Ltd., Oxford, 2003.

- 10) Delattre (A) (S.J), Le Peuple et l'Eimpire des Mèdes jusqu'à la fin du Règne se Cyaxare, F.Hayez imprimeur de l'Academie Royale de Belgique, Bruxelles.
- 11) Dridi Hédi, Carthage et le monde Punique, les Belles Lettres, Paris, les 2006.
- 12) Duruy Victor , Histoire de la Grèce Ancienne, Tome premier, Librairie de L.Hachette et Cie, Paris, 1862.
- 13) Ghirshman R, L'Iran et la migration des Indo-Aryens et des Iraniens, Leiden E.J. Brill Edition, Netherlands, 1977.
- 14) Green Peter, Les guerres médiques, Editios Tallandier, Paris, 2012.
- 15) Hanson Victor Davis, Les Guerres Grecques 1400-146 av J.C, Editions Autrement, Paris, 1999.
- 16) Heurgon Jacques, Rome et la méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques, presse universitaire de France, Paris, 1969.
- 17) Hinard François, Histoire romaine, Tome I, Des origines à Auguste, chapitre écrit par Dominique Briquel, Editions Fayard, Paris, 2001.
- 18) Jerphagnon Lucien, Histoire de la Rome antique, 4^{ème} édition, Edition tallandier, France, 2002.
- 19) Julien (Ch. A) , Histoire De l' Afrique Du Nord (Des origins à la conquete Arabe), 4^{ème} Edition , Tunis, 2003.
- 20) Lancel Serge, Carthage, Fayard Editeur, Paris, 1992.
- 21) Lancel Serge, Hannibal, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1995.
- 22) Le Bas Philippe, Asie Mineure Depuis les Temps les Plus Ancians jusqu'à la bataille d'Ancyre en 1402, Librairie de Firmin Didot et Cie, Paris, SDI.
- 23) le Bohec Yann , Histoire militaire des guerres puniques 264-146 avant J.C, Editions Rocher, Monaco, 2010.
- 24) Lefèvre André, la Grèce Antique, Librairie C.Reinwald Schleicher Frères Editeurs, Paris, (SDI).
- 25) Lefèvre François, Histoire du Monde Grec Antique, Le Livre de Poche Editeur, Paris, 2007.
- 26) Lenormant François, Manuel d'histoire ancienne de l'Orient jusqu'aux guerres Médiques, T2, Assyriens Babyloniens, Mèdes et Perses, A Levy Fils Libiaire-Editeur, Paris, 1869.
- 27) Lonis Raoul , la Cite dans le monde grec, 2ème édition Armand Colin, Paris, 2016.
- 28) Malcolm John, Histoire de la Perse depuis les temps les plus anciens à l'époque actuelle, Tome premier, Pillet Ainé imprimeur-Libraire, Paris, 1821.
- 29) Martin Jean-Pierre, Chauvot Alain et Mireille Cébeillac-Gervasoni, Histoire Romaine, Armand Colin Editeur, Paris, 2019.
- 30) Melliti Khaled, Carthage, Histoire d'une métropole méditerranéenne, Perrin, Paris, 2016.

- 31) Ménard Louis, Histoire des anciens peuples de l'Orient, Librairie CH.Delagrave, Paris, 1883.
- 32) Mossé Claude et Schnapp-Gourbeillon Anne, Précis d'histoire grecque, Armand Collin, Paris, 1990.
- 33) Moumsen Théodor, Histoire Romaine, traduit par C.A.Alexandre, Tome 1, Librairie A.Franck, Paris, 1863.
- 34) Pierre Ducrey, Guerre et guerriers dans la Grèce antique, Hachette littératures, Paris, 1999.
- 35) Pigaillem Henri, Salamine et les Guerres Médiques 480 Avant Jesus-Christ, Edition Economica, Paris, 2004.
- 36) Raffenet T.D., Résumé de l'histoire de la Perse depuis l'origine de l'empire des Perses jusqu'à ce jour, Le Cointe et Durey Libraire, Paris, 1825.
- 37) Riemann Othon, Les Iles Ioniennes, I Carfou, Ernest Thorin Editeur, Paris, 1879.
- 38) Tate Géorge, La Grèce Antique, Hachette Livre éditeur, Paris, 2000.
- 39) Tom Holland, Persian fire, Abacus edition, London, 2005, p 156.
- 40) Vivien Louis, Histoire des découvertes géographiques des nations européennes dans les diverses parties du monde, Arthus Bertrand Libraire-Éditeur, Paris, 1845.
- 41) Volney C.F, Recherches nouvelles sue l'hisloire ancienne, 2ème partie coprenant les Lydiens, les Assyriens, les Mèdes..., Madame veuve courcier, imprimeur-Libraire, Paris, 1814.
- 42) Warmington (B.H), Carthage, London ,1960.

سابعاً: منشورات علمية باللغة الأجنبية (Articles):

- 1) Arabu (N), L'Asie Mineure occidentale, Annales de Géographie, T32, 1923.
- 2) Delorme Jean, Deux notes sur la bataille de Salamine, Bulletin de correspondance hellénique, Volume 102, 1978.
- 3) Matheson (P.E), The crowth of Rome, Oxford university, press.
- 4) Roux Georges , Eschyle, Hérodote, Diodore, Plutarque recontent le bataille de Salamine, Bulletin de correspondance hellenique Volume 98, 1974.

ثامناً: موسوعات ومعاجم أجنبية

- 1) Ayancic (A) et autres, Le Petit Larousse-Dictionnaire encyclopédique, Edition © Larousse, Paris.
- 2) Bouillet M.N, Dictionnaire Classique de l'Antiquité Sacrée et Profane, Tome1, Librairie classique-élémentaire de Belin Mandar, 4^{ème} édition, 1841.

- 3) Consult (G), Alps Elephants, Encyclopedia, international, 1ed, The Grolier society of Canda limited, New York , 1964.
- 4) De La Martinière M.Bruzen, Le Grand Dictionnaire géographique et critique, Tome cinquième, A.Boudet, imprimeur du Roi, Paris, SDI.
- 5) De Saint-Clavien Louis François, Encyclopédie Théologique de Philologie comparée, Tome 38, J.P.Migne Editeur, Paris, 1858.

تاسعا: مواقع إلكترونية:

- 1) <https://www.universalis.fr/encyclopedia/mont-athos>.
- 2) <http://www.cnrtl.fr/definition/ephore>.
- 3) <http://www.machoua.com/sbeitlo/kerkouane-2.htm>.
- 4) <https://www.cnrtl.fr/definition/Peniche>
- 5) <https://www.cnrtl.fr/definition/stratège>
- 6) <https://www.lerousse.fr/archives/grande-encyclopédie/page/12803/lec/>
- 7) <https://www.persee.fr/doc/bch-0007-4217-1974-num-98-1-2097>.
- 8) <https://www.universalis.fr/encyclopedia/polemarque>
- 9) <http://remacle.org/bloodwolf/poetes/virgile/eneide2.htm>
- 10) <http://www.machoua.com/sbeitlo/kerkouane-2.htm>.
- 11) <https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/servage/72383>
- 12) <http://antikforever.com/Perse/Divers/cartes.htm>
- 13) www.eupublishing.com/afg
- 14) http://antikforever.com/Asie_Mineure/Divers/cartes.htm
- 15) https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/2/27/Antic_Anatolia.jpg
- 16) https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/2/27/Map_Greco-Persian_Wars-fr.svg
- 17) <https://www.pinterest.com/pin/697354323520186344>.
- 18) http://lastel-histoire-geo.wifeo.com/images/c/car/carte_grece.gif
- 19) https://www.bing.com/images/search?view=detailV2&ccid=f4jakhUI&id=D5BF18E31E0098C144E80AD3A793ED7411C28027&thid=OIP.f4jakhUIyUqshVqhlhf_HwEsDU&q=La+gr%C3%A8ce+antique&simid=608028969851292052&selectedindex=95&mode=overlay&first=1
- 20) <https://www.kartable.fr/ressources/histoire/etude-de-cas/la-bataille-de-marathon/4866>
- 21) <https://www.histoire-du-monde.fr/antiquite/moyen-orient-antique/empire-perse/>

- 22) <https://www.bing.com/images/search?view=detailV2&ccid=X1JuBg cF&id=6A00605A6C205FE4F270F16670BDB95540F7135B&thid=OI P.X1JuBg cFH6k4Et4gWYzyOQEsDB&q=La+gr%c3%a8ce+antique& simid=608021015544661248&selectedindex=72&mode=overlay&first =1>
- 23) <https://www.ancient.eu/thermopylae/>
- 24) <https://publications-prairial.fr/frontiere-s/index.php?id=286>
- 25) [https://fr.wikipedia.org/wiki/Deuxi%C3%A8me_guerre_punique#/m edia/Fichier:Iberia_237-206BC-fr.svg](https://fr.wikipedia.org/wiki/Deuxi%C3%A8me_guerre_punique#/media/Fichier:Iberia_237-206BC-fr.svg)
- 26) <https://www.marefa.org/images/0/0e/Italy-2.jpg>
- 27) <https://www.actualitix.com/wp-content/uploads/2017/03/carte-relief-italie.jpg>
- 28) <https://www.actualitix.com/carte-italie.html>
- 29) https://sites.google.com/site/navigationdanslantiquite/_/rsrc/1266340468166/oceans-et-mers-concernees-dans-la-navigation-antique/la-mer-mediterranee/l-empire-romain-et-l-etrurie/carte%20italie%20antique.jpg
- 30) [https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/7/79/Italy_relief_l ocation_map.jpg?uselang=fr](https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/7/79/Italy_relief_location_map.jpg?uselang=fr)
- 31) [https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Italy_relief_location_map.j pg?uselang=fr](https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Italy_relief_location_map.jpg?uselang=fr)
- 32) https://encysco.blogspot.com/2013/11/5_30.html
- 33) http://www.pheniciens.com/cartes/expansion_carte.php?lang=ar
- 34) [https://fr.wikipedia.org/wiki/Civilisation_carthaginoise#/media/Fichi er:Carthage.svg](https://fr.wikipedia.org/wiki/Civilisation_carthaginoise#/media/Fichier:Carthage.svg)
- 35) [https://fr.wikipedia.org/wiki/H%C3%A9rodote#/media/Fichier:Hero dotus_Massimo_Inv124478.jpg](https://fr.wikipedia.org/wiki/H%C3%A9rodote#/media/Fichier:Herodotus_Massimo_Inv124478.jpg)
- 36) http://antikforever.com/Perse/Achemenides/darius_I.htm
- 37) [https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Column_Capital_in_the_F orm_of_a_Man-Bull,_Iran,_Persepolis,_Tripylon,_Achaemenid_Period,_reign_of_Xerx es,_586-465_BC,_restored_limestone_- _Oriental_Institute_Museum,_University_of_Chicago_- _DSC07937.JPG](https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Column_Capital_in_the_Form_of_a_Man-Bull,_Iran,_Persepolis,_Tripylon,_Achaemenid_Period,_reign_of_Xerxes,_586-465_BC,_restored_limestone_-_Oriental_Institute_Museum,_University_of_Chicago_-_DSC07937.JPG)
- 38) <https://www.freepng.fr/png-krmpnv/>
- 39) [https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/8/87/Beeld%2C_T hemistocles_- _Unknown_- _20408396_- _RCE.jpg](https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/8/87/Beeld%2C_Themistocles_-_Unknown_-_20408396_-_RCE.jpg)

- 40) [https://fr.wikipedia.org/wiki/Pausanias_\(g%C3%A9n%C3%A9ral\)#/media/Fichier:Pausanias_in_the_Capitoline_Museums,_Rome.jpg](https://fr.wikipedia.org/wiki/Pausanias_(g%C3%A9n%C3%A9ral)#/media/Fichier:Pausanias_in_the_Capitoline_Museums,_Rome.jpg)
- 41) <https://dissolve.com/stock-photo/Hamilcar-Barca-Barcas-275-228-Carthaginian-general-rights-managed-image/102-D869-103-802>
- 42) https://fr.wikipedia.org/wiki/Fichier:Mommsen_p265.jpg
- 43) <https://i.pinimg.com/564x/c0/d2/3e/c0d23eaec6623e6cd511e66e201eec93.jpg>
- 44) http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php
- 45) http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php
- 46) http://www.navistory.com/antiquite/flotte_carthage.php
- 47) http://www.navistory.com/pages/antiquite/quadrireme_quinquereme.htm
- 48) <https://www.pinterest.fr/pin/592293788469821812/>

الفهارس العامة

1- فهرس الأعلام

2- فهرس الأماكن والبلدان

3- فهرس المحتويات

1- فهرس الأعلام:

اسم العلم	رقم الصفحة
أ	
أبيس	390
أبيوس كلاوديوس	462-456-454
الأتروسك	385-376-293-291
أجريس هيراكاليا	333
أخيميناس	223-204-148-74
أديمونت	180-179
أذربعل	476-474-473-376
آراثوشينز	16
آرام	42
أرتبان	540-172-142-140-130-129
أرتوبرازان	125
أرستوغراس	112-111-110
أرسطو	293-278-277-276-275-274-273-258
أرطافارن	113-110
أركاغاتوس	375-374-372-365
أركيتيلاس	180-179
أرياس	22
أريستيد بن ليزمك	248-247-245-242-241-221-207-152
أسكريون	374
الأشوريون	145-74-70-69-68-67-32-23-21
أغاتوكليس	-361-360-359-358-357-353-352-351 -370-369-368-367-366-365-364-363

382-380-379-377-376-375-373-372-371	
208-71	آليات
285	إليمس
21	أمدادي
346	أملكار
108	أميتاس الأول
225-224	أمينياس
429	أناجينا
404	أنخيز
416-407	أنكوس ماركيوس
361-138	أنطوندر
494-493	أوتاريت
604-138-92-85-84	أوتاناس
399-341	الأوسك
399	الأوسون
119	أوفورب
545-371-370	أوفيلاس
373	أوماخوس
128	أوناماركيت
327	أونتيللا
45	إبيوفوتوس
607	إيتامثراس
503	إيستولاتيوس
273	إيسوقراط
396	الآيكي-الهرييني

إيليسا أو عليسة	532-267-266
إيليمار	368
إينياس	404-403-400
ب	
باريس	27
بروتوس	420-418
بروتياز	69
بريام	549-45-535
بساماتيك	70
بستار	469-166
البستيتاني	503
بطليموس	476
بطليموس الثاني	483
بلاتون	697-333
بلايتاركوس	235
بندار	307-185
بورسينا	428-427
بوزنياس	-240-239-238-237-236-235-48-45-34 -57-249-247-246-245-244-243-242-241 .597
بوملكار الممارتيون	366-365-364
البوبي	443
بيتوس	135
بيتون إرييتا	328
بيركليز	123

بيروس	294-383-384-385-445-446-447-448- 449-450-451-533-514-545
بيزاستراتوس	103-105-211
بيغماليون	262-263-246-271
البيكنس السكتنس	398
بيليفرون	39-42
ت	
تارجيتايوس	37
تاركينوس بريسكوس	407
تاركينيوس سوبوبوس	408-416-427-428
تراسيول	309-310
تواتون	382
توتاموس	45
التورس	90
تولوس هوستيليوس	407
تيتزامناس	148
تيراستياداس	195
تيريلليوس	299-301
تيمايوس هيلكون	266-267-268-343
تيميستور	225
تيميستوكل	152-41-155-156-158-160-164-168-169- 175-178-179-180-181-182-202-213- 215-218-219-220-221-223-224-225- 227-229-232-250-540-596-642
تيوموستور	249
ج	

جايوس تيرنتيوس	520
جلبار شاتل بيكار	503
جورج فيث	455
جونون	263
الجيتول	262
جيرجريس بن أريز	145
جيسكون	496-494-493-487-486-348-347-272
جيلون	-300-299-297-296-163-162-161-157 -308-307-306-305-304-303-302-301 544-543-542-351
ثيرون	542-305-303-302-300-299-296
ح	
حنبل الرودوسي	473
حنبل بن جيكسون	316-313
حنبل بن هاميلكار	473
حنبل بن حنون	317
حنبل برقة	599-549-547
حنون الرب	485-475
حنون القبطان	343-342-341
حنون بن حنبل	461
د	
داتيس	603-146-129-118-117
داريوس (الأول)	-92-91-90-89-88—87-86-85-37-36-23 -118-117-116-115-110-109-107-105 -130-129-128-127-126-125-123-119

139-142-143-149-150159-199-223-230-590-542-539	
254	داريوس الثاني
442	دوريس السموسي
312	دوكيتوس
174	الدولوب
114-310-320-321-322-323-324-325-326-327-328-329-330-331-332-333-334-335-336-337-339-350-543	دونيس الأكبر
339-340-343	دونيس الابن
67-68	ديجوساس
318-321	ديكسيب
126-149-150-190-191-203-204-346	ديمارات
307-332-362	ديمتر وكوري
368-379	دينوكرات
339-340-379	ديون إكنوموس
ر	
408	الرامنس-اللوكريس
398-410	رومولوس
ز	
91-146	زوبير
52-64-439	زيوس
س	
396-449-643	السايلي
71	ساديات
272	سافو

67	سرجون الثاني
407	سرفيلوس توليوس
130-70-38-37-36	السكيثيون
168	سكيلياس
516-514	تيبيريوس سمبرونيوس
516	سميردونيوس
382	سوسيتراتوس
103-102	سولون
71-70-69	سياغزار أو سياقزار
530	بروسياس
472	سيرويلوس كايو
282	سيفاقس
399-345-333-327	السيكان
399-345-333-332-330-328-314-312-297	السيكول
132	سيمونيد
ش	
112	شاروبينوس
67	شاروكين
429	شيشرون
ص	
510	صدروبعل
ع	
614-607-146-145-86-81-68-62	العرب
293	عشتار
263-262	عشر باص

272-270	عملقار
غ	
-436-434-433-432-398-376-334-282 -512-515-508-458-446-445-442-441 643-548-522-520-517	الغالين
533	غولوسة
ف	
81	فارناس
511	الفاكايي
180	فانياس
76-74-69-68	فراورت
404	فستا
396	الفستيني
518-517	فلامينيوس
506	الفوتون
433-429-418	الفولسك
120	فيديبيداس
85	فيديم
119	فيلاغروس
454	فيلينوس
498	الفينيت-الرايتي
381	فينيتياس
-262-261-258-226-225-223-134-82-80 326-299-290-298-286-285-279-269	الفينيقين
ق	
-293-291-288-272-267-266-260-136	القرطاجيون

-311-310-307-302-301-300-299-295 -323-322-321-319-318-316-315-314 -350-347-346-343-341-336-330-327 -374-372-370-366-365-362-360-356 -459-456-451-384-383-381-380-378 -479-478-475-474-472-470-469-466 -532-531-513-505-501-498-494-489 547-546-545-544	
-85-84-80-79-78-77-76-75-74-72-71 142-125-88-87-86	قورش
ك	
428	كاستور وبولوكس
458	كانتوس فيرولوس
439	كاپوس بونتپوس
472	كاپوس سامپرونيوس باليزو
426	كاپوس كينوليوس
77	كروسوس
-133-132-131-130-129-127-126-125 -141-140-139-138-137-136-135-134 -152-150-149-148-146-145-143-142 -170-169-161-159-158-157-156-155 -185-184-180-179-178-174-173-172 -198-197-195-194-192-191-190-187 -207-206-205-204-203-202-200-199 -217-216-215-214-212-211-210-207 -229-228-227-223-222-220-219-218	كزاركسيس

232-230-233-234-235-237-240-241-248- 302-539-540-541-542	
496	كسانتيب
454	الكلاودين
282-365-398-332-473-507	الكلتيون
474	كلوديوس بوشر
523	كلوديوس نيرون
105-153	كليستينيس
235	كليومبروتوس
296	كليوندر
444	كورنيليوس دولابيل
463-464-465-534-514	كورنيليوس سيكييو
505	كورنيليوس نيبوس
407	كوپرينوس
ل	
302	ليوفرون
163-186-187-188-189-190-191-193- 194-195-196-198-199-202-203-205- 217-247-541	ليونيداس
403	لافينيا
203-217-225-245-246-247-248	اللاكيدومينين
323	لاوميدون
327-328-329-336-331-332-336-375	لبتين
479-484	لوتايتوس كاتولوس
443	لوكيوس بوستيميوس

466	لوکیوس مانیلیوس فولسو
458	لوکیوس میغالوس
536	لوکیوس میمیوس
418	لوکیوس یانوس
37	لیوکسایس
384-396	الیغوریون
102	لیکورجوس
333-313-290	الیمین
252-251-250	لیوتکیداس
م	
497-496-495-491-489-488-487	ماتوس
612	ماردونتاس
-170-145-129-128-127-126-117-116 -234-233-232-231-229-228-215-214 -242-241-240-239-238-237-236-235 542-247-248-246-245-244-243	ماردونیوس
519-401	المارسیین-فوسنیا
527	مارکوس بروکیوس کاتو
523	مارکوس لیفیوس
470-469-468-466	مارکوس اتولیوس ریغولوس
503	الماستیین
145	ماسیست بن

	داريوس
533-529-528-525	ماسينيسا
174	الماغنات
-332-330-316-315-313-290-272-271 543-345-344-343-336-335-333	ماغون
265	الماكسيثان
545-348-343	ماماركوس
381-380	مانون
457	مانيوس فاليريوس
457	ماينوس أوتاكيلوس كراسوس
533	مستبعل أو مستتبعل
489-263-262	ملقرت
-643-546-461-454-453-452-384-383 .597	الممارتيون
262	موتو اوماتان
262-261	المور
399	المورجات والإيطال
446	المولوس
-77-76-75-71-70-69-68-67-23-22-21 -541-239-234-193-192-146-145-89-88 613-612-606-605-604	الميد
148	ميربال بن أغبال
223-111-110	ميغابات
223-170-146-110-109	ميغابيز
533	ميكيسبا

539-90	ميليتياد
ن	
69	نابوبولا سار
493	نافاراس
417-407	نومابو ميبليوس
404	نوميتور و أموليوس
-468-460-316-401-283-282-262-261 -525-515-498-495-487-485-475-473 619-533-529-528	النوميد
47	نيلوس بن كودروس
489	نيمي
هـ	
512-508-505-502-500-497-493-491	هاميلكا برقه
364	هاميلكار بن حنون
441-433-395	الهرنيكي
529-518-540-532	هسدروبل
265	هيارباس
105	هيارخوس
297-296	هيبوكرات
123-121-119-112-107-105	هيبياس
222-223-489-62-49	هيراقليس
112	هيرموفونت
-457-456-453-452-385-384-309-297 643-546-494-481-458	هيرون
110-109	هيسيتاتوس
382-381-348-345-344-343-342-341	هيكيتاس

311-319-320-322-323-327-328-329- 330-331-332-473-474	هيملكون
ي	
398	اليابيجي-الداوني

2- فهرس الأماكن والبلدان:

اسم المكان والبلد	رقم الصفحة
أ	
الأبروز	390
أبيدوس	540-144-139-137-89
اتارني	138
أتروريا	-436-430-417-402-398-397-390-97 451-418-417-443-441
أتيكا	-206-202-184-154-119-63-53-52-47 248-229-222-214-211-210
أثينا	-425-339-316-315-312-307-254-248 541-540-539-538
أثيوبيا	83-82
أحمس الثاني	81-80
أخارنانيا	197-56-51
آخيا	445-209-186-185-168-52
آخيوس	64
أديس أودنا	469-468
أراخوس	78
أراكوزيا	87
أربايا	439
أرتيميسيوم	-199-192-185-184-180-178-177-175 514-251-222-214-203
أرجوليس	595-56-52-47
أرساموتا	26

186-54-52-48	أركاديا
217-160	الأركاديين
86-85-70-68-39-26-24	أرمينيا
517-397-396-391	الآرنو
516	أرمينيوم
36-34-32	إزمير
-508-504-503-502-316-314-311-24 549	إسبانيا
528	إسبانيا البعيدة
528	إسبانيا القريبة
541-354-276-102-99-94-81-52-49	أسبرطة
445-398	استريا
445-209-186-185-168-52	آخيا
53	أستيالي
138	أطراميسيون
73-72	أغرادات
-103-101-99-98-97-96-94-93-83-81 -125-124-121-116-115-109-108-104 134-133-132-131-130-129-128	الإغريق
307	أغورا
ب-ح-88-259-269-274-283-284-294 -384-378-376-368-360-359-328-311 -513-505-498-489-487-479-468-466 618-525	إفريقيا
424-417	الأفتين
307	أكراجاس

508-504	أكرالوكي
233-232-155-123	الإكليزيا
367-357-355	إكنوموس
417-416-405-404	ألبالونجا
395	الألبين-البونتين
511	ألتايا كارتالا
81-80	أماسيس
40-26-24	الأمانوس
26	الأمانيد
164	أمباركيا
395	الأمبرون غروستو
224	أمبيلافي
53	أمورغوس
أ-25-28-30-32-33-34-556	الأناضول
508-504	الاندلس
27	أنقرة
398	أنكون
371	أوتومالا
-492-490-489-371-286-265-260-258 525-498-497-494	أوتيكا
-129-128-126-125-116-60-59-51-50 540-526-393-389-143-141-132	اوربا
344-324	أورتيجي
448	الأوفيد أوسكولوم
324	الإيببول

447-445-383-60-55-51	إيبيروس
138-26	إيدا
554-538-22-21-20-19-18-17-16-15	إيران
460	إيرباس-تورس
119-117-48	إيريتري
449	آيسيرنيا
-455-454-451-450-449-119-117-48 -513-511-509-488-481-479-476-468 525-524-523-520-517-514	إيطاليا
113-48-47	إيفاز
53	إيكاريا
505	إيلش ديسيرا
46	إيلي
64-63	أبولس
177-47-46	أبوليا
-108-89-86-81-63-47-45-35-34-31 333-331-253-250-142-116-115-111	أيونيا
ب	
86-77	بارثيا
83-79	بارديا
123-54-53-22	باروس
88	بازارغاد
177	باغازي
78	باكتريا
113	الباكتول

52	باكسوس
481-471-465-302-301-257	باليرمو
527-524-523-390-389-388	البحر الأدرياتيكي
ب-ج-16-24-25-28-29-30-31-32-34- 35-36-37-38-39-40-50-59-62-77-90- 94-96-98-100-107-108-109	البحر الأسود
456-388-52	البحر الأيوني
ج-د-ه-و-17-24-25-30-50-51-58-60- 78-80-94-95-98-100-109-257-258- 259-269-287-289-291-308-382-387- 388-402-449-451-500-502-526-538	البحر المتوسط
465	البحر التيراني
393-241-109-92	بحر إيجة
ب-15-16-18-36-60-78	بحر قزوين
107-90-89-44-35-31-29-24	بحر مرمرة
27	بروسا
89	بروكوناز
391	بروندزيوم
48	بريان
447	برينسيت
224	بستاليا
53	بسيرا
491	بغردا
402	البلاتين
169	بلاد البيرهابس
86-85	بلاد السوس

79-78	بلاد بابل
60-55-50	البلقان
254-41-30	بمفيليا
261	البونيين
92-90-89-58-43	البوسفور
81	بوليكرات
391	بومبي فيزوف
147-33-27	البونت
471-172	بيترا
222	بيتريتس
134-92	بيرنت
447	بيريس أناغني
114-92-90-89	بيزانس
390	بيكينيوم
331-219-217-216-204-62-61-59	البيلوبونير
175-174-173-172-168	بيني
533-378-371-259	بنزرت
-465-345-329-328-302-301-295-257 481	بانورموس
ت	
286	تابسوس-ميغارا إيبيليا
398	تاركويني
295	تراباني
ب-43-55-60-90-91-92-109-110-114- 127-134-137-143-144-150-153-170	تراقيا

542-254	
412	تريونا
32-31	رييزوند
-127-64-63-60-59-58-56-55-51-46 -190-185-178-170-169-168-163-128 447-232-229	تساليا
-273-269-267-262-261-260-259-258 -462-491-489-486-468-276-275-274 497-496-295	تونس - مجردة
391	التير - كبوا
569	تيرماي
-191-190-189-188-186-181-169-164 -206-205-204-202-200-197-194-193 569-541	تيرمويل
302	تيرميني
75	تيگران
396	تيقينوس
363	تيناس البيضاء
364-232	تيناس
53	تينوس
48	تيوس
445	توريوم
ج	
-517-437-436-399-396-394-390-389 524	جبال الإبنين
495	جبال الحديد

209-205	جبل بارناس
477	جبل هيريكتي
137-134	جبيل
472-466	جربة لتوفاج
478	جزر إيغات
18	جورجيا
506	الجوکار تولاد
18	جيدروزيا
-318-312-307-299-297-296-286-97 358-357-355-354-334-322-321	جيلا
خ	
184-181-175-164-97	خالکيس
20-18	خراسان
189	خليج المالياک
64-53	خيوس
د	
86	دراجيانا
139	دردانوس
15	دردانيا
169-143-137-133-114	الدردينيل
18	دشتي کوبر
18	دشتي لوط
210-207-205-196-167-162-160-52	دلفي
150-149-147-143	دورسيك
64	دوروس

205-49	دوريد
236	ديسيللي
170	ديكيا
254-253-249-118-53	ديلوس
36-346-191	ديمارتوس ميسوا
172	ديوم
ر	
362	رادس
503	رأس بالوس
139	رايتيوم
81-49	رودس
509	رودي - روساس
22-19	روسيا
359	روغولوس
548-514-513-289	الرون
449-390	الريبيكون
429	ريجيلوس
-450-449-445-334-325-324-323-103 453-452-451	ريجيوم
53	ريني
ز	
52	زاكينتوس
548-527-526-524	زاما
22-21-17-أ	زجروس
286	زنكلي

س	
87	ساتاجيديا
136	ساردس
547-512-511-509	ساغونته أو ساغنتوم
511	سالامونك
449-442-440-438	سامنيوم
109-53	ساموتراس
هـ-508-505-501-500-328-294-258- 579-528-512	سان أنتوخو - إيبيريا
-292	بىرجي
171-170-134-109	ستريمون
80-69-38-36	سكيتيا
ط-ي-207-206-202-182-176-154-152- 216-213-212-210-208	سلامين
91-86-85-84-79	سمرديس
78	سمرقند
46	سميرن
439	سنتاماريا أفيكو
78	سوجديانا
533-496-367-259-111-90-32	سوسة
498-258	سولكيس
286-285	سولويس
97	سيباريس
248-243-236	سيثيرون
458-329-328-313-312-311	سيجسته

105	سيجيوم
286	سيراكوز
78	سپرداريا
165	سيرفو
52	سيريقو
52	سيفالونيا
165	سيفانت
206	سيفيز
522	سيكيو الإفريقي
359	سيكيو إميليانوس
285-257	موتيا
38	سيميريا
89	سينريك
387	سيناغليا
543-376-323-318-314-312-301-286-257	سيلينونت
ش	
439	شعاب كودين
ط	
-63-58-53-49-46-45-41-34-27-26 549-404-403-139-138-130	طروادة
44-42-41-39-34-32-26-25-17	طوروس
283-244-240-205-196-168-159-131-52	طيبة
غ	
27	غالاتيا
508-441-431	غالة القرية

514-513-398-301-هـ	غالة-ليغوريا
362-342	غاليريا -داغلا
173-169	غونوس
ف	
229-226-216-214-206-205-154-123	فالير
447-440-438	فرجلاي ليريس
518-514-392-388-311-119-35-24	فرنسا
398	فوتولونيا
47	فوسيه
206-205	فوسيد
27	فونيكس
432-430-416-399	فياي- بازليكات
417-416	فيدناس
394	فيلانوف- بولونيا
447	فينوسيا
489-267-95-80-41-ب	فينيقيا
302	فيوم الكبير
ق	
503-501-258-257	قاس-ملقة-سكسي
263-177-148-114-80-34	قبرص
156-153	قبيلة ليونتيدي
508	قرط حدشت
508	قرطاجة الجديدة
508	قرطاجة أو قرطاج
46	قرينيوم

83	قلعة دورجينارتي
545-489-371-370-98-92-82-81	قورينة
ك	
362-337-336	كابالا مقالع الحجر
433	الكابيتول
-135-114-81-53-49-48-47-45-44-27 254-231-177-153-148	كاريا
297	كازمان
485	الكاف
444-399-398-391-390	كالابريا
135	كالاتيوس
53	كاليكيديكيا
49	كاميروس
522-519-515-514	كاناي تيكينوس
-86-77-71-40-39-33-32-28-27-26 135	كبادوكيا
26	كتاونيا
27	كراكوس
322-68-15	كرمانيا
388	كرواتيا-سلوفينيا
447-445-334-165-97	كروتون
193-160-157-97-93-59-58-55-53	كريت
135	كريطال
346	كريميسوس
48	كلازومان

112	کلیومیناس
297	کمارین ایلبا
49	کنیدوس
86	کورازمیا
ب-ھ-258-290-291-293-388-400-465-512-500	کورسیکا - سردینیا
162-161-160-157-59-52	کورکیرا
311	الکورنوال - غینیا
-186-177-169-168-137-93-58-52-51-385-341-339-221-217-213-206-189-541-536-528	کورینٹہ
35-26	کوماننا
476-137-136-97-47-46	کومی
452	کیاموسوروس
90	کیرسونوسوس
468-362	کیرکوان
42-41-40-35-26-24	کیلکیا
193-177	کیم
53	کینتوس
224-222	کینوزور
-180-176-164-147-115-89-53-48-47-307-253-220-208	کیوس
-447-440-438-437-436-399-391-291-530-521-519	کمبانا
ل	
114	لابروندا

27	لاتموس
114	لا دي
404	لا فينيوم
274-162-52-45	لاكونيا
496	لبتيس مينور
49	لندوس
440	لوتولاي أيتوس
155	لوريوم
164	لوكاد
52	لوكاس
334-310-46	لوكريس
447	لوكري كروتون
143-140	لوكيريا سورا
329	بيلوريس
-372-356-333-316-266-133-96-82-17 487	ليبيا
48	ليبيدوس
-112-110-107-85-81-71-48-34-27 566-538-397-229-135-119	ليديا
49	ليسوس
42-39-27	ليسيا
258	ليكسوس-العرايش
-428-427-417-407-402-400-396-391 436-433-430	اللاتيوم
496-259	لبتيس

384	ليليلي
م	
398-393	ماجيجوري-جاردا
292-192-154-152-126	ماراثون
78	مارجيانا
296-295	مارسالا-إيلوروس
78	ماركاندا
170	مارونيا
173	مازيستاس
423-79-38	ماسا
509	ماساليا
509-311-289-98	مرسليا
78	المساجاتس
أ-86-85-84-83-82-81-80-78-70-45- 539-476-308-125-98-96	مصر
504	مصر البلطمية
172-169-168	مضيق تومي
462-456-451-450-388-182	مضيق ميسينا
208-160	معبد أبولون
477	معبد أفروديت
154	معبد ديانا اريستوبول
113	معبد سيال
248-246-244-243	معبد هيرا
46	مغيزي
ب-549-536-535-533-527-449-447-169-	مقدونيا

362	مقصولة
252-125-80	مملكة الفرس
468	منزل تميم-كوريا
495	المنزل موسى
197-186-93-62	موكيناى
110	مولباجوراس
72-71	موندان
525-524-523	ميتاروس
72	مشرادات
114	ميرسين
109	ميركيانوس
46	ميرين
503	ميسيتا
هـ-358-355-354-353-324-323-302- -481-462-456-453-450-388-384-382 546	ميسينا-ألبا
-255-253-251-250-249-48-47-45 577-542	ميكال ميكالي
53	ميكونوس
172	ميلونة
98-48-47	ميلي
98	ميلي او ميليتوس
458	هاليسي
81-33-26	ميليتان
202	مينوشي

48-47	ميونت
44-43	ميونيا
ن	
523-438-400-398-97	نابولي
499	بايسيتوم
54-388	النمسا - سويسرا
547-511-508-143	نهر الإيبرو
504	نهر الباييتيس
524	نهر ميتاروس
498-258	نورا - سولكيس
307	تيشي
80	نيخاو
ه	
-135-113-77-76-71-69-40-39-29-28	هاليس
543-349-337	الهاليكوس
368-367-259	هدروميت
72	هرباقوس
23-22-21-19	الهند
63-62	الحوارية
494-371	هيبو أكرا
259	هيبوديراتيوس
373	هيبوريحيوس
113-46-32	الهيرموس
511	هيرموندیکا
163	هيستاوتيد

الفهارس

230-229-228	ا اهيلسوبونت
505	هيلكي
-302-301-299-295-286-282-269-97 349-319-312-311-309	هيميرا
500-476-371-362-355-349	هيميراس الرأس الطيب
259	هيبو
و	
506	وادي تاج
503	وادي غادا لكينفير
ي	
451-444-159-135-97	اليونان الكبرى

3- فهرس المحتويات

رقم الصفحة	العنوان
أ	مقدمة
	الباب الأول: الصراع الدولي في شرقي المتوسط
	الفصل الأول : الدراسة الطبيعية والبشرية للمناطق المعنية بالصراع
15	I- دراسة جغرافية وبشرية لبلاد فارس
15	1- الدراسة الطبيعية
21	2- الدراسة البشرية
24	II- آسيا الصغرى الدراسة الطبيعية والبشرية
24	1- الدراسة الطبيعية
36	2- الدراسة البشرية
50	III- شبه جزيرة اليونان: الدراسة الطبيعية والبشرية
50	1- الدراسة الطبيعية
58	2- الدراسة البشرية
	الفصل الثاني: التطور السياسي للدول أطراف الصراع
67	I- لمحة تاريخية عن التطور السياسي لبلاد إيران قبل اندلاع الحرب الميدية
67	1- دولة الميد 710-550 ق.م
77	2- دولة الفرس بزعامة الأسرة الأخمينية
85	3- دولة الفرس في عهد الملك داريوس الأول 522-486 ق.م
93	II- أوضاع بلاد الإغريق قبل اندلاع الصراع الفارسي الإغريقي
93	1- المدن الدول اليونانية خلال العصر الهيليني
99	2- تطور نظام الحكم في بلاد الإغريق قبل اندلاع الصراع الفارسي الإغريقي
	الفصل الثالث : بدايات الصراع بين الفرس والأغريق
107	I- الحرب الميدية الأولى 490 ق.م

107	1- ثورة المدن الأيونية بزعمامة ميليتوس (Milet)
114	2- إخماد الثورة وسقوط ميليتوس
117	3- معركة المراثون (Marathon) (490 ق.م)
125	II- الحرب الميدية الثانية 479-480 ق.م
125	1- وفاة داريوس واعتلاء كزاركسيس (Xerxès) عرش مملكة الفرس
130	2- كزاركسيس يباشر التحضيرات لحرب الإغريق
135	3- تحرك جيش الفرس نحو بلاد اليونان
الفصل الرابع: الاستعداد للحرب في بلاد اليونان وبداية المواجهات مع الفرس	
152	I- التحضيرات للحرب في بلاد اليونان
152	1- الاستعدادات في مدينة أثينا بإشراف القائد تيميستوكل (Themistocle)
157	2- مؤتمر كورينثة الأول 480 ق.م والثاني 481 ق.م
164	3- حشد القوات ووضع الخطط النهائية لمواجهة الفرس
170	II- بداية المواجهات الحربية في بلاد اليونان
170	1- معركة أرتيميسيوم البحرية (Artimisiun)
185	2- معركة تيرموپيل (Thermopyles)
الفصل الخامس : المعارك الحاسمة بين الفرس والاعريق ونهاية المواجهات	
202	I- معركة سلامين (Salamine) 480 ق.م
202	1- غزو كزاركسيس لإقليم أتيكا واحتلال أثينا
210	2- تجمع الإغريق في خليج سلامين واستدراج الفرس إليه
220	3- تحرك الفرس نحو سلامين ووقوع الاشتباك الحاسم
232	II- معركة بلاتيا (Platéés)
232	1- محاولة ماردونيوس أستماله الأثينيين
235	2- رفض الأثينيين التخلي عن الحرب وبداية الاشتباكات
243	3- انسحاب الإغريق نحو معبد هيرا (Héra) ووقوع الالتحام الحاسم
249	III- معركة ميكالي (Mycalé)

الباب الثاني: صراع الدول الكبرى في غرب المتوسط	
الفصل الأول: القرطاجيون والإغريق في غرب المتوسط	
257	I- التطور السياسي للوجود القرطاجي في شمال افريقيا
257	1- الوجود الفينيقي في غرب المتوسط
259	2- قرطاجة الموقع الجغرافي والتأسيس
269	II- النظم السياسية القرطاجية من التأسيس إلى بداية الحروب البونية
279	III - الجيش القرطاجي
285	IV- الفنيقيون والإغريق في صقلية "بدايات التواجد وأسباب الصراع"
الفصل الثاني : الحروب الإغريقية القرطاجية	
299	I- اندلاع الصراع القرطاجي السيراكوزي
299	1 - معركة هيميرا (La bataille D'Himère)
309	2- تجدد الصراع بين قرطاجة وسيراكوز أواخر القرن الخامس ق.م.
316	3- الصراع المباشر بين وقرطاج و سيراكوز في صقلية
320	II- حرب البونيين ضد ودونيس
320	1 - سياسة دونيس تجاه إريق صقلية
325	2- دونيس يعلن الحرب على القرطاجيين-الاستيلاء على موتيي-
328	3- حصار سيجيستته وحشد القرطاجيين لحرب سيراكوز
332	III- سياسة ماغون القرطاجي ضد مشاريع دونيس التوسعية
332	1 - تحالف البونيين مع الإيطاليوت
335	2- معارك كابالا وغرونيوم وانتهاء الصراع ضد دونيس
الفصل الثالث : حروب القرطاجيين ضد تيموليون وأغاتوكليس	
339	I- حروب قرطاج ضد تيموليون (Timoléon)
339	1- ظروف تولي تيموليون الحكم في سيراكوز
345	2- تحرك تيموليون نحو مناطق النفوذ القرطاجي وبداية الصدام معهم
351	II- الحروب القرطاجية ضد اغاتو كليس (Agathocle de Syracuse)

351	1- ظهور شخصية أغاتوكليس في سيراكوز وبداية حربه ضد القرطاجيين
359	2- أغاتوكليس ينقل الحرب إلى إفريقيا
373	III- عودة أغاتوكليس إلى صقلية وبداية انتصارات البونيين في إفريقيا
373	1- تفرق القوات الإغريقية في إفريقيا واستعادة البونيين زمام المبادرة
376	2- عودة أغاتوكليس إلى إفريقيا وهزيمة قواته أمام القرطاجيين
380	3- جزيرة صقلية بعد غياب أغاتوكليس
الفصل الرابع: الدولة الرومانية : الجغرافيا، السكان والتطور السياسي	
387	I - شبه جزيرة إيطاليا الدراسة الطبيعية
387	1- الموقع الجغرافي
388	2- التضاريس
392	II - إيطاليا الدراسة البشرية
392	1- سكان إيطاليا خلال العصور البائدة
395	2- سكان شبه الجزيرة الإيطالية مع بداية القرن السادس ق.م
402	III- التطور السياسي لدولة الرومان
402	4- تأسيس روما من خلال الروايات التاريخية
407	5- روما خلال المرحلة الملكية: (753-509 ق.م)
418	6- قيام الجمهورية الرومانية 509 ق.م
الفصل الخامس: الصراع الروماني القرطاجي، ملابسات الاشتباك وبداية الحروب	
436	I- التوسع الروماني في وسط وجنوب إيطاليا
436	1- حروب الرومان ضد السمنيين والغالين
444	2- الحرب ضد اليونان الكبرى بزعماء تارنتوم
450	II- الصراع الروماني القرطاجي في صقلية
450	1- ظروف وملابسات اندلاع الحرب البونية الأولى
458	2- مجلس الشيوخ الروماني يتبنى الحرب ضد القرطاجيين
466	III- الرومان ينقلون الحرب إلى إفريقيا 256 ق.م

466	1- محاولة القناصل الرومان الاستيلاء على قرطاج وانتهاء الحرب
470	2- فشل الحملة الافريقية وعودة الحرب إلى صقلية 254 ق.م
477	3- بناء الرومان أسطول جديد وانتصارهم على القرطاجيين
	الفصل السادس: الحربان البونيتان الثانية والثالثة ونهاية الصراع في حوض المتوسط
483	I- فترة ما بين الحربين الأولى (218-241 ق.م)
483	1- تمرد المرتزقة والسكان الأفارقة على قرطاج
491	2- هاميلكار برقه يقود الحرب ضد المتمردين
500	II- البونيون في شبه جزيرة إيبيريا
500	1- توسعات هاميلكار برقة في جنوب شرق اسبانيا
506	2- صدورو بعل يخلف هاميلكار في قيادة الحملة القرطاجية في إسبانيا
511	III- الحرب البونية الثانية (218 - 201 ق.م)
511	1- ظروف اندلاع الحرب
514	2- انتصارات حنبعل في إيطاليا 216-218 ق.م
521	3- استعادة المبادرو من طرف الرومان ونهاية الحرب
527	IV- أحداث النصف الأول من القرن الثاني ق.م واندلاع الحرب البونية الثالثة
527	1- أوضاع منطقة غرب المتوسط قبل اندلاع الحرب البونية الثالثة
531	2- الحرب البونية الثالثة (149-146 ق.م) ونهاية الصراع
538	الخاتمة
552	الملاحق
616	قائمة المصادر والمراجع
628	الفهارس

الملخص

ملخص البحث

يتعلق الأمر في هذه الدراسة بموضوع الصراعات الدولية التي ظهرت في البحر المتوسط بين دول متوسطة أصلاً وأخرى شرقية تمثلت في الإمبراطورية الفارسية التي سعت لبسط نفوذها على أجزاء من الأرض الأوربية، بعد أن سيطرت على مناطق شاسعة من آسيا وحتى من إفريقيا. اندلع الصراع الأول بين الفرس والإغريق في الحوض الشرقي للمتوسط، وتم ذلك إثر ثورة للمدن الإغريقية على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، والتي ثارت لأسباب عديدة ضد الهيمنة الفارسية عليها. وبما أن بعض المدن في شبه جزيرة اليونان ساعدت تلك المدن الثائرة -والتي كان يطلق عليها تاريخياً المدن الأيونية- فإن بلاد اليونان برمتها أصبحت متورطة في إذكاء العصيان والتمرد ضد الفرس، ولذلك صار عقابها أمراً ضرورياً، وهو الأمر الذي دفع بالملك داريوس الأول (Darius I) إلى إرسال حملة تأديبية ضد أثينا كبرى مدن اليونان، إلا أن الحملة فشلت إثر هزيمة جيش الفرس في سهل المراثون (Marathon) 490 ق.م، وهو ما زاد من غضب وحنق الفرس على بلاد اليونان عامة ومدينة أثينا على وجه الخصوص .

وإذا كان الملك داريوس قد توفي قبل أن يثار لكرامة مملكته من أثينا فإن ابنه كزاركسيس (Xerxès) تكفل بمواصلة هذه المهمة، وقد حشد لذلك جيشاً وجمع أسطولا من جميع الأمم التي كانت منضوية تحت حكم الفرس في تلك الفترة، وقد بلغت المصادر التاريخية في وصف عديد محاربه ومن يرافقهم من عبيد وخدم وجياد ودواب وأمتعة ليصل عدده بحسب هيرودوت إلى ما يقارب الخمسة ملايين فرد. ورغم تلك القوة الساحقة التي حشدتها كزاركسيس، إلا أن الإغريق وعلى رأسهم الأثينيون والاسبرطيون وبحكم تمرسهم في فنون الحرب والقتال ومعرفتهم الجيدة للأرض وكذا خبرتهم في المعارك البحرية بحكم طبيعة بلادهم وقربها من البحر، استطاعوا استدراج جيش كزاركسيس إلى مضيق سلامين (Salamine) القريب من أثينا ومن ثم الإيقاع بعدد كبير من السفن الحربية الفارسية والفينيقية والمصرية ويلحقوا بالفرس هزيمة أخرى مدوية سنة 480 ق.م، وكان ذلك تحت قيادة أحد الأبطال الأثينيين وهو تيميستوكل (Thémistocle). لم تنته هزائم

الفرس عند هذا الحد، بل إن الإغريق ألحقوا هزيمة أخرى بجيش الفرس البري في واقعة عرفت بمعركة بلاتيا (Platées) 479 ق.م، ثم بما تبقى من أسطولهم البحري في معركة ميكالي (Mycale) في نفس السنة، ليبدأ الفرس بعد ذلك من أرض الإغريق وليوقعوا معاهدات مع اليونانيين تنهي الصراع بين الطرفين.

أما في الحوض الغربي للمتوسط فقد تحولت المنافسة التجارية إلى صراع مسلح في جزيرة صقلية بين أمتين بحريتين هما الإغريق المستوطنون في هذه الجزيرة والقرطاجيون الذين صارت لهم السيادة على عديد المدن في غرب الجزيرة، تلك السيادة التي ورثوها عن الفينيقين. كانت أشهر المعارك بين الطرفين هي معركة هيميرا التي وقعت سنة 480 ق.م ، حيث مني فيها القرطاجيون بهزيمة مهينة جعلتهم ينكفئون لزمّن على أنفسهم، ويغيروا على إثرها سياستهم بشكل مؤقت، ثم لتعود قرطاج بعد ذلك لمسرح الصراع من جديد وتثار لنفسها من سيراكوز (Syracuse) نهاية القرن الخامس ق.م، وليستمر الصراع محتدما بين المتنافسين على سيادة صقلية إلى غاية بداية القرن الثالث ق.م وينتهي في الأخير بنوع من التفوق للبولنيين القرطاجيين.

في تلك الفترة كانت روما قد تمكنت من بسط سيطرتها على كامل شبه الجزيرة الإيطالية وعلى جميع شعوبها من اللاتين والأتروسك والساييليين والغاليين... وحتى الإغريق ، لتجد نفسها مهينة لغزو أقرب جزيرة إلى أرضها خاصة بعد استنجد الممارتيين، الذين ينحدرون من أصول كمبانية إيطالية والمستقرين بمدينة ميسينا (Messina)، بها لنجدتهم من تحرشات هيرون ملك سيراكوز، ولتدخل منطقة غرب المتوسط في صراع جديد عرفت مراحلها تاريخيا باسم الحروب البونية (264-146 ق.م) ولتتمكن الجمهورية الرومانية في نهاية الأمر من سحق منافستها الدولة القرطاجية وتحطيم عاصمتها، ومن ثم بسط نفوذها على غربي المتوسط ثم على البحيرة المتوسطية بأسرها.

Résumé de la thèse de doctorat

Il s'agit dans cette étude de mettre l'accent sur la question des conflits internationaux apparus en Méditerranée entre les pays méditerranéens et aussi ceux de l'Orient, représentés par l'Empire perse, qui cherchait à étendre son influence sur des parties du territoire européen, après avoir contrôlé de vastes zones d'Asie et même d'Afrique. Le premier conflit a été éclaté entre les Perses et les Grecs dans le bassin oriental de la Méditerranée, ces événements qui avait eu lieu suite à une révolte des citées grecques sur la rive ouest de l'Asie Mineure, ces villes s'étaient révoltées pour de nombreuses raisons contre la domination perse sur elle.

Et comme certaines cités de la péninsule grecque avaient aidé ces villes rebelles - qui étaient historiquement appelées les villes ioniennes - tout le pays de la Grèce s'était alors impliqué dans la fomentation de la rébellion contre les Perses et donc sa punition est devenue nécessaire, ce qui avait incité le roi Darius Ier à envoyer une campagne disciplinaire contre Athènes, la plus grande ville de Grèce. Cette campagne avait échoué suite à la défaite de l'armée perse dans la plaine de Marathon 490 av J.C, ce qui avait augmenté la colère des Perses contre la Grèce en général, et Athènes en particulier.

Et si le roi Darius était mort avant d'avoir vengé la dignité de son royaume du fait d'Athènes, alors son fils Xerxès avait assuré la poursuite de cette mission, et pour cela il avait rassemblé une armée et une flotte de toutes les nations qui étaient sous le règne des Perses à cette époque. Dans ce contexte, on peut dire que les sources historiques avaient exagéré en décrivant cette masse humaine composée de guerriers et de ceux qui les accompagnaient: les esclaves, les serviteurs, les chevaux, les bêtes de transport ainsi que les bagages, dont le nombre, selon Hérodote, atteignait près de cinq millions d'individus.

Malgré cette puissance écrasante que Xerxès avait réunie, les Grecs, sous la direction des chefs Athéniens et Spartiates, en vertu de leur pratique des arts de la guerre et de la lutte, de leur bonne connaissance de la terre, ainsi que de leur expérience de batailles navales à la campagne de la mer, ils avaient réussi à attirer l'armée de Xerxès dans le détroit de Salamine près d'Athènes, où ils avait pu encerclé puis écrasé un grand nombre de navires de guerre persans, phéniciens et égyptiens, en infligeant aux Perses une autre défaite retentissante en 480 avant J.C, sous le commandement de l'un des héros athéniens, un certain Thémistocle. Les défaites des Perses ne s'étaient pas terminées à ce stade, car les Grecs avaient infligé une autre défaite à l'armée perse dans un incident connu sous le nom de la bataille de Platées 479 av J.C, puis avec le reste de leur flotte navale dans la bataille de Mycale, de sorte que les Perses avaient ensuite désespéré de pouvoir dominer la terre des Grecs en signant avec eux des traités mettant fin au conflit entre les deux parties.

Dans le bassin occidental de la Méditerranée, la compétition commerciale s'était transformée en une lutte armée sur l'île de Sicile entre deux nations maritimes: les Grecs s'installant dans cette île et les Carthaginois, qui avaient gagné la souveraineté sur de nombreuses villes de l'ouest de l'île, souveraineté qu'ils avaient héritée des Phéniciens. La bataille la plus célèbre entre les deux parties avait été la bataille d'Himère, qui avait eu lieu en 480 avant J.C, au cours de laquelle les Carthaginois avaient subi une défaite humiliante qui les avait fait se retirer pour un temps sur eux-mêmes, en changeant leur politique temporairement. Revenue sur les lieux du conflit à nouveau, Carthage s'était vengé de Syracuse à la fin du cinquième siècle avant J.C. La lutte avait continué à faire rage entre les deux prétendants à la suprématie de la Sicile jusqu'au début du III^{ème} siècle av.J.C, cette lutte qui s'était finie finalement par une sorte de supériorité des Carthaginois.

À cette époque, Rome avait pu étendre son contrôle sur toute la péninsule italienne en ayant la main haute sur tous ses peuples : Latins, Étrusques, , sabelliens, Gaulois ... et même les Grecs, pour se trouver prête à envahir l'île la plus proche de sa terre, surtout après avoir sollicité l'aide des Mamertins, descendants des origines campaniennes italiennes installés à Messine, pour les sauver du harcèlement du Roi Hiéron, roi de Syracuse. La région méditerranéenne occidentale s'était entrée dans un nouveau conflit dont les phases ont été historiquement connues sous le nom de guerres puniques (264-146 av.J.-C.) afin que la République romaine puisse enfin écraser son rival l'État carthaginois et détruire sa capitale, puis étendre son influence sur la Méditerranée occidentale puis sur tout le lac méditerranéen

Abstract of Doctorate Thesis.

In this study, we focused on the question of international conflicts that arose in the Mediterranean sea between the Mediterranean countries and the Eastern ones, represented by the Persian Empire, which sought to extend its influence over parts of European territory., after controlling large areas of Asia and even Africa. The first conflict broke out between the Persians and the Greeks in the eastern basin of the Mediterranean, these events which had taken place following a revolt of the Greek cities on the western shore of Asia Minor which revolted for many reasons against the Persian domination over it.

Since cities of the Greek peninsula had helped these rebellious cities - which were historically called the Ionian cities - the whole country of Greece was then involved in fomenting the rebellion against the Persians and therefore it must be punished, which prompted King Darius I to send a disciplinary campaign against Athens, Greece's largest city. This campaign had failed following the defeat of the Persian army in the Plain of Marathon 490 B.C, which increased the anger of the Persians against Greece in general, and Athens in particular.

The King Darius had died before having avenged the dignity of his kingdom for the deed of Athens but his son Xerxes had ensured the continuation of this mission .So he had assembled an army and a fleet of all nations who were under the reign of the Persians at that time. In this context, one can say that the historical sources had exaggerated in describing this human mass of warriors and those who accompanied them: slaves, servants, horses, transport animals as well as baggage, the number of which, according to Herodotus, reached nearly five million individuals.

Despite this overwhelming power that Xerxes had united, the Greeks, under the leadership of the Athenian and Spartan leaders, by virtue of their practice of the arts of war and struggle, their good knowledge of the land, as well as their experience of the naval battles in the sea campaign, they had succeeded in attracting the army of Xerxes into the Strait of Salamis near Athens, where they had been able to surround and then crushed a large number of Persian, Phoenician and Egyptian warships and inflicted another resounding defeat on the Persians in 480 B.C, under the command of one of the Athenian heroes, Themistocles. The defeats of the Persians had not ended at this point, the Greeks had inflicted another defeat on the Persian army in an incident known as the Battle of Plataea 479 B.C, also with the rest

of their fleet, in the Battle of Mycale in the same year, so that the Persians then despaired of being able to dominate the land of the Greeks by signing treaties with them that ended the conflict between the two sides.

In the western Mediterranean basin, commercial competition had turned into an armed struggle on the island of Sicily between two maritime nations: the Greeks settling in this island and the Carthaginians, who had gained sovereignty over many cities in the west of the island which they had inherited from the Phoenicians. The most famous battle between the two sides was the Battle of Himera, which took place in 480 BC, in which the Carthaginians suffered a humiliating defeat that caused them to retreat on themselves for a time and changed their policy temporarily. Then Returning to the scene of the conflict again , Carthage had taken revenge on Syracuse at the end of the fifth century B.C. The struggle continued to rage between the two contenders for the supremacy of Sicily until the beginning of the 3rd century B.C, this struggle which finally ended in a kind of superiority of the Carthaginians.

At that time, Rome had been able to extend its control over the entire Italian peninsula by having the upper hand over all its peoples: Latins, Etruscans, Sabellians, Gauls ... and even Greeks. Where they found themselves ready to invade the most close island to their land, especially after having requested the help of the Mamertines, descendants of Italian Campanian origins living in Messina, to save them from the harassment of King Hieron, King of Syracuse. The western Mediterranean region had entered a new conflict whose phases were historically known as the Punic Wars (264-146 B.C).

so that the Roman Republic could finally crush its rival the Carthaginian State and destroy its capital, then extend its influence on the western Mediterranean then on all the Mediterranean lake